

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
— قسنطينة —
معهد الدعوة وأصول الدين

الأسس النظرية لمنهج التغيير
عند
محمد البشير الإبراهيمي

أطروحة مقدمة
لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الفكر الإسلامي الحديث

إشراف الدكتور:
العربي كاجو

إعداد الباحث :
محمد زروماق

فهرس الموضوعات

01	مقدمة
02	أ- السيرة العامة في الجزائر (1930 - 1962)
38	ب- حب الشيع محمد الشير إبراهيمي وأعماله
	الباب الأول
62	أسس التغيير عند إبراهيمي
68	الفصل الأول الإطار الزمني ونوره في التغيير
98	الفصل الثاني الواقع الأساسي وأهميته في التغيير
121	الفصل الثالث الانفتاح الحضاري وضرورته في التغيير
148	الفصل الرابع الأساس مفتاح التغيير
	الباب الثاني
178	منهج التغيير عند إبراهيمي
179	الفصل الأول إطاره وخصائصه
213	الفصل الثاني مبادئه وشروطه
244	الفصل الثالث أهدافه وغاياته
275	الفصل الرابع وسائله وأساليبه
	الباب الثالث
304	مجالات التغيير عند إبراهيمي
305	الفصل الأول المجال الديني
358	الفصل الثاني المجال الثقافي والتربوي
433	الفصل الثالث المجال السياسي
517	الفصل الرابع المجال الاجتماعي
572	خاتمة
581	فهرس المصادر والمراجع
600	فهرس الموضوعات

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب ، وبعث الأنبياء والرسل، واصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين وسيد المرسلين، أحمدته تعالى وأستغفره وأتوب إليه، وأسئله الصديق في النية والقول والعمل. أما بعد ...

فقد شهد النصف الأول من القرن العشرين، ميلاد حركة تجديدية إسلامية في الجزائر، كان من أهدافها تغيير المجتمع الجزائري، ونشر الوعي الديني والسياسي والاجتماعي في أوساط الشعب، ومحاربة السياسة الاستعمارية التي كانت تعمل على تغريب المجتمع الجزائري، والقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية.

وقد استطاعت هذه الحركة التغييرية الجادة أن تؤثر كثيرا في مجريات الأحداث، وبخاصة بعد ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي عملت على تجميع الكفاءات العلمية، وتنظيم الجهود، وتوجيه الأعمال.

وفي إطار هذه الجمعية، تألق نجم الكثيرين من رواد التغيير الإسلامي الذين تركوا آثارهم العميقة في الحركة الوطنية في الجزائر، ومنهم الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ مبارك الميلي وغيرهم.

وإذا كان هؤلاء العلماء قد قاموا بواجبهم في تغيير المجتمع، ومحاربة مخططات الاستعمار الثقافية والاجتماعية والسياسية، فإن حقهم علينا مازال قائما، إلى أن نقوم بتعريف الأجيال بالأعمال الجليلة، والمبادئ العظيمة التي آمنوا بها، وضحوا في سبيلها بكل ما يملكون.

ومن هؤلاء الرواد المجددين الذين يستحقون اهتمام الدارسين، وعناية الباحثين الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي، نائب رئيس جمعية العلماء

المسلمين الجزائريين (1931 - 1940) ثم رئيسها بعد ابن باديس (1940 - 1956) ،
وعضو المجامع العلمية العربية بالقاهرة ودمشق وبغداد، وأحد رموز الإصلاح
الكبرى في الجزائر والعالم الإسلامي.

و الموضوع الذي اخترته لإعداد أطروحة دكتوراه الدولة في الفكر الإسلامي
الحديث، يدور حول الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الشيخ محمد البشير
الإبراهيمي. وهو موضوع يعالج - في نظرنا - جانبا هاما من الجوانب الكثيرة
و المتنوعة التي تزخر بها شخصية الإبراهيمي والذي مازال إلى حد الآن يعد جانبا
مجهولا في فكره، لم تتناوله بعد أقلام الدارسين والباحثين.

ومن أهم الأسباب التي دفعتني إلى التفكير في إعداد هذه الأطروحة عن
الإبراهيمي أذكر:

أولا : أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي علم بارز من أعلام النهضة
الإصلاحية، أسهم بقسط وافر في إرساء الأسس النظرية لحركة التغيير في
الجزائر، إذ أخذ على عاتقه مهمة تغيير المجتمع في كل جوانبه السياسية
، الاجتماعية والثقافية والدينية، بما كان ينشره من أفكار نيرة، أسهمت إلى حد
بعيد في تنوير الشعب الجزائري، وتحريره من قيود الاستعمار المادية والمعنوية،
والشوائب التي علقت بدينه نتيجة الانحراف عن الكتاب والسنة.

وهذا المجهود الفكري التغييري الجبار الذي قدمه الشيخ طوال سنوات
جهاده، يدعو الباحث بحق إلى الاهتمام به، ودراسة مظاهره المختلفة دراسة علمية
واقعية.

- الباب الأول: تحدثت فيه عن الأسس العامة للتغيير عند الإبراهيمي، وقد قسمته إلى أربعة فصول.

- الفصل الأول: عالجت فيه قضية الإطار المرجعي ودوره في التغيير، وضرورة الحسم فيه، وبينت أن الإسلام - عند الإبراهيمي - هو الإطار المرجعي للأمة الإسلامية، والأساس الهام الذي ينبغي أن تقوم عليه أية عملية للتغيير في المجتمعات الإسلامية، كما وضحت الأبعاد التي تكتسبها الدعوة إلى الاحتكام إلى الكتاب والسنة باعتبارهما المصدرين الأساسيين للإطار المرجعي الإسلامي.

- الفصل الثاني: تناولت فيه أهمية فهم الواقع الإنساني ببعديه الفطري والمعيش في عملية التغيير عند الإبراهيمي، وبينت الآليات التي يراها ضرورية لاستكشاف الواقع الإنساني، وعرضت لمكونات الواقع الجزائري الدينية والتاريخية والسياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية كما صورها في كتاباته.

- الفصل الثالث: تحدثت فيه عن الانفتاح الحضاري عند الإبراهيمي وضرورته في التغيير، في إطار المحافظة على الخصوصية الحضارية للأمة، وعرضت فيه للاجتهاد واللغة العربية، باعتبارهما من آليات الانفتاح الحضاري عنده، كما وضحت موقفه من الحضارة الغربية.

- الفصل الرابع: وقد بينت فيه مكانة الإنسان، ودوره في التغيير كما يراها الإبراهيمي، باعتبارها العنصر الأول في المشروع الحضاري هدفا وموضوعا وأداة. وشرحت فيه رؤية الإبراهيمي لصياغة الإنسان الجزائري صياغة متكاملة: روحية، وعقلية، وخلقية، وسياسية.

- الباب الثاني: خصصته للحديث عن منهج التغيير عند الإبراهيمي وقسمته هو أيضا إلى أربعة فصول:

ثانيا : أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي شخصية فذة، وعبقورية فريدة، امتدت مواهبها، وتنوعت نشاطاتها على مختلف الأصعدة الوطنية والإسلامية، حيث كان سياسيا محنكا، وخطيبا مفعوها، وأديبا بارعا، ولغويا بارزا، ومربيا مصلحا، وعلى الرغم من شهرته الواسعة في العالمين العربي والإسلامي فإن جهات هامة من فكره مازالت مجهولة لدى الكثيرين، وبحاجة ماسة إلى الدراسة الجادة، والبحث العلمي الدقيق.

ثالثا : أن الدراسات التي تناولت الشيخ الإبراهيمي قليلة وبسيطة، لم نستطع أن نعطي لهذه الشخصية حقها من البحث والدراسة، ولم ترق إلى المستوى الفكري العظيم الذي وصل إليه الشيخ، إذ مازالت الدراسات عاجزة حتى الآن عن إلقاء الضوء على جوانب فكره المختلفة، فغالبية الكتابات اقتصرت على التاريخ لحياته، وعلى استعراض آرائه كما أوردها في كتاباته، أو التركيز على جانب معين، أو مرحلة زمنية محدودة، وهي في معظمها تفتقر إلى الدراسة الشاملة والعميقة.

وعلى الرغم من أن الشيخ الإبراهيمي قد ارتقى بفكره إلى مصاف رجال التجديد الإسلامي العظام في العالم الإسلامي، من أمثال: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، إلا أنه لم يلق العناية التي لقيها هؤلاء، ولم تحظ أفكاره التغيرية باهتمام الدارسين وعناية الباحثين.

رابعا : أن هذه المبادرة التي نرمي من ورائها إلى دراسة الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، تعد مساهمة منا في إطار الجهود المبذولة لإثراء الدراسات الكبرى والمتنوعة حول إعادة كتابة تاريخ الجزائر بمختلف أبعاده

أذاه (أراءه في اللغة العربية والذليم العربي الحر، وعالج الفنون الأدبية عنده
شمي، من التفصيل، كالمقالة والخطابة والرسالة والشعر والرواية. والكتاب كما
بيده رسالة جامعية، قدمت إلى جامعة دمشق.

٦- كتاب (بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي) لعبد الحميد بوزوينة،
صدر عن ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر عام ١٩٨٨. وقد اهتم بالدراسة
الصفحة التحليلية الفنية لأسلوب الإبراهيمي في الكتابة الأدبية من خلال مقالاته،
وناقش فيه الخصائص البنائية المقالة، وعلاقة البنى الفردية بالدلالة، وطبيعة
البنى التركيبية، والإيقاع الصوتي، والصورة الفنية.

ويبدو من استعراضنا لهذه الكتب والرسائل، أن معظمها قد ركز على دراسة
إنتاج الإبراهيمي من النواحي الأدبية، ولم يهتم كثيرا بالجوانب الفكرية التي
تشكل الأساس الهام عنده، لأن الإبراهيمي - إلى جانب كونه أديبا - فإنه مصلح
مجدد، وظف الأدب لخدمة أفكاره التغييرية.

ونظرا للمكانة الهامة التي تحتلها فلسفة التغيير في فكر الإبراهيمي، وقع
اختيارنا على موضوع الأسس النظرية لمنهج التغيير عنده، فكيف - إذن - صاغ
الإبراهيمي نظريته في التغيير؟ وما هي الأسس التي يقوم عليها منهجه؟ وإلى أي
مدى استطاع أن يسهم في ترشيد وإنجاح تجربة التغيير الإسلامي في الجزائر؟
هذا هو الإشكال الذي يطرحه البحث، والإجابة عنه تمكن معرفتها من خلال
الآبواب الثلاثة التي تتضمنها الأطروحة، والتي تبدأ بتمهيد حول الحياة العامة في
الجزائر السياسية، والاجتماعية، والثقافية، بين سنوات (1930 - 1962). وموجز
عن حياة الإبراهيمي، وأعماله، وأثاره. أما أبواب الأطروحة فهي كالآتي:

- آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي : وهي تتكون من ثلاثة أجزاء ، وتتضمن الكتابات التي أُلقيت في بعض المؤتمرات والمناسبات ، والمقالات التي نشرت في مختلف الجرائد والمجلات . وقد أشرفت لجنة مكونة من بعض تلاميذ الإبراهيمي على جمعها وطبعها .

- كتاب (في قلب المعركة) : ويتضمن مجموعة من الخطب والمحاضرات والكلمات والبيانات التي تدور حول الجزائر وثورتها التحريرية ، إلى جانب بعض المقالات والبحوث عن العروبة والإسلام ، واللغة العربية في الجزائر . وقد تولى جمعها والتقديم لها أبو القاسم سعد الله ، وبذلك أتم نشر ما بقي من آثار الإبراهيمي . ويعد هذا الكتاب الجزء الخامس من آثاره .

- كما استعنت كذلك ببعض المجلات والجرائد التي كانت تصدرها ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كالشهاب والبصائر وغيرهما .

وقد اعترضتني في أثناء إنجازي لهذا البحث بعض الصعوبات التي كانت تعوقني أحيانا عن السير الطبيعي فيه ، نتيجة الأسفار المتعددة ، والجهد المضني لجمع المادة وتصنيفها ، غير أن هناك عوائق كان لها أثرها في البحث ومنها :

١ - قلة المراجع التي تتناول فكر الإبراهيمي بالدرس والتحليل ، ونُدرة المراجع التي تتحدث عن نظرية التغيير في الفكر الإسلامي الحديث ، مما اضطرني في أحيان كثيرة إلى بذل جهود مضيئة في سبيل جمع المادة الخاصة بهذا الموضوع من مجموعة كبيرة من الكتب المختلفة ، حتى أتمكن من إبراز ملامح منهج التغيير عند الإبراهيمي .

- الفصل الأول: عالجت فيه الإطارين الزماني والمكاني، وعلاقتهما بمنهج التغيير، وتحدثت عن ضرورة ضبط التحديات، وإيداع الخطط العملية، وختمته بشرح مجموعة الخصائص التي يتميز بها منهج الإبراهيمي في التغيير.

- الفصل الثاني: فصلت فيه الحديث عن القواعد الضرورية والشروط الموضوعية التي ينبغي أن تتوفر في منهج التغيير حتى يحقق أهدافه.

- الفصل الثالث: تناولت فيه الأهداف والغايات الإستراتيجية والمرحلية التي يقوم عليها منهجه في التغيير.

- الفصل الرابع: خصصته للحديث عن الوسائل والأساليب التي يرى الإبراهيمي ضرورة توفرها في منهج التغيير من أجل تحقيق أهداف المشروع التغيير.

- الباب الثالث: يدور الحديث فيه حول مجالات التغيير عند الإبراهيمي: الدينية، والثقافية والسياسية، والاجتماعية، وهو يحتوي كذلك على أربعة فصول:

- الفصل الأول: فيه عرض لفلسفة التجديد الديني عند الإبراهيمي في مجالات العقيدة، والفقه والتربية.

- الفصل الثاني: فيه بيان لأبرز عناصر المسألة الثقافية في المجتمع الجزائري كاللغة العربية والتعليم والصحافة.

- الفصل الثالث: وفيه رصد لملامح الفكر السياسي عند الإبراهيمي، وشرح لمواقفه من القضايا السياسية الكبرى في الجزائر والعالم العربي.

- الفصل الرابع: وقد خصصته للحديث عن المجال الاجتماعي، وتناولت فيه أبرز قضايا المجتمع الجزائري التي شغلت الإبراهيمي، كالأسرة والمرأة والشباب والدعوة إلى الوحدة الاجتماعية.

٢- أنني وجدت أثناء إنجازي للبحث صعوبة كبيرة في الفصل بين الإبراهيمي وبين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ويعود السبب في ذلك إلى أن الإبراهيمي كان جزءاً لا يتجزأ من الجمعية، كما كانت الجمعية جزءاً لا يتجزأ منه، فهي المؤسسة التي مارس فيها نشاطه، ومن خلالها أبدع، وجدّد، ونظّر. وهذا الالتحام بينه وبين الجمعية لا يسمح للدارس - في بعض الأحيان - من اكتشاف مواطن الإبداع والتجديد عنده.

٣- ومن الصعوبات التي اعترضتني أيضاً، طول النصوص المقتبسة، والتي لا يمكن اختصارها، أو حذف بعض أجزائها، لما في ذلك من إخلال بالمعنى العام للفكرة، لأن الإبراهيمي كثير الاستطراد، وغالباً ما يولد من المعنى الواحد عدة معانٍ، تأتي متسلسلة ولا نصل إلى لب المعنى إلا إذا تتبعناها جميعاً.

٤- التأثير النفسي السلبي للظروف الصعبة التي تمر بها بلادنا، حيث شكل هذا السبب عائقاً كبيراً أمامي، وشغلني عن البحث والتفكير، بل اضطرني في أحيان كثيرة إلى التخلي عن البحث لمدة قد تمتد إلى عدة أسابيع، نظراً لما تتركه هذه الظروف من آثار سيئة لا تسمح، بالبحث والإبداع. وأنا أحمد الله كثيراً على توفيقه لي لإنجاز هذا البحث، على الرغم من هذه الأوضاع الأليمة التي تمر بها أمتنا.

وأخيرا، أتقدم بشكري الجزيل، وامتناني العميق للأستاذ المشرف الدكتور العربي دحو، الذي تكرم بالإشراف على هذه الأطروحة، والذي لم يبخل علي بنصحه وإرشاده وتوجيهه، ولم يتوان عن تبصيري بأخطائي، ومساعدتي على تخطي الصعوبات التي تعترض طريقي.

كما أتوجه بشكري إلى إدارة معهد أصول الدين ولجنته العلمية التي وافقت على هذا الموضوع، وعلى رأسها مديرها الموقر، الدكتور عبد الرزاق قسوم.

ولا يفوتني كذلك أن أعبر عن خالص امتناني لرئيس جامعة الأمير عبد القادر الدكتور رابح دوب ونائبه المكلف بالدراسات العليا والبحث العلمي الدكتور عبد الله بوجلال اللذين تفضلا بالموافقة على تحويل ملف التسجيل إلى جامعة الأمير عبد القادر ولم يبخلا عليّ بجهودهما الطيبة في سبيل تسهيل إجراءات المناقشة.

وأخص بالشكر والتقدير أيضا، مكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط، والتي استفدت منها كثيرا في إنجاز هذا البحث طوال سنوات الانتداب التي أقمتها بالمملكة المغربية.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أعبر عن خالص شكري وامتناني للزملاء الأساتذة والأصدقاء الذين لم يبخلوا علي بمساعدتهم ونصائحهم طوال مدة إنجاز هذا البحث.

والله ولي التوفيق.

السياسية والثقافية، نظرا للأثار العميقة التي تركها نشاط الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في مرحلة هامة من التاريخ الجزائري الحديث. فيكفيه شموخا وشرفا أنه كان بجهاده الطويل ونضاله المتعدد الجوانب ومواقفه الرائدة مقخرة من مفاخر الجزائر والأمة العربية والإسلامية، وأن جهده التجديدي الحضاري مع إخوانه العلماء لأعظم دليل على أصالة الشعب الجزائري وحيويته وعطائه المستمر على الرغم من خطورة وجسامة التحديات الداخلية والخارجية.

وعلى الرغم من الثراء الذي تتميز به كتابات الشيخ الإبراهيمي، فإن ما كتب حوله يعد في مجمله قليلا وغير كاف لتغطية جوانب عظمة هذا المصلح الكبير، ومن بين هذه الدراسات التي أمكننا الإطلاع عليها:

١ - كتاب (الإمام الرائد محمد البشير الإبراهيمي)، وقد صدر عام ١٩٦٧ عن مطبعة البعث بقسنطينة، وهو يجمع بين دفتيه مجموعة من الخطب والكلمات والقصائد التي كتبت وألقيت في الذكرى الأولى لوفاة الشيخ الإبراهيمي، وأخرى كتبت في مناسبات مختلفة، وقد قام بجمعها الأستاذ محمد الطاهر فضلاء.

٢ - (نثر الشيخ الإبراهيمي في الفترة من ١٩٢٩ - ١٩٣٩) لمحمد العيد تاورته. وهي عبارة عن رسالة ماجستير، تقدم بها صاحبها إلى معهد الآداب بجامعة قسنطينة عام ١٩٨٠. قسمها إلى جزئين، جمع في الجزء الأول جميع النصوص التي كتبها الشيخ الإبراهيمي خلال السنوات العشر التي حدها الباحث، ثم وثقها ونظمها، وشرحها، وعلق عليها. وفي الجزء الثاني اهتم بدراسة هذه النصوص دراسة موضوعية، تمثلت في رصد الأفكار التي عالجها الشيخ، والقضايا التي تعرض لها، وأخرى فنية، درس فيها أنواع النثر الأدبية التي استخدمها الإبراهيمي للتعبير عن أفكاره.

٤ - (البشير الإبراهيمي أديبا) لعباس محمد، وهي أيضا عبارة عن رسالة ماجستير، تقدم بها صاحبها إلى كلية الآداب بجامعة بغداد عام 1983، تناول فيها الآثار الأدبية التي خلفها الشيخ الإبراهيمي، فدرس مقالاته وخطبه، وخواطره وأشعاره، دراسة موضوعية وفنية، وانتهى إلى أن الشيخ الإبراهيمي أديب ملتزم، وظف قلمه لإيقاظ شعبه ومحاربة الاستعمار، كما استنتج أن الشيخ ينحرف في إنجاحه الفني منحى الأدياء القدماء، في الأسلوب واللغة والأداء، وإن كان مضمون أدبه مرتبطا بالواقع الذي يعيشه المجتمع الجزائري.

١ - كتاب (الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكبي والابراهيمى) لأسعد السحمراني. صدر ببيروت عن دار النفائس عام 1984. وقد حاول الكاتب أن يعقد مقارنة بين المنهج الذي اتبعه الكواكبي في محاربة الاستبداد العثماني الذي جنى على المسلمين حين أبعدهم عن مواكبة الركب الحضاري، وأسهم في تجهيلهم وتخلفهم، وبين منهج الإبراهيمي في مواجهة الاستعمار الفرنسي، الذي كان يسعى بكل جهده لتجهيل الشعب وتفقيره، وإقناعه من جذوره الحضارية التي تربطه بالإسلام والعروبة، وانتهى إلى أن الرجلين يجمعهما عامل مشترك في جهادهما وهو محاولة إحياء الإسلام الصحيح لمواجهة الأوضاع المتردية على الرغم من اختلاف الزمان والمكان، وقد ركز الكاتب في حديثه عن الشيخ الإبراهيمي على النصوص التي نشرت في الجرائد ، والتي تصور المواجهة العنيفة بينه وبين الاستعمار الفرنسي.

٥ - كتاب (البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه) لمحمد مهداوي، صدر بدمشق عن دار الفكر عام 1988. وقد تحدث فيه الكاتب عن حياة الإبراهيمي وأعماله، كما

وقد ختمت هذا البحث بإبراز أهم النتائج التي توصلت إليها من دراسة وتحليل فكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي حول الأسس النظرية لمنهجه في

التغيير

أما المنهج الذي اتبعته في دراسة الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، فهو تركيبي. ويمكنني الاعتماد فيه على منهجين هما: المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم أساسا على استقراء جميع القضايا والأفكار التي حفلت بها كتابات الإبراهيمي، وتحليلها لاستخلاص الأسس التي يقوم عليها منهجه في التغيير، ومعرفة خصائصه، وشروطه، وأهدافه، ومجالاته والمنهج التاريخي، كمنهج فرعي بجانب المنهج الاستقرائي، وهو الذي يفيدني في معرفة الظروف الزمانية والمكانية المؤثرة في كتابات الإبراهيمي، وانعكاسها عليه وعلى أفكاره ومواقفه. وسوف لن أتطرق في هذه الدراسة إلى الجهود العملية التطبيقية التي قام بها الإبراهيمي، بل اكتفيت بالجوانب الفكرية النظرية، إلا في بعض المواطن التي تقتضيها الضرورة.

أما مصادر البحث، فقد اعتمدت على مجموعة مقالات الإبراهيمي التي نشرها في مختلف الجرائد والمجلات الجزائرية والعربية، والتي جمعت وطبعت ومنها:

- كتاب (عيون البصائر) ويتضمن مجموعة من المقالات القيمة التي كان ينشرها الإبراهيمي في البصائر الثانية، وقد تولى اختيارها بنفسه، ورتبها وأشرف على طباعتها، وأطلق عليها إسم (عيون البصائر)

مدخل

أ- الحياة العامة في الجزائر (1930 . 1962)

ب- حياة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وأعماله

أ- الحياة العامة في الجزائر (1930 . 1962).

أولا - الحياة السياسية

ثانيا - الحياة الاجتماعية والاقتصادية

ثالثا - الحياة الفكرية والثقافية .

القادر للعلوم الإسلامية

إن محاولة اكتشاف الأسس النظرية التي يقوم عليها منهج التغيير عند الإبراهيمي تستدعي الإحاطة بالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي مارس فيها الإبراهيمي عمله التغييري، حتى نتمكن من وضع محاولته ضمن إطارها التاريخي وسياقها الحضاري وتقييمها من خلاله، باعتبار العلاقة الجدلية التي تربط الظروف والمؤثرات العامة بحياة المفكر والدور الأساسي الذي يلعبه العصر والبيئة في تحديد طريقة تفكيره وتوجيهه نحو أهداف معينة. لذلك سنحاول فيما يلي، أن نعطي نبذة قصيرة عن الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية التي سادت الجزائر خلال الفترة الممتدة بين سنوات 1930 إلى 1962.

أولاً : الحياة السياسية :

تتميز هذه المرحلة بتطور الحركة الوطنية، واشتداد الصراع بينها وبين الاستعمار الفرنسي، الذي كان يهدف إلى مسح الشخصية الجزائرية ، وطمس معالمها، لأنها وقفت حجر عثرة في طريقه طوال سنوات الاحتلال .

وحتى تتضح صورة هذا الصراع السياسي أكثر، ينبغي أن نشير إلى بعض الأحداث البارزة التي ميزت هذه المرحلة، وكان لها أثرها العميق في الحياة السياسية في الجزائر، ومنها احتفال الاستعمار الفرنسي بمرور قرن كامل على احتلال الجزائر، وظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كحركة إصلاحية تمثل امتداداً لحركة التجديد الإسلامي في العصر الحديث، ونشأة الأحزاب السياسية وتطورها، وأحداث 8 ماي 1945 ونتائجها، واندلاع الثورة التحريرية الكبرى في نوفمبر 1954 .

احتفال الاستعمار الفرنسي بمرور مائة عام على احتلال الجزائر
في عام 1930 احتفل الاستعمار الفرنسي بمرور مائة عام على احتلال الجزائر وقد امتدت هذه الاحتفالات طيلة ستة أشهر: بدأت في جانفي ولم تنته إلا

في 5 جويلية 1930 ، إحياء لذكرى 5 جويلية 1830 تاريخ دخول الجيوش الفرنسية إلى الجزائر .

وقد بدأت السلطات الفرنسية بالاستعداد لهذه الاحتفالات منذ سنوات العشرين، من خلال ما كانت تنشره الجرائد الفرنسية ⁽¹⁾ من مقالات استفزازية ، تتحدث عن عظمة فرنسا وقوتها، وحضارتها التي قهرت الشعوب البربرية في شمال إفريقيا، وتشير إلى انتصار المسيحية على الإسلام .

وعندما بدأت هذه الاحتفالات ، عمد المشرفون عليها إلى تنظيم استعراضات عسكرية، تشبه في ألبستها وأسلحتها وموسيقاها مجموعات الجيش الفرنسي الأولى التي دخلت الجزائر عند بداية الاحتلال ⁽²⁾، وقد دعيت إليها كبار الشخصيات العالمية، وممثلو الأمم، وأشرف عليها رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك بنفسه .

وقد أُلقيت خلال هذه الاحتفالات خطب ومحاضرات عديدة، كانت في معظمها استفزازا لمشاعر الشعب الجزائري، وتذكيزا له بهزائمه، وطعنا في عقيدته، ولم يكن ذلك غريبا إذا عرفنا أن الهدف الأساسي لهذه المهرجانات الضخمة، هو إعلان الاستعمار الفرنسي عن نجاحه في الإجهاز على الإسلام في الجزائر، بعد أن ظن أنه قد استطاع أن يثني هذا الشعب عن دينه .

فتعاقبت التصريحات من الساسة والمعمرين على السواء، تكشف عن رغبتهم الملحة في سحق الإسلام وطرده من البلاد، من ذلك ما صرح به أحد ساسة الاستعمار أمام المدعويين حيث خطب فيهم قائلا : « لا تظنوا أن هذه الاحتفالات من بلوغنا مئة سنة في هذا البلد، فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك

(1) بو المصطفى ، عبد الكريم ، جمعية الطماء المسلمين الجزائريين ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، ط1 ، 1981
ص 86 ، 87 .

(2) المذني أحمد توفيق ، كتاب الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 . ص 71 .

خرجوا منه، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار»⁽¹⁾.

وقد تركت هذه الاحتفالات المشحونة بالحقد أثرها العميق في نفوس الجزائريين، فحركت همهم، ووخزت ضمائرهم، وأشعلت نار الفيرة على الدين والوطن في نفوسهم، مما جعلهم يتحركون لجمع صفوفهم ومواجهة الصلف الاستعماري.

ولا نبالغ إذا قلنا أن هذه الاحتفالات تمثل بداية حقيقية لمرحلة هامة جدا في تاريخ الجزائر الحديث، لأنها أثرت في معظم الأحداث الوطنية التي أعقبتها، سواء من بعيد أم من قريب، مما جعل أحد المؤرخين الجزائريين يقول: «إن احتفال الفرنسيين بمرور قرن على احتلالهم أرض الجزائر قد قدم القضية الجزائرية مشورين سنة على الأقل»⁽²⁾. ولعل من أبرز هذه الأحداث ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

في 5 ماي من سنة 1931، تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتادي الترقى بالعاصمة. وقد ضمت بين صفوفها نخبة من علماء الجزائر المجددين، الذين ظلت تراوهم هذه الفكرة منذ سنوات، إلا أن احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، وما صاحبه من استفزاز لمشاعر الجزائريين، عجلت بظهور هذه الجمعية كرد فعل على السياسة الإستعمارية، وهي حركة إصلاحية تلتقي مع مدرسة التجديد الإسلامي في العصر

(1) إبراهيمي، ((ا))، الثالثة، ع 87، ماي-جوان 1985، الجزائر، ص 27.

(2) المنفي، أحمد توفيق، هدم هي الجزائر، مكتبة النهضة، القاهرة، مصر، ط 1، 1956، ص 166.

الحديث، وهي المدرسة التي تزعمها مصلحون مجددون من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا وغيرهم. وقد تأثر رجال الحركة الإصلاحية في الجزائر بالحركة الإصلاحية للشرقية، وكان هذا أمرا طبيعيا، نظرا للارتباط الروحي والاتصال الثقافي الذي يجمع المشرق والمغرب .

وأما الأهداف التي سطرتها الجمعية في برنامجها التغييري، فتمكن الإشارة إليها من خلال ما ذكره الشيخ محمد خير الدين عام 1935 بقوله إن أهداف جمعية العلماء تتمثل في : « إحياء الإسلام الصحيح بإحياء الكتاب والسنة ونشرهما بين الناس حتى يرجع لهما سلطانهما على نفوس المسلمين، ونشر فضائلهما وأدبيتهما، وإحياء اللغة العربية وأدبها، وإحياء التاريخ الإسلامي ورجاله الغر الميامين »⁽¹⁾ .

كما أن القانون الأساسي للجمعية، قد أشار إلى أنها جمعية دينية علمية تهذيبية أدبية وليست حزبية سياسية، ولا يحق لها الخوض في أية مشكلة سياسية، وكانت هذه طريقة ذكية تمكنت الجمعية بها من الحصول على رخصة العمل من السلطات الفرنسية، كما تمكنت من التحرك في إطار قانوني، ومن ثم تجنبت المصير الذي لقيته بعض الأحزاب السياسية التي جهزت بالعداء للاستعمار، فأسرع إلى حلها وتشتيت شملها .

وكان لرجال الجمعية مواقفهم السياسية التي ينشرونها في الجرائد، أو يتحدثون بها في المجالس، والتجمعات العامة، ولكنهم كانوا يتحملون مسؤولية هذه المواقف وحدهم، ونحسب أن جمعية العلماء قد استطاعت - تحت غطاء الإصلاح الديني - أن تتجو من قرارات الحل الاستعمارية، وإن لم ينج أعضاؤها من الملاحقة والاضطهاد، وأن تتحرك في جميع الميادين، وأن تدخل معترك السياسة من أوسع

(1) حق الدين - محمد ، مذكرات : ج 1 - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر ، د . ت . ص 149 .

أبوابه، وأن تلتقي مع الاستعمار في مواجهة سياسية عنيفة.

وقد تمثل ذلك في الحملة الواسعة التي شنّها رجالها لإيقاظ الوعي الوطني، وتحسيس الشعب بمقومات شخصيته المتميزة، وبث روح الاعتزاز بتراثه ودينه، ونشر التعليم العربي، ويؤكد أحد الباحثين هذا الدور السياسي الخطير الذي قامت به الجمعية فيقول إن: «جمعية العلماء كانت شجاعة إلى حد بعيد، فقاومت الاستعمار الفرنسي، مقاومة سياسية عنيفة، وكانت أشد عليه من ثورة مسلحة... ولما كانت مواقفها ممتزجة بالدين، مع ما يضاف إلى ذلك من حذر وتقية في اصطناع المقاومة، سقط في يد الاستعمار فلم يدر ما يصنع لها فنجت من الحل والتعطيل، على الرغم من أن أصحابها لم يفلتوا من السجن، والإرهاق والمضايقات الشديدة»⁽¹⁾.

ويتفق معظم الدارسين والمؤرخين على أهمية وخطورة الدور السياسي والثقافي والديني، الذي قامت به الجمعية إبان هذه المرحلة الحاسمة في تاريخ الجزائر، يقول رابح تركي: «والواقع أن جمعية العلماء لعبت دورا بالغ الأهمية في التاريخ الجزائري الحديث، بل لا نغالي إذا ما قلنا أنها هي المنظمة الوطنية التي يعود إليها الفضل في بقاء الإسلام والعروبة في الجزائر حتى اليوم، وتجنب الجزائر من مخاطر سياسة الإدماج والفرنسة...»⁽²⁾.

ومما سبق، يتضح أن الأعمال الجليلة التي قامت بها جمعية العلماء أثناء هذه المرحلة الهامة، قد سجلت لها حضورا سياسيا فعّالا، وكانت دعوتها إرهابا واضحا لقيام ثورة التحرير المسلحة، فالجيل الجديد الذي ربته جمعية العلماء

(1) مرتاض، عبد الملك، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 17.

(2) تركي، رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ش. و. ن، ت الجزائر العاصمة، ط 3، 1981، ص 70.

المسلمين في مدارسها، وغذته بروح الاعتزاز بالإسلام والعروبة، أسهم بقسط وافر في حمل مشعل الثورة، وصنع بطولاتها إلى جانب مناضلي الأحزاب السياسية التي التحمت جميعا في منظمة مسلحة واحدة، وقد تزامن هذا النشاط السياسي الذي قامت به جمعية العلماء، مع ظهور نشاط مكثف لمجموعة من الأحزاب الوطنية .

نشاط الأحزاب السياسية

لقد شهدت هذه المرحلة (1930 - 1962) نشاطا مكثفا، قامت به مجموعة من الأحزاب السياسية الوطنية المختلفة في اتجاهاتها، وأهدافها، ومواقفها من الاستعمار الفرنسي، ولكنها أسهمت جميعا في تحريك الهمم، وإيقاظ الضمائر ، ونشر الوعي السياسي والاجتماعي والثقافي، وجمع شمل الجزائريين، وتوجيه جهودهم صوب أهداف مشتركة .

وكان للنتائج التي أسفرت عنها الحرب العالمية الأولى، من انتشار الروح التحررية في العالم، ومطالبة الشعوب المستعمرة بالاستقلال والحرية، آثار بارزة في اليقظة الفكرية والسياسية التي عرفت الجزائر بعد نهاية هذه الحرب.

ولعل أهم حركة سياسية ظهرت قبل هذه المرحلة، هي حركة وحدة النواب المسلمين الجزائريين، والتي تأسست مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، برئاسة الأمير خالد⁽¹⁾ وكانت تدعو إلى المساواة التامة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق السياسية والمدنية والاجتماعية، وتطالب بإلغاء القوانين الاستثنائية

(1) هو الأمير خالد بن الهاشمي ، حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ، ولد بدمشق عام 1875 ، وتوفي بها عام 1936 ، إنتقلت أسرته إلى الجزائر وهو صغير السن ، تخرج من المدرسة العسكرية الفرنسية ضابطا ، والتحق بالجيش الفرنسي في نهاية الحرب العالمية الأولى وأصدر عام 1920 جريدة (الإقدام) ، نفتت السلطات الفرنسية إلى الإسكندرية عام 1925 بعد أن جلبت حركة سياسية

المطبقة على الجزائريين، مع الإبقاء على الأحوال الشخصية العربية الإسلامية .
وقد تعرض الأمير خالد - بسبب نشاطه الوطني - إلى ضغوط شديدة من
طرف الإدارة الاستعمارية، اضطرتة إلى مغادرة الجزائر نحو فرنسا عام 1923 ،
حيث أسهم في إنشاء وتوجيه حركة نجم شمال إفريقيا التي انتخب رئيسا شرفيا
لها عند ظهورها .

تأسس حزب نجم شمال إفريقيا بباريس في مارس 1926 .، ويضم بين صفوفه
أبناء المغرب العربي المهاجرين بفرنسا، وكان يطالب بالاستقلال التام لأقطار المغرب
العربي الثلاثة الخاضعة للاستعمار الفرنسي (تونس، الجزائر، المغرب)، ثم
اقتصرت مطالبه فيما بعد على الجزائر فقط، بعد رئاسة مصالي الحاج⁽¹⁾ له بمدة
وجيزة .

وقد تميزت مطالب هذا الحزب في تلك الظروف السياسية الصعبة بالجرأة
والشجاعة ، إذ استطاع أن يطرح قضية استقلال الجزائر التام عن فرنسا، وأن
يطالب بجلاء قواتها، واستعادة جميع الثروات الوطنية المصادرة من طرف
المستوطنين الأوروبيين، مما يدل على نضج سياسي مبكر، ووضوح هام في الرؤية
لدى قادة هذا الحزب .

لذلك كان من الطبيعي أن يلقي عنقا كبيرا من طرف الاستعمار الفرنسي
حيث تعرض مناضلوه للملاحقة والاضطهاد والسجن والتشريد، وتم اعتقال رئيسه
عام 1933 ، وعلى الرغم من ذلك، ظل أنصاره يجهرون بهذه المطالب الجريئة طوال

(1) من أبرز رجال الحركة الوطنية الجزائرية قبل اندلاع الثورة المسلحة بتلمسان عام 1898 ، التحق بالجيش
الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى ، ثم عمل في بعض المصانع الفرنسية ، إتصل بالأمير شكيب أرسلان ، وسجنته
السلطات الفرنسية ، عدة مرات ، ثم نفته إلى برازيل عام 1945 ، وفرضت عليه الإقامة الجبرية بباريس عام
1952 ، إنشق من الثورة عام 1954 ، وبقي مقيما بفرنسا إلى أن توفي بباريس عام 1973 ، (نويهنس ،
عادل ، معجم أهل الجزائر ، مؤسسة نويهنس الثقافية ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1983 ، ص 304 ، 305) .

اثنى عشرة عام، إلى أن حلتها فرنسا عام 1937 .

وفي السنة نفسها، وبتاريخ 11 مارس، عاد هذا الحزب إلى الظهور تحت اسم جديد هو حزب الشعب الجزائري، وبرنامج نجم شمال إفريقيا الاستقلالي نفسه ، وقيادة مصالي الحاج أيضا، ولكنه في هذه المرة اتخذ من الجزائر مقرا له ، وازداد صلابة في المطالبة باستقلال الجزائر ضمن إطار شخصيتها العربية الإسلامية، ومواجهة الاستعمار الفرنسي بمختلف الوسائل والسبل .

غير أن مسيرته النضالية لم تدم طويلا، فقد سارعت السلطات الفرنسية إلى اعتقال رئيسه، وحكمت عليه بستتين سجنا⁽¹⁾ ، ثم حلت الحزب عام 1939 ، وأعادت اعتقال مصالي الحاج بعد خروجه من سجنه، وكان نصيبه هذه المرة ستة عشر عاما سجنا مع الأشغال الشاقة⁽²⁾ .

وفي مقابل هذا التيار الوطني الثوري، الذي آمن بضرورة استقلال الجزائر التام، وحاز ثقة الشعب الجزائري الذي تجاوب معه تجاوبا كبيرا، كان هناك اتجاه سياسي آخر، تبنى فكرة الإدماج والتجنيس⁽³⁾ ، تقوده فئة من الجزائريين المثقفين بالثقافة الفرنسية، وهم الذين سعوا إلى إدماج الجزائر أرضا وشعبا وحضارة في فرنسا.

غير أن هذه المطالب لم تجد لها أذانا صاغية في أوساط الشعب الجزائري ، الذي رأى فيها بؤادر سلخه عن مقومات شخصيته العربية الإسلامية، كما لقيت معارضة من المعمرين المتعصبين، الذين وجدوا فيها خطرا على نفوذهم في الجزائر إذا سوى القانون بينهم وبين الأهالي، ومن أهم الأحزاب السياسية التي مثلت هذا

(1) عباس ، فرحات ، ليل الإستعمار ، ترجمة أبو بكر رحال ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب ، د . ت ، ص 164 .

(2) المصدر نفسه ، ص 164

(3) ت. ك. ، د . رايح ، الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ص 62 .

التيار « حركة اتحاد المنتخبين الجزائريين » التي ظهرت عام 1930 .

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، اشتد الصراع بين الحركة الوطنية والاستعمار، وتنامى الوعي الوطني، وأصبحت فكرة المطالبة باستقلال الجزائر التام عن فرنسا، قناعة راسخة لدى معظم الجزائريين آنذاك، مما جعل القيادات الوطنية تسارع إلى تكوين حزب « أحباب البيان والحرية » في بداية عام 1945 ، مع قرب نهاية الحرب العالمية الثانية للمطالبة باستقلال الجزائر .

وقد انضم إلى صفوف هذا الحزب: « رجال من أحرار الجزائر، فيهم أنصار من حزب الشعب ومن العلماء، ومن النواب، ومن المستقلين، وتفاوضوا في مستقبل الأمة الجزائرية، وفي خروجها نهائيا من المنطقة الاستعمارية، إلى المنطقة المستقلة الحرة، فقرروا تحرير بيان ينشرونه على الأمة الجزائرية، ويقدمونه للأمة الفرنسية ولرجال الدول المتحالفة، وقد اتفقوا على النقاط الرئيسية منه، وكلفوا الأستاذ فرحات عباس بتحريره في صيغته النهائية »⁽¹⁾.

وأصبح بذلك يشكل جبهة وطنية قوية في وجه الاستعمار، غير أنها سرعان ماتعرضت للحل من طرف السلطات الفرنسية ، بعد حوادث 8 ماي 1945 ، والتي هزت الشعب الجزائري هزا عنيفا، وفتحت عينيه على حقائق مرعبة، وكشفت له الوجه الحقيقي للاستعمار البشع، الذي لا يتوانى عن إزهاق أرواح الآلاف في سبيل الحفاظ على مصالحه في الجزائر.

ومع حلول سنة 1946 ، شكل فرحات عباس⁽²⁾ حزب « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري »، والذي كان يدعو إلى تكوين جمهورية جزائرية تتمتع بالحكم

(1) المدني ، أحمد توفيق ، هذه هي الجزائر ، ص 174 ، 175 .

(2) هو أحد رجالات الحركة الوطنية ، ولد بالطاهير بالشرق الجزائري عام 1888 ، كان رئيسا لأول حكومة جزائرية مؤقتة ، توفي في 24 ديسمبر 1985 .

الذاتي، على أن تحقق استقلالها التام على مراحل .

وشهدت السنة نفسها ظهور حزب « حركة الانتصار للحريات الديمقراطية » برئاسة مصالي الحاج، والتي تبنت فكرة الاستقلال التام عن فرنسا، وتكوين دولة جزائرية حرة ذات كيان مستقل، كما تأسس في هذا العام أيضا « الحزب الشيوعي الجزائري » الذي كان أعضاؤه قلة قليلة ⁽¹⁾، ولم يكن للمبادئ التي رفعها أي تأثير يذكر في الحياة السياسية .

أحداث 8 ماي 1945 .

إن الحديث عن الحياة السياسية في الجزائر إبان هذه المرحلة ، يقتضي منا أن نشير إلى أحداث 8 ماي 1945 ، وهي التي شكلت منعطفًا حاسمًا في تاريخ الحركة الوطنية، وتركت آثارها العميقة في سير الأحداث السياسية في الجزائر آنذاك .

ففي يوم 8 ماي 1945 ، خرجت جموع من الشعب الجزائري في كل من قالمة، وسطيف، وخرابة إلى الشوارع، حاملين العلم الوطني، ليعبروا عن ابتهاجهم بنهاية الحرب العالمية الثانية، ويتطلعوا إلى الوعود التي قدمتها فرنسا لتحسين وضعية الجزائريين، وليطالبوا باستقلال الجزائر التام عن فرنسا .

وكانت هذه المظاهرات في بداية أمرها سلمية، وقد تم تنظيمها بعد الحصول على ترخيص من الحاكم الفرنسي لعمالة قسنطينة ⁽²⁾، غير أن الشرطة الفرنسية عز عليها أن ترى العلم الجزائري يرفرف في يد أبنائه، فلم تتوان عن فتح نيران أسلحتها على المتظاهرين العزل، ثم ساندتها في هذه المذبحة المستوطنون

(1) الخني ، لعدد توفيق ، هذه هي الجزائر ، ص 189 .

(2) عباس ، المرحات ، ليل الإستعمار ، ص 86 ، 87 .

الفرنسيون المسلحون .

وقد شهدت مدينة سطيف في هذا اليوم، أعنف المواجهات وأبشع الجرائم ، فبعد أن سقطت صفوف الشهداء التي تقدمت المظاهرات، انطلق الجزائريون في الشوارع يلاحقون المستوطنين ليثأروا لإخوانهم الذين حصدهم الرصاص .

وهناك جمعت السلطات الفرنسية جميع قواتها، وحشدت كل ما تملك من أسلحة، واستنجدت بالقوات البرية والبحرية والجوية، لترتكب في حق الشعب الجزائري أبشع المذابح، وأفظع المجازر، من قتل وتمثيل وحرق وقنبلة، وفي خلال أيام قلائل، سالت دماء خمسة وأربعين ألف جزائري، ودمرت قرى بأكملها ، وامتلات السجون والمعتقلات والمحتشدات بأقطاب الحركة الوطنية، وجماهير الشعب التي كانت تنادي بالحرية والانعتاق ، وأعلنت الأحكام العرفية، وتم تنفيذ أحكام الإعدام الجماعية والأشغال الشاقة .

واهتز الشعب الجزائري لهذه البشاعة وهذا الإجرام، وأيقن حق اليقين أن الحديث عن السياسة والمفاوضات هراء لا فائدة منه، واستقر في أعماقه أن الحرية لا تؤخذ إلا بالقوة، وأن الاستعمار لا يفهم إلا لغة السلاح .

وحاولت السلطات الفرنسية، بعد هذه الحوادث الدامية، أن تستدرك موقفها فأعلنت عن قانون سبتمبر 1947 ، الذي ينص على حق الجزائريين في التمثيل النيابي ومساواتهم في ذلك مع الأوروبيين .

وقد رحب المستوطنون بهذا القانون لأنه لا يمس مصالحهم الحيوية، ولا يضر بنفوذهم في الجزائر، غير أن الجزائريين رفضوه بشدة، لأنه مكيدة جديدة من مكائد الاستعمار لاحتواء الحركة الوطنية، وامتصاص الغضب الشعبي، ولأنه مطلب قديم قد عفا عليه الزمن وتجاوزته الأحداث .

ولا نبالغ إذا قلنا بأن أحداث 8 ماي 1945 ، كانت نقطة تحول كبير في تاريخ

النضال الذي قاده الجزائريون ضد الاستعمار، فقد دفعته دفعا قويا إلى الأمام: «ولا نستبعد أن يكون من نتائجها القريبة أنها قدمت زمن الثورة الشعبية الكبرى بسنين كثيرة»⁽¹⁾، ذلك أن الحركة الوطنية سعت بعد هذه الفاجعة، إلى لمّ الشمل، وجمع الصفوف، بعد أن توحدت الرؤية السياسية لديها، واتضحت الأهداف، واقتنعت بضرورة الكفاح المسلح الذي أصبح الأمل الوحيد الذي يراود جماهير الشعب المسحوقة.

وفي بداية سنوات الخمسين، كوّن الوطنيون جبهة متحدة للوقوف في وجه الاستعمار بعد أن اشتد الضغط الشعبي عليهم، وجدّت في مختلف أنحاء العالم أحداث هامة، أسهمت إلى حد كبير في دفع الاختيار المسلح إلى الأمام، مثل انطلاق المقاومة المسلحة في كل من تونس والمغرب، وإعلان استقلال ليبيا واستقلال السودان، وثورة الجيش في مصر، فكانت هذه الوحدة التي تحققت تحت الإلحاح الشعبي «بمثابة النذر العظيم لقيام ثورة وطنية مسلحة شاملة، منظمة، يشارك فيها الشعب الجزائري كله»⁽²⁾، وقد أطلق على هذه الجبهة اسم «الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريات واحترامها».

وفي نوفمبر 1954، تكونت (جبهة التحرير الوطني) التي جمعت تحت لوائها كل المناضلين الجزائريين على اختلاف انتماءاتهم الحزبية، وأخذت على عاتقها مسؤولية تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي عن طريق الثورة المسلحة، وهي التي ظلت تقود الثورة إلى أن أنهكت قوى فرنسا، وجعلت من أرض الجزائر مقبرة لجيوشها العارمة، وأجبرتها بعد سبع سنوات ونصف من الحرب الضارية، على

(1) مرتاض، عبد الملك، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 22.

(2) عباس، فرحات، ليل الإستعمار، من ص 238 إلى 240.

الاعتراف باستقلال الجزائر والانسحاب منها عام 1962 .

وننتهي من كل ذلك، إلى القول بأن الحياة السياسية التي سادت خلال هذه المرحلة (1930 - 1962) ، قد تميزت في معظم فتراتهما بالتوتر الشديد، والمواجهة العنيفة مع الاستعمار، وعرفت تناميا واضحا في الحس الوطني، ونضجا هاما في مسيرة النضال، وعانى خلالها الشعب الجزائري من الحرمان، والتعذيب، والتقتيل الجماعي، وقدم الآلاف من الضحايا على قربان الحرية، وذبلت زهرة شباب أبنائه في السجون والمعتقلات، إلى أن بزغ عليه فجر الاستقلال .

ثانيا : الحياة الاجتماعية والاقتصادية

إن الحديث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية خلال هذه المرحلة، لا يقل خطورة وأهمية عن الحياة السياسية التي أسفلنا الحديث عنها، فإذا كانت هذه الأخيرة قد اتسمت بالمواجهة الشديدة مع الاستعمار، وما ترتب عنها من تقتيل وتشريد وتكيل وتعذيب وسجن واعتقال ونفي، فإن الحياة الاجتماعية والاقتصادية قد عرفت أثارا أخطر، وصورا أبشع، وتركت جروحا غائرة في جسم المجتمع الجزائري .

فلقد عاش الشعب الجزائري - طوال فترة الاحتلال - صنوفا شتى من الحرمان، وألوانا من التجويع، وقاسى الفقر المدقع ، وفكتت به الأمراض والأوبئة، وعانى من الفرقة والتشتت، وذاق ألوانا من الإهانة والإذلال والاحتقار، واضطرت الظروف الحالكة إلى الهجرة داخل الجزائر وخارجها من أجل لقمة العيش .

والمرحلة التي نتحدث عنها ، تعكس بصدق ووضوح النتائج المرة لقرن كامل من الاحتلال، مارس خلاله الاستعمار الفرنسي سياسة وحشية جهنمية إبادة الشعب الجزائري، وسحق من بقي منه تحت الذل والاستعباد .

فلا غرابة إذن، أن نجد الإنسان الجزائري على مشارف عام 1930 ، يعيش

حالة مزرية من الفقر والهوان، يشير إليها الشيخ عبد الحميد بن باديس بقوله: «فإننا نرانا في حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد يرثى لها الجهاد»⁽¹⁾، وسنتناول بالحديث ثلاثة مظاهر أساسية، ميزت المجتمع الجزائري خلال هذه المرحلة، وكشفت عن التردّي الاجتماعي والاقتصادي الذي وصل إليه، وهي: انقسام المجتمع إلى طبقتين هما طبقة المستوطنين وطبقة السكان الأصليين، ومن خلال هذا الانقسام مارس الاستعمار سياسة التفرقة والتجويع ضد الجزائريين، ثم ظاهرة الهجرة، وأخيرا محاولات التفرقة بين العرب والبربر.

انقسام المجتمع إلى طبقتين

1 - طبقة المستوطنين الأوروبيين: والتي تتكون من الجالية الأوروبية التي بدأت في النزوح إلى الجزائر منذ سنوات الاحتلال الأولى، وقد بلغ تعدادها عند قيام الثورة التحريرية ثمانمائة ألف مستوطن.

وكانت ثروات البلاد بكل أنواعها تتركز في أيدي هذه الطبقة المستغلة، فكبار الإقطاعيين في الريف يسيطرون على مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة⁽²⁾، والرأسماليون في المدن يسيطرون نفوذهم على معظم المصانع والشركات المنتجة، وكبار الموظفين الفرنسيين يشغلون أعلى المناصب في الإدارة وأهمها، وكلهم يعيشون حياة غدة، وينعمون بخيرات البلاد، ويسعون جميعا إلى إقامة اقتصاد

(1) ابن باديس، عبد الحميد، تفسير بن باديس في مجالس التفكير من كلام الحكيم الخبير، دار الفكر، بيروت لبنان، ط 3، 1979، ص 270.

(2) مصادر الإستعمار الفرنسي من 1840 إلى 1860: 365 ألف هكتار من الأرض، ومن 1860 إلى 1880 مصادر 517 ألف هكتار، ومن 1880 إلى 1900 مصادر 243 ألف هكتار، ومن 1900 إلى 1920 مصادر 200 ألف هكتار، ويبلغ مجموع الأراضي المصادرة من الفلاحين الجزائريين من 1840 إلى 1920، 10 آلاف و 325 ألف هكتار (سلامان، د. نور، الأدب الجزائري، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 1، 1981، ص 39).

يهدف إلى سد حاجات فرنسا بالدرجة الأولى، واستنزاف الثروات البشرية والمادية إلى أقصى حد ممكن .

وقد انضم يهود الجزائر إلى هذه الطبقة بعد الاحتلال، عندما حصلوا جميعا - بموجب قانون 1870 - على الجنسية الفرنسية، مكافأة لهم على الخدمات التي قدموها للجنود الفرنسيين أثناء اجتياحهم للجزائر⁽¹⁾ ، وظلوا بذلك محافظين على أسلاكهم وثرواتهم، وكان تعدادهم حوالي مائة وثلاثين ألف يهودي، أسهموا في تكريس هيمنة الفئة الأوروبية على سكان الجزائر الأصليين .

وعرفت طبقة المعمرين الدخيلة بانغلاقها على نفسها، وعنصريتها المقيتة ، وتطرفها في كره الجزائريين، وسعيها الدائم لإبقائهم تحت السيطرة الأجنبية، وسد أبواب الحياة الكريمة في وجوههم، لأن الإحساس بالخوف الدائم كان يراودها من يوم ينتفض فيه هذا الشعب المقهور لاستعادة خيراته منها، فدأبت على إذلال الفرد الجزائري، وكسر عزة نفسه تحت ضغوط الحاجة .

وقد تركت هذه العنصرية بونا شاسعا بين المستوطنين والجزائريين، مما جعل بقاعهم في الجزائر بعد الاستقلال أمرا يشبه المستحيل، فسارعوا جميعا إلى مغادرتها عام 1962 : « وبذلك تخلصت الجزائر من هذا العنصر المتعصب الضيق الأفق إلى الأبد »⁽²⁾.

2 - طبقة السكان الأصليين: وهي التي تضم جميع الجزائريين الذين بلغ تعدادهم عند قيام ثورة نوفمبر حوالي عشرة ملايين ساكن، يتوزعون بين الأرياف والحقول: « وكان هؤلاء مضطهدين سياسيا، محرومين اقتصاديا، مهملين

(1) بوميز ، يمي ، ((موقف الجزائر من تجنيس اليهود الجماعي)) ، الثقافة ، ج 80 ، ديسمبر - جانفي 1976 ، الجزائر ، ص 40 .

(2) تركي ، د. ، راجع الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ص 28 .

اجتماعيا»⁽¹⁾، وهم بذلك يمثلون أخطر طبقة وأفقرها في المجتمع.

ومن أهم أسباب هذا البؤس، أن السياسة الاستعمارية في المجالين الاقتصادي والاجتماعي كانت تهدف إلى تفجير الشعب وتجويعه وتشريدته، وتحطيم كيانه الاقتصادي، وتشيتت قواه عن طريق مصادرة الأراضي من الفلاحين ومنحها للمستوطنين، وهي الضربة القاصمة التي وجهتها فرنسا إلى ظهر الاقتصاد الجزائري، باعتبار الجزائر بلادا زراعية بالدرجة الأولى، ونسبة السكان الذين كانوا يعملون بالقطاع الزراعي عشية الاحتلال تبلغ 70 ٪ .

وبذلك، تحول معظم الفلاحين الجزائريين إلى خماسين أو عمال زراعيين بأجور زهيدة جدا، ونزح من بقي منهم إلى الأراضي الجرداء أو البور، حيث عانوا من القحط والجفاف والحرمان، مما حدا بالكاردينال لا فيجري أن يقول عن بلاد القبائل مثلا: «إن الفلاحين في بلاد القبائل يأكلون العشب وأوراق الشجر وهم شبه عراة»⁽²⁾ .

وترجع المعمرون على مساحات شاسعة من الأرض الخصبة التي تقع على مجاري الأنهار، والمناطق التي يكثر فيها تساقط الأمطار، وكان ذلك تطبيقا صريحا لسياسة الاستعمار التي كانت مبنية على أن: «نزع ملكيات الوطنيين هو الشرط الأول الذي لا مفر منه لتثبيت أقدامنا في أرض الجزائر»⁽³⁾ .

ونتيجة لهذا الوضع المجحف، جثم الفقر على صدور الجزائريين، وفشت بينهم البطالة بشكل مريع، وسدت أمامهم أبواب الرزق، وبلغت نسبة العاطلين من

(1) مرتاض ، عبد الملك ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، ص 31 .

(2) سلمان ، د نور ، الألب الجزائري ، ص 44 .

(3) جانسون ، كوليت . وفرنسيس ، الجزائر الثائرة ، ترجمة محمد طوي الشريف ، خليل فهمي ، هنري يوسف سردان ، دار الهلال ، القاهرة ، مصر 1957 ، ص 32 .

الجزائريين قبيل اندلاع ثورة نوفمبر 90٪ ، وأما البقية الباقية فقد كانت نسبة 91٪

منهم تعمل على فترات متقطعة⁽¹⁾ لا تضمن لهم مصدر رزق دائم .

هذا حال الريف، أما حال المدن فإنه لا يختلف عنه كثيرا في مظاهر البؤس والحرمان، فقد امتدت أيدي الاستعمار إلى الأملاك العقارية بالمدينة الجزائرية فطرد منها أهلها عن طريق المصادرة أو الهدم، وأسس المستوطنون شركات تجارية وبنوكا، احتكرت جميع مرافق الاقتصاد في المدن، وتحول الجزائريون من حرفيين وتجار إلى طبقة أجيعة تعمل لدى المستوطنين بعد أن ضيَّق عليها المحتل سبل الرزق .

وعمل المعمرون على تنشيط قطاع التجارة وتصدير المواد الخام إلى الخارج ، واستغلال اليد العاملة الجزائرية الرخيصة، ولكنه - في المقابل - حارب تصنيع الجزائريين قواه، وسد الأبواب أمام كل محاولة للنهوض بهذا القطاع في البلاد ، حتى يضمن سوقا واسعة وذائمة لمنتجاته التي ظلت تتدفق على الجزائر، التي لم تعرف - طوال فترة الاحتلال - أية صناعة جديدة بالذكر ، ماعدا صناعة الخمر وبعض الصناعات الغذائية الصغيرة .

وكان من الطبيعي أن يتمخض عن هذه الحالة المزرية، انخفاض عام في القدرة الشرائية، وتدهور في مستوى المعيشة، إذ كانت أجور العمال الجزائريين ما بين سنوات 1935 و 1942 تتراوح ما بين 8 فرنكات و 12 فرنكا، وأصبحت تتراوح عام 1954 ما بين 250 فرنكا و 350 فرنكا⁽²⁾ وهي أجور ضئيلة جدا، لا تسد رمق العامل ومن يقع تحت مسؤوليته .

(1) سافاري ، الآن ، ثورة الجزائر ، ترجمة نخلة كلاس ، دمشق 1961 ، ص 19 .

(2) عباس ، فرحات ، ليل الإستعمار ، ص 115 .

وقد أسهمت الحالة السكنية التعيسة، والوضع الصحي المتردي، في ازدياد بؤس الجزائريين وتوالي النوائب عليهم، حيث كان أغلبهم يسكنون أكواخا من الطين والقصب على حواف المدن، تفتقد إلى أدنى الشروط الصحية، مما جعلها ميدانا خصبا لتكاثر الأمراض وظهور الأوبئة التي كانت تفتك بأعداد هائلة من الناس، كالسل الذي بلغ عدد المصابين به أربعمئة ألف شخص⁽¹⁾.

ولم يكن هناك من يستطيع أن يخفف من وقع هذه الكوارث، أو يقلل من عدد ضحاياها لانعدام العناية الصحية الموجهة للجزائريين، وقلة عدد الأطباء المتوفرين، فقد دلت إحدى الإحصاءات، أنه مع أواخر الأربعينات لم يكن بالجزائر كلها سوى 1851 طبيبا، منهم 1500 طبيب يتمركزون في المدن الرئيسية الكبرى⁽²⁾ ويكادون يتعدمون بالمدن الصغيرة والأرياف التي كانت تعيش وضعية صحية مأساوية للغاية.

الهجرة إلى الخارج

عرف المجتمع الجزائري - منذ السنوات الأولى للاحتلال - ظاهرة الهجرة⁽³⁾ التي أخذت في التزايد والنمو، خاصة أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكانت هذه الهجرة متجهة إلى مناطق مختلفة، فهناك من هاجر إلى المشرق العربي قاصدا مصر أو سورية أو الأستانة، ومنهم من اتجه صوب المغرب وتونس، وقطعت أعداد كبيرة منهم البحر لتستقر بأروبا وبخاصة فرنسا، وهي البلاد التي عرفت وفود موجات كبيرة من المهاجرين الجزائريين إليها، إذ بلغ عددهم بعد الحرب العالمية الثانية أربعمئة ألف مهاجر وبلغ عددهم بعد عام 1954 حوالي

(1) إبراهيمي، محمد البشير، ((هل دولة فرنسا لا تكيه))، البصائر الثانية، ع 103، 1950، الجزائر.

(2) الودتلاني، اللخيل، الجزائر الثائرة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، د. ت، ص 401.

(3) تركي، د رابع، الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 28، 34-و: المدني، أحمد توفيق، هذه هي الجزائر ص 135، 137-و: مجلة الثقافة، ع 13، فيفري، - مارس 1973، ص 30، 34.

ستمائة ألف مهاجر في أوروبا وفرنسا، وهو رقم معتبر، يدل على أهمية هذه الظاهرة التي برزت في المجتمع الجزائري .

فالهجرة إلى المشرق العربي كانت تتم بصفة خاصة أثناء الحروب ، وثورات المقاومة الشعبية التي تزعمها بعض أبطال المقاومة كالأمير عبد القادر والحاج المقراني وغيرهما، وقد تميزت بالهجرات الجماعية، وبلغ عدد المهاجرين الجزائريين إلى سوريا وحدها عام 1911 عشرين ألف شخص، وهي أكبر هجرة عرفها المجتمع الجزائري على الإطلاق⁽¹⁾ .

واندمجت هذه الأسر المهاجرة في المجتمعات العربية، واستقرت هناك، ولم يعد يربطها بالجزائر غير الذكريات العابرة، لذلك لم يكن لها أي تأثير اجتماعي أو سياسي يذكر بعد مغادرتها للبلاد .

أما الهجرة التي يمتد شطر فرنسا فقد شملت العدد الأكبر من الجزائريين ، وكان لها آثار واضحة في استيقاظ الوعي الوطني، إذ أسهمت بشكل مباشر وفعال في تنشيط الحركة الوطنية ودفعها إلى الأمام، وظل العمال شعلة وقادة تخدم الوطن حتى بزغ عليه فجر الاستقلال .

سياسة التفريق بين العرب والبربر

ولم تكتف فرنسا بما تركته من خراب ودمار في الناحيتين الاقتصادية والسياسية، بل سعت إلى تفتيت البنية الاجتماعية للشعب الجزائري، وهي التي كانت تتميز بالتلاحم وشدة الترابط بعد أن جمعها الإسلام في حلقات قوية التماسك، وكان الهدف من تفكيك وحدة الشعب، والتفريق بين العرب والبربر، هو إضعاف روح المقاومة لدى أفرادها، وقتل كل محاولات الثورة ضده .

(1) مرتاض ، عبد الملك ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، ص 24 .

وقد تم التركيز في هذا المضمار على القبائل الأمازيغية، وحاول الاستعمار أن يتخذ من استعمالها للغة الأمازيغية في خطابها اليومي ثغرة ينفذ منها ليقطع ما بينها وبين العرب من أواصر، فتسلل إلى مناطق القبائل الكبرى، وحاول أن يقنعهم : « بأنهم من سلالة أوروبية، وأن لهم لغة خاصة لا ينبغي التفريط فيها »⁽¹⁾، وسعى - في المقابل - إلى تحريم تعليم اللغة العربية في هذه المناطق، وحارب الكتاتيب والمدارس العربية الحرة، وأسس نظاما تعليميا خاصا بالبربر دون العرب، حتى يقطع الروابط الروحية التي تجمع بينهما .

وبالإضافة إلى ذلك، شجّع الاستعمار الفرنسي ظهور الدراسات التي تكرس التفريق بين العرب والبربر، وحاول أن يكسبها طابعا علميا، عندما أسس بالمغرب والجزائر وتونس معاهد للبحوث العليا للدراسات البربرية، وقام طبيببان فرنسيان بتأليف كتاب ضخّم يبحث في مقاييس جماجم البربر، وأوصافهم وسماتهم العضوية والعرقية، ثم يقارنهم بسمات ومقاييس جماجم الغالين⁽²⁾، وهم الأجداد الأوائل للشعب الفرنسي .

وعلى الرغم مما بذله الاستعمار من جهود مضيئة في هذا المجال، إلا أن سياسته لقيت الفشل الذريع، حيث تمسك الأمازيغ : « بلغة القرآن كلغة أساسية ، مع احتفاظهم بلغتهم القبائلية المحكية »⁽³⁾، وبرهنوا للمستعمر البغيض أنهم من أحسن الناس إسلاما .

ونخلص من كل ذلك إلى القول أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر،

(1) الطالبي ، عمار ، عبد الحميد بن باديس حياته واثاره ج 1 ، دار اليقظة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1968 ، ص 49 .

(2) الكعك ، عثمان ، البربر ، سلسلة كتاب البحث ، الكتاب الخامس ، تونس ط 1 ، 1956 ، ص 134 .

(3) الخطيب د ، أحمد ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 ، ص 86 .

كانت عبارة عن مأساة حقيقية، عبر عنها أحد الكتاب الجزائريين الذين عاشوها وتجرعوا مرارتها بقوله: «لقد تسلط على الأمة عوامل ثلاثة، لو تسلط عامل واحد منها على أمة كبيرة لززع ركنها، وهدّ بناعها، ألا وهي الجهل، والفقر، والفرقة، فالجهل أفقدها شعورها بوجودها، وكيف تذب عنه، والفقر أقعدها عن العمل، وبشل أعضائها عن الحركة، والافتراق أذاب قوتها، وذهب بريحتها فبقيت والحالة هذه عرضة للتلف والاضمحلال والهلاك، وهي نتيجة طبيعية لتلك الحالة المحزنة التي جر إليها الظلم والاستبداد»⁽¹⁾.

وعلى الرغم من بشاعة هذه المأساة، فإن الشعب الجزائري حافظ على أصالته ووقف في وجه الاحتلال الفرنسي بكل ما يملك، وقاوم عوامل التنزيب والإبادة، وظل شامخا يتحدى، إلى أن تمكن من انتزاع حريته.

ثالثا : الحياة الفكرية والثقافية

لقد شهدت الحياة الثقافية خلال هذه المرحلة (1930 - 1962) نهضة ثقافية وفكرية مباركة، تطور فيها الفكر، وانتعش فيها الأدب، وازدهرت الصحافة العربية وهي تعد بحق مرحلة صحوة الضمير الجزائري الذي عاش الاغتراب والجمود طوال سنوات من الكبت الاستعماري، والإرهاب الفكري، والغزو الثقافي، وقد تولى قيادة هذه النهضة بكفاءة لم يعرف لها نظير، الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي استحق عن جدارة لقب رائد النهضة الجزائرية في العصر الحديث، وكان مجدد دين الأمة في هذا القرن كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وسنتناول في هذه الصفحات، نشأة الحركة الإصلاحية الحديثة وتطورها في الجزائر، ودورها في تغيير الأفكار والمفاهيم، ونشر التعليم العربي، وإصدار

(1) أبو . اليقظان إبراهيم ، ((شعور الأمة نائم فماذا ينبيهه)) ، جريدة وادي ميزاب ، ع 42 ، جويلية 1927 .

الصحافة العربية، ومساهمتها الفعالة في ظهور حركة أدبية قوية، وهي المعالم الكبرى للنهضة الفكرية والثقافية في الجزائر إبان هذه المرحلة.

وحتى يتسنى لنا فهم بداية هذه النهضة وتطورها، يجدر بنا قبل ذلك . أن نلقي نظرة على واقع الجزائر الثقافي بعد الاحتلال الفرنسي لها ، ونلمس مظاهر الخطة الاستعمارية وأساليبها في تطبيق سياسة الغزو الثقافي للجزائر، الذي استهدف تحطيم كل مقومات الشخصية الجزائرية من دين ولغة وتاريخ وثقافة.

لقد كان الاجتياح الفرنسي للجزائر عام 1830 يحمل بين طياته - بالإضافة إلى الطمع في الثروة والرغبة في التوسع - أهدافا صليبية أكيدة، بدت مظاهرها واضحة في وفود جماعات هامة من القسس والرهبان مع الجيش الفرنسي، ترافقه في حله وترحاله، وفتهد لحملة صليبية واسعة على الشعب الجزائري، فقد كتب قائد جيش الاحتلال عام 1830 إلى القسيس الذي رافقه في حملته كتابا يقول فيه: « إنكم جئتم معنا إلى هنا لتفتحوا من جديد أبواب المسيحية في إفريقيا »⁽¹⁾.

لقد أدرك الإستعمار منذ البداية - وهو الذي كان يطمع في البقاء بأرض الجزائر إلى الأبد - أن إخضاع السكان عسكريا ليس كافيا لتثبيت أقدامه، ولن يوفر له الأمن والاستقرار، مادام سكان البلاد يعتزون بانتمائهم إلى حضارة غير حضارته.

وانطلاقا من ذلك، سعى منذ سنوات الاحتلال الأولى إلى شن حملة رهيبة واسعة استهدفت الثقافة الجزائرية المتميزة بطابعها العربي الإسلامي ، للقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية وطمس معالمها ، ومحو آثارها ، واستبدالها بثقافة فرنسية دخيلة حتى يقطع بين حاضر الجزائريين وماضيهم . وقد تميزت الهجمة

(1) عباس ، لرحات ، ليل الإستعمار ، ص 91 .

الاستعمارية على الثقافة الجزائرية ببشاعة وهمجية، فاقت بشاعته وهمجيته العسكرية، وأعادت إلى الأذهان ما فعله التتار عند دخولهم إلى بغداد .

وافتتحت الحملة الفرنسية حربها ضد مقومات الشخصية الجزائرية بالهجوم الشامل على الإسلام ، فاستهدفتها في المساجد التي اقتحمها الرهبان بصلبانهم فحولوها إلى كنائس، واستباح حرمتها الجنود، فجعلوا منها ثكنات واصطبلات لخيولهم، ومخازن للمؤونة والذخيرة⁽¹⁾ .

ولقيت المؤسسات التعليمية ومراكز الثقافة العربية في الجزائر المصير نفسه الذي لقيته المؤسسات الدينية ، فقد لاحظ المؤرخون أن الجزائر كانت عشية الاحتلال، تعيش جوا ثقافيا مليئا بالحيوية والنشاط، بدليل المدارس والمعاهد التي كانت منتشرة في جميع أنحاء القطر، يقول أوجين كومب أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي إنه: « كان هناك أكثر من ألفي مدرسة للتعليم الابتدائي والثانوي والعالي، وكان يتولى التدريس فيها نخبة من الأساتذة الأكفاء »⁽²⁾ .

ومع حلول الجيش الفرنسي بالجزائر ، عرفت هذه المدارس انحسارا كبيرا ، إن لم نقل أنها كادت تختفي تحت الضربات الموجعة لجيش الاحتلال الذي وضع يده عليها، فحول بعضها إلى مدارس فرنسية، وسلم بعضها إلى البعثات التبشيرية لتمارس من خلالها حملتها التنصيرية وهدم كثيرا منها في طريقه .

وقد أثر استيلاء الفرنسيين على الأوقاف تأثيرا سيئا وعميقا في اندثار كثير من هذه المدارس والمراكز الثقافية، لأنها كانت الممول المادي الرئيسي لها، فقد كانت الأوقاف الإسلامية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، تبلغ ستة وستين

(1) المدني ، أحمد فؤاد ، كتاب الجزائر ، ص 203 ، 208 ، 239 .

(2) الخطيب ، د . أحمد ، الثورة الجزائرية دراسة وتاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 1957 ، ص 128

بالمائة من مجموع الأملاك العقارية والزراعية، تشرف عليها إدارة أهلية، وكانت عائداتها تصرف على المساجد والزوايا والمدارس والمعاهد التعليمية، ويتقاضى منها الأئمة والقضاة ورجال الإفتاء والقائمون بالتعليم روابتهم، ويأخذ منها الفقراء والمساكين حاجتهم، بل كان هناك أوقاف خاصة بالحرمين الشريفين،⁽¹⁾ وقد صادرها الاستعمار الفرنسي، فانقطع بذلك المدد المادي عن هذه المؤسسات مما أدى إلى تشريد القائمين عليها وتوقف رسالتها العلمية .

وعبثت أيدي الجنود المحتلين بالمكتبات العامة والخاصة التي كانت تزخر بها معظم المساجد والمدارس والزوايا وبيوت الأعيان، وكانت تحتوي على ثروة هائلة من الكتب والمخطوطات والوثائق، فأحرقت منها أعداد هامة جدا، ونهبت منها مخطوطات كثيرة، أرسلها جنود الحملة إلى أهاليهم بفرنسا: « وهذا هو تفسير ظاهرة انتشار المخطوطات العربية في مكتبات البلديات الفرنسية في معظم مدن فرنسا »⁽²⁾ .

وكان القصد من وراء ذلك، هو محو جميع آثار الثقافة العربية بالجزائر ، وطمس معالمها الحضارية لتحطيم الكيان الثقافي للشخصية الجزائرية، حتى يخلو الجو لمعركة الغزو الثقافي الواسعة التي كانت تهدف إلى تحويل الجزائر إلى قطعة من فرنسا .

وقد أدت هذه الهجمة الشرسة على الثقافة العربية إلى تعميم الجهل وانتشار الأمية، وعلى الرغم من أن المدارس الفرنسية قد فتحت أبوابها لبعض الجزائريين إلا أن معظمهم عزف عن التعلم فيها لأنهم كانوا يرون: « أن الطفل أيسر له أن يبقى

(1) السليحي ، بسام ، عبد الحميد بن باديس ، دار النفائس ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1982 ، ص 29 .

(2) تركي ، د . رابع ، التعليم القومي والشخصية الوطنية ، ش . و . ن . ت . الجزائر ، 1975 ، ص 95

أميا ، أو يتعلم في الكتاتيب القرآنية، ولا يتعلم لغة الكفار .

وبعد أن أحمكت السلطات الفرنسية قبضتها على البلاد، واصلت حربها الضروس ضد العربية، فأصدرت جملة من القوانين تنص كلها على تحريم تعليم اللغة العربية، وتعاقب بشدة كل من يحاول فتح مدرسة أو كتاب دون إذن أو ترخيص من الإدارة الإستعمارية، ومنه قانون 24 ديسمبر 1904 ، ومنعت معلمي المدارس العربية المرخص لها من فتح أبواب مدارسهم أثناء الساعات التي تفتح فيها المدارس الفرنسية: « في محاولة للحد من نشاط التعليم في المسجد والمكتب ، وحتى يرغم التلاميذ على التوجه إلى مدارسها التي أظهر الأولاد وأهاليهم عزوفا عن تعليمها الفرنسي، وقد رأوا فيه خطرا يهدد دينهم ويضر بأصالتهم »⁽¹⁾.

وتوجت فرنسا كل هذه المجهودات بقانون 8 مارس 1938 الذي أصدره وزير الداخلية الفرنسي (شوطان) والذي يؤكد منع تعليم اللغة العربية ، ويعتبرها لغة أجنبية، ويعد تعليمها ونشرها بين أبناء الجزائر: « محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية »⁽²⁾.

وبالموازاة مع سياسة الهدم التي مارستها فرنسا ضد مراكز الثقافة بالجزائر، كانت هناك حملة واسعة لنشر اللغة الفرنسية وتثبيت دعائمها في البلاد، حيث سيطرت على المؤسسات التعليمية والمراكز الثقافية، والمؤسسات الإدارية والاجتماعية والاقتصادية، وأصبحت هي اللغة الرسمية السائدة .

وبعد هذا الاستعراض السريع لمظاهر الحرب القاسية التي شنتها فرنسا على مقومات الشخصية الجزائرية لمدة قرن كامل، نعود فنقول أن هذه السياسة

(1) شراد، شلتاغ عبود، حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 20.

(2) العسلي، بسام، عبد الحميد بن باديس، ص 51.

(3) جانشون، كوليت ولرانسيس، الجزائر الثائرة، ص 130.

الاستعمارية قد تركت بصماتها السوداء على الفكر والثقافة في الجزائر، وجعلت الإنسان الجزائري يعيش حالة من الاغتراب الكامل عن لغته ودينه وتراثه .
ولكن الله سبحانه وتعالى قيّض لهذه الأمة، وفي هذه المرحلة الحالكة المظلمة ، رجلا حكيما رشيدا صلبا، جدد لها دينها، ابتعثه القدر: << ليؤلف من الشعب ما عجزت عنه الأيدي المهزوزة، ويفجر فيه ما قصرت عنه العقول المتحجرة >>،⁽¹⁾ وهو الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الجزائرية الحديثة وقائد الحركة الإصلاحية المغوار بلا منازع .

فقد ظهرت البدايات الحقيقية لحركة التجديد الإسلامي مع عودة ابن باديس من أرض الحجاز عام 1913 ، حيث رابط بمسجدي ابن قموش، والجامع الأخضر بقسنطينة وتولى التدريس والتفسير والوعظ والإرشاد، وكان يبدأ دورسه من بعد صلاة الفجر إلى منتصف الليل، يحرر العقول من الخرافات والبدع والأضاليل ، وينورها بعقائد الإسلام وآدابه وأخلاقه وفضائله .

وانضم إليه، بعد الحرب العالمية الأولى، نخبة طيبة من العلماء الذين عادوا من المشرق العربي وتونس، فأحدثوا ثورة تعليمية وفكرية في مختلف أنحاء القطر، وظلوا على تلك الحال إلى أن جمعتهم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تنظيم موحد، ويمكن لنا تحديد الآثار التي تركتها حركة التجديد الإسلامي في النهضة الثقافية الحديثة بالجزائر في جوانب عدة هي :

١ - تغيير المفاهيم والأفكار :

لقد كان المجتمع الجزائري قبل ظهور الحركة الإصلاحية، يعج بالمفاهيم الخاطئة والأفكار الفاسدة التي انتشرت بشكل واسع بين الناس بتشجيع من

(1) خرفي ، د . صالح ، المخل إلى الأدب الجزائري الحديث ، الثالثة ، ع 21 ، 1974 ، ص 36 .

الاستعمار الفرنسي والطرقية، فكانت البدع والخرافات والأضاليل تعشش في العقول والوجدان، وكانت النفوس خاضعة خضوعاً تاماً لتأثير الطرقية، مستسلمة لسيطرتهم الروحية.

فأصاب العقول - من جراء ذلك - ركود وجمود وقحط شديد، وتوقفت عن التفكير الذي عطلة الطرقية بمقولة (اعتقد ولا تنتقد) ، وطفى على الناس شعور عام باليأس والقنوط والإحباط، واستناموا لواقع الاستعمار الذي كانوا يرون فيه قضاء وقدرًا محتوماً، فشاع بينهم الكسل والتواكل .

وفي هذا المنعرج الخطير، بدأت الحركة الإصلاحية مسيرتها ، فتصدت لهذا الواقع المرير، والركام الضخم من الأباطيل، واستهدفت أفكاره ومفاهيمه بالتغيير ، حيث رابط رجالها بالمساجد، يقتلعون جذور الفساد من العقول، ويضيئونها بنور المعرفة، واستجمعوا جهودهم في محاضرات ودروس ومواعظ لا تكاد تتوقف ، ليحرروا الإنسان الجزائري من القيود التي كانت تكبل عقله وتشل حركة تفكيره .

وقدم رجال الإصلاح الإسلام للناس في سهولته ويسره، وبسطوا عقائده وأخلاقه وفضائله للعامة في سماحة، ووضحوا صورته المشرقة الناصعة ونبعه النقي الصافي كما جاء في الكتاب والسنة، وكان شعارهم في ذلك « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » كما ورد في الأثر .

وبدأت المفاهيم البالية والأفكار العتيقة تتساقط الواحدة تلو الأخرى، ويتساقط معها أساطين الطرقية الذين حموها وحصنوها بخرافاتهم طوال سنوات الظلام ، وعرف العقل الجزائري طريقه إلى التفكير الصحيح السليم، بعد أن حمل رجال الإصلاح حملة شعواء على التقليد والجمود، واستحثوا العقول لتتحرك وتتساعل وتشك، وتبحث عن الدليل المقنع والحجة الدامغة فيما يصل إليها من معارف، وكان هذا في حد ذاته انتصاراً كبيراً على الواقع المظلم المتردي.

2 - نشر التعليم العربي :

كان رجال الحركة الإصلاحية في الجزائر، يؤمنون بضرورة التعليم، ويعدونه الدعامة الأساسية التي تقوم عليها النهضة الفكرية في البلاد، فالجهل عدو الإنسان وعدو التقدم، لذلك بذلوا في هذا المجال جهودا جبارة، وأعلنوا ثورة في مجال التعليم، خرجت الآلاف من أبناء الجزائر الذين حملوا العلم الصحيح، والعقيدة النقية، والإيمان الصادق، وكانوا وقود الثورة وحملة مشعلها .

وقد كان عبد الحميد بن باديس مصيبا إلى حد بعيد عندما بدأ عام 1913 عمله التغييري بثورة تعليمية: «> ذلك أن قدرة التعليم على غرس القيم وقلب الأوضاع السلوكية على مستوى الفرد والمجتمع، وقلب الأوضاع السياسية والاقتصادية أمرا لا ينكره أحد، ولذلك كان اتجاه ابن باديس إلى تعليم الناس هو الصواب بعينه، ولو اختار منقذا آخر لأضاع الفرصة وضع جهده دون حصاد نافع»⁽¹⁾.

كما أدرك رجال الحركة الإصلاحية أن نشر التعليم العربي سيكون له شأن وأي شأن في مستقبل الجزائر، لأن العلم يورث صاحبه العقل المتزن والبصيرة الثاقبة التي تقدر العواقب، والإيمان القوي الذي يثبت أمام المحن، وبهذه الضال يستطيع الشعب أن يقف في وجه الاستعمار ، لذلك قال إبراهيمي أن جمعية العلماء حينما تبنت في برنامجها محاربة الطرقية وإقامة المدارس الحرة وطالبت بفصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية، كانت بذلك قد حققت نصف الاستقلال⁽²⁾.

(1) الجورشي . صلاح الدين . تجربة في الإصلاح ، تونس ، ط 1 ، د . ت . ص 30 .

(2) إبراهيمي . محمد البشير ، ((أتا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 25 .

وانطلاقاً من هذا المبدأ، اهتمت هذه الحركة بإنشاء المدارس الحرة وبينائها منذ البدايات الأولى لظهورها، وصمد رجالها في الدفاع عنها على الرغم مما ساء لهم الاستعمار بسببها من أسواط العذاب والاضطهاد، ومن دلائل صلابتهم واستماتتهم في الذود عن هذه المدارس، ما قاله ابن باديس للسلطات الاستعمارية، حينما طالبته بتسليم إحدى المدارس الحرة لتحويلها إلى مدرسة فرنسية: « لا يمكن أن تحل الفرنسية، وتطرد العربية من مدرسة أسسها الشعب بأمواله لتعليم العربية، وإن تخرج العربية من هذه المدرسة حتى تخرج روجي من جسدي »⁽¹⁾ وقد غطت المدارس رقعة واسعة من القطر الجزائري، وانتشرت في كثير من المدن والقرى، نظرا للجهود الكبيرة التي بذلها رجال الإصلاح في إيصال التعليم العربي إلى أكبر عدد ممكن من الجزائريين، وينظرة عاجلة إلى الإحصاءات التي نشرتها جريدة البصائر الثانية في نهاية عام 1950، يتضح لنا أن الحركة الإصلاحية قد استطاعت منذ انطلاقتها المباركة إلى بداية الخمسينات أن تكون جهازا تعليميا قويا وراقيا، حيث بلغ عدد المدارس مائة وستة وعشرين مدرسة، يستثنى منها المدارس التي أغلقها الاستعمار، وبلغ عدد المعلمين فيها ما نتين وخمسة وسبعين معلما، يستثنى منهم أيضا المعلمون الذين كانوا يقبعون في سجونهم بسبب آرائهم الوطنية الحرة.

وخرجت هذه المدارس زهاء مائة وخمسين ألفا من حاملي الشهادة الابتدائية، وبلغ عدد تلامذة معهد ابن باديس الثانوي عام 1955 ما يقارب الألف طالب، موزعين على السنوات الأربع، وكانوا جميعا: « يحملون علما قليلا، ولكن معه فكر

(1) إبراهيم د. أحمد طالب، من تصفية الإستعمار إلى الثورة الثقافية، ش. و. ن. ت. الجزائر، ط 1، د. ت. ص 77.

صحيح، وعقيدة قومية سليمة، ونظرة إلى الحياة سديدة»⁽¹⁾ ولقد أدى انتشار التعليم العربي في الجزائر إلى ازدهار اللغة العربية، وانتعاش الحياة الثقافية، وتطور الفكر الجزائري، وظهور نهضة علمية وأدبية واسعة .

3- إصدار الصحافة العربية :

لقد عرف رجال الإصلاح خطر الصحافة، وتنبهوا إلى قدرتها الفائقة على نشر الأفكار وتنوير العقول منذ البدايات الأولى للنهضة الإصلاحية، فأسسوا الصحف والجرائد التي تحمل مبادئ الإصلاح .

وقد ذاق كتاب الصحافة العربية الأمرين على يد السلطات الاستعمارية، التي وضعتهم أمام خيارين أحلاهما مر: إما الاستسلام وإما المعاناة، وقد اختاروا بإيمانهم الصادق وثباتهم على المبدأ الطريق الثاني، على الرغم مما كلفهم ذلك من تضحيات جسام.

ولعل هذه المصائب الشديدة التي عصفت بالصحافة العربية، تعود أساسا إلى إيمانها القوي بفكرة الإصلاح، ودعوتها إليه في لهجة حارة وحماسة شديدة. فقد صارعت الاستعمار الفرنسي، وفضحت أساليبه العنصرية في التعامل مع الجزائريين، وبينت مظالمه، وكشفت عن الجرائم التي يرتكبها في حق شعب بأكمله، ودعت الجماهير إلى المطالبة بحقوقها ورفع نير الجور عن كاهلها .

كما حملت بشدة على الطرقية التي كانت حليقة الاستعمار في تخدير الشعب، وإلقاء غشاوة كثيفة من الترهات والأباطيل على عينيه حتى لا يفيق من رقدته، ولا يلتفت إلى واقعه، وقد نال الطرقية على يد رجال الإصلاح، من خلال صحفهم ، هجمات عنيفة زلزلت كياناتهم، وهددت مراكزهم بالسقوط، وجعلت الناس ينفضون

(1) الحوماني ، محمد علي ، الأصليون ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، مصر ، 1955 ، ص 211 .

عنهم، ويلتفتون إلى باب العلم الصحيح الذي فتحت له حركة الإصلاح .
وقد بلغ من غيظ الطريقة على صحف الحركة الإصلاحية أن أفتوا بتحريم
قراءة الصحف، وجعلوا قاريء الصحيفة ولاعب القمار في منزلة واحدة، فكانوا
كما قال الطيب العقبي يعتبرون: « (علم الجرنال) علما محرما لا يقل جرم
صاحبه عن جرم لاعب القمار »⁽¹⁾.

والجدير بالذكر أن الصحافة العربية لم تقتصر في كتاباتها على محاربة
الاستعمار والطريقة فحسب، بل كانت منبرا حرا لنشر الأفكار الإصلاحية في
المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية، وميدانا فسيحا تتبارى فيه
أقلام الأدباء والشعراء، وكان لتاريخ الجزائر حظ وافر في هذه الصحافة التي
اهتمت بهذا الجانب باعتباره مقوما هاما من مقومات الشخصية الجزائرية في تلك
الظروف.

ومن أهم الصحف والجرائد التي اتخذتها الحركة الإصلاحية منبرا لنشر
أفكارها وتبيان مواقفها: جريدة المنتقد والشهاب، والجزائر، وصدى الصحراء،
وادي ميزاب، والبرق، والسنة، والشريعة، والصراط، والبصائر الأولى والبصائر
الثانية وغيرها .

ويتضح مما سبق أن الصحافة العربية في الجزائر قد قامت بدور هام وخطير
في بث الشعور الإسلامي بين أبناء الجزائر، وإيقاظ الأمة من غفلتها، ونشر الوعي
السياسي والاجتماعي بين مختلف طبقات المجتمع، كما أسهمت في تطوير أسلوب
النثر وترقية نظم الشعر، ونشر اللغة العربية على نطاق واسع .
وكانت هذه الصحافة أيضا وسيلة هامة لتعميق التفكير، وإحياء الثقافة

(1) العقبي، الطيب، ((ما ذا ينتقون علي ؟))، جريدة الإصلاح، ع7، 7 نوفمبر 1929، بسكرة

العربية، وتم على يديها تفتيق القرائح وإحياء المواهب وتشجيعها على الإبداع، مما أدى إلى ظهور نخبة ممتازة من الكتاب والشعراء، والمفكرين الذين أسهموا في النهضة الحديثة بالجزائر.

وقد استطاعت الصحافة العربية أن تحقق هذه الأهداف جميعاً، وأن تسجل هذه الانتصارات الباهرة على مستوى شعب كان يعاني المسخ المستمر، على الرغم مما عانته من قمع الاستعمار واضطهاده، فقد سقطت هذه الصحف التي أسلفنا الحديث عنها شهيدة الواحدة تلو الأخرى، وكانت كلما استشهدت واحدة تحت ضربات الاستعمار ظهرت أخرى ت خلفها وتواصل مسيرتها، وتحمل راية الإصلاح بدلها، فقد كان تصميم رجال الإصلاح وعزمهم أكبر من أن تقت في عضدهم قرارات التعطيل المتوالية، وبذلك أدت الصحافة دورها الإصلاحي وكان لها أثرها العميق في النهضة الفكرية الجزائرية.

4 - الحركة الأدبية :

تعد الحركة الأدبية الحديثة في الجزائر، ثمرة من ثمرات الحركة الإصلاحية، فقد نشأت في ظلالها، وترعرعت في أفيائها، وازدهرت في ركاياها، ولم يكن ذلك غريباً، فكما استطاعت الحركة الإصلاحية أن تحدث في الجزائر نهضة فكرية وتعليمية وصحفية تغير بها معالم الواقع الثقافي الجزائري، استطاعت في الوقت ذاته أن تحدث نهضة أدبية تمثلت في تلك النخبة الممتازة من الأدباء والشعراء الذين عرفوا من معين حركة الإصلاح، وذلك النشاط الأدبي الذي شمل الشعر والقصة والمسرحية والمقالة وغيرها من الألوان الأدبية، التي انتشرت الأدب الجزائري من الركود والانحطاط اللذان عانى منهما قبل ظهور الحركة الإصلاحية . وقبل أن نتحدث بشيء من التفصيل عن هذه النهضة، ينبغي أن نشير إلى البدايات الأولى التي سبقتها، والتي بدأت تظهر مع مطلع القرن العشرين على يد

مجموعة من المثقفين الجزائريين الذين نالوا حظا من التعليم العربي، وتأثروا بالنهضة المشرقية عن طريق الجرائد التي كانت ترد إلى الجزائر من هناك، وبدأوا يفتحون أعينهم على الواقع المظلم، الذي يحيط بهم، فكانوا في نتائجهم الأدبي يخطون أول خطوة نحو نهضة مقبلة.

وعلى يد هؤلاء بدأ الشعر يتخلص نوعا ما من بعض أثقال الصنعة التي ترهقه، ويخرج رويدا من سجن القصائد الفقهية والصوفية والنحوية والكلامية . فقد انطلق هؤلاء في ميدان جديد يعبرون فيه عن آمالهم في إصلاح الواقع الفاسد، فحاربوا في قصائدهم، الجهل وامتدحوا العلم، ودعوا إلى الأخذ بأسباب المدنية المعاصرة، ونادوا بالإصلاح الاجتماعي وعبروا عن شعورهم الوطني وانتمائهم الحضاري، وهي موضوعات لم يكن لها وجود فيما سبقها من أشعار.

وقد سارت هذه الحركة الأدبية بخطى وثيدة جدا ، وكانت في أغلبها محاولات فردية لم تنح لها الظروف أن تتجمع لتكون حركة أدبية قوية وناضجة. وظل الحال على ما هو عليه إلى أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وعرف المجتمع الجزائري بعدها تطورا هاما على جميع الأصعدة، عند ذاك تبلورت الفكرة الإصلاحية، ووجد لها رجالها الذين يقودونها ويبشرون بها، وظهرت معالمها الواضحة عام 1925 ، عندما صدرت جريدة (المنتقد) التي جهزت بأرائها الإصلاحية، واحتضنت فكرة إحياء التراث العربي، وانعاش الأدب، ومدته بأسباب الحياة حتى يقوم بدوره في حركة التغيير.

وحول هذه الحركة التف الشعراء والأدباء، ومن هنا كانت البداية الحقيقية لظهور الحركة الأدبية الحديثة في الجزائر التي ازدهرت، وملا الإنتاج الأدبي الغزير صحف وجرائد الحركة الإصلاحية، التي احتوتها وشجعته، وفتحت صفحاتها للمواهب الجديدة، والقرائح المفتحة، فلا تكاد تخلو صحيفة من نص أدبي.

وعندما برزت جمعية العلماء المسلمين إلى الوجود في مطلع الثلاثينات، سعت جاهدة إلى بعث نهضة فكرية وأدبية شاملة، حيث جندت لذلك رجالها وصحفها ونواديها الثقافية، ووجدت اللغة العربية طريقها إلى أذهان طلاب العلم فاستقامت أسنتهم، ونمت ملكاتهم، وتهذبت أنواقهم، وكان من نتائج ذلك أن خرجت مدارس العلماء: «شعراء وكتّاباً وخطباء، وأصبح الشعر والكتابة والخطابة أدوات تقدم، ووسائل حياة لهذه الأمة، إذ لم تنصرف في القنون السخيفة التي كانت تنصرف فيها، ولم تضطرب في الميادين الضيقة التي كانت تضطرب فيها، بل انطلقت أمام الحياة تمهد لها السبيل وتفتح لها المغالق»⁽¹⁾.

وقد استمرت هذه الحركة الأدبية في عطاءها وازدهارها، تسير بخطى ثابتة نحو الأحسن، حتى أصبحنا نرى بعد الحرب العالمية الثانية نهضة أدبية ثابتة الجذور، نامية الفروع، واضحة المعالم، وطيدة الأركان، متينة البنيان، تشمل معظم الفنون الأدبية من خطابة ومقالة وقصة ومسرحية وشعر⁽²⁾، اكتست في هذه الآونة طابعا جماليا راقيا، وقيمة فنية عالية، حيث ابتعدت: «عن التوجيه المباشر الثقيل على النفس إلى الطريقة الأدبية المحضة التي تسخر الكلمة المعبرة الجميلة للبحث عن سعادة الإنسان، أو تصوير انفعالاته الباطنة بما فيها من أمل وألم، وحب وكره، وسعادة وشقاء، وقد أصبح هذا الاتجاه يشكل عنصر قوة وينبوع جمال معا في الثقافة الجزائرية المعاصرة»⁽³⁾.

وقد عرف النثر الجزائري الحديث: المقالة الأدبية، والقصة القصيرة، والرواية، والفن المسرحي، والخطابة، والمذكرات، والسيرة الذاتية، والرسائل، وأدب الرحلات،

(1) إبراهيمي، محمد البشير، ((عرض الحالة الطمعية، مجلة الشباب، ج 9، مع 10، اوت 1934، ص 386.

(2) مرتاش، عبد الملك، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 94، 161، 197.

(3) المصدر نفسه، ص 56.

والنقد الأدبي، ونبع في هذه الألوان الأدبية نخبة هامة من أعلام النثر الجزائري⁽¹⁾،
كما ازدهر الشعر الجزائري الحديث وتآلق فيه لفيف من الشعراء الجزائريين⁽²⁾
الذين أصبحوا يضاهون بنتائجهم الشعري كبار شعراء المشرق العربي .
ونخلص إلى القول - من خلال استعراضنا للحياة العامة في الجزائر بمختلف
نواحيها - أن المجتمع الجزائري عانى الكثير من الاضطهاد والقهر والحرمان بسبب
السياسة الإستعمارية التي حاولت طمس مقومات الشخصية الجزائرية، لكنها باءت
بالفشل الذريع عندما واجهت رجال الإصلاح الذين كشفوا عن مؤامرات الاستعمار
وحرروا الشعب من قبضته .

-
- (1) ومنهم : عبد الحميد بن باديس (1889 - 1940) ، محمد البشير الإبراهيمي (1889 - 1965) ، ومحمد السعيد الزاهري (1899 - 1957) ، وأحمد توفيق المدني (1896 - ٢) ، وأحمد رضا حوجر (1911 - 1956) ، ومحمد العابد الجيلالي (1890 - 1967) ، ومحمد الصالح رمضان (1914 - ٢) وحمة بوكوشة (1907 - 1994) وأحمد بن بواب (1914 -) .
(2) ومنهم : محمد العيد آل خليفة (1904 - 1979) ، ومهدي زكريا (1908 - 1977) ، وإبراهيم أبو البقطان (1888 - 1973) ، ومحمد الصالح خيشاش (1904 -) ، والربيع بوشامة (1916 - 1959) ، ومحمد البهادي السنوسي (1902 - 1974) ، وأحمد سمحون (1907 -) ، والأمين العمودي (1890 - 1957) ، ومحمد الأخضر السانحي (1918 -) ، وعبد الكريم المقرن (1918 - 1959) .

ب - حياة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وأعماله

1 - نشأته وتكوينه

2 - رحلته إلى الحجاز

3 - انتقاله إلى دمشق

4 - نشاطه الإصلاحي في الجزائر

5 - رحلته إلى المشرق العربي

6 - وفاته وأثره

نشأته وتكوينه

ولد محمد البشير بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي يوم الخميس 13 شوال 1306 للهجرة الموافق لـ 14 جوان 1889⁽¹⁾ ، وهو ينتمي إلى قبيلة ربيعة المعروفة بأولاد إبراهيم، وتقع بدائرة رأس الوادي جنوب مدينة سطيف ، ويرجع نسب هذه القبيلة إلى إدريس بن عبد الله⁽²⁾ مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب . نشأ الإبراهيمي في أسرة عرفت بالتقوى والورع، وحب العلم الذي ورثته أبا عن جد لمدة تزيد عن خمسة قرون: « من لدن خمول بجاية وسقوطها في القرن التاسع الهجري، وقد كانت بجاية دار هجرة للعلم وخصوصا للأقاليم المتاخمة لها مثل إقليمنا »⁽³⁾ ، وقد خرج من هذا البيت عدة علماء أسهموا في نشر العلم بالمناطق التي جابوها .

وقد تعهده أبوه منذ نشأته بالتربية الدينية، وشمله برعايته، ولما بلغ الثالثة من عمره أدخله كتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم، ويتعلم المبادئ الأولية للقراءة والكتابة، وكان يشرف عليه في ذلك عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي الذي: « كان حامل لواء الفنون العربية غير مدافع من تحوها وصرفها واشتقاقها ولغتها »⁽⁴⁾.

ولما بلغ الإبراهيمي التاسعة من عمره، كان قد أتم حفظ القرآن، وفهم كثيرا من مفرداته وغريبه ، كما استوعبت حافظته بعض متون الفقه واللغة والنحو ، فاستظهر ألفية ابن مالك، وألفية ابن معطي الجزائري، وألفيتي الحافظ العراقي في

(1) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 11

(2) هو إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، دخل المغرب عام 170 للهجرة قادرا من موقعة (فخ) التي كانت بين العباسيين والفلويين ، وإليه ترجع أنساب الأشراف الحسينيين في المغرب والجزائر .

(3) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 12 .

(4) المصدر نفسه ، ص 12 .

السير والأثر، وجمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني ، ورقم الحل في نظم النول لابن الخطيب، وأشعارا كثيرة لفحول شعراء المغرب والأندلس⁽¹⁾ .

ثم وجهه عمه إلى فحول شعراء المشرق، فحفظ ديوان المتنبي وديوان الحماسة لأبي تمام، وحفظ رسائل سهل بن هارون وبديع الزمان، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني، وكتاب الفصيح لثعلب، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السكيت: « وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكتي اللغوية »⁽²⁾.

وقد استطاع الإبراهيمي أن يهضم هذه المعارف جميعها، وأن يستوعبها استيعابا كاملا، بفضل الرعاية التي كان يشمله بها عمه الذي لم يكن يفارقه لحظة، وظل يلقنه العلم حتى وهو على فراش الموت، ثم بفضل ما حباه الله به من حافظة عجيبة وذاكرة قوية حادة، مكنته من الإلمام بأطراف كثيرة من العلم في سن مبكرة، ويصف ذلك بنفسه في قوله: « لم يكن شيء من ذلك يرهقني لأن الله تعالى وهبني حافظة خارقة للعادة، وقريحة نيرة وذهنا صبوراً للمعاني ولو كانت بعيدة »⁽³⁾ ، مما حدا بعمه إلى إجازته بالتدريس في سن الرابعة عشرة من عمره .

وبعد وفاة عمه، خلفه في تدريس طلاب العلم الذين كانوا يقصدونه من المناطق المجاورة، وظل على هذه الحال مدقمن الزمن، انتقل بعدها إلى زاوية سيدي علي بن الشريف في شلاطة بجبال القيائل: « درس فيها على العالم الجليل، والمعلم المربي الماهر الشيخ الطيب بن مبارك اليعلاوي الزواوي، ونبغ الشيخ البشير في زاويته هذه

(1) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 13 .

(2) المصدر نفسه ، ص 13 .

(3) المصدر نفسه ، ص 14 .

في العلوم العربية والشرعية

ثم اشتغل بالتدريس بزاوية سيدي الحواس لمدة أربع سنوات، ولما جاوز العشرين من عمره، تأقت نفسه إلى الهجرة ليلتحق بوالده الذي سبقه إلى المدينة المنورة عام 1908.

رحلته إلى الحجاز :

خرج إبراهيمي من الجزائر متخفيا عام 1911 ، فمر بتونس وليبيا، ووصل إلى القاهرة فأقام بها ثلاثة أشهر، طاف خلالها بآماكن العلم وجالس العلماء، وجال بالجامع الأزهر وعرف علماء وحضر بعض دروسهم : >> فممن عرفته وحضرت دروسه الشيخ سليم البشري، والشيخ محمد بخيت حضرت درسه في البخاري في رواق العباسي، والشيخ يوسف الدجوي حضرت درسه في البلاغة، والشيخ عبد الغني محمود، والشيخ السماطوي، حضرت لكليهما درسا في المسجد الحسيني، ... وحضرت عدة دروس في دار الدعوة والإرشاد التي أسسها الشيخ رشيد رضا في منيل الروضة»⁽¹⁾ ، كما كان له جولات زار فيها بعض شعراء مصر المجيدين من أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم اللذان التقاهما وقرأ عليهما بعض ما يحفظ من أشعارهما .

وبعد ذلك شد الرحال إلى الحجاز التي قصدتها عن طريق البحر الأحمر إلى حيفا، ثم ركب القطار إلى المدينة المنورة التي وصلها في أواخر عام 1911⁽²⁾ ، وهناك التقى بوالده، وشرع في الطواف بحلقات العلم يختبرها، ويبحث عن بغيته فيها، فوجدها عند شيخين من العلماء، فلأزمهما وأخذ عنهما كثيرا من العلوم وهما

(1) دبور، محمد علي، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1974، ص 20.

(2) إبراهيمي، محمد البشير، ((أنا))، الثقافة، ع87، ص 14، 15.

(3) المصدر نفسه، ص 15.

الشيخ العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، فأخذ عن الأول الموطأ دراية ودراسة، ودرس عليه فقه مالك، وأخذ عن الثاني صحيح مسلم، وقال عنهما : «> لم أرمثل الشيخين في فصاحة التعبير ودقة الملاحظة ، والغوص عن المعاني، واستنارة الفكر، والتوضيح للغوامض، والتقريب للمعاني القصية»⁽¹⁾.

وقد أخذ الإبراهيمي بعض العلوم الأخرى عن علماء آخرين التقى بهم في الحجاز : فأخذ علم التفسير عن الشيخ إبراهيم الأسكوبي، والجرح والتعديل عن الشيخ أحمد البرزنجي الشهرزوري⁽²⁾ ، وأنساب العرب والأدب الجاهلي والسيرة النبوية عن الشيخ محمد عبد الله زيدان الشنقيطي، وأتم معلوماته في علم المنطق عن الشيخ عبد الباقي الأفغاني، وذاكر الشيخ أحمد خيرات الشنقيطي في اللغة والشعر الجاهلي ومنه المعلقات العشر⁽³⁾.

ولم يكن ذلك ليكفيه، فما إن ينتهي من حلقات العلم التي يأخذ منها، ومن حلقات التدريس التي يقيمها لطلبته ، حتى يأخذ طريقه إلى المكتبات العامة والخاصة⁽⁴⁾ يطوف بها الواحدة تلو الأخرى، ينهل من كتبها النادرة ويستزيد من العلم، وتشكلت شخصية الإبراهيمي العلمية والثقافية والفكرية خلال هذه المرحلة التي أمضاها في المدينة طالبا مجدا، وبها استكمل جوانب ثقافته الموسوعية، لذلك

(1) الإبراهيمي، «أنا، الثقافة»، ع 87 ، ص 15 .

(2) هو أحد شيوخ الإبراهيمي الأجلاء ، كان يجالسه كثيرا حتى أجاز له بكل مروياته من مقروء ومسموع ، توفي بدمشق سنة 1919 .

(3) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 16 .

(4) من بين المكتبات التي كان يرتادها الإبراهيمي : مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت ، ومكتبة السلطان محمود ، ومكتبة الشيخ الزبير ، ومكتبة بشيراغا ، ومن المكتبات الخاصة : مكتبة آل الرصافي ، ومكتبة رباط سيدنا عثمان ، ومكتبة آل الحفني ، وآل هاشم ، ومكتبة عبد الجليل برادة ، ومكتبة الوزير التونسي العربي زروق (الإبراهيمي ، محمد البشير ، الثقافة ، ع 87 ، ص 17)

قال : « وبالجمله ، فقد كانت إقامتي بالمدينة المنورة أيام خير وبركة علي »⁽¹⁾ .
وفي عام 1913 ، زار الشيخ عبد الحميد بن باديس الحجاز للحج ، وهناك
التقى بالشيخ الإبراهيمي ، ووضعوا معا - لمدة ثلاثة أشهر - البرامج المفصلة لبعث
حركة إصلاحية بالجزائر .

انتقاله إلى دمشق

وقد بقي الإبراهيمي - طوال السنوات الأولى للحرب العالمية الأولى - يواصل
رحلة التحصيل العلمي بالمدينة المنورة ، إلى أن قامت ثورة الشريف حسين بن علي
عام 1917 ، فأمرت الحكومة العثمانية بترحيل سكان المدينة إلى الشام ، فانتقلت
أسرة الإبراهيمي إلى دمشق .

ولما استقر به المقام في دمشق ، زاره في بيته مجموعة من العلماء منهم :
الشيخ محمد بهجة البيطار ، والأستاذ عبد الحكيم الطرابلسي ، والأستاذ جودت
المارديني ، والأستاذان قاسم ورضا القاسميين ، والأستاذ سعيد الغزوي ، والأستاذ
عبد القادر المبارك ، والشيخ الأستاذ محمد الخضر حسين⁽²⁾ ، كما التقى فيها
بالشيخ الجليل محمد رشيد رضا إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى ، والذي قصد
الشام لزيارة أهله في القلمون⁽³⁾ .

وجمعت الإبراهيمي بهذه النخبة المثقفة من أبناء الشام روابط روحية متينة ،
وألف بين قلوبهم حبهم للعلم ، وسعيهم للاستزادة منه ، فكان منهم : « السابق
المغبر ، والكاتب المحير ، واللسن المعبر ، فكنا لا نفترق من أجمع إلا على موعد

(1) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 16 .

(2) الإبراهيمي ، محمد البشير ، عيون البصائر ، ش . و . ن . ت ، الجزائر ، د . ت ، ص 649 .

(3) الإبراهيمي ، محمد البشير ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ش . و . ن . ت ، الجزائر ، ط 1 ، 1978 ، ص 113 .

لاجتماع»⁽¹⁾ ، وقد ظل يذكر هذه المدة الطيبة التي قضاها مع صحبه في الشام ، ويعددها من أعز ذكرياته وأغلاها: « فأشهد صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدية، وأنها هي الجزء العامر في عمري الغامر...»⁽²⁾ .

وفي دمشق، عرف الناس علو منزلته وسعة علمه، فطلبوا منه بإلحاح أن يتولى التدريس في المدارس الأهلية، فقبل ذلك، ثم رغب إليه بعض أصحابه أن يجلس في المسجد الأموي ليلقي فيه بعض دروس الوعظ والإرشاد، فرحب بالفكرة واستجاب لها، وجلس تحت قبة النصر الشهيرة، يملئ على الناس الأحاديث بسندها من حفظه، ثم يشرع في تفسيرها وشرحها وتحليلها بما يوافق روح العصر وأحداثه ، وكان ذلك جديداً على الناس، فأعجبوا به لتبحره في علوم الشرع واللغة، وقدرته الفارقة على ارتجال الكلام، وشد أسماع الناس إليه بكثرة حفظه وحسن إلقائه .

وذاعت شهرته العلمية في الأوساط الدمشقية، فدعته حكومة الأمير فيصل إلى التدريس بالمدرسة السلطانية⁽³⁾ التي كانت الثانوية الوحيدة إذ ذاك في سوريا ، وكان أساتذتها من صفوة العلماء في البلاد، وقد تولى إبراهيمي فيها تدريس اللغة والآداب العربية لطلاب الصفوف النهائية، المقبلين على شهادة البكالوريا، فأقبل على عمله بشغف، وشمل طلبته برعايته، فجاد عليهم بعلم غزير وحب فياض، وتخرج على يديه نخبة من أعلام الأدب العربي في سوريا، يذكر منهم : «الدكتور جميل صليبا، والدكتور أديب الروماني، والدكتور المحاييري، والدكتور عدنان الأتاسي»⁽⁴⁾ . وقد ظل تلامذته يذكرونه بكثير من الحب والاعتزاز، منهم الدكتور جميل

(1) إبراهيمي ، محمد البشير ، عيون البصائر ، ص 649

(2) المصدر نفسه ، ص 649 .

(3) هي مدرسة على الطراز العربي الإسلامي ، سعادها العثمانيون (المكتب الإعدادي) ثم اشتهرت باسم (مكتب عتبر) للتعليم الثانوي .

(4) إبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 18 .

صليبا الذي يتحدث عنه قائلا: « فاعجبنا بسعة علمه وقوة ذاكرته، واستقامة مذهبه، لأنه كان يملئ علينا المتنبي والبحتري وأبي تمام عن ظهر قلب، من أول القصيدة إلى آخرها، ويقرب معانيها من أفهامنا بالتفسير المحكم والشرح الدقيق، والتحليل الأدبي الجميل، حتى ولد في نفوسنا حب اللغة العربية وآدابها »⁽¹⁾ ويصفه المخابراتي بقوله: « وفتحت أذهاننا على الأدب العربي وكنوزه بفضل دروس العلامة الإبراهيمي الذي كان ينتخب لنا من المحفوظات أرقاها وأسمها »⁽²⁾.

وقد مكث الإبراهيمي أربع سنوات في دمشق، تزوج خلالها بفتاة تونسية نزح أهلها إلى المدينة هروبا من الاستعمار الفرنسي، ثم انتقلوا مع عائلة الإبراهيمي إلى دمشق بعد الثورة الشريفة، وفي أواخر عام 1920 عاد إلى الجزائر.

نشاطه الإصلاحية في الجزائر

وعندما رجع الإبراهيمي إلى الجزائر، كانت شخصيته العلمية والثقافية قد اكتملت، وامتلات نفسه بالأفكار الإصلاحية التي كانت تهز المشرق وتغير من واقعه، فكان عاقدا العزم على خوض المعركة الإصلاحية ضد الاستعمار، وضد البدع والضلالات، تحدوه في ذلك إرادة صلبة في خدمة وطنه وإنقاذ الدين واللغة من براثن العدو الصليبي، وكان ذلك مبلغ آمال ابن باديس فيه عندما استأذن والده في أن يسمح له بالعودة إلى الجزائر، وقال له إن رجوعه سيترب عنه: « إحياء للدين والعربية، وقمع للابتداع والضلال، وإنكاء للاستعمار الفرنسي »⁽³⁾.

وفي هذه الآونة التي حل فيها الإبراهيمي بالجزائر، وجد الثورة التعليمية التي

(1) صليبا . د. جميل. ((مقتطفات من مذكرات الدكتور جميل صليبا عن الشيخ الإبراهيمي)) . الثقافة . ع 87 . ص 55

(2) مهدي، محمد . البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه . دار الفكر . دمشق . سوريا . ط 1 . 1988 . ص 46 .

(3) الإبراهيمي . محمد البشير . ((أنا)) . الثقافة . ع 87 . ص 19 .

أعلنها ابن باديس في قسنطينة قد بدأت تؤتي أكلها، ورأى ثمراتها في الواقع ، فكان ذلك دافعا قويا ملأ نفسه ثقة وعزما، فانطلق منذ 1920 من بلدته سطيف ، يوازر رفيقه في الجهاد عبد الحميد بن باديس .

فبدأ في أول أمره يعقد الندوات العلمية للطلبة ويلقي بعض الدروس الدينية لجماعات قليلة، ثم جمع حوله ثلة من التلامذة الذين لازموه، فاهتم بهم وصار يبذل لهم دروسا منظمة، ثم أخذ يلقي محاضرات دينية وعلمية وتاريخية في المدن والقرى، وفي التجمعات العامة، يشرح فيها أحوال البلاد، ويبسط فيها أحكام الدين، ويذكر فيها بتاريخ الجزائر العربي الإسلامي ، ويستنهض الهمم ويوقظ الضمائر ويبصر الناس بما يدور حولهم من أحداث .

كما كان ينتقل كل جمعة إلى مسجد من مساجد المناطق المحيطة بمدينته ، فيلقي فيها دروس الوعظ والإرشاد وخطب الجمعة⁽¹⁾ ، فلما أحس من الناس استعدادا لإكمال المسيرة التعليمية ، ورأى فيهم تطلعا إلى نهضة علمية ، بادر إلى إنشاء مدرسة صغيرة على نمط عصري عام 1924 .

وفي هذه المدرسة، جمع رهطا من الشباب ليكونهم تكوينا علميا يؤهلهم لأن يحملوا مسؤولية النهوض بمجتمعهم ، فكان يمتثلهم : >> على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير بعد تزويدهم بالغذاء الضروري من العلم >>⁽²⁾ ، وكان له إلى جانب ذلك نشاط صحفي ، بدأه عام 1925 ، حيث كان ينشر بعض مقالاته في جريدة (الشباب) .

ولم ينج الإبراهيمي خلال هذه السنوات من مضايقة الاستعمار وضغوطه ، فقد تنبّهت السلطات الفرنسية إلى خطر الإبراهيمي منذ وصوله إلى الجزائر ،

(1) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 20 .

(2) المصدر نفسه ، ص 21 .

فأخذت تتابع خطواته ، وتقتفي أثره ، وتعرقل مشاريعه ، فكان يتحايّل ويخفف من نشاطه مرة بعد أخرى : « فكنت أغطي لها بالوان من المخادعة، حتى أنني تظاهرت لها عدة سنين بتعاطي التجارة، وغشيان الأسواق، لإطعام من أعولهم من أفراد أسرتي، ولكنها لم تنخدع ولم تطمئن إلى حركتي، فكان بوليسها يلاحقني بالتقارير كل هذا وأنا لم أنقطع عن الدروس لطلاب العلم بالليل »⁽¹⁾ .

وأثناء هذه المدة التي كان الإبراهيمي يباشر فيها عمله التغييري ، كانت العلاقات بينه وبين ابن باديس تزداد عمقا، فقد توثقت الصلة بينهما ، وكانا يتزاوران في فترات منتظمة ليتدارسا أحوال الأمة، وتكثفت هذه اللقاءات والزيارات منذ 1924 ، وظلت كذلك إلى غاية 1930 ، وكان ذلك استعدادا حثيثا لإخراج جمعية العلماء المسلمين إلى الوجود ، يقول الإبراهيمي عن هذه الفترة الممتدة بين سنوات (1920 - 1930) : « في هذه الفترة ... كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية، وكنا نتلاقى في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر، يزورني في بلدي (أصطيف) أو أزوره في قسنطينة ، فنزّن أعمالنا بالنقسط ، ونزّن أثارها في الشعب بالعدل ، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل، يميزان لا يختل أبدا ، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجآت حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصات لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين »⁽²⁾ .

وعندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931 بنادي الترقّي بالعاصمة، كلف الإبراهيمي - في أول جلسة رسمية - بوضع قانونها الأساسي ، الذي يوضح أهدافها ويبين أعمالها ، وقد نحافيه نحو ذكيا يبعد عن الجمعية يد الاستعمار التي تطول كل مبادرة وطنية ، فأداره : « على قواعد من العلم والدين ،

(1) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 21 .

(2) المصدر نفسه ، ص 21 .

لا تثير شكا ولا تخيف»⁽¹⁾ .

وقد احتوى هذا القانون مائة وسبعة وأربعين مادة ناقشها أعضاء الجمعية خلال أربعة أيام في ثماني جلسات ، وتمت المصادقة عليها بالإجماع ، بحضور طائفة كبيرة من المحامين والصحفيين العرب المثقفين بالفرنسية، والذين أعلنوا في نهاية عرض القانون الأساسي: «إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات، وأنها أصلح لغة لصون القوانين ومرافعات المحامين، وكأنما دخلوا في الإسلام من ذلك اليوم»⁽²⁾ .

وبعد ذلك قام ابن باديس فخطب في الحاضرين خطبة مؤثرة، أثنى فيها على الإبراهيمي ثناء حسنا أبكاه من الخجل وقال: «عجبت لشعب أنجب مثل الإبراهيمي أن يضل في دين أو يخزي في دنيا، أو يذل لاستعمار، ثم التفت إليه قائلا: وري بك زناد هذه الجمعية»⁽³⁾ .

وانتخب أعضاء الجمعية مجلسا إداريا يتولى تسيير شؤونها ، كما انتخبوا عبد الحميد بن باديس رئيسا لها والإبراهيمي نائبا له .

وبدأت الجمعية نشاطها الإصلاحي بمحاربة البدع والخرافات والأضاليل ، وتصحيح الدين وتقديمه في صورة مشرقة نقية. وفي العام الثاني، أعيد انتخاب الأعضاء أنفسهم، وقسمت الجزائر إلى ثلاث مناطق: أشرف ابن باديس على الجهة الشرقية منها، والإبراهيمي على الجهة الغربية، والطيب العقبي على منطقة الوسط .

واتخذ الإبراهيمي من مدينة تلمسان مقرا لعمله الجديد، فبدأ بالتنقل بين المساجد للوعظ والإرشاد، والتعريف بالدين الصحيح، وفضح أساليب الطرقية ، والكشف عن البدع والضلالات التي دخلت الإسلام فشوهته وأقعده عن أداء

(1) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 22 .

(2) المصدر نفسه ، ص 23 .

(3) المصدر نفسه ، ص 23 .

رسالته الحضارية، كما كان يرتاد النوادي، ويجمع حوله الناس ليلقي عليهم محاضرات قيمة في التاريخ والتفسير والحديث .

ولم تمض سنتان على إقامته بتلمسان حتى وضع أساس بناء مدرسة دار الحديث⁽¹⁾ ، وهي المدرسة التي كانت عنوان فخر لجمعية العلماء، وأهاب بأغنياء المدينة أن يمدوه بما يستطيعون من إعانات مالية، وظل يشرف عليها إلى أن خرجت إلى الوجود عام 1937 تحفة معمارية إسلامية رائعة .

فاختار لها من المعلمين الأكفاء من يتولى تعليم الصغار، وتكفل هو بتعليم الكبار : «وتوليت بنفسني تعليم الطلبة الكبار من الوافدين وأهل البلد، فكنت ألقى عشرة دروس في اليوم ، أبدأها بدرس الحديث بعد صلاة الصبح ، وأختتمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء»⁽²⁾ .

وعندما تحل العطلة ، وتغلق المدرسة أبوابها، يشد الإبراهيمي الرحال إلى مدن وقرى الناحية الغربية، فيزورها الواحدة تلو الأخرى، يتفقد أحوال الشعب وينظم أمور المساجد والمدارس العربية الحرة، ويلقي الدروس والمواظع والمحاضرات إلى أن تنتهي العطلة فيعود إلى عمله في المدرسة .

وفي عام 1936 شارك الإبراهيمي في المؤتمر الإسلامي، وذهب إلى باريس ضمن الوفد الذي عينه المؤتمر لتقديم مطالبه لحكومة الجبهة الشعبية الفرنسية ، وكانت له في هذا الوقت بعض الكتابات في جريدة البصائر الأولى .

وفي تلمسان ذاع صيته وطبقت شهرته آفاق المنطقة، وشعر أقطاب الطريقة

(1) هي مدرسة على الطراز الحديث ، أسستها جمعية العلماء وتحتوي على عشر قاعات للدراسة ، وقاعة للمحاضرات ومسجد ، افتتحت في خريف 1937 بمهرجان كبير ، حضره الشيخ ابن باديس وعلماء الجمعية ، وبعض الوفود من تونس والمغرب ، ألقى فيه الإبراهيمي خطبة تحدث فيها عن تلمسان ومشاهير علمائها عبر العصور ، وألقى فيه الشاعر محمد العيد آل خليفة قصيدة رائعة .

(2) الإبراهيمي ، محمد البشير ((أنا)) الثقافة ، ع 87 ، ص 26 .

وعملاء فرنسا بالخطر يداهمهم، وأحسوا بنفوذهم ينحسر أمام موجة العلم التي
نشرها الإبراهيمي، فوحدوا جهودهم واتجهوا إلى الوالي العام الفرنسي يحذرونه
منه ويهولون له أمره ويرجون: « أن تتخذ إدارتكم الإجراءات اللازمة لاقتلاع كل
جراثيم الشقاق عن مدينتنا، ولإطفاء كافة برائث الدعاية المعادية لفرنسا إلى الأبد
..... وفيه، وأنا المتواضع، فإن طرد الشيخ الإبراهيمي إلى بلاده سطيف أمر
محتم

وفي مطلع الحرب العالمية الثانية اشتد الصراع بين الجمعية والاستعمار الذي
كان يريد من رجالها مساندته بدعوة الشعب إلى تأييد فرنسا في حريها ضد دول
المحور، غير أن رجال الجمعية ردوا على ذلك بالرفض القاطع، حيث اتفق ابن
باديس والإبراهيمي على توقيف (البصائر) و (الشهاب) حتى لا يضطروا تحت
الضغط إلى نشر ما لا يرضي ضمائرهم ولا يتماشى مع أهدافهم يقول
الإبراهيمي: «إننا لا نستطيع تحت القوانين الحربية أن نكتب ما نريد، ولا يرضى
لنا ديننا، وهمتنا، وشرف العلم، وسمعة الجمعية في العالم، أن نكتب حرفا مما يراد
مننا، فحكمنا عليها بالتعطيل وقلنا: بيدي لا بيد عمرو، وحسنا فعلنا...»⁽¹⁾.

ولما استدعي الإبراهيمي من طرف سلطات الاحتلال إلى إلقاء أحاديث في
الإذاعة الجزائرية لشرح الموقف الفرنسي في الحرب، وجلب التأييد الشعبي رفض
ذلك بشدة⁽²⁾، وكان جزاؤه قرارا من رئيس الوزراء الفرنسي يقضي بنفيه إلى مدينة
أفلو، بالجنوب الغربي بتاريخ 8 أفريل 1940، وبقي هناك تحت الإقامة الجبرية لمدة
ثلاث سنوات .

(1) الخطيب، د. أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 153 .

(2) الإبراهيمي، محمد البشير، ((أنا))، الثقافة، ع 87، ص 28 .

(3) بو الصفا، عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 212 .

كما أوقف الشيخ عبد الحميد بن باديس عن نشاطه، وفرضت عليه الإقامة الجبرية هو أيضا في منزله، غير أن قضاء الله كان أرحم به من حكم أعدائه . فاختره إلى جواره في 16 أفريل 1940 ، وحفظه بذلك من النفي والسجن الذي لحق أغلب أعضاء الجمعية، وحصل ذلك بعد أسبوع من نفي الإبراهيمي إلى أفلو.

وقد نعي ابن باديس للإبراهيمي وهو في منفاه، فكان وقع الخبر عليه شديدا ، وتآلم لذلك كثيرا، وعز عليه ألا يحضر جنازة أخيه ورفيقه في الجهاد، ولم يكن بيده حيلة تمكنه من وداعه إلى مثواه الأخير، فلجأ إلى قلمه يبعثه آلامه وأحزانه، وكتب إلى أحد أعضاء الجمعية أحمد توفيق المدني، رسالة طويلة تقطر ألما وتفيض حسرة، يعزي فيها نفسه، ويعزي كل الشعب في هذا المصاب الجلل، ويقول في بعض سطورها : « أعتقد أن الراحل أخي العزيز لم يكن لأحد دون أحد بل كان كالشمس لجميع الناس ... فلماذا بعثت أعزيكم على فقد ذلك البحر الذي غاض بعد أن فاض ... وإن كانت التعازي تعاليل، لا تطفىء الغليل، ولكنها على كل حال تحمل بعض الروح من كبد تتلظى شجنا إلى كبد تتنزي حزنا والله ذلك اللسان الجريء، وذلك الجنان المشع، وذلك الرأي الملهم، وأنا لفقدك يا عبد الحميد لمحزونون »⁽¹⁾.

وبعد وفاة ابن باديس، اجتمع المجلس الإداري لجمعية العلماء وبعض رؤساء الشعب، فانتخبوا الإبراهيمي رئيسا للجمعية وهو في منفاه: « وأبلغوني الخبر وأنا في المنفى، فأصبحت أدير الجمعية وأصرف أعمالها من المنفى بالرسائل المتبادلة بيني وبين إخواني بواسطة رسل ثقات »⁽²⁾.

وقد كان لهذه الإقامة الجبرية آثارها الإيجابية في نشاطه الإصلاحية والأدبية، بحيث لم يدع لليأس مجالا يتسرب منه إلى نفسه، فاهتم بالجوانب الإدارية

(1) المدني ، أحمد توفيق ، حياة كفاح ، ج 2 ، ش . و . ن . ت ، الجزائر ، ط 1 ، 1977 ، ص 337 .

(2) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثالثة ، ج 87 ، ص 27 .

والاجتماعية والتعليمية للجمعية، وسن لها قوانين تجعلها أكثر عطاء وأشد فعالية ، كما تفرغ للتفكير في طرق أنجع تضمن للجمعية مقاومة الاستعمار الفرنسي ، وعكف على الكتابة والتأليف في الجوانب الأدبية والعلمية، فألف خلال سنوات منفاه (رواية الثلاثة) شعرا، و(رسالة الضب) و (مرشد المعلمين) نثرا، ونظم ملحمة رجزية بلغت ستة وثلاثين ألف بيت، وبعض الرسائل والمقالات .

وتم الإفراج عن الإبراهيمي في مطلع 1943 بعد حلول جيش الحلفاء بالجزائر، وما إن استنشق نسيم الحرية حتى انطلق في عمله بنشاط وحيوية منقطعة النظير ، فاتخذ من العاصمة مقراً لرئاسة الجمعية، وصال وجال في شرق الوطن وغربه وشماله وجنوبه، يحي نشاط المدارس المعطلة، ويهيب بالناس أن يبنوا مدارس جديدة، ويتولى نشاطات الجمعية، فلا يخل لها بواجب، ولم تمض سنة على ذلك حتى أنشأ: « ثلاثا وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر كله، كلها بأموال الأمة وأيديها، واخترت لتصميمها مهندسا عربيا مسلما، فجاءت كلها على طراز واحد لتشهد للأجيال القادمة أنها نتاج فكرة واحدة ».⁽¹⁾

وكان يواصل - في الوقت ذاته - إعطاء الدروس للطلبة والعامة، إلى أن جاءت حوادث 8 ماي 1945 ، فسيق إلى السجن في 13 ماي 1945 مع سبعين ألفا من أبناء الجزائر، معظمهم من أتباع جمعية العلماء،⁽²⁾ ووجهت إليه تهمة التحريض على الثورة، وفي السجن العسكري، لقي على أيدي جنود الاحتلال الأهوال وقاسى ألوانا من التعذيب ظل يعاني من آثاره على حالته الصحية العامة بقية أيام حياته .

وفي مارس 1946 ، أفرجت عنه السلطات الفرنسية بموجب عفو عام بعد أن مكث في السجن عشرة أشهر : « ولما خرجت من السجن عدت إلى أعمالي أقوى

(1) الإبراهيمي ، محمد البشير ، الثقافة ، ع 87 ، ص 28 .

(2) المصدر نفسه ، ص 28 .

عزيمة مما كنت، وأصلب عودا، وأقوى عنادا»⁽¹⁾، فأعاد الحياة إلى المدارس التي أغلقها الاستعمار، وأعاد الاجتماعات التي كانت معطلة بسبب الحرب .

ومن أهم الأنشطة الإصلاحية التي قام بها الإبراهيمي في هذه الآونة إعادة إصدار جريدة (البصائر) التي ظهر العدد الأول منها يوم الجمعة 25 جويلية 1947 وتولى بنفسه رئاسة تحريرها وكتابة افتتاحياتها .

وقد نحت البصائر في هذه المرحلة منحى جديدا ، تمثل في المواجهة السافرة بينها وبين الاستعمار الفرنسي، فقد تبنى فيها الإبراهيمي لهجة حادة قاسية على السلطات الاستعمارية كما في قوله: « جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن ، كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت ... والاستعمار سل يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد ، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأمية ...»⁽²⁾.

وفي عام 1947 أيضا، تم إنشاء معهد ابن باديس الثانوي، بعد أن كثر حاملو الشهادة الابتدائية المتخرجين من مدارس الجمعية، فكان هذا المعهد: «تاجا لمدارس جمعية العلماء وغرة في أعمالها»⁽³⁾، ثم سعى الإبراهيمي بواسطة جمعية الطلبة الجزائريين بتونس إلى الحصول على اعتراف جامع الزيتونة بأن يكون معهد ابن باديس فرعاً تابعاً له ، وقد تم له ذلك⁽⁴⁾.

وبعد أن خرج معهد ابن باديس أفواج الطلبة الحاصلين على الشهادة الثانوية

(1) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 28 .

(2) الإبراهيمي ، محمد البشير ، عين البصائر ، ص 21 - 22 .

(3) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 30 .

(4) الجابري ، د . محمد صالح ، ((محمد البشير الإبراهيمي والعلاقات التونسية الجزائرية)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 151 .

كلفت الجمعية الإبراهيمي بأن يسافر إلى المشرق ليتوسط لدى الحكومات العربية حتى تمنح للممتازين من هؤلاء الطلبة منحة دراسية، يتمكنون بها من مواصلة دراساتهم العليا، وقد نجح الإبراهيمي في مسعاه هذا نجاحا كبيرا، فأرسلت البعثات العلمية إلى مصر وسوريا والعراق والكويت والحجاز .

ومن النشاطات الجليلة التي قام بها الإبراهيمي، مشاركته في تشكيل (جمعية إعانة فلسطين) عام 1948 على إثر نكبة فلسطين، وقد ضمت هذه الجمعية الإبراهيمي، والطبيب العقبي، وفرحات عباس، ومصالي الحاج، وإبراهيم بيوض، وبدأت عملها بإرسال برقية تأييد إلى أمين الجامعة العربية عبد الرحمن عزام، وبرقية تنديد واستنكار إلى جمعية الأمم المتحدة، كما تكونت لجنة تنفيذية تتولى جمع الأموال باسم هذه الهيئة لصالح فلسطين.

كما اهتم الإبراهيمي بقضية فلسطين في جريدة البصائر، وكتب عنها مقالات رائعة، تصور الفاجعة، وتحدث عن نوايا اليهود، وقرار التقسيم، والمؤامرة الأنجلزية الصهيونية على عرب فلسطين وغيرها .

وفي عام 1950 ، سافر الإبراهيمي رفقة العربي التبسي إلى باريس، وبقي فيها خمسين يوما، أنجز خلالها بعض الأعمال المتعلقة بالجمعية، ثم عاد إليها عام 1952 وكانت جمعية الأمم المتحدة قد عقدت اجتماعها هناك في تلك السنة فاستغل الإبراهيمي فرصة وجود وفود الدول العربية والإسلامية، واتصل بهم وأقام على شرفهم مأدبة عشاء على حساب الجمعية، وخطب فيهم خطبة بليغة، تحدث فيها عن التحديات التي تواجهها الجزائر في ظل الاستعمار، ووضح الأعمال الجادة التي تقوم بها الجمعية للحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية للجزائر، وأبان عن الظروف الصعبة والعراقيل والمتاعب التي تواجهها في سبيل أداء رسالتها تحت القهر الاستعماري، وكان لهذه الخطوة الجريئة أثرها الكبير في استجابة وفود هذه

الدول لدعوة الإبراهيمي فوجه له معظمهم دعوات للاتصال بقيادة تلك البلدان وعرض مشاكل الجمعية عليهم .

رحلته إلى المشرق العربي

وفي العام نفسه (1952) انتدبته الجمعية ليكون سفيرها إلى البلدان العربية والإسلامية، فكان نعم السفير، واستطاع بشخصيته القوية وطباعه المتزنة أن يحقق جل الأهداف التي سافر من أجلها ، وبعد أن أنهى جولته حط الرحال بمصر واستقر بالقاهرة .

وعند قيام الثورة التحريرية الكبرى في نوفمبر 1954 ، كلفته قيادة جبهة التحرير الوطني بالاتصال بالزعماء العرب والمسلمين للتعريف بالقضية الجزائرية والحصول على التأييد المادي والمعنوي، فنشط الإبراهيمي في هذا المضمار نشاطا كبيرا، وبذل جهودا جبارة لإيصال صوت الثورة الجزائرية إلى تلك البلدان، فاتصل بكبار الشخصيات السياسية والعلمية، وألقى المحاضرات والخطب في مختلف المناسبات وعقد الندوات الصحفية، وبث أحاديث إذاعية على أمواج إذاعة (صوت العرب) بالقاهرة، وكان لذلك أثر عميق في اهتمام البلدان العربية والإسلامية بالقضية الجزائرية .

وفي القاهرة أيضا، شارك في تأسيس ندوة أدبية اجتماعية، فلسفية ودينية مع مجموعة من الأدباء والمفكرين، سموها (ندوة الأصفياء) ، وكان منهم: «المرحوم أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة، وكامل كيلاني الأديب المعروف، وعلي الحوماني الشاعر اللبناني المقيم بالقاهرة، ومفيد الشوياشي الكاتب والناقد، والحاج أمين الحسيني، والشيخ عبد اللطيف دراز وكيل جامع الأزهر، والعقيد عبد الله التل،

والدكتور علي عبد الواحد وافي وغيرهم من رجالات الفكر والقلم...»⁽¹⁾ كما كان عضوا بارزا في المجامع العلمية العربية في كل من مصر والعراق وسوريا .

وفي أواخر عام 1962 عاد الإبراهيمي إلى الجزائر بعد انتصار الثورة ورحيل الاستعمار، وأكرمه الله برؤية الوطن الذي أفنى عمره ينافح عنه وهو حر طليق ، واستجاب لدعائه الذي كان يردده في غربته: « خطت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة ؟ وكتبت الأقدار علي أن لا أملك من أرضك شبرا، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبراً ؟ ».⁽²⁾

والتقى بالأهل والخلان، واجتمع عنده تلامذته وأصدقائه، وأمّ الناس في صلاة الجمعة بمسجد كتشاوة الذي استعاده المسلمون من يد الاستعمار الذي كان قد حوله إلى كنيسة عند دخوله إلى الجزائر، وكان ذلك في 2 نوفمبر 1962 ، وقد نقلت الإذاعة الجزائرية خطبتي الجمعة والصلاة فوصلت إلى أسماع كثير من الجزائريين.

ثم لزم الشيخ الإبراهيمي بيته، بعد أن هذه الإعياء وأجهده المرض، ولم يخرج عن صمته إلا في 16 أفريل 1964 في الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ ابن باديس عندما أصدر بيانا يعارض فيه سياسة الحكم القائم الذي تبني تطبيق الاشتراكية في الجزائر، وقد كان الإبراهيمي يأمل أن تكمل الحركة الإصلاحية التي قاومت الاستعمار مسيرتها في قيادة الجزائر، وفي هذا البيان قال: « إن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا

(1) تركي ، د. رابع ، ((البشير الإبراهيمي في المشرق العربي)) ، الأصالة ، ع 8 ، جوان 1972 ، الجزائر ، ص 260 .

(2) الإبراهيمي ، محمد البشير ، عين البصائر ، ص 485 .

العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية»⁽¹⁾ .

وفاته وأثاره

وفي يوم الخميس 20 ماي 1965 أسلم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي روحه الطاهرة إلى ربه ، وذهب راضيا مرضيا عنه، بعد أن ناهز السادسة والسبعين من عمره، ودفن في مقبرة (سيدي محمد) بالعاصمة، وسار في موكب جنازته الرهيب جمع كبير من الشخصيات الدينية والسياسية ، وعشرات الآلاف من أبناء الجزائر الذين ضاقت بهم الشوارع، وبلغ نعيه العالم العربي والإسلامي، فأعلن حداده ونكس أعلامه.⁽²⁾

وهكذا عاش الإبراهيمي عظيما بمبادئه وجهاده، ومات عظيما في شموخه وثباته، وصدق حين قال: «يموت العظماء فلا يندثر منهم إلا العنصر الترابي الذي يرجع إلى أصله، وتبقى معانيهم الحية في الأرض، قوة تحرك، ورابطة تجمع ، ونورا يهدي، وعطرا ينعش ، وهذا هو معنى العظمة ، وهذا هو معنى كون العظمة خلودا، فإن كل ما يخلف العظماء من ميراث هو أعمال يحتذيها من بعدهم، وأفكار يهتدون بها في الحياة، وأثار مشهودة ينتفعون بها، وأمجاد يعتزون بها ويفخرون، والاعتزاز والفخر من الأغذية الروحية الحافظة لبقاء الجماعات»⁽³⁾.

لقد كان الشيخ الإبراهيمي رجلا مصلحا، كرس حياته لإنقاذ الجزائر من براثن الاستعمار والطرقية، وإحياء اللغة والدين بها من أجل إعادة الشعب إلى أصالته وحضارته، فأخذت منه قضية الإصلاح كل وقته، واستنزفت منه جهده، فكان يخطب ويحاضر ويعلم ويرشد ويربي، ويمضي بياض نهاره وسواد ليله في

(1) فضلاء ، محمد الطاهر، الإمام الزائد محمد البشير الإبراهيمي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1967 ، ص 15 .

(2) محمد عباس ، البشير الإبراهيمي أدبيا ، رسالة ماجستير مخطوطة ، جامعة بغداد ، 1983 ، ص 62 .

(3) الإبراهيمي ، محمد البشير ، عيون البصائر ، ص 683 .

جهاد متواصل من أجل العربية والإسلام في الجزائر، وكانت هذه المرحلة من عمره هي مناط فخره حيث يقول: « هذه المرحلة من حياتي هي مناط فخري، وتاج أعمالتي العلمية والاجتماعية، والأفق المشرق من حياتي، وهذه هي المرحلة التي عملت فيها لديني ولغتي ووطني أعمالا أرجو أن تكون بمقربة من رضى الله، وهذه هي المواقف التي أشعر فيها كلما وقفت أرد ضلالات المبتدعة في الدين، وأكاذيب الاستعمار، أشعر كأن كلامي امتزج بزجل الملائكة بتسبيح الله »⁽¹⁾.

ولم يكن يجد، وسط هذه المهام الجليلة والمسؤوليات الكبرى، وقتا يتفرغ فيه للتأليف والتصنيف، على الرغم من أنه كان بحرا زاخرا من العلم، وكان يمتلك ذاكرة حادة وذكاء خارقا ولكنه يعزى نفسه بالتقصير في ناحية التأليف بأنه كان مشغولا بصنع الرجال الذين يصنعون تاريخ الأمم: « لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تاكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأنتي ألفت للشعب رجالا ، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجسادهم، وصححت له دينه ولغته فأصبح مسلما عربيا، وصححت له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أبيا، وحسبي هذا مقربا من رضى الرب ورضى الشعب »⁽²⁾.

ومع ذلك، فقد أسهم الإبراهيمي بالكتابة في موضوعات كثيرة: أدبية ولغوية وإسلامية، وترك لنا بعض الآثار التي تدل على مرتبته العلمية بين الكتاب، وإن كان جزء منها قد عاثت فيه يد الاستعمار فسادا فضاع، وبقي جزء آخر مخطوط لم يعرف طريقه إلى المطابع ، والجدير بالذكر أن معظم الإنتاج الأدبي للإبراهيمي الذي بقي محفوظا، هو ما نشر في المجلات والجرائد الجزائرية والعربية وبخاصة البصائر الثانية .

(1) الإبراهيمي ، محمد البشير ، ((أنا)) ، الثقافة ، ع 87 ، ص 23 .

(2) المصدر نفسه ، ص 32 .

وقد أحصى الإبراهيمي مؤلفاته في مقالة (أنا) التي نشرت بمجلة المجمع العلمي العربي، وسنعمد عليها في ذكر هذه المؤلفات:

- (1) كتاب: بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر، وقد التزم فيه الإبراهيمي اللهجة السائدة في موطن بني هلال بن عامر (مخطوط) .
- (2) كتاب: النقايات والنقايات في لغة العرب، جمع فيه كل ما جاء على وزن فعالة، بضم الفاء وفتح العين من مختار الشيء أو مرذوله (مخطوط) .
- (3) كتاب: أسرار الضمائر في العربية، (مخطوط) .
- (4) كتاب: التسمية بالمصدر، (مخطوط)
- (5) كتاب: الصفات التي جاءت على وزن فعل، بفتح العين .
- (6) كتاب: نظام العربية في موازين كلماتها .
- (7) كتاب: الاطراد والشذوذ في العربية، (مخطوط)
- (8) كتاب: ما أخلت به كتب الأمثال في الأمثال السائرة .
- (9) رسالة في: الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك ، (مخطوط)
- (10) رسالة في: ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا إثنان.

- (11) رواية: كاهنة أوراس، بأسلوب مبتكر يجمع بين الحقيقة والخيال
- (12) رسالة في: مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية .
- (13) كتاب: مشروعية الزكاة في الإسلام
- (14) كتاب: شعب الإيمان جمع فيه الأخلاق والفضائل الإسلامية .
- (15) رواية الثلاثة وهي مسرحية شعرية تقع في ثمانمائة وواحد وثمانين بيتا ، وهي مطبوعة ضمن الجزء الأول من آثاره
- (16) ملحمة شعرية نظمها على وزن الرجز، وتقع في ست وثلاثين ألف بيت،

ضمنها مواضيع مختلفة .

(١٧) رسالة الضب، وهو بحث علمي أدبي، تناول فيه الإبراهيمي وصف الضب وفصيلته، وأسلوب حياته، ومضرب الأمثال به عند العرب، وهي مطبوعة في الجزء الأول من آثاره .

وقد تولى بعض تلامذة الإبراهيمي جمع إنتاجه وطبعه في سلسلة تحمل عنوان: (آثار محمد البشير الإبراهيمي) صدر منها أربعة أجزاء عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر وهي :

(١) الجزء الأول: يتضمن المقالات الدينية والاجتماعية التي نشرها الإبراهيمي في المرحلة الأولى من حياته بعد عودته من المشرق، خلال سنوات العشرين حتى بداية الثلاثين، ويقع هذا الجزء في ثلاثمائة وسبعة وخمسين صفحة .

(٢) الجزء الثاني: وهو يحمل عنوان (عيون البصائر) وهو الكتاب الذي جمع الإبراهيمي مقالاته ورتبها وأشرف على طباعتها بنفسه بدار المعارف بمصر ، ويتضمن المقالات التي نشرها في سلسلة البصائر الثانية، وأعيد طبعه في الجزائر ويقع في سبعمائة صفحة .

(٣) الجزء الثالث: وهو يتضمن بقية المقالات التي كتبها الإبراهيمي بين أعوام ١٩٤٧ و ١٩٥٢ ، ونشرها بجريدة البصائر الثانية، ولم يتم طبعها ضمن الجزء الثاني، ويقع هذا الجزء في ثلاثمائة وتسعين صفحة، تم طبعه عام ١٩٨١ .

(٤) الجزء الرابع: يتضمن المقالات التي نشرها الإبراهيمي في جريدة البصائر الثانية، بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٤ ، وبعض المقالات الأخرى التي نشرها في جرائد عربية مختلفة كالمنهل والأخوة الإسلامية والمسلمون وغيرها، إلى جانب أحاديث ومحاضرات متعددة، ويقع هذا الجزء في ٤١٠ صفحات متوسطة، صدر عام ١٩٨٥ .

(٥) في قلب المعركة: هي مجموعة من النصوص والوثائق والبيانات والبرقيات

والتصريحات والخطب والأحاديث والنداءات التي حررها وألقاها الشيخ الإبراهيمي باسم جمعية العلماء وجبهة التحرير بين 1954 و 1964 أي سنة واحدة قبل وفاته ، ويتضمن هذا الكتاب بعضا من نشاطه وإنتاجه في المرحلة الأخيرة من حياته ، ومعظم موضوعاتها يدور حول الجزائر وثورتها التحريرية، وجلب التأييد لها في العالم العربي والإسلامي، وقد جمعها الدكتور أبو القاسم سعد الله، وارتأى أن تحمل عنوان (في قلب المعركة)، صدرت الطبعة الأولى منه في جانفي 1994 عن شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع بالجزائر.

الباب الأول أسس التغيير عند الإبراهيمي

- الفصل الأول : الإطار المرجعي ودوره في التغيير
- الفصل الثاني : الواقع الإنساني وأهميته في التغيير
- الفصل الثالث : الانفتاح الحضاري وضرورته في التغيير
- الفصل الرابع : الإنسان مفتاح التغيير

مفهوم التغيير لغة واصطلاحاً :

يحتل موضوع التغيير في الفكر الإسلامي الحديث والفكر الإنساني بعامة ، مكانة هامة، نظراً لارتباطه الوثيق بتطور المجتمعات، ورغبتها الدائمة في الخروج من مظاهر التخلف والانحطاط. لذلك عكف المفكرون على صياغة النظريات، وتحديد المناهج، وإعداد الخطط والبرامج، التي تمكن المجتمعات من ممارسة التغيير بشكل عقلاني ومنهجي تحكمه الضوابط العلمية وتوجهه الدراسات الموضوعية .

وسنحاول فيما يلي تعريف التغيير لغة واصطلاحاً، ونشير إلى أهم الاتجاهات التغييرية الحديثة في العالم العربي، ونعرض بإيجاز لمفهوم التغيير عند الإبراهيمي.

١ - التغيير لغة :

جاء في معجم مقاييس اللغة أن: « الغين والياء والراء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على صلاح وإصلاح ومنفعة، والآخر على اختلاف شيئين »^(١)، وهناك معان عديدة تشملها هذه الكلمة، لكننا سنقتصر هنا على المعاني التي تربطها علاقة بالتغيير.

وكلمة تغيّر عن حاله تعني: « تحوّل، وغيره جعله غير ماكان، وحوّله وبدّله، والاسم الغير، وغير الدهر أحداثه المغيّرة »^(٢)، فكلمة غير في اللغة تعني تحويل الشيء وتبديله بغيره .

وقد ورد في معجم مفردات ألفاظ القرآن أن: « التغيير يقال على وجهين: أحدهما لتغيير صورة الشيء دون ذاته، يقال غيّرت داري إذا بنيتها بناء غير الذي

(١) ابن فارس ، أبو الحسين أحمد ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط : عبد السلام هارون ، ج ٤ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ص ٤٠٣ .

(٢) الفيروز آبادي ، جمال الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، ج ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، د ، ص ١١٠

كان، والثاني لتبديله بغيره نحو غيرت غلامي ودابتي، إذا أبدلتها بغيرهما»⁽¹⁾،
فالتغيير بالمعنى الأول يعني الإبقاء على جوهر الشيء، وتطويره في بعض جوانبه
عن طريق إحداث تحولات في مظاهره العامة مع المحافظة على الأصل، بينما
يشير المعنى الثاني إلى إحداث تغيير جذري عن طريق إزالة الشيء الذي يراد
تغييره وتبديله بشيء جديد لا علاقة له بالأول .

2- التغيير اصطلاحاً :

أما التغيير اصطلاحاً، فهو حركة واعية ومنظمة، تهدف إلى تبديل واقع الأمة
المريض بواقع جديد، أكثر ملاءمة وأحسن حالا من القديم، أو بمعنى آخر محاولة
إخراج الأمة من حالة الفساد والتخلف والانحطاط، إلى حالة الرقي والازدهار الذي
تسعد به. ويتم كل ذلك في إطار المحافظة على أصول الأمة الحضارية، وثوابتها
وقيمها، وعدم النوبان في إيديولوجيات غريبة، تتعارض مع المعادلة الاجتماعية لهذه
الأمة، وتمثل خطراً حضارياً عليها. ففي التغيير بهذا المعنى إضافات جديدة تجعل
حاضر الأمة المتغير امتداداً لثوابتها الجوهرية وأصالتها.

والتغيير بهذا المفهوم يتضمن المعاني التي توحى بها مصطلحات الإصلاح،
والتجديد، واليقظة، والنهضة، والتطور، والتقدم⁽²⁾ بل يمكن اعتبارها مترادفات تلتقي
جميعاً في التعبير عن الفعل الإرادي للتغيير، وقد شاعت هذه المصطلحات عند
المجددين والمفكرين المحدثين في العالم العربي الذين اهتموا بتغيير أوضاع
المجتمعات العربية.

(1) الأصفيهاني ، الراغب ، معجم مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق نديم مرعشلي ، دار الكاتب العربي ، بيروت لبنان ، د . ت ،
ص 382 .

(2) القريشي ، د . علي ، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1989 ،
ص 107 .

وقد تضمنت كلمة (التغيير) في القرآن معنيين: إيجابي وسلبى. أما المعنى الإيجابي فقد أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »⁽¹⁾، فالتأييد بالنصر، وإسباغ النعم على الناس مرهون بحركتهم الذاتية لتغيير ما بأنفسهم من فساد وانحراف، وتنطوي تحت كلمة النعم معان كثيرة كالغنى والصحة والعزة⁽²⁾ والسيادة وكل ما يصيب المجتمعات البشرية فتعيش حياة الإستقرار والرفاهية. وهذا التغيير الإيجابي وعد الله المرتبط بتحقيقه بتحقيق التغيير الذاتي، فهو من ثم سنة إجتماعية مطردة، تتجلى في الواقع كلما توفرت شروطها .

وأما المعنى السلبي فهو الذي تحدثت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى: « ذلك أن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »⁽³⁾ فالتغيير هنا يأخذ شكل عقاب من الله تعالى، ويكون ذلك بتسليط الفقر والسقم والذلة، والضعف العام على المجتمعات الإنسانية التي نقضت عهدها مع الله، وتنكرت للفقرة، وتنكبت صراطه المستقيم .

وقد عرف العالم العربي في العصر الحديث عدة اتجاهات تغييرية، حاولت جميعا أن تنتقل بالمجتمعات العربية من حالة التخلف والتردي، إلى حالة الازدهار والنماء والتطور المستمر، غير أنها اختلفت في الطريقة التي تسلكها لإحداث هذا التغيير، وتباينت خططها وبرامجها في تحديد المنطلق والوسائل، ومن أبرز هذه الاتجاهات:

ـ الاتجاه الإسلامي: بحركاته المتعددة السلفية والصوفية والإصلاحية ،

(1) الرعد ، 11

(2) «عبد بنود ، حتى يغيروا ما بأنفسهم . مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري . دمشق . سوريا ، ط 6 ، 1984 . ص 48

(3) الأنفال ، 53 .

والحركية، وهي تنطلق جميعاً من الإسلام وتهدف كلها إلى إعادة ربط المسلمين بالكتاب والسنة، ولكنها تختلف في مناهج التغيير .

- الاتجاه الليبرالي الرأسمالي: الذي يركز على معاني: «العقلانية والوضعية في الجانب الفلسفي، والديمقراطية والعلمانية في الجانب السياسي، والحرية ومبدأ المنافسة الفردية في الجانب الاقتصادي، وتمجيد الإنسان والسعي نحو المنفعة الدنيوية في الجانب الأخلاقي»⁽¹⁾.

- الاتجاه الماركسي الشيوعي: وهو الذي يقوم على النظرية المادية التي ترى أن التحولات التي تحدث في القيم والثقافة والتصورات والسلوكيات ماهي إلا انعكاس للتغيير في قوى الإنتاج الاقتصادي ووسائله المادية التي تتحدد في ضوءها صورة البناء الاجتماعي كله⁽²⁾.

مفهوم التغيير عند إبراهيمي:

يكتسي مفهوم التغيير عند إبراهيمي معنى الإصلاح والتجديد والنهضة ، وهذه المترادفات الثلاث مبثوثة في كتاباته بشكل لافت للنظر، وإن كانت كلمة الإصلاح، هي التي استأثرت بالاهتمام الأوفى.

والتغيير عنده لا يعني إلغاء الماضي والانطلاق من الحاضر، بل هو إحياء لما انهدم، وتطوير وتنمية له، وتطويع للطرق الحديثة حتى تخدم ذلك القديم الذي يراد إحياءه وتجديده، ليربط ماضي الأمة بحاضرها، وتستطيع أن تسير عصرها دون أن تتخلى عن تراثها الذي تركز عليه في مواجهتها لتحديات الحياة الحديثة، يقول إبراهيمي: «اليقظة استئناف حياة، والحياة المستأنفة ليست وجوداً من عدم،

(1) عبد اللطيف ، كمال ، ((الخطاب النهضوي ، إشكاليته الرئيسية ومفاهيمه الكبرى)) ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، ع 17 كانون الأول 1981 ، كانون الثاني 1982 ، ص 76 .

(2) القروشي ، نعمتي ، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، ص 92

وإنما هي تجديد لما انهدم، فلها تكاليف ثقيلة، ولها صعءاء مطالبها طويلة)
وهو لا ينظر إلى التغير نطرة جزئية تعتمد على ترقيع بعض الجوانب في
الحياة الاجتماعية، وإبقاء بعضها الآخر على حالها، بل إنه يؤمن بضرورة التغير
الجزري لكافة قطاعات المجتمع حتى تتكامل عملية التغير.
ونحن لا نتحدث في هذا البحث عن التغير الاجتماعي ونظرياته كما يراه
علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة في الفكر الغربي الحديث بشقيه الشيوعي
والرأسمالي، مثل النظرية المادية التاريخية التي طرحها كارل ماركس، والنظرية
التطورية التي قال بها هربرت سبنسر، أو نظرية التطور الحضاري التي وضعها
الباحث الأمريكي لويس موركن⁽²⁾ بل سنتحدث عنه من منطلق المعاني التي
تتضمنها مصطلحات الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي الحديث .

(أ) إبراهيمي ، عين البصائر ، ص 285 .

(2) ميقليل ، البرولسورد ينكن ، معجم علم الاجتماع ، ترجمة ومراجعة د . إحسان محمد الحسن ، دار الطليعة ، بيروت ،
لبنان ، ط 2 ، 1986 ، ص 190 - 191 .

الفصل الأول

الإطار المرجعي ودوره في التغيير

الإطار المرجعي مفهومه وأهميته

الإطار المرجعي يعني نموذج الحياة التي يراد للإنسان أن يحياها، وللأمة أن تعيش طبقا لها. فهو الذي يمد الفرد بالأهداف التي يحيا من أجلها ويسعى لتحقيقها، كما يحدد للأمة الرسالة التي تمنحها بعدها الحضاري، ويعطي - بالتالي - للحياة معناها وقيمتها، كما يمدّها أيضا بأسباب الحركة والنمو والتقدم المستمر.

وهو عند الحركات التغييرية يعني النموذج البديل في جوانبه الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، الذي يوجه عملية التغيير، ويضبطها، ويرسم أهدافها الإستراتيجية والمرحلية. فهو بمثابة المعيار الذي توزن به الاجتهادات والمبادرات الرامية إلى تغيير المجتمع، والذي يرمي كل عمل تغييرى إلى الاقتراب منه، أو التطابق معه قدر الاستطاعة.

والواقع أن لكل أمة من الأمم حقبة تاريخية أو منظومة فكرية أو اجتماعية تعد مرحلة نموذجية، وبالتالي إطارا مرجعيا لها، وهذه حركة طبيعية ضرورية لكل عملية تجديدية أو تغييرية عند جميع الأمم والشعوب والثقافات⁽¹⁾. فقد تبين من خلال استقراء التاريخ الإنساني، أن الإطار المرجعي الموجه لكل حركة تغييرية، هو في الحقيقة سنة مضطردة في الحياة الإنسانية اضطراد السنن الكونية في عالم الأنفس والأفاق.

والحق أنه لا يمكن إدراك المسار التاريخي لمجتمع من المجتمعات، بدون تحديد وضبط إطاره المرجعي في مصدره وطبيعته وخصائصه وعلاقته وموقعه في هذا المجتمع أوذاك، لأنه يشكل جوهر أي بناء ثقافي أو حضاري بالنسبة للأمة. وهو أيضا الضابط الكلي لشبكة العلاقات الخاصة التي تحكم الفرد في علاقاته مع

(1) البريني، محمد فتحي، وآخرون، الإجهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات العالم الإسلامي،

مطبعة، ط 1، 1991، ص 69.

نفسه، أو في علاقاته مع الآخرين .

كما أنه يشكل العامل الهام الذي يوحد حركة المجتمع ، والهدف الأسمى الذي تسعى إليه الأمة لتحقيق الانسجام والوئام في حركتها ومشاعرها وقيمتها . ويظل هذا الإطار المرجعي الممّون الرئيسي لها بالطاقة التي تعبئها، وتشحذ فعاليتها بالمخزون الروحي، وبقدر ما تكون علاقة المجتمع بالإطار المرجعي متينة، بقدر ما يكون حضوره على الساحة التاريخية فعالاً .

كما تبدو أهمية الإطار المرجعي في كونه معياراً لقياس مدى تطور الأفكار وانحرافها عن أصولها الأولى في المنظومة الفكرية، ومن الأمثلة على هذا التطور ما طرأ على مفهوم (الحكم) من تغيير، فقد كان يعني في صدر الإسلام القضاء والفصل في الأمور الدينية وغير الدينية، وهو يعني اليوم الحكم السياسي بمؤسساته المختلفة، وهذا ما يفسر اتجاه التغيير نحو العودة إلى الأصول الذي يكسبه نوعاً من الشرعية⁽¹⁾ .

وعلى هذا الأساس، كان من الضروري تحديد الإطار المرجعي في أية عملية هادفة إلى إحداث تغيير جوهري في البناء الثقافي أو الحضاري لأي مجتمع، لأن أي مسعى لإحداث هذا التغيير لابد أن يبدأ من نقطة جلاء الإطار المرجعي وحسم الموقف منه على نحو واضح، وإلا بقيت المسيرة الحضارية والثقافية تتخبط في السلبات المترتبة عن عملية تبني أطر مرجعية أخرى غريبة عن جسم الأمة .

والإطار المرجعي للأمة الإسلامية، هو الإسلام بمصدره الكتاب والسنة، اللذين عرفا مرحلة التطبيق العملي، والتنزيل الفعلي على أرض الواقع في زمن النبوة والخلافة الراشدة، مما جعل هذه المرحلة تمثل المعيار والنموذج الذي يعود إليه

(1) الدريني، محمد فتحي، وآخرين، الاجتهاد والتجديد في الفكر الاسلامي المعاصر، ص 73 .

المسلمون دون سواها من مراحل التاريخ الإسلامي، التي تعرضت خلالها مسيرة المجتمع الإسلامي لسنن التدافع البشري وعوامل السقوط والنهوض .

وحتى تتضح صورة الإطار المرجعي في الفكر الإسلامي، تنبغي الإشارة إلى بعض خصائصه التي تميزه عن الأطر المرجعية الأخرى بإيجاز، ومنها :

أ - أن مصدر القرآن والسنة إلهي كله، فالقرآن - كما هو معلوم - إلهي في لفظه ومعناه، أما السنة النبوية فإنها إلهية في المعنى دون اللفظ مصداقا لقوله تعالى: « وما ينطق عن الهوى ⁽³⁾ إن هو إلا وحي يوحى ⁽¹⁾ » . وقد كانت وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم تنحصر في تبليغ الرسالة الإسلامية كما جاءته من عند ربه، دون زيادة أو نقصان .

وهنا ينبغي أن نشير إلى قضية هامة ، كثيرا ما يقع فيها اللبس والمغالطة ، وهي اعتبار القرآن والسنة من ضمن التراث الذي يخضع للفحص والاختبار ، والمساءلة والمناقشة، ومن ثم الانتقاء والإلغاء باسم المعاصرة ⁽²⁾ ، وهي مقولة يرددها أنصار الحداثة الذين أخضعوا القرآن والسنة للتراث بمفهومه الغربي العلماني.

والحق أن القرآن والسنة - كما سلف - وحي معصوم من عند الله تعالى، لا يخضعان للمقاييس والمعايير التي يَقومُ بها التراث من حيث الخطأ والصواب، بل لابد من احترامهما وتقديسهما. أما فهوم المسلمين للكتاب والسنة، فهي اجتهادات بشرية قابلة للنقد والرفض والقبول، وهي التي يمكن إدراجها ضمن التراث الإسلامي.

ب - أن القرآن والسنة محفوظان بأمر الله تعالى من كل تبديل أو تحريف ،

(1) النجم ، 3 ، 4 .

(2) النجار ، د عبد المجيد ، في فقه التدين فهما وتنزيلا ، كتاب الأمة ، ج 2 ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب ، ط 1 .
جمادى الأولى 1410 هـ ، ص 11 .

فأصل الشريعة قائم إلى الأبد، لم تشبه شائبة من اجتهادات البشر، فبقي مصدره الإلهي نقياً ونصوصه ثابتة لا تتغير، مطلقة لا تتقيد، حية في كل زمان ومكان: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»⁽¹⁾.

جاء أن القرآن والسنة منسجمان مع فطرة الإنسان لأنهما يعالجان ثوابت إنسانية فطرية، عضوية ونفسية وعقلية وروحية. لذلك جاء متجاوبان مع النظام الذي أوجده الله في الأدمي، ومع السنن التي تسيّره، فلا تصطدم تعاليمها معه، سواء في الجانب التشريعي، أو الخلقي، أو الوجداني.

د - أن الإطار المرجعي للأمة الإسلامية ليس مجرد منظومة فكرية نظرية، تعد الإنسان بالعدل والإخاء والمساواة، وترسم له ملامح المجتمع المثالي، بل هو مرحلة رائعة تجسد فيها الإسلام في نموذج عملي واقعي، خلال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، فأعطى نتائج باهرة، وحقق نجاحاً منقطع النظير.

حيث سعدت الأمة الإسلامية تحت سلطانته بالطمأنينة والعدل والاستقرار: «وأطعمها الله به من جوع، وأمنها من خوف، وأعزها بعد ذل، وعلمها بعد جهل، وهداها بعد ضلال، واجتمعت عليه بعد فرقة»⁽²⁾.

واستمرت تجربة تطبيق الإسلام بعد مرحلة النبوة والخلافة الراشدة طيلة قرون عديدة، وعلى الرغم من فقدانها لبعض الجوانب التي طبعها المرحلة النموذجية، إلا أنها استطاعت أن تؤسس حضارة إنسانية رائعة.

وهذه خاصية هامة جداً، لأنها تغطي الجانبين النظري والتطبيقي في الإطار

(1) الحجر، 9.

(2) القرطبي، ديسوق، الحل الإسلامي لفريضة وضرورة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1981، ص 175.

المرجعي، وهي أيضا رد قاطع على أولئك الذين يشككون في إمكانية الإسلام ،
وقدرته على إحداث التغيير الحضاري المنشود في العالم الإسلامي اليوم .

العودة إلى الأصول وأبعادها

شكل الإطار المرجعي الإسلامي الأساس الهام الذي قامت عليه جميع
الدعوات التجديدية، والحركات التغييرية في العالم الإسلامي منذ «ابن تيمية»
مرورا بـ «محمد بن عبد الوهاب»، و «الشوكاني» و «الأفغاني» و «محمد
عبده» و «رشيد رضا» وغيرهم .

فقد كان القاسم المشترك الذي ألف بين دعواتهم جميعا إلحاحهم الشديد على
ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة والاحتكام إليهما، والاستنصاء بهديهما ، في
مجالات العقيدة والفقه والتربية ومختلف جوانب الحياة الأخرى من خلال منهج
عقلي سليم، وتفكير علمي سديد، يؤمن بالتقدم والحضارة .

ولم تكن الحركة الإصلاحية الحديثة في الجزائر لتتشذ عن هذا الإجماع، فقد
كان الإسلام هو الأساس الذي تبناه المصلحون ليبينوا عليه نهضة الجزائر الحديثة،
ويقوموا عليه أركان ودعائم البناء الجديد، بإعادة سلطان الدين على الأنفس ، وإعادة
صياغتها وفقا لتعاليمه وتوجيهاته في الحياة، في إطار المواجهة الحضارية مع
الاستعمار الفرنسي، والمقاومة الجادة للانحرافات العقدية والسلوكية التي كانت
متفشية في المجتمع الجزائري .

يقول عبد الحميد بن باديس موضحا هذا الأساس الهام الذي قامت عليه
حركة التجديد الديني في الجزائر: «ولیکن دلیلنا فی ذلك وإمامنا کتاب ربنا، وسنة
نبینا ، وسیرة صالح سلفنا ، ففي ذلك كله ما یعرفنا بالحق ، ویبصرنا فی العلم ،
ویفقهنا فی الدین ، ویهیدنا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز والسیادة العادلة فی

الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى»⁽¹⁾.

وقد سار الإبراهيمي على هذا النهج نفسه، مؤمنا إيمانا لاحد له بأن التغيير يجب أن يكون بالرجوع نظريا وعمليا إلى الإسلام، إلى المقولات التي ثبتت صلاحيتها تاريخيا، وارتضاها قلب المسلم وعقله. كما أدرك أن العودة إلى الإسلام، واستلهاهم مبادئه وقيمه يعتبر أولى الخطوات على طريق البناء الحضاري. لذلك، دعا بالحاح شديد إلى تجاوز الجدل الكلامي الفلسفي، والعصبية المذهبية الفقهاء، والانحرافات الصوفية، والاتصال الحي العميق بالقرآن والسنة الذي يعيد لهما وظيفتهما التغيرية.

إن من يستقري كتابات الإبراهيمي يلحظ الدعوة الملحة إلى ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح بشكل لافت للنظر، مما يدل على إيمانه العميق بأهمية الإطار المرجعي في عملية التغيير، وكونه المحور الأساس الذي تبدأ منه النهضة وتعود إليه: «الكتاب والسنة منهما المبدأ وإليه المرجع»⁽²⁾.

فالعلماء المجددون الذين يهدفون إلى إحداث تغيير حضاري في المجتمع، والانتقال به من حالة التخلف والسقوط إلى حالة الحضارة، يجب أن ينطلقوا من الإطار المرجعي للأمة الذي يعبر بصدق عن هويتها، ويضبط توجهاتهم. وهم - في نظر الإبراهيمي - أولئك الذين: «يصدرون في أعمالهم وأحكامهم عن الكتاب والسنة، فيصدرون عن الدليل الذي لا يضل ويستندون إلى الحجة التي لا تدحض»⁽³⁾. ويؤكد الإبراهيمي أن فلسفة التغيير التي تبنتها الحركة الإصلاحية الحديثة في الجزائر، قامت على هذا الأساس: «لأن المرجع فيها إلى نصوص الدين من كتاب

(1) ابن باديس، عبد الحميد، تفسير ابن باديس، ص 197.

(2) فضلاء، محمد الطاهر، دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة الجزائر، ط 1، 1984 ص 44.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 342.

الله وصحيح السنة وإجماع السلف»⁽¹⁾ وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي مثلت هذه الحركة التغييرية، أولت اهتماما خاصا للقرآن الكريم: «وكيف لا تهتم بالقرآن وهو سلاحها الذي به تناضل، وسيفها الذي به تصول، وعدتها في الشدة، وعلى الدعوة إليه بنت مبدأها الإصلاحي، وفي الدعوة إليه لقيت الأذى...»⁽²⁾.

وفي معرض رد الإبراهيمي على جمعية علماء السنة⁽³⁾ يقول منبها إلى أهمية السنة النبوية باعتبارها مصدرا هاما من مصادر الإطار المرجعي: «فهل يحسن بنا - وقد أنضينا قرائننا في تعلم هذه السنة المطهرة، وبذلنا في العمل بها جهد المستطيع، وركبنا المخاطر في الدعوة إليها هل يحسن بنا بعد هذا كله أن نسكت لهؤلاء عن هذه الدعوى الباطلة... وهل يحسن بنا أن لا يكون لنا في الدفاع عنها ما كان منا في الدعوة إليها؟ إنا إذن لمقصرون»⁽⁴⁾.

والإبراهيمي في دعوته إلى ضرورة العودة إلى الأصول، والاحتكام إلى الكتاب والسنة، لم يكن متأثرا بأي مجدد من المجددين أو حركة من الحركات - كما قد يتبادر إلى الذهن - بل كان ذلك منه استجابة لأمر الله ورسوله الذي يلزم المسلم باتباع القرآن والسنة، وتطبيق نصوصهما الصريحة: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا»⁽⁵⁾.

وقوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: «كيف تقضي إذا

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 32.

(2) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 129.

(3) جمعية تضم رؤساء الزوايا ورجال الدين الرسميين في الإدارة الحكومية، تأسست رسميا في 15 سبتمبر 1932، كحركة معارضة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(4) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 42.

(5) النساء، ص 59.

عرض لك قضاء ؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في كتاب الله ؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله - صلى الله عليه وسلم .⁽¹⁾

والعودة إلى الأصول تعني في واقع الأمر إعادة الاعتبار إلى القيم والمعاني الدينية الأصيلة، وتنقيتها من الشوائب التي لحقت بها على مر العصور بسبب أهواء البشر، حتى يعود الدين إلى نقائه وصفائه كما نزل أول مرة .

كما تعني محاولة فهم وتفسير مفاهيم الإسلام في إطار العصر ومعطياته ، لإعادة تنزيلها على أرض الواقع ، أو بمعنى آخر: «تفجير طاقات النموذج الأصلي وإظهار ما يحتويه من إمكانيات وتنوعات وطاقات على التوظيف المتعدد في إطار استمرار السياق التاريخي والحضاري العام الذي يمثله أو يندرج فيه»⁽²⁾ .

والإبراهيمي عندما يلح على ضرورة الاحتكام إلى الكتاب والسنة، والعودة إلى الأصول، إنما يهدف إلى إعادة الوظيفة التغيرية للإطار المرجعي في الواقع الإسلامي من خلال إبراز مجموعة من الأبعاد الهامة تلخصها فمالي:

أولاً - أن إحداث التغير وإعادة البناء الحضاري للمجتمع الإسلامي الحديث تتم ضمن البنية التي تشكلت خلالها التجربة التأسيسية للمجتمع الإسلامي الأول، ومن ثم يكون الإسلام هو نقطة الانطلاق في أي تغيير اجتماعي .
والإبراهيمي يؤمن بهذا القانون الاجتماعي في عملية التغير الحضاري ،

(1) أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني ، صحيح سنن المصطفى ، ج 2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، دت ، ص 116 .

(2) النبريني ، محمد انمي ، وآخرون ، الإجهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر ، ص 69 ، 70 .

ويتبنى مقولة الإمام مالك بن أنس: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» فنجدّه يقول: «والقرآن هو الذي صلح عليه أول هذه الأمة وهو الذي لا يصلح غيرها إلا عليه ... فإذا كانت الأمة شاعرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود إلى كتاب ربها فتحكمه في نفسها، وتحكم به، وتسير على ضوئه وتعمل بمبادئه وأحكامه والله يؤيدها ويأخذ بناصرها وهو على كل شيء قدير»⁽¹⁾.

وقد أكد مالك بن نبي - في دراساته لمشكلات الحضارة - هذا القانون، وعده سنة ثابتة من السنن الاجتماعية، حينما أشار إلى أن إيديولوجية التغيير وإعادة البناء للمجتمع الإسلامي الحديث، هي إيديولوجية التغيير والبناء نفسها التي انطلق منها المجتمع العربي في صدر الإسلام؛ لأن هناك للواقع الإسلامي: «أساسا ثقافيا عربيا إسلاميا لا يمكن إعادة بناء حضارتنا على سواه»⁽²⁾، ولأن: «نهضة مجتمع ما تتم في نفس الظروف العامة التي تم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء لنفس القانون»⁽³⁾.

ثانيا - الرجوع المباشر إلى القرآن والسنة، وتجاوز القراءات المذهبية التي تأسر النص ضمن منظورها، وطرح الإجتهدات البشرية التي تراكت عبر العصور، وأصبحت لها الصدارة في كل المناقشات والحوارات، واكتست طابع القداسة حتى كادت تحل محل الكتاب والسنة: «ونحن إذ ننكر إنما ننكر الفاسد من الأعمال، والباطل من العقائد سواء علينا أصدرت من سابق أم من لاحق، ومن حي أم من ميت، لأن الحكم على الأعمال لا على العاملين. وليس صدور العمل

(1) إبراهيم، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 78.

(2) بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ت، ص 127.

(3) بن نبي، مالك، ميلاد مجتمع، دار الفكر، دمشق سوريا، د.ت، ص 69.

الفاسد من سابق بالذي يحدث له حرمة أويصِّيره حجة على اللاحقين، بل الحجة لكتاب الله ولسنة رسوله، فلا حق في الإسلام إلا ما قام دليله منهما واتضح سبيله من عمل الصحابة والتابعين بهما أو إجماع العلماء بشرطه على ما يستند عليهما»⁽¹⁾.

وقد شكلت هذه الاجتهادات البشرية الكلامية والفقهية والصوفية حاجزا كثيفا، حال بين المسلمين وبين الاتصال المباشر بالنصوص المعصومة، التي فقدت صفة القدرة على العطاء المتجدد بسبب تعطيل فاعليتها: «فالعودة إلى النص تعني فيما تعني التحرر من كل النصوص البشرية والإقرار بعدم إلزاميتها وسحب القداسة عنها، دون أن يعني ذلك إسقاط أهميتها المعرفية»⁽²⁾.

ثالثا - أن الإسلام هو الملاذ الذي يلجأ إليه المسلمون في محاولاتهم المتكررة للدفاع عن النفس، وحفظ كياناتهم من الانحلال والذوبان الذي تستهدفه الغارات الغربية المتتالية على الشخصية الإسلامية، في إطار الصراع الحضاري الذي يشهده العصر الحديث.

فقد رأى الإبراهيمي أن فكرة الرجوع إلى الهوية الإسلامية، يشكل محورا أساسيا لمشروع النهضة الحضارية كرد فعل حاد على التحدي الحضاري الغربي، وهي الأمل الوحيد الذي يجب أن يتشبث به المسلمون للانعتاق من هذه المغلوبة الحضارية إزاء الغرب اليوم، كما أنها السبيل الأمثل الذي يمكنهم من تفجير أسباب القوة والمناعة الكامنة في هذه الهوية، ليدفعوا غوائل الغزو والمحو بتأصيلها

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 106

(2) عمارة، محمد، وآخرون، إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة، ط 1، 1991، ص 212.

وتدعيمها⁽¹⁾.

وأبعا - أن العودة إلى الأصول ، تفتح آفاقا واسعة للعقل الإسلامي الحديث، ليمارس نشاطه الطبيعي باحتكاكه المباشر بالنصوص المعصومة. وهذه نقلة نوعية في التفكير ترفع عن كاهل العقل الضغط الذي فرضته عليه التراكمات التراثية، وتربطه بالنص القرآني، ليستلهم منه معان جديدة دون الرجوع إلى وساطات السابقين الاجتهادية .

ففي إشارة إلى دور العقل في فهم الدين عند السلف الصالح يقول الإبراهيمي: « وكانوا يحكمون دينهم في عقولهم ، ويحكمون عقولهم في ألسنتهم ، فلا تصدر الألسنة إلا بعد مؤامرة العقل، ويعدون العقل مع النص أداة للفهم معزولة عن التصرف، ومع المجلات ميزانا للترجيح، يدخل في حسابه المصلحة والضرورة والزمان والمكان والحال، ويميز بين الخير والشرعيين خير الخيرين وشر الشريرين»⁽²⁾ وإذا كان السلف الصالح قد وفق في التعامل مع الإطار المرجعي، عندما أخی بين النص والعقل، فإن الخلف قد ترك النصوص المعصومة واستبدلها بمقولات المشايخ، مما أدى إلى تعطيل العقل وغلق باب الاجتهاد، وشيوع التقليد والجمود والتعصب المذهبي: « بل فهموا الدين وأفهموه على أنه صور مجردة خالية من الحكمة ، وحكموا فيه الآراء المتعاكسة والأنظار المتباينة من مشايخهم ، حتى انتهى بهم الأمر إلى اطراح النصوص القطعية إلى كلام المشايخ، وإلى سد باب

(1) الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج 4 ، ص 185 ، 186 .

(2) المصدر نفسه، ج 4 ، ص 149 .

إلا أن الإبراهيمي الذي راهن في كل كتاباته على هذا الأساس، لم يقدم برنامجا عمليا جادا وشاملا يؤكد هذه المقولة، وبقي الإسلام شعارا مرفوعا لم تستوعب الأجيال أبعاده بعمق ووعي، ولم تقتنع به اقتناعا عمليا، مما أدى إلى إقصائه مباشرة بعد الاستقلال من مشروع التنمية الوطنية، واعتباره كابحا من كوابح النهضة والتقدم⁽¹⁾ وتمت محاصرته من طرف الأطر المرجعية الأجنبية في دائرة ضيقة، أفقدته الفعالية والتأثير الإيجابي.

2- أن الإبراهيمي قد أسهم فعلا بدعوته إلى العودة إلى الأصول والاحتكام إلى الكتاب والسنة في إحداث ثورة تحريرية كبرى على مستوى الأفكار والمفاهيم، هزت العقلية الجزائرية الحديثة التي أصبحت ترفض التقليد والجمود والتعصب المذهبي، وتؤمن بالبرهان والدليل الشرعي طريقا للاقتناع، وهذا في حد ذاته نقلة نوعية هامة في التفكير الجزائري الحديث، إلا أن هذه المحاولة لم تثمر تجديدا للعلوم الإسلامية في مجالات الفكر والفقه والأخلاق والتربية، ولم تفتح باب الاجتهاد على مصراعيه لمعالجة مشاكل الواقع الجزائري في ضوء معالم الإطار المرجعي.

العلاقة مع الإطار المرجعي :

إن أي إطار مرجعي إنما يستمد دوره ووجوده وفعاليته وموقعه من خلال العلاقة معه، هذه العلاقة التي تحولته إلى نموذج بغية الاقتراب منه أو التطابق معه. ويبدو ذلك من خلال تمظهر هذا الإطار في الواقع على الصنعيين الفردي والاجتماعي.

والإبراهيمي يرى أن القرآن والسنة اللذين يمثلان الإطار المرجعي للامة الإسلامية محفوظان بعهد الله وموثيقه: « فليتم المسلمون ملء جفونهم ولينعموا

(1) برفورت، الطيب، التغيير الإسلامي خصائصه وضوابطه، مكتبة رحاب، الجزائر، د.ت، ص 21.

بالأمن من هذه الناحية، وليعلموا أن القرآن أتى من قبلهم...»⁽¹⁾ وقد بذل المسلمون الأوائل: «من الجهود في وسائل الحفظ ما لا يدع استزادة لمستزيد، حتى وصلنا النص القرآني والبيان النبوي كما هو، وكأننا نعيش عصر النبوة ونشهد نزول الوحي»⁽²⁾.

فأخلل الذي يعاني منه الواقع الإسلامي في نظره، ليس مرجعه افتقاد القيم أو فقر في الميراث الثقافي، أو عجز وقصور في التجربة الحضارية التاريخية، لأن المسلمين - على حد قول إبراهيمي - : «ليسوا عالة على التاريخ، ولا متطفلين على الزمن ولا واغلين على مائدة الحياة ، وإن مكانهم من التاريخ - لو عرفوا - هو الصدر...»⁽³⁾، وإنما هو اختلال العلاقة مع الإطار المرجعي، وانقطاع الأسباب التي تربطه به حتى يحرك فيه كوامن الإيمان الذي خمدت فاعليته وانطفأت شعلته . وإعادة المسلمين إلى حظيرة الدين، يكون بتصحيح هذه العلاقة مع الإطار المرجعي، والتي تتم عبر وسيلتين أساسيتين هما: فهم الدين وتنزيله على أرض الواقع⁽⁴⁾، أو كما يعبر عنهما إبراهيمي: التدبر والاتباع. وفي إشارة إلى ما أصاب هذه العلاقة من خلل يقول: «إن حقوق القرآن علينا من التدبر والاتباع، هي التي يعرفها ما يعرفها من الإهمال والضياع والتفريط والغفلة»⁽⁵⁾.

أ - فهم الدين: إن التحدي الذي واجه إبراهيمي في عملية التغيير هو سوء فهم المسلمين لطبيعة الإطار المرجعي وخصائصه، وانحرافهم عن مبادئه، مما

(1) إبراهيمي ، آثار الشيخ محمد إبراهيمي ، ج 1 ، ص 90 .

(2) التجار ، د . عبد المجيد ، في فقه الدين فهما وتنزيلا ، تقديم : عمر عبيد حسنة ، ج 2 ، ص 8 .

(3) إبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير إبراهيمي ، ج 1 ، ص 218 .

(4) التجار ، د . عبد المجيد ، في فقه الدين فهما وتنزيلا ، ج 1 ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، الدوحة ، قطر ، ط 1 ، ص 41 .

(5) إبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير إبراهيمي ، ج 1 ، ص 90 .

جعلهم مسلمين بالاسم والهوية فقط. فقد انحسر تأثير الإسلام انحسارا يكاد يكون كليا عن مظاهر الحياة العملية، واقتصر عند معظمهم على طقوس عبادية مجردة من الروح، خالية من المعنى، شوهتها البدع والأضاليل، نتيجة لشيوع الفهم الخاطئة عن الإسلام .

وتكمن أهمية فهم الدين في كونها المرحلة الأساسية والضرورية التي يجب أن تسبق كل محاولة لتنزيل الإسلام على أرض الواقع. ويتم ذلك عن طريق تجلية الوجه الحقيقي لمصادر الإطار المرجعي على مستوى المبادئ والعقائد والأحكام والأخلاق، وتنقيتها من زوائد البدع ونواقصها، ومن غبار الخرافة وركام الشعوذة ، وانحرافات التصورات لتعود له قدرات الفعل والتأثير على الحاضر والمستقبل⁽¹⁾.

لذلك آمن الإبراهيمي بضرورة فهم الإطار المرجعي فهما صحيحا، وإدراك طبيعته وخصائصه إدراكا واعيا، بعيدا عن مظاهر التأويل والتعطيل والتضليل التي أصابت العقل الإسلامي عبر القرون الماضية، ثم تفهيمه للناس وغرس حقائقه المشرقة في ضوء الواقع الإسلامي الحالي لتداوي جروحه وتقضي على أسقامه .

وعندما تصدى لمحاولة توضيح المفاهيم الصحيحة للإسلام وجد ركاما ضخما من الفهم الخاطئة التي تجمعت عبر قرون الانحطاط، فحجبت عن أذهان المسلمين حقيقته الناصعة، وجعلت سلوكهم غريبا عن مبادئه الصحيحة، وحرفت معتقداتهم عن معانيها الحقيقية، وصاروا يعيشون بمنطق بعيد عن الدين الذي ينتمون إليه: « وأفكر في قومي المسلمين فأجدهم قد ورثوا من الدين قشورا بلا لباب، وألفاظا بلا معان، ثم عمدوا إلى روحه فأزهمقوها بالتعطيل، وإلى زواجره فأزهمقوها بالتأويل ، وإلى هدايته الخالصة فموهوها بالتضليل، وإلى وحدته الجامعة فمزقوها بالمذاهب

(1) عمارة ، د محمد ، ((حديث في أزمة الفكر الإسلامي المعاصر)) ، رسالة الجهاد ، ع 86 ، مارس 1990 ، مائدة ، ص 93 .

والطريق والنحل والشيع»⁽¹⁾.

إن شيوع الفهم الخاطئة - في نظر الإبراهيمي - أدى بالمسلمين إلى السقوط في مقاهات الجهل المطبق بدينهم، مما عزلهم عن مؤثراته الإيجابية وحرّمهم من قوته الدافعة وروحانيته الحية، وجعلهم هدفا سهلا ولقمة سائغة لأعدائهم: « فلم يزالوا لاهين بالانتساب الصوري إليه، حتى دلتهم حوادث الدهر عليه، فاستشعروا - وهم بين يرائل من السباع البشرية تتخطف، وصوالجة من الأمم تتلقف - غيبة هاديه الذي كان يهيب بالأرواح إلى العز... »⁽²⁾.

وعليه، فإدراك علماء الأمة لطبيعة الإطار المرجعي وخصائصه شرط أساسي للقيام بعملية التغيير، وإعادة تنزيل الإسلام على واقع المسلمين وتبليغه للبشرية التائهة بين مذاهبها وأديانها ونحلها: « لو كان للإسلام دعاة فاهمون لحقيقة الإسلام محسنون للإبانة عنها ولعرضها على العقول لرجعت إليه هذه الأمم الحائرة في هذا العصر، الثائرة على أديانه وقوانينه وأوضاعه »⁽³⁾.

ب - تنزيل الإسلام على الواقع : والذي يعني صيرورة الحقيقة الدينية التي تم تمثيلها في مرحلة الفهم إلى نمط عملي تجري عليه حياة الإنسان في الواقع⁽⁴⁾. وكل خلل يعتري عملية الفهم ستكون له نتائج الوخيمة التي تنعكس على عملية التنزيل التي هي تخطيط وبرمجة لبسط الدين على واقع الحياة. والإبراهيمي يرى أن تنزيل الدين على أرض الواقع، هو الثمرة الطبيعية لعملية الفهم، وهو الغاية التي وجد من أجلها الدين: « أما الاتباع فهو ثمرة التدبير

(1) الإبراهيمي ، عين البصائر ، ص 547 .

(2) الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 92 .

(3) المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 184 .

(4) النهار ، د . عبد المجيد ، في الله التدين فهما وتنزيلا ، ج 2 ص 15 ، 16 .

وهو الذي لا تتحقق الغايات التي يرمي إليها القرآن إلا به، وقد تكرر ذكره في القرآن في معارض شتى تدل مستعرضها على أنه هو سر التدين والتأله»⁽¹⁾.
ثم يعقد مقارنة بين السلف والخلف في علاقتهما بالإطار المرجعي، فيرى أن الفرق بينهما يكمن في أن السلف حققوا شرطي الفهم والاتباع، بينما أهمله الخلف: ((تدبر القرآن واتباعه هما فرق ما بين أول الأمة وآخرها وأنه لفرق هائل فعدم التدبر أفقدنا العلم، وعدم الاتباع أفقدنا العمل، وإننا لا ننتعش من هذه الكربة إلا بالرجوع إلى فهم القرآن واتباعه، ولانفليح حتى نؤمن ونعمل الصالحات...»⁽²⁾.
ولعل إسهامات الإبراهيمي الفكرية⁽³⁾ في الدعوة إلى تجديد العقيدة حتى تعود لها فعاليتها وتأثيرها الإيجابي في حياة المسلمين، ودعوته الملحة إلى إحياء الفقه الإسلامي، وفتح باب الاجتهاد لحل مشكلات الواقع من منظور عصري، هي محاولة لصياغة نظرية لجملة من المفاهيم الأساسية التي تشكل أرضية هامة لمشروع حضاري إسلامي، له منطلقاته وقسماته وأهدافه، وإن كان هذا المشروع قد بقي في هذا الإطار النظري ولم يتحول إلى برنامج عملي يحدد آليات الإنجاز ووسائله وأساليبه ومراحله .

وفي إطار العلاقة مع الإطار المرجعي أيضا، ينبغي أن نوضح رؤى وتصورات الإبراهيمي تجاه عدة إشكالات أفرزها التخلف الحضاري للمجتمع الإسلامي، والتي تشكل تحديات كبرى أمام أي جهد تغييري، رغبة في الوصول إلى الوضوح المطلوب في العلاقة مع الإطار المرجعي، وضمائنا لفعالية الإنجاز، ومنها إشكالية العلاقة مع التراث، وجدلية النص والعقل، والثابت والمتغير، والخبرة الإنسانية

(1) الإبراهيمي . آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 226 .

(2) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 232 .

(3) الفصل الأول من الباب الثالث من هذا البحث .

وسنتحدث في هذا الفصل عن العنصرين الأولين، ونرجى الحديث عن الموقف من الثابت والمتغير والخبرة الإنسانية إلى الفصل الثالث من هذا الباب لصلتهما الوثيقة بموضوع الافتتاح الحضاري تلافياً للتكرار .

أ - التراث :

التراث لغة: ما يخلقه الرجل لورثته، وأصله ورث أو وراث، فأبدلت الواو تاء ، فالتراث والإرث والمورث مترادفة، وقيل الورث والميراث في المال والإرث في الحسب⁽¹⁾.

وقد وردت كلمة (التراث) في القرآن الكريم مرة واحدة بمعنى الميراث في الآية الكريمة: « وتأكولون التراث أكلا لما »⁽²⁾ والمعنى: تأكلون الميراث أكلا شديدا لا تسألون أمن حلال هو أم من حرام⁽³⁾.

كما وردت أيضا في السنة بمعنى الميراث ، كما جاء في الثناء على المؤمن العابد قليل الحظ في الدنيا : « عجلت منيته ، قلت بواكيه ، قل تراثه »⁽⁴⁾.

فكلمة التراث في لغة العرب تعني الميراث ، وهو يشمل المال والحسب وقد وردت أيضا في القرآن للدلالة على الميراث الديني والثقافي كما في قوله تعالى في دعاء زكريا عليه السلام « يرثني ويرث من آل يعقوب »⁽⁵⁾، فإنه يعني وراثته النبوة

(1) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د . ت مادة وراث .

(2) الحجر ، 21 .

(3) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان في تفسير القرآن ، مج 10 ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1978 ، ص 117 .

(4) ابن العربي ، أبو بكر ، عارضة الأحوذني بشرح صحيح الترمذي ، مج 5 ، ج 9 ، دار العلم للجميع ، بيروت ، لبنان ، د . ت ، ص 209 .

(5) مريم ، 5 .

والعلم والفضيلة دون المال ، فالمال لا قدر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه⁽¹⁾ .
مفهوم التراث الإسلامي اصطلاحاً: هو مجموع المنجزات الثقافية والحضارية
والمادية التي ورثناها عن أسلافنا ، وما يهمنا نحن من التراث في هذا البحث هو
الفكر العقدي والفقه والتربوي الذي يمثل تلك الثروة من الاجتهادات والفهوم التي
أثمرها العقل المسلم من خلال تفاعله مع النص الشرعي عبر القرون .
ويخرج من هذا التعريف - كما أشرنا سابقاً - مصادر الإطار المرجعي
(الكتاب والسنة) باعتبارهما وحياً إلهياً معصوماً .

ومما ينبغي التأكيد عليه هنا ، أن فهم الصحابة والتابعين هي أصدق الفهوم
لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة ، وأقربها إلى المراد الإلهي ، مما جعلها
ترقى إلى درجة عالية من الصواب تنتزه فيه عن المراجعة والنقد والاعتراض .
ومبرر ذلك أن الصحابة قد عاصروا الرسول صلى الله عليه وسلم وعاشوا في
ظل الوحي ، وتقلبوا في مدلولات الوقائع والأحداث ، وسمعوا أقواله في بيان القرآن
وتطبيق الشريعة ، وشاهدوا تصرفاته وأفعاله ، والتابعين هم تلامذتهم الذين حملوا
عنهم العلم ونقلوا السنة من طريقهم إلى الناس ، ووصلوا أجيال الأمة بأصحاب
النبي المؤتمنين على كتاب الله وسنة رسوله ، وكانوا جميعاً أعرف الناس بلسان
العرب الذي هولغة القرآن والوسيلة المثلى لفهم مدلولاته : >> لذلك غلب
صوابهم على خطئهم في الفهم وفي الاجتهاد ، ولذلك أصبحت فهمهم للدين وسائل
للوصول إلى الحق ، وأراؤهم في الدنيا موازين للمصلحة ، وماهم بالمعصومين لكنهم
لوقوفهم عند الحدود وارتياض نفوسهم على إثثار رضى الله وشعورهم بثقل عهده ،

(1) الاصطهاني ، الرغب ، معجم مفردات الفاظ القرآن ، ص 556 .

وفقهم الله لإصابة الصواب»⁽¹⁾.

وكان الإبراهيمي يدرك بوضوح تام هذا التمييز الذي اختصت به فهوم الصحابة والتابعين، فكان يقرن ذكرها دائما بذكر الكتاب والسنة داعيا إلى الاقتداء بهم. وهذا ليس تقديسا للسلف الصالح، بل هو وضع لهم في مقامهم المناسب الذي وضعهم فيه أئمة المسلمين، الذين عدوا إجماع الصحابة والتابعين مصدرا ثالثا للتشريع بعد الكتاب والسنة.

والإبراهيمي عندما يشير إلى فضل السلف الصالح، إنما يحيلنا إلى «أفضل العصور الإسلامية وأولها بالاقتداء والاتباع»⁽²⁾، على حد تعبير محمد سعيد رمضان البوطي، وتعود أفضليته إلى كونه العصر الذهبي الذي شهد نزول الوحي وإقامة المجتمع الإسلامي النموذجي، وتأسيس الدولة الإسلامية: «ولا يمكن فهم الإسلام وتمثل قيمه ومقاصده وشرائعه إلا من خلال الرجوع ودراسة تلك المرحلة التأسيسية في حياة الأمة وما نتج عنها من تحولات عميقة»⁽³⁾.

ومن المؤكد أن الإبراهيمي في دعوته إلى الاقتداء بالسلف الصالح، لا يدعو إلى عودة سياسية وإيديولوجية لصياغة المجتمع الإسلامي المعاصر وفق صورة مثالية مقتطعة من المرحلة النموذجية، أو بمعنى آخر لا يريد إعادة إنتاج حقبة العصر الذهبي بكامل مواصفاتها. لأن هذه النظرة تناقض سنة التطور في الحياة، وتصطدم مع القوانين الاجتماعية التي تحكم المجتمعات البشرية المتغيرة باستمرار. وتناقض من جانب آخر أيضا أصلا من أصول التشريع الإسلامي الذي هو

(1) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 149، 150.

(2) البوطي، د. محمد سعيد رمضان، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر، دمشق سوريا، د.ت، ص 9.

(3) عمارة، محمد، وآخرون، إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، ص 207.

الاجتهاد والتجديد، والذي تتم بموجبه الاستجابة للظروف التي تجد في حياة الإنسان، مما يضمن للشريعة حداً أقصى من المرونة يؤكد صلاحيتها لكل زمان ومكان .

بل كان يدعو إلى البحث في ظاهرة ميلاد المجتمع النموذجي، لاكتشاف القانون الذي يحكم هذه الظاهرة، حتى تتم إعادة تأسيس وبناء المجتمع الإسلامي المعاصر وفق القوايتين نفسها التي تحكمت في ظاهرة ميلاده: « يعتقد المسلمون أن سلفهم كانوا أكمل إيماناً من خلفهم وهذا صحيح ولكنهم لا يبحثون عن علة كمال الإيمان في السلف حتى لكانهم يعتقدون أن ذلك بوضع إلهي وتخصيص رباني لا يد للكسب فيه وهذا خطأ فاحش وجهل فاضح »⁽¹⁾.

فهو ينفي ظاهرة الإعجاز عن المجتمع الإسلامي الأول، ويعتقد أن وجوده خاضع لجملة من القوانين والنسب تلزم المسلم أن يكتشفها لتتضح له معالمها، وتكون دليلاً في عملية التغيير: « ومادام الكلام في الإيمان فهاته وانظر كيف فهمه السلف ومن أي معين استقوا فهمه ومن أي أفق استجلوا حقائقه، ثم انظر كيف فهمه الخلف ومن أين سقطت عليهم هذه الفهم السخيفة، ثم أرجع كل معلول إلى علته بلا إجهاد للذهن ولا إنضاء للقريحة »⁽²⁾.

أما بقية التراث الذي أنتجه العقل الإسلامي بعد عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم، والذي يشكل بحق ثروة فكرية هائلة، وتجربة خصبة تنامت طيلة قرون عديدة، وخبرتها العقول والتطبيقات الواقعية جيلاً بعد جيل، فهو الذي يمد الأمة الإسلامية بتميزها لارتباطه بعقيدتها التي توجهها وتحفظها، وتعينها على مواجهة

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 231 .

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 231 .

التحديات الحضارية المختلفة، وهو الذي يهديها إلى استكشاف واقعها في ضوءه حتى تبني مستقبلها على أسس متينة من خبرات السابقين وتجاربهم. ويضمن لها التواصل الحضاري الضروري لإثبات ذاتها في غابة الصراع الحضاري القائم في عصرنا الحديث .

كما يشكل هذا التراث أيضا مادة للاعتزاز والفخر، وأسلوبا ناجعا لإنعاش ذاكرة الأمة وشحن كبرياتها المشروع⁽¹⁾ في سبيل تعبئتها بالمخزون الروحي اللازم لإحداث عملية التغيير والتخلص من المغلوطة الحضارية: «إن الأمة الإسلامية لأغنى الأمم من هذه البواعث التاريخية وكلها من ذلك الطراز العالي الذي أشرنا إليه، ومعظمها بواعث نورية يفضي الباعث منها إلى باعث فلا تفتأ الأمة مستعرضة ما ضيها كله ولا تزال في غمرة من المنبهات المنعشة»⁽²⁾.

وكان الإبراهيمي ينظر إلى هذا التراث نظرة إعجاب وإكبار، ويعتز بتجارب المسلمين السابقة ، ويهيب بغرائمهم التي حققت المعجزات على المستويات السياسية والمدنية والأخلاقية ، وعقولهم الفذة التي غشيت جميع ميادين العلوم فاكتسحتها وصبغتها جميعا بالروح الإسلامية. ويرى في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية الدليل القاطع على قدرة الأمة على الخلق والإبداع .

غير أن هذا الإعجاب لم يقف عند حد التغني بأمجاد الماضي والإغراق في مدح مثاليته، بل اتخذ منه محطة انطلاق لتغيير الحاضر البائس الذي كان مدركا لأبعاد تخلفه، محيطا بخلفيات انحطاطه، وذلك بتوظيف الماضي لخدمة هذا الحاضر عن طريق استشراف التاريخ واكتشاف السنن التي كانت تحكم سير المراحل

(1) عمارة ، د . محمد ، الإسلام والمستقبل ، دار الشروق ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1984 ، ص 37 .

(2) الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 236 .

التاريخية للوقوف عن قرب على الأسباب التي تكمن وراء الانتكاسة الحضارية للامة: « لا كاشف للحقائق الكونية كالبحث، ولا شارح للأسرار كالتدبر، ولا محلل للأحداث الاجتماعية كالتاريخ »⁽¹⁾.

كما دعا إلى استلهم أمجاد الماضي الزاهر والاستنارة به والتزود من مفاخره الخالدة لتكون نبراسا هاديا للأجيال تتأسى بها وتنفخ فيها روح البطولة لتنتقل في الحياة بقوة وعزيمة: « إن لنا ماضيا عبقريا حسدتنا عليه الأمم التوالي، بعد أن جرضت⁽²⁾ به الأمم الخوالي. فمن مصلحتنا وحدنا أن نحي ذكرياته في نفوسنا وأن نستمد منه قوة لأرواحنا وأن نربي ناشئتنا على احتذاء مثله وعبقرياته »⁽³⁾.

وهذا الاستلهم لأمجاد الماضي ليس دعوة للانغلاق والتقوقع داخله، وإنما هو خطوة إيجابية نحو بناء الحاضر والمستقبل. ففي معرض نصحه للمعلمين الأحرار وتوضيحه لمنهج التربية يقول: « ربوهم على أن يعيشوا بالروح في ذلك الجو المشرق بالإسلام وآدابه وتاريخه ورجاله، ذلك الجو الذي يستوي ماضيه ومستقبله في أنهما طرفا حق لا يشوبه الباطل، وحاشيتنا جديد لا يبليه الزمن، وعلى أن يعيشوا بالبدن في هذا الزمن الذي يدين بالقوة ويدل بالبأس »⁽⁴⁾.

فلم تكن علاقة الإبراهيمي - إذن - بالتراث علاقة سلبية بالهجرة المعاكسة للفرار من الحاضر المزري والاستئناس بالموتى والغفلة عن الأحداث التي تموج بها الساحة المعاصرة، بل كانت محاولة جادة للدراسة والتقد في سبيل بناء العملية

(1) الإبراهيمي عيون البصائر، 535.

(2) الجرض بالتحريك، الرقيق يفص به، يقال جرض بريقه يجرض مثال كسر يكسر، وهو أن يبتلع ريقه بالجهد على هم وحزن، والجريض: الغمة (الجهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ج 3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 2، 1979، ص 1069).

(3) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 237.

(4) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 300.

التغييرية لوعيه أن الحاضر هو مستقبل الماضي، وأنه ماضي المستقبل ومقدماته، وأن وضع الحاضر في موقعه المناسب من المسيرة التاريخية للأمة خطوة هامة نحو إنضاج عملية البناء الحضاري ودفعها في خطها الصحيح.

لذلك وجه سهام النقد لأولئك الذين: «نصبوا من الأموات هياكل يفتتنون بها ويقتلون حولها ويتعانون لأجلها، وقد نسوا حاضرم افتتاناً بماضيهم، وذهلوا عن أنفسهم اعتماداً على أوليهم، ولم يحفلوا بمستقبلهم لأنه - زعموا - غيب، والغيب لله، وصدق الله وكذبوا، فما كانت أعمال محمد وأصحابه إلا للمستقبل...»⁽¹⁾.

لذلك لم نجد عند الإبراهيمي مظاهر التقليد والجمود والحرفية، ولم نر فيه تهيباً من النقد والمراجعة، بل كان يدعو في إلحاح إلى أعمال العقل وتغيير واقع المجتمع بالاجتهاد والتجديد، وتجاوز المظاهر السلبية في التراث الإسلامي، والتي أفرزتها المذاهب الكلامية والفقهية والصوفية، والعودة المباشرة إلى مصادر الإطار المرجعي للتفاعل معها.

وعلى هذا الأساس، يكون التراث عند الإبراهيمي رافداً هاماً من روافد بناء الحاضر والمستقبل بعد إخضاعه لعملية المراجعة والنقد والتمحيص، للتخلص من مظاهره السلبية، والاستفادة من جوانبه الإيجابية، وهو بذلك يرفض أن توضع الأمة الإسلامية بين خيارين صعبين لا ثالث لهما: الانغلاق على الماضي والإمعان في الهجرة إليه مع اجتراح التراث الذي يجر إلى التهميش الحضاري والموت البطيء، أو إلغاء التراث من حياة الأمة وقطعها عن ماضيها والانفتاح المطلق على الحضارة الغربية الذي يورث الانسلاخ من القيم ثم الذوبان في وسط غريب.

(1) الإبراهيمي جهون البصائر، ص 547.

ب - جدلية النص والعقل : عرف الفكر الإسلامي منذ نشأته جدلية النص والعقل باعتبارهما الجهازين الأساسيين لإنتاج المعرفة. وقد شغلت هذه القضية - منذ وقت مبكر - العلماء المسلمين، لأن الإسلام بقدر ما جاء يؤسس الحياة على دعائم الوحي فإنه جاء ليعطي من شأن العقل وينبه إلى أهميته، ويجعله حليفا للوحي في قيادة الحياة وتحقيق الاستخلاف في الأرض⁽¹⁾.

من هنا نشأت هذه الثنائية واختلف المفكرون المسلمون في دور كل منهما في معرفة الحق وفي إلزام الإنسان به. وتراوحت العلاقة بين النص والعقل بين التعارض والتكامل والتناقض حسب نظريات المفكرين الخاضعين في ذلك الجدل، بسبب اختلافهم حول تحديد الجهاز المنتج للمعرفة، وحول جوهر هذه المعرفة وبنائها وغايتها وتوظيفها في الحياة التي يحياها الإنسان⁽²⁾.

وكان الجدل حول هذه القضية يشتد كلما تعرضت الأمة الإسلامية لتحديات ثقافي خارجي، قائم على أساس العقل، فيستنفر الفكر الإسلامي للرد عليه وإثبات أفضليته أمام هذا الدخيل، وهو ما حدث عندما دخلت الفلسفة اليونانية إلى دائرة الثقافة الإسلامية في القرنين الثاني والثالث للهجرة، حيث ظهرت قضية التوفيق بين الحكمة والشريعة، ثم عادت لتبرز على الساحة الإسلامية المعاصرة بفعل امتداد الحضارة الغربية إلى بلاد المسلمين في صورة جدلية النص والعقل، وأصبحت من أهم القضايا المطروحة في الفكر الإسلامي الحديث.

وقبل أن نوضح موقف الإبراهيمي من هذه القضية يجدر بنا أن نشير في

(1) التجار ، عبد المجيد ، ((خلافة الإنسان بين الوحي والعقل)) ، الإنسان ، ع 1 ، مارس 1990 ، دار آمان للصحافة والنشر ، باريس ، فرنسا ، ص 7 .

(2) الكتاني ، د . محمد ، جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي في الفكر القديم ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 1992 ، ص 437 ، 438 .

إيجاز إلى مفهومي كل من النص والعقل .

فالنص هو الشريعة القائمة على النصوص المقطوع بتواترها وبصدورها عن الوحي، والمتمثلة في القرآن والسنة، وقد يعبر عنه أيضا بمصطلحي النقل والسمع . والعقل هو الوسيلة التي يمتلكها الإنسان للإدراك والتمييز والحكم والتحصيل ، وقد تحدث عنها القرآن الكريم باعتبارها القوة المميزة في الإنسان، والتي تردع النفس عن شهواتها واندفاعها الغريزي، وتكشف للإنسان عن الخير والشر ، فتوجهه إلى الأول لتحصل المصلحة ، وتبعده عن الثاني ليتفادى الهلاك .

وقد ترتب عن هذه الجدلية بين النص والعقل ظهور مدارس واتجاهات في الفكر الإسلامي، اعتمد بعضها على النص وانتصر البعض الآخر للعقل، وانسحب هذا الاختلاف على معظم العلوم الشرعية كالعقيدة والفقه والتفسير والسؤال المنهجي الذي يطرح نفسه هنا هو: هل كان الإبراهيمي ينتمي إلى مدرسة النص أم مدرسة العقل ؟

وكما أسلفنا، فإن الإبراهيمي كان يدعو إلى العودة المباشرة إلى القرآن والسنة والاحتكام إليهما، وهذا لا يعني أنه كان يتعامل مع النصوص تعاملًا ظاهريًا لا يتعداه إلى البحث عن عللها وأسرارها ومقاصدها، كما لم يكن من أولئك الذين يتعاملون مع النص القرآني تعاملًا عقليًا يقوم على التأويل المفرط للنص، ويدخله في متاهات بعيدة عن المراد الإلهي بتحميل اللغة أكثر مما تطيق من المعاني، بل هو ينتمي إلى اتجاه ثالث في الفكر الإسلامي، يقوم على التوفيق بين النص والعقل من خلال إعمال العقل في عملية فهم النصوص، وتفكيك اللغة لاستخلاص الحكم من الأحكام، واستلهام المقاصد العامة، وفهم الجزئيات في ضوء الكليات، مما يفتح المجال أمام اكتشاف جديد لمخزونات النص القرآني والتوجيهات النبوية، ويسمح باستنباط معان جديدة له وقد عبر عن هذا المنهج عند حديثه عن

أبي الأعلى المودودي في قوله: «فهو يؤمن بالنص، ويؤمن بعمل العقل في النص، ثم لا يزيد إلا بمقدار»⁽¹⁾.

ويقوم منهج الإبراهيمي في فهم النص على أربعة أسس هي: الأساس اللغوي، والأساس التكاملي، والأساس المقاصدي، والأساس المعرفي، وهي الشروط التي لا يمكن فهم النص إلا بمراعاتها عنده .

1 - الأساس اللغوي : ومعناه الإلمام التام والشامل باللغة العربية التي نزل بها القرآن، وفقه أسرارها والإحاطة بقواعدها كشرط أساسي وضروري لفهم النص، ولا بد من الاطلاع على معاني المفردات زمن التنزيل، ليسهل تحديد مدلول الكلمة، باعتبار أن اللغة يأتي عليها التطور، ومن ثم فقد تسقط عنها معان ومدلولات كانت في زمن الوحي وتغيرت، مما يؤدي إلى تحميل النص ما لا يمكن أن يحمله، وتحصل من ذلك أفهام زائفة للمراد الإلهي.

وعن هذا الأساس يتحدث الإبراهيمي قائلاً: «جاء القرآن لهداية البشر وإسعادهم، والاهتداء به متوقف على فهمه فهما صحيحا، وفهمه الصحيح متوقف على أمور: منها فقه أسرار اللسان العربي فقها ينتهي إلى ما يسمى ملكة وذوقا»⁽²⁾.

2 - الأساس التكاملي : وهو يستلزم بالدرجة الأولى اطلاعا تاما على القرآن الكريم، ورد أوله عل آخره وآخره على أوله، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا، ثم إلماما شاملا وواسعا بالسنة النبوية القولية والفعلية باعتبارها شرحا وبيانا للقرآن الكريم، ففيها ما هو مبين لمجمل، وما هو مخصص لعام وما هو مقيد لمطلق. وهكذا، يتم الوصول إلى فهم المراد الإلهي من خلال تكامل النصوص .

(1) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 691 .

(2) الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج 4 ، ص 205 .

يقول الإبراهيمي: « ومنها الاطلاع الواسع على السنة القولية والعملية التي هي شرح وبيان للقرآن، ومنها استعراض القرآن كله عند التوجه إلى فهم أية منه أو إلى درسها، لأن القرآن كل لا يختلف أجزاؤه، ولا يزيغ نظمه، ولا تتعاند حججه، ولا تتناقض بيناته، ومن ثم قيل: أن القرآن يفسر بعضه بعضا، بمعنى أن مبينه يشرح مجمله، ومقيده يبين المراد من مطلقه، إلى آخر الأنحاء التي جاء عليها القرآن في نظمه البديع، وترتيبه المعجز »⁽¹⁾.

3 - الأساس المقاصدي : لقد جاءت نصوص الوحي لتحقيق مصلحة الإنسان في الدنيا وضمان سعادته في الآخرة. فكل أمر أو نهى يحمل في طياته مقصدا إلهيا ظهر أو بطن يجب تعيينه حتى يجري الفهم على أساسه. لذلك ينبغي فهم النصوص في إطار المقاصد العامة للشرعة .

يقول الإبراهيمي: « ومنها الرجوع في مناحيه الخصوصية إلى مقاصده العامة، لأن خصوصيات القرآن وعمومياته متساوقة يشهد بعضها لبعضها »⁽²⁾.

4 - الأساس المعرفي: ونقصد به الخبرة الإنسانية والمعرفة العلمية التي أنتجها العقل البشري عبر تاريخه الطويل، كالعلوم الاجتماعية والعقلية والنفسية والكونية والتاريخ وغيرها من أصناف العلوم التي يمكن أن تكون أساسا لفهم المراد الإلهي في نصوص الوحي .

وقد أشار الإبراهيمي إلى هذا الأساس الذي اعتمده ابن باديس في تفسيره للقرآن في قوله : « ... وإحاطة و باع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه ، وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع ومستجدات العمران ... »⁽³⁾.

(1) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج4 ، ص 205 .

(2) المصدر نفسه ، ج4 ، ص 205 .

(3) المصدر نفسه ، ج1 ، ص 233 .

وخلاصة القول أن منهج الإبراهيمي في جدلية النص والعقل يكون بإعمال العقل في النص عن طريق إدارة هذه العمليات الأربع اللغوية والتكاملية والمقاصدية والمعرفية ، لأن العقل عنده يعد: « ميزانا للترجيح يدخل في حسابه المصلحة والضرورة والزمان والمكان والحال، ويميز بين الخير والشر، وبين خير الخيرين، وشر الشرين »⁽¹⁾.

ونختتم هذا الفصل بالتأكيد مرة أخرى على أن تحديد وضبط الإطار المرجعي في مصدره وطبيعته وخصائصه وعلاقته وموقعه من الأمة أساس هام من أسس التغيير، وإن تجاهله أو التهوين منه سيؤدي إلى اختلال في مشروع التغيير، وتعرثر في مساره لانقطاع الصلة بينه وبين الأمة. لذلك كان الإسلام بمصدره الكتاب والسنة هو الإطار المرجعي الذي أكد عليه الفكر الإسلامي الحديث كشرط أساسي للنهوض بالأمة الإسلامية، واستعادة دورها الرسالي، وإن هذا الإطار المرجعي لا يتم تحقيقه وتطبيقه إلا بإدراك عميق ووعي شامل لطبيعة الواقع الإنساني ببعديه الفطري والمعيش .

(1) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج 4 ، ص 149

الفصل الثاني

الواقع الإنساني وأهميته في التغيير

الواقع الإنساني مفهومه وأهميته

يتكون الواقع الإنساني من بعدين أساسيين هما: البعد الفطري والبعد المعيش. أما الواقع الإنساني في بعده الفطري فنعني به الطبيعة التي خلق الله عليها الإنسان متمثلة في تكوينه الجسمي والنفسي والعقلي، وما يترتب على ذلك التكوين من خصائص وصفات ترسم حدود القدرة البشرية وتحدد إمكاناتها .

وهذا الواقع الفطري هو في حقيقته واقع ثابت لا يتغير بتغير الأزمان واختلاف البيئات لأنه صنعة إلهية: « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله »⁽¹⁾، كما هو الحال في حاجة الإنسان إلى الغذاء والكساء والمأوى، وغريزة حب البقاء التي تدفعه إلى التناسل، والنزعة الجماعية التي تحمله على العيش مع غيره من البشر، وتميزه بطبيعة ذات جانبيين مادية وروحية إلى غير ذلك؛ فهذه الثوابت الإلهية لا تتغير في الإنسان، ولا يستطيع أن يخرج من حدودها، وهي محكومة بمجموعة من السنن التي تطرد على وتيرة واحدة منذ أن خلق الله الإنسان .

أما الواقع الإنساني في بعده المعيش فنقصد به الأساليب التي تجري عليها حياة مجتمع ما في سبيل تحقيق أغراضه، عن طريق مجموعة من التقاليد والأعراف والأفكار والسلوكات والنظم السياسية والاقتصادية التي تتفاعل فيما بينها، لتكوّن العلاقات التي تربط أفراد المجتمع وتحكمهم وتوجههم نحو سلوك معين . وهذا الواقع الإنساني على عكس الأول متغير باستمرار، يتطور حسب العصور والأزمان، ويتبدل بتبدل البيئات والبلدان، لأنه يخضع للفعل الإنساني الذي تحكمه سنة التطور ، وتتحكم فيه عوامل البيئة والطبيعة، وتتدخل فيه معطيات كثيرة .

(1) الريم ، 30 .

ويتميز الواقع الإنساني في بعده الفطري والمعيش بالتعقيد الشديد، والتكوين المركب بسبب تفاعل العناصر المكونة له ، وتداخل الظواهر المتحركة فيه ، والتي منها الظاهر والخفي ، والروحي والمادي ، والآني والتاريخي ، والثابت والمتغير ، والفردية والجماعية .

فالنفس الإنسانية في تكوينها الفسيولوجي والسيكولوجي عالم قائم بذاته، حيث أثبت علماء النفس أن كل آدمي مخلوق فريد من نوعه، ليس له شبيه فيما مضى ولن يكون له شبيه فيما هو آت، وعلى هذا، فإنه متفرد على جميع المستويات النفسية والعقلية والجسمية⁽¹⁾ . بالإضافة إلى ما يطبعه به المجتمع من خلال التربية والتفاعل مع باقي أفراد من طباع ومواقف تختلف باختلاف الظروف والأوضاع الخاصة بكل فرد .

والأمر نفسه ينطبق على الواقع المعيش الذي يعد ميدانا فسيحا لتفاعل الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيه وتحكم الأفكار والسلوكيات المختلفة في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تحكم الأفراد، والتركيب المعقدة لهذه المنظومة الفكرية والسلوكية تستمد حياتها من عدة مكونات: عقدية وتاريخية وسياسية وبيئية وعصرية .

وهذا الواقع الإنساني ببعديه الفطري والمعيش هو الميدان الحقيقي الذي تجري فيه العملية التغييرية ، وهو الموضوع المستهدف بالتغيير . لذلك كانت معرفته عن كثب بإدراك ما يقوم عليه من نظم، وما يسوده من مذاهب، وما يحركه من عوامل، وما يضطرع فيه من قوى، وما يعاني من أزمات، خطوة أساسية يجب أن تسبق كل محاولة لتغييره أو التأثير فيه .

(1) برغوث ، الطيب ، الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، ط 1 ، 1985 ، ص 25 .

ذلك أن المعرفة الصحيحة بالظروف النفسية والاجتماعية المحيطة بالفرد ،
ودراسة المجتمعات وفهم واقعها وتاريخها وثقافتها ومعادلاتها الاجتماعية، هو الذي
يرسم كفاءات وآليات التعامل معها، ومواصفات خطابها ⁽¹⁾، لإحداث التغيير المنشود
في بنيتها .

وقد عرف التوجه نحو الدراسة النفسية والاجتماعية والتاريخية للشعوب
والمجتمعات خطوات جبارة في العصر الحديث ، نشأت عنه علوم كثيرة تدور في
هذا المدار، ومنها علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصاد والعلوم السياسية
 والاتصالية وغيرها، والتي استفلها الغرب إلى أقصى حد، وأخضع لها منجزات
العلوم التكنولوجية، وأصبح يتعامل مع النفوس والظواهر الاجتماعية بمقتضى
نظريات وقوانين علمية دقيقة تصيب أهدافها بسهولة .

وفي هذا الإطار، تمت السيطرة شبه الكلية للغرب على المجتمعات المتخلفة ،
وأصبح استغلالها على كل المستويات يخضع لدراسات علمية قائمة على الدقة
والمنهجية، وقد تحدث مالك بن نبي - عند دراسته لظاهرة الاستعمار - عن ذلك
فقال: «إن الاستعمار لا يتصرف في طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا
النفسية دراسة عميقة، وأدرك منها موطن الضعف، فسخرنا لما يريد، كصواريخ
موجهة، يصيب بها من يشاء» ⁽²⁾.

فبينما تنبه الغرب إلى الأهمية القصوى التي تكتسبها دراسة الواقع، ووظفها
لخدمة مصالحه المادية وتوجهاته الأيديولوجية، غفل العالم الإسلامي عن هذا
الأساس المهم من أسس التغيير وجهل أهميته، وبخاصة في القرون المتأخرة التي

(1) المطيري ، منصور زويد ، الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ، تقديم : عمر عبيد حسنة ، وزارة الأوقاف والشؤون
الإسلامية ، الدوحة ، قطر ، ط 1 ، 1992 ، ص 12 .

(2) بن نبي ، مالك ، شروط النهضة ، ترجمة عبد المصير شامين ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، د ت ، ص 155 .

عرفت فيها الأمة الإسلامية جمودا وركودا في مختلف مجالات الحياة ، نتجت عنها حالة من الغيبوبة والهروب من الواقع إلى الأحلام واجترار ذكريات الماضي السعيد . وعلى الرغم مما شهده العالم الإسلامي خلال العهود الأخيرة من حركات تغييرية، حاولت إنقاذ المجتمع الإسلامي من مظاهر التخلف الحضاري، بقيادة علماء مسلمين على مستوى عال من العلم والإخلاص والجهاد، إلا أنها أخفقت في تحقيق أهدافها الإستراتيجية، وهي العودة بالمسلمين إلى إطارهم المرجعي عقيدة وفكرا وسلوكا وعملا .

ويرجع بعض الباحثين أهم أسباب هذا الإخفاق إلى القصور المنهجي⁽¹⁾ في تمثيل الواقع الإسلامي، وغياب تصور عميق لطبيعته وملاصقاته وعمله وأسبابه ، فخضع الفعل التغييرى - تبعا لذلك - للنتيجة الحتمية التي يفرضها الجهل بالواقع وهي الفشل، لأن هذه الحركات: « لم تدرس أرضها قبل الشروع في العمل »⁽²⁾ . لذلك كان لزاما على كل من يمارس عملية التغيير في المجتمعات البشرية أن يأخذ بعين الاعتبار هذه القاعدة الهامة، فيعكف على دراسة الواقع الإنساني ببعديه الفطري والمعيش، حتى يتمكن من وضع المسيرة التغييرية في خطها الصحيح ، وتحديد آليات وإجراءات الإنجاز .

وكان الأولى بالحركات التغييرية في العالم الإسلامي أن تولي هذه القضية اهتماما كبيرا، وبخاصة إذا أدركنا الأهمية القصوى التي أولاها الإطار المرجعي الإسلامي بمصدره الكتاب والسنة إلى ضرورة اكتشاف الواقع، واستيعابه، والإحاطة بجميع جوانبه من أجل تنزيل الإسلام في حياة الناس، باعتباره ديننا إلهيا

(1) النجار ، د . عبد المجيد ، في فقه التدين فهما وتنزيلا ، ج 1 ، ص 121

(2) بن نبي ، مالك ، في مهب المعركة ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1981 ، ص 114

يحمل في ذاته قابلية الوقوع .

وتتضح هذه الصورة أكثر عندما نتتبع طريقة القرآن في النزول منجما لتغيير الواقع الجاهلي، ومعالجة قضايا المستجدة، فترفع ما فيه من فساد تدريجيا لتحل محله الأحكام الإلهية تدريجيا أيضا، مراعية في ذلك طبيعة النفس البشرية والتركيبية الاجتماعية التي جرت على التمسك بالموروث، وتجد صعوبة بالغة في التحول من سلوك ألفته إلى سلوك مناقض في وقت قياسي. فالتنجيم في النزول والتدرج في بناء الأحكام إحياء شديد وتنبيه قوي إلى ضرورة فهم الواقع ودراسته قبل الشروع في تغييره .

هذا إلى جانب حشد كبير من الآيات القرآنية التي تحث المسلم على السير في الأرض لاستكشاف تاريخ الأمم والوقوف على مآلاتها، والبحث عن السنن التي تتحكم في سقوط المجتمعات ونهوضها، وما تزخر به قصص الأنبياء من معادلات اجتماعية تكشف عن العوامل النفسية والمادية التي تتحكم في سير المجتمعات، وتتدخل في تحديد مصيرها ⁽¹⁾.

كما كانت السنة النبوية القولية والفعلية، والتي رسمت منهج النبي صلى الله عليه وسلم في التغيير، دليلا حيا على اهتمامه العميق بالواقع الإنساني في بعده الفطري والمعيش .

فقد روت كتب السيرة أنه كان عليه الصلاة والسلام يعرف بدقة متناهية قريشا وأنسابها وعلاقاتها، وكان محيطا بمواقع القبائل العربية وأنسابها ولهجاتها ، ملما بأخلاقها وعاداتها وتاريخها، مطلعاً على مدى قوتها وضعفها، وعلى شخصيات ساداتها وفرسانها .

(1) المطيري ، منصور زويد ، الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ، ص 11

وقد وظف هذه المعارف الواسعة في فهم واقع الجاهلية والنفوذ إلى نفسيات أهلها وأوضاعهم الاجتماعية، لإدراك الأسباب الخفية التي تربطهم بالباطل حتى يعالجها في ضوء ذلك الفهم الشمولي العميق، الذي اكتسبه من معرفته الدقيقة بواقعهم .

فقه الواقع وأهميته عند الإبراهيمي

ومما سبق، يتضح لنا أن فقه الواقع الإنساني في بعده الفطري والمعيش يشكل أساساً هاماً في عملية التغيير، فهل كان الإبراهيمي يدرك هذا الأمر ؟ وهل كان على وعي بخطورته وأبعاده ، وتأثيره المباشر على الفعل التغييرى ؟

إن الدارس لجهود الإبراهيمي التجديدية في جانبيها النظري والعملي لا يجد صعوبة في إدراك وعيه بأهمية فقه الواقع في التغيير، ذلك أنه أشار في مواضع عديدة من كتاباته إلى هذه القضية، وأكد على ضرورة النزول إلى أرض الواقع لاستجلائه واكتشاف خباياه، وتحليل العناصر المكونة له لإحداث التغيير المنشود .

فالواقع الإنساني عنده مثل الكتاب الذي يجب أن يقرأ قراءة واعية عميقة حتى تفهم معانيه، ومثل الحقائق العلمية التي يجب البحث عن أسبابها وعللها التي تتحكم فيها، وهذا الوعي بطبيعة الواقع هو سبيل النجاح، كما أن إغفاله هو الذي يقود إلى الفشل: « من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب ، وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية، فإن استقام له ذلك، استقام له العمل، وأمن الخطأ فيه، وضمن النجاح والتمام له: فإن تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهها ولا معرفة بدرجة استعدادها كان حظه الفشل »⁽¹⁾.

وفي هذا النص إشارة واضحة إلى أهمية فقه الواقع الإنساني في عملية

(1) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 224 .

التغيير، ومدى تحكمه في النتيجة التي تتمخض عنها سلبا أو إيجابا. فأي تحرك تجديدي أو تغييرى لايراعى هذا الواقع من خلال دراسته وإدراك الظروف المؤثرة فيه والإمكانات المتوفرة لتحقيقه يكون مآله الفشل.

وكان الواقع الجزائري هو الميدان الفسيح الذي تحرك فيه الإبراهيمي، ومجاله الحيوي الذي مارس فيه عملية التغيير طوال أكثر من ثلاثة عقود متواصلة، صال خلالها وجال في مختلف مناطق الجزائر، واحتك بجميع فئات وشرائح المجتمع من مثقفين وأمينين وسياسيين وتجار وغيرهم .

وقد أسهمت عوامل الزمان والمكان والخبرة الثقافية والتاريخية والاحتكاك المتواصل بشرائح الأمة الجزائرية في فهم الإبراهيمي للواقع الجزائري فهما عميقا ودقيقا، مما ساعده على تشخيص أمراضه وعلاجه تشخيصا صحيحا، وإدراك أسرارته وملابساته وقضاياه، ورصد ظواهره، ولعلنا لانجد نصا أوضح في تأكيد ما أسلفنا قوله من هذا النص الذي بين أيدينا والذي يقول فيه: « فأزعم أنني جربت ودرست، وأنني قرأت هذه الأمة كما أقرأ الكتاب وأفهمه، وما هذا ببعيد ولا كثير على من خدم أمة ولا بسها عشرات السنين معلما ومدرسا واعظا خطيبا، محاضرا ينتزع مواضيع محاضراته من وجوه الجمهور قبل أعمالهم ، وقد خرجت من هذه الدراسة الطويلة بنتائج جلية يجب أن تدون وأن تكون دستورا للعاملين ...»⁽¹⁾.

وكان إخوانه الذين خاضوا معه تجربة التجديد الإسلامى يكبرون فيه هذه الميزة، ويقدرّون من خلالها عبقرية الفذة في التغلغل في أعماق المجتمع الجزائري وسبر أغواره، ويشهد له بذلك أحمد توفيق المدني أحد رموز الإصلاح في الجزائر فيقول: « جمع إلى كل ذلك دراية كاملة بجميع مافي الوطن الجزائري، يحدثك

(1) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 224 .

حديث العليم الخبير عن أصول سكانه، وقبائله، وأنسابه، ولهجاته، وعادات كل ناحية¹ منه، وأخلاقها وتقاليدها وأساطيرها الشعبية وأمثالها، وإمكاناتها الاقتصادية، وثروتها الطبيعية، إلى غير ذلك مما هو من أسرار الخبراء أصحاب الاختصاص⁽¹⁾.

وليس ذلك غريبا على الإبراهيمي الذي بدأ اهتمامه بالواقع الجزائري منذ وقت مبكر من حياته، يعود إلى عام 1913، حينما هيأت له الأقدار فرصة الالتقاء بعبد الحميد بن باديس في البقاع المقدسة، فعكفا لمدة ثلاثة أشهر كاملة يسمران فيها كل ليلة من بعد صلاة العشاء حتى انبلاج الصبح على دراسة واقع الأمة الجزائرية، يقلبان فيه الوجوه ويحلان الوقائع والأحداث، حتى توصلا إلى أن أصل البلاء في الجزائر يعود إلى ظاهرتين متشابكتين متلاحمتين متعاونتين على القضاء على مقومات الشعب الجزائري وهما :

- 1 - بلاء خارجي هو الاستعمار بنوعيه الثقافي والعسكري.
 - 2 - وبلاء داخلي هو الطرق الصوفية العميلة للاستعمار والتي تلعب دور الاستعمار الروحي في تخدير الشعب وتكريس جهله وغفلته⁽²⁾.
- وإذا كان الإبراهيمي - كما أشرنا - قد استطاع أن يتغلغل في أعماق المجتمع الجزائري، وأن يدرك أبعاده، فإن السؤال الهام الذي يواجهنا هنا هو : ماهي الآليات التي وظفها الإبراهيمي لفهم هذا الواقع وفتح مغالقه ؟ وهو ما سنحاول الإجابة عنه في الصفحات التالية .

(1) المنلي، أحمد توفيق، الإبراهيمي كان أمة، كان جيلا، كان عصرا.....، الثقافة، ع 87، ص 44

(2) الإبراهيمي، محمد البشير، أنا، الثقافة، ع 87، ص 23، 24.

آليات فهم الواقع الجزائري

أ - العلوم الاجتماعية ودورها في فهم الواقع :

تشكل العلوم الاجتماعية الحديثة آلية من الآليات الضرورية لفهم الواقع الإنساني، بما توفره من الأدوات العلمية التي تمكن من إدراك أبعاد الإنسان واكتشاف مفاتيح شخصيته، وأساليب تفكيره، وما تتيحه من مناهج دقيقة للكشف عن التركيبة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمعات .

فقد بلغت هذه العلوم في العصر الحديث شأنًا بعيدًا من التطور، وأصبحت قادرة على إمداد الباحث بأدوات الرصد والتحليل التي تنتقل به من الملاحظة الظاهرة إلى الفهم العلمي للعوامل الخفية، والتفاعلات المركبة للواقع الإنساني⁽¹⁾ بمعادلته الفردية والجماعية .

وعلى الرغم مما كان يميز ثقافة الإبراهيمي في هذا المجال من المحدودية بسبب جهله للغات الأجنبية التي تمكنه من الانفتاح على النظريات الاجتماعية والنفسية، والاطلاع عليها من مصادرها ومطائنها، وعلى الرغم من أن تفكيره الاجتماعي كان منبثقًا من الثقافة العربية القديمة والحديثة فقط، إلا أنه كان يدرك بعمق الخطورة التي تكتسبها هذه العلوم الإنسانية في تحصيل الفقه الاجتماعي، الذي يمكن العمل التغييري من الوقوف على أرض صلبة من الدراسة العلمية الدقيقة، التي تضمن النتائج وتبتعد به عن التعميم والعفوية والارتجال: « أقرب الأعمال إلى التمام والنفع والإثمار ما بني منها على التجربة الاستقرائية المحصنة ، ومن بنى عمله على غير هذه القاعدة فهو مخادع أو مخدوع »⁽²⁾.

(1) النجار ، د . عبد المجيد ، في فقه الدين لها وتنزيلا ، ج 1 ، ص 126 .

(2) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 224 .

لذلك نوه بهذا الفقه الاجتماعي عند محمد عبده الذي عده: «حجة من حجج الله في فهم أسرار الشريعة ودقائقها وتطبيقها وفي البصر بسنن الله في الأنفس والآفاق، وفي العلم بطبائع الاجتماع البشري وعوارضه ونقاصه»^(١).

والملاحظة الهامة التي تجدر بنا الإشارة إليها هي اعتماد جمعية العلماء لمقدمة ابن خلدون ضمن الكتب المقررة على الطلبة في برامجها التعليمية. وهي - كما نعلم - من أنفس الكتب التراثية التي تحدثت بلغة علمية عن قوانين الاجتماع وال عمران البشري، ولفتت الأنظار إلى السنن التي تحكم حركة المجتمعات وبناء الحضارات وسقوطها.

وفي اختيار المقدمة للدراسة والتحصيل، إدراك واع لخطورة هذا العلم وأثره العميق في فهم المجتمعات واكتشاف السنن التي تحكمها، وتوجيه رشيد لطلبة العلم حتى يقبلوا على هذا العلم ويستفيدوا منه في التعامل مع واقعهم.

ب - حركة الانخراط في المجتمع

ومن الآليات الهامة في دراسة الواقع ورصد ظواهره، حركة الإنخراط الفعلي في المجتمع ومعايشة الناس والتعامل معهم، لأن الاحتكاك المباشر هو الذي يمكن العلماء من الوقوف على مشاكل هذا الواقع عن كثب، عن طريق المساهمة الفعلية فيه.

لذلك بدأ الإبراهيمي احتكاكه بالأمة الجزائرية مباشرة بعد عودته من دمشق في بداية العشرينات من هذا القرن، عن طريق ممارسة النشاط العلمي والديني في المساجد والمدارس، والاتصال بالتجمعات البشرية في الأسواق والولائم، وأثناء المناسبات لبث الوعي الديني والسياسي، وكان في كل ذلك ينتقل بين القرى والمدن

(١) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج ١، ص ١١١.

بشكل دائم .

وعندما تأسست جمعية العلماء فتحت له أبوابا واسعة في هذا المجال، حيث اقتضى نشاطها تنقله المستمر في مناطق كثيرة من الجزائر، وقد ظفرت منطقة الغرب الجزائري بحظ وافر من اهتمامه، لأنه مكث بها مدة قاربت عشرين سنوات، وكان فيها كثير الأسفار لا يقر له قرار، حيث اعترف أنه تمكن من زيارة كل مدن وقرى الإقليم الغربي، وهو يصور مظاهر هذا الانخراط الاجتماعي قائلا: « وأخرج من يومي للجولان في الإقليم الوهراني مدينة مدينة وقرية قرية، فألقي في كل مدينة درسا أو درسين في الوعظ والإرشاد، وأتفقد شعبها ومدارسها، وكانت أيام جولتي كلها أيام أعراس عند الشعب، يتلقونني على عدة أميال من المدينة أو القرية، وينتقل بعضهم معي إلى عدة مدن وقرى ...»⁽¹⁾.

وقد أكد أحمد توفيق المدني هذه الحقيقة عندما أشار إلى نشاط الإبراهيمي المكثف وخاصة بعدما تولى رئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقوله: « يقضي سحابة يومه في البناء والتعمير، ويقضي سواد ليله في التدبير والتفكير ، ولم نكد نعرف له خلال هذه الملحمة مقرا معلوما، إلا السيارة يمتطي متنها الأيام والليالي يخترق بها النجود والوهاد، فما من مدينة، وما من قرية، وما من مضرب من مضارب البدو، إلا غشيها، وبث فيها الروح، وغرس فيها بذور النهضة »⁽²⁾ .

ولاشك أن هذه المدة الزمنية التي تقلب فيها الإبراهيمي في مناطق عديدة ، وتعامل فيها معاملة مباشرة مع فئات مختلفة من الشعب الجزائري، قد آتت ثمارها في مجال معرفته بالواقع الجزائري، وأدرك بدقة ملاحظته ونفاذ بصيرته جزءا هاما

(1) الإبراهيمي ، محمد البشير ، « أنا » ، الثقافة ، ع 87 ، ص 26 .

(2) المدني أحمد توفيق ، « الإبراهيمي كان أمة ، كان جيلا ، كان عصرا » ، الثقافة ، ع 87 ، ص 44 .

من حقيقة هذا الواقع الذي كان يعيش ألامه وأماله .

وكان الإبراهيمي يصدر في كل ذلك عن مبدأ ثابت يتمثل في ضرورة التحام العلماء بالناس واختلاطهم بهم والتقرب منهم والتواضع لهم حتى يستأنسوا بهم ويفضوا إليهم ، فيتمكنوا من الأخذ بيدهم وإحداث التغيير المنشود في حياتهم .

لذلك، نعى على علماء المسلمين الذين عاشوا بعد مرحلة الازدهار الحضاري للامة الإسلامية العزلة التي فرضوها على أنفسهم، وحملهم مسؤولية تردي الواقع الإسلامي الذي أسلموه للحكام المستبدين، وانسحبوا منه ليحبسوا أنفسهم في بروجهم العاجية⁽¹⁾ .

ذلك أن الواقع هو ساحة العمل التي يباشر فيها العلماء نشاطهم، وهو الموضوع الذي ينطلقون منه لحل مشكلات الأمة. فإذا انعزلوا فاتهم الإدراك الواعي لهذه المشكلات، ففقدت اجتهاداتهم قدرتها على التأثير في حياة الناس. وعلى هذا الأساس قلل الإبراهيمي من قيمة هذه الجهود العلمية التي بذلها في تحبير الأحكام واستنباطها: «أما مؤلفاتهم - رحمهم الله ورضي عنهم - التي خلفوها لنا في الفقه، فقد كتبوها وهم في ديارهم وخلواتهم، ولم يبن الكثير منها على مراعاة الأحوال العامة، وقد يبنون الأحكام في المعاملات على ما تقتضيه أنظارهم الخاصة ويولدون من كلام من قبلهم اقتضاءات ووجوها من التأويل فإذا خرجوا إلى السوق وجنوا اليد المصرفة لأزمة الأمة غير يدهم والقانون الذي تساس به الأمة تابعا لأهواء الأمراء لا لما سطره وأتبعوا أنفسهم في تدوينه...»⁽²⁾ .

وظل هذا السلوك الانعزالي مسيطرا على الحياة العلمية في العالم الإسلامي

(1) الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 78 .

(2) المصدر نفسه، ج 1 ، ص 78 .

حتى وقت قريب ، وهو ما يشير إليه الإبراهيمي في معرض حديثه عن المجالات التي استطاعت حركة التجديد في الجزائر أن تخوضها وتغير فيها العقلية الفاسدة: « فقد كان الناس بهذا الوطن إلى ما يتصل بالنهضة لا يعرفون من العالم إلا رجلا منعزلا عن العالم، لاهم له إلا بما يتصل بمعيشته ، وأكبر أمره بينهم أن يفتيهم في المسائل الجزئية ... فهو يفتي في الطلاق ولا يبحث عن أسباب الطلاق الفاشية، ويفتي في الأيمان ولا ينهي الناس عن الحلف ... وبالجمله فهو رجل انقطعت الصلة بينه وبين أهل زمنه ...»⁽¹⁾.

ج - حركة النشاط المؤسساتي

ومن آليات فهم الواقع الجزائري عند الإبراهيمي كذلك ، الاستفادة من حركة النشاط المؤسساتي الذي كانت تشرف عليه جمعية العلماء، والذي كان يغطي معظم أنحاء التراب الوطني. وهي وسيلة هامة لجمع المعلومات المختلفة، وعلى جميع المستويات حول الواقع الجزائري ومشكلاته، باعتبار أن جمعية العلماء آنذاك تمثل السلطة الروحية للأمة الجزائرية، فكانت تحمل هموم هذه الأمة، وتحاول أن تضع الحلول لمشكلاتها الدينية والثقافية والاجتماعية .

لقد كانت الجمعية تمارس نشاطها في إطار جماعي منظم، وبصفة متواصلة دام أكثر من عقدين من الزمن وقد دأبت على عقد اللقاءات والاجتماعات الشهرية والفصلية، وتنظيم الملتقيات والمؤتمرات السنوية، لدراسة أحوال الأمة الجزائرية، يتم خلالها تقديم مجموعة من التقارير العلمية من طرف قيادات الجمعية حول المشاكل والقضايا المطروحة، ثم تناقش وتحلل وتفسر وتصنف، وتنتهي بتوصيات عملية ، ولا يخفى ما في ذلك كله من اكتشافات جديدة لأعماق المجتمع الجزائري ما كانت

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 77 .

لتتاح لولا هذا العمل المؤسساتي.

ويكفي أن نشير هنا إلى جانب واحد من هذه الأنشطة المؤسسية وهو عقد المؤتمرات السنوية، وسنعرض للمؤتمر الخامس الذي انعقد ببنادي الترقى بالعاصمة عام 1935 ودام أربعة أيام، من خلال وثيقة تاريخية هامة، صورت أشغال هذا المؤتمر بالتفصيل وهي كتاب سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي طبع في العام نفسه.⁽¹⁾

وقد أُلقيت خلال هذا المؤتمر مجموعة من الخطب والمحاضرات، والتقارير الدينية والثقافية والمالية، ونوقشت فيه قضايا التربية والتعليم المسجدي والمكتبي والنظامي، والوعظ والإرشاد، والنشاط المالي للجمعية، وموضوعات عامة ومختلفة حول أوضاع المجتمع الجزائري، مثل مشكلات الشباب والأسرة والمرأة، والآفات الاجتماعية، والإسراف المالي ومظاهره في الأعراس والولائم، والمهور، وغيرها من الأمراض والعلل التي يشكو منها جسم المجتمع الجزائري⁽²⁾.

وهكذا، أتيح للإبراهيمي أن يوظف آلية النشاط المؤسسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في رصد ظواهر المجتمع الجزائري، واكتشاف الجوانب الإيجابية والسلبية التي تحكمه، وبخاصة إذا علمنا أنه كان يمتلك حافظة نادرة تعد بمثابة الأرشيف الذي يخزن المعلومات ويحفظها من الضياع، وهو ما حدا ببعض رفاقه إلى تشبيه هذه الذاكرة القوية بالعقل الإلكتروني⁽³⁾.

(1) ومن أشهر المؤتمرات أيضا، المؤتمر الذي انعقد عام 1937 ببنادي الترقى بالعاصمة تحت عنوان « مؤتمر المعلمين الأحرار » لمناقشة قضايا التعليم العربي الحر ومشكلاته المختلفة .

(2) جمعية العلماء ، سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، المطبعة الإسلامية ، قسنطينة ، الجزائر ، ط 1 ، 1935 .

(3) المدني ، أحمد توفيق ، « الإبراهيمي كان أمة ، كان جيلا ، كان عصرا » ، الثقافة ، ع 87 ، ص 43 .

الإبراهيمي ومكونات الواقع الجزائري الحديث

لقد استطاع الإبراهيمي بما توفر له من أليات - سبق ذكرها - أن يكون صورة شاملة وواضحة عن الواقع الجزائري، وأن يلم بالعناصر الأساسية التي تكون المجتمع ، وتلعب دورا حيويا في صياغة تركيبته العامة ، وتسهم إلى حد كبير في توجيه أفكار أفراده وسلوكاتهم .

ويمكننا تحديد عدة مكونات أساسية تشكل الإطار العام للواقع الجزائري عند الإبراهيمي منها: العامل الديني، والتاريخي، والسياسي، والثقافي، والاجتماعي، والاقتصادي، وسنشير إليها في نوع من الإيجاز فيما يلي :

١ - العامل الديني: إن الأمة الجزائرية أمة مسلمة، يحتل الإسلام مساحة معتبرة من وجدانها، ومنه تستمد تصورها العقدي والروحي، وانطلاقا من هذا التصور يمارس الفرد الجزائري نشاطاته المختلفة على المستوى الأسري والاجتماعي والأخلاقي .

وعلى الرغم مما شاب الحقيقة الإسلامية في أذهان الجزائريين من انحرافات في التصور، وتراخ في الفعلية، إلا أنها ظلت على مر السنين حاضرة في ضمير الجزائري. لذلك فإن إغفال هذا العامل في التعامل مع الواقع الجزائري يؤدي إلى انحراف خطير في الرؤية والتحليل والتفسير .

وعلى هذا الأساس، تحدث الإبراهيمي بإسهاب عن أهمية العامل الديني في الواقع الجزائري، وفصل في وصفه، وبيان ما اعتراه من فساد، وما دخل على التعاليم الإسلامية من تشويهات وزيادات وبدع وأضاليل حجب وجهها المشرق ، وحل محلها مزيج غريب من الاعتقادات والسلوكات، مما جعل الدين العويبة في أيدي رجال الطرق يستغلون بها جهل العامة وأموالها، يقول الإبراهيمي: «دين قد عيث به العابثون واتخذوه مكسبة وأزهقوا روحه وجردوه من أسباب القوة والتأثير ،

وعطلوه من خصائصه ومزاياه، وكانوا عوناً لأعدائه على هدمه»⁽¹⁾.

وفي هذا الإطار، كانت حملته العنيفة على الطرق الصوفية المنحرفة، التي اتخذت من الإسلام مصيدة توقع في شراكها ضعاف النفوس والجهلة من العامة، بابتزاز أموالهم، وتحكيم الأوهام والبدع والخرافات في أذهانهم: «ونعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شر، وأننا حين نقضي عليها إن شاء الله نقضي على كل باطل ومنكر وضلال، ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة...»⁽²⁾.

كما دخل في مواجهة شديدة مع الاستعمار الفرنسي الذي استولى على المساجد والأوقاف والقضاء، واحتكر الوظائف الدينية وتصرف في الشعائر الإسلامية منذ غزوه للجزائر، وطالب بتحريرها من قبضته وإعادتها إلى المسلمين⁽³⁾. وقد كان الإبراهيمي يؤمن أيضاً بقدرة الإسلام العالية على استنهاض النفوس والهمم، وبعثها ودفعها نحو الإقلاع الحضاري الذي يجدد الحاضر، ويمهد لمستقبل أكثر إشراقاً، لذلك استنفذ جهداً كبيراً حتى يجلو الوجه الحقيقي للإسلام، ويمحو من الأذهان التصورات الفاسدة التي تحول دون إدراك صورته النقية.

ومن مظاهر هذا العامل الديني وأثاره في الواقع الجزائري، اعتزاز الأمة الجزائرية بالعقيدة الإسلامية، وافتخارها بالانتساب إليها، وهي النقطة الحساسة التي نبه الإبراهيمي إليها العلماء حتى يوظفوها في إحداث التغيير: «إن محل رجاء المصلحين في هذه الأمة هو هذا الخلق العريق الذي ملك على المسلم إحساسه وهو الاعتزاز باسم الإسلام والافتخار بالنسبة إليه، والأنفة من الخروج

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 164.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 126.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، سلسلة مقالات، فصل الدين عن الدولة.

من هذه النسبة ...»⁽¹⁾.

2 - العامل التاريخي: إن حاضر أي أمة امتداد طبيعي لماضيها ومقدمة لمستقبلها. ولا يمكن فهم الحاضر وبناء المستقبل دون استيعاب الماضي، كما لا يمكن لأي أمة أن تستأنف نورها الحضاري من معلم تختاره في حاضرها دون أن يكون للماضي نصيب وافر فيه .

فالتاريخ عبارة عن خلاصة لتجارب الأجيال تتوارثها الأمم والشعوب، وتستصحبها الذاكرة الجماعية لتتحول مع مرور الزمن إلى عناصر مؤثرة في واقعها، توجه الأحداث والمواقف بصفة شعورية أو لا شعورية .

وقد حفظت الذاكرة الجزائرية في أعماقها صورة مشرقة عن تاريخها الحافل بالأمجاد، وعن حضارتها العريقة التي قادت العالم حيناً من الزمن فأسعدته ، وظلت وفيه لهذا التاريخ تلوذ به كلما اجتمعت عليها المصائب والمحن: « حافظ هذا الشعب على هذا التراث قروناً تزيد على العشرة، وغالبته حوادث الدهر عليه فلم تغلبه »⁽²⁾.

لقد ظل التاريخ الإسلامي يؤدي تأثيره الإيجابي في الأمة الجزائرية على الرغم من كل المحاولات التي بذلها الاستعمار الفرنسي لقطع الأمة عن ماضيها ، وطمس معالمه في ذاكرتها بكل ما أتيح له من الوسائل والأساليب .

3 - العامل السياسي: ويتمثل في الاستعمار الفرنسي الذي دخل الجزائر غازياً ليستولي على الأرض والثروات ، فشن حرباً شرسة على أبناء البلاد شملت جميع الجبهات: العسكرية والسياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وترك هذا

(1) الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 38 .

(2) الإبراهيمي ، هيون البصائر ، ص 21 .

الغزو الوحشي جروحا أليمة في أعماق الشعب الجزائري ، وندوبا عميقة في المجتمع وأثارا مدمرة في الحياة العامة .

لذلك عكف الإبراهيمي على الظاهرة الاستعمارية يحللها ويكشف حقيقتها وأساليبها في التعامل مع المجتمع الجزائري، فتبين له أن الاستعمار: « سل يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإقشاء الأمية، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير »⁽¹⁾.

وقد جاء إلى الجزائر وفي ركابه الراهب والمعلم والطبيب ليوهم العالم أنه يؤدي رسالة حضارية إنسانية في الجزائر، غير أن الإبراهيمي كشف عن الوجه الحقيقي لهذه الأدوات الاستعمارية الهدامة، وفضح نواياها الخبيثة في قوله: « إن الاستعمار القائم على الجندي والمعلم والطبيب والراهب هيكل حيواني يمشي على أربع ... وإن الاستعمار قد قضى بواسطة هؤلاء الأربعة على عشرة ملايين من البشر فرمى مواهبهم بالتعطيل، وعقولهم بالخمود، وأذهانهم بالركود، وأفكارهم بالعقم... »⁽²⁾.

كما حلل القوانين الاستعمارية الجائرة التي أدارها على مسخ مقومات الشخصية الجزائرية، وعلى احتقار الفرد الجزائري وإذلاله، وقتل إحساسه: « إن الاحتقار هو الأساس الخلقي الذي وضع عليه الاستعمار قواعده وبنى عليه قوانينه ... إبدأ بما شئت واختتم بما شئت من النظم والقوانين التي تساس بها

(1) الإبراهيمي عيون الصائغ ، ص 22

(2) المصدر نفسه ص 85 .

الجزائر، تجدها كلها دائرة في مبادئها وغاياتها على محور واحد، وهو احتقار المسلم الجزائري وبغضه...»⁽¹⁾.

هذه المعرفة الدقيقة بالاستعمار مكنته من تحديد أثاره في الواقع الجزائري، وسهلت له تفسير كثير من الظواهر التي تميز بها هذا الواقع والتي كانت من صنع الاستعمار كما نعرف.

4 - العامل الثقافي: تحدث الإبراهيمي عن العامل الثقافي في المجتمع الجزائري باعتباره نتيجة حتمية لظاهرتين اختلفتا عليه هما: قرون الانحطاط والغزو الثقافي الاستعماري.

فقد ورث الأجيال ثقافة الركود والجمود التي ظلت تنتقل عبر عصور الانحطاط من جيل إلى جيل، يجترها الطلبة ويحفظون متونها وحواشيها بلغة هزيلة هي: «مجموعة من الرطانات لا تجلي قصدا ولا تبين مرادا ولا تترجم عن مكنون، وقد استولت على الألسنة والأقلام فأصبحت تسمى لغة»⁽²⁾، نون أن يستفيدوا منها في تغيير أسلوب حياتهم أو مواجهة التحديات التي تهدد كيانهم. وقد وصف الإبراهيمي هذه الثقافة بأنها: «قضايا ملفوظة ومسائل محفوظة، مقطوعة العلائق مع أدلتها، مجفوة الأرحام من أصولها تسليخ عليها الأعمار، وتقطع عليها الأنفاس، ولم يعمل فيها فكر ولم يرضها تمحيص، ولكنها مع ذلك تسمى علما...»⁽³⁾.

أما الاستعمار الفرنسي، فقد هاجم معاقل الثقافة والتعليم منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر، فأحرق المكتبات والمدارس، وشرد العلماء وحرم التعليم،

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 402، 403.

(2) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 164.

(3) المصدر نفسه، ص 165.

ففشست الأمية بشكل فظيع، وظلت الفئة القليلة التي نالت حظا من التعليم التقليدي عاكفة على القديم تحفظه وتحفظه لغيرها، بينما عامة الشعب تعيش في ظلمات الجهل .

وفي إطار هذا الغزو الثقافي، وجه الاستعمار سهامه إلى اللغة العربية باعتبارها مقوما أساسيا من مقومات الشخصية الجزائرية، فحاربها بكل شراسة، وحاصرها في جميع الميادين، وحرّم تعليمها وعدّها لغة أجنبية، ووضع في مقابل ذلك مشروعا موسعا لفرنسة الجزائر بتعميم اللغة الفرنسية على الإدارات والمحاكم ووسائل الإعلام: « **وإنما يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة ، وممسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة، ومع الكتابة العلم، وأدبا، ومع الأدب التاريخ، ومع كل ذلك - البقاء والخلود - وكل ذلك مما يقض مضجعه، ويصنخ سمعه، ويقصر مقامه »**⁽¹⁾ .

5 - العامل الاجتماعي: تعرض المجتمع الجزائري بفعل الغزو الإستعماري إلى هزة عنيفة زلزلت كيانه، وغيّرت مجرى حياته، وبعثت تماسكه، ومزقت نسيج العلاقات الاجتماعية التي كانت تحكمه، وفرضت عليه واقعا قاسيا بسبب اغتصاب المعمرين للأراضي الخصبة في الريف، وللعقارات الكبيرة في المدن ، ويتحدث الإبراهيمي عن حالة المجتمع الجزائري بعد تفكك بنيته الاجتماعية عقب الغزو فيقول: « **غثاء من الأناسي كغثاء السيل المتساوي الغيبة والمشهد في تقدير حياته ، لا يحكم ما يريد ولا يفقه ما يراى به، قد محت الأحداث من مخيلته معنى الماضي فهو يعيش بلا ماضي ومعنى المستقبل فهو لا يفكر في مستقبل إلا بأضغاث من الآمال لم تسندها أعمال ...**»⁽²⁾ .

(1) الإبراهيمي ، عين البصائر ، ص 479 .

(2) الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 165 .

وتبعاً لذلك وجدت قطاعات واسعة من الشعب نفسها في أحضان البؤس والفقر، وأصبحت مرتعاً للأمراض والأوبئة الفتاكة، وتحت ضغط الظروف المعيشية القاسية وتفشي الجهل والامية انتشرت الآفات الاجتماعية التي كرس هذا الواقع المتردي.

يقول الإبراهيمي في معرض رده على الوالي الفرنسي الذي منّ على الجزائريين بوجود الراهب والمعلم والطبيب بينهم: « ونظر الناس بعد مرور مائة وعشرين سنة على هذه (الرحمات) الثلاث المرسلة إلى الجزائر من سماء فرنسا، فإذا تسعة وتسعون في المائة من أبناء الأمة الجزائرية أميون ... وإذا الطب الاستعماري لم يقض على المرض وإنما قضى على الصحة، فأربعمئة ألف من مجموع الأمة مسلولون، والباقيون معلولون، وعشرات الآلاف من الأجنة تسقط لفقد العناية، ومثلها من الصبيان يموت لسوء التغذية ، ومثلها من الأحداث يذبل عوده لفقد وسائل التنمية ...»⁽¹⁾.

6 - العامل الاقتصادي : يتجلى الواقع الاقتصادي في الجزائر في صورة معادلة متناقضة تتكون من وطن غني بالثروات زاخر بالخير، وشعب معدم لا يكاد يجد لقمة العيش، يقابلها استعمار بغيض قد حوى بين يديه كنوز البلاد ، واستغل عرق الشعب في وحشية لا ترحم : « ورقة من الأرض زكية الأغلال طيبة الغلال، تناهبتها الأيدي العاتية وتقاسمتها الكتائب المغيرة حتى لم يبق لها منها إلا حظ الميت قبر يمسح بالشبر، ولكنها على رغم ذلك تسمى وطننا على أو شال من الرزق يبض⁽²⁾ بها الكد المرهق وينتضج بها العرق المتصبب ،

(1) الإبراهيمي ، عين البصائر ، ص 85 .

(2) بضم الماء يبيض بضاً وبضوضاً إذا رشح من صخرة أو أرض (ابن فارس ، أبو الحسن أحمد ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ، ج 1 ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1979 ، ص 183)

وينطف⁽¹⁾ معها دم المهج ، وتنتزع من أنياب الأفاعي انتزاعا»⁽²⁾ .

وأدى ذلك إلى انقسام سكان الجزائر إلى طبقتين متميزتين: طبقة المعمرين التي أثرت ثراء فاحشا، وطبقة الجزائريين التي تعيش محرومة من كل الحقوق: « وطن تسعة أعشار من فيه رقيق زراعي وخدم صناعي مفروض عليه الحرمان من كل حق ، وعشره العاشر سادة مفروض لهم التمتع بكل حق »⁽³⁾ .

ونخلص من كل ذلك إلى القول بأن استيعاب الإبراهيمي لهذه المكونات الأساسية التي تشكل الإطار العام للواقع الجزائري، ووصفه لها بدقة وشمول يدل دلالة أكيدة على وعيه بعقله وأمراضه، مما أتاح له تحديد أهداف وآليات التغيير .

ومجمل القول في هذا الفصل، أن فهم الواقع الإنساني ببعديه الفطري والمعيش شرط ضروري وأساسي في كل تجربة تغييرية تسعى إلى تحقيق أهدافها، وإن العدول عنه أو إغفاله سيقف عائقا أمام تنزيل المشروع التغييري على أرض الواقع، وأن القدرة على رسم الأهداف الإستراتيجية والمرحلية، وتحديد آليات الإنجاز ووضع الخطط والبرامج، مرهون إلى حد بعيد بالإدراك العميق لطبيعة الإطار المرجعي وخصائصه وعلاقاته، وفقه الواقع الإنساني، والانفتاح الحضاري على الكسب العالمي والخبرة الإنسانية وفق ضوابط الكتاب والسنة .

(1) نطف الماء ينطف : سال ونطفت القرية وتنطف إذا قطرت (الفيومي ، أحمد بن محمد علي المقرئ ، المصباح المنير، ج2 ص 611)

(2) الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 164 ، 165

(3) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 77 .

الفصل الثالث

الإنفتاح الحضاري وضرورته في التغيير

مر العالم العربي والإسلامي خلال القرون الماضية بمرحلة مظلمة، أطبق فيها الجهل، وتفشت العقلية الخرافية، وركدت الحركة العلمية، وتوقف العقل عن الإبداع، ولم تستيقظ الشعوب العربية والإسلامية من نومها الحضاري، إلا على زخوف الغرب التي وفدت إليها تحمل شارات النهضة الأوروبية، وتبشر بحضارة الرجل الأبيض، ومعها قوة الصناعة وقوة السلاح : « فإنسان أوروبا قام - دونما قصد - بدور (الديناميت) الذي نسف معسكر الصمت، والتأمل، والأحلام، وبذلك شعر إنسان ما بعد الموحدين بهزة انتفض بعدها مستيقظا، ليجد نفسه في إطار جديد لم تصنعه يداه ... »⁽¹⁾.

وقد أصيب العالم العربي والإسلامي بصدمة حضارية عنيفة على وقع أقدام الغربيين وهم يجوبون دياره، وفتح عينيه على واقع جديد لم يألّفه، وكان لابد له أن يحدد موقعه منه⁽²⁾.

وفي ضوء هذه الظروف الجديدة، أفرزت الساحة الإسلامية مواقف عديدة أملتها ضغوط الحضارة الغربية على واقع الحياة اليومي، فبرزت إشكالية الأصالة والمعاصرة، أو بمعنى آخر علاقة (الأنا الحضارية) ب (الآخر الحضاري) المتمثل في الحضارة الغربية التي اكتسحت العالم.

فوجدت طائفة أسأت الظن بهذه الحضارة فأنكرتها جملة وتفصيلا، وجعلت بينها وبين مؤثراتها حجابا كثيفا من التراث الذي احتمت به، وأضفت عليه هالة من التقديس، واعتقدت أنه الحق ولا حق بعده، ومنهم علماء الدين الجامدون الذين كان لهم في القرون المتأخرة دور هام في تعطيل العقل الإسلامي عن الإبداع بسبب

(1) ابن نبي، مالك، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1981، ص 42.

(2) المصدر نفسه ص 42.

التقليد والتعصب المذهبي، والاكتفاء بالوقوف عند ظواهر النصوص دون التعمق في معرفة مقاصدها، والذين رفضوا فتح باب الاجتهاد الذي أغلق بدعوى « ليس في الإمكان أبدع مما كان ».

وطائفة أخرى انبهرت بهذه الحضارة، وأعشت أنوارها أبصار دعائها ، فجروا خلفها مشدوهين، ودعوا إلى اقتباسها بخيرها وشرها وحلوها ومرها، وعافوا واقعهم وقديمهم، ورموه بالعقم والجمود، ودعوا إلى هدم صرحه ومحوه من الذاكرة، والانسلاخ منه للذوبان في هذا الجديد القادم، وظنوا أن علة المسلمين في إسلامهم، وأن تخلفهم يكمن في تدينهم، وأن التراث سلاسل تقيدهم لتحريمهم من الحركة والتغيير. وانطلاقاً من هذا المفهوم الخاطي، غالوا في الدعوة إلى التجديد ، ورفضوا التراث برمته، بما في ذلك قيم الوحي المعصومة، وهي المفاهيم التي تبناها تيار التغريب والتحديث .

وإلى جانب هاتين الطائفتين وجدت طائفة ثالثة، رفضت جمود الأولين وجحود الآخرين، وهي التي اصطلح على تسميتها بتيار التجديد الإسلامي الحديث، والتي أدركت أن الحياة تتطور تبعا لسنن الله في الحياة، وأنها تتغير كل يوم، وكل تغيير تتبعه حركة تسايره، فأخذت من التراث ما يحفظ على الأمة كيانها الديني والتاريخي من الذوبان، وشخصيتها الحضارية من التحلل، وعدت ذلك أصولاً تقوم عليها هوية المجتمع، ويكمن فيها مبرر وجوده وسر بقاءه .

ودعت من جهة أخرى إلى الاستفادة من الحضارة المعاصرة والاقتباس من علومها ومعارفها ومخترعاتها، وخبراتها الإنسانية⁽¹⁾ المختلفة التي قطعت فيها أشواطاً بعيدة، واستقدام كل ما هو ضروري لتغيير حياة المسلمين نحو الأحسن

(1) المراكشي، محمد صالح ، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985، ص 89

واستبدال حالة التخلف التي يعيشونها بحالة أكثر ملاءمة، لتحقيق أسلوب معيشة أفضل. وكانت رؤيتها تقوم على الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، والانفتاح على العالم المعاصر دون الذوبان فيه، والثبات على الأهداف والمرونة في الوسائل، والتشديد في الأصول والتيسير في الفروع، وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بالانفتاح الحضاري .

الانفتاح الحضاري مفهومه وأهميته

ونعني بالانفتاح الحضاري الاستفادة من المعطيات الحضارية الغربية الجديدة باقتباس علوم الطبيعة وعلوم التمدن المدني والعلمي مثل: علوم الزراعة والحيوان، وعلوم الصناعات والحرف والتجارة، وعلوم الطب والصيدلة، ووسائل الاتصال والمواصلات، وعلوم طبقات الأرض وأنواعها ومعادنها، والرياضيات والكيمياء والفيزياء والفلك، وعلم الجغرافيا والبحار والملاحة، وما إلى ذلك من المعارف التي تتصل بعلوم المادة وظواهرها .

فهذه العلوم التي تتخذ من الطبيعة موضوعها، هي معارف مشتركة بين جميع الناس، لأنها تتميز بحياد مناهجها وبخضوعها للتجربة الحسية الملموسة، والتي لا تختلف قوانين عملها مهما اختلفت العقائد والأجناس والمذاهب. ويمكن أن نضيف إليها ثمرة التجارب الإنسانية عبر تاريخها الطويل في التنظيمات الإدارية والوسائل والخبرات العامة، والتي تمثل أوعية صالحة يتم إخضاعها للمثل والمضامين التي يهدف إليها من يستلهمها .

فهذه المعطيات جميعا، تكوّن ما يسمى بالمشترك الإنساني العام الذي ينبغي الاستفادة منه قدر الإمكان، لدفع عجلة النمو إلى الأمام، مع تجنب الاقتباس من الجانب الأيديولوجي للحضارة الغربية، لأنه يمثل خصوصية حضارية لا تصلح إلا

لأمة ذات أبعاد حضارية متميزة .⁽¹⁾

وهذا الانفتاح الحضاري بالمعنى الذي أشرنا إليه ، قانون طبيعي يحكم حياة الشعوب والأمم، ويفرض عليها أن تتفاعل فيما بينها، ويكون موضوع هذا التفاعل المشترك الإنساني العام، وبخاصة في العلوم التي تشترك في ثبات الموضوع، ووحدة المناهج والحقائق والقوانين، مع احتفاظ كل أمة بخصوصياتها الحضارية .

فالتجارب التاريخية الإنسانية، أثبتت أن الكائن السوي لا بد له أن يفتتح على الآخرين ويتفاعل معهم عبر جسور الاتصال لتحقيق التأثير والتأثر والأخذ والعطاء . ولا تستطيع أية أمة أن تنفلق على نفسها وأن تتوقع داخل ذاتها، وتدعي القدرة على الاستمرار، لأن هذا الانغلاق الحضاري سيقودها إلى الموت المحتم، فكان المفروض عليها أن تمد جسور الحوار والتبادل مع غيرها من الأمم حتى يتم التلاقح والإخصاب، وهذا قدر لا سبيل إلى مغالته أو تجنبه لأنه سنة كونية ثابتة .

وقد كان للحضارة الإسلامية منذ اللحظات الأولى لتكوينها موقف إيجابي من قضية الانفتاح الحضاري، حيث انفتحت على جميع الحضارات التي كانت موجودة قبلها بدون استثناء، وحدث بينها تفاعل عميق، تماشياً مع مبدأ الإسلام الذي لا يعادي الاستفادة من الكسب البشري حيثما كان ، واقتداء بالقرآن الكريم الذي وردت في آياته كلمات فارسية ورومية وحبشية ،⁽²⁾ كانت شائعة الاستعمال عند العرب، وأقرها ليكون في ذلك إحياء للمسلمين بضرورة الاتصال الثقافي بالشعوب والتفاعل معها لتعميق التجربة الإنسانية وإخصابها .

(1) عمارة ، د . محمد ، الفز والفكر ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1989 ، ص 17 - 22

(2) من الكلمات الفارسية الواردة في القرآن : ديباج ، مسك ، ياقوت وسندس ، ومن الكلمات الرومية ، قسطاس ، وقنطار ، ولردوس ، ومن الكلمات الحبشية : المشكاة وهي كلها الفاظ معربة (الانطاكي ، محمد ، الرجيز في لغة اللغة ، مكتبة دار الشرق بيروت لبنان ، ط 3 ، د . ت . ص 444 ، 445)

وقد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم مثالا حيا على هذا الانفتاح، عندما أخذ بمشورة سلمان الفارسي، الذي دله على حفر الخندق لصد جيوش المشركين الزاحفة على المدينة، وكان حفر الخنادق في الحروب أسلوبا فارسيا لم يعرفه العرب من قبل، وقد أعجب به النبي الكريم، وبادر إلى تنفيذه ليرشد المسلمين إلى أن : « الحكمة ضالة المؤمن أتى وجدها فهو أولى بها » ، وأن المسلم مطالب بإعمال فكره في سائر ما يعرض له من شؤون الدنيا، فيأخذ منها ويدع وفق نظام يحقق له المصلحة والنفع، دون أن يكون في ذلك خروج عن مبادئ دينه .

لذلك لم يتردد المسلمون في الاستفادة القصوى مما بلغته الحضارات السابقة من تطور مدني وعمراني وتنظيمي وعلمي، واقتباس العناصر الحيوية المساعدة على مد الحضارة الإسلامية بكل الروافد المادية البناءة التي تنعشها وتغذيها، ولعل أوضح مثال على ذلك تبني عمر بن الخطاب لنظام الدواوين الذي هو خبرة إدارية بيزنطية⁽¹⁾، وقد ظلت الدواوين تكتب في العراق باللغة الفارسية، وفي الشام باللغة الرومية، وفي مصر باللغة اليونانية، إلى أن جاء عبد الملك بن مروان فعرب دواوين العراق والشام، واستكمل ابنه الوليد بن عبد الملك تعريب دواوين مصر⁽²⁾ . ومن الأمثلة على هذا الانفتاح أيضا استلزام عمر بن الخطاب للتحربة الفارسية في تقدير ضريبة الأرض الزراعية⁽³⁾، واحتضان الخلفاء المسلمين لحركة ترجمة العلوم الطبيعية والتجريبية، وتشجيعهم لها بمختلف الوسائل، مما أتاح للمسلمين الانفتاح العلمي الواسع على مختلف الحضارات السابقة .

(1) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، مج 2، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط 2، 1988، ص 570

(2) أنخري، د. إبراهيم - إمان، و : شرف الدين، د. عبد التواب، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات ذات الدلائل، الكويت، 1984، ص 85، 86 .

(3) شتارة، د. محمد - الفز، الفكر، ص 209 .

وقد وقف المسلمون في الانفتاح على الغير عند حدود العلوم المادية والشؤون الإدارية التي تعد - كما أسلفنا - علما مشاعا بين البشر، ولم يتعدوها إلى العقائد والمذاهب الدينية والنظم السياسية الخاضعة لرؤيه عقديّة أو فلسفية تصبّطد في مبادئها وقيمها مع العقيدة الإسلامية ذات المصدر السماوي. والدليل على ذلك أن حركة الترجمة الواسعة التي شهدتها الحضارة الإسلامية، لم تشمل بأي حال من الأحوال كتب العقائد الوثنية اليونانية، وأساطير آلهتها وفنونها⁽¹⁾.

كما أن مذاهب الفرس والروم وعقائدهم وفلسفاتهم الدينية، لقيت مقاومة شديدة من قبل علماء المسلمين لتعارضها الجذري مع مبادئ الإسلام وقيمه، التي كانت تسير دفة الحياة في المجتمع، ولم يكن ظهور علم الكلام سوى دليل بيّن على عملية الانتقال التي مارسها المسلمون على ميراث الحضارات التي تفاعلوا معها ، فأخذوا ما هو إنساني مشترك عام، وتركوا ما يمكن أن يشكل خطرا على خصوصيات الحضارة الإسلامية ونقاء عقيدتها .

وإذا كان أسلافنا قد نجحوا في التفاعل مع الحضارات الأخرى، وأخذوا منها ما يفيدهم من العلوم والمعارف والخبرات، فإن هذا الانفتاح أصبح اليوم ضرورة حضارية للأمة الإسلامية، حتى تخرج من المأزق الحضاري الذي وقعت فيه. فكل تجربة تغييرية في العالم الإسلامي اليوم لا تأخذ بعين الاعتبار قضية الانفتاح الحضاري، ولا تحاول أن تستفيد من منجزات العصر المختلفة، ستظل قاصرة متخلّفة عن الركب الحضاري العالمي .

الإبراهيمي وموقفه من الانفتاح الحضاري

لم يكن الإبراهيمي في حركته التغييرية، التي تركز على العودة إلى الأصول

(1) عمارة ، د. محمد ، الغزو الفكري ، ص 214 .

والاتصال المباشر بمصادر الوحي، داعية إلى الانغلاق على الذات، ومعاداة الحضارة المعاصرة بكل ما تحمله من كسب حضاري إنساني يمكن الاستفادة منه في دفع حركة تغيير المجتمع وتطويره .

بل كان - كما يبدو من خلال كتاباته - ينتمي إلى اتجاه التجديد الإسلامي، الذي ينادي بالالتزام بأصول الإسلام وأحكامه مع القبول بمبدأ الحوار والتفاعل بين الفكرين الإسلامي والغربي، حتى يتم اقتباس ما يمكن أن ينفع الأمة الإسلامية من علوم، ومعارف، وأنظمة مختلفة، ومن أبرز دعاة هذا التيار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما .

وينطلق الإبراهيمي في دعوته إلى الانفتاح الحضاري، من اقتناعه بأن الحضارات تراث عقلي إنساني مشاع بين الأمم، وليس حكرا على أمة معينة تدعي امتلاكه ، وتحرم باقي البشر من الاستفادة منه: « وهذه المدنية التي تردد لفظها الألسن ويصطلح المؤرخون على نسبتها إلى أمة مختلفة، ويميزون بينها بطوابع خاصة ويشدد المتعصبون في احتكارها لأمة دون أمة ... هي في الحقيقة تراث إنساني تسلمه أمة إلى أمة وتأخذه أمة عن أمة فتزيد فيه أو تنقص منه بحسب ما يتهيأ لها من وسائل وما يؤثر فيها من عوامل »⁽¹⁾ .

ويجري انتقال الحضارات بين الأمم، طبقا لسنة اجتماعية مطردة، هي ما يمكن أن يسمى بقانون التداول الحضاري، وهو الذي خضعت له كل حضارات الدنيا عبر تاريخ البشرية الطويل: « إن الحضارات ليست شرقية ولا غربية، وإنما هي تراث إنساني متداول بين الأمم تتعاقب عليه فيزيد فيه بعضها، وينقص منه بعضها، ويبتكر بعضها بعض الفروع فينسب إليه، ويلونها بعضهم بألوان ثابتة فتبقى

(1) الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 258 .

شاهدة له حتى تضحل»⁽¹⁾.

لذلك نبه الإبراهيمي إلى ضرورة التفاعل والانفتاح الحضاري، مؤكداً على دور القرآن في إرشاد المسلمين إلى السير في الأرض والنظر في عواقب الأمم الغابرة ومآلاتها والإعتبار بها، وما تمخض عن ذلك من منافع حضارية للمسلمين: «فكان هذا الإرشاد القرآني المتكرر حفزاً إلى التنقيب عن آثار المدنيات القديمة ودراساتها والاطلاع على الصالح النافع منها والأخذ به. وكان من آثار هذا التنبيه القرآني أن تفتحت أذهان المسلمين... إلى دراسة هذه المدنيات واقتباس النافع منها وكان من فضل القرآن على العالم أنه أبقي بهذا الإرشاد على علوم كادت تندرس وعلى آثار مدنيات كادت تنطمس»⁽²⁾.

فقد عمل هذا التوجيه القرآني عمله في المسلمين الأوائل، فانطلقوا بوحى منه يسرون في الأرض، مما أتاح لهم انفتاحاً واسعاً على الحضارات التي سبقتهم، واستفادوا منها علوماً جمة أمدت أوعية الحضارة الإسلامية بدماء جديدة: «إن إرشاد الإسلام للمسلمين بأخذ الصالح النافع أينما وجد هو الذي دفعهم بعد تمكين سلطانهم وتمهد ملكهم إلى البحث عن الآثار العقلية للأمم التي سبقتهم فاطلعوا على ما أنتجت قرائح يونان وفارس والهند في العلم والآداب فنقلوها إلى لغة القرآن ووجدوا فيها خير معين على ذلك»⁽³⁾.

وكما انتفعت الحضارة الإسلامية بالكسب البشري الذي سبقها إليه غيرها بفعل الانفتاح الحضاري الذي مارسه، جرت الحضارة الغربية على المنوال نفسه، فانفتحت على الحضارة الإسلامية عند بداية نهضتها، وأخذت عنها كثيراً من العلوم

(1) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 224.

(2) المصدر، نفسه، ج 1، ص 260.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 260.

والمعارف والخبرات، التي كانت المرتكز الحقيقي الذي استندت إليه في انطلاقتها الحضارية: «إن كثيرا من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية لم تصلها إلا عن طريق اللغة العربية بإجماع الباحثين منا ومنهم، وإن المنصفين منهم ليعترفون للغة العربية بهذا الفضل على العلم والمدنية... وإنهم يحمدون للدهر أن هيا لهم مجاورة المسلمين بالأندلس وصقلية وشمال إفريقيا وثغور الشام حتى أخذوا عنهم ما أخذوا واقتبسوا عنهم ما اقتبسوا...»⁽¹⁾.

وانطلاقا من هذا الاقتناع الراسخ بتداول الحضارات بين الأمم، دعا الإبراهيمي إلى ضرورة الانفتاح على الحضارة الغربية المعاصرة، والاقتباس منها في مجالات العلوم والمخترعات والخبرات، حتى يتمكن العالم الإسلامي من النهوض من كبوته باستلهاهم أسباب القوة المادية والعلمية، وتجاوز المظاهر الأيديولوجية الغربية التي تتناقض مع الإطار المرجعي الإسلامي. وقد عبر عن هذا الرأي بوضوح تام عندما تحدث عن موقف البصائر من الحضارة الغربية فقال: «ووقفت من الحضارة الغربية موقف المحترس الحذر، تدعو إلى ما فيها من علم وقوة، وتنتهي عما فيها من قشور وتوافه وردائل»⁽²⁾.

وفي ضوء هذه الرؤية الحضارية وجه ندائه إلى الشباب، داعيا إياه أن يحافظ على أصالته، ويساير العصر الذي يفرض عليه أن يكون قويا فعالا ومقداما: «إن عصركم بطل، فمن البر به أن تكونوا أبطالا، وإن جيلكم سماوي التشوف، فلا تخذلوا إلى الأرض، وإن حاضركم جديد فلا تكونوا منه في موضع الرقعة البالية، وإن الحياة حسناء، مهرها الأعمال العامرة فلا تسوقوا لها الأقوال الجوفاء، وإن

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 261.

(2) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ش.و.ن.ت، الجزائر، ط 1، 1981، ص 349.

دينكم ينهاكم أن تأخذوا الأمور بالضعف والهويناء، فخذوها بالقوة والغلاب وهو يؤكد في موضع آخر على ضرورة الاستجابة لنوعي الحياة المتطورة، وعدم الوقوف في وجهها، لأن عجلة الزمن لا ترحم، وبخاصة في هذا العصر الذي شهد تقدما مذهلا في كل المجالات، وعلى جميع المستويات. فالعالم اليوم: « سائر إلى الاتصال، تحته الحياة وتدفعه المصلحة، شئنا أم أبينا، ويوشك أن تصبح الكرة الأرضية دارا واحدة فلا تكونوا عرضة لسيره. وقد اجتمع الخير والشر على وصل أجزائه ... فزويت أطرافه المتباعدة بالراديو والسننما والطيارة والمدرسة والجريدة والطب وجمعية الأمم ... والجوسسة والميكروب ...»⁽²⁾.

وقد تبني عبد الحميد بن باديس أيضا هذا الموقف الانفتاحي على الحضارة المعاصرة، فدعا إلى مسايرة العصر والتفاعل مع منجزاته، والاستفادة منها من أجل تطوير حياة الأمة الإسلامية، والمحافظة على الهوية الإسلامية المميزة للشخصية الجزائرية، دون الوقوع في دائرة الجمود والانغلاق على الذات، فهو ينصح الأجيال الصاعدة قائلا: « إذا أردت الحياة فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة، وطرق المعاشرة والتعامل. كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك»⁽³⁾. وكان هذا الخط الذي انتهجه الإبراهيمي وابن باديس سمة بارزة ، ميزت الفكر الإصلاحى الحديث في الجزائر الذي رفض الانغلاق والانعزلاء، وأمن بالإبداع والتجديد .

ومما سبق، يتضح لنا أن الإبراهيمي كان يؤمن بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى

(1) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 462 .

(2) المصدر نفسه ، ص 432 .

(3) ابن باديس، عبد الحميد ، « أيها المسلم الجزائري » ، الشهاب ، ع 49 ، 23 أوت 1926 ، قسنطينة ، الجزائر

وجدها أخذها ، لذلك دعا بالحاح إلى الاستفادة من معارف العصر وعلومه، ومن الثقافات الإنسانية المتعددة، ومواجهة الحياة مواجهة علمية عقلية صحيحة، والأخذ بأسباب الحضارة والتقدم وفق ضوابط القرآن والسنة، والتعامل مع الفكر العالمي من موقع الحوار البناء والتحليل والنقد والتفهم، وليس من موقع الرفض والازدراء مما يسمح له بإحداث التغيير في حدود واضحة مرسومة.

وقد تبلور لديه هذا التصور الحضاري بما كان يمتلكه من ثقافة موسوعية في مجال الدراسات الإسلامية والتراثية، ومن إدراكه العميق لأسرار الشريعة ومقاصدها، ورفضه الشامل لمظاهر الجمود والتقليد والإنغلاق، وإيمانه بدور العقل في الإبداع وبناء الحضارة .

آليات الانفتاح الحضاري

يتميز الإسلام، باعتباره ديناً خاتماً ورسالة عالمية خالدة، بخاصية الحيوية التي تضمن له القدرة على الاستجابة لدواعي تطور الحياة، وتمكّنه من استيعاب الجديد الذي تفرضه الحركة الحضارية للإنسان، وهذا معنى صلاحيته لكل زمان ومكان .

ففي إطار الثوابت التي حددها للإنسان حتى يقيه مزالق عقله واندفاع غرائزه، ترك المجال واسعاً لامتصاص جميع المستجدات الحضارية، بكل ما تحمله من منافع للجنس البشري، مع نبذ ما يمكن أن يضره أو يخرجّه عن دائرة الأهداف التي رسمها الله لوجوده فوق الأرض .

وحتى يتم استيعاب الجديد المتطور، وتكييفه مع الثوابت الخالدة، هناك آليتان هامتان في الفكر الإسلامي، ترتكز عليهما مشاريع التغيير لتحقيق الانفتاح وفق ضوابط الإطار المرجعي وهما: الاجتهاد واللغة العربية .

أ - الاجتهاد ودوره في الإنفتاح الحضاري

لانبالغ إذا قلنا أن الاجتهاد هو الآلية الضرورية والأساسية، التي يتم بموجبها الإنفتاح الحضاري على الغير، وهو الجسر الأمن الذي تمر عبره عملية الانفتاح، حتى تحقق أهدافها الحضارية دون أن تنحرف أو تزيع، وبخاصة في جوانب الحياة العامة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والدولية، وغيرها مما يؤثر في إحداث التغيير في المجتمع الإسلامي .

إن الاجتهاد أصبح ضرورة يفرضها الصراع الحضاري المتميز المفروض على المسلمين اليوم، فقد أحدثت الحضارة المعاصرة انقلابا كبيرا في موازين المسافات والزمن، وتعقيدا في مفاهيم المصالح والمعاملات، وتقدما مذهلا في مختلف العلوم والاكتشافات، مما ترك أثره القوي في حياة المسلمين الذين ظلوا يراوحن مكانهم، لعدم وجود حركة اجتهادية توازي هذا التطور السريع ، وتعطي لمظاهر هذه النهضة مسوغا شرعيا يدفع المسلمين إلى الأخذ بأسباب الحياة العصرية، في نطاق الضوابط الشرعية وقيمها .

وقد أدرك الإبراهيمي أهمية الاجتهاد في عملية الانفتاح الحضاري، وأكد أنه الآلية الفعالة التي يتم عن طريقها هضم الجديد وتمثله، وتقوية عضد المسلمين به، ويضرب لذلك مثلا حيا على تجربة العلماء المسلمين الأوائل مع علوم الحضارات التي سبقتهم، فبعد أن ترجموها: « عمل الفكر العربي الوقاد عمله فصيح أغلاط الفلاسفة وصحح نظريات الرياضيات وجاء دور الاجتهاد في هذه العلوم، فاستقل الفكر العربي بالفلسفة وكَيّفها على ذوقه الخاص، واستنبط في هذه العلوم طرائق وأنواعا لم تكن معروفة من قبل للأوائل وصحح العلل وكشف عن الأوهام وانتقد

انتقاد المستقل⁽¹⁾ .

وهذا الاجتهاد الذي يعتمد على خاصية النقد والانتقاء، وتقدير المصالح، هو الذي يجب أن يكون سلاح العلماء المسلمين اليوم في تفاعلهم مع الحضارة الغربية، كما كان سلاح الأئمة المجتهدين الكبار في العهود الإسلامية الزاهرة، الذين أعطوا الدليل القوي على مرونة الشريعة الإسلامية، وقدرتها الفائقة على استيعاب المستجدات الجديدة، بما مارسوه من اجتهاد مكّنهم من التحكم في زمام الحياة، وتسيير دفتها نحو الخير والعدل، دون أن تصطدم مع سنة التطور والتغيير: «وقد استحدث العمران أنواعا جديدة من المعاملات الدنيوية لا عهد للإسلام الفطري بها، وصورا شتى من المعاش ووجوه الكسب لم تكن معروفة، فمن سماحة التشريع الإسلامي ومرونته أن تتناول هذه المستجدات الجديدة بأنظار جديدة، وتستنبط من أصوله أحكام لفروعها ... ونحن أول من يقدر قدر تلك الأنظار الصائبة والمدارك الراقية وقيمتها دليلا على اتساع التشريع الإسلامي لمصالح الناس، وصلاحيته لجميع الأزمنة ...»⁽²⁾ .

ثم إن قيام الشريعة الإسلامية على أساس نظرية المصلحة، يجعلها في نظر إبراهيمي قادرة على الاستجابة لجميع التحديات الحضارية التي تواجه الأمة الإسلامية: «والإسلام يراعي المصالح الزمنية ويعني أحكامه على تطوراتها، ويكل إلى علمائه الراسخين في فقه الكتاب والسنة أن يراعوا لكل وقت أحواله، وأن يقيموا الموازين على أساس جلب المصلحة ودرء المفسدة»⁽³⁾ . وفي هذا الإطار طرح إبراهيمي في كتاباته عدة قضايا عصرية، تحتاج إلى

(1) إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير إبراهيمي، ج 1، ص 262 .

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 95 .

(3) إبراهيمي، عين البصائر، ص 131 .

جهود المجتهدين المسلمين حتى يجدوا لها مخرجاً شرعياً، يمكن المسلم المعاصر من الانتفاع بها في حدود مبادئه، ومن بينها مشكلة المصارف والبنوك .
فنظام البنوك تجربة اقتصادية غربية، استدعاها النمو السريع للأموال، واتساع رقعة التبادلات التجارية بين الدول، وكثرة المشاريع الاستثمارية التي تتطلب رؤوس أموال كبيرة، وقد لعبت البنوك دوراً أساسياً في تطور الاقتصاد الغربي ودفعه خطوات كبيرة إلى الأمام .

واستناداً إلى المنافع الجمة التي جنتها الحضارة المعاصرة من اعتمادها على نظام المصارف والبنوك، رأى الإبراهيمي أن يستفيد العالم الإسلامي من هذا النظام للقيام على شؤونه المالية، باعتبار أن المال هو عصب الحياة : >> «إن الزمان قد دار دورته وقضى الله أن يصبح المال والعلم سلاحين لا يطمع طامع في الحياة بدونهما»⁽¹⁾، ولأن طرق استثمار الأموال التقليدية لم تعد تجدي نفعاً في هذا العصر الذي قويت فيه شوكة الأمم الغنية، واستحدثت لنفسها أساليب متطورة في الربح السريع .

غير أن المشكلة التي تطرح نفسها هي أن البنوك الغربية تقوم في أساسها الأول على الربا، وهونظام اقتصادي محرم في الشريعة الإسلامية، لما فيه من مظالم وتعد على حقوق الغير . هنا يتحمل العلماء المجتهدون مسؤولياتهم في إيجاد تعامل مصر في غير ربوي، يطمئن إليه المسلم ويدخل به إلى الاقتصاد العالمي في ثبات وقوة، ويكون هذا الحكم الشرعي مؤيداً بالدليل ومبيناً على حكمه الشريعة ومقاصدها⁽²⁾ .

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 13 .

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 14 .

لذلك دعا إبراهيمي إلى استثمار المال بواسطة إنشاء وتأسيس بنوك ومصارف ذات طابع إسلامي، تخضع لطرق علمية منظمة، تتجاوز الجهود الفردية والأساليب التقليدية: «والذي تقتضيه الحكمة الهادئة لنحفظ أنفسنا من هذه المزاخمة المريعة هو تأسيس شركات التعاون بين الفلاحين وشركات التعاون بين التجار لتقي الصغار من الجانبين شر تحكم الأجانب في أملاكهم ومجهوداتهم، ثم تأسيس مصارف مالية صغيرة تكون واسطة بين الجميع وتكون مع ذلك مستودعا للأموال المخزونة المعطلة ومرجعا لصناديق التوفير والاحتياط...»⁽¹⁾.

وتعد دعوة إبراهيمي إلى إقامة نظام بنكي إسلامي دعوة مبكرة في هذا المجال ، حيث أنه كتب عن هذا الموضوع عام 1929 ، وظلت الفكرة مطروحة على الساحة الإسلامية حتى سنوات السبعين، عندما ظهرت عدة بنوك إسلامية لا تتعامل بالربا في الإمارات العربية المتحدة، والسودان، ومصر، والأردن، والبحرين، وتركيا، وباكستان، وإيران، وماليزيا، وغيرها⁽²⁾.

ب - اللغة العربية ودورها في الانفتاح الحضاري

تتصل اللغة العربية بالحضارة الإسلامية اتصالاً عضوياً، لأنها هي القالب الذي تجسدت فيه المعجزة القرآنية، ومن ثم غداً تعلمها وإتقانها فرضاً من الفروض الإسلامية، ثم حملت على كاهلها أعباء العلوم التي زخرت بها قرون الازدهار الإسلامي، وهضمتها، وتمثلها المسلمون، ونفعوا بها جميع الأمم والشعوب التي صلت بهم.

والعربية ميراث خاصة، يشهد بها علماء اللغات الذين نوهوا باتساعها في

(1) إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ، ص 13 ، 14 .

(2) عطية ، د. جمال الدين ، البنوك الإسلامية ، كتاب الأمة ، وثاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، الدوحة - قطر ، ط 1 140 هـ ، ص 21 ، 53 .

التعبير، وغناها في الألفاظ، وقدرتها العجيبة على الاشتقاق، واكتفائها بنفسها في وصف الظواهر والوجدان، مما أتاح لها الفرصة للانفتاح على علوم ولغات السابقين واستيعابها جميعا .

والإبراهيمي يرى أن اللغة العربية (لغة مدنية وعمران) وأنها استطاعت أن تستوعب الحضارة الإسلامية كلها في عظمتها وشموخها، بما تتميز به من قوة وحياة واتساع، وأن لديها قدرة عجيبة على استيعاب ما يجد عليها من علوم وفنون وأداب .

وكانت العربية هي الرعاء الذي احتوى منجزات الحضارة الإسلامية وميزها ، وهو الذي حفظ لها أصالتها عندما نقل المسلمون علوم الحضارات التي سبقتهم : >> لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران ولو لم تكن لغة متسعة الأفاق غنية بالمفردات والتراكيب - لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان - وآداب فارس والهند، ولا كزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم بتعليم تلك اللغات ولو فعلوا لأصبحوا عربا يعقول فارسية وأدمغة يونانية ...>>⁽¹⁾ .

والعربية هي التي أمدت العلماء بالمصطلحات العلمية والفنية التي لزمهم أثناء تفاعلهم مع علوم الحضارات الأخرى، فهي: >> التي أفضلت⁽²⁾ على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقتها وأسرارها وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة ... ومن عرف كتاب أبي حنيفة الدينوري في النبات وكتاب أبي عبيدة في الخيل وكتاب الهمذاني في تخطيط جزيرة العرب وكتاب الجاحظ في الحيوان وكتب الأئمة

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 260، 261 .

(2) انقلت، اجمعت ونكرمت .

في الطب والنجوم والإبل رأى العجب العجيب من اتساع هذه اللغة وجزارة مادتها»⁽¹⁾.

وهي اليوم قادرة على القيام بهذا الدور الخطير نفسه الذي قامت به في ماضي الأيام، ويجب أن يناط بها، وإلا أصبح الانفتاح الحضاري غزوا فكريا كاسحا، يأتي على مقومات الأمة وعناصر هويتها، فالعلم: «هو الجزء الضروري في الحياة الذي إما أن تنتقله إليك فيكون قوة فيك أو أن تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوة لغيرك، وقد تفتن أسلافنا لهذه الدقيقة فتقلوا العلم ولم ينتقلوا إليه»⁽²⁾.

لذلك فهو يشترط أن يتم الانفتاح الحضاري عن طريق اللغة العربية، حتى يتجنب المسلمون الوقوع في شرك الثقافات الأجنبية، ويضمنوا لأنفسهم الحد الأقصى من الحصانة الحضارية، ولهم في تجربة المسلمين الأوائل أسوة وقوة . إن هذا الإدراك الواعي لوظيفة اللغة العربية في عملية الانفتاح الحضاري عند إبراهيمي، ليس وليد الدور التاريخي الذي قامت به في استيعاب علوم الحضارات السابقة فقط، بل هو أيضا ناتج عن فقه عميق لأسرار اللغة العربية ودقائقها وخصائصها، التي تؤهلها في العصر الحديث للاضطلاع - مرة أخرى - بالمهمة نفسها التي قامت بها سابقا .

ضوابط الانفتاح الحضاري

وإذا كان إبراهيمي من دعاة الانفتاح الحضاري والاستفادة من الكسب العالمي والخبرة الإنسانية، فإن هذا لا يعني أنه قد ترك الباب مفتوحا للمد الحضاري الأجنبي حتى يسيطر ظله على المجتمع الإسلامي، مما يؤدي إلى

(1) إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير إبراهيمي، ج 1، ص 263 . 264 .

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 261 .

الانسلاخ عن الأصالة والذوبان في الآخر الحضاري .

بل كان لديه تصور واضح لأبعاد القضية، وهذا التصور هو الذي حدا به إلى التنبيه إلى الضوابط الهامة التي يجب أن تحكم عملية الاقتباس من الحضارة المعاصرة .

ذلك أن التفاعل الحضاري يجب أن يصحبه وعي تام بضرورة الاستفادة من الصالح النافع⁽¹⁾ الذي يغذي الجسم الإسلامي بما ينميه ويحفظه، مما يستلزم بالضرورة طرح الفاسد الضار الذي يحمل جراثيم المرض إلى كيان الأمة . والصالح النافع عند الإبراهيمي يتمثل في كل المعارف والخبرات البشرية ، التي تضمن الأخذ بأساليب العصر المتطورة ، وتدل الإنسان على أفضل المناهج التي يسلكها ليحقق أكبر قدر من الخير والمنفعة لنفسه ولغيره، وهذا الصالح النافع هو التراث الإنساني المشاع بين جميع البشر⁽²⁾.

أما الفاسد الضار فهو الذي يهاجم خصائص الهوية الإسلامية ومقومات شخصيتها، ويستهدف عقيدتها بالتشويه والمسح، وأخلاقها بالتحلل والميوعة، وتراثها بالمحو والطمس، فهذه الجوانب الأيديولوجية التي تمثل الخصوصية الحضارية لكل أمة، هي الميدان الذي يجب ألا يخضع لعمليات الاقتباس، لما فيه من أخطار تهدد كيان الأمة التاريخي والحضاري بالانقراض .

وهو يشير إلى هذه المميزات الحضارية التي تصنع الفوارق الثقافية بين الأمم في حديثه عن أثر الحضارة المعاصرة في النهضة المصرية فيقول: « إنما هو مستعار من أمم ليست بيننا وبينها صلة من دين ولا أدب، وليست متفقة معنا في

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 260 .

(2) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 261 .

تقدير الموازين الخلقية، والقيم الإنسانية، والاعتبارات الزمنية...»⁽¹⁾ .

وعلى هذا الأساس، حدد الإبراهيمي موقفه الصريح من أنصار التغريب في العالم الإسلامي، الذين انبهروا بمظاهر الحضارة الغربية، وشدهم تقدمها في مختلف الميادين، فدعوا الأمة إلى الإنسلاخ الكلي عن هويتها الحضارية، والتخلي التام عن مقومات شخصيتها الإسلامية، للالتحاق بحضارة الرجل الأبيض، وتقليدها في كل مظاهرها شبرا بشبر وذراعا بذراع⁽²⁾، وهم يعتقدون: «أنه لا نجاة للمسلمين إلا بالانسلاخ عن ماضيهم ودينهم، والانغماس في الحضارة الغربية ومقتضياتها من غير قيد ولا تحفظ... وأن عصاة رأيهم في علاج حالة المسلمين تترجم بجملة واحدة: هي أن النجاة في الفرق»⁽³⁾.

وهذا هو السقوط الفكري الذي يتمخض عن عدم التمييز بين الصالح النافع، والفساد الضار، أثناء عملية الانفتاح الحضاري. فقد مارس هذا الفريق هذه العملية في غياب نظرة نقدية محصنة، تتيح له أن يفرق بين ماهو مشترك إنساني عام، وبين ماهو خصوصية حضارية شديدة الارتباط بالجانب الأيديولوجي والأخلاقي للأمة: «فهو يفكر بعقل ملثا بلوثات هذه الحضارة الخاطئة الكاذبة المستمدة من أصول الاستعمار الذي يسقي الأقربين ما يرويههم، ويفذي الأبعدين بما يريد»⁽⁴⁾. وقد مثل هذا التيار التغريبي في الجزائر طائفة من الشباب الجزائري، الذي تعلم في المدارس الفرنسية، واتخذ من مظاهر المدنية الأوروبية أسلوب حياة وطريقة

(1) الإبراهيمي، عين البصائر، ص 570

(2) ومن أقطاب هذا الاتجاه في العالم العربي: طه حسين، وسلامة موسى، وخبيلي شميل والمطفي السيد وغيرهم.

(3) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 223

(4) المصدر نفسه، ج 4، ص 222.

تفكير، وقد احتوته فرنسا وأشرفت على تكوينه وأطلقت عليه اسم (جماعة النخبة)⁽¹⁾ بمعنى أنه في نظرها الصفوة المختارة من المجتمع الجزائري، والجديرة بقيادته والإمساك بزمام الأمر فيه، بما تحمل من أفكار تحررية، ونظرة تقدمية تؤمن أن الجزائري لن يتخلص من تخلفه إلا إذا اندمج كلياً في الكيان الفرنسي .

وقد تطرقت هذه الجماعة في مطالبتها بالاندماج، حتى أصبحت تنادي بالتجنيس الكامل للجزائريين وإلحاقهم بالعنصر الفرنسي، والتخلي عن مقومات الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية، والتنازل حتى عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي،⁽²⁾ وإحلال اللغة الفرنسية وثقافتها محل اللغة العربية وثقافتها .

وتجربة التغيير التي تزعمتها حركة التغريب للنهوض بالعالم الإسلامي، أثبتت فشلها بسبب تجاهلها للخصوصية الحضارية والمعادلة الاجتماعية للأمة الإسلامية، ولم تكن من مشاريع التنمية التي استوردتها وفرضتها على الواقع الإسلامي، سوى تبديد طاقات المسلمين وإضاعة جهودهم، لأنها عمدت إلى الاقتباس المباشر للتجارب الحضارية، واستيراد النماذج الجاهزة، دون أن تعرضها على واقع الأمة الحضاري، لذلك فهي عند الإبراهيمي ليست نهضة بل هي: « انتقال إلى الأمة صاحبة تلك الخصائص، وارتحال بالعقول من موطن إلى موطن، أو هي (تجنس فكري) سمي نهضة »⁽³⁾ .

وهذه القدرة العقلية الاجتهادية في التمييز بين الصالح النافع والفاسد الضار في عملية الانفتاح الحضاري، هي التي يمكن تسميتها بالمنهج النقدي الذي أشار

(1) من أشهرهم الدكتور الزناتي صاحب جريدة ((صوت الأمل)) التي تصدر في قسنطينة باللغة الفرنسية . وعمر بن قندوز صاحب جريد ((صوت المتواضعين)) التي تصدر بالفرنسية في الجزائر العاصمة .

(2) تركي ، د . رابع . الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر ، ص 64 .

(3) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 569 .

إليه إبراهيمي، عندما تحدث عن العمل الحضاري الجبار الذي قام به العقل الإسلامي لاستيعاب إنجازات الحضارات السابقة، ونجح فيه نجاحا باهرا ، لاعتماده على خاصية التمحيص والتصحيح: «إن العرب حينما نقلوا علوم الأوائل كما كانوا يسمونها نقلوا بدافع وجداني إلى العلم ورغبة ملحة فيه، وأنهم نقلوا ليستقلوا وليستقلوا ولينتفعوا بثمرة ما نقلوا ولا يتم لهم هذا الاستقلال في العلم إلا بالتمحيص والتصحيح»⁽¹⁾.

وبهذه الحاسة النقدية التي تمحص وتصحح، استطاع العقل الإسلامي أن يهضم، ويتمثل مخطافات الحضارات التي كانت موجودة على الساحة التاريخية ، من يونانية، ورومانية، وفارسية، وهندية، وتركية، وصينية، وغيرها، وأن يحفظها من الضياع: «فأخذ ورفض، وانتقى ومحص واختبر، وعزل واستبعد وفصل ... وعرف - وهو يتجول عبر هذه الحقول الشاسعة - ما الذي ينسجم ونسغه الصاعد ويزيده دما وحياة ، وما الذي يحمل جراثيم المرض والهزال ، والدم الأزرق الفاسد ، فكان يعرف جيدا كيف يرفض هذا ويأخذ ذاك ...»⁽²⁾.

وهذا المنهج النقدي هو المطلوب اليوم تطبيقه في عملية التفاعل مع الحضارة المعاصرة، حتى يتمكن المجتمع الإسلامي من تمرير المعطيات الحضارية الصالحة وهضمها وتمثلها، دون أن يفقد هويته، وهي الفكرة التي أكدها مالك بن نبي بقوله : «فهم تلك العناصر وتمثلها يقتضي تمييزا دقيقا، وفكرا ناقدًا يقطع، يحدد الشروط التي يلزم توافرها في الاستعارات الضرورية ، أعني شروط توافقها ،

(1) إبراهيمي . آثار الشيخ محمد البشير إبراهيمي ، ج 1 . ص 262 .

(2) خليل ، د . عماد الدين ، حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، كتاب الأمة ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، الدوحة ، قطر ، 1403 هـ ، ص 66 .

ونفعها ولياقتها»⁽¹⁾ .

وفي ضوء هذه الرؤية النقدية، عرف الإبراهيمي الحضارة الغربية جوانبها الإيجابية النافعة، فدعا إلى اقتباسها في حدود ضوابط معينة، تجعل من التفاعل الحضاري عملية تبادل معرفي بين الحضارات وليس غزوا فكريا، وحاول من جهة أخرى أن يكشف عن الجوانب السلبية لهذه الحضارة، حتى يخفف من وقع الصدمة الحضارية التي أصابت المسلم من جراء اصطدامه بمنجزات الإنسان الأوروبي، وإحساسه بتفوقه الساحق عليه في جميع المجالات، ومن ثم يضعها في حجمها الطبيعي الذي يفزع عنها هالة الفخامة التي أحاطت بها، ويتيح للإنسان أن ينظر إليها بعين ناقدة فاحصة .

فقد أكد في مواضع عديدة الصبغة المادية الجافة التي اصطبغت بها الحضارة الغربية، عندما قدست الفرد وعدته سيد الوجود، وعزلت الدين عن الحياة وحصرته في الشؤون الشخصية التابعة للحرية الفردية، وجففت منابع الروحية التي كانت تربط الإنسان بقوة عليا، تراقب ضميره، وتحد من شطط عقله وأندفاع غرائزه .

وتمخض عن ذلك تطور هائل في الميدان المادي، صاحبه تحلل تام من القيود الأخلاقية والاعتبارات الدينية، وانطلاق عارم للشهوات من معاقليها، فتمزقت شبكة العلاقات الاجتماعية، وتفككت عرى الأسرة، وجفت العواطف الإنسانية، وتملك الإنسان الغربي ميل جارف لاكتساب المال وميدوه في ذلك (الغاية تبرر الوسيلة) : >> في زمن تفتقت علومه عن جاهلية ثانية شر من الجاهلية الأولى وتمخضت عقول أبنائه بوحشية مقتبسة من الغرائز الدنيا للوحش اقتباسا علميا ألبس الإنسان غير

(1) بن نبي . مالك ، وجهة العالم الإسلامي ، ص 71 .

لبوسه، ونقله من قيادة الحيوان إلى الانقياد للحيوانية، وأسفرت مدنيته عن جفاف في العقول، وانتكاس في الأنواق، وقوانينه عن نصر للرديلة وانتهاك للحرمان ، وانتهت الحال ببنيه إلى وثنية جديدة في المال وعبادة غالبية المال...»⁽¹⁾ .
ويسبب غياب الهادي الروحي الذي يلطف من غلواء الغرائز وغرور العقل ، غلبت على الحضارة الغربية النزعة القومية الاستعلائية العنصرية، التي تسخر العلوم والمخترعات التقنية الحضارية لخدمة الرجل الأوربي، وتستعبد الشعوب الأخرى باستغلالها وتوجيهها لتلبية مطالب الإنسان الغربي، وتنهب ثرواتها وتمارس الغزو الفكري ضد موارد الأمم التي وقعت تحت سيطرتها بالمسح والنسخ ، والتشويه حتى تفرض أسلوب حضارتها على الشعوب، وتضمن بقاها ضمن دائرة نفوذها .

ويستعرض الإبراهيمي الأساليب الغربية في محاربة الشخصية الإسلامية في مصر فيقول: «> فلعمرك - يا مصر - إنهم لم يقاتلوك بالحديد والنار، إلا ساعة من نهار، ولكنهم قاتلوك في الزمن كله بالأستاذ الذي يفسد الفكر، وبالكاتب الذي يزرع الشك، وبالعلم الذي يمرض اليقين، وبالصحيفة التي تنشر الرذيلة، وبالفلم الذي يزين الفاحشة، وبالبغي التي تخرب البيت، وبالحشيش الذي يهدم الصحة ... وبالخمرة التي تذهب بالدين والبدن والعقل والمال ، وبالشهوات التي تفسد الرجولة...»⁽²⁾ .
فالإبراهيمي إذن يرى أن الحضارة الغربية تعاني أزمة حادة في جانبها الروحي، لأنها قامت على المادة في أساسها وغاياتها ونتائجها، وجعلت القوة وسيلتها في السيطرة والقهر .

(1) الإبراهيمي ، عين البصائر ، ص 593 .

(2) المصدر ، نفسه ، ص 565 .

وقد ارتكزت انتقادات الإبراهيمي للحضارة الغربية، وتحليله لمظاهرها على نظرات بسيطة، وملاحظات شخصية واستنتاجات عامة، ولم تتح له ظروف تكوينه الثقافي الاطلاع على الفكر الغربي وتاريخه واتجاهاته ومدارسه للإحاطة بأصوله بسبب جهله للغات الأجنبية التي تضمن الدارس الرجوع إلى المصادر والأصول .

لذلك نجده قد تعامل مع فكر الحضارة الغربية من خلال المادة التي وفرتها له مطالعته الغربية، وما تيسر له من أخبار الصحف وتقاريرها وبياناتها، فلم نعثر في كتاباته على تحليلات عميقة أو دراسات وافية للنظريات الفلسفية والاجتماعية والنفسية التي تبنتها الحضارة الغربية ، وقامت عليها مبادئها ، كما هو الحال مع فلسفة (هيجل) ونظرية (دارون) و (دوركايم) و (فرويد) وغيرهم كثير، ممن أثروا بشكل مباشر وعميق في صياغة العقلية الغربية الحديثة، وطبعها بالطابع اللاديني والأخلاقي .

وتتسحب هذه الملاحظات نفسها على المعارف والعلوم التقنية التي رأى أنها مفيدة للمجتمع الإسلامي، وأنه من الواجب على المسلمين أن يقتبسوها ليطعموا بها مسيرة نهوضهم (وعندها تراثاً عقلياً مشاعاً) هذه العلوم التي هي نتاج الحضارة الغربية، لم يستطيع الإبراهيمي أن يحدد العلاقة الحقيقية القائمة بينها وبين ملاساتها الأيديولوجية، بحكم ارتباطها ببنياتها التي نشأت فيها، والأهداف التي وجدت من أجلها، فلم يعرض لهذا الأمر في كتاباته، وبقيت دعوته إلى اقتباس الصالح المفيد من الحضارة الغربية دعوة غامضة وعائمة تفتقر إلى كثير من التحديد والتوضيح .

إن هذا القصور المنهجي في نقد الحضارة الغربية وإبراز سلبياتها منشؤه - كما أسلفنا - قصور في الأدوات التي أتاحت للإبراهيمي، مما جعل نظرتة إليها محصورة في حدود المادة المعرفية التي حصل عليها .

ولعل هذا القصور في دراسة الحضارة الغربية دراسة معمقة والاطلاع على الفكر الغربي ونقده وتمحيصه والخروج بنتائج ذات وزن علمي، لا نلاحظه عند الإبراهيمي فقط، بل يكاد يكون سمة عامة في الفكر الإسلامي الحديث، إلا في بعض الحالات التي وجد فيها بعض المفكرين الإسلاميين الذين تناولوا الحضارة الغربية المعاصرة بالنقد والتحليل، من خلال إتقان لغاتها والرجوع إلى مصادرها وأصولها، ولعل أهمهم في نظرنا أبو الأعلى المودودي أحد المجددين الإسلاميين المعاصرين، والفكر الإسلامي مالك بن نبي.

فقد كانت مواقف المودودي من هذه الحضارة مبنية على نظرة عميقة، ودراسة وافية متخصصة، مكنته من طرح المبادئ الأساسية والأصول النظرية التي قامت عليها على بساط البحث، وناقشها بعقل متزن هادئ وكشف زيف النظريات الفلسفية التي قامت عليها، مثل نظرية دارون التي تقرر أن البقاء للأقوى والتفسير الماركسي المادي للتاريخ وما إليها⁽¹⁾.

وقد شهد له الإبراهيمي بأصالة موقفه من الحضارة الغربية حين قال: «وللأستاذ مشاركة قوية في معارف العصر واطلاع على حضارته، وهو يزنها بالميزان القسط، فلا إنكار ولا اندفاع، بل إنه يقف منها موقف الحذر والانتباه»⁽²⁾ ومما سبق، يتضح أن الانفتاح الحضاري في العالم الإسلامي اليوم، أصبح فريضة شرعية، وضرورة حضارية، للخروج بالأمة من حالة التخلف والسقوط والتبعية، وأن أي عمل تغيير لا يؤمن بأهمية الاستفادة من الكسب الإنساني والخبرة العالمية سيظل قاصراً، كما أن أي اندفاع نحو الارتقاء في أحضان

(1) طحان، مصطفى محمد، القيادة في العمل الإسلامي، ج 2، دار الوثائق، السالمة، الكويت، ص 180.

182، والترابي، أليف الدين، أبو الأعلى المودودي حياته ووعده، دار الفلم، الصفاة، الكويت، ط 1، 1987، ص 38 - 43.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 692.

الحضارة المعاصرة بون التقيد بالضوابط الشرعية التي تحكم قانون التفاعل بين الحضارات، سيؤدي بدوره إلى الفشل الذريع الذي يبده الطاقات، ويؤخر الانطلاقة الحضارية للأمة. لذلك، كان الاجتهاد هو الجسر الأمن الذي تمر عبره عملية الإفتتاح الحضاري، للحفاظ على الهوية الحضارية للأمة الإسلامية، وإحداث التغيير المنشود .

الفصل الرابع
الإنسان مفتاح التغيير

مكانة الإنسان ودوره في التغيير

إن الإنسان واحد من مخلوقات الله الكثيرة المتنوعة، التي تعيش في هذا الكون، غير أنه يمتاز عليها بالعقل الذي يمكنه من التفكير وإدراك الحقائق، والتعبير عنها، وعما يجيش في نفسه من الأفكار والخواطر، وبالجانب الروحي الذي يحمل أشواق النفس ومشاعرها وإحساسها، وبه يسمو الإنسان في مدارج الكمال ويرتقي، وبالجانب الخلقي حيث خلقه الله في أحسن تقويم، وزوده بالقدرة على العمل والتنفيذ والإبداع .

ولهذه الميزات العقلية والروحية والخلقية، كرم الله الإنسان أقصى تكريم ، وفضله على سائر مخلوقاته، وأسجد له الملائكة، وأناطه بالخلافة على الأرض: « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »⁽¹⁾ .

ومسألة الاستخلاف تعني تفويض الله سبحانه وتعالى الإنسان لقيادة الكون وإعمار الأرض طبيعياً واجتماعياً وفق التعاليم التي وضعها الله، والكفيلة بتمكينه من إحداث التفاعل الإيجابي بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان وأخيه الإنسان: >> فالخلافة الربانية استئمان على الكون والطبيعة والبشر، ولهذا وصقها القرآن

(1) البقرة ، 30 ، 31 ، 32 ، 33 ، 34 .

الكريم في إحدى آياته بالأمانة، فالإنسان الخليفة مؤتمن ... وجوهر الأمانة هو رعاية تلك القيم الخيرة التي ينطوي عليها المشروع الحضاري الإسلامي»⁽¹⁾ .
وحتى يتمكن الإنسان من الوفاء بمتطلبات الاستخلاف، سخر الله له الكون وهياه تهيئة متناسقة، وجعل قوانينه مناسبة لقدرات الإنسان، حتى يتحقق التفاعل الإيجابي بينه وبين الكون فينتج عنه عمران الأرض .

وأودع فيه كذلك القدرات العقلية والجسمية التي تكشف له أسرار الطبيعة ومجاهلها، وتيسر له مهمة تطويعها وتسخيرها لمنفعته، مما يجعل تعامله معها تعامل فيه التحدي والدأب والمكابدة، ولكنه منسجم معه، ليس فيه إعجاز أو استحالة، لأنه من اختصاص طاقاته وإمكاناته .

لذلك أعطى الإسلام للإنسان مكانة مركزية في الوجود، واعتبره قيمة حقيقية، وقوة للتغيير والحركة في الحياة. ووضع له الأسس التي تجعل منه: «> قوة فاعلة ، مفكرة، مريدة، منفذة، مستقلة، مفضلة ... الأمور التي لا بد منها لأي إبداع حضاري على الأرض»⁽²⁾ .

وفي ضوء هذه المكانة المتميزة التي خص بها الله سبحانه وتعالى الإنسان فوق الأرض، أجمع معظم علماء الإسلام المهتمون بدراسة مشكلات الحضارة على أن الإنسان هو موضوع المشروع الحضاري الإسلامي ومحوره المركزي، باعتبار أن الحضارة هي حصيلة تفاعل الإنسان مع الطبيعة في وقت معلوم، وأن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على صنعها، ولولاه لما وجدت حضارة فوق الأرض ، فهي من أجله ولإسعاده، لأن الإنسان هو العنصر الأول في المشروع الحضاري هدفا

(1) عبد الجبار ، محمد . ((رؤية السيد الصدر للمشروع الحضاري ، المنطلق ، ج 62 ، كانون الثاني 1990 ، الفيديري ، لبنان ، ص 90

(2) خليل ، د . عماد الدين ، العقل المسلم والرؤية الحضارية ، دار الهدى ، تونس ، د . ج . ص 13 .

وموضوعاً وأداة .

لذلك كان التركيز على أهمية الإنسان وبوره في استئناف حياة إسلامية جديدة، بعد أن تبين أن صنع التاريخ وإعمارهِ متوقف على حركة الإنسان، مما يؤكد أن تطور المجتمع وتقدمه لا يتم إلا إذا انصب الاهتمام على إعادة الاعتبار له، وجعله المحور الحقيقي للعملية التغييرية وإنشطة قيادة حركة البناء به، على أساس أنه المخلوق المكرم المستخلف الذي يمتلك قوة التغيير والإنتاج المستمر في الحياة ، مما يمكنه من تحقيق قفزات نوعية لإحداث التغيير المنشود في العالم الإسلامي اليوم .

وقد أكد أحد المفكرين الإسلاميين، أن ما تقوم به الدول الإسلامية من استيراد وتكديس للمنتجات التقنية الحديثة، بغية تحقيق التطور والتنمية المطلوبة، ليس هو الطريق الأمثل للخروج بالمجتمعات الإسلامية من وهدة التخلف، فما لم تركز مشاريع التنمية على تكوين الإنسان وتهنيئته وإعداده، بتغيير تركيبته النفسية البالية بمحتوى جديد يبعث فيه روح الحركة وإرادة التغيير، لن تستطيع عربية التطور أن تسير فوق سكتها الحقيقية لتبلغ هدفها: «> فالقضية إذن ليست قضية أدوات ولا إمكانيات، إن القضية كانت في أنفسنا، إن علينا أن ندرس أولاً الجهاز الاجتماعي الأول وهو الإنسان، فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ ، وإذا سكن المجتمع والتاريخ»⁽¹⁾ .

ومما تقدم، يتضح أن الإنسان هو العامل المركزي، والقاعدة الأساسية في أي مشروع تغييرى ، مما يستلزم الاهتمام الجاد بإعداده وتربيته ، وإيقاظ العوامل الإيجابية في نفسه ، وشحنه بفعاليته ، وشحنه بالطاقة اللازمة لدفعه نحو الحركة والبناء .

(1) ابن نبي ، مالك ، تأملات ، دار الفكر ، دمشق، سوريا ، د . ت . ص 125 .

الإنسان في الفكر الإسلامي الحديث

ومن هنا أولى الفكر الإسلامي الحديث اهتماما خاصا للإنسان، باعتباره وسيلة الفعل الحضاري وأداته، وأحد أبرز العناصر في المشروع الحضاري الإسلامي بل أهمها. لذلك ركز المجددون والمفكرون جهودهم في هذا المضمار، لتحرير الإنسان المسلم من القابلية للاستعمار، والعمل على إعداده وبنائه في الجوانب العقلية والروحية والسلوكية والجسمية، لتمكينه من تحقيق وعيه بذاته، وإطلاق ملكاته، والارتقاء بقابلياته، ليحسن القيام بدوره في البناء الحضاري.

وفي هذا الإطار، طرحت نظرية إسلامية ترى: «أن تغيير الواقع الفاسد والوصول إلى الهدف المنشود يتطلب إعادة صياغة الإنسان المسلم من خلال تحصينه بالتربية والعقل، وتعزيزه بالعلم وتمكينه بالإيمان، وتثبيته بالأخلاق وبهذا يصبح مستعدا للجهاد، وتغيير الواقع الفاسد»⁽¹⁾.

وقد كان الشيخ محمد عبده من أبرز المصلحين المحدثين الذين اهتموا بإصلاح الفرد استنادا إلى الآية القرآنية التي تدعو إلى تغيير النفس ليتغير - تبعا لذلك - المحيط الخارجي: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»⁽²⁾. فالنفس البشرية هي العنصر الجوهرية في كل مشكلة اجتماعية، وإصلاحها يتم عن طريق الإهتمام بالتربية لتحرير المسلم من كل ما يكبل عقله ونفسه من مظاهر التقليد، وأنواع الانحرافات العقدية، وتنويره بنور العلم الصحيح والاعتقاد السليم. وكان اقتناعه كبيرا بجدرى هذه السبيل التي خالف فيها أستاذة جمال الدين الأفغاني، الذي حدد جوهر المشكلة الإسلامية في فساد الحكام، ورأى أن حلها

(1) شفيق، منير، الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، دار البرق للنشر، تونس، 1991، ص 33.

(2) الرعد، 11.

يكن في القضاء على الأنظمة السياسية الفاسدة، ورسم حدود العدل بين الحاكم والمحكوم وفي ذلك يقول: «إني لأعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم كل همهم في السياسة، وإهمالهم أمر التربية الذي هو كل شيء وعليه يبنى كل شيء... إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الإسلام أكبر فائدة»⁽¹⁾.

ويندرج ضمن هذا السياق أيضا ما بذله الإمام حسن البنا من جهود لصياغة الفرد المسلم، انطلاقا من إيمانه العميق بأن التربية هي الوسيلة الهامة لتغيير الأمة وبناء المجتمع وتحقيق الآمال، واقتناعه بأن الإنسان وحده هو أساس التغيير ومحور الإصلاح والإصلاح. وكان منهجه في التربية قائما على فلسفة الإسلام، محدد الأهداف، واضح الخطوات، متكامل الجوانب، متنوع الوسائل والأساليب⁽²⁾.

وسارت الحركة الإصلاحية في الجزائر على الدرب نفسه، حينما التزمت بمبدأ تغيير الفرد تمهيدا لإصلاح حالة المجتمع الجزائري المتردية، متخذة من الآية القرآنية: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» منهاجا لها: «وإنها لشرعة السماء: غير نفسك تغير التاريخ! وعلى هدى هذه الكلمة بدأ الإصلاح الجزائري من النفس، هادفا في جوهره إلى تغيير الإنسان، فبعث فيه روحا وثابة، أشرقت معها بواصر النهضة الكبرى»⁽³⁾.

وكان أبرز قادتها وروادها الإمام عبد الحميد بن باديس يرى أن التربية التي تستند إلى العقيدة الصحيحة الخالية من البدع والضلالات، والقائمة على أساس

(1) عبده، محمد، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، جمع وتقديم: محمد عمارة، ج 1، المؤسسة العربية، 1974، ص 682.

(2) القرضاوي، د. يوسف، التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا، الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، 1980، ص 7، 8، 9.

(3) بن نبي، مالك، شروط النهضة، ص 32.

الفضائل الإسلامية، هي الكفيلة بإيجاد الفرد الصالح الذي يعمل على النهوض بالمجتمع الجزائري، وتخليصه من الكبتة التي وقع فيها ، لذلك رابط لمدة تقارب ثلاثة عقود معلما ومربيا، يبني الأفراد ويعد الأجيال بتزكية نفوسها، وصقل عقولها، وتطهير عقائدها، وتهذيب أخلاقها، وهو القائل: << فصلاح النفس هو صلاح الفرد ، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع ، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس ، إما مباشرة وإما بواسطة ، فما من شيء مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق والخير والعدل والإحسان إلا وهو راجع عليها بالصلاح ... فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب ، وإرسال الرسل، وشرع الشرائع >>⁽¹⁾ .

الإبراهيمي وأهمية الإنسان في التغيير

ومن الطبيعي أن يحذو الإبراهيمي حذو ابن باديس ومن تقدمه من المصلحين، وهكذا يستطيع المتصفح لكتاباتة أن يتبين الاهتمام الواضح بالإنسان كمحور للتغيير عنده. ذلك أنه كان يؤمن أن تغيير الواقع الجزائري الأليم، لا يمكن أن يتم إلا عبر تغيير الفرد، باعتباره اللبنة الأولى التي يقوم عليها المجتمع .

وقد أكد هذه الحقيقة حينما اعتبر الفرد محورا مركزيا، يتوقف عليه تقدم المجتمع وتأخره ، وعد ذلك من النتائج العلمية التي قررها علم الاجتماع البشري : << ومما علمناه من شؤون الاجتماع البشري أن الكمال في المجموع متوقف على الكمال في الأفراد، وأن النقص في المجموع مترتب على النقص في الأفراد فمتى أخذ الأفراد بأسباب الكمال وسلوكوا له وسائله كمل المجموع >>⁽²⁾ .

(1) ابن باديس ، عبد الحميد ، تفسير ابن باديس ، ص 107 .

(2) الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 139 .

وفي ذلك إشارة واضحة إلى القيمة الحقيقية التي يكتسبها الفرد في عملية التغيير، فهو المحرك الأساسي لمسيرة التطور والتقدم، ونقطة البدء الهامة التي يجب أن تنطلق منها. فمتى كان الفرد مستعداً للعطاء والإنتاج، قادراً على صنع التاريخ، تحرك معه المجتمع وسار نحو النهضة. أما إذا خمد الفرد وماتت فيه الفاعلية وفترت الإرادة، وقعد عن طلب الكمالات، أصيب المجتمع بدوره - والذي هو مجموعة أفراد - بالركود: « ومتى قعد الأفراد عن تعاطي أسباب الكمال فشلت النقائص في المجموع »⁽¹⁾.

ويقول في موضع آخر، مؤكداً أن كمال الأفراد هو الذي يعطي الأمة صفة الكمال والحيوية: « والكمالات - أيها الإخوة - كلما زادت في الأفراد كانت مزيداً في قوة حيوية الأمم، كذلك النقائص هي نقص في حيوية الأمم وقد تنتهي بالأمة إلى الفناء والعدم »⁽²⁾.

من هنا، عد الإبراهيمي تغيير الإنسان أساساً هاماً من الأسس التي يقوم عليها مشروع التغيير الحضاري. وكانت الوسيلة التي اعتمدها لإحداثها هي التربية التي سماها بالجهاد الأكبر، والتي تعمل على تغيير ما بداخل نفس الإنسان من أفكار وتصورات واعتقادات تتنافى مع مكانته في الحياة، وتتعارض مع عقيدته التي تدعوه دائماً لأن يكون سباقاً في ميادين العلم والعمل: « فأعلى مراتب الجهاد وأصله الذي تتفرع منه فروعه هو الجهاد في النفس حتى تستقيم على صراط الحق والفضيلة... والنفس البشرية كسائر الكائنات الحية يجب أن تتعاهد بالتربية الصالحة، وتراض على الفضائل والكمالات وإن شقت، حتى ترجع قابليتها للخير

(1) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 139.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 140.

على قابلية الشر»⁽¹⁾.

فجهد النفس وتنقيتها مما يعطلها عن أداء دورها الحضاري في الحياة ، بتحقيق معنى الخلافة عن طريق عمران الأرض، هو السبيل الأقوم الذي يمكنها من استعادة قدراتها وملكاها. والانتصار في ميدان جهاد النفس بتغييرها من الداخل نحو الأحسن والأفضل، شرط سابق للانتصار على العدو الخارجي، ومقدمة ضرورية وطبيعية له: «إننا لا نصدق الجهاد في عدونا الخارجي إلا إذا صدقنا - قبل ذلك وتوطئة لذلك - الجهاد في نفوسنا التي بين جنوبنا، جهادا يصفي أكارها، ويطهرها من المظالم الدنية والأغراض السخيفة، والشهوات الحيوانية، حتى إذا لقينا العدو الخارجي لقيناه بنفوس مطمئنة، وبصائر مستتيرة، وعزائم مصممة ، وقلوب متحدة على غاية واحدة»⁽²⁾.

وكانت الحكمة من الحملة العنيفة التي قادها الإبراهيمي وإخوانه العلماء ضد الطرقية، هي افتكاك الإنسان الجزائري من بين أنيابها، وتخليصه من سيطرتها التي ما فتئت تركز جهله وغفلته واستعباده واستغلاله ، وفي ذلك يقول الإبراهيمي موجها حديثه إلى زعماء الطرقية: «إن محل النزاع بيننا وبينكم هو هذا العامي ، نريد أن نحرره من استعبادكم ونطلقه من أسركم، وتريدون أن يبقى عبدا تستغلون خواجه ولا يستقيم لكم هذا منه إلا بجهله وغفلته»⁽³⁾.

وكان هذا العامي هو رأس مال الحركة الإصلاحية الذي كانت تراهن عليه لتكسب معركة الوجود ضد الاستعمار وضد التخلف، فتحطيم هيبة الطرقية من نفسه وتحريره من طغيانها الروحي والمادي، خطوة هامة نحو تغيير تركيبته النفسية

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 4 ، ص 217 .

(2) المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 217 .

(3) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 44 .

التي كانت تغلب عليها السلبية والانقياد .

وانطلاقاً من هذا الاقتناع الذي يقدم تغيير الفرد على تغيير المظاهر الخارجية، كان خطاب إبراهيمي الموجه إلى الشعب الجزائري بعد أحداث 8 ماي 1945 حاسماً، عندما وضعه أمام الأمر الواقع، ودفعه إلى أن يحسن اختيار السبيل التي يقرر بها مصيره: فإما أن يغير نفسه فيتغير وضعه، وإما أن يستكين له ويرضى به، فيظل مكبلاً بقيود الاستعمار: « لك الله - أيها الشعب المعذب - لقد هنت عليهم حين هنت على نفسك إنهم ما ضربوك إلا بعد أن جربوك، وما جرفوك إلا بعد أن عرفوك، وما جنوا عليك واتهموك إلا بعد أن قرعوك وفهموك، فلا تلمهم، ونفسك فلم ، وغيرما بنفسك وهلم... »⁽¹⁾.

وفي هذا الإطار الذي يركز على أهمية الفرد القصوى في التغيير، ربط إبراهيمي ربطاً محكماً بين الانطلاق الحضاري الذي يؤدي إلى عمارة الأرض بالخير والصلاح، وبين تغيير الإنسان على المستوى العقلي والنفسي. وقدم الأمر الثاني على الأمر الأول، باعتباره شرطاً أولياً لتحقيق العمران، مؤكداً مرة أخرى أن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على إعمار التاريخ، وهو النواة الصالحة لصنع الحضارة: « إن عمران الأرض متوقف على عمران العقول والنفوس »⁽²⁾.

الإبراهيمي وصياغة الإنسان الجزائري

وبناء على ما تقدم ، تتضح لنا المكانة التي يحتلها الفرد في تصور الإبراهيمي، ويتبين لنا الدور الحضاري المهم المنوط به، والآمال المعلقة عليه في دفع المجتمع إلى طريق التطور. وكان هذا الاقتناع هو الذي جعله يدعو إلى الاهتمام

(1) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 422 .

(2) الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ج 1 ، ص 230 .

بالفرد الجزائري، والعكوف على إعادة تربيته لتكوين الإنسان الصالح ، القادر على صنع الأحداث وتجاوز التحديات .

وجوهر العملية التربوية التي رسم الإبراهيمي معالمها في كتاباته، تتمثل في تغيير نفس الإنسان الجزائري بتخليصها من ركام الأفكار والتصورات التي تسيطر على ذهنيته، فتوجهها نحو الركود والتكاسل والرضى بالدونية، وإحلال الفكر النظيف، والأخلاق الفاضلة، والإرادة القوية محلها، وهو ما نعبر عنه بعملية الإفراغ ثم الملء، أو الهدم والبناء، أو ما يمكن أن نصلطح على تسميته بالتحريير والتنوير. وقد أشار إليها الإبراهيمي بقوله : « نهدم ونرفع الأنقاض ونبني ونعمر في أن واحد »⁽¹⁾.

وهذا الأسلوب التربوي أصل هام في منهج التربية الإسلامية، حيث كان وسيلة القرآن في تغيير النفوس التي لوثتها الوثنية، ومسلك الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، حينما كان يفرغهم من التصورات الجاهلية في الاعتقاد والسلوك، ويملأهم بالتوحيد. فكان الإبراهيمي في رؤيته الفكرية بالنسبة لتغيير الإنسان، امتدادا للتصور الإسلامي سواء في الهدف أو الوسيلة .

وستتحدث فيما يلي: وبشيء من التفصيل، عن عمليتي التحرير والتنوير اللتين يقوم عليهما منهج الإبراهيمي في تشكيل الإنسان الجزائري، وعلى الرغم من التحام العمليتين معاً، وتداخلهما وتشابك خيوطهما، إلا أننا سنحاول أن نتحدث عن كل واحدة منهما على حدة، حتى نتمكن من رسم صورة واضحة عن فلسفة التغيير عنده .

(1) الإبراهيمي ، ميون البساتير ، ص 290 .

أ - التحرير :

يرى الإبراهيمي أن ظهور الإسلام كان بمثابة ثورة تحريرية كبرى في جميع ميادين الحياة، وعلى كافة المستويات، سواء في عالم الضمير أو في عالم الواقع ، وأنه مارس تحريره الشامل للإنسان ليتمكنه من حمل أمانة الدين الخاتم، ويعدّه لأداء وظيفة الاستخلاف في الأرض التي خلق من أجلها: >> والتحرير الذي جاء به الإسلام شامل لكل ما تقوم به الحياة وتصلح عليه المعاني والأشخاص. والدين الإسلامي لا يفهم التحرير بالمعنى الضيق، وإنما يفهمه على أنه كل إطلاق من تقييد، أو تعديل لوضع منحرف، أو إنصاف لضعيف من قوي، أو نقل شيء من غير نصابه إلى نصابه >>⁽¹⁾.

فقد حرر الإسلام الإنسان من الخضوع المطلق لغير الله، فحطم بذلك جميع الأوثان الدينية والسياسية والاجتماعية، التي كانت قائمة في المجتمع. وحرره من عقدة الخوف، حينما وجهه إلى كتاب الكون المفتوح، ودعاه إلى تسليط فكره وحواسه عليه ليدرك خلفيات الظواهر الطبيعية، وانتظامها وأطوار سننها، فيتحرر فكره من سلطان الخرافات والأساطير التي كانت تزرع في نفسه الخوف من البرق والرعد والعواصف والظلام وما إليها. كما حثه على السير في الأرض لربط المقدمات بالنتائج والأسباب بالمسيبات، والنظر في تعاقب الحوادث واقترانها، ليتحرر من فكرة فوضى العالم التي كانت تصور له الكون غامضاً مجهولاً خاضعاً للصدفة العمياء.

هذا التحرير الذي مارسه الإسلام على مستويات النفس الإنسانية، منهج تربوي متميز في علاج الانحرافات التي تصيبه عندما يبتعد عن منبع الهدى، وتهجم

(1) الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج 4 ، ص 357 .

عليه الأفكار الطفيلية التي تشوش عليه وضوح الرؤية فيما يخص وظيفته في الكون وقد رآته على الإبداع .

وقد أكد الإبراهيمي النور الكبير الذي قام به القرآن الكريم في تحرير الأجيال الأولى من المسلمين من مختلف أنواع العبوديات لغير الله فقال: « حرر القرآن أرواحها من العبودية للأوثان الحجرية والبشرية. وحرر أبدانها من الطاعة والخضوع لجبروت الكسروية والقيصرية وجلا عقولها على النور الإلهي فأصبحت تلك العقول كشافة عن الحقائق العليا. وطهر نفوسها من أدان السقوط والإسفاف إلى الدنيا فأصبحت تلك النفوس نزاعة إلى المعالي مقدمة على العظائم»⁽¹⁾ .

وكان مقتنعا بضرورة تطبيق هذا الأسلوب التربوي على الفرد الجزائري ، بسبب إدراكه لخطورة وأبعاد الخراب الذي أصاب شخصيته في الصميم ، بتأثير قرون الانحطاط الطويلة التي أورثته الكسل والتواكل والجمود والتقليد، والاستعمار الفرنسي الذي سلب عليه عوامل الفقر والجهل والاحتقار والاستعباد، والطرقية التي ظلت تروج في أوساطه للخرافات والبدع والأضاليل، وتقتل فيه روح المقاومة وإرادة التغيير.

هذه التركيبة النفسية التي أنهكتها الأمراض، وحطمتها ظروف الاستعباد، وأسرتها الأفكار الانهزامية، هي التي استهدفتها عملية التحرير، وجعلتها موضوعا لها حتى تخلصها من عوارض السلبية والركود، وتطلقها من سجن القابلية للاستعمار⁽²⁾ الذي كانت رهينته .

وقد أشار الإبراهيمي إلى أن جمعية العلماء قد أدركت بعمق الأهمية التي

(1) الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج 1 ، ص 88 .

(2) بن نبي ، مالك ، وجهة العالم الاسلامي ، ص 83 .

تكتسيها النزعة التحريرية في العمل التغييري، فعملت في هذا الإطار على إشغال الفرد الجزائري من مظاهر الانحطاط المختلفة وكان لها فيها مواقف مشهودة : « وأول يد بيضاء لها في هذا الباب تحرير العقول من الأوهام والضلالت في الدين والدنيا، وتحرير النفوس من نأليه الأهواء والرجال، وإن تحرير العقول بحساس لتحرير الأبدان وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا »⁽¹⁾.

ويوضح في موضع آخر الانتصارات التي حققتها الجمعية في حملها التحريري على مستوى الفرد الجزائري، عندما خلصته مما كان يثقل كاهله من تصورات منحرفة، واعتقادات ضالة، وسلوكات ضارة: « وبأنها انتصرت في حملتها على الخرافات والأوهام والدجل، وانتصرت أو كادت في حربها للجمود والعوائد الضارة والتقاليد السخيفة - وبأنها أفلحت في تربية الأمة على عدم الخوف إلا من الله والرهبة إلا منه »⁽²⁾.

ثم يسجل في اعتزاز ثمرات المعركة التحريرية التي قادتها الجمعية، ويتحدث عن التغيير الشامل الذي شهده المجتمع الجزائري بعد حملات التطهير التي استهدفت النفوس: « بذلك التحرير العقلي الذي أساسه توحيد الله، تمكنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة، والمشارب المتباينة، والنزعات المتضاربة. وبذلك التحرير أيقظت في الأمة قوة التمييز بين الصالح من الرجال والصحيح من المبادئ، وبين الطالح والزائف منهما. وبذلك التحرير أراح الأمة من أصنام كانت تتعبد لها باسم الدين أو باسم السياسة »⁽³⁾.

والجدير بالذكر أن هذه الحركة التي اهتمت بتحرير الإنسان الجزائري قد

(1) إبراهيمي، عين البصائر، ص 34.

(2) إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير إبراهيمي، ج 1، ص 219.

(3) إبراهيمي، عين البصائر، ص 34.

اتسمت بالتكامل والشمول. فلم يركز الإبراهيمي في بيان معالمها على جانب واحد من جوانب الإنسان، بل أكد عليها جميعاً. فالتحرير يمتد إلى كافة المساحات وسائر المكونات النفسية الأساسية: العقلية والروحية والجسدية.

وسنكتفي هنا بالإشارة إلى اهتمام الإبراهيمي بتحرير العقل باعتباره جانباً من أهم الجوانب في النفس الإنسانية، إذ يرى الإبراهيمي أن الإسلام حرر العقل وهو أهم ما في الإنسان لأنه الأداة الفعالة التي تبذل وتسير، وتكيف سلوك الإنسان تبعاً لما تحمله من اعتقادات ومعارف.

ويبدو اهتمام الإسلام بالعقل من خلال القرآن الكريم الذي يبين أنه نعمة كبرى لا بد من استخدامها، فيقول تعالى في تذييل كثير من الآيات: «إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»⁽¹⁾. وفي هذا تمجيد للعقل، ودعوة إلى إقامة الحياة كلها على التفكير، لهذا كله: «حرر الإسلام العقل وجميع القوى التابعة له في النفس البشرية، والعقل هو القوة المميزة للمتضادات والمتناقضات التي بني عليها هذا العالم، كالصلاح والفساد، والخير والشر، والنفع والضرر، ولذلك جعل مناطاً للتكاليف الدينية والدنيوية»⁽²⁾.

ثم يشير الإبراهيمي إلى منزلة العقل العالية في الإسلام وأهمية دوره في فهم أسرار الدين وحقائق الكون فيقول: «والإسلام يعلو بتقدير العقل والفكر إلى أعلى درجة، ويقرر أن إدراك الحقائق العليا في الدين والكون إنما هو حظ العقول الراجحة والأفكار المسددة، وأن العقول المريضة والأفكار العقيمة تنزل بصاحبها إلى الحيوانية بل أحط من الحيوانية»⁽³⁾.

(1) الرعد ، 4 ، والروم ، 24 ، والنحل 67 .

(2) الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج 4 ، ص 357 .

(3) المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 357 .

وقد توجهت عناية الإسلام في أول الأمر نحو الآفة الكبرى التي أفسدت العقل وأطفأت نوره، وعطلت عمله، وهي الوثنية التي كانت تمارس تأثيراتها الظلامية على عقل الإنسان، وتهبط به إلى مابون قيمته التي كرمه الله بها: «أعلن الإسلام من أول يوم حرباً شعواء على الوثنية بجميع أنواعها، وهي أشد ما كانت سلطاناً على النفوس وتغلغلاً فيها، وإفساداً لفطرة الخير وإطفاءً لنورها، حتى اجتثها ومحا آثارها من النفوس والأفاق، وعمر مكانها بالتوحيد»⁽¹⁾.

وكانت الحكمة من وراء هذه الحملات: «هو تحرير العقل من نفوقها وسلطانها حتى يواجه أمانة الدين الجديد صحيحاً معافى، ويؤدي الوظيفة التي خلق لأدائها، وما هدم أصحاب محمد الأصنام بأيديهم إلا بعد أن هدم محمد الوثنية في نفوسهم، وبعد أن بنى عقولهم من جديد على صخرة التوحيد»⁽²⁾.

ولم تكن الحالة العقلية للفرد الجزائري تختلف كثيراً عما كان يعانيه الإنسان الجاهلي على الرغم من اختلاف وجهي المقارنة بينهما. فقد كانت الأمية ضاربة أطنابها في أوساط الشعب، والجهل مخيم بظلامه على العقول، ولم تكن هناك أصنام تعبد، بل حل محلها أضرحة الأولياء التي يتبرك بها العامة، فيتمسحون بأعتابها، ويكتحلون بترابها، ويقدمون لها القرابين، ويتوجهون إليها بالأدعية والتوسلات. وكان هناك مشائخ الطرقية الذين يعتقد فيهم الشعب القدرة على إتيان الخوارق، والاتصال بالله، وتحقيق الآمال وإنجاح الأعمال، وإلى جانب ذلك كله حشد كبير من الأوهام والخرافات، التي نزلت بالعقل إلى أسفل الدركات، وحجبت عنه حقائق الوجود، وأعمته عن رؤية واقعه المزري، وتمييز عدوه والوعي بذاته.

(1) الأبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 357.

(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 358.

فكان تحرير العقل الجزائري هدفا أساسيا برز بقوة في جهود الإبراهيمي النظرية والعملية، في محاولات جادة لتطهير الفكر من التقليد والجمود والخوف والجهل، الذي ظل يمارس تأثيره السلبي على الفرد الجزائري طوال قرون عديدة.

ب - التنوير :

وهو الشق الثاني من العملية التربوية، ويتكفل بمهمة الملاءمة أو البناء، ومعناه غرس القيم الفاضلة والأفكار النيرة في الإنسان، بعد تخليصه من الجوانب السلبية. وهي عملية تقتضي الصبر والمصابرة، وطول النفس، وحسن الإعداد، وفعالية الوسيلة .

وقد فصل الإبراهيمي هذا الأمر في مواضع عديدة، وتحدث بإسهاب عن الخطوات الهامة التي خطاها هو وإخوانه العلماء المجددون في سبيل تنوير الشعب الجزائري بعد المحاولات الجادة التي أُلحنا إليها سابقا، من طرح معظم ما كان يحول دونه ودون الإقبال على حياة جديدة، وكان هذا التنوير يقوم على: « تصحيح القواعد المعنوية من عقل وروح وفكر وذهن ، وتقوية المقومات الاجتماعية من دين ولغة وفضائل وأخلاق »⁽¹⁾ .

وتجربة الإصلاح التي خاضها ابن باديس وبذل فيها جهودا معتبرة في سبيل إعداد الفرد الجزائري منذ 1913 ، لها مكانتها الخاصة في عملية التنوير كما يرى الإبراهيمي: « الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه، والتعاليم الحقة التي كان يبثها في نفوسهم الطاهرة النقية، والإعداد البعيد المدى الذي كان يغذي به أرواحهم الوثابة الفتية. فما كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن

(1) الإبراهيمي ، عين البصائر ، ص 346 .

باديس مستكمل الأدوات من فكر صحيح وعقول نيرة ونفوس طامحة وعزائم صادقة»⁽¹⁾.

وتركت هذه المبادرة الجريئة أثرها الطيب في النفس الجزائرية، التي بدأت تحس بتغير شامل في تكوينها، وانفتحت أمامها أبواب واسعة من الأفكار والقيم التي لم تدرك أفاقها من قبل، وأصبح معظم الناس يفقهون: «أن المسلم لا يكون مسلما حقيقيا مستقيما في دينه على الطريقة حتى تستقيم اجتماعيته فيحسن إدراكه للأشياء وفهمه لمعنى الحياة وتقديره لوظيفته فيها وعلمه بحظه منها، وينضج عقله وتفكيره ويلم بزمانه وأهل زمانه...»⁽²⁾.

وفي هذا الإطار أيضا يرى الإبراهيمي أن الجمعية بعثت في الفرد الجزائري العزة بالنفس والشعور بالذات والأنفة من الذل والاستبعاد: «وياويح الجاهلين - يريدون من كلمة الإصلاح أن نقول للمسلم قل: لا إله إلا الله مدعنا طائعا وصل لربك أواها خاشعا، وصم له مبتهلا ضارعا وحج بيت الله أوابا راجعا، ثم كن ماشئت نهبه للنهاب، وغنيمة للفاصب، ومطية ذلولا للراكب، إن كان هذا ما يريدون فلا ولا قرّة عين - وإنما نقول للمسلم إذا فصلنا: كن رجلا عزيزا قويا عالما هاديا محسنا كسويا، معطيا من نفسك آخذا لها عارفا للحياة سباقا في ميادينها»⁽³⁾.

كما دعا إلى العمل على تثبيت هذه المبادئ والفضائل في النفوس بمختلف الوسائل والأساليب المتاحة، فيقول موجها حديثه للأئمة ورجال الدعوة: «وعليهم أن يمكنوا - ما استطاعوا - في نفوس السامعين معاني الشرف والرجولة وشرف النفس والاعتزان بالإسلام والعروبة، فإن الإسلام جاء لجميع ذلك، وإن سيرة رسول

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 115.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 215.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 216.

الله صلى الله عليه وسلم دائرة على ذلك، فالإسلام دين العزة والكرامة والشرف والفضيلة، فمن لم يكن بهذه الصفات فإسلامه ناقص بقدر نقصانه فيها وإن صلى وصام وحج البيت ماشيا»⁽¹⁾.

وحرص أيضا على أن ينشأ الجيل الجديد الذي أقبل على العلم في مدارس الجمعية على هذه المبادئ والأفكار الصحيحة، والشمائل الحميدة، حتى لا تتلوث نفوسه بالأمراض الاجتماعية التي لوثت نفوس آبائه. ففي معرض نصحه للمعلمين الأحرار يقول: «أنتم حراس هذا الجيل والمؤمنون عليه، والقوامون على بنائه، وأنتم بناء عقوله ونفوسه، فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة، وابنوا نفوسه على صخرة من الفضائل الإنسانية... ربوهم على التحاب في الخير، والتأخي في الحق، والتعاون على الإحسان، والصبر إلا على الضيم، والإقدام إلا على الشر، والإيثار إلا بالشرف، والتسامح إلا في الكرامة. ربوهم على استخدام المواهب الفطرية من عقل وفكر وذهن، وعلى صدق التصور وصحة الإدراك ودقة الملاحظة والوقوف عند حدود الواقع»⁽²⁾.

وعملية التنوير عند الإبراهيمي، تمس معظم الجوانب التي تشكل شخصية الفرد الجزائري، وسنكتفي هنا بالإشارة إلى الجوانب العقلية والروحية والأخلاقية والسياسية نظرا لأهميتها في تفعيل دور الفرد.

1 - الإعداد العقلي: تتشكل قضية إعادة صياغة العقل عند الإنسان الجزائري، أو تكوين عقل مرتب، متوازن، قادر على التفكير السليم والإبداع وصنع الحضارة، ضرورة قصوى وشرطا حاسما لاستكمال عملية التغيير عند الإبراهيمي.

(1) الإبراهيمي، عين البصائر، ص 316.

(2) المصدر نفسه، ص 299.

وتشمل عملية التكوين العقلي، إعداد وصقل قدرات الفرد، من إدراك وذاكرة وخيال وحفظ واستنتاج⁽¹⁾ وتدريب العقل على الرؤية الشمولية الكاملة، التي تربط الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، وتملك القدرة على التمييز بين آثار المشكلات وعملها، وتشجيع الميول العقلية وتوجيهها نحو أهداف تربوية واضحة ، كالميل إلى البحث والاطلاع، والتنقيب والابتكار وتقوية مهارات القراءة والكتابة ، والتفكير المنطقي المنظم، وتأسيس العقيدة على أساس الحجة القوية، والدليل الصحيح، واعتماد النزعة العقلية في معرفة حقائق الدين، ورفض التقليد والجمود، وتنمية الحس الاستدلالي والروح الاستقلالية .

ويوضح الإبراهيمي أن هذا الإعداد العقلي كان جزءا هاما من النشاط الإصلاحية الذي كان يمارسه مع إخوانه العلماء، وكان تركيزهم عليه قويا باعتبار أثره في الأمة، مما سبب انزعاجا للسلطة الاستعمارية التي رأت فيه خطرا داهما على وجودها: «و زاد في انزعاجها منها أنها حركة بناء للعقول والمدارس التي تربي العقول وأنها تعنى بالتربية والتعليم والتكوين والإعداد. وأنها تبني النتائج على مقدمات صحيحة . وأن الغاية الطبيعية لعملها هي إيجاد أمة تعرف كيف تطالب وممن تطالب وبماذا تطالب، ثم تصر على المطالبة ... ولا يزعج الاستعمار شيء مثل الإعداد والتربية»⁽²⁾.

كما كان في عمله التغييري يدعو إلى بناء العقول على أساس سليم بطلب الدليل الصحيح والحجة القوية، والتميز بالاستقلال الفكري، ورفض التبعية والنويان في الغير، وربط الأسباب بالمسببات، وقد التزم بهذه النزعة العقلية في تربية القرد

(1) محجوب . د . عباس ، مشكلات الشباب الحلول المطروحة والحل الإسلامي ، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، الدوحة ، قطر ، ط 2 ، 1406 هـ ، ص 112 .

(2) الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج 4 ، ص 172 .

الجزائري، وألح على تنشئة الأجيال عليه، ففي توجيهه للمعلمين الأحرار يقول: «بينوا لهم الحقائق، واقرنوا لهم الأشباه بالاشباه، واجمعوا النظائر إلى النظائر وبينوا لهم العلل والأسباب، حتى تنبت في نفوسهم من الصغر ملكة التعليل، فإن الففلة عن الأسباب هي إحدى مهلكات أمتكم، وهي التي جرت لها هذه الحيرة المستولية على شعوبها، وهذا التردد الضارب على عزائمها»⁽¹⁾.

وإذا ربطنا هذه النزعة العقلية في تربية الفرد بسياقها التاريخي، وعرفنا ما كان يعانيه الإنسان الجزائري آنذاك من شيوع التقليد والجمود، وانتشار الخرافة والأوهام، والقصور الحاد في تفسير ظواهر الكون، وعدم الأخذ بالأسباب والركون إلى التواكل، وضعف الهمم وموت الإرادة، أدركنا الدور الخطير الذي لعبته الدعوة إلى النزعة العقلية في تطوير الفكر الجزائري الحديث .

2 - الإعداد الروحي: وهو تزكية نفس الإنسان وتنقية سريرته، وغرس وتنمية المعاني الروحية فيها، كمعاني الإيمان بالله، والتقوى لله، والإخلاص له، والثقة به، والتوكل عليه، والرغبة منه والرغبة فيه، واستشعار رقابته، والإحساس بمعنيته، وتغذية الفرد بالشعور بالمسؤولية أمام الله، وترسيخ قيم الاعتزاز بالإسلام، والمحافظة على شعائره، واحترامها وتوقيرها، لأن الشعائر والعبادات من أعظم الوسائل في تربية النفس الإنسانية وتزكيتها.

والإعداد الروحي هو الذي يكوّن القلوب الحية، والضمائر اليقظة، المستعدة للقيام بالواجب في سبيل التغيير. لذلك احتفل به الإبراهيمي احتفالا كبيرا في كتاباته، وأولاه عناية خاصة، وشدد في مواضع عديدة على خطورته في إعداد الفرد الجزائري، وعظمه أثاره في الأمة.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 300

والعبادات في رأيه أثر جلي وواضح في هذه التربية الروحية، إذ هي بمثابة المدرسة التي تتناول المسلم بالتهذيب والإعداد، إذا هو فقه الحكم العديدة التي ربطها الإسلام بأدائها: « لكل عبادة في الإسلام حكمة أو حكم ... والحكمة الجامعة في العبادات كلها هي تزكية النفس وتطهيرها من النقائص الروحية وتصفيتها من الكدورات، وإعدادها للكمال الإنساني، وتقريبها للملا الأعلى، وتلطيف كثافتها الحيوانية »⁽¹⁾.

والمسجد هو المحضن الطبيعي الذي يتولى مهمة هذا الإعداد، وفيه يجد المسلم الجو المناسب الذي يفرس فيه مختلف المعاني الروحية، بالكلمة الهادية والموعظة الحسنة: « المسجد هو مرجع المسلم ومقلبه، فهو الذي يغذي الإسلام في نفسه ... وهو الذي يكونه ويوجهه، بما يصبغه به من ألوان ثابتة، وبما ينفض عليه من روحانية قوية، وبما يغشى في جوانبه من فضائل أصيلة، وبما يشيع في دخائله من أنوار وهاجة وبما يغرسه فيه من آمال شريفة، وبما يطبعه عليه من أخلاق قوية، وبما يخلطه له من سبل للسعادة، وبما يركبه فيه من استعداد للعزة والسيادة »⁽²⁾.

3 - الإعداد الخلقي: ويعني تحصين الفرد الجزائري بالأخلاق الإسلامية الأصيلة التي توارثتها الأمة جيلا بعد جيل، مهتدية فيها بكتاب الله وسنة رسوله الذي بعث مقمما لمكارم الأخلاق، وطرح كل ما لحقها من تشويه، وما تراكم عليها من رواسب عصور الانحطاط، وتنقيتها مما طرأ عليها من آثار الحضارة الغربية التي وفدت مع الاستعمار .

(1) الإبراهيمي ، عين البصائر ، ص 574 .

(2) المصدر نفسه ، ص 159 ، 160 .

فالصدق والأمانة، والإخلاص والوفاء، والشجاعة والعفة، والسخاء والإيثار،
والعفاف والحياء، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، والتعاون على البر
والقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام،
والإحسان إلى الجار، وإكرام الضيف وعزة النفس، والقصد والاعتدال كلها شمائل
محمودة، دعا الإبراهيمي إلى إحيائها في النفوس، وتعميمها على الأفراد، وتعميق
جذورها في المجتمع، حتى يتطهر من كل الرذائل التي تلتخ سلوك أفرادها، وتلوث
دخانهم، كالمادية والأنانية، واتباع الشهوات، والميوعة، والتحلل، والثرثرة الفارغة،
والفخر الكاذب، والنفاق، والأيمان الفاجرة وما إليها .

وكانت دعوته هذه نابعة من اقتناعه بالدور الخطير الذي تمثله الأخلاق بالنسبة
للأمم والأفراد، حيث كان يقول لتلاميذه: «إن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في
خبيته في الحياة من نقص في العلم، وإنما خاب أكثر ماخاب من نقص في
الأخلاق، فمنها كانت الخيبة ومنها كان الإخفاق»⁽¹⁾.

لذلك بدا من خلال كتاباته حريصا جدا على أن يحمي الأمة والشباب بخاصة
من كل مايتنافى مع فضائل الأخلاق، حتى يكون نظيف النفس، طاهر القلب،
مستقيم السلوك، مليئا بالحيوية، مقبلا على الحياة بإرادة قوية، وعزيمة وقادة :
«إن شباب الأمة هو الدم الجديد في حياتها، فمن الواجب أن يصبان هذا الدم عن
أخلاق الفساد، ومن الواجب أن يتمثل فيهم الطهر والفضيلة والخير ومن الواجب أن
تربى السننهم على الصدق وقول الحق، لا على البذاء وعورات الكلام»⁽²⁾ .
وكان ينبه رجال التربية بشكل دائم إلى واجبهم في تربية الأمة، وتخليصها

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 291 .

(2) المصدر نفسه، ص 49 .

مما يعيقها عن الانطلاق في الحياة بروح جديدة : « وعليهم أن يوجهوا عنايتهم إلى علاج الأمراض المتأصلة في الأمة، ومحاربة المنكرات الفاشية فيها، كالكذب والغيبة والنميمة والسعاية بالأخ والتجسس عليه، وكالسرقه والخمر والميسر، وكالآيمان الفاجرة وشهادة الزور، ويمين الطلاق وكالقطيعة والخصام والخلاف، وكالركون إلى الكسل والبطالة والسؤال مع القدرة على الكسب، وكتنقض العهد وخلف الوعد وخيانة الأمانة والبخل والإسراف في غير محله، وكانتهاك الحرمات والاستخفاف بالمحرمات، والجبن والخوف من غير الله »⁽¹⁾.

وقد استطاعت جمعية العلماء بتظافر جهود رجالها من تهذيب الفرد الجزائري ببعض الأخلاق الفاضلة التي جر عليها الدهر ذيل النسيان، وفقدها بتأثير التخلف والاستبداد الاستعماري. ويسجل الإبراهيمي هذه المآثر في اعتزاز قائلاً: « وإذا رجعنا إلى الأخلاق ... وجدنا تجاح الجمعية ظاهراً في جمهرة من الأخلاق الفاضلة غرستها في نفوس الأمة الجزائرية - فجمعية العلماء هي التي علمت الأمة خلق التضحية في الصالح العام وخلق الصبر عليه ومطاولته وخلق القصد في الاعتقاد والتفكير وخلق الاعتماد على النفس وخلق الصراحة في القول والجرأة في الرأي والكلام، إلى ما يتصل بهذه الأخلاق من فروع ولوازم »⁽²⁾.

4 - الإعداد السياسي: ونعني به تكوين الفرد الجزائري تكويناً سياسياً، يمكنه من القيام بدوره الحضاري في مواجهة تحديات الاستعمار الفرنسي المفروضة على الشعب الجزائري وذلك من خلال تقوية الوعي، والشعور بوجوب تحرير الجزائر من قبضته، والإعداد للاستقلال، وتعميق مفهوم الحرية في النفوس، وإعادة الاعتبار

(1) الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 316 .

(2) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 219 .

للهوية الوطنية، والتأكيد على البعد الوحدوي للأمة الجزائرية، وتعزيز الانتماء للأمة العربية الإسلامية، ومحاربة مظاهر الإدمان والتجنيس، وكشف حقيقة الاستعمار الفرنسي وأهدافه الصليبية، ووسائله وأساليبه الخبيثة، وفضح عملائه وأعدائه، ورد شبهاته وأباطيله التي ينشرها في أوساط الشعب⁽¹⁾.

وقد حظي الإعداد السياسي باهتمام الإبراهيمي في فكره ونشاطه على السواء، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، حيث حرص على بناء فرد جزائري قادر على مواجهة الاستعمار، لتحرير الجزائر منه، وكانت له مواقف مشهودة وجريئة مع السلطة الاستعمارية، بحيث لم يجاملها، ولم يهادنها، ولم يسالمها وظلت كتاباته حرباً على الوجود الفرنسي في الجزائر حتى آخر لحظة.

ويصور الجهود التي بذلتها الجمعية لتوعية الشعب بذاته وإشعاره بكيانه وعزته، وتنبيهه إلى ضرورة إدراك العلاقة العدوانية التي تربطه بالاستعمار، ليهيء نفسه لانتزاع حقوقه المفقودة منه فيقول: «وقد نجحت الجمعية إلى حد بعيد في إفهام الأمة هذه المعاني الاجتماعية وتوجيهها إلى مجاراة السابقين، وتهيتها لأن تكون أمة عزيزة الجناح مرعية الحقوق ثابتة الكيان محفوظة الكرامة صالحة للحياة مساوية للأحياء - وفي إعلامها أن بغى القوي على الضعيف قد طمس معالم الحق بينهما وردهما إلى نوع من الحيوانية كالذي بين الذئب والخروف، حتى أصبحت الاستطالة في الأقوياء طبيعة والاستكانة في الضعفاء طبيعة، وإن طبيعة الأولين لا تتبدل إلا بعد تبدل طبيعة الآخرين وإن الحقوق التي أخذت اغتصاباً لا تسترجع إلا غالباً»⁽²⁾.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، مجموعة المقالات السياسية.

(2) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 215.

ويتضح مما سبق، أن صياغة الإنسان الجزائري المتوازن الفعال - عند الإبراهيمي - تنطلق من تحريره من الداخل من مظاهر العبودية والانهازم والتبعية ، ومن أشكال الخوف والتواكل وسقوط الهمة، وتنتهي بتنويره بالفكر السليم والخلق القويم والروح الوثابة، والوعي السياسي حتى يتمكن من مواجهة جميع التحديات الداخلية والخارجية التي تعترض الأمة، والقيام بدوره الرسالي المنوط به في عملية التغيير والبناء .

بين التربية والسياسة

وظل هذا المبدأ الذي يعتمد على تربية الفرد لإحداث التغيير الخارجي، هو رائد الإبراهيمي في معركة التغيير التي خاضها في الجزائر، مما جعله يدخل في صراع مع الأحزاب السياسية التي تبنت مبدأ المطالبة بالحقوق السياسية للشعب الجزائري سبيلا لتحريره .

وقد عايش الإبراهيمي هذه الأحزاب، وخبر أساليبها في التعامل مع الشعب، وأطلع على برامجها، وعرف رجالها عن قرب، فلم يجد عند معظمهم شيئا يقدمونه للأمة، سوى شعارات جوفاء وخطبه رنانة، وحديث عريض عن الحقوق السياسية ، بينما عامة الشعب تعيش حالة مزرية من الانحطاط في العقائد والأخلاق والفكر .

فكانت نقطة الخلاف بينه وبين رجال السياسة، تكمن في اعتقاده أن التربية هي السبيل الأمثل إلى إيجاد الفرد الجزائري الواعي والمسؤول، بينما ركزت الأحزاب السياسية على المطالبة بالحقوق السياسية، وأهملت عملية التربية : « إن جمعية العلماء تعمل لسياسة التربية لأنها الأصل، وبعض ساستا - مع الأسف - يعملون لتربية السياسة، ولا يعلمون أنها فرع لا يقوم إلا على أصله »⁽¹⁾.

(1) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 45 .

فالأصل عند الإبراهيمي، هو إحياء مقومات الأمة التي حاول الاستعمار طمسها، وتبصيرها بها حتى تشعر بكيانها، وتتفقه معنى وجودها، لتستطيع أن تقوم بدورها الرسالي، أو بعبارة أخرى تغيير الفرد من الداخل، حتى يتغير محيطه الخارجي، وهو الأمر الذي تجاهلته الأحزاب أو جهلته، ويرى مالك بن نبي أن هذا المنهج الذي يعمد في علاج تخلف الأمة إلى الاهتمام بالفرد وتربيته « هو الشرط الجوهري لكل تحول اجتماعي رشيد »⁽¹⁾.

وقد أحس الاستعمار بالخطر يزحف على وجوده من خلال حركة جمعية العلماء التربوية، وقدرها حق قدرها، فاعترض طريقها بمختلف الأساليب، حينما استشرف نتائجها فرأى فيها تمهيدا لترحيله من البلاد، بينما جهلت بعض الأحزاب الجزائرية آنذاك أبعاد وخطورة هذا العمل التربوي الذي كانت تمارسه الجمعية، لذلك قال الإبراهيمي: « إن الاستعمار لأفقه وأقوى زكاة⁽²⁾، وأصدق حدسا من هؤلاء حين يسمي أعمال جمعية العلماء سياسة، وما هي بالسياسة في معناها المعروف ولا قريبة منه، ولكنه يسميها كذلك لأنه يعرف نتائجها وأثارها وأنها اللباب وغيرها القشور، ويعرف أنها إيجاد لما أعدم، وبناء لما هدم، وزرع لما قلع، وتجديد لما أتلّف، وفي كلمة واحدة، هي تحد صارخ لأسلوبه »⁽³⁾.

ويؤكد الإبراهيمي على ظاهرة إهمال الأحزاب لقضية التربية، ويسجل أنها ليست خاصة بالأحزاب الجزائرية فقط، بل هي شاملة لمعظم الأحزاب السياسية في الوطن العربي كله، ونظرا لقصور نظرتهم في هذا المجال، كان فشلهم في تحقيق المطالب المشروعة لشعوبهم: « إننا نعد ضعف النتائج من أعمال الأحزاب في هذا

(1) بن نبي، مالك، شروط النهضة ص 30.

(2) زكاة، علما، ويقال: زكّنت منك كذا إذا علمته (ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، ج2، ص 17).

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 45.

الشرق العربي كله أتيا من غفلتهم أو تغافلهم عن هذه الأصول، ومن إهمالهم لتربية الجماهير وتصحيح مقوماتها، حتى تصبح أمة وقوة ورأيا عاما وما شاء الحق. ومن ترويضهم إياها على لفظ الحق قبل اعتقاد استحقاقه، وعلى لفظ الخصم قبل إحضار الحجة، وعلى لفظ العدو قبل أخذ الحيطة»⁽¹⁾.

ثم يضرب لذلك مثالا بالأحزاب السياسية المصرية، التي كان لها سبق في ميادين النضال السياسي، إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تقع في الجهل نفسه الذي وقعت فيه باقي الأحزاب العربية : « ثم جرت الأحزاب المصرية إلى الآن على ذلك المنهج: إهمال شنيع لتربية الأمة وتقوية مقوماتها، وتطاحن أشنع على الرئاسة والحكم، وترديد لكلمة الوطنية دون تثبيت لدعائمها، وتغن بمصالح الوطن وهي ضائعة، وترام بالتهم، والجريمة عالقة بالجميع، وتقديس للأشخاص والمبادئ مهدورة، والاستعمار من وراء الجميع يضحك ملء شذقيه، وينام ملء عينيه»⁽²⁾.

لهذا حرص الإبراهيمي على تنبيه الطلبة من خطر الوقوع في حبال السياسيين، وحذرهم من الجري وراء شعاراتهم، وإهمال طلب العلم الذي يرى فيه السبيل الوحيد الذي يمكن الشعب الجزائري من الانفلات من الإستعمار وويلاته : « العلم ... العلم أيها الشباب لا يلهيكم عنه سمسار أحزاب ينفخ في ميزاب، ولا داعية انتخاب، في المجامع صخاب، ولا يلفتكم عنه مطل بسراب ولا حاو بجراب، ولا عاو في خراب يأتّم بغراب ... فكل واحد من هؤلاء مشعوذ خلاب وساحر كذاب، إنكم إن أطعتم هؤلاء الغواة، وانصعتم إلى هؤلاء العواة، خسرتم أنفسكم وخسرتم وطنكم، وستندمون يوم يجني الزارعون ما حصنوا ولات ساعة

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر ، ص 46 .

(2) المصدر نفسه ، ص 46 .

ندم»⁽¹⁾.

فالعلم الذي يحرر العقل وينور النفس، هو الذي يمهّد لتحقيق الاستقلال وكان إبراهيمي مؤمنا إلى حد بعيد بهذا المبدأ، مقتنعا بجذواه، ومستبشرا بآثاره الإيجابية في الشعب الجزائري. من هنا نفهم ثورته وحدة لهجته وهو يرد على الأحزاب السياسية التي تطلق استقلال البلاد بالحصول على الحقوق السياسية : «إنها - والله - لجريمة يقيم بها مرتكبوها الدليل على أنهم أعداء للعلم، وقطاع لطريقه، أم يقولون (لا علم بدون استقلال) فيعاكسون سنة الله التي تقول (لا استقلال بدون علم) ؟»⁽²⁾.

إن اندلاع الثورة التحريرية في الجزائر، دليل قوي على أن الإصلاح قد أُنِع وأتى أكله طيبا في الذات الجزائرية، فقد كانت : «نهضة الجزائر المسلمة واحدة من تلك النهضات القليلة التي توافرت لها شروط النهضة الموضوعية في عالمنا الإسلامي، لقد بدأت النهضة مسارها من تلك النقطة التي يجب أن تكون المحاطة⁽³⁾ الأولى لكل نهضة، وهي نقطة التغيير من الداخل، أي تغيير كيان الإنسان المتهدم .. وبناء كيان عقلي ووجداني جديد له»⁽⁴⁾.

ومما لا شك فيه، أن إبراهيمي قد استفاد كثيرا من تجربة التغيير الحديثة في العالم الإسلامي، فلم ينتهج أسلوب العمل السياسي وحده لتوعية الفرد الجزائري كما فعل جمال الدين الأفغاني، ولم يكتف بالأسلوب التربوي كما فعل

(1) إبراهيمي، عين البصائر، ص 350، 351.

(2) المصدر نفسه، ص 50.

(3) المحاط : المكان يكون خلف المال والقيم يستدير بهم ويحيطهم (ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، ج 2، ص 368).

(4) عويس، د. عبد الحليم، ((الشيخ إبراهيمي وجهوده في الإصلاح الديني في الجزائر))، الثقافة، ع 87، ص 357.

محمد عبده بل استطاع أن يجمع بين العمل التربوي والسياسي، وأن ينظر إلى عملية التغيير نظرة شمولية متكاملة، وبذلك تمكن من تقديم إضافات عملية وفكرية هامة في بناء الإنسان .

ولعل التحديات والضعف التي كان يمارسها الواقع الجزائري عليه جعلته يختلف كثيراً عن غيره من رموز الإصلاح في العالم الإسلامي، وفرضت عليه نوعاً معيناً من التغيير بسبب الوضع المناهض الذي كان يعيشه الشعب الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي.

الباب الثاني

منهج التغيير عند الإبراهيمي

الفصل الأول: إطاره وخصائصه

الفصل الثاني: قواعده وشروطه

الفصل الثالث: أهدافه وغاياته

الفصل الرابع: وسائله وأساليبه

الفصل الأول
إطاره وخصائصه

إن التغيير هو الانتقال بالمجتمع من وضع ردي، متخلف إلى حالة أفضل في مرحلة معينة من تاريخه، وفي رقعة جغرافية محدودة، وعلى كافة المستويات، عن طريق تجاوز مجموعة من التحديات والعوائق التي تقف في طريقه، وفق منهج معين للتغيير، يقوم على مجموعة من الخطوات العملية المدروسة .

وسنخصص هذا الفصل للحديث عن منهج الإبراهيمي في التغيير، من خلال علاقته بالإطار الزمني والمكاني، والتحديات التي فرضها هذا الإطار، ثم نحاول الإلمام بأبعاد الخطة العملية المرسومة لتغيير المجتمع الجزائري، ودراسة بعض الخصائص التي تميز منهجه.

أولاً: الإطار الزمني والمكاني

لكل حركة تغييرية إطار زمني، يمثل مرحلة من مراحل التاريخ لأمة من الأمم تتحرك فيه، وتحكمه خصائص معينة، وآخر مكاني تحده حدود معينة، وتحكمه ظروف جغرافية خاصة. وعملية التغيير مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالإطار الزمني والمكاني، فهو يفرض عليها شكلاً معيناً من أشكال التغيير، ونوعاً خاصاً من أنواع التحديات، ويسهم في رسم أهدافها وتحديد مواقفها ووضع برامجها.

والإبراهيمي يرى أنه لا بد من اعتبار الزمان والمكان وما يترتب عليهما، ويتمخض عنهما في عملية التغيير، لأن مراعاة عاملي الزمان والمكان يدل على وعي تام وعميق بالأبعاد التي تكتسبها عملية التغيير «إن أقصر الناس نظراً من يسقط في حكمه على الأشياء اعتبار الزمان والمكان، والفاعل والقابل والأوضاع

الخصوصية»⁽¹⁾.

ولكي تتضح أهمية الإطار الزماني والمكاني في عملية التغيير، سنحاول فيما يلي التعرض لهذه القضية من خلال النشاط التغييري الذي مارسه إبراهيمي.

أ- الإطار الزماني:

استغرقت دعوة إبراهيمي إلى التغيير، مايزيد عن أربعة عقود كاملة. بدأت منذ عام 1920 إثر عودته من دمشق، وانتهت بوفاته عام 1965، وخلال هذه السنوات، حاول إبراهيمي أن يستفيد من عامل الزمن إلى أقصى الحدود، وأن يحدد الأولويات ليضمن للعملية التغيرية سيرها الطبيعي نحو الهدف المنشود. وقد شهدت هذه الحقبة الزمنية التي استغرقتها حركة التغيير أحداثا جسيمة، كان لها وقعها الخاص في مسيرة التغيير، كما كان لبعضها أثر قوي، دفع بالمسيرة خطوات هامة إلى الأمام، حيث تميزت هذه المرحلة بظهور عدة قضايا كبرى مثل: نشوء الحركة الإصلاحية عام 1925، وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931، وظهور الأحزاب السياسية في الجزائر، وقيام الحرب العالمية الثانية، وحوادث 8 ماي 1945، ثم اندلاع ثورة التحرير الكبرى عام 1954، واستقلال الجزائر عام 1962. وكان الصراع الثقافي والسياسي وأخيرا العسكري، قد بلغ أشده خلال هذه المرحلة بين الحركة الوطنية بشقيها الثقافي والسياسي وبين الاستعمار الفرنسي.

ولعل أخذ زمام المبادرة وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حتى تتولى مهمة التغيير في إطار جماعي منظم، غداة احتفال فرنسا بالعيد المئوي

(1) إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير إبراهيمي، ج 1، ص 214.

لاحتلال الجزائر، يدل دلالة قاطعة على الوعي التام بأهمية عامل الزمن في التغيير، والاستفادة القصوى من اللحظة التاريخية الحاسمة في إنجاز المهام الكبرى.

فلو أن تأسيس الجمعية تأخر سنوات بعد ذلك، لكانت فرنسا قد استكملت مخططاتها الاستثنائية التي قادته للقضاء على مقومات الشخصية العربية الإسلامية للفرد الجزائري، والهوية الحضارية للأمة الجزائرية، ولما بقي في الجزائر من يسمع أصوات العلماء المصلحين، ويستجيب لدعواتهم ويتأثر بأفكارهم، كما أشار إلى ذلك الإبراهيمي عندما قال: «لو تأخر وجود الجمعية عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا، ولو سلكنا سبيلا غير الذي سلكناه في إيقاظ الأمة وتوجيهها في السبيل السوي لما قامت هذه الثورة الجارفة في الجزائر، التي بيضت وجه العرب والمسلمين»⁽¹⁾.

وقد راعى الإبراهيمي في حركته التغييرية المراحل الطبيعية التي تتطلبها الظروف والتحديات القائمة، فتدرج بالأمة من مرحلة التوعية والتعريف، إلى البناء والتكوين، الذي أفضى إلى مرحلة الصراع والمواجهة الشاملة مع الإستعمار. مما يدل على أنه سار بالأمة سيرا طبيعيا، ولم يسقط في متاهة حرق المراحل، واستعجال الثمرات، لإدراكه أن للزمن دوره الأساسي في إنضاج عملية التغيير وتحقيق نتائج نوعية.

ثم إن وقوع الاختيار على طريقة التربية التي تركز على تغيير الفرد من الداخل، وإعادة بناء شخصيته وتهذيبه وإعداده لصنع الأحداث، يوحي هو أيضا بحسن استغلال العامل الزمني، باعتبار أن الاهتمام بتكوين الفرد كان هو دائما

(1) الإبراهيمي، وأنا،، القفلة، ع 87، ص 31

السييل الأمثل لإحداث التغيير، والنهج السليم الذي يتمخض عن نتائج مضمونة في هذا المجال.

إن أربعة عقود في عمر الأمم زمن قصير لا يعتد به في إنجاز نهضتها، إلا أنها كانت بالنسبة للإبراهيمي وإخوانه مدة كافية لانتشال الأمة الجزائرية من سقوطها الحضاري، وتحريرها من العدو الخارجي . غير أن الذي ميز سنوات التغيير عن غيرها، هو أنها كانت مشحونة بالجهود الضخمة، والأعمال الجبارة، والمواقف المشهودة، والتعبئة الواسعة والتضحيات الجسام، والإعداد التام، والتخطيط الواعي، والنص الذي بين أيدينا دليل حي على الاستقلال الأمثل لعامل الزمن، يقول الإبراهيمي: «كنت أقوم للجمعية بكل واجباتها، وأقوم للجريدة بكل شيء حتى تصحيح النماذج، وأكتب الافتتاحيات بقلمتي، وقد تمر الليالي نوات العدد من غير أن أطعم النوم، وقد أقطع الألف ميل بالسيارة في الليلة الواحدة، وما من مدرسة تفتح إلا وأحضر افتتاحها وأخطب فيه، وما من عداوة تقع بين قبيلتين أو فردين إلا وأحضر بنفسني وأبرم الصلح بينهما، وأرغم الاستعمار الذي من همه بث الفتن»⁽¹⁾

ب - الإطار المكاني

إن الجزائر هي المكان الذي مارس فيه الإبراهيمي عمله التغيير، وقد كانت ترزح تحت نير الاستعمار الذي مكن لنفسه فيها، وأخضع مواردها البشرية والمادية لخدمة المعمرين والدولة الفرنسية، وسلط على شعبها جميع أنواع القهر والإذلال والاحتقار والاستعباد، وفرض عليه واقعا بائسا من الفقر المدقع، والحالة الصحية المتردية، والجهل المتفشي، وكان يعتقد أن قضية الإسلام في الجزائر قد

(1) الإبراهيمي، «أنا والثقافة»، ع 87، ص 29

انتهت إلى الأبد ، وأن هذه البلاد صارت قطعة من فرنسا. وهذا يعني أن هناك تحديات كبيرة تواجه أي مشروع تغييري يهدف إلى افتكاك الأمة الجزائرية من برائن هذا الاستعمار.

وكان بإمكان الإبراهيمي أن يختار بدل الجزائر أماكن أخرى يباشر فيها نشاطه التغييري، مثل الحجاز التي تعلم فيها ومكث بها سنين طويلة، وتعرف على علمائها الذين رشحه بعضهم للتعليم بالمسجد النبوي اعترافا له بقيمته العلمية. ومثل دمشق التي أمضى بها أكثر من أربع سنوات، لقي خلالها حفاوة كبيرة من علمائها ورجال السياسة فيها، الذين عرفوا فضله فيؤووه مكانة مرموقة في المجتمع الدمشقي، وعهدوا إليه بالتعليم في ثانويتها الوحيدة آنذاك، وأعطوه مكان الصدارة في الجامع الأموي، يلقي فيه الدروس الدينية. وقد كانت دمشق في ذلك الوقت، قبله كثير من العلماء الذين هاجروا من الجزائر فرارا بدينهم من بطش فرنسا، واستقروا هناك، وكانت لهم جهود رائدة في مجال الإصلاح.

غير أن إيمان الإبراهيمي بقضية شعبه، الذي كان يعيش ظلما حالكا من الخرافات والجهل والضلالات، ويعاني قسوة الاستعمار ووحشيته، جعلته يفكر في تغيير هذا الواقع المزري منذ مرحلة مبكرة من حياته، عندما التقى بآبن باديس عام 1913 بالمدينة المنورة، وتدارسا هذا الواقع وتعاهدا على العمل لإخراج الأمة الجزائرية من أزمتها الحضارية.

وكان هذا الاختيار يستند إلى وعي عميق بأبعاده وخطورته. فقد كان الإبراهيمي يدرك ضخامة التحديات التي يفرضها هذا الاختيار وصعوبتها البالغة، ويعرف أن الواقع الجزائري متفرد في وضعه بالنسبة للبلدان الإسلامية الأخرى. فهو - وإن كان يشترك معها في طغيان الانحرافات الدينية، وانتشار الأوهام

والخرافات، وغلبة الجمود والتقليد على العقول - إلا أنه يزيد عليها بابتلائه باستعمار بشع من أشد وأخبث أنواع الاستعمار في العالم. وكان - إلى جانب ذلك - يؤمن أن الأولى بالمعروف وإسداء النصيحة هم الأقربون، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم عند انطلاق الدعوة الإسلامية، حيث بدأ بإنذار أهله وعشيرته الأقربين في مكة المكرمة.

كما أنه كان يهيم حبا بالجزائر، ويشعر بالارتباط الروحي الدائم بها، ويؤرقه الحنين الشديد إليها ويتلهف على العودة السريعة إلى أرضها، وحاديه في ذلك أن حب الوطن من الإيمان، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم - على الرغم من الانتصارات الباهرة التي حققها الإسلام في دار الهجرة - دائم الحنين إلى مكة كثير الذكر لها. يقول الإبراهيمي معبرا عن عميق حبه للجزائر: «ويمينا لو تبرجت لي المواطن في حلها، وتطامنت لي الجبال بقللها،⁽¹⁾ لتفتتني عنك لما رأيت لك عديلا، ولا اتخذت بك بديلا، وإذا كانت أوطان الإسلام كلها وطن المسلم بحكم الدين، فإن اختصاصك بالهوى والحب من حكم الفطرة السليمة، ولنا في رسول الله أسوة حسنة في حبه لمكة وحنينه إليها»⁽²⁾.

ويؤكد في موضع آخر هذا الإحساس الذي ملك عليه كيانه، والذي دفعه إلى الاستماتة في الدفاع عن وطنه، في ظروف حالكة مستلذا ما يلقي في ذلك من شدائد ومحن: «لن أنسى - يأم - أنك كنت لي مآخضة الغرس، ومأشطة العرس،⁽³⁾ فلا تنسي أنني كنت لك من عهد التماثم إلى عهد العماثم، ما شغلت

(1) قلة الجبل أعلا، والجمع قلل وقلال، وقلة كل شيء، أعلا (الفيومي، أحمد بن محمد بن علي القرني، المصباح للنير، ج 2، ص 515).

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر ص 486

(3) الغرس بكسر الغين شيء يخرج مع الجنين فخطه القابلة، والعرس بالكسر الزوجة، يريد أنه ولد وتزوج فيها، والولادة والزواج هنا بابا الحياء (الإبراهيمي عيون البصائر، ص 484)

عك إلا بك، ولا خرجت منك إلا عائدا إليك، لا تنسي أنني مازلت ألقى فيك الأذى
لذيذا، والعذاب في سبيلك عذبا، والنصب في خدمتك راحة، والعقوق من بعض
بفك برا، والحياة في العمل لك سعادة، والموت في سبيلك شهادة «⁽¹⁾

كما أن اختيار الجزائر لممارسة التغيير، وتركيز الجهود والأوقات عليها، نابع
من اقتناع الإبراهيمي أنه لكي تؤتي العملية التغييرية ثمارها الطيبة، يجب أن
تتحرك في مكان محدود، يتيح لها تحقيق الأهداف والغايات، وتكون من ثمة نقطة
انطلاق إلى أماكن أخرى، وقاعدة خلفية للتغيير فيها. لذلك لم يكن رجلا طوفا
مهاجرا ينتقل من مكان إلى آخر، باحثا عن الأرضية المناسبة للتغيير كما فعل
جمال الدين الأفغاني، الذي إستغرق جزءا هاما من حياته في الحل والترحال في
العالم الإسلامي، لنشر أفكاره الإصلاحية، بل أختار البيئة الجزائرية بكل
سلباتها وإيجابياتها، ومارس فيها تجربته التغييرية، يحدوه عزم قوي في النجاح.

ثانيا : التحديات

هي مجموعة العوائق التي تعترض عملية التغيير، وتمنعها من
السير الطبيعي، وتحول بينها وبين تحقيق أهدافها وغاياتها. وهذه التحديات
القائمة، هي في الحقيقة إفرازات لواقع معين، محكوم بالإطار الزمني والمكاني،
وهي نوعان:

ذاتية نابعة من داخل المجتمع، وخارجية مرتبطة بالقوى المعادية للأمة.
وكان الإبراهيمي مقتنعا أن كل جهد تغييرى يسعى إلى تحقيق أهدافه،
يأخرج الأمة من أزمته الحضارية، يجب عليه أن يحدد التحديات التي ستواجهه،

(1) الإبراهيمي، عمون البصائر، ص 484

والعوائق التي يفرضها عليه الواقع، حتى يتمكن من التغلب عليها وتجاوزها: «كان معقولا جدا أن الإصلاح الديني لا يطمئن به المضجع في هذه الديار ولا ترسخ جذوره إلا إذا مهدت له الأرض ونقيت، ولا بد بعد وجود المقتضيات من إزالة الموانع. وموانع الإصلاح بهذه الديار وعوائقه هي طائفة أو طوائف تختلف اسما وصفة وتتحد رسما وغاية»⁽¹⁾.

وفي هذا الإطار، اجتهد مع رفيقه ابن باديس سنة 1913 لتحديد التحديات الكبرى التي يعاني منها المجتمع الجزائري، وتقف سدا منيعا في وجه الإصلاح، فأجمعا على أن: «البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين أت من جهتين متعاونتين عليه وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه وديناه»⁽²⁾، وهما الاستعمار الفرنسي والطرق الصوفية: «والاستعماران متعاقدان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته ومظهرهما معا تجهيل الأمة لئلا تغيق بالعلم فتسعى في الانفلات، وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة»⁽³⁾. وسنتحدث فيما يلي عن هذه التحديات بشيء من الإيجاز.

أ - التحدي الاستعماري

يمثل الاستعمار تحديا خطيرا في المجتمع الجزائري، فهو قوة عسكرية أجنبية طاغية، فرضت وجودها على الشعب بالحديد والنار، ومارست سياسة التفتير والتجهيل، وتتبع أسلوب الاستيطان، تمهيدا لإبادة الشعب أو تحويله عن دينه ولغته، حتى يغدو قلعيا من الخدم والعبيد. ويصور الإبراهيمي الآثار العميقة

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 117.

(2) الإبراهيمي، وأنا، الثقافة، ع 87، ص 23.

(3) المصدر نفسه، ص 24.

التي تركها الاستعمار في المجتمع الجزائري فيقول: « ولكن عدوه كان أنفذ بصيرة في مكان القوة، فعلم أن سلاح المسلم هو دينه ويقينه، ثم علمه وماله فسلط على دينه عوامل المحو الظاهرة والخفية، ورمى يقينه بأسباب الشك الحسية والمعنوية وحارب علمه بالتجهيل ومحقق حاله بالفقير، وضرب بينه وبين مأزره في الشرق سورا محكما »⁽¹⁾.

وكان الاستعمار منذ أول يوم، حركة معادية تقف في وجه كل محاولة تستهدف تغيير الواقع الجزائري، حيث حارب المؤسسات الإسلامية المختلفة، وقتل وشرذ العلماء، وخاض الحروب الطويلة ضد حركات المقاومة الوطنية، والانتفاضات الشعبية، إبتداء بالأمير عبد القادر، وانتهاء بالحاج المقراني. ووقف بشدة في وجه محاولات الإصلاح والتجديد التي قام بها الرعيل الأول من المصلحين، في بداية هذا القرن وأجهضها.

وعندما نشأت الحركة الإصلاحية في سنوات العشرين ثم قامت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعدها عام 1931 كان لها بالمرصاد، حيث تابع العلماء بالسجن والتفريم، والاضطهاد، والمراقبة المستمرة، ومنعهم من إيصال كلمة الإصلاح للشعب وبحرمانهم من الدعوة في المساجد. وعطل جرائد الجمعية، وأغلق مدارسها، واعتقل معلميها. ونكل بأنصارها وألب عليها أعداءها من أبناء الأمة الذين يخالفونها في الرأي.

ولم يكن حظ الأحزاب السياسية الوطنية، التي أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن حقوق الشعب المهضومة، أحسن حالا من حركة الإصلاح. فقد ذاق زعمائها ومناضلوها الأمرين على يد الاستعمار، وتعرضت للحل، وصودرت

(1) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 229

جرائدها، وظلت مستهدفة بممارسات الزجر والتنكيل في محاولة استعمارية دائبة لخلق كل بوادر التغيير في المجتمع الجزائري.⁽¹⁾ ولعل اطلاع الإبراهيمي الواسع على تاريخ الجزائر، ومواقف الإستعمار الفرنسي من جميع الجهود التغييرية التي بذلت لإنقاذ البلاد. جعله يعي حجم وخطورة هذا التحدي الاستعماري، الذي يستلزم الإعداد البعيد للأمة الجزائرية، على كافة المستويات لتكون على موعد مع يوم الحسم النهائي.

ب - التحدي الطرقي :

يمثل التحدي الطرقي استعماراً روحياً داخلياً باتم معنى الكلمة كما يرى الإبراهيمي. فالطرق الصوفية المنحرفة هي التي نشرت البدع، والخرافات، والأضاليل، والأوهام التي غطت الوجه الحقيقي للإسلام، وحرفت العقيدة، وشوهت السلوك الإسلامي، واستعبدت الإنسان الجزائري، واستغفلته أبشع استغلال، وارتقت في أحضان الاستعمار الفرنسي، وتعاونت معه على تخدير الشعب وتنويمه.

ويكشف الإبراهيمي عن البصمات السوداء التي تركها هذا التحدي الطرقي في أعماق الأمة الجزائرية فيقول: «واستعمار روحاني يمثله مشائخ الطرق المؤثرون في الشعب والمتغفلون في جميع أوساطه، المتجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية، وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير وثقلت وطأته على الشعب حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد»⁽²⁾.

فقد كان التحدي الطرقي جبهة معارضة في وجه الحركة الإصلاحية، وعاملاً

(1) - الإبراهيمي وأنا، الثقافة، ع 87، ص 23.

مغرقا لحركة التغيير، وحليفا قويا للاستعمار في إسكات أصوات الحق، ويسبب هذا الموقف، دخل رجال الطريقة في صراع شديد مع العلماء المجددين، وبذلوا أقصى الجهود ليبقى الواقع الجزائري على ما كان عليه، خشية على مصالحهم ونفوذهم.

وقد استغرق هذا الصراع سنوات طويلة، وسجلت الصحافة العربية صفحات منه وانتهى لصالح الحركة الإصلاحية التي حررت الشعب ونورته، وعبّأت ليخوض معركة التحرير المصيرية.

ج - التحدي الشعبي :

يمثل الشعب الجزائري بركام السلبيات التي طبعت نفسيته على مر الزمان وتوالي النكبات، وخمود الحركة العلمية في القرون الأخيرة - تحديا قائما بذاته في وجه التغيير. ذلك أن الفكر الخرافي الذي صاغ ذهنه، ومظاهر الخوف المختلفة التي تحيط به من كل جانب، والفقر المدقع الذي يسحقه كل يوم، والجهل الذي يعميه عن تمييز الحق من الباطل، واليأس الذي شل حركته، وأقعده عن السعي، كل ذلك جعل منه شعبا ذليلا، مترددا، متواكلا ماتت فيه الهمم، وضعفت العزائم، وأصبحت استجابته لحركة التغيير أمرا في غاية الصعوبة.

ويتطلب هذا التحدي إدراكا خاصا لطبيعته وتفاصيله، ومحاولات جادة للبحث في أعماق الشعب عن بعض الجوانب الإيجابية، التي تفسح لحركة التغيير مجالا للتركيز عليها في سبيل إيقاظها، والانطلاق منها في عملية البناء الحضاري الشاملة.

وقد حدد الإبراهيمي هذا الجانب الإيجابي في الإنسان الجزائري بالاعتزاز بالعقيدة الإسلامية والتضحية في سبيلها، مهما كلفه ذلك من ثمن، فكان التركيز

عليه لبدء عملية التغيير: «فما أفاق على صوت الدعوة الجهير من جمعية العلماء - وهو أول صوت صك أذانه وفتح أذهانه - إلا وهو فقير من دينه ودنياه، جاهل بدينه ودنياه مفلس من عقله وفكره مسلوب من عزيمته وإرادته، ولكن بقي فيه مكن لم تمتد إليه يد الاستعمار وهو مكن الإيمان بالله وبالنفس، والعلاقة باللغة وبالجنس، وفي هذه المعاني عوض عن كل فائت وسلوى عن كل ضائع. وعلى هذه المعاني وضعت جمعية العلماء أساس أعمالها، ومن هذه النقطة بدأت السير إلى غاياتها»⁽¹⁾.

ثالثاً: خطة العمل:

لكل حركة تغييرية خطة عمل مدروسة، محددة المعالم، واضحة القسّمات، تعتمد عليها في تحديد الأهداف، ورسم الوسائل التي تمكنها من بلوغ غايتها. ووجود هذه الخطة أمر ضروري، يجب أن يسبق كل مبادرة عملية باتجاه التغيير، باعتبارها المنارة التي تضيء الطريق وتوضح معالمه، وتوجه الجهود، وترشد المبادرات، وتجنب المزالق والانحرافات، وترسم الأبعاد العملية لفلسفة التغيير. وقد وضع الإبراهيمي - بالاشتراك مع إخوانه العلماء - خطة عمل واضحة لتغيير المجتمع الجزائري، على كافة المستويات الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية. وكان يؤمن أن العمل الجماعي المنظم لا يستطيع أن يثمر ويؤثر، إلا إذا تحرك ضمن خطة مرسومة واضحة المعالم: «لا يطلق في هذا المقام - لفظ حركة في العرف العصري العام إلا على كل مبدئ تعتنقه جماعة وتتساند لتصورته ونشره والدعاية والعمل له عن عقيدة، وتتهيء له نظاماً محدداً وخطة مرسومة وغاية

(1). الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 229، 230.

مقصودة»⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس، تمت صياغة خطة عمل تغطي المرحلة الأولى من عملية التغيير، التي باشرها الإبراهيمي وإخوانه، مباشرة بعد تأسيس جمعية العلماء وسنورها هنا كنموذج موضح، وتتمثل خطوطها العريضة في ثمانية بنود: «1 - تنظيم حملة جارية على البدع والخرافات والضلال في الدين بواسطة الخطب، والمحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية والأماكن العامة والخاصة، حتى في الأسواق. والمقالات في جرائدنا الخاصة التي أنشأناها لخدمة الفكرة الإصلاحية.

2 - الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار في ما تصل إليه أيدينا من الأماكن، وفي بيوت الآباء، ربها للوقت قبل بناء المدارس.

3 - تجنيد المئات من تلامذتنا المخرجين، ودعوة الشبان المخرجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.

4 - العمل على تعميم التعليم العربي للشبان على النمط الذي بدأ به ابن باديس.

5 - مطالبة الحكومة برفع يدها على مساجدنا ومعاهدنا التي استولت عليها، لتستخدمها في تعليم الأمة دينها وتعليم أبنائها لغتهم.

6 - مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجزتها ووزعتها على معمرها، لتصرف في مصارفها التي وقفت عليها.

7 - مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشخصية مبدئياً.

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 115

٨ - مطالبة الحكومة بعدم تدخلها في تعيين الموظفين الدينيين»^(١) .

ويبدو من أول نظرة أن خطة العمل هذه تتمحور حول الإصلاح الديني والثقافي، باعتبارها أولويات في المجتمع الجزائري آنذاك. وكان الهدف منها تحصين جبهته الداخلية، عن طريق الثورة العارمة على البدع والخرافات والأضاليل، والعمل على تنقية الإسلام من الشوائب التي لحقت به عبر القرون، وإبرازه كما بدأ أول مرة، صافيا من الكدر، خاليا من التعقيد، وتجديده بتطهير العقيدة، وتصحيح العبادة، وتحرير المساجد، والأوقاف، والقضاء الإسلامي من قبضة الاستعمار.

كما ركزت أيضا على التربية والتعليم، لإحداث ثورة ثقافية في أوساط الشعب وإنقاذ الفرد الجزائري من الجهل والامية، وتشجيعه على الإقبال على العلم والتعلم، من خلال بناء المدارس والمعاهد، وتجنيد كل طاقات الأمة الحية القادرة على خدمة هذا الهدف.

وإذا كان الجانب السياسي - كما هو واضح - غائبا عن الخطة، فإن الأمر كان مقصودا من طرف جمعية العلماء، التي ارتأت أن تؤجل قضية الصدام مع السلطة الاستعمارية إلى ما بعد الإعداد والتكوين للجبهة الداخلية، حتى تتجنب الدخول في صراع غير متكافئ لم يحن وقته آنذاك. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان بعض قادتها يتبنون مواقف وآراء سياسية، ولكنهم يتحملون تبعاتها أمام الإدارة الاستعمارية بصفة شخصية، ولا يورطون الجمعية فيها.

وقد استمر النشاط الديني والثقافي يؤتى أكله في المجتمع الجزائري، حتى

(١) - الإبراهيمي، وأناة الثقافة، ج ٨٧، ص ٢٤

عام 1943، على الرغم مما شابه من تذبذب في بعض الفترات⁽¹⁾، إلا أن عودة الإبراهيمي من منفاه، وتوليّه الفعلي لرئاسة الجمعية، أعطى لحركة التغيير نفسها جديداً، تمثل في تكثيف العمل الديني والتربوي عن طريق بناء مئات المساجد والمدارس، وتأسيس جريدة البصائر الثانية، والدخول في مواجهة سياسية شديدة مع الاستعمار الفرنسي، بعد أن استقر في وعي الإبراهيمي أن الظروف ملائمة للانطلاق في حملة توعية سياسية شاملة، تعبئ الجماهير، وتحضرها للثورة، التي سوف تنهي الوجود الفرنسي في الجزائر.

والمتمصفح للمقالات التي كتبها الإبراهيمي في البصائر الثانية، يدرك التطورات التي طرأت على خطة العمل، والأبعاد الجديدة التي اكتسبتها مع مرور الزمن، وتغير الظروف. فقد خفت فيها وطأة الهجوم العنيف الذي استهدف رجال الطرق والبدع الدينية، والأوهام التي كانوا يروجون لها، وذلك بعد أن سقطت قلاع الطرقية، وذهبت هيبتها من النفوس واندثرت كثيرا من الخرافات التي كانت تعشش في الأذهان، وأصبح التركيز واقعا على التربية والتعليم، وبرز الجانب السياسي، الذي يتبنى مقاومة الاستعمار الفرنسي بوضوح، وكان ذلك متزامنا مع انتشار الروح التحررية في أوساط الشعب الذي وعى ذاته، وأحس بكيانه، وتعلم من الأحداث والمحن أن فرنسا لا تفهم إلا منطق القوة.

وفي عام 1952، أوفدت جمعية العلماء الإبراهيمي إلى المشرق العربي للسعي لدى بعض الدول العربية لاستقبال بعثات علمية من الشباب الجزائري، ليستكمل

(1) - تعرضت أعمال جمعية العلماء إلى اضطرابات كثيرة ومتعاقبة مع اندلاع الحرب العالمية الثانية حيث وضع رئيسها عبد الحسيد بن باديس تحت الإقامة الجبرية، ثم توفي، ونفي الإبراهيمي إلى أفقر، وتوقفت «البصائر» والشهاب» عن الصدور، وأغلقت الإستمعار الفرنسي الكثير من المدارس العربية الحرة والتراوي الإسلامية، وفرض رقابة شديدة على رجال الجمعية.

تكوينه العالي بها، وعندما قامت الثورة التحريرية الكبرى عام 1954، كان الإبراهيمي مقيماً بالقاهرة، فسارع إلى تأييدها ونصرتها، وطلب من أعضاء جمعية العلماء وأنصارها الالتحاق بها وبذل الجهود لتعزيز صفوفها.⁽¹⁾

وقد كلفته قيادة جبهة التحرير الوطني - بعد ذلك - بالدعاية للثورة الجزائرية في المشرق العربي، فاتصل بالرؤساء والوزراء العرب والمسلمين، وبعض الشخصيات البارزة، وزار العراق والحجاز وسوريا وباكستان، وغيرها، لجمع الأموال والأسلحة والمساعدات المختلفة، وللتعريف بالقضية الجزائرية عن طريق إلقاء المحاضرات، والدروس، والبرامج الإذاعية، وحضور المهرجانات، والحفلات، والتجمعات السياسية والثقافية المختلفة، وتنظيم الندوات الصحفية وما إليها.

ولعل كتاب «في قلب المعركة» الذي تولى أبو القاسم سعد الله جمع مادته من كتابات الإبراهيمي حول الثورة الجزائرية، دليل ساطع على مشاركته الفعالة في دفع عجلة الثورة إلى الأمام، والتعريف بها في العالمين العربي والإسلامي، وهو أيضاً رد قاطع على أولئك الذين ينكرون جهود جمعية العلماء بعامة، والإبراهيمي بخاصة، في تأجيج لهيب الثورة ضد الاستعمار في الجزائر، واسترجاع الأمة لحريتها واستقلالها.

وهكذا، بدأت خطة العمل عند الإبراهيمي وإخوانه بالإصلاح الديني والتربوي، وتم الاعتماد عليهما في المرحلة الأولى بهدف صياغة الفرد الجزائري، وشهدت المرحلة الثانية التركيز على العمل التربوي، والنشاط السياسي، بغية تحسيس الأمة الجزائرية بدورها الحضاري، وانتهت في المرحلة الثالثة بالمواجهة

(1) الإبراهيمي، في قلب المعركة، جمع وتصدر، د. أبو القاسم سعد الله، شركة دار الأمة، الجزائر، ط 1، 1994، ص 15، 19.

السياسية والعسكرية الشاملة ضد الاستعمار الفرنسي، من أجل تحقيق الاستقلال التام للشعب الجزائري .

وأبعا : الخصائص

بعد استقراءنا لكتابات الإبراهيمي، تبين لنا أنه رسم مجموعة من الخصائص والمميزات التي ينبغي الانضباط بها، حتى لا ينحرف مسار التغيير عن وجهته السليمة، ويؤتي نتائجها الإيجابية، وسنحاول فيما يلي التعرض لأهم هذه الخصائص وشرحها .

1 - الواقعية :

ونعني بها الانطلاق من الواقع المعيش للوصول إلى الحقائق، واتخاذ مجريات الأحداث في حياة الناس مصدرا أساسيا للنظر، وتحديد أساليب التغيير المناسبة للتحديات القائمة، وهذا يستلزم الابتعاد عن المثالية السلبية، والقولية النظرية الجامدة، التي تقود إلى العزلة والانغلاق. فالواقعية في التغيير، حركة واعية تنطلق من الفهم العميق والدقيق لواقع المجتمع الذي يراد تغييره، ثم تحديد الوسائل والأساليب الكفيلة بتحقيق ذلك التغيير.

وقد كانت جهود الإبراهيمي في مجال التغيير، تهدف إلى إحداث انقلاب شامل في التكوين النفسي، والاجتماعي للشعب الجزائري، لذلك انطلقت حركته من واقع هذا الشعب، وعمق معاناته، وأتاعبه اليومية، وكفاحه المتواصل، لإثبات هويته الحضارية وتحقيق كيانه.

فلم يتعامل - بناء على ذلك - مع المجتمع وحركة البناء فيه، من خلال الكتب والافتراضات البعيدة عن الحقيقة، بل غاص في أعماقه، وانخرط فيه إلى أبعد

الحدود⁽¹⁾، وإن كان ذلك لا يعني الخضوع له، ومحاولة تبرير انحرافه، بل كان القصد من وراءه استقصاء جذور علته، والكشف عن الأسباب الخفية الكامنة وراء مظاهر التخلف والسقوط الحضاري فيه.

ويستتبع ذلك وضع الخطط المنهجية التي تحكمها النظرة العملية، لمعالجة هذه المظاهر، ومحاولة تطوير هذه الخطط، وإخضاعها للمنطق العملي كلما تطلب الواقع المتحول ذلك.

وهذه هي الميزة التي طبعت واقعية الإبراهيمي، وميزت منهجه الذي كان يدل على وعي عميق بالتبدلات التي تطرأ على المجتمع الجزائري، بتأثير حركة النهضة القائمة، وريود فعل الاستعمار والجهات الداخلية المعارضة تجاهها. فكانت الخطط العملية الموضوعية لإحداث التغيير، تتبدل هي كذلك تبعاً لما يشهده المجتمع من تطور، فتستحدث أدوات جديدة، ووسائل مختلفة، تتماشى مع الواقع الجديد، مما أكسب حركة التغيير ديناميكية وحيوية، ضمنت لها السير الطبيعي وحفظت لها توازنها.

ومن مظاهر هذه الواقعية في المنهج التغييري عند الإبراهيمي، تقديمه لمحاربة الطرقية على مواجهة الاستعمار، فكان في بداية الحركة الإصلاحية شديد الهجوم على الطرقيين، مبالغاً في التشنيع بهم، وفضح أساليبهم حتى يصرف عنهم العامة، ويحرر الشعب من استغلالهم وتسلطهم الروحي، باعتبار الطرقية هي الداء العضال الذي استحكم في نفوس الناس، فأقعدوها عن كل الفضائل والصالحات.

وكان في هذه المرحلة، يحاول الابتعاد بقدر الإمكان عن الصدام مع السلطة

(1) الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 224 .

الاستعمارية، فيقول موجها حديثه لكتاب البصائر الأولى عام 1936: «علاقتنا بالإدارة الجزائرية»⁽¹⁾ علاقة صفو ومسالة بالتي هي أحسن، وخصوصا دائرتنا التي نعمل لها وهي العلم والدين، والنظر في هذه العلاقة وتحديدنا في الجملة من خصائص المجلس الإداري لجمعيتكم، وهو كما تعهدونه وفوق ما تعهدونه لا ينأ عن حق ديني أو علمي لهذه الأمة تخولها إياه القوانين والمبادئ الجمهورية، ولا يسكت حيث يجب النطق ولا يركب لمطالبه إلا المشروع المعقول من الوسائل ولا يئس من إنصاف الحكومة وعدلها»⁽²⁾

فلما استفرغت الحركة الإصلاحية الجهد من الطرقية، وظهرت آثار ذلك في المجتمع الجزائري بوضوح، انتقل الإبراهيمي إلى المواجهة الحادة مع الاستعمار، بعد أن تمت تعبئة الجماهير وتبصيرها بحقيقتها، وبنوعية العلاقة التي تربطها بالاستعمار. فكان توجيه الإبراهيمي للأئمة والوعاظ الذين سيتولون مهمة الدعوة في المساجد عام 1951 في البصائر الثانية على الشكل التالي: «وعليهم أن يشرحوا للامة «مظلمة القرن العشرين» وهي هذه المعاملة المهينة التي تعامل بها الحكومة دين الإسلام ومعابده وأوقافه وشعائره من حج وصوم، وإن أحق محل لهذه الدروس المباركة وما فيها من خير ورحمة وسلام هي بيوت الله لولا ظلم الاستعمار... وعليهم أن يجتنبوا الحديث في مآثرات الفتن، وفي البدع التي فرغت جمعية العلماء منها، فقد ضعف شأنها وفي إعادة الحديث عليها تقوية لها وإحياء»⁽³⁾.

(1) يقصد الإدارة الفرنسية المنتصرة في الجزائر إبان الاحتلال

(2) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 149

(3) - الإبراهيمي عيون البصائر، ص 316

وإن إطلالة سريعة على كتابات الإبراهيمي تكشف لنا الارتباط العميق لفكره، بالواقع الجزائري، ففيها حديث عريض عن المشكلات السياسية، والاجتماعية، والثقافية، وفيها تعبير شجي عن تطلعات الشعب وطموحاته، وتسجيل واقعي حي لمآسيه، وانتصاراته وآلامه وآماله.

2 - الثورية :

ونعني بها عدم مهادنة الأوضاع أو مسالمتها والركون إليها، وعدم مجارة الانحرافات والسكوت عنها، والعمل على بيان مساوي الواقع ونقائصه، وكشف مظاهر الاختلال فيه، والتنفير منه، وبعث الهمم نحو التغيير، وشحن الإرادات لتقبل على معالجة الأمراض النفسية، والاجتماعية، والسياسية، التي تشد المجتمع إلى الخلف وتعرقل تقدمه.

وقد كان الإبراهيمي في جميع كتاباته، ملتزما بقضايا أمته، مستجيبا لآمالها ومتطلباتها، متأثرا لمآسيها، يأسره الإحساس بالمسؤولية تجاه مجتمعه الذي يتخبط في مناهات التخلف والاستعباد، فكان في جميع أحواله ثائرا على الواقع الجزائري، منفعل بما يحدث فيه، يعبر عن ذلك الانفعال تارة في هدوء وسكينة، وتارة أخرى يصبح قلمه: « كالبركان يجيش بالغضب ويقذف بالنار، وتندفع جملة ومقاطعه كالحمم»⁽¹⁾، ليعبر عن عمق المعاناة الوجدانية للقضية الجزائرية.

والثورية عند الإبراهيمي، موقف شجاع من جميع الأوضاع المتردية التي تطبع المجتمع الجزائري، وجراحة كبيرة على رفضها، والدعوة الحارة إلى تجاوزها. فهو ثائر على مظاهر الجمود والتقليد، والتحجر العقلي، والأوهام والخرافات،

(1). فيصل، د شكري، وفضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، «الطاقة»، ع 87، ص 190

والجهل والامية، التي تشمل الفرد الجزائري وتعوقه عن الحركة.
كما كان ثائرا إلى أبعد الحدود على الطرق الصوفية المنحرفة التي كانت
تشكل بؤرة فساد في المجتمع الجزائري، والتي أسهمت في إشاعة الفكر
الخرافي والأسطوري، وتفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية، وإبعاد الأمة عن
مصادر الهداية الصحيحة المتمثلة في الكتاب والسنة، واستغلالها في القرون
الأخيرة أبشع استغلال، وتقديم آيات الولاء والطاعة لأعداء الأمة⁽¹⁾.

وكان موقفه من الاستعمار الفرنسي على درجة كبيرة من الانفعال الثوري
والتحدي السافرو والمقاومة الفكرية العنيفة. فقد سجل في كتاباته نماذج عالية من
المواجهة والنضال الصادق، ضد مؤامرات وجرائم السلطة الاستعمارية في حق
الشعب الجزائري، ولحقته بسبب هذه المواقف الثورية الشجاعة سلسلة من
الإجراءات الاضطهادية، التي عرضته للسجن والنفي والتعذيب والمراقبة المستمرة،
إلا أن ذلك كله لم يؤثر في توجيهه الثوري، ولم يحن رأسه للاستعمار، ولم ير منه
إلا قوة وجلدا وصمودا لا متهائيا.

لقد كان الإبراهيمي يمثل الفكر الحر الأصيل الذي لا يستطيع أن يقف على
هامش الحياة متفرجا، بل يحس في أعماقه بوجوب السير في المقدمة لصنع
الأحداث ودفع ركب الثورة، وتغذية طاقة الكفاح في نفوس الشعب الطامح إلى
التحرر، والمتطلع إلى القيادة الشجاعة التي تسير به في طريق المبادرة والمخاطرة،
فالكلمة الجريئة تحمل في طياتها شحنة من الانفعالات القادرة على تحريك

(1) - الفصل الأول من الباب الثالث من هذا البحث.

الإنسان، وشحذ فعاليته، وتفعيل دوره، من أجل إحداث التغيير المطلوب في حياة الأمة: «كل الثورات الشعبية مرت حتماً بمرحلة تعبئة وجدانية وغلbian فكري، تولى قيادتها جنود القلم والكلمة مستبسلين، عن التزام لم يفرضه عليهم أحد»⁽¹⁾.

3 - الشمولية :

ونعني بها أن يمتد منهج التغيير إلى كافة نواحي الحياة الإنسانية، من اجتماعية، واقتصادية، وسياسية وعقدية. وأن يستوعب كل الجوانب المؤثرة في المجتمع . باعتباره وحدة متماسكة متكاملة، لا تنفصل فيه العقيدة والأخلاق، عن الاقتصاد والسياسة والعلم وما إليها.

وكان الإبراهيمي مدركاً لخاصية الشمولية في منهج التغيير، فعالج جميع الجوانب العقدية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، التي تمس الفرد والمجتمع في آن واحد، ولم يقتصر فكره ونشاطه على جانب واحد، لاعتقاده الجازم أن جميع جوانب التغيير ومجالاته في الواقع متكاملة مترابطة، لا يمكن فصلها عن بعضها البعض أو تجزئتها، وبخاصة إذا أدركنا أن التحديات التي واجهته كانت مفتوحة على جميع الجبهات، مما يستلزم تصوراً شمولياً لمعالجتها.

ويؤكد هذا الاقتناع، في حديثه عن الفضيل الورتلاني الذي خاض جميع مجالات التغيير، لاعتقاده بتشابك خيوطها وتكاملها مع بعضها، والفضيل الورتلاني هو أحد ثمرات حركة الإصلاح الطيبة، فلا غرو أن تكون نظرتة للأمور مستمدة من نظرة الحركة الإصلاحية إليها، يقول الإبراهيمي عنه: «... وراض عقله على التفكير الصائب ولسانه على الحديث الصادق في الإصلاح الديني الذي

(1) - بنت الشاطي، د. عائشة عبد الرحمن، تيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة، مصر، 1966، ص 275

هو أساس مبادئها، فجنّبه استعداده القوي منه إلى العمل في ميدان الإصلاح الاجتماعي، وجرتْ غيرته المحتمة على وطنه إلى العمل للإصلاح السياسي، وهذه أنواع من الإصلاح متشابهة الأصول، متشابهة الفروع تفصل بينها فواصل اعتبارية دقيقة، ولكن الأجراء المقدمين يرونها متلازمة، متوقفا بعضها على بعضها، فلا يتم جزء منها إلا بتمام جميعها ...»⁽¹⁾.

ويربط في موضع آخر ربطا محكما بين الإصلاح الديني والاجتماعي، ويشير إلى التداخل الكبير بينهما، بحيث لا يكتمل الأول إلا إذا تم الثاني معه: «فالإسلام دين واجتماع، وإذا كانت دائرة الأول محدودة فإن دائرة الثاني واسعة الأطراف، وإن الإصلاح الديني لا يتم إلا بالإصلاح الاجتماعي»⁽²⁾.

ويختلف الإبراهيمي في نظوته الشمولية هذه عن جمال الدين الأفغاني، الذي ركز جل اهتماماته على محاولة القضاء على الأنظمة السياسية الفاسدة، وأساليب الحكم البالية، وكان يأمل أن يكون تغيير النظم السياسية في العالم الإسلامي، خطوة كبيرة نحو إصلاح حال المجتمعات الإسلامية، كما يختلف عن الشيخ محمد عبده، الذي عاف السياسة واعتزلها، وألقى بكل ثقله في الميدان الاجتماعي واهتم بإصلاح الفرد وتنشئته على القضايل، ليكون نواة المجتمع الصالح⁽³⁾.

فقد استطاع الإبراهيمي أن ينظر إلى قضية التغيير في المجتمع الجزائري نظرة شمولية، مكنته من الربط والتوفيق بين التربية والسياسة، فلم يكتف

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 688

(2) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 215

(3) - بن نهي مالك، وجهة العالم الإسلامي، ص 47

بالاعتماد على أسلوب التربية لتغيير الفرد والمجتمع فقط، بل شارك نظريا وعمليا في النشاط السياسي والاجتماعي، وأبلى فيهما بلاء حسنا، ضمن خطة مرسومة، موجهة إلى هدف استراتيجي هام، هو إعداد المجتمع لمواجهة الاستعمار وتحرير الجزائر.

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تحديات الواقع الجزائري الأليم التي فرضت على الإبراهيمي خوض معركة تغييرية شاملة، في سبيل الحصول على ثمرة طيبة، تسفر عن تحول جذري في مسار المجتمع الجزائري. يقول في معرض رده على الاستعمار الفرنسي الذي اتهم علماء الجمعية بممارسة السياسة : « أما نحن فقد كنا علماء دين، ودعاة علم وتربية، وزراع خير ورحمة، ولكن الحكومة تعد هذا كله سياسة، وتعتبرنا لأجله سياسيين: فليكن ذلك، ولكن علماء وسياسيين، ولكن كل شيء ينفع أمتنا ويحمي ديننا ولغتنا. مادمت لا تجد صاحبك إلا حيث تكره، فمن العدل أن لا يجدك صاحبك إلا حيث يكره»⁽¹⁾.

4 - الانفتاحية:

ونعني بها أن تكون حركة التغيير مساندة لتطور الحياة وتقديم الحضارة، لأن طبيعة الحياة تقتضي ذلك، وسنة الله في تطور الإنسان وتقدمه لا تتبدل. فعلى كل حركة تغييرية أن تراعي هذه القضية، فتتفاعل مع تطورات الحياة تفاعلا إيجابيا، يمكنها من الاستفادة من منجزات العصر في إطار الحفاظ على المبادئ الثابتة، فتأخذ من الحضارة القائمة كل ما ينتفع به في الفكر والعلوم والنظم وما إليها، مما يمكنها من امتلاك سلاح العلم والفكر الذي يورث الثقة بالنفس، ويجعلها تقدم على الحياة دون عقد ولا تردد ولا انكسار.

(1) الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 275

وقد كانت الانفتاحية سمة بارزة في فلسفة التغيير التي آمن بها الإبراهيمي، حيث كان متفتحا على الفكر العالمي، واستطاع أن يتعامل معه تعاملًا طبيعياً، منطلقاً من موقع الحوار البناء والتحليل والنقد والتفهم، وليس من موقع الرفض والازدراء، مما فتح له باباً واسعاً للاستفادة من فكر عصره في حدود مبادئه وقيمه. وقد انعكس هذا الموقف على نشاطه في إطار الحركة الإصلاحية، التي لم يبد عليها منذ انطلاقها ميل إلى العزلة والفرار من الواقع، ولم تسجل دعوة إلى مقاطعة منجزات الحضارة المعاصرة، بل على العكس من ذلك، كانت في جميع مبادراتها تؤكد على وجوب الأخذ بالأسلوب الأمثل الذي يساير روح العصر، ويقرب من الهدف المنشود، في إطار واضح يقتصر على العلوم والمعارف والخبرات، والوسائل المادية التي تخدم القضية ولا تحرفها عن مبادئها. وقد بدا ذلك واضحاً في اقتحام الحركة الإصلاحية لميدان الصحافة والطباعة، واستفادتها من الوسائل الإعلامية الحديثة، وتشجيعها للمدارس، واقتباسها لكل الأساليب المتطورة في مناهج التعليم، والتي تمكن التلاميذ من الاستيعاب الأمثل للبرامج التعليمية، وثورتها على طرق التعليم العقيمة التي درج عليها العلماء الجامدون منذ عصور الإنحطاط، ودعوتها الواسعة إلى اكتساب جميع العلوم الحديثة التي تحتاجها الأمة.

5 - المبدئية:

هي التزام الحركة التغييرية بالمبدأ الذي آمنت به وتبنته، بحيث تكون مواقفها ووسائلها وأهدافها وبرامجها تنسجم مع هذا المبدأ، وتخدمه، ولا تخضع بأي حال من الأحوال للأهواء الشخصية، أو المصالح الظرفية، التي قد توجه الحركة لخدمة بعض الأغراض الخاصة، مما يتمخض عنه انحراف عن المبدأ، ومن

ثم اختلال في مسيرة التغيير.

والمبدئية خاصة هامة جدا باعتبارها الإبرة المغناطيسية التي يدور حولها النشاط التغييرى، والمحور الذي يستقطب كل الجهود، ويوجهها حتى يتوفر لحركة التغيير قدرا ضروريا من المصادقية والحيوية.

وقد أكد الإبراهيمي على ضرورة الارتباط بالمبادئ والصنوبر عنها في كل الأعمال، وعدم الرضوخ لضغوطات القوى المعادية، والاستبسال في الدفاع عنها، والثبات عليها، ومكابدة المحن والآلام في سبيل تحقيقها ويتضح ذلك من خلال فكره وممارساته في عملية تغيير الواقع الجزائرى. فقد واجه رجال الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسى مواجهة شديدة، وظل ملتزما بمبادئه لا يحيد عنها قيد أنملة، على الرغم مما لحقه من آثار هذه المواجهة.

وفي هذا الإطار، بين رجال الطرق الصوفية الفرق الجوهرى بين جمعية العلماء المسلمين وجمعية علماء السنة التى أسسوها ليعارضوا بها حركة الإصلاح، وحدده في كون الأولى صاحبة مبدأ ثابت تخلص له في كل أعمالها، لا يهمها الأشخاص رحلوا أم أقاموا، بينما تقوم الثانية على عبادة الأشخاص وتقديسهم والنوران في فلكهم يقول: «على أن المسألة ليست مسألة أشخاص فنحن نرى أن الإصلاح مبدأ وفكرة وأنتم ترونه زيدا وعمرا. ونحن نرى أن هذه الفكرة أو هذا المبدأ إن لم يبق بفلان قام بغيره، وأنتم ترون أنه إن لم يكن فلان لم يكن مبدأ. ونحن نرى أن فرقا بين جمعية تتكون حول مبدأ اقتضاه تدبير الاجتماع الإنسانى فهي مترابطة بجاذبية المبدأ وهي دائمة في المبدأ وهي دائمة في العمل للمبدأ وبين جمعية تتكون حول نفسها لتنصر نفسها بنفسها»⁽¹⁾.

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشر الإبراهيمي، ج 1، ص 55

وكان هذا دأبه مع الاستعمار الذي وقف لجمعية العلماء بالمرصاد، ليشيها عن عزمها في إحياء الإسلام، ويستدرجها للتخلي عن مبادئها، ومسايرته في صنع إسلام جزائري،⁽¹⁾ يجاري الأهواء الاستعمارية فرد عليه قائلاً: «ولتعلم أننا نفهم الإسلام على حقيقته، وأنها لا نستنزل عن ذلك الفهم برقية راق، ولا بتهديد مهدد، ولتعلم سلفاً، ولتسلم منطقياً وواقعياً أننا حين تختلف الأنظار بينك وبين الإسلام، فنحن مع الإسلام، لأننا مسلمون، ولتعلم أن تلك الأعمال تزيدنا مع جلال العلم جلال العمل»⁽²⁾

ويؤكد هذا المعنى بعد خمس سنوات من عمل جمعية العلماء فيقول في ثقة كبيرة: «وقطعت خمسة أشواط في مبدئها الذي عاهدت الله عليه على أن تبلغ غايته أو تموت في الدفاع عنه والنضال من دونه ولقيت من العوارض والعوائق ما ذللت العزائم، ومهدته الهمم»⁽³⁾

6 - اللا مذهبية:

وهي أن تتعالى حركة التغيير على كل النزعات المذهبية، والنظرات الحزبية الضيقة، والصراعات، التي قد تنشأ بين الزعامات لاختلاف المبادئ والآراء، وأن تندمج في أعماق الأمة، فتكون المعبر الصادق عن آلامها وآمالها، وأن لا تعمق الخلاف بين الفرقاء بانحيازها لاتجاه دون آخر، وأن تكون في موقع الموفق بين الآراء المتضاربة، والميول المختلفة، لتضمن للأمة قدراً معيناً من الوحدة

(1) الإسلام الجزائري هو الغاية التي كان يسعى إليها الاستعمار، وهو يعني فصل الجزائر عن العالم العربي والإسلامي، وتشجيع النزعة البهيمية فيها، والتخفيف من أثر الوحدة الروحية والفكرية التي تربط الجزائريين بالأمة الإسلامية، ثم ترويضها، قهيدا لقطمها نهائياً.

(2) - إبراهيمي، عبود البصائر، ص 42، 43.

(3) - إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير إبراهيمي، ج 1، ص 213.

والتماسك والفعالية.

وقد كانت اللامذهبية سمة بارزة في منهج التغيير عند الإبراهيمي، فلم يكن تفكيره ضيقاً، أو منحيزاً لحزب من الأحزاب، أو متعصباً لطائفة من الطوائف، بل كان يمثل واحداً من قيادات الأمة الروحية، التي تحاول أن تكتل الجهود، وتوجه الآراء، وتوحد الصفوف، وتحشد الطاقات، باتجاه تحقيق الأهداف الإستراتيجية، لشعب يعاني الأمرين من ويلات الاستعمار.

وقد أشار إلى هذه الخاصية التي تتميز بها جمعية العلماء باعتبارها حركة تغييرية تمثل الأمة الجزائرية، عندما تحدث عن الصراعات الحزبية التي كانت تعاني منها الجزائر، وحدد علاقة الجمعية بها قائلاً: «وبعد فإن جمعية العلماء فوق الأحزاب كلها، ما ظهر منها وما بطن، وإن مبدأها أعلى من المبادئ كلها، ما استسر منها وما علن، ولقد اتصلت بجميع الأحزاب فرادى ومجتمعين في المصالح العامة، فأرثتهم بأقوالها وأعمالها أنها فوق الأحزاب، ولقد احتكت بها جميع الأحزاب، من خاطب لودها إجلالاً، إلى رائم من نفوذها استغلالاً، إلى عامل على الكيد لها احتيالاً، فأرثتهم بمعاملاتها لجميعهم أنها فوق الأحزاب، ودعت الأحزاب إلى الصلح والاتحاد، وجمعتهم للاشتراك في العمل، فكانت في ذلك كله فوق الأحزاب»⁽¹⁾.

ثم يوضح معنى هذه الفوقية، التي قد يفهمها البعض على أنها استعلاء وترفع، ويبين أنها بمثابة الناصح الأمين، والمرشد الموجه، وجامع الشمل، وموحد الصفوف، يقول الإبراهيمي: «وإنما هي فوقية الإرشاد والنصيحة والمحافظة على الوحدة، بحيث تكون الحكم والمرجع كلما شجر خلاف في رأي، أو نجمت فرقة في

(1) - الإبراهيمي هبون البصائر، ص 50

مبدأ... والجمعية فوق ما يظنون وفوق ما يتوهمون، ليست عامل تفريق، وإنما هي عامل جمع، وليست أداة هدم، وإنما هي أداة إصلاح»⁽¹⁾.

7 - أسلوب النفس الطويل:

إن التغيير الذي يستهدف تحويل اتجاه النفوس من السلبية إلى الإيجاب، وإحداث انقلاب في بنية المجتمع للقضاء على مظاهر الخلل فيه، وإحلال العناصر الفعالة محلها، ليس أمراً هيناً يتم بين عشية وضحاها، نظراً للتعقيد الشديد الذي تتميز به النفس الإنسانية والتركيبية الاجتماعية.

لذلك كان أسلوب النفس الطويل الذي يقتضي الصبر والأناة والروية، أمراً ضرورياً يفرضه الواقع على كل الحركات التغييرية، ويلزمها به، حتى يسير التغيير في طريقه الصحيح، ولا يتعرض للاهتزازات، بسبب الاستعجال والارتجال في المواقف والأعمال، وتجاوز المراحل.

وكان الإبراهيمي يؤمن أن للزمن دوراً هاماً في علاج المشكلات وحلها، وأنه كفيل بتذليل كثير من العقبات بمرور الأيام والسنين: «وإننا لا نبالي في عملنا بطول الزمن وتوالي المحن، فما الزمن - إلا من أعواننا، وما المحن - وإن توالى - إلا مسان»⁽²⁾ لعزائمتنا وما أعمارنا في عمر الإسلام إلا دقيقة من دهر، فلننفقها فيما يعليه»⁽³⁾.

ولعلنا لا نجد مثالا يدل دلالة صادقة على أسلوب النفس الطويل الذي انتهجه الإبراهيمي في منهجه التغييري، مثل قضية تحرير الشؤون الإسلامية من

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 338

(2) - مسان: مأخوذة من سن السنين إذا أهد، (الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1981، ص 317)

(3) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 164

قبضة الحكومة الاستعمارية، والتي ظلت محل نزاع بين جمعية العلماء والاستعمار الفرنسي منذ تأسيس الجمعية عام 1931 حتى الاستقلال. فقد نذر الإبراهيمي نفسه لهذه القضية، وعاهد الله أن يفي لها بحقها، حتى يعترف المفتصب، ويتراجع الظالم، وقد قدر لها مكانتها في قلوب الجزائريين، ووزن موقف الحكومة الاستعمارية منها، فتبين له أن حلها لن يكون سهلا ولا عاجلا، فتسلح لكل ذلك بالصبر وطول النفس حتى يكونا له عوناً على الطريق الطويل والجهاد المرير.

وخاض معركة المطالبة بتحرير الشؤون الإسلامية من الاستعمار في صفوف جمعية العلماء لمدة عشرين سنة، وانبرى للكتابة فيها لمدة ثلاث سنوات متتالية دون انقطاع. ولم يفت في عضده سكوت الحكومة الاستعمارية وتجاهلها لمطالبه، ولا تأييد بعض رجال الدين الرسميين⁽¹⁾ لبقاء الشؤون الإسلامية بيد إدارة الاحتلال، ولا تنازلت جمعية العلماء عن حقها في القضية: «فقد تناولت هذه القضية بالشرح والتحليل منذ عشرين سنة خلت، وتناولها هذا القلم بالبيان والتدليل من ثلاث سنوات، ولم تهن لها عزيمة ولا خارت لها قوة في المطالبة، ولم يخذعها وعد، ولا ردها وعيد... ولا رمتها المطاولة بالملل الذي يرمي العاملين بالفشل، بل ما زادت المطاولة إلا مراسا وإقداما، لعلمها بأن العقوبة للمتقين، وأن الله مع الصابرين العاملين المثابرين»⁽²⁾.

(1) - وهم طائفة من العلماء والأئمة والقضاة الذين عينتهم الحكومة الإستعمارية للإشراف على السلك الديني في الجزائر، ومن أشهرهم محمد العاصمي الذي استعملته إدارة الاحتلال لمرقلة مشروع تحرير الشؤون الدينية من قبضتها وقد كتب عنه الإبراهيمي في عبون البصائر وانتقد موقفه وشنع عليه تماونه مع الاستعمار. (ص 152، 153)

(2) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 138

٨ - الاهتمام بالقضايا بدل الأشخاص :

درج الإبراهيمي في منهجه التغييري على مبدأ هام، يتمثل في الاهتمام بالقضايا وتناولها بالتحليل، وبيان وجوه الخطأ والصواب فيها دون ذكر من يمثلها من الأشخاص، أو الإشارة إلى أسمائهم «لأننا قوم نعمل في مقاومة إلى المبادئ لا إلى الأشخاص، ولا نتوجه في حربنا إلى رجال الاستعمار بل إلى الاستعمار الذي يتكلمون باسمه، فإذا زال الاستعمار رجع هؤلاء الرجال ناسا كالناس»^(١)

والالتزام بهذا المبدأ يدل على أن الإبراهيمي ينتهج في نقده أسلوبا بناء يتحاشى التجريح والتفويض، لذلك لم يكن يهتم في حديثه عن هموم الأمة وقضاياها الكبرى بأفراد بعينهم، سواء لمنصبهم أو علمهم أو مسؤولياتهم، حتى يتجنب الخوض في سيرهم وأعراضهم، بل كان دائما يقف عند حدود الأمر الذي يمس الأمة، دون أن يتعداه إلى الأشخاص: «إن هذه الأسماء والألقاب التي فرضت علينا كلمة الحق تناولها بالنقد والتجريح - ليست أعلام أشخاص ولا ألقاب أشخاص، وإنما هي أعلام أجناس لمعان استعمارية ... فإذا حاربنا اسما من هذه الأسماء فإنما نحارب الفكرة التي رضي صاحبها أن يمثلها، والصوت الذي رضي أن يكون بوقا له، لا الشخص الذي تحده الحدود»^(٢)

وكان هذا دأبه مع رجال الدين الرسميين الذين كانوا يسبغون في ركاب الاستعمار، والذين وجه لهم سهام النقد والتجريح، دون أن يوميء إلى أحد بعينه، فسأهم هذا الهجوم فقال لهم: «لا ذنب لنا عندهم إلا كلمة الحق نقولها صريحة

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 82.

(2) - المصدر نفسه، ص 104

فتشرح وتجرح، مججلة فتصك وتصخ، موجهة إلى المبادئ والمعاني، فيتصايح الأشخاص ويتظلمون، وما ذنبنا إذا كانت كلمة الحق هي كلمة الله لا كلمتنا ومن عند الله لا من عندنا؟»⁽¹⁾

وقد يضطر في بعض الأحيان إلى ذكر الأسماء، ولكنه ينبه إلى أنه لم يفعل ذلك إلا لضرورة الجائئة واقتضاها المقام، وفي هذه الحالة تشتد لهجته وتقسو، ويتفنن في السخرية و التهكم، ويتمادى في الاستهزاء ممن ينتقدهم حدا يبلغ التجريح المؤلم والمؤذي، كما فعل مع محمد العاصمي الذي كان ألعوبة في يد الاستعمار يلوح به في وجه العلماء المصلحين، ويشوش عليهم مطالبهم، ويثير الغبار في وجوههم ليغطي على وجه الحق في القضية التي يجاهدون من أجلها: «إننا لانعني بما نقول ذلك الرجل المدعو محمد العاصمي»⁽²⁾ الذي شبّ في (قصر الحيران) واكتهل معلما للصبيان وشابا خادما لقاض في ديوان ... وإنما يعنينا هذا الشيء المسمى محمد العاصمي المفتي الحنفي، الذي وسع الشق بتكره للحق، والذي نصب نفسه عوناً للمعتدين على الدين، والذي استطال بقوة الأجانب على ضعف الأقارب والذي سوّد وجه الإسلام بموازرة الظلام»⁽³⁾.

وقد كان الاهتمام بالقضايا بدل الأشخاص سمة بارزة في كتابات جريدة البصائر، ومبدأ يلتزمه جميع كتابها، فلما ذكرت في مقالاتها بعض الأسماء استنكر قرائها الذين ألفوا النظافة في الأسلوب، والجديّة في طرح القضايا،

(1). الإبراهيمي. هيون البصائر، ص 138

(2). ولد عام 1888 بنواحي المنصورة ببلاد القبائل، تعلم بزاوية الهامل، ثم درس بها وبالأغواط، وعندها الجزائري كان من أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين، ثم انقلب عليها في الأربعينات، وأصدر مجلة (صوت المسجد) لسان حال رجال الدين الرسميين، قال عنه أحمد توفيق المدني: «كان شيخا عالمًا أدبيا واسع الاطلاع كثير الألوان يسير مع كل قوم حسب هواهم» (نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر، ص 212)

(3). الإبراهيمي. هيون البصائر، ص 153

ورأوا فيها بابا من الشر فتح، يوشك أن يلوث جريدتهم، فاضطر الإبراهيمي إلى توضيح الأمر، وبيان خطورة هؤلاء الأشخاص على قضية الأمة المصيرية، حتى تكون على بينة وحذر منهم قائلا: «وإننا لنعلم أن أنصار (البصائر) يربأون بها أن تنزل من عليائها للعاصمي وشيعته... ويعدون هذا كله غمزة في مقامها الأدبي، وزرابة بمكانتها المعنوية، ولكنهم لا يعلمون ما نعلم من أثر هؤلاء مجتمعين ومتفرقين في قضية الأمة، ولا يفهمون ما نفهم من أنهم أصبحوا متارس وقاية لهذه الحكومة، وأنها نصبتهم ليكونوا لها حجة حين أعوزتها الحجج... ولماذا ذكر الله إبليس وكرر إسمه في القرآن؟.....»⁽¹⁾

ونخلص إلى القول، أن الإبراهيمي قد استفاد من المرحلة الزمنية التي مارس فيها عملية التغيير إلى أقصى حد ممكن، واستطاع أن يحقق بعض أهدافه الإستراتيجية، وأن اختياره الجرائر للعمل والتغيير كان عملا مدروسا وموفقا، بدليل أنه استوعب التحديات الكبرى التي كانت تعاني منها الأمة، ونجح في تجاوزها من خلال خطة عملية، تعتمد التغيير الشامل على كافة المستويات في إطار مجموعة من الخصائص والمميزات التي تحكم منهجه.

(1) - الإبراهيمي، عمون البصائر، ص 162

جامعة الأمير

الفصل الثاني

قواعده وشروطه

القادر للعلوم الإسلامية

إن التغيير يهدف إلى تكيف واقع إنساني نفسي واجتماعي، ليتجه الوجهة المرسومة في البناء الحضاري، ومن الطبيعي أن تجد هذه العملية عوامل مضادة، نابعة من واقع التركيب الإرادي النفسي للإنسان، ومن واقع المجتمع الرفض الجديد. لذلك كان من الضروري - حتى يؤتى التغيير ثماره - أن تتوفر جملة من القواعد الضرورية، والشروط الموضوعية، لتهيء الظروف النفسية والمادية، وتمهد السبيل لهذا التغيير، بما تتجاوزته من تحديات وعوائق مختلفة.

وهذه القواعد والشروط ليست فرصا تتاح بصفة تلقائية، وإنما يجب أن تدرك، وأن توجد إيجابا، ويسعى لتوفيرها سعيًا، فهي من صميم الفقه الحضاري اللازم لأي عملية في التغيير.

ونحسب أن من أهم القواعد والشروط الضرورية التي يقوم عليها كل منهج في التغيير كما يرى الإبراهيمي: اعتماد العمل الجماعي المنظم، والالتزام بالترجح والمرحلية ومراعاة المعادلة الاجتماعية لكل أمة، والانضباط بالسنن الاجتماعية وإشراك الجماهير في عملية التغيير.

وإن قراءة متأنية في فلسفة التغيير عند الإبراهيمي، تؤكد وعيه العميق وإدراكه الواسع لأهمية وخطورة هذه القواعد والشروط الأساسية، واللازمة في كل منهج للتغيير، وإن استقراء تجربة التغيير التي مارسها طوال عقود عديدة، تكشف لنا هي أيضا بوضوح التزامه بها. وفيما يلي محاولة لرصد وشرح أهم هذه القواعد والشروط، ومدى علاقتها بمنهج التغيير عند الإبراهيمي:

العمل الجماعي المنظم:

إن العمل الجماعي قاعدة أساسية، وشرط ضروري، في العمليات

التغييرية الكبرى التي تستهدف إحداث انقلاب في نظام المجتمع، وإعادة بنائه على أسس بديلة، لأنه يجمع الطاقات، ويوحد الصفوف، ويضم الجهود بعضها إلى بعض، وينسق بينها ويوجهها لتحقيق الهدف المنشود. لذلك كانت الأعمال التي يقوم بها الأفراد في هذا المجال، غير قادرة على سد الثغرة التي يمكن أن تسدها الجهود الجماعية، باعتبار الجهد الفردي محدود المدى، ضعيف الطاقة، وقتي التأثير، إذا ما قيس بضخامة التحديات التي تواجه الأمة.

وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية على أهمية العمل الجماعي في التغيير، فخطب القرآن المؤمنين بقوله: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»⁽¹⁾ والأمة معناها: «الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم، ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص»⁽²⁾، كما أن السيرة النبوية تبين بجلاء، أن الدعوة الإسلامية لم تقم بجهد الرسول صلى الله عليه وسلم الفردي، بل كانت مبنية منذ انطلاقتها على الجماعة التي كوّنّها النبي الكريم، واختار عناصرها بعناية، لتقوم على كاملها مهمة تغيير المجتمع الجاهلي. مما يوحي بأن الانتصارات العظيمة، والتحول الكبير في حياة الأمم، لا تتم إلا عن طريق العمل الجماعي المنظم، الذي تتظافر في إطاره الجهود وتتكتل القوى.

إن أي واقع تستهدفه العملية التغييرية لتحويل وجهته، يحمل في ذاته تحديات كثيرة وقوى متكتلة، تشكل جبهة معارضة لكل محاولات الاستبدال. فمن غير المعقول أن تقابل هذه القوة الرافضة بجهود فردية مبعثرة، بل

(1). آل عمران، 104

(2) الراغب، أحمد مصطفى، تفسير الراغب، ج 4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت ص 21

يستلزم هذا الوضع وجود تكتل مشابه، يعدل ميزان القوى حتى يكون الصراع متكافئاً.

وهذا العمل الجماعي لابد أن يكون منظماً، فعامل النظام يكتسي أهمية قصوى في هذا المقام، والتنظيم يعني وجود قيادة مسؤولة، وقاعدة مترابطة، ونظام أساسي ينظم العلاقات، ويحدد المسؤوليات، والواجبات، كما يعني إعداد برنامج عملي، ورسم الأهداف، وتحديد الوسائل والأساليب.

وقد استطاع الإبراهيمي - من خلال معاشيته للواقع المحلي والعالمي - أن يدرك أن الجهود الفردية التي تتولى عملية التغيير، لن تثمر شيئاً ذائلاً، في عالم شهد تطوراً مذهلاً على جميع الأصعدة، وأن العمل المؤسساتي أصبح هو الطريقة المثلى التي تمكن العاملين من تحقيق الإنجازات الكبرى: « وهذا زمن «اجتماعي» لا يؤمن للفردية بوجود، ولا يخضع لها في حكم، ولا يعول عليها في عمل، وقد انتقلت فيه الأعمال من أيدي الأفراد إلى أيدي الجماعات والجمعيات، فازدادت تلك القاعدة تمكناً وتأكداً ووجب على الجماعات العاملة أن تراعيها في أعمالها حتى لا تغفل وتخب.»⁽¹⁾

ويربط بين الإنجازات الكبرى والتحولات العميقة التي شهدتها المجتمعات المتقدمة، وبين الجهد الجماعي المنظم فيقول: «فوائد الاجتماع هي ثمراته الناتجة عنه وثمراته هي ما ترون من أعمال تعجز القوة الفردية عن إتمامها وما ترونه من مصانع تخرج المعجزات وما ترونه من تقريب الأقطار وإخضاع البحار، وما ترونه من استخراج مواهب الأرض التي لا يستقل الفرد بإخراج جزء منها ولو جمع

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 224

مواهبه»⁽¹⁾.

ثم إن تمخض تجربة التغيير الفردية في الجزائر، التي خاضها جيل المصلحين الأوائل في بداية هذا القرن عن نتائج جزئية، وثمرات محدودة⁽²⁾، جعلته يتأكد أكثر أن الجهود الفردية مهما أخلص أصحابها نياتهم، وصدقوا في عزائمهم، وتسلكوا لها بالعلم والعمل، لا تستطيع أن تغير المجتمعات، وأن تحدث فيها تحولات كبرى.

وكان هذا الاقتناع رائده منذ عودته من دمشق، غير أن إحجامه عن المبادرة بتأسيس جمعية تضم الجهود، وتنظم الأعمال الإصلاحية، التي كان يباشرها مع إخوانه، إنما كان صادرا عن إيمانه بأن الظروف المناسبة لوجود هذا الشكل التنظيمي لم تتوفر بعد، وهذا ما يفسر فشل المبادرة التي قام بها مع ابن باديس لتكوين «جمعية الإخاء العلمي» عام 1924⁽³⁾.

وبقيت الفكرة تختمر في الأذهان، والإعداد لها متواصلا، إلى أن جاءت اللحظة التاريخية المناسبة عام 1931. فخرجت «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» إلى الوجود، يقول الإبراهيمي: «كملت لنا على هذه الحالة عشر سنوات كانت كلها إعدادا وتهيتة للحدث الأعظم وهو إخراج جمعية العلماء من حيز القول إلى حيز الفعل»⁽⁴⁾.

(1). الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج. 1، ص. 7، 8.

(2). المصدر نفسه، ج. 1، ص. 117.

(3). المصدر نفسه، ج. 1، ص. 119، 120.

(4). الإبراهيمي وآنا،، الثالثة، ج. 87، ص. 21.

إن المشاركة الفعالة للإبراهيمي في التفكير، والإعداد والتأسيس، والقيادة لجمعية العلماء، دليل عملي حي على إيمانه بضرورة العمل الجماعي المنظم، لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية الخطيرة، التي كانت تعاني منها الأمة الجزائرية آنذاك.

ويلتقي ابن باديس مع الإبراهيمي في إيمانه بضرورة العمل الجماعي، والتأكيد على خطورته، وعلى ما يترتب عنه من إنجازات كبرى، ونتائج نوعية، حيث يقول: «إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله، إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة، تفكر وتدبر وتتشاور وتتأزر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة، ولهذا قرن الله في هذه الآية⁽¹⁾ بين الإيمان بالله ورسوله، والحديث عن الجماعة وما يتعلق بالاجتماع، فيرشدنا هذا إلى خطر أمر الاجتماع ونظامه، ولزوم الحرص والمحافظة عليه، كأصل لازم للقيام بمقتضيات الإيمان وحفظ عمود الإسلام»⁽²⁾.

وهذا التطابق في وجهات النظر ليس غريباً، إذا وضعنا في الاعتبار العلاقة الفكرية والروحية الوطيدة التي كانت تربط الرجلين، وتجعلهما يصدران في توجهاتهما الفكرية والعملية عن رؤية موحدة في التغيير.

لقد كان العمل الجماعي المنظم، ميزة اختلفت بها الحركة الإصلاحية في الجزائر، وكان لذلك آثاره الحميدة في نجاح الحركة وتغلغلها في الأوساط الشعبية، وقد أدرك الإبراهيمي ذلك عندما تحدث عن النجاح الذي لقيته جمعية العلماء في أوساط الشعب، وعزا أحد أهم أسباب ذلك، إلى اجتماع علماء

(1). التور، 62، 63.

(2). ابن باديس، عبد الحميد، تفسير ابن باديس، ص 559.

الحركة في تنظيم يوحدتهم فقال: « فلا يوجد قطر من أقطار الإسلام تأثر أهله بالفكرة الإصلاحية الدينية كما تأثر مسلمو الجزائر، ولا يوجد في علماء الإسلام جماعة قاموا بهذه الدعوة الجريئة، متساندين مجتمعين، يجمعهم نظام وانسجام، كما قام رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، على كثرة اللدد في الخصم، وقوة اللجاج في المعارض»⁽¹⁾.

وهو يود لو أن علماء المسلمين في المشرق العربي، نحوا هذا المنحى في الاجتماع والتنظيم، حتى يتمكنوا من العودة بالإسلام إلى قوته، وبالمسلمين إلى عزتهم ومكانتهم» ومع أن إخواننا علماء الإسلام يملكون ما لا نملك من وسائل الاجتماع وأسباب القوة - فإن جهودهم في الإصلاح الديني لم تزل فردية محدودة، وخطواتهم في السير به لم تزل بطيئة متثاقلة، أما والله - لو أنهم اجتمعوا وتذامروا وشنوها - كما شنناها - غارة شعواء على البدع والضلالات... لأعادوا للإسلام قوته وكماله، ونضرتة وجماله - وللمسلمين مكانهم في البشر ومكانتهم في التاريخ»⁽²⁾.

ويعقد عبد الله الركيبى مقارنة بين الحركة الإصلاحية في الجزائر ومثيلاتها في المشرق العربي، فيجد أن نقطة الاختلاف بينهما تبدو بارزة في مسألة التنظيم، والعمل الجماعي، على الرغم من وحدة المنافع التي استبقوا منها أفكارهم الإصلاحية، وفي ذلك يقول: «ولكن الفرق هو أن الجزائر أصبح هذا الفكر فيها يخضع «لتنظيم» قاده رجال لهم مشارب متفقة أو متقاربة، ولهم منابرهم

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 345

(2) - المصدر نفسه، ص 345

الخاصة، بينما في المشرق اعتمد الفكر الإصلاحى على أشخاص أو أفراد وإن
اتفقوا في الأهداف، فقد اختلفوا في الوسائل، وكذلك لم يكونوا تنظيميا يوحد
جهودهم.⁽¹⁾

مراعاة المعادلة الاجتماعية:

إن العوامل الثقافية والدينية والتاريخية والجغرافية، تلعب دورا أساسيا في
صياغة الخصائص النفسية لكل أمة من الأمم، حيث تعمل على بلورة المفاهيم،
وتحديد الأنظمة، ونسج التقاليد الاجتماعية، التي توجه سلوك الأفراد وتتحكم في
ردود أفعالهم. وباختلاف جوهر هذه العوامل من بلد إلى آخر، تختلف الصبغة
التي تصطبغ بها أمة من الأمم، ويتكوّن لديها مخزون حضاري، تتميز به عن
غيرها من الكيانات الحضارية الأخرى.

والأم ذات الماضي التاريخي العريق تكون ذات طبائع نفسية ثابتة ثبوت
سماتها الخلقية، وتكوّن من ثمة جزءا طبيعيا منها لا يمكن فصله أو محوه أو
تجاهله، وتكون هذه الطبائع هي الآلية المحركة للمجتمع.

من هنا كان للمعادلة الاجتماعية التي تميز كل أمة، أهميتها البالغة في
التعامل مع المجتمعات، نظرا للصلة الوثيقة التي تربط هذه المجتمعات بميراثها
الثقافي، وتأثيره العميق في توجيه أفكارها وأعمالها.

والحركات التغييرية التي تعمل على النهوض بالمجتمعات المتخلفة من كبوتها،
وترمي إلى السمر بها نحو التقدم والازدهار، ملزمة بمراعاة المعادلة الاجتماعية
للمجتمع الذي يقع فيه التغيير، وإلا حكمت على جهودها بالفشل والإخفاق.

ذلك أن الدعوة إلى التغيير، إذا لم تكن منبثقة من طبيعة الأمة، منسجمة مع

(1) - الركبي، د.، عبد الله، الشعر الديني الجزائري الحديث، ش. و. ن. ت.، الجزائر، ط 1، 1981، ص 562

خصائصها الحضارية، مستوحاة من حاجاتها الحيوية، لن تجد استجابة من الجماهير التي تدين في أفكارها وتوجهاتها لموروث ثقافي، يصطدم مع مشروع التغيير الذي قدم لها، ويكون التجارب مع هذا المشروع، عندما يلامس برنامجها القيم العقدية للأمة، وتشعر أنه من أجلها، ومستلهم مما تكنه ذات كل فرد في المجتمع.

فمن الضروري إذن، أن يكون مشروع التغيير مشتقاً من ذلك الموروث الثقافي، مرتكزاً في انطلاقه على أفكار وقيم الأمة، متجاوباً مع تركيبها الثقافية والاقتصادية والسياسية والتربوية. وكل محاولة لفرض مشاريع غريبة عن هذه المعادلة الاجتماعية، ستواجه بالرفض، لأن الفكر النهضوي الذي يحمل مهمة التغيير، يجب أن يكون فكراً خصوصياً يولد وينجح في وسط اجتماعي، وتاريخي يستمد حياته من تراث أمته، وهو فكر إنساني، يخضع في سماته العامة للمعادلة الاجتماعية لهذه الأمة، التي تعطيه صفة الخصوصية، وتجعله غير قابل للتصدير والاستيراد.

من هنا ربط الإبراهيمي نجاح المشاريع التغييرية التي تضطلع بها الجمعيات، بمراعاتها للمعادلة الاجتماعية للأمة: « إن الجمعيات لا تبقى ولا يضمن لها الدوام إلا إذا كان في المعنى الذي أسست لأجله عنصر من عناصر التجديد لطائفة أو لأمة وتكون قواعد العمران وأصول الأديان مقتضية له في حياة تلك الأمة الروحية أو المادية»⁽¹⁾.

ولم يكن الإبراهيمي ليغفل عن هذه القاعدة الهامة في التغيير، وهو الذي عايش الإخفاق الذي منيت به المشاريع التحديثية المستندة إلى تجارب غربية في

(1). الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 59

المجتمعات العربية الإسلامية، وشهد الثمرات المرة التي جنتها الشعوب العربية والإسلامية، بحيث لم تستطع أن تتفاعل معها أو تستجيب لها، لاصطدامها بخصوصيتها الحضارية، وتناقضها مع المعادلة الاجتماعية للأمة الإسلامية، فكان من نتيجة ذلك، أن بددت الطاقات، وضاعت الجهود، وبذلت الأموال، في سبيل مشروع محكوم عليه بالفشل مسبقاً.

لذلك لم يكن غريباً أن يؤكد الإبراهيمي على ضرورة مراعاة المعادلة الاجتماعية للأمة، في أي تغيير يستهدف النهوض بها حيث يقول: «ومحال أن تنهض أمة بغير خصائصها، أو تقوم بغير مقوماتها، فإن نهضت بغير ذلك فتلك نهضة مزورة، وحقيقتها أنها انتقال إلى الأمة صاحبة تلك الخصائص، وارتحال بالعقول من موطن إلى موطن، أو هي (تجنس فكري) سمي نهضة»⁽¹⁾.

فلا يجب الاغترار - إذن - في رأي الإبراهيمي بالمظاهر البراقة التي تبدو على صفحة المجتمع بتأثير من المشاريع الغربية، لأنها تزوير على الواقع، ولا أصل لها في الحقيقة، وسيأتي اليوم الذي سترفضها فيه الأمة مهما طال زمن فرضها عليها، لأن مكوناتها الروحية والمادية تأبأها. ولأن اقتلاع المجتمع من جنوره لبناء أساسه على قواعد مستوردة، يعارض سنن الله في الأنفس والأفاق: «إن هذه الأشياء الروحية التي تسمى الدين والعقيدة والضمير، هي أشياء طبيعية، بل هي أجزاء من الوجود الإنساني، فمقاومها كمصادم الجبل الأشم، لا يبيء إلا بالزعزعة والضعفة»⁽²⁾.

والأمة الإسلامية - في نظر الإبراهيمي - على الرغم من كل ما أصابها، لديها

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 569

(2)، المصدر نفسه، ص 238

مناعة حضارية، مستمدة من عراقتها في التاريخ والثقافة، مما يؤهلها لمقاومة كل العناصر الغريبة التي تتنافى مع مكوناتها الخاصة، مهما فرضت عليها، وهو يؤكد هذه الحقيقة في مقالة «أثر الأزهر في النهضة المصرية» فيقول: «ويوم يغربل التاريخ هذه النهضة، فيأخذ منها ويدع، ويثبت من جملها ويمحو، فإننا لا نجد فيها إلا الأزهر وأثره، وروح مصر وطبيعتها، ولسان العرب وبيانهم، وفضيلة الشرق وتقاليده، وهداية الإسلام وأدابه، ومثله العليا المتجلية في حقائقه التي سار العالم على نورها أحقاباً فما ضل وما غوى، وستنوب الأجزاء الغريبة الصالحة في هذا الكل الطبيعي فتصبح جزءاً من ماهيته، وستنفي الأجزاء غير الصالحة كما ينفي الجسم الصحيح جراثيم المرض»⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس، عمل في إطار جمعية العلماء على تغيير المجتمع الجزائري، من خلال التركيز على المقومات الأساسية للشعب من دين ولغة وتاريخ، وجاهد لإحيائها وتعبئة الأمة من خلالها، لتنتقل في نهضتها على أساس متين يضمن لها التواصل الحضاري مع تراثها الغني، وكان يؤمن بقدرة هذه المقومات على بث الروح في الشعب الجزائري إيماناً لا حد له: «نقول نحن - بلغة الحق والواقع - إن الجزائر عربية مسلمة، فيشهد لنا التاريخ والدم، والأدب والرفات، والأسماء والسمات، وجولان «الضاد» في اللهوات، ويقول المتكلمون بلسان القوة والجبروت، المجانبون للمنطق والعقل، المتجانفون للإثم والصوب: إن الجزائر فرنسية، فتنهافت الحجج، وتعقم الأشكال، وتنبأ المقدمات من نتائجها»⁽²⁾.

وهذه المقومات، هي الأحجار التي تبنى بها النهضة الجزائرية لتوافقها مع

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر.. ص 570

(2) المصدر نفسه، ص 112 و 113

مزاج الأمة الجزائرية، وانسجامها مع موروثها الثقافي العربي الإسلامي، لذلك قال الإبراهيمي في معرض رده على المحاولات التغريبية التي كان يمارسها الاستعمار، وبعض الأحزاب السياسية الجزائرية آنذاك: «ويسوعنا - بعد ذلك كله - أن يبنى تاريخ نهضة الجزائر بغير أحجاره»⁽¹⁾، مؤكدا مرة أخرى، أن مراعاة المعادلة الاجتماعية للشعب إجراء ضروري لنجاح أي تجربة تغييرية.

التزام التدرج والمرحلية :

إن التزام التدرج والمرحلية في تغيير مجتمع ما من وضع سيء إلى وضع أفضل، شرط ضروري لنجاح عملية التغيير، وإن الاستعجال في تسوية الأوضاع الشاذة التي يعاني منها المجتمع، ستقود حتما إلى الخيبة والخسران.

فالتدرج سنة كونية نراها بشكل واضح في خلق الإنسان والحيوان، والنبات، فهذه المخلوقات كلها تتدرج في مراحل متتابعة، حتى تبلغ نماءها وكمالها، ولا تظهر هكذا بشكل فجائي في أكمل صورة.

والخبرة الإنسانية أثبتت أن التدرج سنة فطرية أيضا، لأن النفس البشرية بطبيعتها، نزاعة إلى التمسك بموروثها، وكثيرا ما تستعصي على محاولات التغيير، فكان التدرج في إلقاء التوجيهات، وإحلال المفاهيم البديلة محل المفاهيم القديمة، وتغيير الأفكار والعادات، أمرا تقتضيه سنن الفطرة التي تؤكد أن النفس الإنسانية لا يمكن تحويل وجهتها من النقيض إلى النقيض طرفة واحدة.

وهي أيضا سنة شرعية، اتبعها القرآن الكريم في التعامل مع المجتمع الجاهلي، حين سلك معهم طريق الحكمة، فظهر قلوبهم من الشرك، والوثنية، وأنارها بالتوحيد، وربطهم بالله ورسوله برباط الحب والولاء، وثبت في وجدانهم

(1) - الإبراهيمي، هيون البصائر، ص 33

الإيمان بالبعث والجزاء، ثم انتقل من مرحلة تثبيت دعائم الإيمان إلى العبادات، فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة، ثم شرع الصوم والزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ولم يفرض الحج إلا في السنة السادسة منها.

وتناول العادات المتوارثة والسلوكات العامة بالعلاج نفسه، فزجرهم أولاً عن الكبائر، ثم نهاهم عن الصغائر، وتدرج معهم في تحريم ما كان مستحكماً في نفوسهم كالخمر والزنا والميسر تدرجاً حكيماً، اعتمد فيه على ما تشربته نفوسهم من قبل من المبادئ الإسلامية العامة، فاستطاع أن يقتلع الشر والفساد من جذوره اقتلاعاً كاملاً.

وفي هذا المعنى تقول عائشة رضي الله عنها: «وإنما أنزل أول ما أنزل من القرآن سور فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر ولا تزنوا، لقالوا لا ندع الخمر ولا الزنا أبداً»⁽¹⁾.

والتدرج في التشريع الذي انتهجه القرآن في تحويل المجتمع من الجاهلية إلى الهداية، فيه تعليم للمسلمين حتى يقتبسوا منه فقها صالحاً للتغيير في كل زمان ومكان، يتوجب فيه عليهم مغادرة وضع باطل إلى وضع صحيح.

والحركة التغييرية التي شارك فيها إبراهيم في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كانت تهدف إلى العودة بالمجتمع الجزائري إلى الإسلام في صفائه ونقاؤه الأول، ثم تحريره من الاستعمار الأجنبي. وكانت تدرك أن هذا الأمر لا يمكن أن يتم دفعة واحدة، خاصة وأن الزمن الذي استغرقه إصلاح المسلمين

(1) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، صحيح البخاري، مع 3، ج 6، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ت، ص 101.

من التصورات العقدية السليمة، والأحكام الشرعية، والفضائل الإسلامية، يمتد إلى قرون طويلة.

فكان من الضروري، اعتماد سنة التدرج في علاج هذا الواقع المتردي، وأخذ النفوس بالحكمة، والسير بها خطوة خطوة حتى يتحقق المطلوب: «بدأت جمعية العلماء - من أول يوم نشأتها - بتحرير العقول والأرواح، تمهيدا للتحرير النهائي. فوضعت برنامجا محكما، لوعظ الكبار وإرشادهم بالدروس والمحاضرات، حتى بلغت من ذلك أقصى غاية من الجهد وأقصى غاية في النتائج، وأصبح الشعب - في جملته - صافي الفكر، مستقل العقل، متوهج الشعور، مشرق الروح، فاهما للحياة، واسع الأمل فيها، عاملا للحرية والاستقلال، مؤمنا بماضيه، عاملا على ربط الحاضر ووصله بالوطن العربي الأكبر، متبصرين في وزن رجاله، لا ينطلي عليه غش الغشاشين ولا تدجيل الدجالين، ومعلوم أن هذه المعاني لا تدخل النفوس دفعة واحدة، وإنما تكمل بالتدرج، والذي وصل إليه الشعب الجزائري من هذا هو نتيجة نيف وعشرين سنة من أعمال جدية متواصلة»⁽¹⁾.

وكما التزمت الجمعية بقاعدة التدرج في تربية الفرد الجزائري، كذلك فعلت في تغيير المجتمع، فانتهجت سياسة المراحل، وقد بين إبراهيمي ذلك لكتاب البصائر الأولى عام 1936 فقال: «إن الجمعية قد جرت على سنة الله في تطور الكائنات، وقد كان من أطوارها طور للتمهيد وطور لإزالة الانقراض، وهي الآن في طورها الثالث وهو طور البناء والتشييد، ولكل طور من هذه الأطوار حكمه وحكمته وظروفه وملابساته وأسبابه ومقتضياته»⁽²⁾.

(1). إبراهيمي، آثار محمد البشير إبراهيمي، ج 4، ص 393، 394.

(2). المصدر نفسه، ج 1، ص 147.

إن وعي جمعية العلماء بمقتضيات الواقع الجزائري، وخبرتها العميقة بالتحديات المفروضة، جعلها تركز في عملها التغييري على الإصلاح الديني قبل الإصلاح العلمي، يقول الإبراهيمي مبررا ذلك: « إن تقديم الجمعية للإصلاح الديني قبل الإصلاح العلمي ضرورة اقتضاها طغيان الفساد في العقائد حتى أصبح من آثاره اللازمة التزهيد في العلم.»⁽¹⁾

كذلك بذلت الجمعية الجهود الجبارة، وأنفقت السنوات الطوال في محاربة البدع والمنكرات، وأجلت الاهتمام بالإصلاح العلمي حتى تهىء النفوس التي أفسدتها الخرافات والأضاليل لانطباع الملكات العلمية عليها: «وفات هؤلاء الظانين أن من اللوازم القريبة لتلك المنكرات التي تشتد الجمعية في محاربتها التزهيد في العلم وإفساد الفطر وفشل العزائم، وقتل الفضائل النفسية... وهي رذائل لا تجتمع واحدة منها مع ملكة علمية صحيحة فكيف بها إذا اجتمعت»⁽²⁾

وهذا الفقه الواقعي نفسه، هو الذي حدا بها إلى تقديم التغير على مستوى الجبهة الداخلية قبل التصدي للجبهة الخارجية التي يمثلها الاستعمار الفرنسي. فعكفت على إعادة بناء وتشكيل الأمة الجزائرية، بتطهير عقيدتها، وتصحيح عبادتها، وتسليحها بالعلم والفكر السليم، وتحصينها بالأخلاق والفضائل، وشحذ فعاليتها، وشحنها بالطاقة اللازمة: «حتى علم الجاهل واهتدى الضال وفاء إلى الرشد الفوي»⁽³⁾، ثم انتقلت إلى الجبهة الخارجية، لتخوض معركة المواجهة والصراع ضد الاستعمار الفرنسي، من أجل تحرير الجزائر وبناء دولة قوية.

(1). الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 70، 69

(2). الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 138

(3). المصدر نفسه، ص 138 .

ويؤكد الإبراهيمي أن هذا الاهتمام بقاعدة التدرج والمرحلية، والالتزام بترتيب الأولويات، كان خطة واضحة، ومنهجاً مرسوماً في أذهان علماء الجمعية منذ انطلاقتهم الأولى، مقتدين في ذلك بمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في التغيير حيث يقول: «وهذا المنهج الذي سلكناه وقدرناه من أول خطوة، هو الذي يجلي عذرنا في السكوت عن بعض الباطل إلى حين... وإن لنا في رسول الله لأسوة حسنة، فقد كان يسكت عن أهون الشرين إلى حين، لخفة ضرره، أو عن أعظم الشرين إلى حين، ليرصد له القوى ويستجمع الوسائل، وكلاهما شر، وكلاهما باطل من يوم جاء الحق، وباليث قومنا يعلمون السر في مناجزته للشرك، وإرجائه للخمر، أو في تقديمه للتبني وتأخيرهِ للاسترقاق»⁽¹⁾

لقد تظن الإبراهيمي وإخوانه إلى أن اعتماد التدرج والمرحلية في التعامل مع الواقع الجزائري، والالتزام بسلم الأولويات، الذي يقتضي وضع كل شيء في مرتبته فلا يؤخر ما حقه التقديم، أو يقدم ما حقه التأخير، هو المنهج الأسلم الذي يمكنهم من السير الطبيعي في عملهم التغييري. ذلك أن إغفال سنة التدرج، وخطأ المراحل، وافتقاد ميزان الأولويات، كان سيجعلهم يتحركون في مساحات عريضة أكبر من طاقاتهم، ويقاومون على جبهات متعددة أوسع مما تستوعبه قدراتهم، وكان ذلك سيجر الجمعية حتماً إلى إحداث ثغرات في بنائها الداخلي، يغري الأعداء بالتسلل منها لضربها في الصميم.

مراعاة السنن الاجتماعية

ونقصد بها الالتزام في عملية التغيير بالسنن الثابتة التي تحكم الأنفس والمجتمعات، هذه السنن التي تعد قوانين صارمة ودقيقة، يخضع لها العالم

(1) الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 164 - 165 .

الإنساني. وقد وضعها الله، وقدرها لتحكم حركة الحياة والأحياء، وهي لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابي أحدا، كما أنها مطردة تتكرر نتائجها كلما وجدت مقدماتها: «سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا»⁽¹⁾

وقد وجه القرآن المسلمين إلى هذه الناحية، وأكد عليهم ضرورة السير في الأرض حتى يكتشفوا هذه السنن التي تحكم حركة الأنفس والمجتمعات، ويتمكنوا - بالتالي - من تسخيرها في الإنجاز الحضاري.

لذلك كان تحقيق الغايات في العمل التغييري، مرتبطا إلى حد بعيد بالوعي بهذه السنن والعمل من خلالها. وكل اضطراب أو سلبية في النتائج إنما هو نتيجة طبيعية لاضطراب في الأخذ بالأسباب، فكل من أخذ بالأسباب وصل إلى النتيجة، ومن اصطدم بها وحاول القفز فوقها، جاءه العقاب على ذلك الخطأ الذي تجاهل بموجبه سنة ثابتة من سنن الله في خلقه.

والإبراهيمي يؤمن أن هذا العالم الذي أبدعه الخالق لا يسير في فوضى وعبث، بل هو محكوم، سواء في عالم المادة أو في عالم الأنفس، والمجتمعات، بسنن ثابتة تضبط مساره: «إنما نحن في عالم أسباب ومسببات تصطرع فيه سنن ثابتة لا تبدل فيها ولا تغيير»⁽²⁾

وقد سارت جمعية العلماء في عملها التغييري على هذا المبدأ، فعملت منذ خطواتها الأولى على مواجهة الحياة مواجهة علمية يجري فيها ربط الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، في إطار احترام سنن الله في الأنفس والمجتمعات: «وجمعية العلماء صاحبة رسالة مقررة ومبدأ ثابت وهدف واضح، ومن خصائصها

(1). الأحزاب، 62.

(2). الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 168.

أن تقول وتعمل وتهدم المتداعي لتبنى على أساس صحيح، وتسعى إلى الغايات بوسائلها الطبيعية أو المعقولة، وتراعي سنة الله في الأنفس والآفاق»⁽¹⁾.

ونظرا لأهمية هذه السنن وتأثيرها العميق في الفعل التغييري، اهتم بها الإبراهيمي في مواضع كثيرة من كتاباته، وأكد غير ما مرة أن ترك الأخذ بالأسباب والغفلة عنها، هي التي جرت على المسلمين هذا التخلف الذي يتخبطون فيه. لذلك حرص - في حديثه مع رجال التربية - أن يوجههم إلى ضرورة التوظيف المحكم لهذه الثقافة السننية، في تربية الأجيال: «بينوا لهم الحقائق، واقربوا لهم الأشباه بالأشباه، واجمعوا النظائر إلى النظائر، وبينوا لهم العلل والأسباب، حتى تنبت في نفوسهم من الصغر ملكة التعليل، فإن الغفلة عن الأسباب هي إحدى المهلكات لأمتكم، وهي التي جرّت لها هذه الحيرة المستولية على شوارعها، وهذا التردد الضارب على عزائمها، وهذا الالتباس بين المتضادات في نظرها»⁽²⁾.

وقد لاحظ أن المسلمين في أغلبهم غافلون عن هذه السنن، وكثيرا ما يكتفون في استعراض الحوادث بالوقوف عند الظواهر دون البحث عن العلل التي تقف وراءها، والاهتمام بالنتائج، والغفلة عن مقدماتها: «ومن المؤسف أن المسلمين افتتنوا بالمظاهر عن استجلاء الحقائق واستنباط العبر والحكم، ودراسة الأسباب اللازمة لمسبباتها، فلا يلهج قديمهم ولا حديثهم إلا بالنصر والخوارق المصاحبة للنصر، وكثيرا ما يكون الافتتان بالنتائج مشغلة عن الحقائق والأسباب التي هي محل القدوة»⁽³⁾.

(1). الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 230.

(2). الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 300.

(3). الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 73.

وهذا الداء الذي أصاب العقل المسلم في القرون المتأخرة، هو الذي دفع بالمسلمين إلى الركون إلى التفسير العجائبي للحوادث، وعدم ربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج، ففي حديثه عن ذكرى غزوة «بدر» يثير الإبراهيمي هذه القضية، ويحاول أن يتجاوز جميع ما أضفته عليها العقول القاصرة من مظاهر الإعجاز والعجائبية، ليصل إلى أن هذه الغزوة لم تنته بالنصر إلا لأن الأسباب التي أخذ بها المسلمون كانت ستوصلهم حتما إلى هذه النتيجة.

لذلك فإن الاعتقاد بأن انتصار الإسلام على الوثنية يوم «بدر» من الخوارق الخارجة عن نطاق الأسباب: «إبطال لآثار التشريع الإلهي في النفوس، فإن الخوارق ليست محلا للأسوة، ولا أساسا للتشريع، والإسلام لم يبن قواعده وأحكامه على الخوارق، وإنما بناها على الأسباب والمسببات، وعلى السنن الثابتة التي يتعايش بها البشر وتدخل في إمكانهم، ولو بناه على الخوارق لبطل العقل، وشلت الإرادات، وفلت العزائم، هذه الثلاثة هي التي يجعلها الإسلام أدوات لفهمه وتثبيته»⁽¹⁾.

فغزوة «بدر» في رؤية الإبراهيمي - ليست معجزة من السماء، يُكتفى باستعراضها والافتخار بمظاهر انتصار الحق فيها، بل هي نموذج إنساني في متناول الناس جميعا، وعلى المسلمين أن يفقهوا ذلك ليربّحوا في حيثيات هذه الغزوة عن سنن النصر والهزيمة التي تتحكم في حوادث التاريخ حتى تكون - كما أرادها الله - مجلى للعبارة ومحلا للقدوة، وحتى يدركوا أن النية الخالصة لله، والتحمس لنصر دينه لا يكفيان وحدهما لتحقيق النجاح في الأعمال، والنصر في المعارك، لأن سنن الله لا تحابي أحدا، وهي تهب النصر والنجاح لمن يكتشفها

(1). الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 73

ويحسن استعمالها: «وكل ما يعج به الكون من يوم خلقه الله إلى يوم يفنيه هو سنن للكون والفساد تصطرع في ميدان النزال فتكون الغلبة لأقواها حسا أو لأقواها معنى، فإذا اتصلت بالعالم الإنساني، كان الآخذ بالأسباب المحسن لاستعمالها، المقدر لمقاديرها وظروفها هو الناجح»⁽¹⁾

وانتصار الفئة القليلة من المؤمنين في «بدر» على المشركين وهم أكثرية، ليست - في نظر الإبراهيمي - معجزة غيبية أيضا بل هو أمر: «جار على السنن المعتادة، وما أُتي من يعتقد خلاف هذا إلا من الغفلة عن سنن الله، أو من التقصير في استقراءها»⁽²⁾.

فقد اجتمع للمسلمين أسباب عديدة مكنتهم من انتزاع النصر عن جدارة واستحقاق، منها التفاهم حول قيادة موحدة، يمثلها الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي كان يتحلى بصفات القائد المثالي في ضبط الأعصاب في الشدائد، والشجاعة في المواقف، والتواضع لجنوده، واستشارة أصحابه في كل عمل حاسم، ومنها أيضا حسن الإعداد والتدبير باختيار الموقع الإستراتيجي الممتاز، وإرسال دوريات الاستطلاع ومراقبة المسافة التي بين بدر والمدينة⁽³⁾.

أما السبب الجوهرى الذي طغى على كل هذه الأسباب ورجحت له الكفة في هذه الغزوة، فهو العقيدة الراسخة والمعنويات العالية، يقول الإبراهيمي - بعد أن عدد الأسباب المادية التي قدمها المسلمون بين يدي المعركة - : «إن المسلمين انتصروا يوم بدر بالإيمان الصحيح القوي الذي ثبت العقائد فثبتت الإرادات

(1) - الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 74

(2) - المصدر نفسه، ص 74

(3) - خطاب - محمود شيت، الرسول القائد، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد، العراق، ط 2، 1960.

ص 78 - 84

فاندفعوا اندفاع من يريد أن يموت ليحيا دينه وقومه وبلاده، كانوا يعتقدون أن ما يقاتلون عليه هو الحق من ربهم، وأن محمدا رسول الله الصادق الأمين، وأن موتهم في سبيل دعوته طريق إلى الجنة التي وعدوها.... أما الفئة الكثيرة فقد خرجت قدافع عن العرض الزائل...»⁽¹⁾

فالنصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد ووفرة السلاح فقط، بل إن قوة الروح المعنوية لدى الجيوش عامل أساسي في إحراز النصر، وذلك ما أثبتته غزوة بدر بصفة عملية، تبعه إثبات من القرآن بصفة علمية في قوله تعالى: «يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين»⁽²⁾. ثم أكدته كافة الحروب في كافة أدوار التاريخ، مما يوحي أن هذا الأمر سنة جارية في الحياة يجب أن يأخذها المسلمون بعين الاعتبار في واقعهم.

ولئن تحدث إبراهيمي عن غزوة بدر من هذه الناحية فقط، وأغفل الجانب الإعجازي فيها فلم يذكر إمداد الله للمؤمنين بالملائكة للقتال معهم، فلأنه كان حريصا على أن ينبه المسلمين إلى الجوانب التي هي محل القدوة والأسوة، حتى يبنوا أمورهم على فقه السنن الكونية فلا يبالغوا في الاتكال على الخوارق والمعجزات. بل إن بعض الدارسين يرى أن نزول الملائكة إنما كان بغرض تطمين قلوب المؤمنين، واستجابة حسية لشدة استغاثتهم فقط، ولم يكن لهم أي تأثير

(1). إبراهيمي. في قلب المعركة، ص 74، 75.

(2). الأنفال 65، 66.

ذاتي في تحقيق النصر الذي علقه الله بأسبابه ومقتضياته ⁽¹⁾، مستشهدا بقوله تعالى: «وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم» ⁽²⁾.

واستفادة من هذه المعطيات كلها، حاول الإبراهيمي أن يستشرف مستقبل الثورة التحريرية في الجزائر، وهي في أوج التهابها، والاستعمار الفرنسي يحشد لها العدة والعتاد ويؤلب عليها قوات الحلف الأطلسي، فيقول في ثقة عالية: «إذا كانت النتائج تنتزع من المقدمات فإن النصر محقق للثورة الجزائرية: هذا ما تحكم به العقول الراجحة، وتقتضيه أصول الاجتماع الإنساني وتؤيده العادات الجارية» ⁽³⁾.

ثم يستعرض واقع هذه الثورة، وقيسه على السنة الجارية التي تحكم عوامل النصر والهزيمة، فيرى بشائر النصر بادية من خلال هذه المواجهة العنيفة، بين فئة قليلة صابرة وفئة كثيرة باغية، والتي يراها بعض الناس - الذين يقفون عند ظواهر الأمور - غير متكافئة: «والثورة الجزائرية دائرة في هذا المدار من أول يوم، جارية على السنن التي يقتضيها التدافع البشري في الحياة... وهي تجبر نقصها في الإعداد الحسي الذي تقتضيه السنن بإعداد روحاني له أثره في نتائج الصراع بين كل مجموعتين، وله وزنه في ترجيح كفة على كفة، وله قيمته في نصر العدد القليل على العدد الكثير، ذلك كله ثابت بشهادة الدين وشهادة الحس» ⁽⁴⁾.

وتمخضت الثورة الجزائرية عن النتيجة الباهرة التي تنبأ بها الإبراهيمي،

(1). البوطي، دكتور محمد سعيد رمضان، فقه السيرة، دار الفكر، دمشق سوريا، ط 8، 1980، ص 224

(2). الأنفال، 10

(3). الإبراهيمي مخي قلب المعركة، ص 168

(4). المصدر نفسه ص 168

فهزم المجاهدون الجزائريون جحافل الجيوش الفرنسية المدججة بالأسلحة،
بمعنوياتهم العالية وإيمانهم الراسخ، على الرغم من قلة عددهم وعدتهم.
ويندرج في هذا الإطار السنني، دعوة الإبراهيمي الصريحة إلى دراسة
التاريخ البشري، والسير في الأرض من أجل اكتشاف هذه السنن الاجتماعية،
فالإعتبار بها في الواقع، حتى يتمكن المسلمون من فقه حركة التاريخ، والتحرك
من خلال هذه السنن على بصيرة، بدل أن يخطبوا خطب عشواء في سيرهم نحو
المستقبل.⁽¹⁾

ذلك أن التاريخ هو المختبر الذي يجري فيه البحث للكشف عن هذه السنن.
فاستقراؤه ببصيرة نفاذة، ووعي حاضر، يؤكد أن أحداثه تتكرر وتتشابه إلى حد
بعيد، لأن وراءها سننا ثابتة تحركها وتكيفها، وهذا هو المجال الذي يستفيد فيه
المسلم من التاريخ، حيث يأخذ العبرة من السابقين، بتجاوز مواقع الخطأ في
سيرتهم، وحسن التعامل مع القوى النفسية والاجتماعية التي يتفاعل معها ليحقق
الإبداع الحضاري المتميز.

وفي إشارة إلى ثبات السنن التاريخية واطرادها، يتحدث الإبراهيمي عن
سقوط الحضارات القديمة التي أصابها آفة الظلم والاستبداد، فأنتهي أمرها إلى
الاندثار، ومصادقا للسنة الاجتماعية التي تقرر أن الظلم مؤذن بخراب العمران⁽²⁾.
وقد نبه القرآن المسلمين إلى استقراء التاريخ، للاستفادة من مصائر الأقوام التي
سبقتهم، لتكون لهم درعا واقيا مما قد يقعون فيه إن هم غفلوا عنها: «إن الفائدة
الكبرى التي يعلقها القرآن على السير في الأرض والوقوف على آثار الأمم البائدة

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج. 1، ص 260

(2) - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، دار القلم، بيروت لبنان، ط 1984، ص 286

هي الاعتبار بحال الضالين وعقبي الظالمين، ليعلم المعتبر أن الظلم هو سوس
المدنيات فيقيم العدل، وإذا جاء العدل، جاء العمران، وإذا جاء العمران قامت
المدنية وكان العدل سياجها والعلم سراجها وهذه هي مدنية الإسلام»⁽¹⁾.

وفي ضوء هذا الوعي العميق بالسنن الاجتماعية التي تحكم الأنفس
والمجتمعات، عمل الإبراهيمي على توفير الأسباب المادية والمعنوية التي تقتضيها
عملية التغيير، ويتطلبها واقع المجتمع الجزائري. واستفاد من عناصر القوة
المتوفرة في محيطه، وكان مقتنعا أن إحراز الانتصارات الكبرى والحقيقية، لا بد
أن يبنى أساسها على مقدمات صحيحة، وأن المجتمع لا يمكن تحويل وجهته نحو
الأفضل إلا بفتح مغاليقه التي تتم عن طريق تسخير السنن الاجتماعية التي
أودعها الله في هذا الكون.

وفي هذا الإطار أيضا، كان إيمانه بأن تغيير المجتمع الجزائري والخروج به
من أزمتة الحضارية، يمر حتما عبر تغيير النفس البشرية مصداقا للسنة التي
سجلها الله في كتابه الكريم: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»⁽²⁾
فعمل على صياغة الإنسان المسلم الجزائري صياغة متكاملة على كافة المستويات:
العقدية والروحية والأخلاقية والسياسية تمهيدا لتغيير واقع الأمة.

وعندما وعت الأمة الجزائرية ذاتها، وتحركت نحو المستقبل تؤدي دورها
الرسالي، رأى الإبراهيمي ذلك مصداقا لهذه السنة الاجتماعية: «ثم زاغت عن
صراطه قليلا فتخلّى عنها قليلا، وهاهي ترجع إليه قليلا، وتسير إلى مرضاته

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 260.

(2) - الرعد: 11 .

دببياً، وتغير ما بنفسها عسى أن يغير حكمه عليها»⁽¹⁾.

إشراك الجماهير في التغيير

من الشروط الأساسية التي يقوم عليها منهج التغيير كذلك، إشراك الجماهير في عملية البناء الحضاري، بمعنى أن تتجاوز اهتمامات قادة المشروع حدود النخبة التنظيمية إلى رحابة القاعدة الجماهيرية، والاتصال الواسع بالفئات الشعبية على اختلاف طبقاتها، ومواقعها، وثقافتها، وإسهامها في إنجاز الأعمال، وتحميلها المسؤوليات والأعباء، ودعوتها للمشاركة بجهودها وطاقاتها، وأموالها، لدفع حركة التغيير إلى الأمام، وإشعارها بالأهمية القصوى التي تكتسبها مشاركتها الفعالة في هذا المشروع.

وإشراك الجماهير في التغيير، يأتي بعد اقتناعها بصلة مشروع التغيير الوثيقة بمصالحها، واهتماماتها، وتطلعاتها، وانبثاقه من ضميرها ومعتقداتها.

فإذا أحسست أنها معنية بهذا التغيير تجاوزت معه بكل وجدانها، واحتضنته بكل إخلاص، ودافعت عنه بحرارة، وكانت له قوة دافعة. ذلك أن الطبقات الشعبية تمتلك مخزونا هائلا من الإمكانيات الروحية والمادية، إذا وجدت السبيل الأمثل لاستخراجها وتجميعها واستثمارها عن طريق التعبئة العامة، فسوف تشكل طاقة فعالة ملء كل الفراغات، وسد كل الحاجات، وتنفيذ كل المشاريع.

وتبني الجماهير الواسعة لمشروع التغيير، والتزامها بخطته العملية، واستشعارها المسؤولية التي تقع على كاهلها لإنجاحه، يعطيه دفعا قويا، ويمكن له في أرض الواقع، ويوفر له فرصا كثيرة للنجاح. لذلك كانت العزلة والارتفاع عن الطبقات الشعبية واحتقارها، والاستهانة بقدراتها، والاكتفاء بتوجيه الخطاب إليها

(1). الإبراهيمي في قلب المعركة، ص 22

من الأعلى، أسلوبا خاطئا فيه الكثير من المخاطرة بمشروع التغيير، الذي يمس هذه الجماهير بالدرجة الأولى.

إن الطبقات الشعبية إذا لم تحس بدعاة التغيير، ولم تتعرف عليهم، ولم تلمس فيهم اهتماما بمشاكلها، وتقديرا لمعاناتها، ومحاولة منهم للتقرب منها، والاندماج فيها، وإشراكها في أفكارهم، وآمالهم وطموحاتهم، أعرضت عنهم وتخلت عن المشروع، ويكون ذلك إيذانا بفشله، حيث أثبتت التجارب، أن الابتعاد عن الجماهير، يؤدي إلى طغيان مركبات الفشل، وروح الانعزال، فيتحول مشروع التغيير إلى برنامج خاص بفرقة ضيقة الحدود، مما يؤدي إلى تبخر فعاليته وانقراض أدواره التاريخية.

من هنا، كان إشراك الجماهير شرطا أساسيا في عملية التغيير، وقاعدة فعالة تكتسي أهمية قصوى في نجاح هذه العملية أو إخفاقها.

وقد كان الإبراهيمي منذ انطلاقه في حركته التغييرية، متوجها بكل وجدانه وطاقاته للأمة الجزائرية، موجها كل اهتماماته إليها، عاملا بكل جهوده على انتشارها من مظاهر تخلفها، وسقوطها الحضاري، فنزل إليها منذ أول يوم عاد فيه إلى الجزائر في سنوات العشرين، واندمج معها في الأسواق والساحات العامة والولائم، وشاركها حياتها اليومية، وحاول من خلال ذلك أن يكسب ودها ويقيم معها علاقات المحبة والثقة المتبادلة، وأن يظهر أمامها بمظهر الناصح المشفق الذي يخشى عليها الضرر والفساد، والعامل المخلص الذي يسعى إلى تصحيح دينها وإحياء لغتها، ومواجهة عدوها الذي أذلها واستعبدتها.

وهو يؤكد في كتاباته أن العلماء المصلحين، كانوا يعتمدون هذا السلوك نفسه، حيث انبثوا في جميع أنحاء الوطن، واختلطوا بآبناء الشعب يبصرونه

بوضعه المزري، ويحثونه على تغييره، وينيرون أمامه طرق الخلاص، ويوضحون له وسائل الانعتاق من التخلف والانحطاط، ويقنعونه أن مفتاح الحل بين يديه، وأن صدق العزيمة وقوة الإرادة منه هي التي توصله إلى النصر. فالتحم الشعب مع حركة الجمعية، وحمل على عاتقه أعباءها، عندما شعر أنها مسئلة من أعماق واقعه، وشكل حولها درعا يحميها من أعدائها، وأصبحت هموم جمعية العلماء هي هموم الشعب، وانشغالاتها هي انشغالاته وقضيتها المصيرية هي قضيته بأتم معنى الكلمة.

وهذا ما حدا بالإبراهيمي إلى نفي صفة النخبوية الخاصة عن جمعية العلماء، حيث أشار إلى أنها لم تؤسس لتجمع حولها صفوة العلماء للتدارس والتبادل الفكري، بل هي كائن اجتماعي متولد من رحم المجتمع، وهي نتيجة حتمية أملت ظروف الأمة الصعبة، وهي أيضا مطلب شعبي، انبثق في وقت حرج من آلام الأمة وآمالها، ليعبر عن ضميرها ويتفاعل مع نبضها، ويتعايش مع طبقات الأمة المختلفة، لينطق باسمها، ويشد أزرها في معركة إثبات الذات التي تخوضها: «فجمعية العلماء المسلمين ومبدؤها الإصلاح الديني هما في الحقيقة شيء واحد، هما فكرة معتصرة من حال الأمة الجزائرية المسلمة في اجتماعها ومن حيث أنها قابلة للتطور وقد اقتضاها الوجود فوجدت والتزمها التطور فظهرت وقد حان حينها وشبت عن طوق الخفاء فتكونت»⁽¹⁾.

لذلك احتضنتها الأمة عند ظهورها، ودعمت العلماء في عملهم، وسارت وراءهم مؤيدة مساندة، باذلة جهدها ومالها لتحقيق المشروع الذي أحست أنها المستفيدة الأولى منه: «إن السر في تأسيس جمعية العلماء بتلك السهولة وبتلك

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج ١، ص 58

المحاولة الهينة هو استعداد الأمة لظهور هذا المشروع العظيم فيها فانقادت إليه بشعرة، وانجرت إلى بناء صرحه بنملة... ومعنى هذا كله أن الأمة الجزائرية استيقنت سفة الأيدي التي كانت تقودها باسم الدين فصممت على التفلت منها والقاء المقادة إلى أيدي العلماء لتبتديء السير في نهضتها على هدى وبصيرة، فقالت للعلماء اجتمعوا فاجتمعوا»⁽¹⁾.

وكانت جمعية العلماء تدرك ثقل وزن الأمة في مشروعها، وتبني أمرها كله عليها، وتعرف أن ضخامة التحديات التي يفرضها الواقع الجزائري على مشروع التغيير، لا يمكن تجاوزها إلا بتجنيد الطاقات الشعبية، وتعبئة الأمة، لأن المهمات الكبرى لا تنجز إلا بواسطة الجماهير: «إن هذه الأمة - يأبنائي - هي أمتنا، وهي رأس مالنا شئنا أو أبينا، وهي عوننا على العلم، وهي مددنا وملأنا وهي نصرتنا ومعادنا، وهي مناط قوتنا، ومظهر أعمالنا، فعلياً أن نراعي شعورها في غير واجب يترك، أو محرم يؤتى، وأن نسير بها إلى الغاية في رفق وأناة»⁽²⁾.

كما كانت تعدها شريكا حقيقيا وفعالا في مشروع التغيير، تتحمل قسطا وافرا من المسؤوليات الهامة في إنجاح هذا المشروع، ويؤثر تقصيرها أو تراجعها في سيره: «فجمعية العلماء والأمة شريكتان متضامتان في احتضان هذه الحركة، والقيام عليها، والعمل على نمائها، حتى تتشقق عن نهضة شاملة تفرع⁽³⁾ النهضة رسوخا وتمكنا، ولا يشترك اثنان في عمل إلا كان العمل بينهما كالطائر لا ينهض إلا بهما»⁽⁴⁾.

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 123

(2) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 297

(3) - تفرع: تعلق، وتسمو، من الفرع وهو أعلى شيء، (ابن فارس، أبو الحسين أحمد، مقاييس اللغة، ج 4، ص 491)

(4) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 347

ونظرا للاعتبارات السالفة الذكر، حرصت الجمعية على أن تكون عند حسن ظن الأمة، فعملت في جميع أطوارها على أن تكون الثقة المتبادلة هي جوهر العلاقة التي تربطها: «ولما كان موضوعها الأمة بنت أمرها معها على الصدق والثقة، تعمل للأمة بصدق وتعمل معها بثقة»⁽¹⁾.

ومما وطد هذه العلاقة ورسخها، وجعل تجاوب الأمة مع الجمعية عميقا، والتحامها بها قويا، وضوح الخطاب الذي كانت توجهه الجمعية للجماهير، حيث تميزت مقدرات خطابها بالوضوح التام، سواء في تحديد الأهداف، أو في تفاصيل خطة العمل: «وزاد هذه العلاقة متانة وتوثقا أن الجمعية تعمل للأمة في النهار الضاحي، وتعاملها على المكشوف، وتبني لها قبل أن تطالبها بالثمن، وتشركها في العمل، فالأمة هي التي تأخذ وهي التي تعطي، ويد الأمة هي التي تقبض وهي التي تدفع»⁽²⁾.

لقد كان الإبراهيمي يدرك أن إشراك الأمة في عملية التغيير، وتفعيل دورها الحضاري لا يتأتى إلا إذا كان الخطاب الموجه إليها واضحا ومسوغا، والأهداف مرسومة، والبرامج العملية مناسبة، عندئذ يمكن كسب ثقتها، وتحميلها جزءا كبيرا من مسؤوليات التغيير، فقد أفادت: «الدراسات المتخصصة في علم الاجتماع السياسي أن الجمهور لا يتحمس لمساندة أي تيار إلا إذا تحقق فيه شرطان: الأول أن يفهم الجمهور مقاصد التيار وأهدافه، والثاني أن يجد الجمهور لدى التيار حل مشاكله الحقيقية التي يعاني منها»⁽³⁾.

(1). الإبراهيمي. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 230.

(2). المصدر نفسه، ج 4، ص 231.

(3). الشاذلي، د. توليق، وآخرون، الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية، تحرير وتقديم: عبد الله النفيسي، مكتبة مدهولي، القاهرة، مصر، ط 1، 1989، ص 14.

وانطلاقاً من هذا التصور الواضح لدور الأمة في نجاح عملية التغيير، وجه الإبراهيمي انتقاداته لرجال الأحزاب الجزائرية آنذاك، والذين عزلوا أنفسهم عن الجماهير العريضة، ولم ينزلوا إليها ليعايشوا ألامها وآمالها، واحتقروا دينها ولغتها، وتزيوا بزّي الغرب الذي كان يعني عند الشعب انحيازاً للاستعمار الفرنسي، مؤكداً لهم أن الجماهير لا تلتف حول من يسيء إليها، ويتكبر عليها، ويعاملها بغطرسة: «إن أسوأ أعمالكم احتقاركم للسواد الأعظم من الأمة - وهي أمتكم - فلا تفكرون في إعدادها، ولا في درجة استعدادها ولا تلتفتون إلى تصحيح الأسس فيها، ولا تعاون دينها ولا بلغتها ولا تظهرون بالمظاهر التي تقربكم منها، ولا تتيرون أمامها السبل ببرامج واضحة ومبادئ معقولة ولا تشاركونها في رأي ولا مشورة، ولا تتصلون بها إلا حين ينق غراب الانتخاب»⁽¹⁾.

وقد حذرهم من عواقب هذا السلوك، ونبههم إلى أن الأمة سوف تتخلى عن جميع المشاريع التي سيعرضونها عليها إذا أصروا على البقاء في بروجهم العاجية، وظلوا يخاطبونها من أعلى، وإذا خرجت الجماهير من المشروع، ونقضت يديها منه، كان ذلك إيذاناً بفشله.⁽²⁾

لقد أثبتت تجربة التغيير في الجزائر، أن الالتحام الشديد بين الأمة وجمعية العلماء، كان عاملاً فعالاً في نجاحها، حيث تجملت مسؤولياتها الجسام، وشاركت بإمكاناتها المختلفة، فبنت المساجد والمدارس، واحتضنت طلاب العلم وأنفقت عليهم، وأسست الجرائد والمجلات والنوادي، على الرغم من الفقر المدقع الذي كانت تعانيه: «هذه الأمة الفقيرة التي أجاعها الاستعمار هي التي بنت

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 47 .

(2) المصدر نفسه، ص 50 .

بذريهماتها صروحاً للعلم وحصوناً لأبنائها وهي التي تعهدت بتعمير تلك الحصون والإنفاق عليها»⁽¹⁾.

ونستخلص مما سبق، أن الاعتماد على العمل الجماعي المنظم، واحترام المعادلة الاجتماعية للأمة، والتزام التدرج والمرحلة، ومراعاة السنن الاجتماعية، وإشراك الجماهير في عملية التغيير، تعد في نظر الإبراهيمي من أهم القواعد الأساسية، والشروط الموضوعية، التي ينبغي أن يقوم عليها أي منهج للتغيير يسعى إلى انتشار المجتمع من وضع رديء إلى وضع أحسن حالاً. وهذه القواعد والشروط لا يمكن الاستغناء عنها أو تجاهلها، لما يترتب عن ذلك من اضطراب في حركة التغيير، وتعثّر في سيرها.

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 235

جامعة الأمير

الفصل الثالث

أهدافه وغاياته

القادر للعلوم الإسلامية

إن الوعي بطبيعة الإطار المرجعي وخصائصه وأفاقه، واستيعاب الواقع الإنساني في بعده القطري والمعيش، عاملان أساسيان في وضع البرامج والخطط، ورسم الأهداف والغايات، لأي حركة تسعى إلى إحداث التغيير المنشود لإخراج الأمة من أزمتها الحضارية.

وتعني بالأهداف الوصول بالأمة إلى مستويات راقية على كافة الأصعدة: العقيدة والروحية والسلوكية والاجتماعية والسياسية وغيرها، لذلك لا بد أن يكون لكل حركة تغييرية مجموعة من الأهداف والغايات التي تسعى إلى تحقيقها في هذا الإطار.

وتنقسم هذه الأهداف إلى نوعين أهداف إستراتيجية بعيدة، وأهداف مرحلية وسيطة. وينبغي أن تتميز بالوضوح والشفافية، وأن تكون تعبيراً صادقاً عن آمال وطموحات الشعب، وأن تحمل في طياتها تبشيراً بحلول للمشاكل التي يعاني منها في الواقع، حتى تتفعل معها الجماهير، وتتحمل مسؤوليتها في إنجاز مشروع التغيير.

وقد اهتم الإبراهيمي - منذ وقت مبكر من حياته - بدراسة الواقع الجزائري للكشف عن أمراضه وعيوبه، والبحث عن سبل الخروج بالأمة من حالة الأزمة. لذلك كان من الطبيعي أن يرسم الأهداف البعيدة والقريبة التي يرمي منها التغيير عنده إلى تحقيقها.

ومما لا شك فيه، أن هذه الأهداف كانت نابعة من أعماق الشعب الجزائري، تعبر بصدق عن هويته الحضارية، وعن طموحاته في تحقيق حياة أفضل. وفيما يلي، محاولة لرصد وشرح الأهداف الإستراتيجية والمرحلة التي يقوم عليها منهج

الإبراهيمي في التغيير، حتى تتمكن من رسم صورة واضحة عن طبيعة هذه الأهداف.

الأهداف الإستراتيجية:

وهي الأهداف البعيدة أو الغايات النهائية التي تضعها الحركة التغييرية للوصول إليها، وتحقيقها تكون قد حققت الغاية من قيامها. وهذه الأهداف الكبرى لا يمكن الوصول إليها إلا عبر تحقيق مجموعة من الأهداف الوسيطة أو المرحلية. إن الهدف الإستراتيجي لدى الحركات التغييرية في العالم الإسلامي هو تعبيد الناس لله رب العالمين في العقائد، والشرائع والسلوك، والتفكير، والعمل. وقد كان هذا هدفا ثابتا ومشتركا بين جميع عمليات التغيير، التي حمل لواءها الرسل والأنبياء عليهم السلام مصداقا لقوله تعالى: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»⁽¹⁾.

وقد أشار الإبراهيمي إلى هذا الهدف الإستراتيجي، وعده غاية الغايات من وجود جمعية العلماء المسلمين فقال: «إن الحد الأخير الذي يحدده التاريخ لهذه الجمعية هو اليوم الذي يصبح فيه المسلمون كلهم بهذا الوطن ولا مرجع لهم في التماس الهداية، إلا كتاب الله وسنة رسوله، ولا سلطان على أرواحهم إلا الله الحي القيوم، ولا مصرف بجوارحهم وإرادتهم إلا الإيمان الصحيح تنشأ عنه الأعمال الصحيحة فتشهر آثارا صحيحة»⁽²⁾.

إلا أننا لن نتعرض في هذا المبحث إلى تفاصيل هذا الهدف، باعتباره هدفا

(1). النحل، 36.

(2). الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 63.

ثابتا مشتركا بين جميع الحركات التغييرية التي تنطلق من الإسلام، وإنما سنركز حديثنا على هدف آخر بعيد رسمه الإبراهيمي لحركة التغيير وهو يرتبط ارتباطا وثيقا بخصوصية الواقع الجزائري، ويتمثل في تحرير الجزائر من الاحتلال الأجنبي وبناء دولة مستقلة.

تحرير الجزائر وبناء دولة مستقلة:

إن تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي وبناء دولة جزائرية عصرية مستقلة، في إطار المبادئ الإسلامية، كان هدفا واضحا في رؤية الإبراهيمي منذ 1913، عندما التقى بابن باديس في المدينة المنورة، حيث اقتنعا - بعد النظر في الواقع الجزائري - أن البلاء المنصب على الشعب أت من الطرقية والاستعمار. وإدراك طبيعة الاستعمار، واعتباره أحد مصدرين مهمين للفساد والإفساد في الجزائر، يعني أن المنهج التغييري الذي سينبثق عن هذه الرؤية، سيضع حتما في اعتباره القضاء على الاستعمار للتمكن من رفع البلاء عن الشعب على المدى البعيد.

وذلك ما كان، فقد كانت جهود الإبراهيمي النظرية والعملية كلها تندرج في إطار التمهيد لتحقيق هذا الهدف البعيد، عن طريق إعداد وتكوين الأمة الجزائرية التي تحمل العقيدة الصحيحة، والفكر السليم، وتحس بانتمائها العميق للحضارة العربية الإسلامية، وارتباطها الوثيق باللسان العربي. فهذه الأمة الواعية التي تدرك مكانها في التاريخ، وتستطيع أن تميز عدوها، وتعمل للحفاظ على مقوماتها الحضارية التي تعطيها وجودا مستقلا، هي السلاح الذي كان يعدّه الإبراهيمي وإخوانه ليكون حربا على الاستعمار الفرنسي.

فالإبراهيمي لم يمارس نشاطا سياسيا رسميا يتبنى من خلاله المطالبة بالاستقلال، بإصدار العرائض، والبيانات، وإلقاء الخطب الحماسية، بل انتهج للوصول إلى هدفه طريقا أجدى، وأنفع باعتبار الواقع الجزائري المتردي آنذاك، فعمل على إيجاد الأمة التي تستطيع أن تنهض بهذه المهمة: «أما لباب السياسة بمعناها العام عند جميع العقلاء فهو عبارة واحدة: (إيجاد الأمة) ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس ولغة، ودين، وتقاليده، وصحيفة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالاة بقيمتها وبميراثها»⁽¹⁾.

فإحياء هذه المقومات في الأمة، وشحن فعاليتها عن طريقها، سيؤدي حتما إلى بناء وطن جزائري متحرر من الاستعمار: «وبالإمعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها وتستमित في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها... ثم يقيض عليها من مجموع تلك الحالات إلهام لا يغالب ولا يرد، بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاقت ومتى تلاقحت ولدت وطنا»⁽²⁾.

ويؤكد الإبراهيمي أن تبني جمعية العلماء لهذا المعنى في فهم السياسة جعلها تصطدم مع الاستعمار، الذي تنبّه إلى أنها توظف في الشعب الجزائري معاني الحياة، وترسم له طريق العزة، وتبصره بسبيل الخلاص، وهو الذي كان يراهن على جهل هذا الشعب وغفلته عن مقوماته، وغرقه في ذله، وعبوديته، التي كرسها ليل الاستعمار فيقول: «فالجمعية تريد أمة عربية مسلمة كما هو قسمها في القدر، وحظها في التاريخ، وحقها في الإرث، وحقيقتها في الواقع والمصطلح - تريد أمة كذلك، وتعمل لتحقيق ذلك؛ والاستعمار يريد أمة هيكلا لا تترايط أجزاؤه، ولا

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 44

(2) - المصدر نفسه، ص 44

تتماسك أعضاؤه، يوجه وجهه إلى الغرب، ويمكن في أفكاره لأهواء الغرب... بل يريد الاستعمار أن يقتلع جذور هذه الأمة من تربة، ويغرسها في تربة، فتأتي مضعوفة هزيلة، لا من هذه ولا من هذه»⁽¹⁾.

وكان واثقا من أن البذور الطيبة التي بذرها في الشعب الجزائري هو وإخوانه لن تذهب هباء، لأنها بنيت على أساس صحيح، وعقيدة قوية، فكان ينتظر اليوم الذي يفتح فيه عينيه على الجزائر وهي حرة طليقة: «خطت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة؟ وكتبت الأقدار عليّ أن لا أملك من أرضك شبرا، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبرا؟»⁽²⁾.

وعندما اندلعت الثورة التحريرية الكبرى، تولى مهمة الدعاية لها في المشرق العربي، والتعريف بها في المحافل الدولية، فكان نعم السفير، وأبلى بلامحسنا في دعمها ماديا ومعنويا⁽³⁾، وكان يشعر بصلة وثيقة بهذه الثورة المباركة التي رأى فيها تحقيقا لحلم عزيز طالما راوده، وهو يمهّد الأسباب ويعد أبناء الشعب ليوم المواجهة الحاسمة، وظل يعيش معها بكل وجدانه منتظرا يوم النصر بفارغ الصبر: «أنا أرجو للثورة الجزائرية التي شاركت في التمهيد لها وتهيئة أسبابها ختاماً جميلاً تنال به الجزائر حريتها واستقلالها»⁽⁴⁾.

ولا نبالغ إذا قلنا أن استيقاظ المقومات الشخصية للشعب الجزائري في نفوس أبنائه، كان له أثر هام في تعبئته نفسيا، ومده بمخزون هائل من الطاقة

(1) - إبراهيمي، عيون البصائر، ص 33.

(2) - المصدر نفسه، ص 484، 485.

(3) - في الفصل الثالث من الباب الثالث تفصيل واف لدور إبراهيمي في الثورة التحريرية الكبرى فكريا وممارسة.

(4) - إبراهيمي، «أنا»، الثقافة، ع 87، ص 36.

الروحية، التي مكّنته من الوقوف في وجه فرنسا لمدة سبع سنوات ونصف من الحرب الشرسة.

وقد أثلج الله صدر الإبراهيمي بحصول الجزائر على استقلالها، وتحققت الأمنية التي طالما استشرفها وهو يخوض معركة التغيير، غير أن المبادئ التي ظل يحمل شعاراتها طوال عقود من السنين أعاد خلالها هو وإخوانه للجزائر صبغتها العربية الإسلامية، التي تناوبت عليها الخطط الاستعمارية بالحو والتشويه، أهملت من طرف السلطة السياسية في الجزائر المستقلة، وتبنت القيادة الجديدة بدلها الاشتراكية كنظرية للتغيير في المجتمع الجزائري.

وذلك ما حدا بالإبراهيمي إلى التصدي لهذا الخط الإيديولوجي الأجنبي، والوقوف في وجهه بشدة، منبها إلى خطورة هذا الانحراف وعواقبه الوخيمة على مصير الأمة في بيان 16 أفريل 1964 قائلا: «غير أنني أشعر أمام خطورة الساعة... أنه يجب علي أن أقطع ذلك الصمت، إن وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة ويتخبط في أزمة روحية لا نظير لها، ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل، ولكن المسؤولين - فيما يبدو - لا يدركون أن شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الوحدة والسلام والرفاهية، وأن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم، يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية، لا من مذاهب أجنبية»⁽¹⁾.

ولئن تجاهل المسؤولون آنذاك تنبيه الإبراهيمي وتحذيره، الذي بناه على تجربة واعية طويلة وخبرة عميقة بالمجتمع الجزائري، فقد أثبتت السنوات التي تلت صدق حدسه وصحة نبوءته، وأسفرت التجربة الاشتراكية عن مضاعفات خطيرة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، واضطر الشعب الجزائري إلى

(1) - الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 247.

دفع ثمن هذه التجربة غالبا، وتحمل نتائجها على الرغم من مرارتها وقسوتها.

الأهداف المرحلية:

هي مجموعة الأهداف الجزئية أو القريبة التي تنحصر في إطار مرحلة معينة أو عدة مراحل، وتعد عقبات يجب تذليلها، والتغلب عليها، للوصول إلى الهدف الكلي. وتخضع هذه الأهداف في ترتيبها لمنطق الأولويات، الذي يتطلب منهج التغيير؛ بحيث لا يمكن تحقيقها دفعة واحدة وبأسلوب واحد، وإنما تتدرج في عدة مراحل، بأساليب تختلف باختلاف طبيعة الهدف والمرحلة. وهي تتميز بعدم ثبوتها، لأنها أهداف مؤقتة، يتم تجاوزها بعد تحقيقها إلى أهداف قريبة أخرى في سبيل الوصول إلى الهدف الإستراتيجي.

وهناك أهداف وسيطة يتطلب منطق الأولويات أن يتم التركيز عليها في مرحلة معينة، ويكون تحقيقها ضروريا جدا للمرور إلى مرحلة أخرى، فيجب أن ينظر إليها كهدف إستراتيجي مرتبط بتلك المرحلة.

إن إيمان الإبراهيمي بضرورة التزام التدرج والمراحلية جعله يرسم لكل مرحلة أهدافها، ويحدد بدقة الأولويات التي تتطلبها حركة التغيير. ففي مرحلة الإعداد والتمهيد، وضع نصب عينيه حتمية الاصطدام بالطرقية، ومهاجمتها، وشن معركة حاسمة ضدها تكون هي الفاصلة، لاقتناعه أنها علة العلل في المجتمع الجزائري، ومنها تنبع كل الشرور لكونها مصدر البدع والخرافات والأضاليل: «التي مهدت للانحلال وفساد الأخلاق بين المسلمين، ومكنت للضعف والخور في نفوسهم، والوهن والفسل في عزائمهم، وللزيف والاعوجاج في فطرتهم، وللرثاثة والنكث في روابطهم، ثم صيرتهم - لذلك - حمى مستباحا ونهيا مقسما»⁽¹⁾.

(1) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 345.

وكان القضاء على الطرقية هدفا مرحليا أولويا هاما جدا، لأنه كان السبيل الوحيد الذي تمر عبره عمليات تجديد الدين وإحيائه في الجوانب العقدية والفقهية والروحية، وإعادة ربط الأمة بمصادر الإسلام النقية الصحيحة، البعيدة عن كل مظاهر التعطيل والتأويل والتضليل.

وفي مرحلة البناء والتكوين، كان الهدف هو نشر العلم والثقافة العربية، والخروج بالأمة من مناهات الأمية والجهل، «تكوين عقلية علمية صحيحة، تواجه الحياة مواجهة علمية وتربط النتائج بالمقدمات، عن طريق تكثيف عمليات بناء المساجد والمدارس والمعاهد والنوادي وما إليها. يقول إبراهيمي:» وكان الطور الثاني طور بناء وتشبيد ... بناء للعقول والأرواح والنفوس بمواد العلم والحكمة والفضيلة وتشبيد الحياة الفاضلة الحافلة بالسعادة والنضرة، المبنية على المثل العليا من الرجولة والبطولة والنبوغ»⁽¹⁾

وفي المرحلة الثالثة، مرحلة المواجهة والصراع السياسي مع الاستعمار الفرنسي، كان التركيز واقعا على تحصين الإنسان الجزائري بالوعي السياسي، وتحسيسه بدوره الحضاري في إنقاذ الأمة من كابوس الاستعمار، وتنبيهه لفظاعة الجرائم الوحشية، والمظالم التي ترتكبها السلطة الاستعمارية في حق الشعب، وإقناعه أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وأن العدو لا يفهم إلا هذا المنطق، وأن الثورة المسلحة الشاملة هي السبيل الأمثل لإعادة الكرامة المفقودة.

ومما لا شك فيه أن هذه الأهداف المرحلية كانت كلها تصب في مجرى واحد هو العمل الجاد، وحث الخطى نحو الهدف الإستراتيجي الذي يتمثل في تحرير الجزائر وبناء دولة مستقلة. لذلك كان إبراهيمي يرفض استعمال مصطلح «طلب

(1). إبراهيمي، آثار محمد البشير إبراهيمي، ج3، ص 333.

الاستقلال» ويصر على أن الكلمة الصائبة في هذا المقام هي «العمل للاستقلال»⁽¹⁾.
والجدير بالذكر، أن هناك - إلى جانب ذلك - أهداف وسيطة كثيرة ومتنوعة،
تخللت المراحل السالفة الذكر، وكانت تشكل جزءا هاما من منهج التغيير عند
الإبراهيمي. وحتى تتضح صورة هذه الأهداف وطبيعتها سنحاول رصدها وشرح
أهمها بصفة عامة دون ربطها بمراحلها.

١ - تجديد الدين وإحيائه

لقد انتهى أمر الدين في الجزائر مع بداية هذا القرن، إلى حالة من
الركود والسلبية الناتجة عن رواسب قرون الانحطاط التي انفصل المسلمون فيها
عن حقيقة دينهم. فقبل ظهور الحركة الإصلاحية، كانت العقيدة تشوهها الضلالات
والأوهام والخرافات⁽²⁾، وكان الفقه يثقل عليه الجمود والتقليد والتعصب المذهبي،
وكان التصوف - الذي استأثر بالحياة الدينية في الجزائر - قلعة تموج بمظاهر
البدع، والمنكرات والفساد، ونتيجة لذلك، أصيب العقل الجزائري بالجمود والقحط
الشديد، وغلبت عليه الأوهام، فتحكمت فيه مظاهر الشعوذة والخرافة، وطبع على
الانقياد والتسليم، الذي شل فيه القدرة على الحركة والإبداع⁽³⁾.

وانطلاقا من هذا الواقع الأليم الذي آلت إليه حال الدين في الجزائر، عمل
الإبراهيمي على تجديده وإحيائه، ونفض غبار السنين العجاف التي توالى عليه،
وفق فهمه الصحيح للإسلام، والاهتمام بإنقاذ العقل الجزائري من بين أنياب
الجهل والخرافة، وكانت سبيله إلى ذلك تطهير الدين من البدع والخرافات

(1) الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 452.

(2) خرفي - دكتور صالح، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 12.

(3) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 164، 165.

والأوهام، والرجوع به إلى نقاوته وسماحته في عقائده وعباداته وأخلاقه، وترقية فكر المسلم وإرشاده إلى الأخذ بأسباب الحياة العصرية عن وعي وبصيرة. وقد أكد أن رسالة جمعية العلماء - تضع على رأس اهتماماتها - تجديد الدين وإحيائه، وهي تعد ذلك هدفا حيويا في عملها التغييري، وقد حدد الخطوط العريضة لهذه العملية في قوله: «هي إحياء الإسلام بمعناه الكامل في النفوس، ومعناه الكامل هو عقائده النقية، وعباداته الماثورة، وفضائله المصلحة للبشر، وأدابه المقومة للنفس، وأحكامه الحافظة للحقوق»⁽¹⁾.

فالتجديد عند الإبراهيمي بهذا المعنى هو الرجوع بالإسلام إلى ينابيعه الأولى، المتمثلة في الكتاب والسنة، وفهوم السلف الصالح، باعتبارها أصح الفهوم للإسلام قبل ظهور الخلاف، أو بعبارة أخرى، إعادة الدين إلى أصله يوم نشأ، وإظهاره أقرب ما يكون إلى صورته الأولى، عن طريق تنقيته من الضلالات والأباطيل التي علفت به بسبب أهواء البشر على مر العصور، ورفع ما أثير حول قيمه من شبه وشكوك، وتقديمه للناس في بساطته ويسره وسماحته، ليدركوا ارتباطه العميق بالحياة الإنسانية في جميع جوانبها.

وقد تطلب تحقيق هذا الهدف العمل في ثلاث مجالات أساسية هي:

تجديد العقيدة وتنقيتها من البدع والضلالات، وإحياء الفقه الإسلامي والدعوة إلى تحريك العقل الاجتهادي، والثورة على الطرق الصوفية المنحرفة والدعوة إلى الإصلاح والتربية الروحية.

وقد ترتب عن ذلك إحداث ثورة في عالم الأفكار على مستوى الفكر الجزائري الحديث، أشعرت الأمة بهويتها الحضارية، ووضعتها على خط المواجهة

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 123

التاريخية مع الاستعمار الفرنسي.

2 - إحياء اللغة العربية ونشر الثقافة الإسلامية .

إن اللغة العربية هي اللغة الوطنية والقومية للجمتمع الجزائري، وتعد مقوماً أساسياً للشخصية الجزائرية، وهي الرابطة الوثيقة الذي يربط الشعب الجزائري بدينه، ويربطه بأجزاء الوطن الإسلامي الكبير: «لغة الأمة هي ترجمان أفكارها، وخزانة أسرارها، والأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية - زيادة على ذلك القدر المشترك - أنها حافظة دينها ومصحة عقائدها، ومدونة أحكامها، وأنها صلة بينها وبين ربها»⁽¹⁾.

لهذه الاعتبارات كلها، تعرضت اللغة العربية إلى هجمة استعمارية ضارية، غداة الغزو الفرنسي الذي كان من جملة أهدافه اعتماد سياسة التجهيل، للقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية، واللغة أحد أعمدتها الرئيسية. فعمل منذ أيامه الأولى على هدم معظم معاهد التربية والتعليم التي كانت قائمة، وتحويل الباقي إلى معاهد للتعليم الفرنسي الخالص، كما صادف الأوقاف التي كانت تعتمد عليها مراكز العلم في مواردها المالية، وفرض اللغة الفرنسية على كافة مجالات الحياة، وحارب العربية بالقوانين التي تحرم تعليمها تمهيداً للقضاء عليها.

وتولد عن هذه الحرب الشرسة التي وجه خلالها الاستعمار ضربات موجعة - تكاد تكون قاضية - للغة العربية، شيوع الجهل والامية، وانتشار الرطانات الأجنبية في اللسان الجزائري، وأصبحت الجزائر - كما يقول إبراهيمي - «وطناً لم يبق الاستعمار من عرويته (إلا اسم الجنس) يضربه مثلاً للدناءة والخسة وللجهل والانحطاط، ولم يبق من عربيته إلا (اسم الفعل) يجعله رمزاً للبذاءة والسباب

(1) . إبراهيمي، عيون البصائر، ص 310.

والشتم»⁽¹⁾.

لذلك كان إحياء اللغة العربية هدفا من الأهداف الهامة التي أدرجها الإبراهيمي ضمن حركته التغييرية، باعتبار الدور الحيوي الذي تلعبه في الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية وحماية الكيان الحضاري للأمة من الاندثار: «(يا حضرة الاستعمار) إن جمعية العلماء... تطالبك بحرية التعليم العربي، وتعمل لإحياء اللغة العربية وأدائها وتاريخها في موطن عربي وبين قوم من العرب»⁽²⁾. وقد تجلت مظاهر هذا الإحياء، في مئات المدارس التي شيدت لتستقبل أبناء الجزائر، فترفع عن عقولهم غشاوة الجهل، وتخلص نفوسهم من آفة الأمية، وفي حملات التثقيف التي استهدفت الكبار في المساجد والنوادي والتجمعات العامة. وفي هذا الإطار، حرص الإبراهيمي على أن يتحدث للجمهور الجزائري أثناء إلقاء الدروس والمحاضرات باللغة العربية الفصحى، وألزم نفسه بهذا السلوك حتى يحقق من ورائه غرضين: أحدهما إقامة الدليل للمتعلمين باللغات الأجنبية أن اللغة العربية واسعة ثرية: «وأنها تبتذ⁽³⁾ اللغات في ميدان التعبير عن الحقائق والخيالات والخواطر والتصورات»⁽⁴⁾، وثانيهما محاولة تعويد الفرد الجزائري على سماع الفصحى، لتهديب ذوقه وتشجيعه على تعلمها وتعليمها لأبنائه. وقد آتت هذه المحاولة أكلها، وسجل الإبراهيمي أن الناس الذين كانوا يواظبون على سماع دروسه ومحاضراته، قد تعودوا على الفصحى، فأصبحوا -

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 37.

(2) المصدر نفسه، ص 42.

(3) تبتذ: تغلب وتقهقر، يقال بذا فلان أفرانه إذا غلبهم (ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة).

ج 1، ص 177.

(4) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 75.

بطول المران - يفهمون ما يلقي إليهم، ويستوعبونه ويتدارسونه فيما بينهم - وفي ذلك يقول: «ومازلنا على هذا حتى فعل المران فعله، وأصبحوا يفهمون ويذوقون ويخرجون وهم يتدارسون ... وإني لا أدري لماذا لا نعجب للعامي يتعلم الفرنسية بالسماع، ونعجب - بل لا نكاد نصدق - له أن يتعلم العربية بالسماع مع أن العربية أقرب إلى عاميته وفطرته وروحه»⁽¹⁾.

إن الجهود التي بذلت في الجزائر من أجل إحياء اللغة العربية، قد أثمرت جيلا متعلما يتقن التحدث بالعربية ويجيد مطالعة صحفها، وكوكبة من الأدباء والشعراء والخطباء الذين صاروا يضاهون أدباء المشرق العربي في نتائجهم الثقافي والأدبي. يقول الإبراهيمي: «ونجحت الجمعية ... في إلفات الأنظار إلى شيء لم يكن بيننا منسيا، وإن كان مجفوا، وهو هذا اللسان العربي الشريف الذي هو قطعة من كياننا التاريخي وشرط أساسي لوجودنا القومي... وقد أشرفت هذه اللغة الشريفة على الاضمحلال بهذه الديار لولا أن تداركتها جمعية العلماء وأخذت بيدها وانتشلتها من الحضيض الذي وصلت إليه، فاستعادت على يديها شبابها»⁽²⁾.

وكان من الطبيعي أن يؤدي إحياء اللغة العربية إلى انتشار الثقافة الإسلامية في أوساط الشعب الجزائري، حيث كان الاهتمام شديدا بتعليم الأمة العلوم الشرعية المختلفة كال تفسير والحديث والفقه والأصول والعقائد والآداب والسير والمغازي، والتذكير بالتاريخ الإسلامي وأمجاده وأبطاله وروائع حضارته⁽³⁾.

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 76

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 218

(3) - المصدر نفسه، ج 1، ص 236

3- تحرير المؤسسات الإسلامية من قبضة الاستعمار

الفرنسي:

عندما حل الاستعمار الفرنسي بالجزائر، حمل معه أحقاد الصليبية التي تجمعت خلال قرون طويلة من الصراع بين الإسلام والمسيحية، فسفك الدماء مغازرا، وأرتكب القذائع التي يندى لها جبين الإنسانية، تشفيا في المسلمين، وسارع إلى رموز عقيدتهم، ومعالج دينهم، فاحتواها تحت يده، وأعمل فيها معاول الهدم والتحويل والتشويه. وجند في سبيل ذلك كله ما توفر له من الوسائل والاساليب الخبيثة.

فقد اقتحم المساجد فحول معظمها إلى كنائس، وبعضها الآخر إلى اصطبلات لخيوله، أو ثكنات لجنوده، أو مخازن للمؤونة والذخيرة⁽¹⁾ وما بقي منها على حاله وضع فيها رجالا من صنيعة رضوا أن يسيروا في ركابه، ويخضعوا لرغباته في تنويم الشعب بأحاديث التخدير ليصرفوه عن ميدان المقاومة، بعد أن شنت شمل العلماء وشردهم⁽²⁾، في ربوع البلاد، ولحقهم بالاضطهاد والتعزيم والسجن، فاستشهد منهم من استشهد، وهاجر الباقون فرارا بدينهم إلى مختلف البلاد الإسلامية.

(1) - المدني، أحمد توفيق، كتاب الجزائر، ص 203، 208، 239.

(2) - ومن بين هؤلاء العلماء: ابن العنابي (1775 - 1850) وهو عالم وقاض من فقهاء الحنفية، نفاه الفرنسيون سنة بعد الاحتلال، فتنوجه إلى الإسكندرية حيث ولاه محمد علي باشا وظيفة الفتوى الحنفية إلى أن توفي. وابن الكياطي (1860) وهو أيضا عالم من فقهاء المالكية، ولي الإفتاء بمدينة الجزائر في نهاية الاحتلال الفرنسي، عارض الاستعمار بشدة عندما ضم الأوقاف الإسلامية إلى أملاك الدولة، فنفي خارج البلاد واستوطن الإسكندرية وتوفي بها (نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر، ص 245، 273).

ثم التفت إلى الأوقاف التي حبسها المسلمون على المساجد والتعليم والحج
فوجه البر في المجتمع، فاستولى عليها وضمها إلى ملكيته، وحرم المؤسسات
الدينية والتعليمية والاجتماعية من الاستفادة منها، إمعانا منه في حرب الإسلام
وسعى لتمكين الجهل والفقر في أوساط الجزائريين.

وطالت يده أيضا معاهد التعليم الديني والمدارس والكتاتيب القرآنية، فهدم
وأغلق الكثير منها، واندثر الباقي بسبب افتقاره الشديد للعامل المادي الذي كان
يسدد من واردات الأوقاف.

ولم يتوان في العهود الأخيرة من الاحتلال عن التصرف في أخص الشعائر
الدينية للمسلمين كالحج والصوم والأعياد، وعن تشديد القبضة على العلماء
المصلحين، بمنعهم من الوعظ والإرشاد والمحاضرات وغيرها من أوجه النشاط
الديني. وظل الإسلام طوال سنتين تواجد الاستعمار مستهدفا بالكيد والظلم
والحصار، في محاولة جادة للقضاء النهائي عليه: « لبثت عوامل الاستعمار تهدم
من هيكل الإسلام ولا تبني، وترمي المقومات الإسلامية والخصائص العربية كل
يوم بفاقة⁽¹⁾ من المسخ⁽²⁾ ».

وفي ظل هذا الوضع الشاذ الذي تخضع له المؤسسات الإسلامية في
الجزائر، حمل الإبراهيمي على عاتقه مهمة الدعوة إلى تحريرها، وكان هذا الهدف
من الغايات الأولية الهامة التي أدرجت ضمن الخطة العملية التي وضعتها جمعية
العلماء منذ تأسيسها⁽³⁾. يقول الإبراهيمي مخاطبا الاستعمار: « يا حضرة

(1) الفاقة: الداهية، فقرته الفاقة أي كسرت قنار ظهره (الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح،
ص 508).

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 22.

(3) الإبراهيمي، أنا، الثقافة، ع 87، ص 24.

الاستعمار) إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتفهم حقائقه، وإحياء آدابه، وتاريخه، وتطالبع بتسليم مساجده وأوقافه إلى أهلها، وتطالبك باستقلال قضائه. وتسمي عدوانك على الإسلام ولسانه ومعابده وقضائه عدوانا بصريح اللفظ»⁽¹⁾.

وكان للإبراهيمي في هذه القضية باع طويل، حيث جاهد في سبيلها أكثر من عشرين عاما، وصال وجال، وحبر فيها عشرات المقالات في جريدة البصائر الثانية، تناول فيها القضية من جميع وجوهها، فلم يترك دقيقة ولا جلية إلا وضحها وبيّن وجه الحق فيها، وهو يعد بذلك من أشهر الكتاب الجزائريين على الإطلاق الذين عالجوا هذه القضية بالتفصيل، واستنفذت منه جهدا كبيرا إمتد إلى سنوات طويلة.

وعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت في هذا المجال، إلا أن المؤسسات الإسلامية ظلت بيد السلطة الاستعمارية تصرفها كما تشاء، ولم تخرج الشؤون الإسلامية من يدها إلا بعد الاستقلال. غير أن جهاد الإبراهيمي وإخوانه في هذا المضمار لم يذهب هباء، فقد كانت مقالاته النارية تشحذ الهمم، وتقضض العملاء، وتكشف المؤامرات، وتبين أوجه الحق، وتعبئ النفوس، وتقض مضجع الاستعمار، وتلح على مظالمه، وتوقظ الغافلين، وتنبيه الجاهلين، وكان لذلك كله أثره الفعال في تصعيد الصراع، والوصول به إلى درجة الانفجار. يقول الإبراهيمي: «ليت الاستعمار يأخذ من هذه الصراحة ما يغريه بزيادة التشدد... حتى يعلم أننا أصبحنا - والفضل له - لا يلهينا شيء عن شيء، وأتينا إذا لم نستطع شيئا استطعنا أشياء، وأتينا إذا لم نستطع أن نكون عطشا لخصمنا كنا كدرا في الماء،

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 42

وأنا إذا حرمتنا فمح الأرض زرعناها أشواكا، وأنه لم يبق قلب في الجزائر يتسع
لذرة من حب فرنسا، أو يتسع لخيط أمل فيها، ويعلم أخيرا أن الله للظالمين
بالمرصاد»⁽¹⁾.

4 - مقاومة الموجات التبشيرية والإلحادية

أ - التبشير :

كان التبشير سلاحا حادا أشهره الاستعمار الفرنسي في وجه
الجزائريين بهدف القضاء على الإسلام. وتسهيل عملية إلحاق الجزائر بفرنسا
دينيا ولغويا - وقد ظلت الحملات التبشيرية تتوالى على الجزائر منذ بداية
الاحتلال، وتلقى فيها التأييد السياسي، والدعم المالي، والتسهيلات الإدارية.
وقد تظن الإبراهيمي لمخاطر التبشير على الشعب الجزائري، فقاومه - في
إطار جمعية العلماء - عن طريق تبصير الجزائريين بحقائق الإسلام، وتنمية
الشعور بالعزة بانتمائهم الحضاري العربي الإسلامي، وفضح أساليب المبشرين
في استدراج الناس، والكشف عن أهدافهم الحقيقية من وراء حملاتهم التنصيرية،
وتعرية علاقاتهم الوثيقة بالاستعمار.

وكان سبيله في توصيل هذه المعاني إلى الناس، إطلاق صرخات الإنذار
 والتحذير في المساجد، وأثناء المحاضرات العامة، وفي المقالات الصحفية، كما
حرص هو وإخوانه على تنبيههم إلى ضرورة التكافل الاجتماعي، وتمتين العلاقات
الإنسانية، بين أفراد المجتمع حتى لا يصبح البائس الفقير واليتيم الضائع فريسة
سهلة للمبشرين .⁽²⁾

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 278

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 238

ويسجل الإبراهيمي، أن من أكبر الأسباب التي ساعدته في حربه ضد التبشير هي تصلب الجزائري في دينه، وتمسكه الشديد بعقيدته، ورقضه التنازل عنها، على الرغم من الإغراءات المادية التي تقدمها له المؤسسات التبشيرية، يقول الإبراهيمي: « ولكن الواقع أن التبشير مع طول المدة واستكمال العدة لم يلق النجاح الذي يتناسب مع الجهود المبذولة فيه، والسبب الأكبر في ذلك يرجع إلى شيء واحد هو تصلب الجزائري في دينه مهما بلغت به العامة والامية والفقر»⁽¹⁾.

وقد كان للجهود التي بذلها الإبراهيمي وإخوانه، أثرها الواضح في التخفيف من النشاط التبشيري، الذي لم يستطع أن يحول الجزائريين عن عقيدتهم إلا في نسبة ضئيلة جدا من قرى القبائل النائية، حيث تم عزلهم عن العالم الخارجي، ومورست عليهم سياسة تنصيرية مكثفة. يقول الإبراهيمي: « ونحمد الله على أننا خففنا من شروخ هذه الفتنة، وعلى أن في الجسم الجزائري مناعة تدفع عنه غوائل هذا البلاء، والمبشرون أنفسهم يشهدون أنهم لم تستنزل رقاهم إلا واحدا أو اثنين في الآلاف من جرائمهم وأن جمعية العلماء هي أقوى خصم لهم في هذا الباب»⁽²⁾.

وتتدرج مقاومة التبشير في إطار المحافظة على مقومات الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر، حيث يعد الدين الإسلامي العمود الأساسي لهذه الشخصية، وصيانة هذه المقومات هدف هام من أهداف منهج التغيير عند الإبراهيمي.

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 134.

(2) - المصدر نفسه، ج 4، ص 238.

ب- الإلحاد :

يعتقد الإبراهيمي أن الإلحاد حالة طارئة على الشعب الجزائري، جاءت من الثقافة الغربية التي حلت بالبلاد مع حلول الاستعمار. وقد أصابت طائفة الشباب المثقف بالفرنسية الذي كان يجهل دينه، ويعتقد أن الطريقة بكل ما تحمله من أوهام وخرافات هي الوجه الحقيقي للإسلام، فينشأ في نفسه احتقار هذا الدين الذي يصطدم مع الحقائق العلمية، والتفكير العلمي السليم، وفي ذلك يقول: « الإلحاد ضيف ثقيل حل بهذا القطر منذ انتشرت بين أبنائه الثقافة الأوروبية من طريق التعليم اللاديني أو من طريق التقليد الأعمى. وغذته غفلة الآباء والأولياء عن هذه الناحية الضعيفة من أبنائهم»⁽¹⁾.

وقد قاوم الإبراهيمي موجة الإلحاد بتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام، وتقديمه للشباب في صورته المشرقة، والدعوة إلى احتضان هؤلاء الشباب الذين ضاعوا في تيار الحضارة الغربية، لإعادتهم إلى حظيرة الإسلام حتى يتمكنوا من نفع أمتهم بعلومهم: «ولكن رجال جمعية العلماء يعلمون أن هذه الطائفة المعرضة للإلحاد هي زهرة الأمة وأنها جديرة بكل عناية واهتمام، وأنها - وإن لم تسلم من طائف الإلحاد - سالمة من الجمود والتخريف، وأنها أقرب إلى الإصلاح والرجوع إلى الحق بما معها من إدراك صحيح وبما فيها من ملكات الاستدلال»⁽²⁾. وقد بذلت المؤسسات الدينية والثقافية التابعة لجمعية العلماء، جهودا كبيرة في سبيل استقطاب هذه الطائفة من الشباب واحتوائها، وتوجيه طاقاتها نحو خدمة أمتها.

(1) - الإبراهيمي، أنار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 131.

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 132.

٩ . محاربة الإدماج والتجنيس :

أ - الإدماج :

يعد الإدماج سياسة فرنسية اتبعت في الجزائر منذ السنوات الأولى للغزو، حيث اعتبرت الجزائر بمقتضى القوانين الصادرة آنذاك، جزءاً لا يتجزأ من الأرض الفرنسية، تتبعها في الإدارة والمالية والنظام السياسي والجيش وما إليها. غير أن هذا الإدماج شمل الأرض الجزائرية، والمستوطنين الأوروبيين فقط، وبقي الشعب الجزائري خاضعاً لقانون (الأنديجنا) ^(١) الجائر.

وفي بداية الثلاثينات ظهرت حركة سياسية تطالب بإدماج الجزائريين في الكيان الفرنسي، تبنتها مجموعة من الجزائريين المثقفين ثقافة فرنسية عالية. وانحصرت مطالبهم في المناهضة بمساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق السياسية، والاجتماعية، والثقافية، وكانوا يؤمنون بسياسة المراحل التي يجب أن تمر بها دعوة الإدماج، حتى يتمكن الجزائريون بعد تجاوزها، من حكم بلادهم تحت السيادة الفرنسية.

وكان بعض أعضاء هذه الطائفة يعتقدون أنه من غير الممكن للجزائر أن تنفصل عن فرنسا، وإلا تلاشت من الوجود، لأنهم ينكرون وجود كيان حضاري وتاريخي وقومي لها ^(٢). وقد اتخذوا من الصحف الناطقة بالفرنسية منابر يدعون من فوقها لهذه المبادئ، ويشجعون الشباب الجزائري على المطالبة بإدماجه في الوطن الفرنسي حتى يصبح متحضراً.

(١) . قانون الأنديجنا: هو عبارة عن مجموعة من القوانين الإستثنائية المجاعة التي فرضت على الشعب الجزائري. وقد

منحت للسؤولين الفرنسيين سلطات زجرية استثنائية وصلاحيات واسعة لفرض العقوبات على الجزائريين دون

محاكمة (الخطيب، د أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 22، 23، 24)

(2) - ابن باديس، عبد الحميد، وكلمة صريحة، الشهاب، مع 12، ج 1، قسنطينة، أفريل، 1936، ص 45، 50)

وكان من الطبيعي أن تجد هذه الحركة معارضة شديدة من الإبراهيمي الذي كان يعتز بالشخصية العربية الإسلامية، ويؤمن أن الجزائر قد اصطبت بالصبغة العربية الإسلامية منذ أن وطئتها أقدام الفاتحين المسلمين، وهذا هو القدر الذي راده الله لها، ولا يمكن أن تستبدل به قدرا آخر: «إن الإسلام والعروبة شيئا يست فيهما قابلية النويان والانمحاء، لأن فيهما من أثر يد الله ما يعصمهما من لك، وعليهما من أصباغ الشرق الخالدة ما يحفظهما من التآكل والتحات»⁽¹⁾.

فقاوم حركة الإدماج بإحياء مقومات الشخصية الوطنية، وتحسيس الأمة بانتماها العربي الإسلامي وهويتها الوطنية، والتصدي للدعوى التي ينشرها دعاة الإدماج ببيان خطئها، وتسفيه حججها، ورد شبهاتها، وكشف تبعيتها للاستعمار الذي هو العدو الحقيقي للأمة، فلا يمكنها أن تندمج معه في كيان واحد، بعد أن ظل جاثما على صدرها طوال عقود من السنين، أذاقها خلالها مرارة الجوع والفقر والمرض، والاحتقار والتمييز العنصري السافر: «وكل فرنسي معمر في أرض الجزائر ... فهو جبار في الأرض مفوض عليها، معتقد أنه ملك بين رعابا، ومالك بين عبيد، فالعمر كله أنانية واستئثار، والحاكم كله ترفع واحتقار، ... وإلى الآن لم يرزقنا الله حاسة ندرك بها الفرق بين فرنسي وفرنسي»⁽²⁾.

وكانت لهجة الإبراهيمي في رد دعوى الاندماجين حارة وشديدة، وحججه في التدليل على صحة أقواله قاطعة وحاسمة، ففي معرض رده على الذين يدعون أن الجزائر فرنسية، ويضربون بعرض الحائط الفوارق الدينية واللغوية والجنسية

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 169

(2) - المصدر نفسه، ص 82

التي تقف عائقا في وجه هذا الاندماج يقول « لو أن البحر الأبيض جف والتأمت حافته، حتى أصبحت الجزائر ربضا⁽¹⁾ من أرباض مرسيليا، لما كان لهذه الكلمة موضع في العقل مادامت تلك الفوارق قائمة ... وهل الجزائر فرنسية؟ ... لا يقوم لا إن الله خلقها عربية مسلمة، وستبقى عربية مسلمة إلى ما شاء الله.»⁽²⁾

ويؤكد في إصرار شديد، أن الجزائر وطن يعتز بمقوماته من دين ولغة وتاريخ وثقافة، ويحس بارتباط عميق بالعروبة والإسلام، ولن يرضى عنهما بديلا، فيقول في الرد على عبارة (الجزائر فرنسية) التي يتشدد بها السياسة الفرنسيون ومن وراءهم الاندماجيون: «إننا - والله - لانقيها ولا نرضى بمهانتها، ولا نقرها، ولا نقصر في دحضها بأدلة الحق، ولو أن الاستعمار شرعها زجلا⁽³⁾ بالتسييح في ناشئة الليل ... لكان في أذاننا وقر من سماعها ... وإهدينا بالفطرة إلى الطيب من القول: وهو أن الجزائر ليست فرنسية ولن تكون فرنسية، كلمات قالها أولنا، ويقولها آخرنا، ومات عليها سلفنا، وسيلقى الله عليها خلفنا»⁽⁴⁾.

ب- **التجنيس:** هو قانون أصدرته الحكومة الفرنسية تسمح بمقتضاه للجزائريين الذين يرغبون في الحصول على الحقوق الفرنسية كاملة أن يتجنسوا بالجنسية الفرنسية بشرط أن يتخلوا عن الأحوال الشخصية الإسلامية، ويحتكموا فيها إلى القانون الفرنسي، كخطوة أولى نحو جر الجزائريين إلى التفريط في مقوماتهم الشخصية الواحدة تلو الأخرى.

(1) ريش المدينة بفتحين: ما حولها (الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر - مختار الصحاح، ص 229).

(2) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 387، 388.

(3) زجلا: الزجل بالتحريك، الصوت، يقال سحاب زجل أي ذو رعد (الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، ج 4، ص 1715).

(4) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 389.

وقد ابتهج دعاة الإدماج بهذا القانون وهلّولوا لصدوره، وأكدوا أن هذه فرصة تاريخية للجزائريين ليحققوا المساواة مع المستوطنين الفرنسيين، ويتخلصوا من قوانين الأندجينا التي حرمتهم من كل الحقوق الطبيعية.

غير أن الإبراهيمي والعلماء المصلحين في الجزائر، رأوا في هذا القانون خطرا داهما على الشعب الجزائري، ومكيدة خبيثة لسلخه من دينه ولغته وثقافته وتاريخه، تمهيدا لتذويبه في كيان غريب لا يمت إلى هويته الحضارية بصلة، فاشبهوا سلاح المعارضة في وجهه، وشهروا به في كل التجمعات العامة، وحذروا الشعب من مغبة قبوله. وكانت أقوى مظاهر هذه المعارضة العنيفة التي لقيها هذا القانون، إصدار فتوى شرعية - تبنتها جمعية العلماء - تعد فيها كل متجنس بالجنسية الفرنسية كافرا خارجا عن ملة الإسلام: «التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة. ومن رفض حكما واحدا من أحكام الإسلام عد مرتدا عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع»⁽¹⁾.

وكانت هذه الفتوى الجريئة بمثابة الضربة القاصمة التي قضت على مشروع التجنيس، فلم تقم له بعدها قائمة. يقول الإبراهيمي عن وقوف جمعية العلماء، في وجه هذا المشروع: «حاربت سياسة الاندماج في جميع مظاهرها، فقاومت التجنيس، ونازلت أنصاره الحمس ودعائه المقاول، حتى قهرتهم وأخرستهم، وقطعت الحبل في أيديهم، ثم أفتت فتواها الجريئة فيه، يوم كانت الجراة في مثل هذه المسائل بابا من العذاب، فكان ذلك منها تحديا للاستعمار، وإبطالا لكيدته، وتعطيلا لسحره، وأثبتت بتلك المواقف للجزائر إسلاميتها»⁽²⁾. وتعد فتوى بطلان

(1) - فتوى جمعية العلماء، في التجنيس الكلي والجزئي، البصائر، ع 95، 14 جانفي 1938

(2) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 51

التجنس والحكم برودة صاحبه، مظهرًا رائعًا من مظاهر الاجتهاد لدى أقطاب الجمعية، وخطوة شجاعة في سبيل إحياء الفقه الإسلامي، وتكييفه مع الواقع.

6 - محاربة الرذائل والآفات الاجتماعية:

وجه الإبراهيمي عنايته إلى محاربة الرذائل والآفات الاجتماعية، كهدف مرحلي، يرمي من ورائه إلى تخليص المجتمع الجزائري من أمراضه التي تزيد انحطاطًا وتخلقا، وتحصينه بالأخلاق الفاضلة.

وقد انتشرت هذه الرذائل والآفات بين الجزائريين بتأثير عصور الانحطاط الطويلة التي غابت فيها الحركة الدينية الواعية، التي تقوم سلوك المجتمع وتوجهه، وتأثير الاستعمار الفرنسي الذي حمل معه كثيرا من الرذائل التي تتنافى مع الروح العربية الإسلامية، والتي وجدت استجابة في بعض الأوساط الجزائرية، بسبب تفكك الأسر، وضغوط الفقر والجهل، التي مارسها السلطة الاستعمارية على الشعب.

لذلك دعا العلماء إلى العمل الجاد من أجل القضاء على هذه الأمراض المتفشية في الأمة: «الكذب، والغيبة، والنميمة والسعاية بالأخ والتجسس عليه، وكالسرقه والخمر والميسر، وكالأيمان الفاجرة وشهادة الزور، ويمين الطلاق، وكالقطيعة والخصام والخلاف، وكالركون إلى الكسل والبطالة والسؤال مع القدرة على الكسب، وكتنقض العهد وخلف الوعد وخيانة الأمانة واليخل والإسراف في غير محله، وكانتهاك الحرمات والاستخفاف بالمحرمات، والجبن والخوف من غير الله»⁽¹⁾.

وكانت محاربته لهذه المنكرات تندرج ضمن منهجه التغييري الذي يهدف إلى

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 316.

تكوين الإنسان الجزائري تكويناً خلقياً سورياً، وتخليصه من جميع الانحرافات الخلقية التي كانت تعيقه عن أداء دوره الحضاري لإنقاذ الأمة.

وقد سلك للوصول إلى ذلك أسلوب التربية بالوعظ والإرشاد، والترغيب في الحياة الصالحة والشمائل الحميدة، والتنفير من المعصية والترهيب من أثارها في الدنيا والآخرة، واستنهاض الهمم للمسابقة في أعمال الخير. يقول الإبراهيمي عن الحرب التي خاضتها جمعية العلماء ضد الرذائل الاجتماعية: «وبالجملة فقد وقفت الجمعية من جميع الرذائل المنقشية في الأمة الجزائرية، - من خمر وفجور، ومسارعة في الإيمان الفاجرة، وترك صلاة، وشهادة زور - موقف الخصم الجبار، وحملت عليها - وما زالت - تحمل - حملات صادقة»⁽¹⁾.

ويؤكد أن هذه الحملة قد أثبتت ثمارها في النفوس، حتى إن سوق الخمر بارت في المدن والقرى التي بلغت دعوة جمعية العلماء، وتصايح أصحاب الحانات الذين أصبح الإفلاس يتهدهم: «ولا يحصى عدد الذين تأثروا بمواعظها فأصبحوا يحافظون على الصلوات بشروطها الحسية والمعنوية، ولا عدد الذين هجروا أم الخبائث «الخمر». بل لقد كانت نتائج الإعراض عن الخمر ملموسة بارزة ضج لها تجار الخمر وتنادى بانعومها بالويل والثبور وتعالى أصواتهم بالتذمر»⁽²⁾.

وعمل في مقابل ذلك على نشر الأخلاق الفاضلة، والصفات الحميدة، لأنها أساس الإصلاح والطريق إلى النهضة الشاملة، لذلك كان الجانب الخلفي من أولى اهتماماته. وفي معرض حديثه عن مكانة الأخلاق في الأمة يقول: «فلتكن هي أول ما نصلح إن كنا جادين في تثبيت الوعي واليقظة والنهضة... لأن الأخلاق

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 135.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 135.

إذا استقامت تفتحت البصائر للوعي وتهيأت الشواعر لليقظة وانبعثت القوى للنهضة: فكان الوعي بصيرا، وكانت اليقظة عامة، وكانت النهضة شاملة، وكانت الحياة لذلك كله كاملة.⁽¹⁾

ونظرا لإيمانه القوي بأثر الفضائل الأخلاقية في الأمة، كان يوصي رجال التربية بالتمسك بها والاستزادة منها، ليكونوا قدوة صالحة للأجيال الناشئة التي يتناولونها بالتربية والتهديب. وأن يبذلوا في هذا الميدان أضعاف ما يبذلون لنيل العلم، لأن العلم لا ينفع إذا لم تصحبه الأخلاق الفاضلة: «ولا يضيركم ضعف حفظكم من العلم إذا وفر حفظكم من الأخلاق الفاضلة، فإن أمتكم في حاجة إلى الأخلاق والفضائل، وإن حاجتها إلى الفضائل، أشد وأوكد من حاجتها إلى العلم، لأنها ما سقطت هذه السقطة الشنيعة من نقص في العلم ولكن من نقص في الأخلاق»⁽²⁾

7 - بناء طليعة قيادية:

إن كل حركة تغييرية تسعى إلى تكوين طليعة قيادية تؤمن بفكرتها، وتتولى حملها، وتعمل على نشرها في الأوساط الشعبية، وتضمن لها القدر الكافي من الاستمرارية والتواصل.

لذلك آمن الإبراهيمي بضرورة تكوين طليعة قيادية من العلماء والمفكرين، والكتاب والخطباء والشعراء، عن طريق اختيار العناصر الفعالة التي تتميز بدمائة الأخلاق، والذكاء الحاد، والإيمان الثابت بالمبدأ، والجرأة، والبصيرة الواعية. وكان يرى أن تحقيق التغيير المنشود يتوقف على إعداد هذا الجيل، الذي

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 176

(2) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 296

يمثل الدرع الواقعي للحركة، وجيشها الذي يبلغ فكرتها، ويصبر على الأذى في سبيل انتصارها، وهو المرشح ليخلف الرواد في قيادة الأمة، لينأخذ بزمام حركة التغيير، ويضمن لها الاستمرارية، ويحميها من الانحراف عن أهدافها الإستراتيجية. يقول الإبراهيمي موجهًا خطابه إلى الشباب الذي تتلمذ على أيدي علماء الجمعية: «فإذا رأيتُمونا نمسكُم بالشدَّة أحيانًا ونقسو عليكم في التثقيف فذلك لكي يخلص لنا من عشراتكم أكبادًا، يخلفوننا في هذه الخلال إذا خلت أمكنتنا في المراكز الأسامية، بعد أن يقطعوا من مراحل العمر ومقامات التدريب ما يؤهلهم لذلك»⁽¹⁾.

وقد أثمرت جهود الإبراهيمي وإخوانه العلماء في تكوين جيل جزائري، متشبع بالفكرة الإصلاحية، مؤمن بمقومات الأمة الجزائرية، مستعد للتضحية في سبيلها، وكان يعلق عليه أملاً كبيرة في انتشار الجزائر من وهدة التخلف وتحريرها من الاحتلال الجاثم: «وأصبح لنا جيش من التلامذة يحمل فكرتنا وعقيدتنا مسلح بالخطباء والشعراء والكتاب يلتف به مئات الآلاف من أنصار الفكرة وحملة العقيدة، يجمعهم كلهم إيمان واحد وفكرة واحدة، وحماس متأجج وغضب حاد على الاستعمار»⁽²⁾.

8 - تكوين رأي عام وطني:

منذ أن تمكن الاستعمار من إخماد الثورات الشعبية التي اشتعلت لمقاومته، دأب على تفريق الأمة الجزائرية وزرع بذور الفتنة بين أفرادها، وتغذية النزعات القبلية والجهوية فيها، حتى يتمكن من تمزيق أوصالها، وضرب وحدتها، تمهيداً

(1) - عيون البصائر، ص 293.

(2) - الإبراهيمي، أنا،، الثالثة، ع 87، ص 21.

لتنشيط وجوده في البلاد.

لذلك كان توحيد الأمة على خط فكري واحد هدفا هاما من الأهداف التي سعى الإبراهيمي إلى تحقيقها، حتى يضمن لأبنائها الإتصال والتجاوب والانسجام فيما بينهم، ويخلق شبكة من العلاقات الروحية والفكرية، التي تمكنهم من تبادل الرأي والإلتقاء على أرضية واحدة في تقدير القضايا المصيرية التي تهم الأمة.

وقد اعتمد على الإسلام والعروبة في السعي إلى توحيد الأمة الجزائرية، وتكوين رأي عام وطني - تنتفي أمامه كل أشكال الصراعات الحزبية، والخلافات الجهوية والعنصرية، وجمع الأمة حول المصلحة الوطنية: « واتخذنا من الإسلام والعروبة الجزائرية محورا للدعوة إلى الإتحاد، وموتلا نسوق إليه المتفرقين من أهله، لا تحريكا للعصبية الدينية أو الجنسية، ولكن لأنها الجوامع الطبيعية لرجالنا العالمين، والصفات التي تربطهم بالأمة، والأصول التي انتمت لهم الأمة على المطالبة بحقوقها فيها»⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس، حارب الإبراهيمي التفرقة العنصرية التي مارسها الاستعمار ضد الشعب الجزائري بتعميق الخلافات، وإثارة النزعات بين العرب والبربر، يقول موضحا الدور الهام الذي لعبته جمعية العلماء في هذا المجال: «وحاربت العنصرية التي كان الاستعمار يغذيها ويغدها من أمضى أسلحته لقطع أوصال الأمة، فقطعت دابرها، والاستعمار خزيان ينظر وأثبتت بذلك للجزائر قوميتها العربية»⁽²⁾.

(1) - الإبراهيمي، ميون البصائر، ص 336

(2) - المصدر نفسه، ص 51

ولعل أصدق مثال عملي على حربه لظاهرة التفرقة بين الجزائريين، ما بذله من جهود صادقة في سبيل إطفاء نار العداوة التي كانت قائمة بين قبيلتي الكراغلة والحضر بتلمسان، والتي عمل الاستعمار على إبقائها وسعى إلى تعميق هوة الخلاف، وتكريس هذه العداوة وتغذيتها باستمرار وفي مختلف المناسبات. فلما استقر المقام بالإبراهيمي في تلمسان ممثلاً لجمعية العلماء مع بداية الثلاثينات، بذل أقصى جهده حتى تمكن من الجمع بين القبيلتين على رأي واحد بإزالة أسباب الخلاف، ونبذ مشاعر الكره والعداوة بينهما. يقول الإبراهيمي مشيراً إلى دأبه المستمر في جمع الجزائريين: «وأما تعليق الأمل بكاتب هذه السطور وجمعية العلماء فهو في محله، لأن الكاتب خلق لذلك، وعمل لذلك، وأنفق عمره في ذلك وحل أصعب عقدة عقدها الاستعمار فجمع الكراغلة والحضر»⁽¹⁾.

وفي هذا الإطار أيضاً، كانت دعواته الحارة والمتكررة التي يوجهها بشكل دائم إلى الأحزاب الجزائرية، يدعوها فيها إلى نبذ الصراعات الحزبية، والسمو فوق النظرات الضيقة، والمصالح الخاصة، والحاجة الشديدة على ضرورة الاتحاد من أجل تشكيل كتلة وطنية قوية في وجه الاستعمار الفرنسي، كل ذلك يندرج ضمن هذا السياق الذي يهدف إلى توحيد الأمة وجمع شتاتها: «إن الأمة من ورائكم، وهي مختلفة باختلافكم، فإذا اتحدتم إتحدت، وإنها متأمة من اختلافكم في مثل هذا الوقت، وفي مثل هذا الموقف، وإن هذا التسالم قد يفضي بها إلى اليأس وانعدام الثقة بكم، فأنعشوا آمال أمتكم باتحادكم، وقووا معنوياتها بجمع كلمتكم»⁽²⁾.

(1) الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 338.

(2) - المصدر نفسه، ص 333.

من هنا يتضح لنا أن الجهد التغييري النظري والعملية عند الإبراهيمي، كان يصب في إطار توحيد الخط الفكري بين أبناء الشعب الجزائري، وإحداث الانسجام العام في الإتجاهات والميول والنزعات، والقضاء على مظاهر الفقرة والنزاع، من أجل تكوين رأي وطني عام حول القضايا المصيرية للأمة: « بذلك التحرير العقلي الذي أساسه توحيد الله تمكنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة، والمشارب المتباينة، والنزعات المتضاربة... وبذلك التحرر زرعت البذرة الأولى لما يسمى (الرأي العام) في الجزائر، وتكون الرأي العام بمعناه الصحيح، هو بلوغ الرشد بالنسبة إلى الجماعات»⁽¹⁾.

ومن المؤكد أن رسم وتحديد هذه الأهداف المرحلية، التي أسلفنا الحديث عنها بوضوح والعمل الجاد المتواصل من أجل تحقيقها، كان تمهيدا وإعدادا شاملا من أجل تحقيق الهدف الإستراتيجي، فهي تتكامل مع بعضها لتكون تيارا وطنيا واعيا، معترزا بمقوماته الحضارية، يسعى إلى تحرير الجزائر، وبناء دولة مستقلة، تستمد من الإسلام فلسفتها في البناء والتنمية وتحكم إليه في الحكم والسياسة، والإدارة والثقافة.

ولئن تحررت الجزائر، ونالت استقلالها على أشلاء من الجثث وأنهار من الدماء، فإن الإسلام الذي حفظ للأمة الجزائرية هويتها الحضارية طوال قرن ونصف قرن من الاحتلال الأجنبي العنصري الصليبي وقاد الثورة الجزائرية تحت راية الجهاد المقدس، ونفخ فيها روح البطولة والصمود، قد عزل بعد الاستقلال، وحرم من دوره الحيوي في تسيير الحياة العامة.

(1) . الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 34، 35.

جامعة الأمير

الفصل الرابع

وسائله وأساليبه

القادر للعلوم الإسلامية

لا بد لكل حركة تغييرية أن تحدد مجموعة من الوسائل والأساليب التي تراها صالحة ومناسبة، لتكون الأداة التي تحقق بواسطتها أهدافها، والوسيلة تشمل كل فن أو مادة أو آلة، تستعملها حركة التغيير وتتوسل بها للوصول إلى أغراضها، أما الأسلوب فهو الطريقة التي تستعمل بها هذه الوسيلة لتوجيهها نحو مقصد معين أو غاية بذاتها.

وتكتسب عملية اختيار الوسائل والأساليب أهمية بالغة في دفع حركة التغيير، باعتبارها الوسائط الفعالة التي تمكن لفكرة التغيير في أرض الواقع، والتقنوات التي تصل عبرها إلى الجماهير العريضة، لذلك كان من الضروري أن تتم الاستفادة من كل الوسائل المتاحة، واستغلالها بشكل جيد يضمن لفكرة التغيير أفضل مردود، وإن أي محاولة لإحداث التغيير، دون توفر الإمكانيات المكافئة لحجم التغيير المطلوب، أو لقوة التحديات القائمة، يصل بالمشروع إلى التميع، لذلك أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بإعداد القوة فقال: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم»⁽¹⁾.

والوسائل والأساليب في معظمها لا ترتبط في حد ذاتها بإيديولوجية معينة، ولا تقتصر على اتجاه دون آخر، فهي حيادية، تصلح للهدم كما تصلح للبناء، وتستخدم في الحرام كما تستخدم في الحلال، غير أن توجيهها نحو قصد معين، وتسخيرها لخدمة غاية محددة، أو بعبارة أخرى حسن إدارتها والقدرة على توظيفها الجيد، هو الذي يعطيها قيمة خاصة، ويمكن من الإنتفاع بها.

وتخضع الاستفادة من مختلف الوسائل والأساليب لمجموعة من الشروط التي يجب مراعاتها حتى يتم عن طريقها تحقيق أحسن النتائج والوصول

(1) الأنفال، 60

بواسطتها إلى الأهداف المرجوة:

١ - **المشروعية:** أي أن تكون الوسائل والأساليب مشروعة، فلا يجوز استخدام الوسائل والأساليب كيفما اتفق، بل يشترط فيها أن تكون مشروعة، قياساً على الهدف الذي ترمي إلى تحقيقه. فإذا كان الهدف مشروعاً يجب أن تكون الوسيلة مشروعة أيضاً. مما يقتضي الابتعاد عن الذرائع التي تقول بأن الغاية تبرر الوسيلة^(١)، وتتخذ من سمو الغاية وشرف الهدف مبرراً لاستباحة الوسائل غير المشروعة بحجة صعوبة توفر الوسيلة المشروعة، أو عدم قبول الناس لها، أو استعجال ثمرة التغيير قبل أوانها. ذلك أن العمل الطيب لا سبيل إلى تحقيقه إلا بالوسيلة الطيبة، وخط الصالح بالسيء يؤدي إلى ضياع الجهود وإلحاق الضرر بمشروع التغيير، وتعرضه لهزات عنيفة قد توصله إلى الفشل أو توقعه في اضطرابات شديدة ومتعاقبة.

٢ - **شموليته وتنوعها:** ونظراً لشمولية مشروع التغيير وانسحابه على كافة مجالات الحياة، كان من الضروري أن تكون الوسائل والأساليب التي يرتئها لتحقيق مقاصده شاملة ومتنوعة، تغطي جميع النشاطات والميادين التي يمسه التغيير، حتى لا يتعثر سيره بسبب الاعتماد على وسيلة واحدة، فالقضايا التي يطرحها الواقع متعددة، وتتطلب كل قضية علاجها الخاص بأسلوب يختلف عن غيرها، وبوسيلة مغايرة تكون منسجمة مع نوعية القضية ووزنها.

٣ - **الواقعية:** كما يشترط في الوسائل والأساليب أن تكون واقعية، تراعي طبيعة الموانع والمعوقات التي يفرضها الواقع، وتأخذ بعين الاعتبار ظروف المجتمع وبيئته حتى تتبنى ما يتلاءم مع هذه المعطيات، وتضع في الحسبان طاقة الحركة

(١) - القرصاوي، د يوسف، الحل الإسلامي، ص 233

التغييرية، فتختار الوسائل والأساليب التي تتماشى مع قدراتها، وتحاول أن توجهها بطريقة مناسبة، تمكنها من تجاوز التحديات القائمة، والتعامل معها من موقع قوي وفعال.

4 - **العصرية**: وهي أن تبذل الحركة التغييرية ما بوسعها لتتمكن من تسخير جميع ما أفرزته الحضارة من التقنيات والوسائل والأدوات المتطورة، التي تتميز بالتأثير السريع، والفعالية الكبيرة، فتضمن لنفسها قدرا هاما من السرعة في الإنجاز، وتتمكن من تحقيق أهدافها بأقل جهد، وفي أقصر وقت، بحيازتها لأسباب المعرفة وأدواتها.

وانطلاقا مما سبق، نستطيع أن نؤكد أن الإبراهيمي كان مدركا للأبعاد التي تكتسيها الوسائل والأساليب في العملية التغييرية، بدليل أنه قد سعى سعيا جادا إلى الاستفادة من كل ما عرض له من أدوات وطرائق تخدم فكرته، وتوسع آفاقها، وتوصلها واضحة إلى أذهان الناس، وحاول استثمارها إلى أقصى حد، على الرغم من الضغوط القاسية التي كان يمارسها الواقع الجزائري المتميز بالقطر المادي والمعنوي.

وإن إطلالة على الوسائل والأساليب التي استخدمها الإبراهيمي في تجربة التغيير التي خاضها، تبين لنا بوضوح ثراها وتنوعها، وتكاملها، بحيث شملت معظم القطاعات الحيوية في المجتمع، وكانت موجهة لخدمة جميع الفئات الشعبية، إلى جانب انسجامها وتجاوبها مع الواقع والبيئة الجزائرية، واستغلالها الأمثل لمستحدثات الحضارة الغربية، كل ذلك في إطار المبدئية الثابتة، التي تحدد مشروعية هذه الوسائل، وفيما يلي بيان وشرح لأهم هذه الوسائل والأساليب المعتمدة في منهج التغيير عند الإبراهيمي.

١ - المساجد :

يحتل المسجد في الإسلام مكانة خاصة باعتباره مركزا روحيا بالدرجة الأولى، يلجأ إليه المسلم خمس مرات في اليوم ليتصل بربه عن طريق الصلاة، وفيه يلتقي إخوانه المسلمين، ويتعلم أحكام دينه، ويتزود منه بالزاد الروحي الذي يرافقه في حياته اليومية.

وقد ارتبط المسجد في الإسلام بالتعليم منذ أن أسس الرسول صلى الله عليه وسلم أول مسجد في المدينة المنورة، حيث جعله مكانا لإقامة الصلاة، وجلس فيه يعلم أصحابه أصول الدين وأحكام الشريعة، ويبني نفوسهم ويهذب أخلاقهم. وقد بقي المسجد طوال العهود الإسلامية الزاهرة، مقرا للعبادة ومنازة للعلم، يتخرج منه العلماء حاملين في صدورهم كل ما وصل إليه العقل من معارف دينية وأدبية وإنسانية، فنشأ العلم موصولاً بالعبادة، وترعرعت الجامعات الإسلامية العريقة تحت سقوف المساجد.

وقد كان الإبراهيمي يؤمن بالأهمية القصوى التي تكتسبها المساجد في عملية التغيير، نظرا للدور الفعال الذي تقوم به في تحقيق الأهداف المرسومة. فبالإضافة إلى الآثار الروحية العميقة التي تتركها الصلاة في نفوس الناس الذين يرتادون المساجد بصفة دائمة، ويؤدونها بشروطها، فهي مدرسة، تعلم قواعد العقائد، وفرائض العبادات، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وطرائق المعاملات، وهي تربة خصبة لاحتضان فكرة الإصلاح وبثها بين الناس: «والمسجد هو مرجع المسلم ومتقلبه، فهو الذي يغذي الإسلام في نفسه، بما يتردد عليه خمس مرات في اليوم والليلة، وبما يسمعه فيه من قرآن وخطب ودروس، وهو الذي يكونه بما يصبغه به من ألوان ثابتة، وبما ينفض عليه من روحانية قوية، وبما يغشى في

جوانبه من فضائل أصيلة... وبما يفرسه فيه من آمال شريفة، وبما يطبعه عليه من أخلاق قويمه»⁽¹⁾.

كما كان يدرك المكانة المتميزة التي يحتلها المسجد في حياة المسلمين، حيث أثبت له الواقع الجزائري أن أفراد الشعب عى الرغم مما طرأ على عقائدهم من التشويه، وعلى عباداتهم من النقص والتحريف، إلا أن ارتباطهم بالمسجد ظل موجودا في أعماقهم، وقدسيته ظلت قائمة في نفوسهم، فاتخذ منه وسيلة فعالة لإحداث التغيير، عن طريق العمل الجاد على استعادة دوره الديني والعلمي، الذي كان يوديه في حياة المسلمين في العصور الماضية والانطلاق منه لتجديد الدين وإحيائه، وبث الفكرة الإصلاحية، ونشر العلم، وتعميم الثقافة.

ونظرا للوضعية الشاذة التي كانت تخضع لها المساجد في الجزائر، حيث كانت تابعة للإشراف المباشر للإدارة الاستعمارية، عمل إبراهيمي وإخوانه على السعي الجاد لإثارة الهمم في سبيل بناء المساجد الحرة البعيدة عن قبضة الاستعمار، الذي يلاحق العلماء المصلحين في المساجد الحكومية، ويحرمهم من إلقاء الدروس فيها: «وكثير الاستعمار عن أنيابه فبدأ يمنعنا من إلقاء الدروس في المساجد الواقعة في قبضته، وثارث نخوة الأمة فأنشأت بمالها بضعة وتسعين مسجدا حرا في سنة واحدة في أمهات القرى»⁽²⁾.

وفي رحاب المساجد الحرة التي بنتها الأمة الجزائرية بأموالها الخاصة، باشر إبراهيمي وإخوانه عملية تغيير واسعة، وسعوا بكل جهودهم لاستقطاب الجماهير الشعبية، والتقرب منها، وخفض جناح الذل لها، حتى تنشأ بينها وبينهم

(1) - إبراهيمي. عيون البصائر، ص 159

(2) - إبراهيمي «أنا»، الثقافة، ع 87، ص 25

علاقة ثقة قوية، وتحجيم دور المساجد الرسمية الواقعة تحت إشراف الإدارة الاستعمارية.

واعتماد المساجد كوسيلة أساسية في عملية تغيير الواقع الجزائري، مكّنت الإبراهيمي من استغلال عدة أساليب ترتبط ارتباطاً حيويًا بالوظيفة الطبيعية للمسجد ومنها:

أ - الخطبة: لقد آمن الإبراهيمي بأهمية الخطابة في عملية التغيير لكونها أسلوباً ناجحاً ومؤثراً في الجماهير بما يحمله من شحنات عاطفية قوية، وبما يستثيره من الهمم الراكدة، وبما يوقظه في النفوس من أحاسيس الغيرة والحمية، والعزة والمروءة والشرف، لذلك عدّها الركن الركين للإصلاح⁽¹⁾، واهتم اهتماماً كبيراً بتدريب الشباب عليها، في سبيل تكوين نخبة من الخطباء، الذين سيتولون مهمة نشر الفكرة الإصلاحية بين الناس في المساجد، وبخاصة الجماهير التي تتلقى المفاهيم الإصلاحية عن طريق السماع، لعجزها عن امتلاك ناصية القراءة. فإذا كان الخطباء في المستوى المطلوب، واستطاعوا أن يؤثروا في مستمعيهم والوصول إلى مكامن النفس العميقة، أدت الخطبة دورها الكبير في التغيير.

وكان هو أيضاً نموذجاً راقياً للخطيب الممتاز، بما توفّره من صوت جهوري، ولسان فصيح، وعلم غزير، وذاكرة قوية، وشخصية مهيبة، يقول أحد رفقاءه واصفاً هذه الميزة: «وقد أحببت مرة أن أسبر غور السليقة العربية فيه، وأبلى عمق ملكة الفصاحة في لسانه، وغزارة المادة في تبيانه، فها لني منه أن أسمع الرجل يقول فيطيل القول ثلاث ساعات كاملة فلا يتعثّر له لسان، ولا يلتوي عليه بيان ولا

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 85.

يعوزه على ما قال برهان، فامنت أن الرجل أخطب من سحبان»⁽¹⁾

ب - الموعظة : ونقصد بها دروس الوعظ والإرشاد. ولئن كانت الخطبة أسلوبا يعتمد على إثارة العواطف وتعبئتها، عن طريق الكلمات الحماسية القوية المؤثرة، فإن الوعظ أسلوب هاديء مسكن، يعتمد تذكير الناس، وإيقاظ الغافل، وتلين القلوب القاسية، وترقيق النفوس التي غلبت عليها الأهواء. وقد أكد الإبراهيمي أن الموعظة أسلوب فعال يجب اعتماده في التغيير، لأن الواعظ يستطيع من خلاله أن يتناول نفوس الجماهير برفق وأناة عن طريق الترغيب والترهيب، فيقتلع منها آثار المعاصي والمنكرات ويزرع فيها الفضائل والصالحات. لذلك كان الوعظ الديني أسلوبا التزمت به جمعية العلماء منذ نشأتها، وعبر جميع أطوارها ومراحلها، وفي ذلك يقول الإبراهيمي: «الوعظ الديني هو راند جمعية العلماء إلى نفوس الأمة، جعلته مقدمة أعمالها، فمهد واستقر وذل الصعاب، وألان الجوامح، وعليه بنت هذه الأعمال الثابتة من إصلاح للعقائد، ونشر للتعليم... والوعظ الديني هو الذي حركت به جمعية العلماء الهمم الراكدة، وشدت به العزائم الواهية، واجتثت به الرذائل الموبقة، فكان هو معينها على غرس الإصلاح الديني، وتثبيت جذوره، وامتداد أصوله وفروعه»⁽²⁾

ج - التعليم المسجدي : كان التعليم في المساجد ظاهرة منتشرة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، إلا أنها بدأت بالاختفاء تدريجيا على إثر الحرب التي شنها الاستعمار ضد مراكز الثقافة في البلاد، وبقي عدد قليل جدا منها. فلما نشأت الحركة الإصلاحية في الجزائر نفخت الروح في هذا النوع من التعليم،

(1) - بن ذياب، أحمد، « الخطابة والشيخ الإبراهيمي » البصائر (2)، 1-4 جوان 1948، ص5

(2) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 11-4

وأحيته في مجموعة المساجد التي كانت تشرف عليها، واستغلته كأسلوب فعال لنشر الثقافة الإسلامية، وإبراز الوجه الحقيقي للإسلام من خلال شرح أحكامه، واستخلاص الحكم منها، وإعطاء الصور العملية لارتباطه الوثيق بالحياة اليومية للمسلم.

ويتضمن التعليم المسجدي تلقين العلوم الشرعية، من تفسير وحديث وفقه وأصول وعقائد وآداب، وتحفيظ القرآن وترتيله، وتعليم العلوم اللسانية من نحو وصرف وعروض وبلاغة ولغة وأدب، وتدريس السيرة النبوية، وحياة الصحابة، وشرح مآثر التاريخ الإسلامي، وسير رجاله وعظمائه.

ويرى الإبراهيمي أن التعليم المسجدي: «ضروري للأمة الإسلامية في حياتها الدينية لأنها مفتقرة دائماً إلى من يفتيها في النوازل اليومية ويبين لها أحكام الحلال والحرام: وما بقي الإسلام محفوظاً إلا بهذا النوع من التعليم الذي من أصوله تفسير القرآن والحديث النبوي»⁽¹⁾

د - الفتوى: يرى الإبراهيمي أن تصدي العلماء المصلحين للفتوى بعد استكمال شروطها، عامل هام من عوامل التغيير، إذ أنهم سيسدون بذلك ثغرة كبيرة كانت مفتوحة في هذا المجال، وذلك بتربية الناس على قبول الفتاوى في دينهم مقرونة بالدليل القوي، ومستندة إلى الحجة الواضحة من كتاب الله وسنة رسوله، حتى يكون لها أثر فعال في النفوس، وتقوى بها العزائم والإرادات. وهذا أسلوب من أساليب مقاومة التقليد والجمود، والتعصب المذهبي، وتربية العقل على النزعة الاستدلالية. وقد سجل الإبراهيمي بؤابر نجاح هذا الأسلوب في أوساط العامة الذين أصبحوا لا يقبلون الأحكام الشرعية إلا إذا اقترنت ببرهان واضح:

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 23

«كان من ثمرات هذه النزعة الجديدة فيهم أنهم صاروا عارفين بقيمة الدليل ولا يقبلون الباطل حين يلقي إليهم بالسهولة التي كانوا يقبلونه بها... وكم ألقموا المبطلين حجرا وأغصوهم بريقهم حينما يلقون إليهم بباطلهم فيقولون لهم: وأين الدليل؟»⁽¹⁾.

ومما سبق، نلاحظ أن الإبراهيمي قد استطاع أن يوظف وسيلة المساجد خير توظيف، وأن يستثمرها أحسن استثمار، وأن يستغل الأساليب التي أتيحت له في هذا الإطار استغلالا جيدا، جعلها تخدم مشروع التغيير بشكل مباشر وعميق.

2 - المدارس:

تعد المدرسة أهم محيط اجتماعي يحتك به الطفل بعد خروجه من المحيط المنزلي. ونظرا للدور الهام الذي تضطلع به المدرسة في تعليم الطفل الأبجديات الأولى للقراءة والكتابة، وفي صياغة شخصيته الاجتماعية والثقافية كان اهتمام الإبراهيمي بها، وبخاصة وأن الواقع الجزائري كان يعاني من أزمة ثقافية حادة، بسبب شيوع الجهل، وتفشي الأمية، كأثر طبيعي لسياسة التجهيل التي انتهجها الاستعمار ضد الشعب الجزائري.

وقد رأى الإبراهيمي أن المدرسة العربية هي الملجأ الوحيد الذي يمكن أن يحمي الطفل الجزائري من الجهل الذي يستعبده، ومن محاولات الطمس التي تمارسها المدرسة الفرنسية ضده: «إن المدرسة هي طريق الحياة، وطريق النجاة وطريق السعادة، وإن الوطن أمانة الإسلام في أعناقنا، ووديعة العرب في ذممننا، فمن بعض حقه علينا أن نحفظ دينه من الضياع، وأن نحفظ لسانه من الانحراف،

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 75.

وأنة لا سبيل إلى ذلك إلا بالمدرسة التي تبنيها الأمة بمالها، وتحوطها برعايتها، وتجعلها حصونا تقي أبنائها الانحلال الديني والانهايار الخلقي»⁽¹⁾.

لذلك كانت المدرسة عنده وسيلة هامة من وسائل تغيير الواقع الجزائري البائس، من خلال البرامج المسطرة للتلاميذ، والتي تحتوي على مواد علمية، وأخرى دينية، تبني عقيدة الطفل، وتهذب نفسه، وتغرس فيه فضائل الأخلاق، وتنقل إليه تراثه الحضاري الإسلامي، يقول الإبراهيمي موجهها خطابها إلى المعلمين الأحرار: «إن حاجتنا إليكم أن تنقذوا هذا الجيل الناشيء من الأمية التي ضربت بالشلل على مواهب آبائهم وكانت نقصا لا يعوض في إنسانيتهم ... وأن تحببوا إليهم العربية، وتزينوها في قلوبهم، وأن تطبعوهم على التأخي والتعاون على الخير، وأن تربوهم على الفضيلة التي هي مناط الشرف والكرامة والكمال، وأن تأخذوهم بممارسة الشعائر الدينية صغارا حتى نأمن تضييعهم لها كبارا، وأن تزرعوا في نفوسهم حب العلم والمعلم، وحب الأب والأم، وحب بعضهم بعضا، وحب الله ورسوله والإسلام قبل ذلك ومعه وبعده»⁽²⁾.

ومن هنا، لمسنا في كتاباته دعوة ملحة لبناء المدارس والإكثار منها، ووجدناه في مواضع عديدة يجهد في تبيان فضائلها ويؤكد أن الأمة التي لا تبني المدارس لتكرم شبابها بالعلم والثقيف، سوف تبني السجون لتملاها بالمجرمين والمنحرفين، وأن الأمة الجاهلة التي تعتمد في حياتها على غيرها: «طفيلية على موائد الحياة، حقيقة بالقهر والنهر وقصم الظهر، والحياة بلا

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 337 .

(2) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 296

علم متاع مستعار، والوطن بلا علم عورة مكشوفة، ونهب مقسم»⁽¹⁾.

وقد تمخضت حملة التوعية التي خاضها الإبراهيمي، عن حركة شعبية واسعة النطاق، حملت على كاهلها عبء بناء عشرات المدارس الحرة بأموالها الخاصة، بل إن عام 1913 وحده شهد بناء ثلاثة وسبعين مدرسة، وهو العام الذي قال عنه الإبراهيمي إنه: «موسم حمى فائرة، أعراضها تأسيس المدارس وهذيانها الحديث عن المدارس»⁽²⁾.

ويسجل في عام 1918 في فخر واعتزاز، النتائج الطيبة التي حققتها حركة التعليم العربي الحر في الجزائر على يد جمعية العلماء فيقول: «مائة وثلاثون مدرسة عربية ابتدائية مجهزة بكل الأسباب المادية العصرية اللازمة للمدارس، وبجهاز آخر من المعنويات أعظم منها شأنًا وأجل خطراً، ويجند من المعلمين الأكفاء قوامه مائتان وخمسون معلماً، من بينهم عشرات من النوابغ في التعليم والإدارة، ومشحونة بزهاء ثلاثين ألف تلميذ من أبناء الأمة بنين وبنات، يتلقون مبادئ الدين الصحيح عقيدة وأعمالاً، ومبادئ العربية الفصيحة نطقاً وكتابةً وإنشاءً، ويتربون على الوطنية الحقيقية وعلى الهداية الإسلامية، والآداب العربية»⁽³⁾.

وقد تمكنت الحركة الإصلاحية، حتى قيام الثورة التحريرية، من بناء حوالي أربعمئة مدرسة⁽⁴⁾ أسهمت كلها في دفع النشاط الديني والعلمي، وإنقاذ الآلاف من الأطفال الجزائريين من ظلمات الجهل، وإبعادهم عن تأثيرات المدرسة الأوروبية

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 336.

(2) - المصدر نفسه، ج 3، ص 337.

(3) - المصدر نفسه، ج 3، ص 113.

(4) - الإبراهيمي، عبور البصائر، ص 279.

ذات المنهج الاستعماري في التربية والتعليم. وكان الإبراهيمي يراوده أمل كبير في يوم يتم فيه تأسيس جامعة عربية إسلامية في الجزائر، وبناء معهد لتخريج الوعاظ والدعاة استكمالاً لفعالية هذه الوسيلة.

وقد كان يشرف على وضع البرامج لهذه المدارس، ويحدد لها المناهج التعليمية، ويسعى إلى اختيار وتوفير الكتب المناسبة، ويولي عناية شديدة لإعداد المعلمين نفسياً وخلقياً، ويحرص على توفير العناية الاجتماعية والصحية للطلبة. ويحظى كل ذلك منه بالإهتمام الكافي حتى لا تخرج المدرسة عن الإطار الذي رسم لها، والهدف الذي وجدت من أجله.

كما حاول أن يستغل هذه المدارس إلى أقصى حد، حتى تعطي مردوداً أفضل ويحقق بها أكثر من هدف في أقصر وقت، فكانت تستقبل التلاميذ المداومين في النهار، وتفتح أبوابها في المساء لتلاميذ المدارس الفرنسية الجزائريين لاعتقاده أن: « التعليم الأجنبي - على تفاهته في الكيف وقلته في الكم - وعلى اضطرارنا إليه وإقبالنا عليه - يسبقه جهل، وتقترب به آفات، وتعقبه مفاسد، وهو - على ذلك كله - يفتح عينا ليعمي عينا »⁽¹⁾، فأردا عن طريق المدارس العربية الحرة، أن يجنب الأطفال الجزائريين عواقب التعليم الأجنبي، حتى إذا بلغوا سن الرشد، وجدوا أنفسهم قد ألموا بأطراف العلم، ولكنهم مازالوا مرتبطين بجذورهم التاريخية والوطنية.

3 - الصحافة:

وكما فعلت المساجد والمدارس الحرة فعلها في الشعب الجزائري، فقد كان للصحافة دورها الرائد في التعريف بمشروع التغيير، وتوعية الرأي العام.

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 303.

ذلك أن رجال الإصلاح قد عرفوا خطر الصحافة وتنبيهوا إلى قدرتها الهائلة على نشر الأفكار، وتنوير العقول، منذ البواكير الأولى لحركة التجديد الإسلامي. وقد أشار مبارك الميلي إلى هذه الأهمية التي تكتسبها الصحافة في العصر الحديث فقال: « وإن من أهم الخطط وأعمّ الوسائل لتحقيق الغايات ونشر الدعوات: إنشاء الصحف السيارة التي تحفظ جيد الأقوال، وسديد النظريات وتدخل بها على الطالب في مسكنه، وعلى التاجر في متجره، وعلى الصانع في مصنعه، وعلى الملاح في ناديهم، وعلى المسافرين في مراكبهم، بل لا يحجبها على الفتيات خدر ولا حرس ... وما وجدت فكرة الإصلاح الديني بأرض الجزائر حتى وجدت لها صحف تعبر عنها وتبشر بها وتدافع عنها ⁽¹⁾ » .

لذلك نجد أن الصحافة قد سارت في ركب حركة التجديد الإسلامي منذ نشأتها، وعرفت مسيرتها هذه ألوانا شتى من الأذى وصنوها كثيرة من الاضطهاد، وكان لها: «تاريخ حافل بالصراع والمقاومة، زاخر بآيات الصبر والتحدي، تضافرت عليها أسباب التثييط والعرقلة من كل جهة، وامتدت إليها الأيدي بالطنعن من كل جانب فتحملت الطعنات رغم نفاذها، وتخطت العراقيل وهي شائكة» ⁽²⁾ ذلك هو الطريق الشائك الذي سلكته الصحافة العربية في الجزائر وهي تؤدي مهمتها التغييرية. وعلى الرغم مما صبه عليها الاستعمار من ألوان الاضطهاد فقد ظلت تتحدى الصعاب في جرأة عجيبة. وكانت وسيلة هامة من وسائل حركة التغيير في نشر أفكارها والإتصال الواسع بال جماهير على اختلاف مشاربها .

(1) . الميلي، مبارك، جريدة البصائر، ع 84، 29، أكتوبر 1937

(2) . ناصر، د. محمد، المقالة الصحفية الجزائرية، ج 1، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1978، ص 41

وقد آمن إبراهيمي بأن الصحافة العربية الحرة في الجزائر وسيلة هامة من وسائل تحقيق أهداف التغيير، نظرا للدور الخطير الذي تقوم به في محاربة الخرافات والبدع والمعتقدات البالية، ونشر الثقافة الإسلامية الأصيلة، والتعريف بالدين الإسلامي في بساطة ويسر، إلى جانب قدرتها على الانتشار والوصول إلى مناطق بعيدة، وفئات مختلفة المشارب والاتجاهات، مما يمكن لفكرة التغيير لسانا يبشر بها، ويعبر عنها، ويدافع عن مبادئها، بأيسر السبل.

ويبدو اهتمامه بهذه الوسيلة، من خلال المقالات التي كان ينشرها في مختلف جرائد الحركة الإصلاحية كالشهاب والسنة والبصائر الأولى وغيرها، وكان يعبر فيها عن مبادئ مشروع التغيير ويسهم في إرساء قواعده والتعريف به.

أما أكبر وأهم عمل صحفي قام به، فهو تأسيس جريدة البصائر الثانية عام 1947 حيث تولى إدارتها ورئاسة تحريرها، فكان يشرف على كل جريدة وصغيرة فيها، وقد سار بها في طريق الحق الذي فرضه عليه المبدأ الذي آمن به، وخاص بها معركة التغيير التي كانت قد قطعت أشواطاً بعيدة في الإصلاح الديني والعلمي، ودفعها شوطاً آخر إلى الأمام، اقتربت فيه من الصراع السافر مع الاستعمار.

ودخلت البصائر الثانية في شجاعة وجسارة إلى قلب المعركة، فأبليت البلاء الحسن، يقول إبراهيمي: «هذا فصل قصير تحكيه البصائر عن تاريخ حياتها الأولى ومن حسن الختام لتلك الحياة، فخورة مزهوة بأنها بذت أحوالها الشبهادات⁽¹⁾، بما جلت من محاسن الإسلام والعربية، وبما جاهدت في سبيلها،

(1) - هي جرائد: السنة والشريعة والصراط التي كانت لسان حال جمعية العلماء - وصاروها الإستعمار.

وبما مهدت للإصلاح الديني من عقبات، وبما لقيت في صراع الاستعماريين
الروحي والبدني من مكاره، وبما حوته حقيبتها من ذخائر العبر والتجارب، وبما
قدمت من صالحات لحياتها الثانية.⁽¹⁾

وقد كانت هذه الجريدة نموذجاً راقياً سواء في كتابتها الأدبية أم في
مضامينها الفكرية، فاستطاعت بذلك أن تحتل مكانة مرموقة بين الصحف العربية.
يقول الإبراهيمي: « واحتلت من أول يوم مكان الصدارة من بين الجرائد العربية
في الشمال الإفريقي، ودخلت الشرق العربي فرحبت بها المحافل العلمية والأدبية
التي اتصلت بها، وانتهالت على إدارتها رسائل الإعجاب والتقدير من أئمة الكلام
وحملة الأقلام، واعتبروها نموذجاً فنياً راقياً، ثم دخلت الشرق الإسلامي، فتفتحت
لها القلوب المؤمنة. وتهللت لها وجوه المسلمين وعدوها لساناً من ألسنة
الإسلام »⁽²⁾

وقد انتهج الإبراهيمي في نشاطه الصحفي أساليب متنوعة لتبليغ فكرته،
فكتب المقالة بأنواعها: الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية، وكتب
الخاطرة والمقامة، ونشر البيانات والتقارير الصحفية، واستغل معظم أنواع
الكتابة الصحفية لخدمة حركة التغيير والانتصار لمبادئها.

١ - النوادي الثقافية:

تعد النوادي مقرات ثقافية تجمع الناس بغرض التهذيب الثقافي، عن
طريق إلقاء الدروس والمحاضرات التي تنشر الوعي، وترقي الفكر في المجتمع،
كما أنها عامل هام من عوامل الوحدة بين أفراد، ووسيلة فعالة للتعارف والتآلف،

(1) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 19

(2) - الإبراهيمي، آثار محمد الشر الإبراهيمي، ج 1، ص 346

وظهور النوادي في المجتمعات دليل على وجود مستوى عال من الوعي والتقدم الفكري فيها. ويكون خلوها من النوادي علامة على تدني المستوى الفكري والثقافي العام.

وقد عرفت الجزائر في بداية هذا القرن تأسيس بعض النوادي الثقافية على نطاق ضيق، غير أن ظهور الحركة الإصلاحية وانتشارها بعد الحرب العالمية الأولى، أتاح فرصا كثيرة لإنشاء النوادي، بسبب تشجيع الحركة لهذه الظاهرة، حيث كانت ملتقى لصفوة المجتمع من المثقفين والمصلحين ورجال السياسة، يقيمون فيها الاحتفالات، ويلقون المحاضرات، وينشرون الوعي، ويبشرون ببوادر النهضة العامة.

ومن أشهر النوادي التي قامت بدور هام في النهضة الجزائرية الحديثة «نادي الترقى» الذي تأسس في الجزائر عام 1906، وقد وجدت بعد ذلك عدة نواد منها : «نادي التقدم» بالبلدة، و«نادي الاتحاد» بقسنطينة، و«نادي النجاح» بمدينة بلعباس، و«النادي الإسلامي» بالجزائر وغيرها⁽¹⁾.

وقد اعتبر الإبراهيمي وجود النوادي، ضرورة ملحة تقتضيها شمولية الحركة التغييرية، التي كان من أهدافها الأساسية تغطية كل طبقات المجتمع، والوصول إلى جميع فئات الشعب. والنوادي الإسلامية - بما تحتويه من وسائل التسلية البرية - عامل مهم لجذب الشباب الجزائري، الذي لم يعرف طريقه إلى المسجد، ولم تسمع له سنة للالتحاق بمدارس التعليم الحر، لذلك فهي عنده «وسط جامع، بين المدرسة وبين الجامع، لأن هناك طائفة عظيمة من شباب الأمة لا تجد الجمعية

(1). مرتاض، عبد الملك، فنون النشر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، 1983، ص 270.

وسيلة لتبليغه دعوة الدين والعلم إلا في تلك النوادي»⁽¹⁾.

فالاعتماد على النوادي كوسيلة للتربية والتثقيف، يهدف إلى حماية قطاعا عريضاً من الشباب من عوامل الانحراف الخلقي والاجتماعي، ومن التبشير والتفريب والفرنسة، وتربيتهم تربية دينية وطنية، حتى يحافظوا على هويتهم العربية الإسلامية، لذلك قال الإبراهيمي أن الغاية من فتح النوادي هو «إصلاح ما أفسدت المفاهي والملاهي من أخلاق الشباب، وكلها ميادين للعمل ومنابر للخطابة ومستقلات للعلم والتعليم»⁽²⁾.

وكانت هذه النوادي تتكون في معظمها من قاعة للنشاطات المختلفة، وغرفة للصلاة، ومقصف صغير لبيع المشروبات المباحة، وفيها كانت تلقى الدروس والمحاضرات، وتُعقد المؤتمرات، وتقدم التمثيليات والمسرحيات، وتقام الاحتفالات بمناسبة الأعياد الإسلامية، كما كانت مقراً لاحتضان فرق الكشافة الإسلامية والفرق الرياضية والمسرحية.

ومن جملة هذه الأساليب المتنوعة التي كانت توظفها النوادي الإسلامية لخدمة حركة التغيير، سنكتفي هنا بالإشارة إلى أسلوب المحاضرات الذي قام بدور جليل في تربية الأجيال، وتفجير طاقات الشباب.

ذلك أن المحاضرات أسلوب هام للاتصال والحوار مع الجماهير الشعبية، من حيث أنها حديث منسق ومببب، تبدأ بمقدمات منطقية واضحة وتنتهي إلى نتائج علمية مقنعة، وتتوجه إلى عقول الناس أكثر من قلوبهم، وتعالج الموضوعات الفكرية والثقافية والعلمية، وتعرض للقضايا العامة المرتبطة بحياة الناس. لذلك

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 27

(2) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 114

اختارها الإبراهيمي كأسلوب للتثقيف والتنوعية. يعرف الشباب من خلالها فيمنه ومقراته في الأمة، ويعلمه دينه ولغته، ويفتح أذهانه على تاريخ أسلافه وأدبهم وفي ذلك يقول: «وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى أحد النوادي فالتقي محاضرة في التاريخ الإسلامي، فالتقيت في الحقيقة الموائية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العباسية بضع مئات من المحاضرات»⁽¹⁾

وكان اختيار المحاضرات كأسلوب للتغيير اختياراً مدققاً، حيث مرر المصلحون كيف يستغلونها ويوجهونها لخدمة الأهداف المرسومة. فجنوا من وراء ذلك نتائج طيبة على جميع الأصعدة. يقول الإبراهيمي: «فعلت تلك المحاضرات فعلها في الجمهور الجزائري، وانت أكلها سائغاً هنيئاً وأصبحت غداً، لذلك الجمهور. ومادة من مواد تعليمه، وصلة بينه وبين الجمعية وفي أصداء تلك المحاضرات أوصلت الجمعية نداءها إلى القلوب، وأصبحت مخاطب الضمائر لا الأذان. وفي إشراق تلك المحاضرات وصلنا إلى الغاية التي نرعى إليها وهي توثيق التعاون بينها وبين الأمة على تعليم النشء وتكوين جيل صالح للحياة منحد النزعات، متجاوب، الخواصر والمقاصد، يحرس الوطن من الاستعمارين الروحي والمادي»⁽²⁾

وقد استطاعت هذه النوادي الإسلامية أن تحقق نجاحاً باهراً على مستوى الشباب، الذي جمعت شمله، ووحدته صفوفه، وأعدت إليه الثقة بالنفس، ووجهه الوجهة الصحيحة لخدمة أمته: «فكان لمشروع (النوادي) آثار في الشبان نسائي آثار المدرسة في الأطفال وتفق آثار المساجد في الشيوخ والكهول، ومن النوادي

(1). الإبراهيمي، «نقاء الثقافة»، ص 87، ص 26.

(2). الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 147.

خرج الشبان إلى المسجد يؤدون حق الله، وإلى ميادين العمل يؤدون واجبات المجتمع»⁽¹⁾.

5 - الكتب والمطابع :

يحتل الكتاب في منهج التغيير عند الإبراهيمي منزلة خاصة باعتباره الراد الذي يتزود منه العالم والطالب والباحث، ليتمكن من الوقوف على أرضية متينة من الإيمان الثابت والعلم النافع الذي يفتح له آفاق المعرفة ويوضح له الرؤية. وقد اهتم الإبراهيمي بهذه الوسيلة اهتماما ملحوظا، لأنها عدة المصلحين في محاضراتهم، ومواعظهم، ودروسهم، وكتاباتهم الصحفية، وما إليها من الميادين التي يعد فيها الكتاب سلاحا ضروريا. لذلك دعا إلى نشر الكتب المفيدة في الدين، والتي تصحح العقيدة وتقوّم الأخلاق، لتتقضي على ما كان منتشرا بين الناس من كتب المبتدعة التي تدعو إلى الضلال وتقتل المشاعر الحية في النفوس: «وأما إصلاح الكتب فإن عمدة الجمعية في التذكير على كتاب الله، وحديث نبيه عليه الصلاة والسلام... وبوأوين الحديث الصحيحة المعتمدة موجودة متوافرة... ومن بركات جمعية العلماء على هذا القطر أن أمهات التفسير الموثوق بها والحديث الصحيحة راجت بين الناس، وعمرت الخزائن، واكتسحت تلك الكتب التي ضللت الناس وقتلت مشاعرهم»⁽²⁾.

والجدير بالذكر، أن الحركة الإصلاحية لم تشهد من داخلها حركة تأليف واسعة للكتب التي توفر لها المادة التي تشمخ مبادئها، وتوضح أفكارها، وتبين أهدافها، وتغطي احتياجاتها من الكتب في الحركة العلمية والتعليمية التي كانت

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 243.

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 129، 130.

تقودها، والسبب في ذلك - يرجع في رأينا - إلى أن التحديات القائمة في المجتمع الجزائري، كانت تستنفذ كل جهودهم، وتستغرق كل أوقاتهم، وتأخذ منهم جميع الفرص التي تتيح لهم الخلوة والانفراد للتأليف. فقد كانوا كما يقول الإبراهيمي مشغولين بتأليف الرجال الذي صرفهم عن تأليف الكتب⁽¹⁾.

لذلك، فقد اعتمدت هذه الحركة بشكل كبير على ما أنتجته الحركة الإصلاحية الحديثة في العالم الإسلامي، والتي كانت كتبها منتشرة على نطاق واسع، بالإضافة إلى استفادتها من أمهات الكتب الدينية القديمة التي طبعتها حركة إحياء التراث في العالم العربي، أما الكتب المدرسية، فكان اعتمادها على وزارة المعارف المصرية التي كانت تزودها بما تحتاجه في هذا المجال⁽²⁾.

أما المراجع التي اعتمدتها الحركة الإصلاحية فكانت متنوعة ومنها: كتب التفسير والحديث والفقه والأدب وعلم الاجتماع وما إليها⁽³⁾. وقد تم اختيارها لتتلاءم مع التوجه العام للحركة في العقيدة والفكر والتربية.

وقد نبه الإبراهيمي إلى أهمية مطالعة الكتب وقدرتها على تفتيق الأذهان، وتنمية الذكاء، وصقل المواهب، فدعا إلى اختيار الكتب السهلة التي تغذي العقل وتقويه، وألح - في المقابل - على اجتناب الكتب الجامدة المعقدة، التي لا تحرك الفكر ولا تنشطه، وكان دائم النصيح للطلبة أن يحكفوا على المطالعة المفيدة، ومنها قوله: «لا تقتنعوا بالكتاب المقرر، وأقرأوا غيره من الكتب السهلة المبسطة في ذلك

(1) - الإبراهيمي، «أناه الثقافة»، ص 87، ص 32 و: الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد الشير الإبراهيمي ج 1، ص 111

(2) - الإبراهيمي، آثار محمد الشير الإبراهيمي، ج 1، ص 399

(3) - من بين هذه الكتب: تفسير المنار للشيخ محمد عبد ورشيد رضا، و (تفسير الكشاف) للزمخشري، و تفسير روح المعاني للأكرسي، وكتب الصحاح في الحديث، و (الموطأ) للإمام مالك بن أنس و (فقه ابن عاشر)، و (أقرب المسالك)، و (الرسالة) لأبي زيد القيرواني في الفقه، وكتاب (مقدمة ابن خلدون) في الإحصاء والتاريخ، و (ديوان الحماسة) و (ديوان المتنبي)، و (الأمالي) لأبي علي الفارسي في الآداب العربية وغيرها.

العلم تستحكم الملكة ويتسع الإدراك ... لا تقطعوا الفاضل من أوقاتكم في ذرع⁽¹⁾
الأزقة إلا بمقدار ما تستعيدون به النشاط البدني، ولا في الجلوس في المقاهي إلا
بمقدار ما تدفعون به الملل والركود، ولا في قراءة الجرائد إلا بقدر ما تطلعون به على
الحوادث الكبرى، وتصلون به مجاري التاريخ، خذوا من كل ذلك بمقدار، ووفروا
الوقت كله للدرس النافع والمطالعة المثمرة⁽²⁾.

وكان يأمل من وراء التوجيه إلى المطالعة المفيدة، أن يكون ذلك خطوة هامة
نحو تكوين طليعة من المفكرين والباحثين، الذين يتخصصون في مجالات العلوم
المختلفة، فيسهمون في دفع حركة التغيير دفعا قويا إلى الأمام: «إن جمعية العلماء
تبث في أسانذتها وتلامذتها وجميع أعضائها والمتعلمين على طريقتها روح المطالعة
النافعة، والبحث العلمي السديد، وترشدتهم إلى كيفية المطالعة وطرائق البحث في
التاريخ والاجتماع والأدب والرجال والكتب، وإذا كان المتأهلون لهذه المباحث الآن
تصدهم عنها شواغل الدروس وغيرها - فإن النهضة الجزائرية العلمية التي كونتها
جمعية العلماء، والحركة الفكرية التي غذتها، ستتمخضان بناشئة تساهم في
الأبحاث العلمية إن شاء الله مساهمة قيمة»⁽³⁾.

وإلى جانب الكتب، آمن الإبراهيمي بالأهمية التي تكتسبها المطابع
باعتبارها وسيلة فعالة من وسائل تحقيق أهداف التغيير، حيث يرى أنه لولا
المطبعة: «ما ارتقى علم ولا فن ولا صناعة، ولا تجارة ولا عمران، ولولا المطبعة ما
تم للنهضات العقلية والفنية تمام، ولولا المطبعة لما أحيى الخلف مآثر السلف

(1) - ذرع: قطع، يقال ذرع الثوب وغيره، أي قطعه (الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد الغادر، مختار الصحاح، ص 121)

(2) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 218

(3) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد الشير الإبراهيمي، ج 1، ص 130

فوصلوا بها حلقات التاريخ العلمي»⁽¹⁾.

وكانت المطابع العربية المتوفرة للحركة الإصلاحية صغيرة في الغالب، ومحدودة النطاق، وليس في مقدورها تغطية نشاطات ومتطلبات نهضة علمية وفكرية وأدبية في البلاد. فكان الإبراهيمي يتمنى أن تمتلك جمعية العلماء مطبعة حديثة راقية كاملة الأدوات لتستطيع أن تخطو خطوات عملاقة في ميدان التغيير «ولو أن نهضة كنهضة جمعية العلماء صاحبها مطبعة راقية كاملة الأدوات لتقدمت بها خطوات فسيحا، وكانت أعود عليها بالنفع والخير من عشرات المدارس»⁽²⁾.

٦ - إقامة الاحتفالات:

تعد الاحتفالات وسيلة أخرى من وسائل تحقيق أهداف التغيير، بما توفره للعلماء المجددين من فرص الالتقاء بالعامّة، والاختلاط بهم، وتبليغهم آرائهم، وبث الفكرة الإصلاحية في أوساطهم. وكان رأي الإبراهيمي: «أن الاحتفالات بنظامها العصري مجامع مفيدة من جميع جهاتها، ولجميع روادها، فهي بالنظر العام أدوات تعارف وتواصل تربط بين من لم تنهيا لهم أسباب الاجتماع إلا في هذه الاحتفالات... وهي للدعاة ميادين دعابة يجدون فيها متسعا رحبا لنشر آرائهم بدون كلفة وبدون نفقة. لأنها تحشد لهم طبقات من الناس ما كانوا ليستطيعوا جمعها»⁽³⁾.

وزينة هذه الاحتفالات - عنده - هم الخطباء الذين يستطيعون بما أوتوا من ملكة شد الأسماع، وإثارة العواطف، وإيقاظ المشاعر الحية، أن يجذبوا الجمهور

(1). الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 131

(2). المصدر نفسه، ج 4، ص 132

(3). المصدر نفسه، ج 1، ص 234

ويوجهوه إلى الصالح النافع، ويرشدوه إلى الخير والمنفعة: «إن أكثر الناس استفادة من الاحتفالات وأبلغهم إفادة في توجيهها إلى الصالح النافع... هم الخطباء، فعليهم وحدهم يتوقف إصلاحها وإفسادها... ومادام وجود الخطباء في الاحتفال جزءاً ضرورياً بحيث لو خلا من عنصرهم - في هذا العصر - احتفال لكان زردة متمدنة مظلومة في إسمها، فوجودهم هو الفارق الجوهرى بين مسمى (احتفال) ومسمى (زردة)»⁽¹⁾.

لذلك كان اهتمامه كبيراً بتجريح الخطباء، وتزويدهم بما يحتاجونه من ثقافة غزيرة، وملكة بيائية، وقدرة على الاستدلال والاقتناع، نظراً لدورهم الكبير في إيصال فكرة التغيير، وتوضيح معالمها إلى طبقات الناس العريضة، في مختلف المناسبات، التي كان يدعو إلى الإكثار منها، على أن تكون مرتبطة بسيرة بطل من أبطال الإسلام، أو بحادثة مهمة في التاريخ الإسلامي، ليسهم لاحتفال بها في تنبيه الأمة، واستعراض أمجاد ماضيها، واستمداد القوة الروحية منه: «عندنا معشر المسلمين ليلة الميلاد النبوي، وعندنا يوم الهجرة ورأس السنة الهجرية، ويوم بدر ويوم أحد وفتح مكة وغير ذلك من الأحداث التي وقعت في عهد النبوة... وهلم إلى ما يخصنا معشر الأفارقة كبناء القيروان واستواء طارق على الجبل. وهلم إلى ما تقتضيه المناسبات في بعض الأوقات كفتح خيبر ودخول عمر لبيت المقدس... إن غفلتنا عن إحياء ذكريات أمجادنا التاريخية هي التي أزهقت في الأمم الإسلامية روح التأسى فافقرتها من الرجال وجعلت تاريخها الحديث خلواً من المثل العليا»⁽²⁾.

(1). الإبراهيمي، أنار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 235.

(2). المصدر نفسه، ج 1، ص 236.

وقد حاول الإبراهيمي أن يجعل من الاحتفالات الإسلامية النافعة سنة حميدة، يستغلها كوسيلة للتوعية والتثذيب، وقد ضرب مثلاً ببعض الاحتفالات التي أقامتها الجمعية على طريقة حديثة منظمة، وكان لها أثر كبير في الجماهير الحاضرة، بحيث أدت الغرض من إقامتها، ومنها الاحتفال بافتتاح مدرسة دار الحديث بقلسمان.

أما أعظم احتفال شهدته الجزائر، فهو الاحتفال بختم الشيخ عبد الحميد بن باديس لدروس التفسير بالجامع الأخضر بقسنطينة، والذي حضرته جموع حاشدة من مختلف أنحاء القطر الجزائري وقال عنه الإبراهيمي: « هذا هو اليوم الذي يجب أن نورخ له في الطور الجديد من أطوار نهضتنا العلمية والدينية، ونورخ به لبدا ازدهارها وإثمارها... هذا هو اليوم الذي التقت فيه الأمة حول دينها ولغتها فاثبتت أنها أمة مسلمة عربية يابى لها دينها أن تلتين فيه للعاجم وتأبى لها عربيتها أن تدين فيها للأعاجم»⁽¹⁾.

7 - تأسيس الجمعيات:

تعد الجمعيات وسيلة أساسية من وسائل تحقيق أهداف التغيير، لأنها تجمع جهود العاملين له، وتوحد صفوفهم، وتنسق أعمالهم، وفيها تتلاقح الأفكار ويتم تبادل الآراء، وتوزع الأعمال وتحدد الأهداف، وعن طريقها يتم تقييم الجهود المبذولة وضبط مسيرة الحركة .

وكان الإبراهيمي يلح على ضرورة تأسيس الجمعيات، لأنها أداة فعالة لحماية العمل التغيير من الارتجالية والفوضى، وصيانة جهود العاملين من الضياع، ولأنها وسيلة ممتازة لتدريب الأمة على النظام، وحسن إدارة الأعمال.

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 251

وتعويدها على الشورى واحترام الرأي الآخر، وتربيتها على الجرأة في إبداء الرأي والدفاع عنه، ومناقشة الرأي المخالف بالحجة الهادئة والمنطق المقنع. وهو يسجل أن جمعية العلماء كانت تشرف على مئات الجمعيات العاملة في جميع الميادين، وعلى كافة المستويات، مثل جمعيات البر والإحسان، والجمعيات العلمية والأدبية والرياضية وما إليها. حيث يقول: «وجمعيات بلغت المئات، مقسمة على العلم والإحسان والأدب والرياضة، تبت في الأمة النظام، والإدارة، وأداب الاجتماع، وديمقراطية الانتخاب، وتعلمها كيف تناقش، وكيف تصوغ الرأي، وكيف تدافع عنه، وكيف تنقضه بالحجة، وكيف تزن الأفكار، وكيف تحاسب العاملين، وتدريبها بالتدرج من الإدارات الصغرى إلى الإدارات الكبرى، لأن الأمة التي لا تحسن إدارة جمعية صغيرة، لا تحسن - بالطبع - إدارة مجلس فضلا عن حكومة»⁽¹⁾.

ويرى الإبراهيمي أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هي أعظم جمعية في العالم الإسلامي، استطاعت في ظروف القاهرة - أن تقود حركة تغيير واسعة وعميقة، وأن تحقق نتائج باهرة على المستوى الشعبي، وفي ميدان صعب، تملؤه التحديات ويموج بالمخاطر: «ليس بمبالغ من يقول أن جمعية العلماء الجزائريين هي أعظم جمعية من نوعها في العالم الإسلامي، على شرط أن يكون ميزان المقارنة هو العمل ومادته ونتيجته والزمان والمكان وملابستهما، ثم الموضوع... فإذا اعتبرنا هذه المعاني في المقارنة وجدنا جمعية العلماء الجزائريين تبت جميع الجمعيات العاملة في الإصلاح الديني والاجتماعي»⁽²⁾.

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج. 3، ص 114

(2) - المصدر نفسه، ج. 4، ص 230

8 - المال :

يعد المال وسيلة هامة من وسائل التغيير، وبخاصة في هذا الزمن الذي تقدمت فيه المدنية المعاصرة أشواطاً بعيدة، وأصبح ضرورة ملحة تقتضي السعي الجاد لاكتسابه حتى يتمكن المصلحون من تحقيق أهدافهم، والوصول إلى غاياتهم. فعن طريق المال يستطيع العاملون تسريع عملية التغيير، ويتمكنون من تذليل كثير من الصعوبات، والتخفيف من حدة العوائق التي تقف في وجوههم، وتوفير الجهود والاقتصاد في الأوقات. وكثيراً ما يكون افتقاد العامل المادي سبباً في فشل المشاريع وتعثرها لذلك قال الإبراهيمي: «إن مكان المال من الحياة مكان الوريد من البدن، وأن الزمان قد دار دورته وقضى الله أن يصبح المال والعلم سلاحين لا يطمع طامع في الحياة بدونهما»⁽¹⁾.

وقد أثبتت له التجربة التي خاضها في ميدان التغيير، أن المال هو حقا عصب الحياة، فلولا له استطاعت الجمعية أن تبني المدارس والمساجد والنوادي، ولا أن تؤسس الصحف والمجلات، ولا أن تحقق المشاريع الكبيرة التي سطرتها. « كلمة صريحة مريحة إن كنتم جادين في هذه النهضة، مؤمنين بنتائجها وغاياتها، فكونوا مؤمنين بأنه لا يتم لها تمام بالأقوال وتخطيط البرامج على الورق، وإنما يتوقف كل شيء فيها على المال...»⁽²⁾

وقد عبر في مناسبات عديدة عن أسفه العميق لنقص المال، الذي وقف عائقاً أمام تنفيذ مشاريع عظيمة كانت ستعود بالآثار الطيبة والخير الوفير على الشعب الجزائري. ولعل من أهمها مشروع تأسيس جامعة عربية إسلامية بالجزائر

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 13.

(2) - المصدر نفسه، ج 3، ص 343.

العاصمة، تضاهي جامعة الزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب، والذي لم يتحقق بسبب عدم وجود الميزانية التي سيقوم عليها المشروع⁽¹⁾، على الرغم من أنه تجاوز مراحل التفكير والتخطيط ولم تبق إلا مرحلة الإنجاز.

وكان الإبراهيمي كثير الشكوى من ضعف الموارد المالية التي تقوم عليها الجمعية، مما يعرض أعمالها بشكل دائم إلى التعثر والاضطراب: «ليس لهذه الجمعية الكبيرة الأعمال، الكثيرة المشاريع، مورد مالي قار وهي تعتمد في تسيير مشاريعها الضخمة على الأمة من طريق اشتراكات سنوية يدفعها الأعضاء العاملون والمؤيدون أو تبرعات الأنصار أو زكوات يدفعها الميسرون المؤمنون»⁽²⁾

ومما لاشك فيه أن هناك وسائل أخرى وظفت في سبيل تحقيق أهداف التغيير، ومنها الزيارات الميدانية التي تمكن من الاحتكاك المباشر بالشعب، والتعرف عن قرب على مشاكله للإسهام في حلها، أو التخفيف من حدتها. ومنها التأكيد على أهمية البيت في التربية والتثذيب، باعتباره معملاً للتكوين⁽³⁾، ومنها المؤتمرات السنوية التي تقام للتقييم والمراجعة والبرمجة والتخطيط للمستقبل، وإرسال البعثات العلمية إلى الجامعات الإسلامية، كالزيتونة والقرويين والأزهر، وأرض الحجاز، والتي كان الهدف منها إعداد طليعة مثقفة ثقافة عربية إسلامية عالية، تسهم في حركة التغيير، وتعزز صفوفها بالإطارات التي تتمتع بكفاءة متميزة.

ونخلص إلى القول في حديثنا عن الوسائل والأساليب، إلى أن الإبراهيمي قد سعى إلى إيجادها سعيًا، بمختلف أنواعها على الرغم مما كانت تعانيه الأمة

(1). الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 218 .

(2). المصدر نفسه، ج4، ص 235

(3). المصدر نفسه، ج4، ص 14

الجزائرية من فقر مدقع، وأنه عمل على استثمارها أحسن استثمار، وتفعيل دورها في عملية التغيير، على الرغم أيضا مما كان يمارسه الاستعمار من ضغوط على الحركة. فقد أوصد أبواب المساجد التابعة له في وجه العلماء، ومنعهم من الوعظ والتدريس فيها، وأغلق المدارس العربية الحرة، وسجن معلميها، وغرمهم واضطهدهم، ووضع القوانين الجائرة لتضييق الخناق على التعليم العربي، وحارب الصحافة حريا شعواء، فعطل الصحف والجرائد الواحدة تلو الأخرى، وحاصر النوادي بالقرارات الإدارية التي تحد من نشاطها، في محاولة للقضاء عليها، وكان يتربص بالجمعيات الخيرية فيسارع إلى حلها كلما سنحت له فرصة، وفرض رقابة صارمة على الكتب التي كانت تستقدم من المشرق.

ونستطيع القول أنه ما من وسيلة ظهرت وبدأت تمارس نشاطها بفعالية، إلا وقف لها الاستعمار الفرنسي بالمرصاد، وحاربها بكل الطرق والأساليب، من أجل تحطيمها والتقليل من خطرها عليه، إلا أن الإرادة الفولاذية والعزيمة القوية والإيمان الراسخ بالمبدأ كان أقوى من كل هذه التخديبات.

الباب الثالث

مجالات التغيير عند إبراهيمي

الفصل الأول: المجال الديني

الفصل الثاني: المجال الثقافي والتربوي

الفصل الثالث: المجال السياسي

الفصل الرابع: المجال الاجتماعي

الفصل الأول
المجال الديني

نشأ الإبراهيمي في بيت علم وأدب نشأة دينية محضة، فقد حفظ القرآن الكريم وهو لم يبلغ العاشرة من عمره، ودرج على فهمه وتفسيره، وكان زاده العلمي الأول أمهات كتب التراث الدينية والأدبية، وعندما شب عن الطوق، اتصل بعلماء عصره فأخذ عنهم علوما جمة، منها الحديث والتفسير، والفقه وأصوله، والسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي، وطاف بالمكتبات مطالعا باحثا، مما أتاح له فرصا ثمينة لامتلاك ثقافة إسلامية واسعة حوتها حافظة قوية، وساندها ذكاء خارق، مكنته من الفهم العميق لأسرار الشريعة ودقائقها، والإحاطة الشاملة بحقائق الدين ومقاصده.

وكانت رياح اليقظة قد هبت على المسلمين، وعملت حركة التجديد الإسلامي عملها في المجتمعات الإسلامية التي بدأت تستيقظ من سباتها العميق لتتخلص من رواسب قرون التخلف والاتحاط، في الوقت الذي استكمل فيه الإبراهيمي أدواته العلمية، وفتح عينيه على الصراع الذي كان يستهدف الإسلام على جبهتين: جبهة داخلية غارقة في أفات التقليد والجمود والتعصب المذهبي، وجبهة خارجية معادية له، تسعى لتحطيمه، والتشكيك فيه، وتتمثل بصفة خاصة في الاستعمار الغربي المؤيد بالحركات التبشيرية، والمذاهب المادية الحديثة وغيرها.

ويدور منهج التغيير عند الإبراهيمي في المجال الديني حول محور أساسي يتمثل في فهم الإسلام فهما صحيحا، وتجديد الأركان التي يقوم عليها في العقيدة والفقه والتربية، حتى يستأنف الإسلام دوره الحضاري وتعود إليه فعاليته الاجتماعية في حياة الناس.

لقد اقتنع الإبراهيمي اقتناعا راسخا أن الإسلام دين الله الكامل الذي ارتضاه لعباده، ونظامه الأمثل الذي تسعد به الإنسانية، غير أن واقع المسلمين

المخحرف لم يكن يدل على شيء من ذلك، ولم تكن أحوالهم المرضية تشير إلى أنهم أصحاب دين سماوي عظيم. فدخل معركة التغيير محاولاً أن يثبت للإسلام عظمته وصلاحيته لقيادة الحياة.

وكانت الإشكالية المطروحة على الساحة الإسلامية تتمثل في سوء فهم المسلمين لحقيقة الإسلام، وانحرافهم عن مبادئه، مما جعلهم مسلمين شكلاً لا مضموناً. واتحصر تأثيره انحصاراً يكاد أن يكون كلياً عن مظاهر الحياة العملية، واقتصر عند معظمهم على طقوس عبادة مجردة من الروح، خالية من المعنى، شوهتها البدع والأضاليل نتيجة لشيوع الفهم الخاطئة عن الإسلام.

لذلك آمن الإبراهيمي بضرورة فهم العلماء للإسلام فهماً صحيحاً وإدراك طبيعته وخصائص الرسالة الإسلامية إدراكاً واعياً، بعيداً عن مظاهر التأويل والتعطيل والتضليل التي أصابت العقل الإسلامي عبر القرون الماضية، ثم تفهمه للناس وعرض حقائقه المشرقة في ضوء الواقع الإسلامي الحالي لتداوي جروحه وتقضي على أسقامه، ولا يستطيع القيام بعبء هذه المهمة إلا العالم المسلم الذي استوعب الرسالة الإسلامية وأمن بها منقذاً للأمة ومخلصاً لها من سقوطها الحضاري: « إن العالم الديني الذي يعول عليه في هذا الباب هو الذي فهم دينه على وجهه الصحيح، وفهم نفسه بوزنها الصحيح، وفهم زمنه على وجهه الصحيح أيضاً، وعرف أمراض المسلمين، ووطن نفسه على علاجها »⁽¹⁾.

وقد أكد هذه الحقيقة في موضع آخر حينما ربط سعادة البشرية بالإسلام بحسن فهم علمائه له وقيامهم بفريضة الدعوة إلى الله على أكمل وجوها: « لو كان للإسلام دعاة فاهمون لحقيقة الإسلام، محسنون للإبانة عنها ولعرضها على

(1). الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 11

العقول لرجعت إليه هذه الأمم الحائرة في هذا العصر، الثائرة على أديانه وقوانينه وأوضاعه، لأن أديانه لم تحفظ لهم الاستقرار النفسي والطمأنينة الروحية، ولأن قوانينه الوضعية لم تضمن لهم المصالح المادية ولم تقم الموازين القسط بين طبقاتهم، ولأن الأوضاع العامة لم تحقق دماغهم ولم تفرس المحبة بينهم»⁽¹⁾.

وعندما تصدى إبراهيمي لمحاولة توضيح المفاهيم الصحيحة للإسلام، وجد ركاباً ضلوا من الفهم الخاطئة التي جمعت عبر القرون الماضية، فحجبت عن أذهان المسلمين حقيقة دينهم الناصعة، وجعلت سلوكهم غريباً عن مبادئ الإسلام الصحيحة، وحرفت معتقداتهم عن معانيها الحقيقية وصاروا يعيشون بمنطق بعيد عن الدين الذي ينتمون إليه: «وأفكر في قومي المسلمين فأجدهم قد ورثوا من الذين قشورا بلا لباب، وألفاظاً بلا معان، ثم عمدوا إلى روحه فأزهدوها بالتعطيل، وإلى زواجه فأزهدوها بالتأويل، وإلى هدايته الخالصة فموهوها بالتضليل، وإلى وحدته الجامعة فمزقوها بالمذاهب والطرق والنحل والشيع»⁽²⁾.

ومن خلال استقراءنا لكتابات إبراهيمي حول مهمة الإسلام ورسالته في الحياة يمكن الإشارة إلى بعض المعالم الأساسية التي توضح طبيعة الإسلام وخصوصيته الحضارية.

فالإسلام في نظر إبراهيمي دين الفطرة لأنه يستجيب لمطالب الإنسان الروحية والمادية في حدود خاصة تضمن له التوازن، وتحقق له الاطمئنان النفسي، والسعي المثمر، والعلاقات الطبيعية بينه وبين بني جنسه، وبينه وبين الكون المسخر له، ولأنه ينسجم مع الفطرة الإنسانية في العقائد والعبادات والأحكام والأخلاق

(1) - إبراهيمي، آثار محمد البشير إبراهيمي، ج 4، ص 184

(2) - إبراهيمي، عبود البصائر، ص 547

التي تقوم كلها على احترام فطرة الإنسان، وعدم تعطيل إرادته وعدم إنكار الفرائز البشرية وقمعها⁽¹⁾.

وهو أيضا دين السعادة، إذ يؤكد الإبراهيمي في مواضع كثيرة من كتاباته أن الإسلام هو الدين الوحيد القادر على توفير السعادة للإنسان، بما تحويه عقائده وعباداته وشرائعه وأدابه من تعاليم إلهية، تحقق للفرد الأطمئنان النفسي، والاستقرار المادي، والعلاقات السليمة، وتحل العضلات التي عقدتها نظم البشرية القاصرة، بما خلقته بين بني الإنسان من صراع دموي دائم على المادة. فعنده أن غاية الغايات في الإسلام: « هي إسعاد الإنسانية وتحقيق السلام بين البشر والقضاء على الطغيان والعدوان والظلم وإقامة العدل بين الناس ونشر المحبة بينهم »⁽²⁾.

كما أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تفرد بالدعوة الخالصة الصريحة إلى المساواة بين جميع البشر، والثورة على التعصب للجنس واللون والطبقات الاجتماعية التي توارثها الناس عن بعضهم. فقد حطم كل هذه الادعاءات الخاطئة والامتيازات المغتلة، ليعلن أن الناس جميعا يعودون في أصلهم الأول إلى آدم، وأنه لا فضل لأحد على أحد مهما كانت الفروق بينهم؛ سواء كانت فروقا شخصية كالذكر والأنثى، أو فروقا جنسية كالأبيض والأسود، أو فروقا اجتماعية كالنبلاء والعامّة. يقول الإبراهيمي منوها بالقرآن الذي قرر مبدأ المساواة بين أبناء الإنسانية: « وأرشدنا لأول مرة في التاريخ أن الإنسان أخو الإنسان لا سيده وعبيده، وإن فضله في المواهب. وأن تساوي الناس في استعمار الأرض تابع

(1). الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 34

(2). المصدر نفسه، ج 4، ص 184

لنفساويهم في النشأة. وهذا تقرير لمبدأ المساواة وهو المبدأ الذي لم يسبق الإسلام إليه سابق، ولم يلحقه فيه لاحق، وإن زعم المتبحرون⁽¹⁾.
واعتقد كذلك جازما أن الإسلام دين الوحدة والاتحاد الكفيل بالقضاء على كل عوامل التفرق التي تمزق أوصال الأمة: «هذا هو الإسلام متجليا في آيات القرآن: دين واحد جاء به نبي واحد عن إله واحد، وما ظنك بدين تحفه الوحدة من جميع جهاته؟». ليس حقيقا أن يجمع القلوب التي فرقت بينها الأهواء والنفوس التي باعدت بينها النزعات، والعقول التي فرق بينها تفاوت الاستعداد. بلى والله إنه لحقيق بكل ذلك⁽²⁾.

وهو يرى أيضا أن الإسلام دين التوازن، امتاز عن غيره من النظم بهذه الخاصة التي تطبعه في جميع مظاهره وتنسحب على كل تعاليمه وتشريعاته، فهو يوازن بين الجسم والروح، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والجماعة، وبين العقل والنقل وما إلى ذلك. وتجري أحكام الإسلام وعقائده كلها على هذا المنوال الذي يميزها بالوسطية والاعتدال، التي تجنبها عواقب التطرف والمغالاة الذي يجر إلى انحراف في السلوك الإنساني، وأعظم مظاهر هذا التوازن التي أشار إليها الإبراهيمي، التوفيق بين مطالب الروح والجسم: «إن التاريخ لم يشهد دينا جمع بين مطالب الروح والجسم إلا هذا الدين، وإن السعادة لا تتم في الدارين إلا بالتوفيق بين المطالبين، وهذه عقبة العقبات في طريق السعادة، وسبب الأسباب في استكمالها واختلافها، وأين تقع القوانين التي هي وضع البشر من التوفيق بين

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 88، 89.

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 90.

هذين المطلبين»⁽¹⁾

كما أكد أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، قادر على تجاوز جميع التحديات التي تعترضه على مر العصور واختلاف البيئات والبلدان. باعتباره رسالة إلهية خاتمة. والدليل الحي على صلاحيته الأبدية هو تلك المرونة التي تتميز بها الشريعة الإسلامية، والتي تعطيها القدرة على استيعاب المستجدات الجديدة عن طريق الاجتهاد الذي مارسه الأئمة الكبار في العهود الإسلامية الأولى وأعطوا به الدليل الناصع على قدرة الإسلام على الاستجابة لمختلف الظروف الطارئة، والتحكم في زمام الحياة، وتسيير دفتها نحو الخير والعدل، دون أن تصطدم مع سنة التطور والتغيير. لأن هذه الشريعة تستهدف في أحكامها تحقيق مصلحة الناس: « والإسلام يراعي المصالح الزمنية ويبني أحكامه على تطوراتها، ويكل إلى علمائه الراسخين في فقه الكتاب والسنة أن يراعوا لكل وقت أحواله، وأن يقيموا الموازين على أساس جلب المصلحة ودرء المفسدة »⁽²⁾.

والإسلام عند الإبراهيمي - أيضا هو الذي حاز قصب السبق في الإعلان عن الحرية الدينية، والدعوة إلى حماية أصحاب المعتقدات المخالفة، والتصريح بأن اختلاف الناس في معتقداتهم من سنن الله في خلقه. لذلك، فرض، على المسلم أن يحترم من يخالفه في الدين، وأن يحميه إذا كان في دار الإسلام، وأن يكفل له الحاكم المسلم حرمة دمه وماله وعرضه، مما جعله الدين الذي تفرد بالتسامح مع المخالفين له. يقول الإبراهيمي: «أما إن الإسلام أقام الحجة على الأديان وأهلها

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 34.

(2) - الإبراهيمي، عمود البصائر، ص 131.

نعد له وتسامحه وفضائله»^(١)

والملاحظة التي تجدر الإشارة إليها هنا، هي أن هذه التصورات حول طبيعة الإسلام ورسالته ليست جديدة، بل هي مستمدة من الكتاب والسنة، وهي من الحقائق التي أجمع عليها علماء الإسلام في القديم والحديث، غير أنها ستمد قوتها وقيمتها من خلال السياق التاريخي الذي طرحت فيه. فقد صاغ الإبراهيمي هذه المفاهيم عن الإسلام وقدمها للناس، في وقت تعرضت فيه صورة الإسلام للتشويه بالجزائر، سواء على مستوى الجزائريين المثقفين بالفرنسية، أو العامة الذين غلب عليهم الجهل، فلم يكن معروفا لديهم سوى الإسلام الوراثي المشوه بالخرافات والبدع، والذي يمثله مشايخ الطرق الصوفية والعلماء المقلدون الجامدون.

وعندما طرحت هذه المفاهيم في زمنها كانت بالفعل جديدة نتيجة لهذا الجهل الذي عم. وقد بذل الإبراهيمي وإخوانه العلماء جهدا طيبا في سبيل تقريب صورة الإسلام الحقيقية من الأذهان التي كانت غافلة عنه، وأتى هذا الجهد ثماره الطيبة بعد مدة من الزمن، حيث تجاوب الناس مع دعوة التجديد الإسلامي، مما أسهم بنصيب وافر في تغيير المفاهيم السائدة، وأحدث انقلابا في الأوضاع الفكرية القائمة، وهنا تكمن قيمتها الحقيقية.

وفي ضوء هذا الفهم الصحيح لطبيعة الإسلام ورسالته في الحياة، عمل الإبراهيمي على تجديده نظريا وعمليا من خلال ثلاث دوائر أساسية هي: تجديد العقيدة وتنقيتها من الأباطيل والضلالات، وإحياء الفقه الإسلامي والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد، والثورة على الطرق الصوفية والدعوة إلى الصلاح والتربية

(١). الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 121

الروحية، وفيما يلي تفصيل لهذه الجوانب الثلاثة:

أ - إبراهيمي وتجديد العقيدة:

العقيدة الإسلامية هي الأمور القطعية اليقينية التي ارتضاها المسلم وجزم بصحتها عن دليل، وأطمأن إلى مضمونها طمأنينة قلبية، بحيث أصبح الشك والريب محجوزا بحاجز الصديق واليقين. وإذا ما عقد عليها الإنسان قلبه فلا بد من أن تكون من العمق والتمكن بحيث تمتزج بنفسه امتزاجا كاملا، وتصبح جزءا آمنه، ومرجعا لكل سلوكاته وتصرفاته.

والعقيدة الإسلامية إذا تمكنت من القلب ورسخت في الأعماق أثمرت ثمرات يانعة، وشحنت صاحبها بطاقات عجيبة، تتخطى اللائذ والمنافع الشخصية إلى آمال وطموحات تحقق سموه الروحي، وكماله الإنساني، وتحمله على السعي إلى الغايات السامية والأهداف البعيدة.

وقد كان لهذه العقيدة مجالها الواسع الذي تجلت فيه وأنت أكلها وأسعدت الإنسانية حيناً من الدهر حين خرجت ذلك الجيل القرآني الفريد⁽¹⁾ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي كان ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها المسلمون طويلا، لأنها ذات أثر حاسم في منهج التغيير الإسلامي.

وأحدثت هذه العقيدة في نفوسهم أغرب انقلاب في ذلك الزمن: «وقد كان هذا الانقلاب غريبا في كل شيء: كان غريبا في سرعته وكان غريبا في عمقه، وكان غريبا في سعته وشموله، وكان غريبا في وضوحه وقربه إلى الفهم»⁽²⁾. حيث بدت مظاهر هذا الانقلاب واضحة على مسار حياتهم الذي تغير من

(1) - قطيب، سيد، معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، لبنان، د.ت ص 11

(2) - الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، ماذا خسر العالم بانحطاط السلفين، إصدار الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، د. ص 127

التقيض إلى التقيض. « فإن أمن أحد وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن. تغفل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره، وجرى منه مجرى الروح والدم واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها، وغمر العقل والقلب بفيضاته وجعل منه رجلاً غير الرجل، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق»⁽¹⁾

وقد ظلت هذه العقيدة تمارس تأثيرها الإيجابي في حياة المسلمين خلال القرون الأولى، عندما كانت حية صافية، ثم بدأ هذا التأثير يضعف شيئاً فشيئاً، وتوهجها يخفت ويبدأ رويدا في النفوس لما ضعفت صلة المسلمين بمصادر الهداية: الكتاب والسنة. وبدأت أهواء البشر تضيف عليها أشكالا غريبة وطقوسا مستحدثة، فأحاط بها ركام ضخم من البدع والخرافات حجبت عن الناس صفاتها وبساطتها، هذا على مستوى السواد الأعظم من العامة، أما على مستوى الخاصة فقد تحولت إلى جدل فلسفي عقيم يدور حول قضايا ومقولات كلامية جامدة ومعقدة⁽²⁾، لم تكن واردة عند الجيل الأول. وبذلك فقدت هذه العقيدة فعاليتها الاجتماعية في حياة الأمة الإسلامية.

وقد دفعت هذه الحالة العلماء المجددين - على مر القرون - إلى بذل جهود محمودة في سبيل تنقيتها مما طرأ عليها، وتجلية وجهها الحقيقي، ويندرج ذلك ضمن محاولات تجديد العقيدة الإسلامية الذي يعني إعادة إحيائها من جديد في نفوس المسلمين ببساطتها ويسرها وسماحتها، وربطهم المباشر بالقرآن والسنة

(1) - الندوي، أبو الحسن علي الحسني، ماذا خسر العالم بانعطاف المسلمين، ص 130

(2) - الميالك، محمد، المجتمع الإسلامي المعاصر، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط5، 1980، ص 54

دون وساطات بشرية، والقضاء على كل أشكال الخرافات والبدع والضلالات ليعود لهذه العقيدة دورها الإيجابي كما كانت عند السلف الصالح. والإسلام هو الدين الوحيد من بين الأديان السماوية الذي أقر شرعية التجديد، وعدها سنة من سنن الله الدائمة الفعل على مر القرون: « فكما يصدأ السيف فيحول الصدأ بينه وبين الفعل الخلاق، كذلك تصيب السنون المنظومات الفكرية، ومنها الأديان، بالبدع والخرافات والإضافات التي تحجب جوهر الدين فتعطل فيه الطاقات والفعاليات. وبسبب من كون الإسلام هو خاتم الرسالات، وحتى يكون صالحاً لكل زمان ومكان كان التجديد فيه قانوناً دائماً⁽¹⁾.

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر في الحديث الشريف: « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها⁽²⁾ ». ويضطلع بمهمة التجديد هذه علماء الأمة الذين يفقهون أسرار الشريعة، ويدركون بثاقب أبصارهم حكمها ومقاصدها، ويحيطون بظروف عصرهم الذي يعيشونه، فيستطيعون بذلك أن يعرضوا مشكلات واقعهم على الكتاب والسنة، ويكيفوا أحكام الإسلام مع مستجدات الحياة دون أن يفقدوها مقاصدها وأسرارها.

وقد أدرك الإبراهيمي أن العقيدة الصحيحة النقية هي المنطلق الفكري لعقلية المسلم، والأساس النفسي لسلوكه، فاهتم بها اهتماماً بالغاً، وعمل على تجديدها ورد الشبهات عنها، وتنقيتها مما علق بها من الخرافات والبدع ومظاهر الشرك الخفي. ويقوم منهج الإبراهيمي في تجديد العقيدة على الثورة على البدع والخرافات، والتأكيد على العودة المباشرة إلى القرآن والسنة في دراسة العقيدة،

(1) - عمارة، د. محمد، الإسلام والمستقبل، ص 10

(2) - السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، صحيح سنن المصطفى، ج 2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت، ص 209

والاقتداء بالسلف الصالح في فهمها، وتجاوز عصور الخلاف الفكري وما أنتجته المدارس الكلامية والفلسفية من جدال ومناقشات، ورد الشبهات الحديثة كالفلسفات المادية الإلحادية، والتصدي لتيارات الغزو الفكري. وفيما يلي محاولة لشرح معالم هذا المنهج.

١ - الثورة على البدع والخرافات

لقد كان شيوع البدع والخرافات، وتغشي الضلالات في الدين، تحديا خطيرا واجه جميع عمليات التغيير التي عرفت الساحة الإسلامية منذ القديم. فقد كان ابن تيمية في زمنه صرخة مدوية في وجه هذه البدع التي ظلت تتراكم يوما بعد يوم، وأضحت تمثل خطرا حقيقيا على جوهر الدين. حيث تصدى للفكر العقدي الإسلامي، وأخضعه للتمحيص والمراجعة الشاملة في سبيل تنقية عقائد الإسلام ومبادئه من كل دخيل. وعاد فعرض هذه العقائد صافية بسيطة كما بينتها آيات القرآن الكريم، ووضحها السنة النبوية الصحيحة، في إطار ضوابط تفسير النصوص التي أقرها علماء الإسلام الثقات، بعيدا عن كل تأويل^(١) وقد وعى إبراهيمي هذا الجهد فأكد عليه بقوله: «فقد شتمها حربا شعواء على البدع والضلالات، أقوى ما كانت رسوخا وشموخا، وأكثر أتباعا وشيوخا، يظاهرها الولاة القاسطون، ويوازرها العلماء المتساهلون المتأولون»^(٢).

وعندما ظهرت حركة التجديد الإسلامي الحديثة في العالم الإسلامي، اهتمت اهتماما ملحوظا بتطهير العقيدة ومحاربة البدع والخرافات التي أصابت المجتمعات الإسلامية، ودعت إلى الرجوع إلى الإسلام في صفائه الأول، حينما

(١) - عبد الحميد، د. محسن. تجديد الفكر الإسلامي، دار الصخرة للنشر، القاهرة، مصر، د.ت، ص 42

(٢) - إبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 152

كانت العقيدة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين صافية نقية، واتباع السلف الصالح في فهمهم وتطبيقاتهم لها.

وكانت هذه الثورة على البدع والخرافات لتطهير الدين، مبدأ هاما من مبادئ حركة التجديد الإسلامي الحديثة، يقول محمد عبده: «إن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الدين بتنقيته من الخرافات والبدع التي طمست على عقول المسلمين وكانت سببا في تأخرهم، حتى أصبحوا سخرية الأمم الأجنبية»⁽¹⁾.

وقد كان المجتمع الجزائري غداة ظهور حركة التجديد الإسلامي يعج بالخرافات والبدع والأوهام التي عشت في عقول أبنائه ووجدانهم، وأقام لها الطرقيون نفوذا واسعا في نفوس العامة التي كانت تعود إليهم في دينها ودينها خاضعة مستسلمة: «وأل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان، وأصبح شيخ الطريقة أو المرباط ... يتصف بأوصاف الربوبية، فهو الذي يعطي وهو الذي يقبض وهو الذي يبسط وهو منبع كل خير ومصدر كل شر»⁽²⁾. ومما زاد من وطأة هذه الظاهرة على الجزائريين تشجيع الاستعمار لهذه الطرق، واحتواؤه لها، ومناصرته لمظاهر البدع التي تقيمها، حتى يكرس بها جهل الأمة وتخلقها.

إن الإبراهيمي قد أدرك خطورة هذه الظاهرة واستفحالها بين العامة، حين تبين له مبلغ إيمانهم بها، مما ترك أثارا سيئة في المجتمع الجزائري وفي ذلك يقول: «إن هذه البدع والمنكرات التي يريد الإصلاح أن يكون حربا عليها هي أمور قد طال عليها الأمد، وشاب عليها الولد وشب عليها الولد، وهي بعد شديدة

(1) - حمزة محمد اللطيف، مستقبل الصحافة في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر ط 1، 1969، ص 145.

(2) - المدني، أحمد توفيق، كتاب الجزائر، ص 376.

الإتصال بمصالح ألفها الرؤسا، حتى اعتبروها حقوقا لهم، وأنس بها العامة حتى اعتقدوها فروضا عليهم⁽¹⁾.

وكانت الطريقة في الجرائر هي القائمة على هذه الموجة من الاوهام والأضاليل، تغذيتها وتناقلها عنها، ونحصر على إبقائها وامتدادها فهي « علة العطل في الإقصاد ومنبع الشرور. وأن كل ما هو منفش في الأمة من ابتداع في الدين، وضلال في العقيدة، وجهل بكل شيء، وغفلة عن الحياة الحاد في الناشئة، فمنشؤه من الطرق⁽²⁾ ».

لذلك اعتقد إبراهيمي جازما أن القضاء، على البدع والخرافات والطرق لا يتم إلا عن طريق الثورة العامة التي تستأصل جذورها وتقلع أصولها من أرضية المجتمع: « فلا مطمع في زوالها إلا بصيحة مخيفة، تزلزل أركانها، ورجة عنيفة تصدع بنيانها وإعصار شديد يكشف الستر عن هذا الشيء الملفف، والسر الذي يابى أن يتكشف، ليتبينه الناس على حقيقته⁽³⁾ ».

وقد دخل إبراهيمي معركة حامية الوطنيين مع رموز الابتداع، وخاض ضدهم حربا ضروسا ليبدد جموعهم ويكشف باطلهم، وينقذ العامة من أسر البدع التي أفسدت فطرتهم، والضلالات التي شوهت دينهم، وقاء للعهد الذي أخذته على نفسه لتطهير الإسلام مما علق به من شوائب كدرت صفوه: « لذلك حملنا حملتنا المشهورة على البدع والضلالات حتى قوضنا أركانها،

(1) - إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 118

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 125

(3) - المصدر نفسه، ج 1، ص 118

فتلك بيوتها خاوية بما أقر أهلها من منكر، وما هجروا من معروف»⁽¹⁾.

وهو يرى أن حماية العقيدة مما يلحق بها من بدع وخرافات هي وظيفة من أهم وظائف علماء الإسلام الذين كانوا على مر العصور حرباً عليها: «وكانوا أيقاظاً لكل حدث يحدث في الإسلام، وكانوا كلما رأوا شيع بدعة خفوا إلى إزالتها، وكلما أحسوا بضلالة ومنكر في الدين بادروا إلى تغييره بالفعل والقول: يجسم لهم الاحتياط الصغائر فيعاملونها معاملة الكبار لا يتساهلون ولا يترخصون سداً للزرائع الفتنة والضلال»⁽²⁾، وعندما يغفل العلماء عن أداء هذه الوظيفة، ويتساهلون في حرب المنكر، ينشط أهل الابتداع ويتعرض جوهر الدين للتشويه والتحريف: «فإذا قصر أهل الحق في الدعوة إليه ضاع الدين، وإذا لم يحموا سنته غمرت البدع، وإذا لم يجلو محاسن علته الشوائب فغطتها، وإذا لم يتعاهدوا عقائده بالتصحيح داخلها الشك، ثم دخلها الشرك»⁽³⁾.

إن هذه الثروة على البدع والخرافات التي غزت العقيدة، دعوة تحريرية شاملة استهدفت القضاء على الجهل والتخلف الذهني الذي أفرزه انتشار هذه البدع، وعملت على محو العقلية الخرافية التواكلية التي قتلت الهمم، وأضعفت الإرادات، وكان لها دور كبير في تحرير الفكر الإسلامي من التقليد والجمود، وإطلاق أسره من قيود الاستسلام للخرافات والخوارق، وذلك من أجل العودة بالعقيدة إلى منابعها الأولى المتمثلة في القرآن والسنة.

2- الرجوع إلى القرآن والسنة في فهم العقيدة

دعا إبراهيمي في سبيل تجديد العقيدة إلى أخذها مباشرة من الكتاب

(1) - إبراهيمي، عبود البصائر، ص 164

(2) - المصدر نفسه، ص 342

(3) - إبراهيمي، آثار محمد البشير إبراهيمي، ج 4، ص 408

والسنة، لأنهما المصدران الأساسيان للذان بسطا العقائد الإسلامية وأوضحا معالمها وبينا أسسها، فقد تميز القرآن الكريم والسنة النبوية بالوضوح الشديد في طرح الأدلة المقنعة والشواهد المؤيدة التي ترضي العقل وتطمئن النفس وتقودها إلى الإيمان العميق الذي يوافق الفكر ويتجاوب مع الوجدان: «فتوحيد الله مقرر في القرآن بأجلى بيان وأكمل برهان، وصفاته لا يطمع طامع في أن يأتي في إثباتها بأكمل مما أتى به القرآن، وطريقة القرآن في التنزيه أقوم طريقة وقد جرى عليه الصحابة فكانوا أكمل الناس توحيدا مع أنهم لا يعرفون الجوهر والعرض»⁽¹⁾

وهذا هو المنهج الذي اعتمدته السلف في فهم العقيدة، بحيث لم يكونوا يتعمقون في مسائل العقائد، ولم ينجحوا إلى تأويلها تأويلا بعيدا، وكانوا يقفون في تفسير آيات الصفات عند ظاهرها دون تمثيل ولا تشبيه ولا تأويل، كما كانوا يكفون في تبين أصول العقائد الإسلامية وإثباتها بالأدلة القرآنية وفق المنهج النصي الذي يتبع العقل فيه النقل: «أقام سلفنا الصالح دين الله كما يجب أن يقام واستقاموا على طريقته أتم استقامة وكانوا يقفون عند نصوصه من الكتاب والسنة، لا يتعدونها ولا يتناولونها بالتأويل، وكانت أدواتهم لفهم القرآن، روح القرآن وبيان السنة ودلالة اللغة والاعتبارات الدينية العامة»⁽²⁾

ويقتضي الرجوع إلى القرآن والسنة في بيان العقيدة، تجاوز القواعد الجدلية الفكرية التي ترهق العقل وتنفر النفس، والتي اتخذها علماء الكلام والفلاسفة منهجا للوصول إلى إثبات وجود الله وتقرير صفاته، عن طريق

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 98

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 94

استخدام الأقيسة المنطقية والاستدلال العقلي المغرق في التجريد والغموض، والتي ورثتها أجيال المسلمين من بعدهم، فكانت الطريقة التي أخذت بها العقيدة جافة ومعقدة، تركز على مناقشات فلسفية ومناظرات كلامية، مما أبعدنا عن مجالها الحيوي الذي يبعث في النفس القوة والإرادة والمسؤولية، وفصلها عن الفواحي الوجدانية الداخلية، وأدى إلى فشلها في إيصال تيار العقيدة الحي المتوثب إلى الأرواح والعقول .

وإذا كان بعض الدارسين يرى أن علم الكلام قد أدى خدمات جليلة في زمنه للعقيدة الإسلامية عندما حفظها: « من الشرك والانحرافات الخطيرة وغلبة العقلية الخرافية وإنكار دور العقل في فهم النصوص والكشف عن منطقتها الداخلي»⁽¹⁾، وحماها من الغزو الفكري الذي مارسه ضدها الفلاسفة الدخيلة، وأن إنكار دوره الإيجابي في تاريخ الفكر الإسلامي خطأ واضح، فإن الإبراهيمي يرى أنه كان سببا في تفرق المسلمين بما أثاره من قضايا الإلهيات والعقائد، وبما تورط فيه المتكلمون من مسائل التأويل وتمجيد الأحكام العقلية على حساب النصوص النقلية: «وغلّت طوائف أخرى في تمجيد العقل فاستشرف إلى ما وراء الحدود المحددة، وتسامى إلى الحظائر الغيبية فتشعبت به السبل إلى الحق في معرفة الله وتوحيده، ونجمت لذلك ناجمة علم الكلام، وما استتبعه من جدل وتأويل وتعطيل، وتشابهت السبل على عامة المسلمين لكثرة هذه الطوائف، فكان هذا التفرق الشنيع في الدين أصوله وفروعه»⁽²⁾.

(1). عبد الحميد، د. محسن، تجديد الفكر الإسلامي، ص 36.

(2). الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 207.

وفي ضوء المراجعة التي قام بها الإبراهيمي للتراث الحضاري الإسلامي، خرج بنتيجة مفادها أن الفكر الإسلامي قد خسر بوجود علم الكلام أكثر مما ربح، لأنه شغل نخبة هامة من علماء الإسلام الأفذاذ، وصرف جهودهم إلى الجدل الفارغ، والمناظرات العقيمة التي لا تسفر في كل الأحوال عن منتصر أو منهزم، وتمنى لو أنهم استغلوا ذكاهم وعبقريتهم في ميادين علمية أخرى تزيد في الفكر الإسلامي تراثاً عظيماً «ويمينا لو أن تلك الجهود التي تفرقت على الكلام تألفت على جهة عقلية أخرى لفتحت في العلم فتحة أغر زاهرا ولتعجلت به الفخر للإسلام وأهله»⁽¹⁾، وهو بأسف لضیاع جهود العلماء المسلمين في مباحث علم الكلام فيقول: «واحسرتاه على ذلك الذكاء الذي كانت تكاد تشف له حجب الغيب، ذكاء أبي بكر الباقلاني، وفخر الدين الرازي وأبي الهذيل وابن المعلم، وقد ضاع فيما لا تعود على الإسلام منه عائدة، ولا تنجر منه فائدة»⁽²⁾.

وانطلاقاً من اقتناعه الرافض لهذا العلم الذي انقرض وأصبح بمناهجه ومصطلحاته ونتاجه مواد متحفية لا قيمة لها ولا تأثير في فكرنا المعاصر، فقد انتقد بشدة تدريسه في الكليات الإسلامية، وعاب على المسؤولين عن التعليم تضییع أوقات الطلبة في اجترار هذا التراث الذي لم يعد هناك مبرر لإحيائه وشغل الأذهان به، وتجديد الخلافات التي مزقت وحدة المسلمين: «ومن المحزن أن دراسة علم التوحيد حتى في كلياتنا (الراقية) كالأزهر والزيتونة لا تزال جارية على تلك الطرائق وفي تلك الكتب، ولا تزال تقرر فيها تلك الآراء، ولا تزال تذكر فيها أسماء تلك الفرق التي لم يبق لها وجود ويستعرض سيدنا المدرس تلك الآراء

(1). الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 99

(2). المصدر نفسه، ج 1، ص 98

ثم يدحضها ثم يقيمها ثم ينقضها، وتقطع أوقات الطلبة المساكين في ذلك، ويا ضيعة الأعمار»⁽¹⁾.

ولم يكن الإبراهيمي هو أول من أدرك خطورة إحياء علم الكلام وأثاره السلبية في تجديد الخلافات التاريخية بين المسلمين اليوم، فقد سبقه إلى ذلك ابن خلدون حينما أكد أن علم الكلام قد استنفذ أغراضه ولم تعد للأمة حاجة إليه، وقرر أن: «الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودنوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا، وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقه»⁽²⁾، وتتضح خطورة إحياء علم الكلام - في العصر الحديث - في المساعي الحثيثة التي تبذلها الدوائر الاستشراقية لنشر أفكار الفرق الكلامية والمنحرفة منها بالذات، والترويج لها بين المسلمين، وتمجيد زعمائهم وعدهم أئمة الفكر الحر، حتى تشغل المسلمين بأخطاء ماضيهم عن حاضرهم ومستقبلهم، وتمكن التمزق الفكري والمذهبي في المجتمع الإسلامي⁽³⁾.

والإبراهيمي يرى أن الأولى بالكلية الإسلامية أن تطوي صفحات تاريخ علم الكلام ومعاركه، وتلتفت إلى عصرها الحديث فتسايره بمواجهة الفلسفات المادية الحديثة التي غزت ديار المسلمين، وشككت في عقائدهم، وبلبلت أفكارهم، وأن تعود إلى الأصول الأولى للإسلام التي هي الكتاب والسنة، فتبني عليهما معتقداتها وأفكارها، وتنطلق منهما لتحدد موقعها من هذا العالم الذي تتصارع فيه الأفكار والنظريات، لتثبت جدارة العقيدة الإسلامية بالبقاء، وقوة فعاليتها في

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 97

(2) - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، ص 467

(3) - عبد الحميد، د. محسن، تجديد الفكر الإسلامي، ص 63

ممارسة وجودها: « أما الشبهات التي يوردها في كل يوم ملاحدة العصر ومبشرو المسيحية على الإسلام، ويفتنون بها العلماء فضلا عن العوام، فإن كلياتنا (العلمية الدينية) ومدرسيها لا يعيرونها أدنى اهتمام ولا يعمرّون بها وقت الطلبة. فيا للفضيحة»⁽¹⁾.

لقد كان يدرك أبعاد التحديات الحضارية التي تهدد الكيان الإسلامي، فحرص على توجيه جهود المسلمين نحو الوجهة السليمة التي تخدم العقيدة الإسلامية، وتحفظ على المسلمين تماسكهم الفكري والاجتماعي، وتضعهم في موقع القوي أمام الصراع الحضاري المفروض عليهم.

من هنا يتضح لنا أن منهج الإبراهيمي في تجديد العقيدة يقوم أيضا على التصدي للشبه العقدية الحديثة التي وردت على العالم الإسلامي بتأثير الهجمة الحضارية الغربية على المسلمين في العصر الحديث، والتي تتمثل أساسا في الدعوات التبشيرية والموجات الإلحادية التي غزت الجزائر في ركاب الاستعمار الفرنسي، مستهدفة تشكيك المسلم الجزائري في عقيدته، وإخراجه من الإسلام، إما إلى النصرانية أو الإلحاد.

وقد أعلن الإبراهيمي عن موقفه الثائر على هذه المحاولات العدائية ضد العقيدة الإسلامية، وأهاب بالعلماء أن يهبوا لصد هذه الهجمات، وأن يقوموا بدورهم لحراسة العقيدة من المعاني المغيرة: «إذا كان المرابطون في الثغور يقفون أنفسهم لصد الجنود العدو المغيرة على الأوطان الإسلامية، فإن وظيفة العلماء أن يقفوا أنفسهم لصد المعاني المغيرة على الإسلام وعقائده وأحكامه، وهي أفكك من الجنود، لأنها خفية المسارب، غرارة الظواهر، سهلة المداخل إلى النفوس،

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 98

تأتي في صورة الضيف فلا تلبث أن تطرد رب الدار»⁽¹⁾.

كما كان يرى أن مواجهة الغزو العقدي لا تتم إلا بتجديد العقيدة الإسلامية في النفوس، فبتقوية المعاني الدينية عند المسلمين، وإشاعة روح الرحمة والتواصل بينهم، يتم القضاء على مجهودات المبشرين وإقشال خططهم التنصيرية، وعن طريق إشاعة الهدى الحمدي في النفوس والعقول، وشرح حقائق الإسلام للشباب الذي جرفه تيار الإلحاد، وتبيان عظمته له، تهزم هذه الموجة الإلحادية وتنحصر في أماكن ضيقة، لا تهدد عقيدة الأمة.⁽²⁾

ونبين مما سبق، أن منهج الإبراهيمي في تجديد العقيدة يقوم على الدفاع عن نقاوتها وبساطتها من خلال العودة المباشرة إلى الكتاب والسنة والتمسك بهما، وترك التعصب للرأي والمذهب، مما يوجب التخلي عن كل فعل أو قول يخالف صريح القرآن والسنة، ويصطدم معهما كائناً من كان صاحبه، والالتزام مذهب السلف في فهم الصفات الإلهية وعدم إثارة الجدل حولها، واعتبار الفرق الكلامية عامل تفريق للأمة، والالتزام في العبادات بأفعال الرسول وأقواله، بعيداً عن كل البدع ومظاهر الانحرافات التي شابتها، والدفاع عن العقيدة ضد هجمات المبشرين والملحدين.

ب - الإبراهيمي وتجديد الفقه الإسلامي :

إن تجديد الفقه الإسلامي عند الإبراهيمي يتمحور حول خطين رئيسيين: يتعلق الأول بالثورة على مظاهر التقليد والجمود والتعصب المذهبي، ويتعلق الثاني بتحريك عجلة الاجتهاد.

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشر الإبراهيمي، ج 4، ص 158

(2) - المصدر نفسه، ج 4، ص 237، 238

١- الثورة على التقليد والجمود والتعصب المذهبي:

عرف العالم الإسلامي منذ منتصف القرن الرابع الهجري انحسارا في الحركة الفكرية، وتراجعا في البحث والاستنباط، بعد أن شاع في الأوساط العلمية آنذاك مقولة انسداد باب الاجتهاد المطلق بموت الأئمة الأربعة الكبار، وانسداد باب الاجتهاد في المذهب بعد ذلك بموت الإمام النسفي^(١)، ومذهب القائلين بخلق باب الاجتهاد: «أن الأرض قد خلت من قائم لله بحجة، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم، ولم يحل لأحد بعد أن ينظر في كتاب الله ولا سنة رسوله لأخذ الأحكام منهما، ولا يقضي ولا يفتي بما فيهما حتى يعرضه على قول مقلده ومتبوعه، فإن وافقه حكم به وأفتى به، وإلا رده ولم يقبله»^(٢).

فانكب العلماء على ما خلفه الأئمة المجتهدون، وعكف كل واحد منهم على مذهب يستخرج من فروعه فروعا، ويلتزم بأحكامه التزاما صارما على الرغم من تطور الحياة وتجدد الظروف: «ومن هنا بدأ إهمال الناس للكتاب الكريم وعلومه، وإعراضهم عن السنة وفنونها، وقنعوا من العلم بنقل الأقوال والمذاهب وتقعيدها وتأصيلها والجدال عنها، والتفريع عليها، والتخريج منها في أحسن الأحوال»^(٣). وكان من نتائج ذلك أن ركبت الحركة العلمية، وتوقفت العقول عن الإبداع، وأرغمت على تقليد من سبقها شبرا بشبر وذراعا بذراع، وسار الفقه في نفق التقليد الذي قاده شيئا فشيئا إلى الجمود، بعد أن كان على أيام الصحابة

(١) - بن عبد الشكور، محب الله، فوائذ الرحمة لعبد العلي الأنصاري بشرح مسلم الشيرازي، ج ٢، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، د.ت. ص 399.

(٢) - الجزية، ابن قيم، إعلام الموقعين، راجعه وقدم له وعلق عليه: طه عبد الرؤوف، ج ٢، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ت. ص 276.

(٣) - العلواني، د. طه جابر فياض، أدب الاختلاف في الإسلام، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، الفوحة، قطر، ط ١، جمادى الأولى 1405، ص 147.

والتابعين مزدهرا ثمثرا حيويا متطورا لأنهم: «كانوا يعرفون أن الشريعة جاءت أساسا لتحقيق مصالح العباد ودفع عجلة التغيير إلى التقدم، لأن المبادئ الإسلامية لا تقر الجمود والسبات، وإنما تدعو إلى الحركة المستمرة»⁽¹⁾.

ونشأت بعد ذلك أجيال كثيرة في قرون متعاقبة على هذا الجمود، مما فتح الباب واسعا للخرافات والبدع التي طبعها المجتمعات الإسلامية، كنتيجة طبيعية لخمود الحركة العقلية وتوقف النشاط الفكري.

وقد وقف المصلحون عبر التاريخ الإسلامي كابن تيمية وابن قيم الجوزية والغزالي في وجه هذا الانحراف الخطير الذي أصاب الفكر الإسلامي، ولكنه لم يلبث أن غلب مرة أخرى، إلى أن جاء العصر الحديث وظهر محمد بن عبد الوهاب الذي دعا إلى فتح باب الاجتهاد واستنباط الأحكام الفقهية التي تعالج قضايا المجتمع الراهنة مباشرة من القرآن والسنة وإجماع المسلمين إلى آخر المئة الثالثة من الهجرة، كما دعا إلى عدم التقيد بأي مذهب من المذاهب، وقرر أن كل عالم مسلم له الحق في أن يأخذ من أي مذهب ويدع تبعه لتلازم هذه الأحكام مع القرآن والسنة أو ابتعادها عنها.⁽²⁾

ويتفق جميع المجددين الذين جاؤوا من بعده على الثورة على الجمود والتقليد والعصبية المذهبية، والدعوة الملحة لفتح باب الاجتهاد، ومن أشهرهم: الشوكاني وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومحمد إقبال ورشيد رضا وغيرهم. وكذلك كانت حركة التجديد الإسلامي في الجزائر: ثورة عارمة على الجمود والتقليد والتعصب المذهبي، وكان إبراهيمي أحد قادتها فقد أهله مواهبه وعلمه

(1) - عبد الحميد، د. محسن، مجيد الفكر الإسلامي، ص 47.

(2) - العثيمين، د. عبد الله صالح، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، دار العلوم، الرياض، المملكة العربية السعودية.

د. ت. ص 145

الغزير بالقرآن والسنة وأصول الفقه وأسرار العربية لأن يتحدث عن قضايا الاجتهاد والتقليد وطرق الاستدلال حديث العالم الخبير.

وكانت الحالة العلمية في الجزائر تعاني الركود والضمود حالها كحال غيرها من البلدان الإسلامية. يغلب عليها طابع الجمود والتقليد، فالعقول متحجرة، والمواهب معطلة، تجتر القديم وترفض أي بادرة للتجديد، لإيمانها الراسخ أن الاجتهاد محظور، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن: « أتى التقليد ببيان الاستدلال من القواعد، فجف العلم وعقمت العقول »⁽¹⁾.

فلما دعت حركة التجديد إلى إطلاق العقل من قيود التقليد وفتح باب الاجتهاد لبث الروح الحية في الشريعة الإسلامية، ثار عليها من أسماهم الإبراهيمي بـ (أسراء المالكوف وأحلاف الجمود)⁽²⁾، ووقفوا في طريقها يؤلبون عليها طلبة العلم والعامه: « وانخذلوا منها غميرة بزنون بها رجال الجمعية وذرية لصرف الأغرار من الطلبة عنها وتحريك العامة عليها، بما يهولون عليهم من أمر الاجتهاد ويعظمون من حرمانه »⁽³⁾.

وقد هاجم الإبراهيمي هذه الطائفة هجوما عنيفا، وعاب عليهم حصرهم للاجتهاد وتقليدهم الأعمى حتى في أدق دقائق العبادات العملية التي لا تؤخذ إلا من نص صريح، وفي ذلك يقول: « ثم مالهم - سامحهم الله - بجمعون بين المتناقضات فيحجرون الاجتهاد على الأحياء والأموات إلا على طائفة معينة كانت في زمن معين وقد مضت ومضى زمانها وجف القلم بأقوالها، ويبنون على هذا أنه

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 36.

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 71.

(3) - المصدر نفسه، ج 1، ص 71.

لم يبق من سبيل في علم الدين إلا التقليد»⁽¹⁾.

ورسم لهؤلاء العلماء الجامدين صورة هزلية تدل على عقم العلم الذي يتداولونه منذ أجيال، وعدم قدرتهم على نفع أنفسهم ونفع أمتهم به مهما جمعوا منه: «ولا تجد فيمن تقع عليه العين من هؤلاء العلماء الذين يقرأون ويحفظون وينقلون، ولكنهم لا يفقهون. هذا العديد المتشابه الذي كانه نسخ من طبعة واحدة من كتاب، لا يقع التحريف في واحدة منها إلا وقع في جميعها، ولا يزيد واحد منهم في العدد إلا كما يزيد كتاب في مكتبة لا كما يزيد فارس في كتيبة»⁽²⁾.

ثم يعقد مقارنة بين العلماء المبدعين في أوروبا وبين من يحملون أسماء العلماء عندنا، فيجد أن العلماء الأوروبيين لا يناهون هذا اللقب إلا إذا بحثوا ونقبوا وخرجوا على قومهم بشيء جديد يقدم العلم خطوة، أما عندنا فهم سجناء اللفظية والتقليد، وأنصار الخمول والجمود: «إن العالم في أوروبا لا يعد عالماً إلا إذا زاد في العلم شيئاً، أو كشف من خفيه شيئاً، أو جلا من غامضه شيئاً..... ولا عجب، فالعلم عندهم ياقوتة في منجم وعندنا.... لفظة في معجم، والأولى تستخرج بالبحث والإلحاح، والثانية تستخرج بمعرفة الاصطلاح، والأولى حظ المجتهد العامل والثانية حظ المقلد الخامل»⁽³⁾.

وكان من أبرز آثار هذا التقليد والجمود ركود الحركة الفكرية، وانتشار الجهل بأسرار الشريعة وحقائق الدين، وغياب الفهم المقاصدي للإسلام، ويشير إبراهيمي إلى هذه الحالة المتساوية بقوله: «جهل المسلمون حقائق دينهم، وجهلوا الحكم المنطوية تحت أحكامه، ومن أسباب ذلك جفاف الفقه عند الفقهاء لأخذهم

(1). إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 74، 75.

(2). إبراهيمي، عبير البصائر، ص 147.

(3). المصدر نفسه، ص 147.

إياه من كتب تعلم الأحكام ولا تبين الحكم، فأنثر ذلك في نفوس المتفكّهة وهم مرجع العامة في سياسة الإفتاء - أثار سيئة، منها اعتبار تلك الأحكام تعبدية تحفظ ألفاظها، ولا يتحرك الفكر في التماس عللها، وطلب حكمها، وتعرف مقاصد الإسلام منها، وتصفح وجوه المصلحة والمفسدة فيها»⁽¹⁾.

وقد ألقى هذا الجمود في الفقه بظلاله القاتمة على الحالة الاجتماعية، وتمخضت عنه أثار سيئة للغاية بسبب جهل العامة المطبق بالحكم المرتبطة بالأحكام الشرعية، وعجز الفقهاء عن إدراكها وتعليمها للناس لجمودهم على كتب القدماء، ويضرب الإبراهيمي مثالا حيا على ذلك حين يتحدث عن ظاهرة الطلاق في المجتمع الجزائري.

فقد أصبح الطلاق لعبة في أيدي الجهال المتحللين من الأخلاق، يتقاذفون لفظه في المقاهي والأزقة والأسواق، وفي حالة الخلاف حول الأمور التفاهة والنزاعات السياسية، فينجس عن ذلك خراب البيوت وتشريد الأطفال وكوارث عائلية جمة، يقول الإبراهيمي: « هذا الجمود في الفقه والفقهاء، وذلك الخلاف الواصل بين طرفي الإباحة والحظر في المسألة الواحدة - هما اللذان سهلا على المسلمين تعدي حدود الله في الطلاق، وما جاء هذا التخلخل إلا من سوء فهم من الرجل، إنبنى عليه سوء تصرف منه في الحق الذي خوله الشارح، وهو أنه يملك العصمة، وما جاء سوء الفهم إلا من سوء التفهيم من الفقيه، فالفقيه لا يعرف إلا أن العصمة بيد الزوج، لأنه لا يجد في كتب الفقه إلا هذا »⁽²⁾.

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 329.

(2) - المصدر نفسه، ص 330.

فلو كان هؤلاء الفقهاء على قدر من الاستقلال في الفهم، وعلى بينة من مقاصد الشريعة التي تقوم عليها الأحكام لعرفوا الناس أن الطلاق حق في أصل الشريعة: «ولكن الإسلام لا يعطي هذه الحقوق أو هذه الامتيازات إلا للمسلم الصحيح الإسلام القوي الإيمان . أما إعطاء هذه الامتيازات إلى الجاهلين المتحللين من قيود الإسلام فهو لا يقل شناعة وسوء أثر عن إعطاء السلاح للمجانين»⁽¹⁾.

وقد غلب هذا الجمود على جميع مظاهر الحياة العلمية، حتى لجأ مفسرو القرآن المقلدين إلى تفسير القرآن الكريم حسب المذاهب التي يتبعونها في محاولة منهم لإخضاع آياته وأحكامه لقواعد مذاهبهم حتى تتفق معه، وفي ذلك تعطيل للقرآن، وتحريف لمقاصده، وتأويل مقصود يضع القرآن في المرتبة الثانية بعد كلام المخلوق، يقول الإبراهيمي: «ومقلدة المذاهب يفسرون القرآن بقواعد مذاهبهم، ويحكمونها فيه، فإذا خالف نصه قاعدة من قواعدهم ردوه بالتأويل إليها، وهذا شر ما أصيب به هذا العلم، بل هو نوع من التعطيل، وبابا من التحريف والتبديل، لأنه في حقيقة أمره وضع لكلام الله في الدرجة الثانية من كلام المخلوق، وفي منزلة الفرع من أصله يرد إليه إذا خالفه»⁽²⁾.

ولعل أسوأ أثر تركه التقليد والجمود في الحياة الإسلامية بروز ظاهرة التعصب المذهبي بشكل واضح وقوي، وقد هاجم الإبراهيمي هذه الظاهرة وعدها أحد الأسباب الرئيسية لتفريق المسلمين: «وكم كنت أمتعض حين أرى الحنفي لا يصلي خلف الشافعي، والشافعي لا يصلي خلف المالكي، بل كنت أمتعض لتعدد

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 330.

(2) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 344.

الأئمة من أصله، ولتعدد الحلق الطرقية التي لا تجمع الناس لدراسة علم، وإنما تجمعهم لتحكيم وهم»⁽¹⁾.

وهذا لا يعني أن الإبراهيمي يرفض وجود المذاهب الفقهية، بل كان يعد ظهورها مرحلة طبيعية من مراحل تطور الفكر الإسلامي بسبب الفتوحات التي اتسعت، والظروف التي جددت على المسلمين، والتي كانت تتطلب مرونة في الشريعة حتى تتمكن من تسيير دواليب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إطار الكليات العامة للإسلام.

وقد شهد للعلماء أئمة المذاهب الذين اجتهدوا في الشريعة بالتقوى وسعة العلم، والذهن الجبار، والذكاء الوقاد، وكانوا في نظره الصفوة الممتازة التي حفظت الإسلام وأثبتت صلاحيته لكل زمان ومكان⁽²⁾. غير أن موقفه من المذاهب الفقهية يتخذ مسارا آخر عندما يتعلق الأمر بالخلف الذين جاؤوا بعد هؤلاء العلماء، وظنوا خطأ أن العلم والاجتهاد قد وقف عندهم، فعكفوا على تقليدهم تقليدا حرفيا، وإكبارهم إكبارا فيه غلو ومبالغة، حتى أفضى بهم ذلك إلى الجمود الذي أدى بدوره إلى تعصب مذهبي مقيت تفرق إثره المسلمون كل يناصر صاحب المذهب الذي يرى فيه الحق وغيره الباطل: «وإنما هو تقليد أعمى ونقل أبكم وحكاية صماء، وجفاف جاف، وجمود جامد، وخلاف لا يثبت به حق، ولا ينفي به باطل، ولا تتمكن به عقيدة»⁽³⁾.

وقد بلغ التعصب ببعضهم في بعض مراحل التاريخ الإسلامي تحريم صلاة الشافعي وراء إمام حنفي، وتحريم الزواج من بعضهم بعضا، وكانت تقام في

(1) . الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 314.

(2) . المصدر نفسه، ج 1، ص 96.

(3) . المصدر نفسه، ج 1، ص 154.

الأزهر - على سبيل المثال - أربعة محاريب للصلاة الواحدة بعدد المذاهب⁽¹⁾، وغيرها من أشكال الجدل والصراع الذي مزق صفوف الأمة، وعطل أحكام الكتاب، بسبب غلبة التقليد الحرفي على العقل، يقول الإبراهيمي: «وقد طغت شُرور العصبية للمذاهب في جميع الأقطار الإسلامية، وكان لها أسوأ الأثر في تفريق كلمة المسلمين، وإن في وجه التاريخ الإسلامي منها لندوبا»⁽²⁾.

لذلك كان يتمنى لو أن صلاح الدين الأيوبي عندما خلّص الأزهر من المذهب الشيعي كان رده إلى أصل الأصول من الكتاب والسنة، ولم يفتح فيه الباب للمذاهب الأربعة لتضطرع وتمكن للخلاف بين المسلمين⁽³⁾. وعلى الرغم من أن الإبراهيمي كان مالكي المذهب، إلا أن ذلك لم يكن ليمنعه من الدعوة الملحة إلى نبذ العصبية المذهبية، وتجاوز هذه الاختلافات، والانفتاح المباشر على الكتاب والسنة لإحياء الفقه الإسلامي وفتح باب الاجتهاد، مما يدل على عمق النزعة العقلية عنده، والتي مكنته من تجاوز جميع الحواجز التي اختلقها الجامدون والمقلدون، ليجعلوا من المذاهب الفقهية مانعا يحول دون المسلمين ودون التفاعل الإيجابي مع مصادر الشريعة.

الدعوة إلى الاجتهاد:

وبقدر ما ثار الإبراهيمي على التقليد والجمود، دعا - وبإلحاح شديد - إلى ضرورة الاجتهاد وتجديد الدين، وتعرف الأحكام من مصدريهما الأساسيين وهما الكتاب والسنة، دون التقيد بمذهب معين، وأمن أن الاجتهاد ضرورة يقتضيها العصر، لذلك كان أحد ركائز حركة التغيير عنده.

(1) - شفيق، منير، الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، ص 72

(2) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 96

(3) - المصدر نفسه، ج 4، ص 155

ومن مظاهر دعوته إلى الاجتهاد، ثورته على الفقه الذي كان سائدا في عصره، والذي كان في نظره فقها جافا، لا يبحث عن علل الأحكام، ولا يلتمس مقاصد الشريعة فيها، ولا يميز بين وجوه المصلحة والمفسدة لغلبة التقليد عليه، ولا يحاول أن يفهم الجزئيات في إطار الكليات، حتى غدا مجرد أفاظ يتناقلها الفقهاء الجامدون، ويلقونها إلى العامة في شكل فتاوى مجردة من روح الشريعة السمحة، ومن روح العصر.

أما الفقه الحقيقي الذي يثمر في النفوس ويقربها من دينها، فهو الذي يقول عنه: « إن في الفقه فقها لا تصل إليه المدارك القاصرة، وهو لباب الدين وروح القرآن وعصارة سنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو تفسير أعماله وأقواله وأحواله ومآخذه ومعاركه، وهو الذي ورثه عنه أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين، وهو الذي يسعد المسلمون بفهمه وتطبيقه والعمل به، وهو الذي يجلب لهم عز الدنيا والآخرة وهو الذي نريد أن نحياه في هذه الأمة فتحيا به، ونصحح به عقائدها ونقوم به فهمها، فتصح عباداتها وأعمالها»⁽¹⁾.

والمجتهد - في نظر الإبراهيمي - هو الذي يتجاوز المذاهب الفقهية الجامدة ليستخرج أحكام الدين من القرآن والسنة مباشرة، ومن عمل السلف وكتب العلماء المستقلين المستقلين، الذين يربطون المسائل بأدلتها وبحكمة الشارع منها، ليصل إلى الفقه الأكمل الذي يترك آثاره الإيجابية في النفوس، ويربي الناس على الاستقامة في الدين عن وعي وبصيرة «ولو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن والسنة القولية والفعلية، ومن عمل السلف أو من كتب العلماء المستقلين المستقلين التي تقرن المسائل بأدلتها، وتبين حكمة الشارع منها - لكان فقههم أكمل، وآثاره

(1). الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 203.

الحسنة في نفوسهم أظهر، وكانت سلطتهم على المستفتين من العامة أمتن وأنفذ، ويدهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى»⁽¹⁾. وهذا الفقه الأكمل الذي سيتجاوز مظاهر التقليد والجمود ويتجه مباشرة إلى المنابع الأصلية للتشريع، هو الذي يسعد به المسلمون وينالون به عزهم في الدنيا والآخرة. ويحقق لهم الرفعة والمجد في مختلف الميادين لذلك أراد الإبراهيمي أن يحييه في الأمة الجزائرية لتحيا به وتصحح به عقائدها، وتغير به مفاهيمها البالية، لتصح عباداتها وأعمالها، لأن العبادات والمعاملات الصحيحة هي أثر العقائد والإرادات الصحيحة أيضا.

وفي هذا الإطار أيضا، ألح الإبراهيمي على الفهم المقاصدي للشرعية ومراعاة المصالح والمفاسد التي جعلها الله أساسا لشريعته، وسبيلا للكشف عن حقيقة أحكامه، فأينما وجدت المصلحة فثم شرع الله. وقد أفرد لها الفقهاء مجالا واسعا بين مصادر الشريعة عندما أعوزهم الدليل الشرعي من الكتاب والسنة وإجماع العلماء، مما كفل لهذه الشريعة مرونة وحيوية تجعلها صالحة لكل زمان ومكان بمراعاتها لمصالح العباد الطارئة، يقول ابن القيم: «الشريعة مبناهما وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد. وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل»⁽²⁾.

وقد أكد الإبراهيمي صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان،

(1). الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 329.

(2). المجوزة، ابن قيم، إعلام الموقعين، ج 3، ص 3.

واتساعها لتشمل مستحدثات الأمور ومستجدات الظروف بناء على اتباع المصلحة التي هي مصدر هام من مصادر التشريع، ومظهر بارز من مظاهر الاجتهاد⁽¹⁾. ثم يضرب مثالا للاجتهاد المقاصدي باجتهادات عمر بن الخطاب الذي كان يراعي فيها مصلحة الأمة بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وكثرة أموال الغنائم، فقد حاول أن يحمل الأمة على الاقتصاد في كل شيء، وأن يكبح جماح الاندفاع في التطور الذي تمخض عن المال المفاجيء الذي فاض على المجتمع: «ومن نظر في وصاياہ لعنبة بن غزوان في تخطيط البصرة - شهد ببعد نظره في بناء الأمة على أساس متين، ومن تأمل نهيه عن المغالاة في الصداق، وعزمه على إلزام المطلق ثلاثا في اللفظ - علم حرصه على أخلاق الأمة أن يدركها التحلل والانهيار. وإنه لا يعزم تلك العزائم إلا حين يرى الناس تتابعوا⁽²⁾ في أمر كانت لهم فيه أناة.... والله در عمر»⁽³⁾.

كما نوه بالجهود العظيمة التي بذلها الأئمة المجتهدون من أصحاب المذاهب الفقهية لتحقيق الغاية من الشريعة، بتطويعها لخدمة مصالح العباد في إطار الأصول الثابتة للإسلام، فقد: «بذلوا الجهد في الإبلاغ، وحكموا الدليل ما وجدوا إلى ذلك السبيل، وأتوا بالفرائض في باب الاستنباط والتعليل، والتفريع والتأصيل، ولهم في باب استخراج علل الأحكام، وبناء الفروع على الأصول، وجمع الأشباه بالأشباه، والاحتياط ومراعاة المصالح ما فاقوا به المشرعين من جميع الأمم»⁽⁴⁾. وفعلا، فقد كان ظهور المذاهب الفقهية الكبرى دليلا على مرونة الشريعة

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 96

(2) - التتابع بالنابا، الثناء: معناه السقوط وعدم التماسك.

(3) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 361، 362.

(4) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 96

الإسلامية، لأنها استطاعت أن تقدم « ثروة تشريعية ضخمة، استوعبت حياة أمة شتى في أزمنة شتى. مما يقوم دليلاً قاطعاً على حركة الفكر الإسلامي المدع الذي استطاع أن يواكب الأحداث بفهم دقيق وعميق لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإدراك ذكي لحقائق التغيرات الاجتماعية ومحاولة المطابقة الكاملة بين العقيدة والشريعة المنبثقة منها وبين الواقع الاجتماعي»⁽¹⁾ وفي تركيزه على مرونة الشريعة الإسلامية بلح الأبراهيمي على الفهم المقاصدي للحكم الشرعي، ويؤكد ضرورة معرفة الحكمة من وراء الأحكام، حتى يدرك الناس سماحة الشريعة، ورحمة الله بهم، ويتبينوا مقدار مراعاتها لمصالحهم.

ولعلنا نلمح احتفاله بهذا الفهم المقاصدي بوضوح في حديثه عن المهور في الإسلام، فيبعد أن استعرض حالة الناس في زمانه، ومغالاتهم المفرطة في الصداق، ذكر حكم الإسلام فيه ثم قال: «إن مقاصد الإسلام في هذه السنة أعلى من كل ما يعمل به الناس، فهو يرمي بما شرع إلى بناء البيوت على المحبة والتعاون على تربية النسل وتعليمه وتقوية الأمة به»⁽²⁾، فأدرك المقاصد يجلي جوانب مشرقة من الشريعة كانت خافية على الناس، وإبرازها يسهم في تربية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم.

وهو ينعى على الفقهاء الجامدين تفسيراتهم السطحية لأحكام الدين، والتي تنفر النفوس لجفافها، فيقول في مسألة الصداق: «الصداق نحلة شرعية مشروطة في عقدة النكاح يجعلها الزوج للزوجة أو يعمر بها ذمتها إلى أجل، ولا نقول ما

(1) - عبد الحميد، د. محسن، تجديد الفكر الإسلامي، ص 18.

(2) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 691.

يقوله الفقهاء المسارعون إلى التعليقات السطحية التي لا تتفق مع الحكمة: إن الصداق عوض عن البضع أو ثمن له، فإن هذا التعليق يدخل بهذه العلاقة الشريفة في باب البيع والشراء والمعاوضات المادية، وحاشا لهذه الصلة الجليلة التي هي سبب بقاء النوع الإنساني أن تكون كصلة الثوب بمشتريه أو صلة المتاع بمقتنيه»⁽¹⁾.

ثم يوضح الحكمة من تقديم الصداق، والمعنى الذي يرمز له: «إن معناها أعلى وأجل، إنها إكرام من الرجل القوام للمرأة الضعيفة، ووصلة بين قلبيهما، وتوثيق لعرى المحبة بينهما، وتأسيس يسبق العشرة المستأنفة، ويريد يحمل البشرى بالقرب، فإذا أدخلناها في باب الأثمان والقيم لم يبق إلا أن نسمي الزوجة بائعة، والزوج مشتريا، والخاطب سمسارا»⁽²⁾.

وفي بحثه عن الحكمة من وراء الصداق يورد الإبراهيمي الشواهد العملية من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وعمل أصحابه، ويقارن بين إحدى نساء النبي التي كان صداقها خمسمائة درهم، وزوجة عبد الرحمن بن عوف التي كان صداقها نواة من ذهب، وبين المرأة التي وهبت نفسها للنبي وزوجها بخاتم من حديد وسور من القرآن، ثم يخرج من هذه الشواهد بالحكمة من الصداق فيقول: «ورأينا فيه، وفهمنا لحكمته أنه رمز نبوي بعيد المغزى، عالي الإشارة، إلى أن ما يفتن به الناس بمقتضى طبيعتهم من اعتبار المال في الزواج ليس مقصدا شرعيا، وإن أحقر شيء مما يسمى ما لا كاف فيه، أما القصد الحكيم فهو من وراء ذلك: هو في الإحصان، وقمع الفرائز الحيوانية، وسكون القلب إلى القلب، وتحقيق

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 360.

(2) - المصدر نفسه، ص 360.

حكمة الله في التناسل، والتسلسل في النوع، إلى غير ذلك من الحكم التي ليس منها المال، وإنما المال هنا جاذب مادي موصل يسدّ رغبة سطحية»⁽¹⁾

هذا نموذج موضح للفقه الحي الذي كان الإبراهيمي يريد أن ينشره بين المسلمين، فيحسون بارتباطه العميق بحياتهم اليومية، ويلمسون أثره في نفوسهم وأخلاقهم، ويتفاعلون معه في إيجابية وانسجام، لا أن يأخذوه أحكاماً لفظية جافة جاهزة للتنفيذ، دون فهم أو إدراك. وهذه الثقافة الفقهية العميقة هي التي جعلت العلماء والمفكرين يشيدون بفكر الإبراهيمي، إذ نجد الشيخ محمد الغزالي يتحدث عن ذكرياته معه، ويشير إلى أن أهم ما لفت نظره فيه هو ثقافته الفقهية المحيطة، ونظراته المقاصدية الصائبة لأحكام الشريعة وقد لمس من خلال المناقشات التي دارت بينهما بعد نظره وحسن تنزيله لأحكام الإسلام على الواقع المعاش وقال:

«لقد كان فقيهاً ذكياً الفكرة بعيد النظر»⁽²⁾.

ومن مظاهر الاجتهاد عند الإبراهيمي، الاستقلال الفكري الذي ينشأ عن عدم الخضوع لأفكار الغير أو التأثر بنظراته الخاصة إلى الأشياء، وهو أساس المنهج العلمي. والمتصفح لكتابات الإبراهيمي، يلمح اهتمامه الشديد بخاصية الاستقلال الفكري في العلم، ويتبين تشجيعه الدائم لطلبة العلم على الاستقلال في العلم، حتى تتخلص عقولهم من جراثيم التقليد المميته، ولذلك فهو يقرر أن العلم:

«ما فهم وهضم لا ما روي وطوي»⁽³⁾.

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 362.

(2) - الغزالي، محمد، «مع البشير الإبراهيمي في القاهرة»، الثقافة، ع 87، ص 95.

(3) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 623.

وتبدو أهمية الاستقلال الفكري عنده في كونه الوسيلة المظلى للوصول إلى
الفقه الأكمل، الذي يقوم على أساس الرجوع إلى القرآن والسنة، وآثار العلماء
المستقلين في فهم هذين المصدرين: «ولو أن فقهاً أخذوا الفقه من القرآن، ومن
السنة القولية والفعلية، ومن عمل السلف، أو من كتب العلماء المستقلين المستقلين
التي تقرر المسائل بأدلتها، وتبين حكمة الشارع منها لكان فقههم أكمل»⁽¹⁾.

وهو يتوه بالحقل المسلم المستقل الذي استطاع أن يميز بين طيب الثقافات
وخبيثها التي تواردت عليه بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وأن يهضمها
ويصحح أغلاطها، ويخضعها لواقع ومبادئه، وأن ينطلق منها في طريق الإبداع
ليخرج للإنسانية علوماً جديدة.⁽²⁾

كما عبر عن إعجابه الشديد بالعلماء القدامى الذين استطاعوا باستقلالهم
الفكري أن يحتوا هذه الثقافات الوافدة، وأن يكييفوها وفق البيئة الإسلامية
فيقول: «والحقيقة التي يؤيدها الواقع... أن العرب حينما نقلوا علوم الأوائل كما
كانوا يسمونها نقلوا بدافع وجداني إلى العلم ورغبة ملحة فيه، وأنهم نقلوا
ليستقلوا وليستغلوا ولينتفعوا بثمرة ما نقلوا ولا يتم لهم هذا الاستقلال في العلم
إلا بالتمحيص والتصحيح»⁽³⁾.

وقد بدت خاصية الاستقلال الفكري واضحة عنده، فهو لم يتعصب لرأي من
الآراء أو مذهب من المذاهب، ولم يذهب في تأثره بغيره إلى درجة تحمله على
تقليده تقليداً محضاً، بل كان في جميع علاقاته الفكرية محافظاً على خصائصه
الشخصية، متميزاً بأرائه، فكان نموذجاً للمجتهد المستقل الذي يزن الآراء بميزان

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 329.

(2) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 262.

(3) - المصدر نفسه، ج 1، ص 626.

العقل المحض.

ومن مظاهر الاجتهاد عند الإبراهيمي أيضا الاستدلال الذي استعمله الإبراهيمي بكثرة في كتاباته، مما يؤكد اهتمامه الملحوظ به. فالاستدلال عنده هو روح الاجتهاد، والعلم بالشرعية لا يقوم إلا به. وهو يؤمن أن الإسلام قد علم المسلم أن الدليل الشرعي هو أساس العلم الصحيح، وهو الميزان الذي توزن به أفعال الناس وأقوالهم، وقد ورث المسلمون عن نبيهم: «الحكمة الأبدية والأعمال الناشئة عن الإرادة، والعلم المبني على الدليل»⁽¹⁾، فكل عمل يسنده دليل من الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح، فهو عمل مشروع: «ونحن إذ ننكر الفاسد من الأعمال والباطل من العقائد سواء علينا أصدرت من سابق أم من لاحق، ومن حي أم من ميت، لأن الحكم على الأعمال لا على العاملين، وليس صدور العمل الفاسد من سابق بالذي يحدث له حرمة أو يصير له حجة على الملاحقين، بل الحجة لكتاب الله وسنة رسوله، فلاحق في الإسلام إلا ما قام دليله منهما»⁽²⁾.

وقد واجهت حركة التجديد الإسلامي في الجزائر تحديا خطيرا، تمثل في حالة الركود والتسليم التي طبعت الحياة العلمية والدينية، ودرج عليها المتعلمون الذين كان فكرهم قائما على الاعتقاد والتصديق دون الانتقاد والاستدلال، فتصدت لهذه الحالة بنشر العلم والدعوة إلى إقامة الدليل عليه، وتربية الناشئة على ترويض فكرهم على تفهم ما يتعلمونه، وطلب الدليل للاقتناع به حتى تنطلق عقولهم من إसार الجمود، وتتخلص نفوسهم من نزعة التسليم التي طبعت أجيالا كثيرة قبلهم: «فالغرة اللامعة في جبين هذه النهضة العلمية هي اقتران العلم بدليله، فأصبح

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 106

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 106

علماؤنا يعلمون بالدليل، ويدعون إلى الدليل ويطالبون بالدليل ويحكمون الدليل ولو في أنفسهم»⁽¹⁾.

وقد استطاع الإبراهيمي أن يوظف سلاح الاستدلال في معركة التغيير التي خاضها، فرد به الجامدين على أعقابهم، وضيق به الخناق على الطرق الصوفية، بإقامة الدليل على بطلان أعمالها، وقد أدى ذلك إلى نتائج محدودة على النهضة الدينية والعلمية في الجزائر، حيث انفصل العلم عن التصوف الذي كان مرتبطا به في أذهان العامة، وتزعزع التفكير القائم على التصديق الساذج، وتغيرت كثير من المفاهيم الخاطئة التي كانت شائعة بين الناس، وتهاوت صروح الطريقة التي كانت تروج التدجيل في البلاد، وتخلص قسم كبير من طبقات الشعب من روح التواكل والاستسلام، فادركوا أن الشريعة الإسلامية تدعو إلى السعي والجد لنيل الحقوق.

ويتضح لنا من كل ما سبق أن الإبراهيمي قد حصل ثقافة أصولية هامة مكنته من امتلاك ملكة عقلية وفقهية، صححت تفكيره، وعبدت الطريق أمامه للاجتهاد والاستنباط والقياس، وتخريج المسائل مع الإدراك الصحيح، والفهم الدقيق للنصوص، فهو يتحدث عن التعليل والتأصيل والتفريع والاستنباط والاستدلال واستخراج علل الأحكام وجمع الأشياء بالأشياء، ومراعاة المصالح حديث العارف الخبير الذي استجمع أدوات الاجتهاد كلها.

ج - الثورة على التصوف والدعوة إلى الإصلاح :

وكما تجلت فلسفة التغيير عند الإبراهيمي في المجال الديني في جانبها الفكري بالدعوة إلى تجديد العقيدة وتطهيرها، والثورة على البدع والخرافات

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 74

ودعاوي الإلحاد والتبشير وفي جانبها العملي بالثورة على التقليد والجمود والتعصب المذهبي، والدعوة إلى إحياء الفقه الإسلامي وفتح باب الاجتهاد، تجلت أيضا في جانبها الروحي الذي تمثل في الثورة العارمة على الطرق الصوفية المنحرفة والدعوة إلى الصلاح.

كانت الطرق الصوفية المنحرفة إحدى المشكلات الكبرى التي واجهت الإبراهيمي في حركته التغييرية، نظرا للدور الخطير الذي قامت به من تشويه للدين، واستغلال للعامة، وارتقاء في أحضان الاستعمار، لذلك كانت رؤيته منذ البداية واضحة تجاه هذه الظاهرة، والتي تمثلت في رفضها رفضا قاطعا، والعزم على محاربتها لاقتلاع جذورها من أرضية المجتمع الجزائري وكان يرى: « أنه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح في أي فرع من فروع الصياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة ومع مآلها من سلطان على الأرواح والأبدان مع ما فيها من إفساد للعقول وقتل للمواهب»⁽¹⁾.

وكان شديدا في محاربتها والحملة عليها، حيث اتخذ في كتاباته موقفا صارما منها، فرفض وجودها في الكيان الإسلامي، ورفع شعار (لا صوفية في الإسلام) قائلا: «أفيجمل بجنود الإصلاح أن يدعوا هذه القلعة تحمي الضلال وتؤويه أم يجب عليهم أن يصلوا عليها حملة صاندة شعارهم (لا صوفية في الإسلام) حتى يدكوها دكا وينسفوها نسفا ويذروها خاوية على عروشها»⁽²⁾. وقد رفع الإبراهيمي هذا الشعار في ظروف صعبة جدا، تميزت بالهيمنة الروحية المطلقة للطرق الصوفية المنحرفة على الحياة الدينية والاجتماعية للشعب

(1). الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 126

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 108

الجزائري. وقد كان يدرك الوضع العام الذي أطلق فيه صيحته حين قال: «اتفقنا على البدء بالاستعمار الروحي الداخلي، ونحن نعلم قوته والتفاف 70٪ من الأمة على الأقل حوله، ومعه الحول والطول، فالأموال وفيرة، والجاه عريض، والحكومة تقارض تأييدا بتأييد، وذلك العدد العديد من الأمة يسبح بحمده، ويعتقد أن تلك الطرق كلها طريق إلى الجنة، وأن تلك البدع والضلالات هي الدين، بل هي صميم الدين»⁽¹⁾.

وعلى الرغم من ذلك أعلن على هذه الطرق حربا شعواء من خلال الخطب والدروس المسجدية، والمحاضرات العامة، والمقالات الصحفية، وكان الهدف منها تصحيح العقائد، وتبصير الناس بحقائق دينهم. كما كان قلمه طوال عقود من السنين سيفاً مسلطاً على الطرق الصوفية المنحرفة ورجالها، يفضح أساليبهم ويسفّه معتقداتهم، ويكشف ألاعيبهم للعامة في إصرار مميت: «إن هذا القلم الذي خط الآلاف من هذا الموضوع لا يجف ولا يكف حتى يخط الياء منه»⁽²⁾.

وإذا حاولنا البحث عن خلفيات هذه الثورة، نجد أنها تستمد روحها من المرجعية الفكرية للإبراهيمي، والتي تتمثل في الكتاب والسنة وفهوم السلف الصالح. وهذه المرجعية هي التي حددت موقفه من الصوفية، وجعلته يعد التصوف كمصطلح وكفلسفة روحية لها رموزها وإشارات بدعة لم تكن موجودة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يعرفها سلف هذه الأمة: «ثم ما هذا التصوف الذي لا عهد للإسلام الفطري النقي به، إننا لا نقره مظهراً من مظاهر الدين أو مرتبة عليا من مراتبه»⁽³⁾، لأنه تبين بعد عرضها على ميزان الإسلام أنها لا صلة

(1) - الإبراهيمي. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 344.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 50.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 107.

لها به، وهذا الميزان هو الذي وزن به علماء السنة هذه الظاهرة عندما تصدوا لدعاتها يقول: « وكان لأئمة السنة وحماة، الواقفين عند حدودها ومقاصدها ومثوراتها - مواقف مع الحاملين لهذه النزعة، وموازين يزنون بها أعمالهم وأرائهم وما يبدر على ألسنتهم من القول فيها، ولسان هذه الموازين هو صريح الكتاب وصحيح السنة »⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس، يرى الإبراهيمي أن التصوف ظاهرة غريبة تسلك إلى الحياة الإسلامية بعد اتساع الفتوحات، وأحدثت فيها سلوكا دخيلا لا أصل له في الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، ولذلك كانت قضاة راسخة بأنها بدعة مستحدثة: « والصوفية أو الطريقة كما نسميها نحن في مواقفنا معها، هي نزعة مستحدثة في الإسلام لا تخلق من بذور فارسية قديمة »⁽²⁾.

ولعل موقف الإبراهيمي الرافض لظاهرة الصوفية ليس وليد قراءته التاريخية عنها فحسب، بل كان هناك عامل آخر انطلق منه أساسا لتحديد موقفه، وهو الواقع الجزائري الأليم الذي كان يعيشه، والذي تميز بالسيطرة الروحية التامة للطرق الصوفية - باعتبارها الشكل الأخير للمذاهب الصوفية القديمة - على الشعب الجزائري، وهيمنتها على العقول والنفوس، وقيادتها بالرهبة من المشائخ والخضوع الأعمى لهم.

وللتدليل على الصورة القائمة التي صبغت بها الطريقة المنحرفة الواقع الجزائري، نكتفي بإيراد بعض الإحصاءات التي توضح اتساع القاعدة الشعبية التي كانت تمارس فيها الطريقة نفوذها، حيث أوردت دائرة المعارف الإسلامية:

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 342.

(2) - المصدر نفسه، ج 4، ص 342.

«أن في الجزائر حسب تحقیقات دیبون (DUPONT) و کوبولانی (COPPOLANI) ثلاثة وعشرون طريقة صوفية، لها مائتان وخمسة وتسعون ألف ومائة وخمسة وثمانون مريدا (185 - 295)، وعليها سبعة وخمسون شيخا، وستة آلاف مقدم، وعندها تسع وأربعون زاوية، وتجبي من الإخوان سبعة ملايين ... ولمشاخ الطرق والمرابطين نفوذ عظيم، ومكانة لا تساويها مكانة في الجزائر عند جميع الأهالي، ولا سيما البربر، وأن العلماء والمدرسين والمفتين والقضاة وأئمة المساجد، لا يكادون يكونون شيئا بالقياس إلى المرابطين ومشايخ الطرق»⁽¹⁾.

ونظرا للآثار المدمرة التي تركتها هذه الطرق الصوفية المنحرفة في حياة الشعب النفسية والاجتماعية والدينية، عدها الإبراهيمي استعمارا روحيا خطيرا يضاها في خطورته الاستعمار العسكري الفرنسي الذي كان يعمل على طمس مقومات الشخصية الجزائرية ومحوها من الوجود⁽²⁾؛ لذلك كان العزم الذي عقده الإبراهيمي أن يبدأ بالهجوم على أوكار الصوفية وفضح أقطابها، وتبيان مواطن الفساد فيها، والتشهير بممارساتها التي تلصقها بالدين.

وكانت هذه الثورة على الطريقة ترتكز على سببين رئيسيين: تمثل الأول في تسلط مشايخ الطرق على عقول العامة بما أحاطوا به أنفسهم من التقديس والتعظيم، والثاني في تواطئهم مع الاستعمار وموالاتهم له.

فقد ادعى مشايخ الطرق لأنفسهم صفات الألوهية، والقدرة على الإغناء والإفقار، فانصاع الناس لهم، يمثلون أوامرهم ويقدمون بين أيديهم مراسيم الطاعة والولاء، رغبة فيهم ورهبة منهم، يقول الإبراهيمي: «أليس فيكم من يقول

(1) - مجموعة من المستشرقين ، دائرة المعارف الإسلامية

(2) - الإبراهيمي ، دأنا ، المقالة ، ع 87 ، ص 23

صراحة إنه يتصرف في الوجود ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء»⁽¹⁾، ويقول في موضع آخر: «أكبر جرحه دينية عندي إقرارهم لتلك الأماديح... التي كان يقولها فيهم الشعراء المتزلفون وينشدونها بين أيديهم في محافلهم العامة وفيها ما هو الكفر أو دونه الكفر من وصفهم بالتصرف في السموات والأرضين وقدرتهم على الإغناء والإفقار وإدخال الجنة والإنقاذ من النار»⁽²⁾.

وقد عرف عن هؤلاء المشايخ وأتباعهم المقربين انحلالهم الخلقي وتهتكهم واستهتارهم بالأخلاق العامة وارتكابهم للمحرمات والفواحش، واستباحتهم للمتعة الحسية بعيداً عن أعين مريديهم، وكانت بيوت بعضهم - كما يذكر عبد الحميد بن باديس - تزخر بأنواع الخمور المعتقة التي لا توجد في أعظم الديار الأوروبية،⁽³⁾ يقول الإبراهيمي: «وماضى هؤلاء الأشياء - وقد دانت لهم الأمة وألقت إليهم يد الطاعة ومكنتهم من أعراضها وأموالها - أن يأخذوا أموالها سارقين، ثم يورثونها أولاداً لهم فاسقين، يبددونها في الخمور والفجور، والسيارات والملابس والقصور»⁽⁴⁾.

كما كانت النزعة الاستقلالية لدى مشايخ الطرق الصوفية علامة بارزة على انحرافهم حيث استغلوا نفوذهم الروحي لدى العامة فاثروا على حسابها ثراء فاحشاً، وأكثروا من البدع والعادات التي يزار فيها الشيخ وتقدم له فيها النذور، ونشروا الخوف في النفوس من قطع هذه العادات أو التراجع عنها وإلا حلت نقمة

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 45

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 109

(3) - ابن باديس، عبد الحميد، «يهان لا يس فيه»، المنتقد، ع 13، 1925/09/24

(4) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 105

الشيخ، ولحق بمن تباطأ في العطاء الويل والثبور⁽¹⁾. ومن الأمثلة الحية على ذلك، أن شيخ الطريقة القادرية: «كان يملك جنة فيها حوالي ثلاثين ألفاً من النخيل في وادي سوف تلك الفترة. وكل أولئك عطاء من أولئك الذين كانوا يبتغون دخول الجنة في موكبه»⁽²⁾.

وزاد على ذلك احتكارهم للزكاة واستثمارهم بجبايتها، واستخدام العامة في خدمة أراضيتهم ورعي أنعامهم، كل ذلك داخل ضمن حق الشيخ على مريديه: «وعندهم أن حق الشيخ قبل حق الزوجة والأولاد والآباء والأجداد، وحق الشيخ في المال قبل حق الفقير والمسكين، بل إنهم يصرفون لهم الزكاة كاملة وينقلونها لأجلهم من بلد إلى بلد، فأين حكمة الله في الزكاة؟»⁽³⁾.

وبذلك تحولت الطرق الصوفية إلى شركة استغلالية جشعة، بعيدة كل البعد عن التصوف المزعوم، تتفنن في ابتزاز أموال الشعب والاستكثار من المتاع، والبحث عن الجاه والسلطان: «ومبنى هذه الطرق في ظاهر أمرها وباطنه على حيوانية شرهة لا تقف عند حد في التمتع بالشهوات والانهماك في اللذائذ واحتجان الأموال من طريق الحرام والحلال واصطياد الجاه وحب الظهور»⁽⁴⁾.

وأما السبب الثاني في ثورة الإبراهيمي على الطرق الصوفية في الجزائر، فيتمثل في تواطئها مع الاستعمار وموالاتها له، حيث ارتفعت في أحضانها ودخلت تحت حمايته ونذرت نفسها لخدمته، وقد تحدث الإبراهيمي عن هذا النور الخياني

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 44

(2) - بن نبي، مالك، مذكرات شاهد القرن الطفل، ترجمة مروان القنوازي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 1، 1969، ص 324

(3) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 104

(4) - المصدر نفسه، ج 1، ص 100

الذي لعبته الطرق الصوفية، وأكد أنه كان من أكبر العوامل التي أعانت الاستعمار على بسط سيطرته على البلاد وإحكام قبضته على العباد: «إبحثوا في تاريخ الاستعمار العام، واستقصوا أنواع الأسلحة التي فتك بها في الشعوب، تجدوا أفتكها في الاستعمال هذا النوع الذي يسمى (الطرق الصوفية)، وإذا خفي هذا في الشرق، ولم تظهر آثاره جلية في الاستعمار الإنجليزي، فإن الاستعمار الفرنسي مارس قواعده في الجزائر وفي شمال إفريقيا الغربية وفي إفريقيا الوسطى إلا على الطرق الصوفية وبواسطتها»⁽¹⁾.

وقد أدرك الاستعمار الفرنسي مدى النفوذ الشعبي الذي تتمتع به الطرق الصوفية، ولمس في مشائخها حب المال والجاه. فاستمالهم وسعى إلى كسب ودهم وقربهم منه، وأغدق عليهم المكافآت طمعا في استخدامهم كأداة عميلة تساعد على تكريس سيطرته من أيسر سبيل. وأكد الإبراهيمي هذه الحقيقة حينما أورد مقولة لأحد القادة العسكريين الفرنسيين الذي قال: «إن كسب شيخ طريقة صوفية أنفع لنا من تجهيز جيش كامل، وقد يكونون ملايين، ولو اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال والجيش لما أفادتنا ما تفيد تلك الكلمة الواحدة من الشيخ»⁽²⁾.

وهذا الولاء المطلق للاستعمار هو الذي جعل هذه الطرق الصوفية تقف بنفوذها الواسع وثرانها العريض في وجه كل حركة وطنية مناهضة للاستعمار، ويذكر الإبراهيمي: «أن أول من خرج عن جماعة الأمير عبد القادر الجزائري أيام جهاده شيخ طريقة معروف، وأن أكبر أسباب هزيمته استعانة فرنسا عليه بمشائخ الطرق الصوفية، وإعلان كثير من أتباعهم الخضوع لفرنسا..... وما زال

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 343.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 343، 344.

الاستعمار بالجزائر يسمى هؤلاء المشائخ (أحباب فرنسا)»⁽¹⁾.

وبادل الاستعمار الفرنسي الطرق الصوفية تأييدا بتأييد، فوقف وراءها مشجعا للأضاليل والبدع والخرافات التي كانت تنشرها بين الناس. وكانت الإدارة الاستعمارية تمول في كثير من الأحيان ولائمتها ومحافلها التي تقيمها لمريديها⁽²⁾. وكان للمعمرين ضلع في هذا المجال أيضا، فقد كانوا يبنون الأضرحة والقباب على أطراف مزارعهم خاصة في منطقة الغرب الجزائري، ويطلقون عليها أسماء الأولياء الذين يتمتعون بمكانة عظيمة في نفوس الناس⁽³⁾، ويشجعون الشعب على ممارسة الطقوس الطرقية عندها حتى يأمنوا على أموالهم من السرقة ببركة تلك القباب التي يرهبها الناس ويعظمونها.

والإبراهيمي في ثورته على ظاهرة التصوف المنحرفة، يهدف إلى طرح بديل إسلامي أصيل يتمثل في الاستقامة الشرعية أو التدين السليم المنضبط بضوابط القرآن والسنة، والناج عن التربية الروحية الإسلامية التي تصوغ شخصية المسلم صياغة متوازنة. وهذه الطريقة التربوية هي التي عرفتها الحياة الروحية الإسلامية في عهودها الأولى في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والسلف الصالح، وهذا البديل يطلق عليه الإبراهيمي مصطلح الصلاح.

ففي معرض جدا له مع الطرق الصوفية يوضح لهم أن الاستقامة الشرعية الموافقة للكتاب والسنة تعني في حقيقتها الصلاح بالمفهوم القرآني، وليس التصوف كما يريده الطرقيون: «ونحن نعلم من طريق التاريخ لا من طريق الشهرة العامة، أن بعض أصحاب هذه الأسماء الدائرة في عالم التصوف والطرق كانوا

(1). الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 344.

(2). الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 380.

(3). المصطفى نفسه، ص 356.

على استقامة شرعية وعمل بالسنة ووقوف عند حدود الله. فهم صالحون بالمعنى الشرعي، ولكن الصلاح لم يأتهم من التصوف أو الطرق وإنما هو نتيجة التدين، وفي مثل هؤلاء الصالحين الشرعيين إنما نختلف في الأسماء فنحن نسميهم صالحين المؤمنين وهم يسمونهم صوفية وأصحاب طرق»⁽¹⁾.

والصلاح الذي طرحه الإبراهيمي كبديل للتصوف مصطلح إسلامي أصيل، دعا إليه القرآن، وتكررت مادة الصلاح والإصلاح في سورة مائة وسبعين مرة، والغالب على الآيات التي تضم هذا المصطلح أنها تأتي مقرونة بالإيمان الذي هو المدخل الطبيعي للصلاح، ثم يأتي الإصلاح كثمرة للصلاح⁽²⁾.

والصلاح بهذا المعنى هو الاستقامة الشرعية الموافقة للكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح. وهو ثمرة طبيعية لتزكية النفس وتربيتها على الأخلاق والفضائل. لذلك كان نظام التربية في الإسلام يهدف إلى إيجاد الإنسان الصالح، والقرآن دعا إلى تطهير النفس الأمارة بالسوء، وبين سبل الاستقامة والسلوك المعتدل في الحياة وهناك شواهد كثيرة تدل على اهتمام الإسلام بتربية النفس وتطهيرها عن طريق العبادة الشاملة في الحياة كلها. يقول الإبراهيمي: «الإسلام دين تربية للملكات والفضائل والكمالات، وهو يعتبر المسلم تلميذاً ملازماً في مدرسة الحياة، دائماً فيها دائباً عليها، يتلقى فيها ما تقتضيه طبيعته من نقص وكمال، وما تقتضيه طبيعتها من خير وشتر، ومن ثم فهو يأخذه أخذ المربي في مزيج من الرفق والعنف - بامتحانات دورية متكررة لا يخرج من امتحان إلا ليدخل في

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 107

(2) - الإبراهيمي، د. أحمد، موسوعة أخلاق القرآن، ج 4، دار الراءد العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1981، ص 209

امتحان «⁽¹⁾.

وما هذه الامتحانات إلا تلك الشعائر والعبادات التي شرعها الإسلام لتربية النفس على الفضائل والكمالات: «وامتحانات الإسلام متجلية في هذه الشعائر المفروضة على المسلم، وما فيها من تكاليف دقيقة، يراها الخلي⁽²⁾ الفارغ أنواعا من التعبدات تتلقى بالتسليم، ويراها المستبصر المتدبر ضروريا من التربية شرعت للتركية والتعليم، وما يريد الله ليضيق بها على المسلم.. ولكن يريد ليظهره بها، وينمي ملكات الخير والرحمة فيه، وليقوي إرادته وعزمته في الإقدام على الخير، والإقلاع عن الشر»⁽³⁾.

وهذه الأساليب التي طرحها الإبراهيمي لإصلاح الإنسان المسلم، وإعداده للحياة تدل على رفضه المطلق للسلوكات الغربية التي يسلكها الصوفيون في سبيل تطهير أنفسهم، أو الوصول إلى مرحلة الوجد والفناء، لأنهم أخذوا مضامين هذه الطريقة من مصادر غريبة عن الإسلام كالفلسفات الهندية والفارسية واليونانية والمسيحية⁽⁴⁾. أما الصلاح فهو يقوم على أساس التوازن بين الروح والمادة، دون إخلال بالواحدة على حساب الأخرى.

ويعد هذا التوازن من السمات البارزة في النظام التربوي الروحي الإسلامي، والذي حرص الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفرضه في أصحابه وأن ينيهم إليه في مناسبات عديدة بالقول والعمل. فقد كان عليه الصلاة والسلام يأخذ أصحابه بالتربية الشاملة التي تجعل منهم رهبانا بالليل فرسانا بالنهار. وكان

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 538.

(2) - الخلي: جمع أخليا، وخطيون هو الفارغ، والخلي أيضا من لا زوجة له.

(3) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 538.

(4) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 99 وج 4، ص 342.

يعلمهم أن التقرب إلى الله بالعبادات والنوافل لا يعني اعتزال الدنيا والهروب من ميادين الحياة. وكان حريصا على أن يمنع كل محاولة للغلو والخروج عن إطار هذا الاتزان التربوي الذي رسمه لهم، كما فعل مع أبي الدرداء الذي كان يصل ليله ونهاره بالصوم، ويتفق أيامه عابدا متبتلا، حتى أهمل أمر نفسه وأهله. وعندما بلغ رسول الله الأمر أنكر عليه هذا السلوك بشدة وقال له: «هلك المتنطعون، إن لبندك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا»⁽¹⁾.

لذلك أنكر الإبراهيمي على غلاة الصوفية الذين انتطخوا وظيفه التربية تحريفهم للمعنى الحقيقي للحياة الروحية التي أرادها الإسلام لاتباعه، فعوض أن يوجهوهم إلى السعي الجاد والسير في مناكب الأرض في إطار التعاليم الدينية التي تنظم علاقاتهم بالناس والكون، فيحققوا التوازن المطلوب، عزلوهم عن عالم الشهادة وفتحوا لهم باب الغيبيات وأكثروا من الجدل فيها فعطلوا المواهب والطاقات: «فبينما يسدون على الناس باب الاهتداء به في الأخلاق التي تركز النفس، والعقائد التي تقوي الإرادات، والعبادات التي تغذي الإيمان، والأحكام التي تحفظ الحقوق، وكل هذا داخل في عالم التكليف... نراهم يتعلقون بالجوانب الغيبية منه، وهي التي استأثر الله بعلمها، فيخوضون في الروح والملائكة والجن وما بعد الموت، ويتوسعون في الحديث عن الجنة والنار حتى ليكون يضعون لهما خرافات مجسمة»⁽²⁾.

ويسجل المآثر الحضارية الخالدة التي تركها المسلمون الأوائل شاهدة على عبقريتهم عندما حافظوا على هذا التوازن بين مطالب الجسم والروح، ووقفوا عند

(1) - مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح.

(2) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 208، 209.

الحدود التي خطها لهم الإسلام بين عالم الغيب والشهادة: «دفع الإسلام أبناءه بتلك الروحانية العنيفة إلى ميادين الحياة، بعد أن عرفهم بمعاني الحياة: دفع الأبطال إلى الفتح، وجعل الرفق رديفه، ودفع أولي الهمم إلى الملك، وجعل العدل حليفه، ودفع العلماء إلى التربية، وجعل الإصلاح غايتها، ودفع الأغنياء إلى بناء المآثر، وجعل عزة الأمة نهايتها، فسد كل واحد ثغرة وأبقى فيها الآثار الخوالد»⁽¹⁾ ثم يشير إلى أن المسلمين في تمسكهم بالإسلام وتطبيقهم لتعاليمه يتفاضلون في التقوى والعمل الصالح، وهذا لا يشبه في وجه من الوجوه ما يحدث في الطرق الصوفية من تقسيم لمراحل الرقي الروحي أو توزيع لمراتب الوصول. فمراتب الصلاح الثابتة في القرآن والسنة ستة هي: النبوة، والصدقية، والصحة والاتباع، ثم التقوى التي يتفاضل بها المؤمنون ثم الولاية التي هي أثر التقوى⁽²⁾. وهذه هي المراتب التي وجد لها الإبراهيمي أثراً ثابتاً في القاموس الديني الذي يستند في مصطلحاته إلى ما جاء في الكتاب الكريم، وما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عداه فهو بدعة من بدع الصوفية.

فالنبوة هي أعلى مراتب الكمال الروحي، لذلك كان الأنبياء هم الصفوة المختارة من طرف الله عز وجل لتبليغ الرسالات، والصدقية هي مرتبة الأبرار من أفاضل أصحاب الأنبياء لشدة تصديقهم لهم، والصحة مرتبة دون الصدقية، اختص بها أصحاب النبي الكريم الذين عاشروه ولزموه في حله وترحاله، وعاشوا في ظلال الوحي، وأخذوا من علمه وتقواه وهم: «الذين حازوا قصبات السباق، واستولوا على الأمد، فلا طمع لأحد من الأمة بعدهم في اللحاق ...

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 136

(2) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 108

وكانت أفهامهم فوق أفهام جميع الأمة، وعلمهم بمقاصد نبيهم صلى الله عليه وسلم، وقواعد دينه وشرعه أتم من علم كل من جاء بعدهم»⁽¹⁾. والاتباع هي صفة المؤمنين الذين صحبوا صحابة رسول الله، وأخذوا عنهم علم النبوة وأخلاقها، وهم التابعون: «الذين غمرهم ضياء النبوة باتباعهم لأصحاب رسول الله، والاهتداء بهديهم والنيل من إشرافاتهم»⁽²⁾.

أما التقوى فهي فضيلة قرآنية تمثل أرقى مراتب الالتزام بأوامر ونواهي الكتاب والسنة، وهي ميزان التفاضل بين المؤمنين، والولاية ثمرة من ثمرات التقوى يخص بها الله سبحانه وتعالى عباده الصالحين الذين قطعوا أشواطاً بعيدة في الإخلاص في العبادة، وهي أعلى مرتبة من مراتب التقوى. يقول عبد الحميد بن باديس: «أفضل المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم الأولياء والصالحون، فحظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حظه من تقوى الله»⁽³⁾.

وقد تحققت هذه المراتب الستة التي ذكرها الإبراهيمي في رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة الجيل الأول من الصحابة وتابعيهم. وعلى هذا الأساس يرى الإبراهيمي أن نظام التربية الروحية الإسلامي في جانبه النظري ينطلق من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، ويقوم على التوازن بين الروح والمادة، ويهدف إلى إيجاد الإنسان الصالح.

وأما في جانبه التطبيقي، فقد تمثل في أجلى صوره كذلك في حياة رسول الله وحياة الجيل الأول الذي أحدث القرآن الكريم والسنة الشريفة تحولا جوهريا

(1) - الجوزية، ابن قيم، الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، تحقيق د. محمد جميل غازي، القاهرة، مصر، 1977، ص 178.

(2) - العوفي، د. محمد سعيد رمضان، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، ص 9.

(3) - طبر الدين، محمد، مذكرات، ج 1، ص 128.

في مختلف مناحي حياته، فقد كان أصحاب الرسول يعيشون ظلام الجاهلية بكل مثالبها وسيئاتها، فلما أشرق الإسلام على نفوسهم توجهوا بإخلاص إلى الله فظهروا أنفُسهم من أدرانها، وملأوها بنور الله، ودخلوا حياة جديدة قوامها العبادة الخالصة والجهاد في سبيل الله والتمتع بالمباح من الدنيا، في حدود حفظ توازن الشخصية الإسلامية، وأعطوا بذلك أروع صورة لهذا النظام الرباني الفريد.

وخلاصة القول أن الإبراهيمي قد أعلن ثورته العارمة على التصوف المنحرف، ورفضه رفضاً قاطعاً بسبب صدوره عن فلسفات أجنبية، وانحرافه الخطير عن القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح. وعلى الرغم من أنه يعترف أن هناك تصوفاً مشروعاً إلا أنه لا يحبذ طريقته في التعامل مع الدين والدنيا: «والحق في هذه النزعة أنها صبغة روحية مرجوحة في ميزان الشرع وأحكامه، وإنما يقبل منها ما يساير المأثور، ولا يجافي المعروف من هدي محمد وأصحابه، فإن الدين قد تكامل بختام الوحي، والزيادة فيه بعد ذلك كالنقص منه كلاهما منكر وكلاهما مرفوض»⁽¹⁾.

كما حارب الطرق الصوفية الحديثة في الجزائر باعتبارها امتداداً للمذاهب الصوفية القديمة في كثير من الممارسات والانحرافات، ثم بسبب استفلالها للشعب، وسقوطها في أحضان الاستعمار الفرنسي الذي حولها إلى أداة عميلة تخدم أهدافه ومطامعه.

وطرح البديل الإسلامي الذي يتمثل في الصلاح الشرعي القائم على الالتزام بالكتاب والسنة والافتداء بسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، الذين

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 343

مظلوا هذا الصلاح في أرقى صورته، فكانوا خير الأمم كما وصفهم الله تعالى.
«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون
بالله»⁽¹⁾.

ونصل بعد هذا إلى القول أن الإبراهيمي فهم الإسلام على أنه رسالة
حضارية جاءت لإسعاد البشرية في مختلف الأزمنة والأمكنة، لأنها تنسجم مع
فطرة الإنسان وتقيم التوازن بين جميع مظاهر حياته المادية والروحية، وتقوم على
العدل والمساواة والتسامح والرحمة، وتمجد العقل وتدعو إلى بناء الحياة على
التفكير السليم.

وفي إطار هذا الفهم، عمل على تجديد الدين وإحيائه بتطهير العقيدة من
الخرافات والبدع والخلافات الكلامية، وتحرير الفقه من التقليد والجمود والتعصب
المذهبي، والدعوة إلى الاجتهاد بالرجوع مباشرة إلى الكتاب والسنة، ومحاربة
جميع أشكال الانحرافات الصوفية من أجل صياغة الإنسان الصالح وفق
المنظومة التربوية الروحية الإسلامية المنضبطة بضوابط الشرع، ولعلنا نكون بذلك
قد أعطينا صورة واضحة عن ملامح التغيير عند الإبراهيمي في المجال الديني.

(1) - آل عمران، 110.

الفصل الثاني

المجال الثقافي والتربوي

ولئن كان الإبراهيمي قد أبلى بلاء حسنا في التغيير في المجال الديني، وكانت له فيه صولات وجولات مشهودة تمخض عنها تغير ملحوظ في المجتمع الجزائري، فقد كان له نصيب هام في التغيير في المجال الثقافي والتربوي أيضا، حيث اهتم ببعث الثقافة العربية في الجزائر في وقت بهتت فيه معالهما وانحصرت في أماكن ضيقة جدا، وأصبحت مهددة بالاندثار بفعل الجمود الذي ران عليها خلال قرون عديدة من الانحطاط والركود العلمي والخمود الفكري، وفي ظروف عصبية كانت تجري فيها عملية مقصودة ومقننة لفرنسة الجزائر، ودمجها كليا في الكيان الفرنسي، عن طريق تنظيم حملة مكثفة للقضاء على كل رموزها .

وهو يؤكد أن للمجال الثقافي والتربوي في الحركة التغييرية مكانة خاصة، ويحظى بالعناية اللازمة التي تضعه في موضعه المناسب، وأنه لولا ظروف ، المجتمع الجزائري التي فرضت عليه البدء بالتغيير في المجال الديني مراعاة لسلم الأولويات لكان للمجال الثقافي والتربوي مكان الصدارة في هذه الحركة: « إن الإصلاح العلمي هو ناحية من نواحي الإصلاح الكثيرة التي يجب أن تعطىها جمعية العلماء المسلمين فضل اهتمام واعتناء . ولو لم يحدث من الحوادث ما جعل اتجاه الجمعية إلى الإصلاح الديني أقوى لكان الإصلاح العلمي أول ما تعالجه وتبذل فيه جهودها لأنه ألصق باسمها وأكثر ارتباطا بحرفة رجالها، وكفينا دليلا على خطر الإصلاح العلمي وقيمتة - أن أكبر عناصر الإصلاح الديني الذي لا يمتري في لزومه عاقل - يستمد قوته من شيء يسمى علما ومن أشياء تسمى علماء »⁽¹⁾.

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 69

وتدور اهتمامات الإبراهيمي في المجال الثقافي والتربوي، حول جملة من المحاور الأساسية التي رأى فيها المعالم الكبرى التي ينبغي التركيز عليها للنهوض بالحياة الثقافية في الجزائر، وأهمها: إحياء اللغة العربية والدفاع عنها، والاهتمام بالنشاط الصحفي، والتركيز على نشر التعليم العربي الحر، وقد أولى لكل محور منها اهتماما خاصا حتى يتمكن من سد كل الثغرات التي أحدثتها النكبات المتوالية في الواقع الثقافي الجزائري، وسنحاول فيما يلي تفصيل هذه القضايا الكبرى وبيان أهميتها في عملية التغيير.

أولا- إحياء اللغة العربية والدفاع عنها.

كان ارتباط الإبراهيمي باللغة العربية وثيقا، وإجلاله لها كبيرا وقد أسهمت ظروف نشأته وطبيعة تعليمه إلى حد كبير في بلورة هذا الشعور. ذلك أنه نشأ - كما أسلفنا - في بيت علم وأدب، تداولت أجياله العلم والتعليم باللغة العربية، فنال منها حظا وافرا في طفولته وصباه، ثم أكمل دراسته في الحجاز على النمط نفسه. وخلال رحلته العلمية استطاع - بما حباه الله من مواهب وقدرات نفسية عالية - أن يتوسع في علومها، ويتبحر في معرفة أسرارها، ويكتشف خصائصها، فازداد تعلقا بها، واقتناعا بعلو مكانتها وسمو مقامها. ولم يكن إجلاله للعربية وتقديره لها، وشعوره بأفضليتها، واقتضاره الدائم بمآثرها الخالدة ناتجا عن عاطفة عابرة أو زهو فارغ، بل كان ثمرة وعي عميق بطبيعتها وأسرارها، وإطلاع واسع على علومها، إطلاعا أوصله إلى مرتبة النبوغ التي أهلته لأن ينتخب عضوا في الجامع اللغوية والعلمية في القاهرة وبغداد ودمشق.

وانطلاقاً من هذه العلاقة المتينة التي ربطت الإبراهيمي باللغة العربية، وإدراكاً لمكانتها في الهوية الحضارية للشعب الجزائري والأمة الإسلامية، عمل على إحيائها ونشرها والدفاع عنها ضد كل عوامل المسخ والمحو، وقد تجلت مظاهر هذا الإحياء في عدة قضايا سنبينها فيما يلي:

أ - التأكيد على ارتباط اللغة العربية بالإسلام .

لقد كان نزول القرآن باللغة العربية معلماً تاريخياً حاسماً غير مجرى حياة هذه اللغة التي حملت الدين الخاتم، فاقبل عليها الألواف من البشر الذين اعتنقوا الإسلام، يتعلمونها ليتسنى لهم قراءة القرآن وأداء فروضه ومعرفة أحكامه، ومنذ ذلك الحين ارتبطت العربية بالإسلام، وبقائه حياً على مر العصور بقيت هي كذلك تستمد منه أسباب القوة وعناصر الكمال، وتأخذ منه صفة الصمود والمقاومة، وتستعير من روحه الخالدة عوامل الحيوية والعطاء المستمر: «وهي قبل وبعد كل شيء حاضنة الإسلام، ودليله إلى العقول، ورائده إلى الأفكار، دخلت به إلى الهند والصين وقطعت به البحار والفلوات، وفيها من عناصر البقاء ومؤهلات الخلود ما يرشحها للسيطرة والتمكن»⁽¹⁾.

وقد تحدث الإبراهيمي عن هذه العلاقة الجدلية التي تربط الإسلام بالعربية، وأكد استحالة فصلهما عن بعضهما، من منطلق أن اللغة العربية هي اللغة التي نفهم بها القرآن، ونؤدي بها الشعائر، ونقرأ بها تراث الإسلام في التفسير والحديث والفقه والتاريخ، لذلك عدها لغة الإسلام الرسمية فقال: «اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثم فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية»⁽²⁾.

(1) - الإبراهيمي، مبرهن البصائر، ص 310، 311.

(2) - بالفتح نفسه، ص 24.

تلك كانت عقيدة الإبراهيمي في اللغة العربية، فقد كان يقدسها مثلما يقدس القرآن، ويقدر ما كان حماسه للدفاع عن الإسلام قويا كان استعدادة للذود عن العربية لا يقل عن ذلك. حيث التزم بحمايتها انطلاقا من إيمانه بقدرتها على حفظ عقيدة الأمة وشخصيتها الحضارية المتميزة. ويلتقي في نظريته هذه بمصطفى صادق الرافعي الذي كان يؤمن هو الآخر بالرباط الوثيق الذي يجمع اللغة والدين، حيث أكد انصهارهما في قالب واحد يستحيل فصله: «يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء، ولا منفعة فيهما معا إلا بقيامهما معا»⁽¹⁾.

وقد ارتكز الإبراهيمي على هذا الاعتقاد لينطلق إلى إثبات عروبة الشمال الإفريقي التي كان الاستعمار يعمل على إنكارها والتشكيك فيها. وليفضح الأهداف البعيدة التي كان يرمي إليها من وراء حربه الضارية ضد العربية، ول يؤكد أن الغاية من ذلك هو ترحيل الإسلام بعد محو العربية، لأنه يدرك جيدا الارتباط العضوي بينهما: «ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول، ويعمل لمحوها بالفعل... وإنما يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة وممسكة الدين أن يزول»⁽²⁾.

وفي معرض دحض شبهات الاستعمار التي تدعي أن اللغة العربية غريبة عن الجزائر، باعتبار أن العنصر البربري هو الذي يتكون منه السكان الأصليون، أكد الإبراهيمي أن هذه اللغة إنما تمكنت جذورها في هذا الوطن بسبب الإسلام الذي أقام فيه إقامة الأبد: «فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب

(1) - الرافعي، مصطفى صادق، تحت راية القرآن، صبح أصوله:

محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط7، 1974، ص 11

(2) - الإبراهيمي، جبرون الهضار، ص 479

بجرائه⁽¹⁾ فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح، مادام الإسلام مقيما
يتزحزح»⁽²⁾.

وهو يوضح هذا المعنى في موضع آخر، عندما يؤكد أن التاريخ شهد بقبول
البربر للإسلام عن رضى وطوعية لا مجال للجبر فيه، مما يعني بالضرورة أنهم
قبلوا العربية التي تحمل معانيه وتشرح تعاليمه: «من قال إن البربر دخلوا في
الإسلام طوعا فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربية عفوا، لأنهما شيئان متلازمان
حقيقة وواقعا، لا يمكن الفصل بينهما، ومحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين
الفرقدين⁽³⁾»⁽⁴⁾.

وهذا الارتباط العضوي بين العربية والإسلام، والذي ما فتىء الإبراهيمي يلح
عليه، لا يعني بأي حال من الأحوال أنه يشترط إتقان العربية حتى يحسن إسلام
المسلم، بل هو تأكيد أن اللغة العربية هي الوسيلة المثلى التي تمكن من معرفة
الإسلام من مصادره الأصلية، والطريق الأضمن الذي يتيح الإطلاع على معانيه
الحقيقية.

ب - اللغة العربية والشخصية الوطنية:

ولا يقتصر حرص الإبراهيمي على إحياء العربية والمحافظة عليها لأنها لغة
الدين والعقيدة فقط، بل لكونها أيضا مقوما أساسيا وجوهريا بالنسبة للشعب
الجزائري والأمة العربية، تحفظ لها كيائها الحضاري من كل انهيار وذوبان في

(1) - الجزائر: مقدم عنق البعير من منبجه إلى منحروه. فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل: ألقى جرائه
بالأرض (القيومي أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير، ج 1، ص 97).

(2) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 221.

(3) - الفرقان: لجمان قريبان من القطب

(4) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 222.

الغير. ذلك أن اللغة المشتركة هي بإجماع المفكرين الأساس المتين الذي يقوم عليه تكوين الأمة، باعتبار أن الشعوب التي تجمعها لغة واحدة يكون أفرادها حتما مرتبطين بروابط فكرية وعاطفية توحدتهم على صعيد واحد، لأنهم يصعدون عن ميراث ثقافي مشترك من الآداب والتقاليد والعادات وطرق التفكير ووسائل التعبير، التي انتقلت إلى الأجيال عبر العصور عن طريق اللغة. يقول الرافعي: «أما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجودا متميزا قائما بخصائصه، فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة»⁽¹⁾.

من هنا اكتست اللغة أبعادا خطيرة في الحفاظ على وجود الأمة، وضمان التماسك الاجتماعي الضروري لها، وكان التفريط فيها أو التخلي عنها لحساب لغة أخرى مؤشرا على زوال الأمة وذوبانها في الأمة صاحبة اللغة الثانية، لذلك قال الفيلسوف الألماني فخته: «إن اللغة هي الأساس في تكوين الأمة»⁽²⁾.

فليس غريبا إذا أن نرى الإبراهيمي يشدد على ضرورة إحياء اللغة العربية في الجزائر والحفاظ عليها، والتمسك بها والاستماتة في المطالبة بتعليمها ونشرها بين أبناء الجزائر كرد فعل على سياسة الفرنسة والإدماج التي كانت تمارسها السلطات الاستعمارية في محاولة جادة لسلخ الشعب الجزائري عن مقوماته، وكان يهيب بالأمة في كل مناسبة أن تهب للدفاع عن لغتها وحمايتها من عوامل المسخ والمحو وإلا اكتسحتها أمواج الغزو الفكري الاستعماري وذهبت بريحها: «لهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كل منهما يقتضي وجوب تعلمها،

(1) - الرافعي، مصطفى صادق، وحى القلم، ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت، ص 32، 33.

(2) - المصري، ساطع، ماهي القومية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1963، ص59.

فكيف إذا اجتمعنا، حق من حيث أنها لغة دين الأمة، بحكم أن الأمة مسلمة، وحق أنها لغة جنسها، بحكم أن الأمة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا»⁽¹⁾.

وهو يوضح تبعا لذلك - أن اللغة العربية هي اللغة الوطنية للشعب الجزائري، وهي مقوم هام من مقومات الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر، وأن بقاء الأمة وحياتها مرهون إلى حد بعيد ببقائها وحياتها: «إن هذه الأمة تعتقد - وتموت على اعتقادها - أن لغتها جزء من كيائها السياسي والديني، وشرط في بقائها، وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدين والسياسة، فلم يختلف لهما فيه رأي، ولم يفترق لهما قصد»⁽²⁾.

وفي ضوء هذا التصور الواضح الذي تكتسيه اللغة في تشكيل الكيان القومي والسياسي للأمة، أبدى الإبراهيمي رأيه الخاص في اتخاذ دولة باكستان الإسلامية اللغة الإنجليزية لغة رسمية لها في التعليم والإدارة والاقتصاد، وعد ذلك نقصانا في استقلالها، وغميزة في سيادتها، وتمنى لو أنها اتخذت من اللغة الأوردية لغة رسمية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما عد استقلال باكستان⁽³⁾ مع هيمنة اللغة الإنجليزية على مجالات الحياة المختلفة استقلالا صوريا. وفي ذلك إشارة عميقة إلى إدراكه الواعي للدور الخطير الذي تلعبه اللغة في تقرير السيادة الوطنية وتحقيق الاستقلال التام: «وأنا أستحسن أن تكون اللغة الأوردية هي اللغة الرسمية ... تقريرا للسيادة القومية والاستقلال، إذ ما دامت اللغة الإنجليزية هي لغة الدواوين والتعليم والاقتصاد فإن الاستقلال ناقص على أهون الاعتبار إن

(1) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 24

(2) - المصدر نفسه، ص 313

(3) - انفصلت باكستان عن الهند وحلت على استقلالها عام 1947

لم نقل أنه صوري»⁽¹⁾.

ولا يفوت الإبراهيمي، وهو يؤكد على ضرورة الحفاظ على اللغة القومية، أن يذكر بأن اللغة العربية، باعتبارها اللسان القومي للعرب، هي الحبل المتين الذي يشد أطراف الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وهو الذي يوحد أفكارهم ومشاعرهم، لأن العربية هي التي صاغت ميراثهم التاريخي الذي يصدرون عنه في كل شيء: «فالعالم العربي بهذه العروبة المكننة كالجسد الواحد إذا ألم بجزء من أجزائه حادث، أو نزلت به مصيبة، تداعت له سائر الأجزاء بالنفصرة والغوث أو بالتوجع والامتعاض»⁽²⁾.

وهو يعتبر أن عملية تمزيق الشمل التي مارسها الاستعمار على هذه الأجزاء الطبيعية من الوطن العربي، والحدود الوهمية التي وضعها بينها وظل يحرسها بعين يقظة، لم تستطع في يوم من الأيام أن تقتل في العرب شعور التضامن الذي يجمعهم على الرغم من تباعد الأوطان وتوالي المحن: «إن مواطن العروبة متفرقة متباعدة وإن الرابط الطبيعي بينها هو هذه اللغة، وقد ألم بها من أحداث الدهر ما أضعف تلك الرابطة حتى رثت حبالها... ولكنها لم تبطل بداء مثل هذا الداء العقام الذي نسميه الاستعمار، ولو أنصفنا لسميناه الطاعون، فهو الذي ألح عليها عن قصد وتعمد حتى كاد يزهد روحها، لإيقانه بمبلغ تأثيرها في تثبيت الروابط بيننا»⁽³⁾.

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 32.

(2) - الإبراهيمي، عبير البصائر، ص 478، 479.

(3) - الإبراهيمي، في قلب الحركة، ص 237.

بل إنه يذهب أبعد من ذلك حينما يعد العربية عاملا هاما من عوامل التوحيد بين المسلمين باعتبارها اللغة التي يلجأون إليها جميعا لفهم الدين واستجلاء حقائقه، وهو يعبر عن ذلك بقوله: «فاللغة العربية منذ دخلت في ركاب الإسلام على الأمم التي أظلمت ظلمة كانت سببا في تقارب تفكيرهم وتشابه عقلياتهم وتمازج أنواقهم وتوحيد مشاربهم، وإن هذا لمن المناهج السديدة في توحيد الأمم المختلفة للأجناس، ولو لا العربية لاختلفت الأمم في فهم حقائق الدين باختلاف العقليات الجنسية»⁽¹⁾.

وقد ظلت الجزائر، على الرغم مما ساءها الاستعمار من خسف، وما بذله من جهود لعزلها عن العالم العربي، تتطلع دوما إلى المشرق كجزء طبيعي منها، تستروح منه ريح العروبة، وتعدده سندها في المصائب، وعزائها في الملمات، يقول الإبراهيمي متحدئا عن الوطن الجزائري « هذه العروبة هي مساكه على كثرة المفردات، وهي ملاكه على وفرة العوامل الهادمة، وهي رباطه الذي لا ينقسم، ببقية أجزاء العروبة في الشرق، وهي السبب في كل ما يأخذ من تلك الأجزاء وما يعطيها، فينصرها في الملمات، ويتقاضاها النصر في المهمات»⁽²⁾.

ج - اللغة العربية والعطاء الحضاري:

والإبراهيمي حين يستعرض تاريخ العربية الطويل، منذ أن احتضنت الإسلام وانتشرت في أرجاء العالم، يجده حافلا بالمفاخر، عامرا بالأمجاد، فيسجل لها المواقف الخالدة التي تثبت لها صفة العالمية، وتشهد لها بالقدرة العجيبة على صنع الحضارة.

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 263.

(2) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 473.

وأعلى مفاخر هذه اللغة - عنده - أن الله قد اختارها لتكون لسان الوحي، فنزل بها القرآن، وكان ذلك أصدق دليل على سمو مقامها وعلو مكانتها. وإشارة حية إلى أنها لغة فريدة من نوعها، من حيث غناها بالمفردات والتراكيب المتنوعة، القادرة على استيعاب جميع المعاني والتعبير عن سائر الخواطر والمحتونات، وتجلية حقائق العلم بأفصح لسان وأعلى بيان: «وفي هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر، الاتساع في التعبير عن الوجدانيات والوجدان أساس الحضارات بالعلوم كلها»⁽¹⁾، ويقول في موضع آخر مبينا ميزاتها وخصائصها: «لولا تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران ولولا تكن لغة متسعة الافاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند»⁽²⁾.

وقد أهلتها هذه الصفات كلها لأن تفتح للمسلمين مجالا واسعا لينقلوا إليها تراث الحضارات التي سبقتهم أثناء تفاعلهم الثقافي معها، بعد اتساع رقعة الفتوح، واستقرار الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للدولة الإسلامية، فهضمت جميع ما عرض لها من تراث الأمم الغابرة، ونقضت عليها من روحها وصبغتها بصبغتها: «قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 258

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 260، 261

عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة»⁽¹⁾.

ثم جعلت من هذه العلوم المترجمة مادة خام انطلق منها المسلمون لصنع حضارة شامخة، تكفلت العربية وحدها بالقيام بأعبائها وحمل تكاليفها: «ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت في تكوينها وفي تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعز من اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات»⁽²⁾. وأصبحت بذلك في وقت من الأوقات هي لسان معارف البشر وترجمان حضاراتهم⁽³⁾، عندما أوت العلم ونصرته في مرحلة كانت البشرية تعيش ظلاما دامسا من الجهل والطفيلان، وفتحت له مجالات واسعة، تقدم فيها خطوات عملاقة إلى الأمام بعدما تعددت ميادينه وتنوعت في ظل الحرية التي أفسحتها له الحضارة الإسلامية.

وفي ضوء هذه الملاحظات، يبدو لنا الإبراهيمي مزهوا بالمزايا الخاصة التي تفردت بها اللغة العربية عبر العصور، مفاخرها بما استطاعت أن تقدم الإنسانية من خير عندما أنقذت تراثها القديم من الضياع الذي كان يهدده⁽⁴⁾، ثم بما أثرت به العلوم التي سارت بها أشواطا بعيدة، وهو يلخص فضائل العربية ومميزاتها في قوله: «حفظت أصول الدين، وحافظت على متون اللغة، ودونت الآداب والشرائع، وكتبت التاريخ، وسجلت الأحكام والحقوق، وفتحت الباب إلى

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 261

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 259

(3) - الإبراهيمي، عبير البصائر، ص 310

(4) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 261

العلم، وكانت السبيل إلى الحضارة»⁽¹⁾.

وقد كان الإبراهيمي يعتقد اعتقاداً راسخاً أن هذا الطور من الضعف الذي تمر به العربية هو مرحلة استثنائية عابرة، تضافرت على تكريسها عدة عوامل داخلية وخارجية، وأنها متى نفضت عنها غبار قرون الانحطاط والتخلف، ووجدت من أبنائها من يوليها العناية الكافية، برزت مرة ثانية بقوة، وكانت رائدة المسلمين في انطلاقتهم الحضارية القادمة.

وهذا الاعتقاد هو الذي كان ملهمه في كل أعماله، حيث لم يكن يدع مناسبة تمر دون أن يحاول التأكيد على قوة هذه اللغة وحيويتها واتساعها. ومن الأمثلة الحية على ذلك القانون الداخلي لجمعية العلماء المسلمين الذي تولّى كتاباته وبرع في صياغته مواده والتعبير عن أهداف الجمعية ومشاريعها. وقد روى سير أشغال جلسات مناقشة هذا القانون فقال: «وكان يحضر الجلسات طائفة كبيرة من المحامين والصحفيين العرب المثقفين بالفرنسية، فأعلنوا في نهاية عرض اللائحة إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات، وأنها أصلح لغة لصون القوانين ومرافعات المحامين، وكأنما دخلوا في الإسلام من ذلك اليوم»⁽²⁾.

إن تأكيد الإبراهيمي على ارتباط اللغة العربية ارتباطاً عضوياً بالإسلام، واعتبارها مقوماً أساسياً من مقومات الشخصية الوطنية والإشادة بمزاياها ومفاخرها، تندرج كلها ضمن إحياء هذه اللغة والمحافظة عليها تجاه كل المؤامرات التي كان يحولها الاستعمار الفرنسي وأذناؤه في الجزائر، وعلى الرغم من أن الحقائق التي أوردها الإبراهيمي في هذا المضمار ليدلّل بها على تاريخ العربية

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 477

(2) - الإبراهيمي، وأناؤه، الثقافة، ج 87، ص 23

المجيد وعطائها الحضاري المتميز وبورها القومي في الربط بين الشعوب لم تصف شيئا جديدا لما كان معروفا لدى المفكرين العرب منذ القديم، إلا أن طرح هذه المعطيات في ظل الظروف القاسية والوضع المزري الذي كانت تعيشه العربية في الجزائر لعب دورا متميزا في إعادة الحيوية لهذه اللغة وأسهم في التعرف بمكانتها، واستنهض الهمم للاعتناء بها وانتشالها من ركाम السلبات الذي كان يطغى عليها، وأحدث وعيا عاما بقيمتها القومية والثقافية بالنسبة للشعب الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي.

د - اللغة العربية والاستعمار الفرنسي

كان الاستعمار هو العدو اللدود الذي وقف للعربية بالمرصاد منذ أول يوم غزا فيه الجزائر، وظل طوال عقود طويلة من السنين يناصبها العداء ويعمل على محوها جهارا نهارا، ويحبك المؤامرات للقضاء عليها وإزهاق روحها ومحوها من ذاكرة الشعب الجزائري، واستباح في سبيل ذلك كل ما أتبع له من وسائل وأساليب .

وقد أدرك الإبراهيمي أبعاد المؤامرة الاستعمارية التي كانت فرنسا دأبة على نسج خيوطها وإحكام أطرافها، والتي ظهرت بوادرها جلية في فرنسة التعليم بالجزائر فرنسة كاملة وفي جميع المراحل، وفي فرنسة الإدارة ووسائل الإعلام، وفي إصدار القوانين التي تحرم تعليم العربية، وفي إشاعة الشبهات التي تطعن في قدرتها على مواكبة العصر، ووصمها بالقصور والتخلف، وفي محاولة التشكيك في أصالتها بالجزائر، واعتبارها لغة أجنبية جاءت في ركب الغزو الغربي، وفي تشجيع اللهجات المحلية البربرية وبخاصة القبائلية⁽¹⁾ على حسابها .

(1) - القبائلية هي اللهجة الأمازيغية المنتشرة في بلاد القبائل، وهناك إلى جانبها الشاوية والمزابية وغيرها.

لذلك رفع راية الدفاع عنها في شجاعة وحماس، يرد الشبهات ويخفض الافتراءات ويسفّه الآراء القائمة على أسس زائفة ومعطيات مكذوبة. وقد تجلّى هذا الدفاع على أشده في مقاومته لمظاهر الفرنسة المختلفة، ودعوته الحارة إلى إعادة الاعتبار للغة العربية والاعتراف بها لغة رسمية في الجزائر، وفي وقوفه ضد محاولات الاستعمار المشبوهة لإحياء اللهجات البربرية .

لقد لقيت قضية إحياء اللهجات البربرية اهتماما كبيرا في المغرب العربي وشغلت الباحثين والمفكرين فيه، بعد أن ركز عليها الاستعمار الفرنسي تركيزا خاصا، وجند لها العلماء والدارسين ليعطوها الصبغة العلمية، ويضيفوا عليها صفة الشرعية من خلال دلائل الأبحاث التاريخية التي كانوا يقدمونها. وقد أحاطها الاستعمار بضجة كبيرة من الإشهار، ونشر النتائج التي توصل إليها المؤرخون الفرنسيون والأوروبيون الذين تكفلوا بهذا المخطط الاستعماري، والتي تدعي أن الأصل الحقيقي للبربر وهم سكان المغرب العربي الأصليين، يعود إما إلى الغاليين أو إلى الرومان والوندال⁽¹⁾، ومن أبرز مظاهر هذه المؤامرة التي غطت بلدان المغرب العربي كلها: الظهير البربري الذي صدر في 16 ماي 1930 . والذي قررت فرنسا بمقتضاه تجريد الحكومة المغربية من سيادتها على القبائل البربرية، وإحداث محاكم عرفية بها مستقلة عن القضاء الإسلامي⁽²⁾.

وكانت السلطات الفرنسية قد سبقت هذه الدراسات وقانون الظهير البربري بمحاولات جادة لإحياء اللهجة البربرية في الجزائر، منذ العشرة الثالثة من تاريخ

(1) . الكمال عثمان، البربر، تونس، 1956، ص 134

(2) . الفاسي، علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط 5، 1993، ص 161

الاحتلال⁽¹⁾، حيث عملت منذ ذلك الحين على تخصيص البربر بجهان تعليم خاص يدرسون بموجبه اللغة الفرنسية والبربرية مكتوبة بالحروف اللاتينية⁽²⁾ وتكثيف الإرساليات التبشيرية بالمناطق التي تقطنها أغلبية بربرية وإلغاء المحاكم الإسلامية ليحل محلها القانون المدني الفرنسي، وقانون الجماعة البربري، وكان آخر هذه الجهود تخصيص إذاعة خاصة بهم تنطق باللهجة القبائلية عام 1948. وقد أدلى الإبراهيمي بدلوه في هذه القضية الخطيرة التي تابع تطوراتها وسجل ما صاحبها من وقائع وريود أفعال، وكان له موقفه الخاص والمتميز منها. فقد تناولها بالنقد والتحليل في جريدة «البصائر» عام 1948 عندما أعلنت السلطات الفرنسية عن قرارها بإنشاء إذاعة تذيع الأخبار والأغاني باللهجة القبائلية، ثم أتبعها بتخصيص مترجم للقبائلية في مجلس النواب الجزائري آنذاك.

كما حدد بدقة الهدف الذي ترمي إليه فرنسا من وراء هذه المحاولة، ووضعها في إطارها الحضاري، وحذر من الاستهانة بها، وأكد أنها حلقة جديدة من سلسلة محاولات استعمارية سبقتها، هدفها جميعا إحياء اللهجات البربرية لتوهين العربية في هذا القطر تمهيدا لتمزيقه أشتاتاً، وفي ذلك يقول: «ولعل القراء يعجبون لإعادتنا الحديث في هذه المسألة إذ يتوهمون أنها ليست بهذه المكانة من الأهمية، وإن أمر هذه المسألة لأعظم مما يتوهمون، إنها فرع من شجرة خبيثة غرسها الاستعمار بيده وتعهدها بالعناية والتربية، واسمها الحقيقي «التفريق بين الأخوين العرب والبربر» ، ومن فروع هذه الشجرة الخبيثة الظهير البربري

(1) - تركي، د. رابع، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 46

(2) - بن المقرن، عبد الرحمن بن إبراهيم، الكفاح الثوري والسياسي، ج 3، ص 111، 112

المشهور. ومن فروعها ما سارت عليه حكومة الجزائر منذ قرن في وطن زواوة⁽¹⁾. من تخصيصه بقوانين وأحكام إدارية وقضائية، وتقوية النظام العشائري فيه، وإبعاده بالتدريج عن القضاء الإسلامي. ومن فروعها تكثير مراكز التبشير بالنصرانية في الوطن القبائلي، ومن فروعها راديو الجزائر للغة القبائلية⁽²⁾. وبعدما وضع هذه المبادرة في سياقها التاريخي، وكشف خلفياتها، بدأ بدحض افتراءاتها، ونقض حججها، وفضح زيف الأسس التي استندت إليها، ومن ذلك ادعاء الاستعمار أن اللغة العربية في الجزائر لغة أجنبية دخيلة، فرد إبراهيمي على هذه الدعوى الباطلة مؤكدا أصالة العربية في الجزائر قائلا بلغة الوثائق: «اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حمايتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي⁽³⁾ مع الحاضر، طويلة الأفتان في المستقبل»⁽⁴⁾.

وهي توطئة قدمها بين يدي الموضوع ليوحي أن ما سيأتي تأكيد لها، ثم يفصل في تاريخ دخول العربية إلى الشمال الإفريقي في ركاب الإسلام، وبين كيف أن البربر قبلوها عن رضى وطواعية، لأنهم قبلوا الإسلام قبلها دون إكراه، وأيقنوا أنهم لن يتمكنوا من الاتصال المباشر والصحيح بمنابع هذا الدين بدونها، أضف إلى ذلك ما تبع الفتح الإسلامي من حكم عادل واختلاط الفاتحين بالسكان الأصليين عن طريق المصاهرة: «ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتنساب

(1) بن العفون، عبد الرحمن بن إبراهيم، الكفاح القومي والسياسي، ج3، ص 110، 111، ر: إبراهيمي، آثار

محمد البشير إبراهيمي، ج3، ص 145، 146

(2) إبراهيمي، غيرن البصائر، ص 445، 446

(3) الأواخي: جمع أخيه بالمد والتشديد: عروة تربط إلى وتد مدقوق، (الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير، ج1، ص 8)

(4) إبراهيمي، غيرن البصائر، ص 221

في الألسنة واللهوات ... يزيدها طيبا وعذوبة أن القرآن بها يتلى، وأن الصلوات بها تبدأ وتختتم وزاحمت البربرية على ألسنة البربر فغلبيت وبرزت ... كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، واقتناع لا يد فيه للقهر، وديمقراطية لا شج فيها للاستعمار»⁽¹⁾.

واستطاع من خلال استنطاق التاريخ وسوق الشواهد الواضحة أن يثبت بالحجة القاطعة أصالة العربية بهذا الوطن، وأن ينفي كل مظاهر الجبر والإكراه التي ادعى الاستعمار أن العرب قد مارسوها على البربر لفرض العربية على ألسنتهم، وأن يدلل على عراقتها فيه وتغلغلها في أعماق أبناء الشمال الإفريقي تغلغلا جعلها جزءا طبيعيا من تكوينهم النفسي والعقلي، ثم يضرب مثالا حيا على جو الحرية الذي تم فيه استقرار الإسلام والعربية في الجزائر ببقاء الأمازيغية حية إلى الآن على الرغم من دخول البربر في دين الله أفواجا، وتمسكهم الشديد بالعقيدة الإسلامية: «ومن شهد أن البربرية مازالت قائمة الذات في بعض الجهات، فقد شهد للعربية بحسن الجوار، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان، إذ لو كان الإسلام دين جبرية وتسلط لمحا البربرية في بضع قرن فإن تسامح ففي قرن»⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس، فكل ما يدعيه الاستعمار من أن اللغة العربية أجنبية في الجزائر دعوى باطلة ولا أصل لها من سند تاريخي أو علمي. وإذا تناولناها بالمنطق الذي يحكمه الاستعمار رجحت كفه العربية، ذلك أن الاستعمار: «يسمي السوداني المتجنس بالجنسية الفرنسية ليومه أو لساعته فرنسيا، ويلحقه بنسبه،

(1) - إبراهيمي، عبود الهانز، ص 221

(2) - المصدر نفسه، ص 222

ويساويه به في حقوقه ومميزاته، ثم ينكر على البربري - مثلاً - أن يكون عربياً، بعدما مرت عليه في الاستعراب ثلاثة عشر قرناً وزيادة، وبعد أن درج أكثر من ثلاثين جيلاً من أجداده على الاستعراب، لا يعرفون إلا العربية لغة يتكلمون بها ويتأدبون ويتعبدون⁽¹⁾. ثم يقول في لهجة المستنكر: «فليت شعري: أيهما أقرب إلى الواقع: البربري المستعرب، أم السوداني المتفرنس، وأيهما أتغذ؟ أحكم الله، أم حكم الاستعمار؟»⁽²⁾.

فلماذا يصير الاستعمار على تخصيص البربر بإذاعة ومترجم في مجلس النواب: «أكل هذا أنصاف للقبائلية، وإكرام لأهلها، واعتراف بحقها في الحياة، وبأنصالتها في الوطن»⁽³⁾، ثم لا يلبث أن يجيب على هذا التساؤل: «كلا، إنه تدجيل سياسي على طائفة من هذه الأمة، ومكر استعماري بطائفة أخرى، وتفرقة شنيعة بينهما، وسخرية عميقة بهما»⁽⁴⁾. ويفصل في الأمر أكثر محاولاً رفع الغطاء عن الأهداف الصليبية الحاقدة والنوايا الخبيثة الكامنة وراء هذه الإجراءات: «إن هذه (العملية) الجديدة سلاح مبتكر لحرب العربية، ومكيدة مدبرة للتقليل من أهميتها، وحجة مصطنعة لإسكات المطالبين بحقوقها في وطنها»⁽⁵⁾.

وقد تطفن الإبراهيمي إلى أن فرنسا قد لجأت إلى هذه المبادرة في مثل هذا الوقت لغاية في نفس يعقوب. ذلك أن العلماء المصلحين في هذه المرحلة من عام 1948 - كانوا قد صعدوا من لهجتهم في المطالبة باتخاذ اللغة العربية لغة رسمية

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 480.

(2) - المصدر نفسه، ص 480.

(3) - المصدر نفسه، ص 222.

(4) - المصدر نفسه، ص 223.

(5) - المصدر نفسه، ص 446.

في الجزائر على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية، فأراد الاستعمار - بإثارة قضية اللهجات البربرية - أن يغطي على وجه الحق في مطالبة الشعب الجزائري بالاعتراف بلغته، يقول الإبراهيمي إن الهدف البعيد الذي ترمي إليه فرنسا من وراء تشجيع البربرية في هذه الآونة بالذات هو : « إسكات نغمة أخرى تنطق بالحق ونقول : إن هذا الوطن عربي، فيجب أن تكون لغته العربية رسمية، فجاءت تلك النغمات الشاذة ردا على هذه النغمات المطردة، ونقضا لها وتشويشا عليها، ولتلق في الأذهان أن هذا الوطن مجموع أجناس ولغات لا ترجح إحداهن على الأخرى، فلا تستحق إحداهن أن تكون رسمية»⁽¹⁾.

وفي ضوء هذه المواجهة الحضارية مع الاستعمار وأذنا به يسجل الإبراهيمي وفاء الأمة الجزائرية للغة العربية، وثباتها عليها، وصبرها على المحن، في سبيل المحافظة عليها مهما كلفها ذلك من ثمن فيقول: « والأمة الجزائرية من أوفى الشعوب العربية لهذه اللغة وأكثرهم برا بها وتمجدا واعتزازا، وأقواها شيئا بها في الشدة على العوادي والصبر على المكاره، والثبات على المقاومة، فالعربية غالبت في هذا الوطن عدة لغات، فلم تهن ولم تقلب، والأمة الجزائرية ناهضت عدة استعمارات روحية ومادية فلم تقهر ولم تخذل»⁽²⁾.

وينوه بجهادها الطويل لإحيائها ونشرها في بلد كتم الاستعمار أنفاسه، وضيق عليه مجالات الحياة، واستهدف لغته بالكيد والتشويه، على الرغم من فقرها وبؤسها: « جاهدت هذه الأمة في سبيل لغتها جهادا متواصلا، كان من ثمرات النصر فيه هذه النهضة التعليمية التي ولدت الكتاب والشعراء والخطاب والوعاظ،

(1) - الإبراهيمي، عبود البساتر، ص 223

(2) - المصدر نفسه، ص 311

وهي نهضة لم تعتمد الأمة فيها إلا على ما في نفسها من حيوية موروثة، ولم تلتمس فيها عوناً من أجنبي، بل لم تلق من الأجنبي إلا المعارضة الحادة والتثبيط القاتل»⁽¹⁾.

وبعد، فهذه محطات تصور جهاد الإبراهيمي الطويل في سبيل اللغة العربية، وصبره على أعدائها وثباته على المبدأ الذي أخذ به نفسه، والتزم بالقيام به حتى طواه لحده، وهي تسجل أيضاً المعارك التي دخلها من أجل الذود عن هذه اللغة، وكلها توحى بضرب الوتر الهجمة التي تعرضت لها العربية في تلك الحقبة من الزمن، وتجعلنا نتحفي أمام هذه الإرادة الفولاذية التي وقفت في وجه هذه الزوبعة الاستعمارية كالمدارد الشامخ، ونؤمن على قول الإبراهيمي حينما يقول عن نفسه أن «موضوع العروبة أو العربية في الجزائر هو الموضوع الذي قسمه الله لي، وجعله ميدان أعماله وأحاديثه، ومجال قلبي عشرات السنين»⁽²⁾.

ولقد كان جهاده هذا طويل النفس، امتد مع عمره، وكان صادق النبرة، قوي اللهجة، لأنه يستمد حياته من إيمان عميق في نفس صاحبه الذي جعل من أهم أهدافه في الحياة الدفاع عن العربية والإسلام، فالتزم بهدفه ذاك ولم يكن ليصده عنه كثرة الأعداء والخصوم، ولا تألب الاستعمار على الأمة، يقول في ثقة وإصرار: «أنا مريض، والموضوع طويل عريض وقد أصبحت بين عاملين: هم يتجدد وطيب يتشدد، وإن حق الضمير لأؤكد عندي من حق الجسد، وليقع الاستعمار أو ليطر فإننا نتعلم لغتنا وديننا، ولو في سم الخياط، أو على مثل حد الصراط»⁽³⁾.

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 311.

(2) - الإبراهيمي، «مشكلة العروبة في الجزائر، الثقافة»، ج 87، ص 415.

(3) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 245.

ثانياً: الإبراهيمي والصحافة العربية الحرة في الجزائر:

اقتبحت الصحافة العربية الحرة في الجزائر ميدان الحياة بقوة خلال
العشرية الثالثة من هذا القرن، بعد أن سبقتها محاولات متعثرة، وكان ذلك
متزامناً مع نمو حركة التجديد الإسلامي وامتدادها واتساع دائرتها، فقد واكبت
هذه الحركة، وكافت أحد أمضى أسلحتها في معركة التغيير، وميداناً فسيحاً
للأدباء والمفكرين الأحرار الذين جردوا أقلامهم لخدمة أمتهم على جميع الأصعدة،
وفي كافة المجالات التي كانت تعاني فيها من التخلف والانحطاط.

وعلى الرغم مما صبه الاستعمار على هذه النخبة المجاهدة من صنوف
الاضطهاد والوان القهر، إلا أنها استطاعت بثباتها على المبدأ وإخلاصها للقضية
التي تؤمن بعدالتها أن تظل صامدة تبلغ رسالة الحق وتؤدي أمانة النصيحة
والتوجيه. وقد استمدت الصحافة العربية روحها من هذه الاستماتة والإصرار،
فكان تأثيرها في الأمة عميقاً، وصداها بعيداً، لعل أذكرى ثمراته تلك النهضة
المباركة التي أيقظت الشعب الجزائري من سباته، وسارت به أشواطاً بعيدة في
ميدان التحرير النفسي والعقلي الذي أفضى به إلى المواجهة الحاسمة مع
الاستعمار الفرنسي.

وكان الإبراهيمي أحد جنود هذه الصحافة المناضلة، ولساناً حياً من
السنتها المناقحة، جرد قلمه للدفاع عن حركة التغيير ومبادئها، والدعوة الحارة
الصادقة إلى تجاوز الأوضاع المتردية، وخاض فوق منبرها معارك مشهودة مع
أعداء الأمة في الداخل والخارج، وكان نضاله الصحفي يستمد قوته من إيمانه
بدور الصحافة الكبير في خدمة حركة التغيير باعتبارها وسيلة فعالة من وسائل
تبليغ كلمة الحق، وإيصال صوته إلى الجماهير العريضة. وفي هذا الإطار يشير

إلى أثر جريدة «المنتقد» في حرب الضلال فيقول: «وانبرت للكتابة في «المنتقد» أقلام كانت ترسل شواظا من نار على الباطل والمبطلين»⁽¹⁾، وينوه بالخدمات الجليلة التي قدمتها مجلة «الشهاب» للأمة الجزائرية فيقول: «ولم تهن مجلة الشهاب في حرب الباطل وأهله عزيمة ولم تغل لها شبة، وكم لها من مواقف شريفة في خدمة الحركة الإصلاحية وكم لها على النهضة العلمية والأدبية من أيا»⁽²⁾.

أ - الإبراهيمي وتأسيس البصائر الثانية:

وقد بدأ الإبراهيمي نشاطه الصحفي عام 1929، وظل منذ ذلك الحين يسهم بقلمه في كل ما من شأنه أن يكون له صلة بالحياة العامة، فكتب المقالات الدينية والسياسية والاجتماعية والتربوية والأدبية، وكانت معظمها تصب في اتجاه واحد، هو خدمة حركة التغيير، ودفع سيرها إلى الأمام، وتوسيع دائرتها، وتعميق الوعي بها في الأوساط الشعبية.

ولئن كان نشاط الإبراهيمي الصحفي لم يعرف الوفرة والانتظام خلال المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية⁽³⁾، إلا أن الأمر تغير كلية بعد أن عادت البصائر إلى الصدور، وتولى إدارتها ورئاسة تحريرها. ونظرا لمكانة هذه الجريدة ودورها الخطير في الحياة الثقافية الجزائرية، فإننا نجعلها نموذجا لدراسة دور الإبراهيمي في مجال الصحافة العربية في الجزائر.

لقد مثلت إعادة صدور البصائر منعطفًا هامًا في حياة الإبراهيمي

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 118

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 119

(3) - مورتاض، د. عبد الملك، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ش. و. ن. ت. الجزائر، د. ت. ص. 116

الصحفية، حيث استحوذت هذه الجريدة على اهتمامه، فأولاهها عناية فائقة، وبذل لها من جهده ووقته وفكره الشيء الكثير، إذ كان يشرف على إخراجها بنفسه بعد أن يصحح نماذجها، وينتقي ما ينشر فيها بعناية شديدة. وقد اضطرنه الظروف في وقت من الأوقات إلى الابتعاد عن الجريدة بسبب كثرة رحلاته وأنشغالاته بتنظيم أمور المدارس العربية الحرة فحدث في نظام صدورها خلل بسيط تألم له فقال: «وَجَرَّ بَعْدِي عَنْ «البصائر» وقوع هفوات فيها ما كانت لتقع لو كنت قريباً منها، كما جر ذلك البعد شيوع الأخطاء المطبعية، وتصحيح الجريدة نصف الجمال فيها، وأنا أتأسف لذلك وإن كان وقوعه عن غير قصد من القائمين عليها»⁽¹⁾، وهذا دليل حي على صلته العميقة بالجريدة، واهتمامه البالغ بكل صغيرة وجليّة فيها، وحرصه الكبير على أن تكون مكتملة عند صدورها شكلاً ومضموناً.

وكان هو الذي يحبّر افتتاحياتها، ويكتب فيها بعض المقالات الأخرى. ولم يكن المرض ليقعده عن أداء واجبه تجاهها، فقد روى أنه أصيب بوعكة صحية أقعدته الفراش لمدة شهرين، لكنها لم تمنعه من الوفاء بحق الجريدة: «فلقد كان ذلك المرض أجدى على البصائر من العافية والسلامة، ففي أيامه وعلى فراشه كتبت عشر مقالات في معاملة الحكومة للتعليم العربي، حتى سماه الأستاذ التبسي⁽²⁾ «المرض المنتج» وقال ليغض من ثقلت عليه وطأة تلك المقالات من صنائع الحكومة ما معناه: إني لا أرضى للإبراهيمي أن يشاك بشوكة ولكن هذه المقالات حببت إلى طول مرضه مع سلامة العاقبة»⁽³⁾.

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 204

(2) - يقصد به الشيخ العربي التبسي، أحد قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1895 - 1957)

(3) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 203، 204

ويبدو أن مقالاته في البصائر كان لها أنصارها الكثيرون، ومعجبيها الذين يتبعون صدورها باهتمام سواء في داخل الجزائر أو خارجها،⁽¹⁾ يدل على ذلك ما سجله الإبراهيمي من ورود أعداد كبيرة من رسائل العتاب والشكوى من توقف افتتاحياته في بعض الفقرات التي اضطر فيها إلى التغيب بسبب ثقل المسؤوليات وكثرة المهام، فعلق على ذلك قائلا: «وهذا القلم الذي لا يزدهيه إعجاب المعجبين، ولا يقصر - إن شاء الله - عن مدى في خدمة العروبة والإسلام، ما احتضنته الأنامل، وما أرضعته الدوى»⁽²⁾، وإنه ليشكر أولئك القراء المتألمين من احتباس جريه ويقول لهم: إنه لا يسكن إلا ليتحرك لسان صاحبه في خدمة العلم، وتتحرك قدماه في ميدان العمل»⁽³⁾. ولعل التفسير الطبيعي لهذا الإعجاب نجده في القيمة الفنية والعلمية التي كانت تتمتع بها كتابات الإبراهيمي، فهي تمثل: «أرقى ما كان ينشر في البصائر، بل أرقى ما نشر في أية صحيفة جزائرية خلال النصف الأول من هذا القرن»⁽⁴⁾.

وجريدة البصائر الثانية من أطول الجرائد العربية الحرة عمرا، وأعمقها تأثيرا في الحياة العامة الجزائرية. صدر العدد الأول منها يوم الجمعة 25 جويلية 1947، واستمرت في الصدور لمدة تسعة أعوام، وفي 6 أفريل 1956 صدر القرار الاستعماري بتوقيفها بعد أن نشرت بيانا للجمعية تؤيد فيه قيام الثورة التحريرية الكبرى.

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 107، 108.

(2) - الدوى: جمع مفرد، دواة وهي الحبرة.

(3) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 204.

(4) - بومرتاض، د. عبد الملك، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص 103.

ب - قضايا البصائر :

لقد تهيأ لجريدة البصائر الثانية جملة من الظروف التي أهلتها لأن تلعب دورا استراتيجيا ومتميزا في إحداث تغيير عميق في المجتمع الجزائري. منها أنها ظهرت في مرحلة تميزت بانتشار الروح التحررية وتزايد الوعي الشعبي، ونضج الحركات الوطنية، واستعداد الجماهير للالتفاف حول طليعة مؤمنة قوية، تقودها لفتجاوز مظاهر ضعفها وتخليقها .

وقد استطاعت البصائر أن تستفيد إلى أقصى حد ممكن من هذه الظروف، وأن تستغلها استغلالا جيدا لتوجيه دفة التغيير ودفعها إلى الأمام، بما كانت تطرحه على صفحاتها من قضايا هامة ومصيرية، فهي لم تعد تكتفي - في هذه المرحلة - بمحاربة الطرقية وأضاليهم، ولا بمطالبة الاستعمار بحقوق الشعب الجزائري المهضومة مع اصطناع بعض الحرص في تنقية الألفاظ وأساليب التعبير انقاء لقرارات التعطيل الجائرة⁽¹⁾، كما كانت تفعل من قبل، بل تعدت ذلك إلى إثارة قضايا عربية وإسلامية، كالمطالبة باستقلال أجزاء المغرب العربي الكبير وتوحيده، والتعريف بقضية فلسطين، وكشف خبايا المؤامرة الدولية الكبرى للاستيلاء عليها، والمشاركة بالرأي والتعليق على الأحداث التي شهدتها الساحة العربية والدولية، كل ذلك بلهجة حادة وجريئة، وطرح عميق وجاد، كان له أكبر الأثر في نمو الحركة الوطنية، وتطور الفكر الجزائري الحديث.

وقد استعرض الإبراهيمي أمهات القضايا الكبرى التي تناولتها البصائر في أعدادها، وأشار إلى الطريقة المتفردة التي اختلفت بها في معالجتها، ودل على أسلوب الصراحة والتحدي الذي انتهجته في طرحها على الرغم من وعورة المسلك.

(1) - الخطاب، د. أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 154

وكثرة العوائق. ومنها الدفاع عن العروبة والإسلام في الجزائر. فقد كان البصائر تاريخ حافل بالماثر والأماجد في هذا المجال بما وقفته من مواقف مشرفة في إحياء اللغة العربية والمطالبة بتعليمها، والاعتراف بها كلغة رسمية، وفي تنقية الإسلام مما شابه من بدع وضلالات وتصحيح عقائده ليكون الرائد الروحي للجزائريين في معركة إثبات الوجود: «وقفت البصائر في القضايا الجزائرية وفي قضايا العروبة والإسلام مواقف شريفة لم تقفها صحيفة عربية ولأعجمية، وقاومت الاستعمار بالتشنيع عليه وهتك أستاره، وكشف سرائره، ولم يثنها عن ذلك وقوع المكروه فضلا عن توقعه، وكانت شجا في حلقه وغصة في لهاته، وغيظا في صدره، وخصما لا تلين قناته»⁽¹⁾.

كما نافحت عن اللغة العربية التي استهدفتها الاستعمار بالحو ووقفت طودا شامخا دون مؤامراته، وأعادت اللغة العربية بيانها الناصع، ومكانتها في الحياة، وأحييت شعور الاعتزاز بها والدفاع عنها في نفوس أبنائها: «وقفت في قضية حرية التعليم العربي مواقف مشهودة سيحفظها التاريخ وتحمدها العربية فيما تحمده من مواقف النصر لها، والدفاع عنها، وسيحمدها المنصفون من العرب وأنصار العروبة يوم تجتمع أطراف الأخبار، وتتجلى الحقائق، ويعلم أولئك الأنصار أن عصابة قليلة العدد في الجزائر قامت بمكرمة عرقت عند العرب فأحييت الموردة.. وأنها أرجعت طائفة من أبناء العروبة إلى حظيرة العروبة»⁽²⁾. وكان للبصائر في قضية فلسطين مواقف مشهودة لم تقف عند حد التباكي

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 346.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 347.

ووصف الفاجعة، بل تجاوزت ذلك إلى تسليط الضوء على الأسباب الكامنة وراء الهزيمة وتعرية الأطراف التي كان لها يد طويلة في ضياع فلسطين، يقول الإبراهيمي: « ووقفت من قضية فلسطين موقف المجاهد المستبسل الكرار، وأنت في القضية بما لم تأتته صحيفة عزيبة، وجلت من وجوه الرأي الصريح ما لم يحله مفكر عربي، وسددت سهام النقد إلى المتخاذلين من قادة العرب فكشفت دخالهم وقبحت سيرهم وأعمالهم واتخذتهم لدسائس أوروبا وأحيت معهم سنن السلف التاصحين من نصيحة صادعة، وكلمة حق قارعة، وقالت لهم ما يغضبهم ولكنه يرضي الله»⁽¹⁾.

ولم يفت الإبراهيمي أن يسجل ما قامت به البصائر من واجب المساندة والتأييد، تجاه الأحداث التي شهدتها المغرب الأقصى في نضال شعبه ضد الاستعمار الفرنسي فقال: « ووقفت مع المغرب الأقصى في محنته الأخيرة موقف الأخ الصادق الأخوة يظاهر ويناصر وكأنت يحامي عن داره لا عن دار جاره، وحملت على الاستعمار وعلى أنصاره الحاطبين في حبله حملات شعواء أقلقت باله وأقضت مضجعه فلم ينعم له صباح، حتى منع رواجها بالمغرب، وأوصد بونها الأبواب»⁽²⁾.

لذلك كله، أحب الإبراهيمي البصائر حبا لا نهاية له، لأنها الميدان الفسيح الذي مكّنه من خوض معركة التغيير، والتنفيس عن خواطره بكل صدق، والتعبير عن آرائه بصراحة، ولأنها كانت سفيرة الجزائر إلى الدول العربية والإسلامية فأعطت لهم صورة مشرفة عن الجزائر المجاهدة: «وكيف أسلو البصائر، وقد

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 347.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 347.

كانت سلووي في المحن، وميداني في قراع المستعمرين والمتجرين بالدين. وكانت سلاحني في الحملة على من أضاعوا فلسطين، وكانت مجلى حجتي في جدال الظالمين للعربية والدين و كانت مشرق النور الذي فجرته من النصائح على أبنائي الطلبة والمعلمين، وكانت الطلبة التي سبقت فيها الكتاب في قضايا العرب أجمعين»⁽¹⁾

جـ - مبدأ البصائر:

لقد كافحت البصائر كفاحا مريرا في سبيل البقاء، ووقفت في وجه البغي الاستعماري مواقف خالدة، ولقيت من مكائده ومضايقاته ما تنوء الجبال بحمله، لكنها ظلت صامدة في شجاعة وجرأة نادرتين. ولعل السبب الرئيس الذي جلب لها هذا العداء من الاستعمار هو ثباتها على المبدأ، وإصرارها على نشر ما يوافق نظورتها المتميزة إلى القضايا والأحداث، ورفضها العنيد لكل محاولات الاحتواء، وكل أشكال المساومة وأنصاف الحلول مع السلطات الاستعمارية.

فقد كان الإبراهيمي ينأى بالبصائر أن تتزحزح قيد أنملة عن مبادئها الثابتة وخطها الواضح الذي سطرته لنفسها، وعاهدت قراءها على الوفاء به حتى آخر رمق، وكان يفضل ألف مرة أن تتوقف البصائر عن الصدور أسبوعين أو ثلاثة على أن تنشر ما لا يرتضيه ضميره وضمير قرائها، وأن يتحمل المسؤولون عنها تبعات الديون الثقيلة على أن تبيع ذمتها، وتهادن الباطل.

وهذا موقف مبدئي شجاع تبناه الإبراهيمي طوال سنين إدارته لجريدة البصائر، يستمد من اقتناع راسخ بضرورة التزام الصحافة جادة الصواب في رسالتها، والاحتفاظ بنزاهتها ونظافتها في أداء مهمتها الإعلامية، والإخلاص

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 110

والوضوح في التعامل مع الناس.

ولعل أقصى ما لمق البصائر من تبعات هذا الموقف: الضائقة المالية التي كانت تأخذ بتلابيبها في فترات متقاربة، فتحدث اضطرابات في صدورهم وتوزيعها، عجزا مرتفعا في ميزانيتها، وكان ذلك ناتجا عن اكتفائها في مواردها المالية بثمن البيع والاشتراكات، بينما كانت بقية الجرائد الصادرة آنذاك تجني أموالا وفيرة من أثمان الإعلانات والإشهار. وقد وضع الإبراهيمي موقفه الصريح من كل ذلك فقال: « وقد تعففت عن المطاعم المشتبهة، والموارد الكدرة، ولو أغضت قليلا وترخصت لكأنت أغنى جريدة في هذا الشمال، فقد عرضت عليها مئات الآلاف ثمنا للإعلان عن شيء تسعه الإباحة، ويضيق به المبدأ، فأثرت المحافظة على المبدأ، وعرض عليها مليونان في السنة ثمنا للإعلان عن سلعة تتجاذبها جوانب منها المريب، فأعرضت عنها ترفعا، وعرض عليها نصف مليون ثمن لفتبا. فرأت أن هذا المال هو جزء من آلاف الأجزاء مما يؤخذ من الأمة الإسلامية الجزائرية بهذه الفتوى، فأعرضت عنها»⁽¹⁾.

وكان يرى أن هذه المعاناة ضريبة طبيعية يجب أن تدفعها الصحافة النزيهة التي تخلص لمبادئها وتثبت عليها أمام طوارق الزمان ومحنه: «فالبصائر تعيش معيشة ضيقة على أثمان الاشتراكات والمبيع، والعجز السنوي ملازم لميزانها كما هو الشأن في جرائد المبادئ»⁽²⁾.

والإبراهيمي راض بهذه العوائق التي اعترضت سبيل الجريدة، ومعتبط أنها لم تتضرر منها إلا في الجانب المادي، وهو يحمد الله أن المحن والضغوط لم تنل

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج ١، ص 258

(2) - المصدر نفسه، ج 4، ص 235

من عزائم العاملين فيها ولا حملتهم على التفريط في مبادئهم « والبصائر مع هذا كله - تحمد الله على أن أصيبت في نظامها ومبادئها، ولم تصب في عقيدتها ومبادئها ومعنوياتها، فقد قطعت هذه السنة كما قطعت السنوات قبلها، أقوى ما تكون، حرارة إيمان، وصلابة عقيدة، وثبات صبغة، وشدة وطأة على الظلم والظالمين»^(١).

شروط الكتابة في البصائر:

لا نبالغ إذا قلنا أن البصائر الثانية كانت نموذجا للصحافة العربية الراقية فقد كان الإبراهيمي، بقدر حرصه على مصداقيتها في طرح القضايا والتزامها الصارم بمبادئها التي اشتهرت بها، حريصا في المقابل على إخراجها في أبهى حلة وأجمل مظهر. وكان الاهتمام البالغ بلغة الجريدة يندرج ضمن أهدافه الأساسية الرامية إلى المحافظة على اللغة العربية في تراكيبها البليغة وأسلوبها الجزل وديباجاتها المشرقة. فلم يكن يرضى أن يكون عرض الأحداث وتحليلها والتعليق عليها - مهما كانت خطورتها وأهميتها - على حساب اللغة العربية وجمالها.

من هنا، جاء تشدده البالغ مع كتاب الجريدة، فلم يكن يسمح بنشر ما يرى فيه إسفافا أو ركاسة، وكان يغري هؤلاء الكتاب «بالتجويد في الأسلوب، ويزجي بهم أن يرتفعوا إلى المستوى العالي من فن القول إذ كانت البصائر ليست من جنس الصحف التي ترضى الإسفاف في أسلوبها، والاضطراب في لغتها، والسطحية في أفكارها. بل هي صحيفة لعرض العربية الراقية في الألفاظ والمعاني

(١) - الإبراهيمي، آثار محمد الشير الإبراهيمي، ج3، ص 375

والأساليب»⁽¹⁾.

وقد حدد الإبراهيمي بنفسه المستوى اللغوي الذي يجب أن ينظبط به كتاب البصائر، ووضح ما تشترطه فيهم فقال: «البصائر» طرفان: أعلى وهو معرض العربية الراقية في الألفاظ والمعاني والأساليب، وهو السوق الذي تجلب إليه كرائم اللغة، وهو مجلى فصاحة والبلاغة في نمطها العالي... ولهذا الطرف رجاله المعدادون، وهو نمط إعجاب أدباء الشرق بهذه الجريدة، وطرف أدنى، وهو ما ينحط عن تلك المنزلة، ولا يصل إلى درجة الإسفاف، وبين الطرفين أوساط ورتب تلو وتتلو»⁽²⁾.

وكان يضطر حفاظا على هذا المستوى العالي - إلى إهمال كثير من المقالات التي ترد إليه من الكتاب الناشئين، لعدم توفرها على الشروط الضرورية التي تؤهلها للنشر فإذا عتب عليه هؤلاء، ورجوه أن ينشر نتائجهم على سبيل التشجيع أجابهم بقوله: «فليعلموا - علمهم الله - أن التشجيع لا يكون على حساب اللغة وتراكيبها، ولا على حساب «البصائر» ومنزلتها، وليفهموا أن الاعتماد على التشجيع، معطش ومجيع»⁽³⁾.

ثم يعزّيهم بإسداء جملة من النصائح التي تمكنهم من بلوغ مراتب الأدب العالية، وتكسب مقالاتهم قيمة فنية فيقول: «ونصيحتنا إلى هؤلاء وإلى ناشئتنا الكاتبة أن ينظروا لأنفسهم وأن يعتمدوا عليها، وأن يمدنوا القراءة لآثار فحول

(1) - مرتاض، د. - عبد الملك، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص 104

(2) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 183

(3) - المصدر نفسه، ج 3، ص 183

الكتاب من قدماء ومحدثين، وأن يحملوا أقلامهم على احتذائها بالتدريج، وأن يتكثروا بحفظ اللغة الأدبية، ويتصروا في مواقع استعمالها في التراكيب»⁽¹⁾ وبالتزام الإبراهيمي بهذه الشروط في قبول المادة اللغوية التي تنشرها البصائر أصبحت هذه الجريدة تمثل مدرسة أدبية ذات قواعد وأصول، تعتمد في أساسها على اللغة الراقية والأسلوب الجميل والمعاني المنقحة، وقد أثبت عبد الملك مرتاض أن مقارنة جادة، بين البصائر وباقي الصحف العربية الصادرة معها أو قبلها تؤكد: «أن أسلوب هذه الجريدة أرقى ما عرفتة الصحافة العربية في الجزائر»⁽²⁾.

هـ - مكانة البصائر:

لقد استطاعت البصائر - بما توفر لها من حزم وحسن إدارة - أن ترتفع إلى مستوى التطلعات الشعبية في التعبير عن قضايا الأمة المصيرية، والدفاع عن حقوقها المخصوصة، والوقوف في وجه عدوها ورد أباطيله وقضح مكائده، وربطها بباقي أجزاء الوطن العربي والإسلامي عن طريق نشر أخباره وتحليل الأحداث التي تجري به والتعليق عليها، كما تمكنت من إحراز تفوق ظاهر في ميدان إحياء اللغة العربية وتطوير الأدب الجزائري، والارتقاء به إلى مستوى راق من التعبير - يقول الإبراهيمي: «فالبصائر هي مجلى البيان العربي بهذا القطر، وهي حارسة الهدي المحمدي بهذا القطر، وهي المؤتمنة على الفضائل الشرقية بهذا الوطن في وقت أوجب فيه الاستعمار بخيله ورجله على هذه الثلاثة»⁽³⁾. ثم يعدد مزاياها

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 184

(2) - مرتاض، د. عبد الملك، وأسلوب الصحافة العربية في الجزائر، الثقافة، ع 34، ص 6، سبتمبر 1976، ص 44

(3) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 110

قائلا: «معتمدة على الله، معتدة بنفسها، معتزة بقراءها، ناطقة بالحق، قوامة عليه، حريا على الباطل والمبطلين، لم تثن لها في مواقفهم⁽¹⁾ قناة، ولم تهن لها في منازلهم عزيمة، ترتفع في أسلوبها حتى تشارف الأفق الأعلى للبيان العربي، وتخفّض الجناح - في غير إسفاف - حتى تذلل قطوفها للجائين من جميع الطبقات، تطرق العقول ببراهينها فتخضع، وتغزو الأفئدة ببيانها فتطرب»⁽²⁾.

وقد أجمع أغلب الدارسين الذين تناولوا القيمة الأدبية والفنية والعلمية للبصائر على علو كعبها في اللغة والبيان⁽³⁾ وتفردتها بهذه الخاصية، كما نوهوا بنجاح الإبراهيمي المنقطع النظير في الوصول بالجريدة إلى هذا المقام الرفيع، وقد برهن بالدليل الواضح الذي لا يدع مجالا للغموض: «أن الصحافة لا تعني العزوف عن رصانة الأدب ونصاعته، كما أثبت أن في اللغة الأدبية العالية طريقا سويا للإعراب عن المشكلات السياسية والاجتماعية... ولقد ارتفعت بهذه الصفحات المشرقة⁽⁴⁾ حجة من يدعي أن الصحافة اليومية ينبغي أن تؤدي باللغة السائرة»⁽⁵⁾.

وخلاصة القول أن الإبراهيمي قد ترك بصماته العميقة وأثره الواضح في

(1) - الموافقة: قال بن دريد وقبيلة الوعل: أن نلجأ الكلاب أو الرماة إلى صخرة فلا يمكنهم أن ينزل حتى يصاد. وهو يتصد أنه يحاصر المبطلين بالجمع حتى يكشفهم وينفض دعاءهم (ابن فارس أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، ج6، ص 135).

(2) - الإبراهيمي، آثار معبد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 257.

(3) - مرتاض - دكتور عبد الملك، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص 113، و: الركبي، د. عبد الله، تطور النشر الجزائري الحديث، ص 149.

(4) - يقصد بها صفحات جريدة البصائر.

(5) - السامرائي، د. إبراهيم و أصالة الأدبية في عيون البصائر، ص 87، ع 217، 218.

الصحافة العربية الجزائرية الحرة، بل كان رائدا في هذا المجال، حيث استطاع أن ينشئ صحافة راقية، سواء تعلق الأمر بالقضايا المطروحة أو اللغة المكتوبة بها، فهي في الأولى سجل تاريخي حي للأحداث التي شهدتها الساحة الجزائرية في جميع المجالات، مروية بلسان حركة التجديد الإسلامي التي قادت عملية التغيير، وبذلت فيها من الجهود الجبارة ما تفوقت به على جل الحركات الوطنية التي عاصرتها، وهي في الثانية صورة صادقة للتطور المشهود الذي عرفته الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر، بما تحلت به مقالات البصائر من أناقة وجمال وقوة وإشراق.

ثالثا: الإبراهيمي والتعليم العربي الحر

أ - أهمية التربية والتعليم:

التربية عملية ثقافية وحضارية بعيدة التأثير في حياة الأمم، لكونها الأداة التي تتخذها المجتمعات وسيلة لإعداد أجيالها الصالحة للحياة، وهي في نظر بعض الدارسين تعني: «مساعدة الإنسان... كي يكتسب قناعات عقيدية، وأنماطا سلوكية، وعادات إنسانية سليمة، جسدية وانفعالية وعقلية واجتماعية وروحية وخلقية... في سبيل نمو شخصيته ككل نموا كاملا متكاملا، كي يتفاعل مع بيئته، ويكون فاعلا ومطورا لها بشكل سليم وطبيعي»⁽¹⁾، ويتم ذلك في الغالب عن طريق التعليم.

ولعل أخطر أدوار التربية هو تكوين الشخصية القومية للجماعات والشعوب، فعن طريقها يتم نقل تراث الأمة إلى أبنائها وتنشئتهم على لغتهم القومية ونقل خصائصها الحضارية من عادات وتقاليد وأخلاق إليهم، حتى تضمن لنفسها

(1) محمد الله، محمد رضا، الفكر التربوي عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة، النطاق، ع 75، ص 22

التماسك الاجتماعي والقومي، والشخصية المتميزة عن بقية الأمم الأخرى، لذلك كانت روح التعليم مستمدة من عقيدة كل أمة ومن فكرها ونظرتها الخاصة إلى الحياة والكون، وهو ما يفسر أن لكل أمة نظام تعليم مستقل ومتميز عن باقي النظم الأخرى.

وقد كانت التربية هي المؤسسة الثقافية التي تلجأ إليها المجتمعات المغلوبة أو المتخلفة لحافظ على شخصيتها الحضارية، وتتخلص من سلبياتها، وتقضي على عوامل الضعف في كيائها استعدادا للنهضة، وذلك بإعداد مناهج دراسية تمكن أبناءها من الوعي بذاتهم وتاريخهم والاعتزاز بتراثهم، وتعمل على تخليصهم من مظاهر التخلف التي غلبت على المجتمع بفرض تطهير شخصياتهم منها وتطويرها، وإحداث التغيير المطلوب الذي يفتح للمجتمع آفاق التقدم وميادين الازدهار، دون أن يؤدي ذلك إلى فقدان الخصوصية الحضارية لهذا المجتمع.

وهي في الوقت ذاته وسيلة المجتمعات المتقدمة أيضا لتسريع عملية التطور وتحديثها بالاهتمام بالموهب، ورعاية النوابع، وتشجيع البحث العلمي، وتكييف وسائل التربية والتعليم مع تطلعات هذه المجتمعات ومشاريعها المستقبلية.

من هنا اكتست المدرسة أهميتها البالغة في نهضة الأمم، وكانت لها خطورتها في إحداث هذه النهضة وترشيدها وتوجيهها، ودورها العظيم في الحفاظ على كيان الجماعات وشخصيتها القومية عن طريق نقلها للناشئة، وغرس قيمها الحضارية في نفوسها، وفي المقابل، كان الجهل والامية من ألد أعداء الشعوب وأكثرها فتكا بالعقول والنفوس، ومن أقوى العوامل المساعدة على اندثارها ضياع تراثها وسقوطها فريسة سهلة في قبضة القوى المعادية.

وقد كان الإبراهيمي يدرك أبعاد الخطر الحضاري الذي يمثلته الاستعمار

الفرنسي على الشعب الجزائري، ويقدر مساعيهِ الحثيثة مسخه وتحويله عن دينه ولغته حق قدرها، لكنه كان يعي جيدا أن المواجهة العسكرية للمستعمر وأركان إدارته وعساكره التي ظل يمكن لها لمدة قرن كامل ليست ممكنة يومئذ، بل كانت في حكم المستحيل، أضف إلى ذلك أن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري كانت في غيبوبة حضارية تقف حاجزا بينها وبين الوعي التام بأوضاعها، لذلك كان الخيار العسكري آنذاك مغامرة مجنونة غير محمودة العواقب.

ومن خلال تحليله العميق للمجتمع الجزائري، تبين له أن السبيل الأضمن للنهوض بالشعب الجزائري لا يتم إلا بانتهاج سياسة التربية والتعليم باعتبارها الوسيلة الثابتة التي ظلت عبر العصور المنقذ الوحيد من براثن الجهل وأنياب العدو، فوضع هو وإخوانه العلماء برنامجا واسعا لإحداث نهضة ثقافية عن طريق التعليم العربي الحر.

وكان يصدر في ذلك عن فلسفة تربوية إصلاحية عميقة، تتمثل في اعتقاده الراسخ بقدرية المدرسة على صنع الحياة وإحداث التغيير المنشود في أمة أشرفت على الاندثار. فالمدرسة في الأمة بمثابة القلب في جسم الإنسان، تمدّها بدماء الحياة وأسباب البقاء: « تبني الأمم ما تبني من القصور، وتشيد ما تشيد من المصانع، وتنسق ما تنسق من الحقائق، وتحفّ ذلك كله بالسور المنيع، فإذا ذلك كله مدينة ضخمة جميلة، ولكنها بغير المدرسة عقد بلا واسطة، أو جسم بلا قلب ».⁽¹⁾

وهو يستمد هذا الاعتقاد من فكر صحيح وتجربة حية، وتحليل صائب للواقع البشري الذي أثبت له أن « حياة الأمم في هذا العصر بالمدارس، ما في هذا شك،

(1) « إبراهيم، عبود المصائر، ص 283

إلا في قلوب ران عليها الجهل وغان⁽¹⁾ عليها الفساد.... الحياة بالعلم، والمدرسة منبع العلم، ومشرع⁽²⁾ العرفان، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة، فمن طلب هذا النوع من الحياة من غير طريق العلم زل، ومن التمس الهداية إليه من غيرها ضل، وحياة الأمم التي نراها ونعاشرها شاهد صدق على ذلك⁽³⁾ لأنها تعد التعليم: «في المقومات التي هي رأس مال الوطن»⁽⁴⁾.

وأثبت له هذا الواقع أيضا، أن الأمية التي تلد الجهل والتخلف: «مرض فتاك، ونقيصة مجتاحة، ورذيلة فاضحة، وبطل وزمانة»⁽⁵⁾ في جسم الأمة التي تبلى بها⁽⁶⁾، لأنها تعتمد إلى خصائص الحياة فيها فتقتلها أو تعطلها، فهي داء وبيل: «يقتل الفكر والضمير ويقضي على العقل والروح، ويطغى المواهب، ويخدر المشاعر، ويضعف الاستعداد»⁽⁷⁾. وتصاب الأمة من ثم بالركود والخمود، ويقعد أفرادها عن طلب العز والكمال لأنهم مسجونون في قفص أميتهم التي لا تتيح لهم أفقا أعلى من التفكير السليم المثمر، فهم أسرى سذاجتهم وبساطتهم على الدوام. من هنا كان من الطبيعي أن الأمية: «لا تفسد في أمة وتشيع بين أفرادها إلا فتكت بها وألحقتها بأخس أنواع الحيوانات، ومكنت فيها للجهل والسقوط والذلة

(1) - غان على كذا: أي غطى عليه (الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص 487).

(2) - المشرعة: هي شريعة الماء، ولا تسميها العرب كذلك حتى يكون الماء جاريا فيها لانقطاع له كماء الأنهار. (القيومي أحمد بن محمد، المصباح المنير، ج 1، ص 310).

(3) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 283.

(4) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 117.

(5) - زمن الشخص زما وزمانة، فهو زمن: وهو مرض يدم طويلا: (القيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير، ج 1، ص 256).

(6) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 140.

(7) - القصور نفسه، ج 4، ص 241.

والمهانة والاستعباد⁽¹⁾. وكما يصيب الشلل أعضاء الجسم ويعطلها عن أداء وظائفها، كذلك تفعل الأمية بالأمم: «كذلك يجب أن نعرف من شؤون الأمم هذه الآثار السيئة التي تنشأ عن الأمية وهي تعطيل المواهب والقوى... لا تقشرو الأمية في أمة إلا أفقدتها معظم خصائص الحياة»⁽²⁾.

أما الشعب الجزائري فقد انتشرت هذه الآفة في أوساطه بشكل مريع، كآثر طبيعي للمخطط الاستعماري الذي وضع بعناية، وتم الإشراف على تطبيقه بالحديد والنار، والذي كان يهدف إلى تجهيل الشعب الجزائري وتحويله إلى قطع من الخدم الصناعي والرقيق الزراعي. ويؤيد ذلك ما طالب به مؤتمر المزارعين المعمرين في 21 مارس 1908 حينما أصدر بياناً جاء فيه: «من حيث أن تعليم السكان الوطنيين يعتبره أعضاء المؤتمر خطراً حقيقياً يتعرضون له من الناحية الاقتصادية ومن ناحية توطين الفرنسيين في الجزائر، فإنهم لذلك يطالبون السلطات المسؤولة بإلغاء التعليم الابتدائي بالنسبة إلى هؤلاء السكان من المسلمين»⁽³⁾.

وقد أشار إبراهيمي إلى الارتباط العضوي بين الأمية والاستعمار في الجزائر فقال: «الأمية هي شلل الأمم، وتقشيتها في الأمة الجزائرية هو الذي أقعدها عن مجاراة الأحياء في الحياة، وهو أقوى الأسباب التي مكنت للاستعمار، فكأنه اتفق معها على أن يخدمها لتخدمه، فوفى ووفت»⁽⁴⁾، فقد بلغ عدد الأطفال الجزائريين الأميين عام 1930 نحو 700000 صبي، وبلغت نسبة الأمية في

(1) - إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 140.

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 141.

(3) - جانتون، كوليت وفرنسيس، الجزائر الثالثة، ص 129.

(4) - إبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 241.

المجتمع الجزائري 95٪ من مجموع سكانها ⁽¹⁾.

ولم تبق في طول الجزائر وعرضها إلا بعض الزوايا القليلة والكتاتيب البسيطة التي تزود طلابها بأبجديات القراءة والكتابة الأولية، وتحفظهم القرآن وتلقنهم بعض المبادئ الدينية، وهي قلة قليلة تباشر عملها في أغلب الأحيان بعيدا عن أعين الاستعمار الذي كان يفرض على كل من يريد فتح مدرسة أو كتاب طلب رخصة. وهي لا تمنح إلا لمن خضع للشروط القاسية والمهينة التي تشترطها الإدارة الاستعمارية ⁽²⁾ على المعلم، بفرض إبقاء هذا التعليم في حدود ضيقة جدا وحصر تأثيره.

وفتحت في المقابل أبواب المدارس الفرنسية لبعض أبناء الجزائريين لينلقوا فيها تعليما ناقصا يخضع هو أيضا لعنصرية عمياء ولتخطيط استعماري، بدليل أن هذه المدارس مقتصرة على الأطفال الجزائريين فقط، بينما يرتاد الفرنسيون والأوروبيون مدارس خاصة بهم، وفيها كانت تجرى عملية تزييف التاريخ وسلخ الطفل الجزائري عن دينه ولغته وربطه فكريا وحضاريا بفرنسا، والاقتصار في تعليمه على حد معين لا يسمح له بالتطلع إلى مراتب التعليم العليا، والانفتاح على مختلف العلوم النافعة وهكذا وضعت السياسة الاستعمارية الشعب الجزائري بين نارين عن قصد وعمد: فلا هي باشرت تعليمه، ولا هي أتاحت له الفرصة ليعلم نفسه بنفسه. يقول إبراهيمي: «إن هذه الأمة أصبحت منك بمنزلة الهرة التي دخل صاحبها النار بسببها، لأنه لم يطعمها، ولم يدعها تأكل من خشاش الأرض،

(1) - المدني، أحمد توفيق، كتاب الجزائر، ص 293

(2) - الخطيب، د. أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 63

فلا أنت علمت الدنيا، ولا أنت سمحت لنا بتعليم الدين»⁽¹⁾. وكان للإبراهيمي رأيُه الخاص في هذا التعليم الفرنسي الذي تخصص به الإدارة الاستعمارية أبناء الجزائريين، فهو يرى أنه ليس سبيلا للعلم الحي ولا طريقة للحصول على فكر صحيح وسلاح يفيدهم في معركة الحياة، بل هو أسلوب استعماري لإيجاد طبقة من الجزائريين تتمكن من فهم الفرنسية مما يسهل على المعمرين إصدار الأوامر وتوفير الأتعاب عليهم في تفهيم خدمهم ممن لا يعرف لغتهم: «فهو تعليم ناقص لا يؤهلهم لشيء من طرق الحياة ووسائلها، وإنما يؤهلهم لشيء واحد هو الاستعداد المريح للسيد... إذ لا يحصلون من وراء هذا التعليم إلا على كلمات يلوكونها بالفرنسية ويفهمون بها عن الحاكم إذا أمر، وعن المعمر إذا زجر»⁽²⁾. والدليل على ذلك أن أغلب التلاميذ كانوا يطردون من المدارس الفرنسية قبل أن يحصلوا على الشهادة الابتدائية بدعوى رسوبهم أو تجاوزهم للسن القانونية.

فإذا تجاوز هذه الدرجة من إعداد الجزائريين للخدمة، وخصصهم ببعض العناية كان ذلك لهدف استعماري أيضا، وهو سلخهم من قوميتهم ودينهم، وإخراجهم من دائرة الشخصية العربية الإسلامية ليكونوا له عونا على أبناء جلدتهم: «والتعليم الأجنبي على تفاهته في الكيف وقلته في الكم - وعلى اضطرابنا إليه وإقبالنا عليه - يسبقه جهل، وتقترن به آفات، وتعقبه مفسد... ومن بلغ إلى غايته منا أصبح بالطبيعة متنكرا لماضيه ودمه وقومه، لأن ذلك التعليم

(1) - الإبراهيمي، مبرن الصقر، ص 298

(2) - الصقر غلبه، ص 272

وجده فارغا فملاه بما يشاء⁽¹⁾ وهو يسعى بكل جهده للتكثير من هذه العناصر التي تتنكر لأمته، ويحتضنها ويسهل لها سبل الحياة حتى تكون سلاحه في ضرب الحركات الوطنية التي تنادي بحماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين: « إن الاستعمار ليطير فرحا بالكلمة يقولها المسلم في تهوين الإسلام، وباللفظة يلفظها العربي في توهين الأمة العربية، لأنه يعلم منشأ ذلك في نفس القاتل، ويعلم أثره في نفس السامع، وهو التدرج إلى التحلل من الدين والهجران للعربية⁽²⁾ ».

ومن خلال هذه المعطيات تتبين لنا أبعاد الواقع البائس الذي باشر فيه الإبراهيمي وإخوانه عملهم التغييري في ميدان التعليم العربي الحر، فقد كانت الحالة العامة للشعب الجزائري تنذر بأوخم العواقب، وكان الظرف التاريخي يحتم عليه أن يكونوا في مستوى التحديات. لذلك انطلقت حملة التعليم العربي الحر متجاهلة كل القرارات الاستعمارية بعد أن وطن الإبراهيمي وإخوانه أنفسهم على تحمل كل ما يمكن أن يترتب على هذه المبادرة الشجاعة.

وبدأت المدارس العربية الحرة تنتشر رويدا رويدا في مدن الجزائر وقراها، وامتلات صفوفها بأبناء الجزائريين الأميين الذين بدأوا يتعرفون إلى لغتهم، ويكتشفون مبادئ دينهم، ويدركون وضعهم الحضاري بين الأمم، بتأثير البرنامج الثقافي الخاص الذي تبناه العلماء المجددون والذي كان يركز في كل مراحله على إحياء مقومات الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية.

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 303

(2) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 125

ب - المطالبة بحرية التعليم العربي :

ومع تزايد الوعي الوطني ونموه نموا مطردا مع نشاط حركة التجديد، ازداد إقبال الجزائريين على مراكز التعليم العربي، وشهدت الساحة الجزائرية انتفاها واسعا حولها، وتسابقت الجمعيات المحلية إلى تأسيس المدارس والإشراف عليها، وكان ذلك إيذاانا بانبلاج فجر جديد، وإشارة إلى تحول عميق في بنية المجتمع الجزائري، فتحرك الاستعمار لإيقاف هذا المد وحصره وتحجيمه وبعثرة جهوده، حتى تعود الأمور إلى ما كانت عليه، ويستكمل المشروع الاستعماري إحكام سيطرته على البلاد ودفعها نحو الاندماج التام في فرنسا.

ونظرا لتصميم السلطات الفرنسية على وأد حركة التعليم العربي الحر، وإصرار العلماء على تثبيتها وتوسيعها وتعميمها، دخل الطرفان حلبة الصراع، وجند الاستعمار لبلوغ غايته جميع ما يملك من وسائل مادية وطاقات بشرية وسلطة قانونية، واجهه العلماء بحزم وعزم وإرادة لا يفلها الحديد. وقد سجل الإبراهيمي في كتاباته مراحل هذا الصراع تسجيلا حيا باعتباره شخصية قيادية ضمن الحركة التي تولت نشر التعليم العربي الحر، بل كان من أبرز الذين تصدوا للمحاولات الاستعمارية، وتحملوا قسطا وافرا من مسؤولية الحفاظ على حسن سير هذه الحركة واستمراريتها، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد بلغ هذا الصراع أوجه بصدر قرار وزير الداخلية الفرنسي شوطان في 8 مارس 1938، والذي يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، ويحرم تعليمها إلا بعد الحصول على رخصة من إدارة الاحتلال. وقد تستر الاستعمار بهذا القرار ليقضي على حركة التعليم العربي الحر في الجزائر، وكانت قضية الرخصة هي السلاح الذي ما فتئت السلطات الاستعمارية تشهره في وجوه العلماء لتحريمهم

من فتح مدارس عربية أو تبرر إغلاق بعضها، وكان من مضاعفات هذا القرار تعطيل عدد كبير من المدارس وتشريد تلاميذها وسجن معلميها أو تغريمهم، مما أثار حفيظة الشعب الجزائري واستنكاره، وتبين له مقدار الحقد الذي يحمله الاستعمار للغة العربية والدين الإسلامي، فوقف في صمود يشد من عضد العلماء في مقاومتهم لهذا القانون.

وكانت المقالات التي كتبها إبراهيمي عن التعليم العربي والإدارة الاستعمارية، والتي بلغ تعدادها عشر مقالات قد تعرضت بالتفصيل لوضعية التعليم العربي الحر، تحت طائلة القوانين الجائرة، وأطالت في وصفها وشرح أبعادها، وبيان أثارها.

وقد حدد فيها موقفه المبدئي والصريح منها، وأعلن عن عدم تقيد جمعية العلماء بها، مع استبعادها التام لتحمل مسؤولية هذا الموقف الرافض: «إننا لا نرضى بهذه القوانين لأنها مفروضة علينا فرضاً في أمر يتعلق بنا وحدنا، وهو ديننا ولغتنا، ولا نحترمها لأنها باطل، والباطل لا يحترم، ولا نقرها، لأنها حرب على ديننا ولغتنا، ولا نتحملها ولو أدت إلى إغلاق جميع المدارس دفعة واحدة، وإننا لا نرضى إلا بالحرية الصريحة، فإن لم تكن فالموتة المريحة»⁽¹⁾، والسبب الذي يبرر هذا الموقف هو أن هذه القوانين قد تعدت حدود العدل والمنطق لتدخل حيز الجور والاستبداد، وأن تطبيقها كان يوجي بأهداف خبيثة تسعى إلى تحقيقها فهي: «شهادة قاطعة على ظلم الاستعمار، ونموذج من تعنته ومصادرته للحق، وبيان واضح لطريقة من طرائقه في حرب الدين والعلم، ووسيلة من وسائله في قتل معنويات الشعوب، وعنوان على مخازيه التي منها أن يعتبر الإسلام غريباً

(1) - إبراهيمي، صبيح المعمار، ص 241

وهو في داره، والعربية أجنبية وهي في منبتها»⁽¹⁾.

وبسبب كون هذه القوانين استعمارية سنتها هيئات إدارية طاعية، فقد كانت تناقض نفسها بنفسها، فتفرض التعليم على الفرنسيين وتجعله إجباريا وتشرف عليه، وتحرمه في الوقت ذاته على الجزائريين، وتعاقب من يجزؤ على مباشرته والقيام به: « يحرم الاستعمار الا فرنسي التعليم على مسلمي الجزائر، ويفرضه على أبنائه وفي وطنه، فاعجب لشيء واحد يحرم في وطن ويفرض في وطن»⁽²⁾.

وهذا دليل حي على الهدف الواضح لهذه القوانين المبنية على العنصرية المقيتة والمنطق الاستغلالي الظالم، والتي ترمي إلى المحو التدريجي لمقومات الشعب الجزائري عن طريق تجاهل حقه في التعليم، وإهماله وإنكار وجوده وتميزه الحضاري: «وللمتحكمين فينا قصد مصمم في القضاء على ديننا ولغتنا، وفي بقائنا على الجهل والأمية، وفي حرماننا من جميع أنواع العلم الذي مفتاحه التعليم، بدليل أن الحكومة الاستعمارية لم تشأ - ولا أقول لم تستطع - أن تعلم منا في قرن وخمس قرن تعليما ابتدائيا أبتر إلا أقل من العشر ممن هم في سن التعليم، ولم تشأ أن تخلص أبناءنا بأبنائنا فيه، لتقيم الدليل الواضح الفاضح على أن تعليمها لأبنائنا تعليم ناقص»⁽³⁾.

وقد وجد الاستعمار الفرنسي في سلاح القوانين ضالته، فاستصدر منها ما استطاع قاصدا منها التضييق على التعليم العربي الحر وإرهاق القائمين عليه، وحملهم على اليأس الذي يقتل العزيمة ويشل الإرادة ولكنه وجد من أبناء الجزائر

(1) - الأبراهيمي، مبرور البصائر، ص 241

(2) - المصدر نفسه، ص 241

(3) - المصدر نفسه، ص 234

المخلصين صمودا وإصرارا على مواصلة مسيرة التعليم. ولو أنهم استسلموا لهذه الضغوط لحلت الكارثة واندثرت العربية، لأن الحكومة الاستعمارية لو وجدت مجالا إلى تنفيذ كل «تلك القرارات بحذافيرها لما بقي في الجزائر من يكتب حرف هجاء عربيا»⁽¹⁾.

والحجة التي أقامها الإبراهيمي على أن هذه القوانين ليست إلا مؤامرة استعمارية للقضاء على حركة التعليم العربي الحر، أن الرخصة التي اشترطتها لفتح المدارس لم تكن في حقيقة أمرها سوى أسلوبا خبيثا لتعطيل هذه المدارس وإغلاقها متى رأت الإدارة ضرورة تستدعي ذلك، فهناك سبق إصرار من الإداريين بعدم منح الرخصة لكل من فيه: «وسما من جمعية العلماء ونسبة إليها، أو أنه يحمل فكرتها الإصلاحية، وأصغرها أن يكون اشترك في جمعية علمية، أو حضر في حفل أدبي، أو استمع لنشيد قومي أو انتسب إلى حركة سياسية، فكل هذا مما يسجل في الصحائف، وكل هذا مما يوجب لصاحبه الحرمان من رخصة التعليم»⁽²⁾.

وقد أطلال في وصف حالة المعلمين الذين امتثلوا لأمر القانون وذهبوا لطلب الرخصة. وصور مقدار ما يتعرضون له من إهانات واحتقار، وطول المدة التي تستغرقها الاستجابة لطلبهم، والتي تنتهي غالبا بالرفض، وكل ذلك أمر مخطط لها لصرف الجزائريين عن التفكير في ممارسة التعليم العربي: «أما المسلم فإنه يقدم طلب الرخصة إلى أصغر مكلف فيدخل به في بحر من الإجراءات لا ساحل له، حتى يفرغ جيبه، وتحفى قدماءه، ويكل ذهنه، وزيادة على السخرية والاحتقار.

(1) - الإبراهيمي، عيون الهضائر، ص 233

(2) - المصدر نفسه، ص 235، 236

فإذا قدر لذلك الطلب أن يخرج من مكتب الصغير، إلى مكتب الكبير، تجددت الإجراءات، وتعددت التحريات، وكثرت المراجعات، وانفتح للصغير باب الاعتذار، واتسع للطالب أفق الانتظار، حتى يملّ ويئأس، والمحفوظ هو الذي يحصل على الرخصة في سنة⁽¹⁾.

وبسبب كل ما يترتب على طلب الرخصة من: «إرهاق بالأسئلة وحساب عسير عما تكنه الضمائر من الميول، وجرح للكرامة الإسلامية العربية، وازدراء للهيئة والشكل، وإلجاء إلى المواقف المهينة⁽²⁾» قرر الإبراهيمي وإخوانه العلماء مقاطعتها، واعتبروا أنفسهم مجندين في معركة وطنية مقدسة من أجل المحافظة على الإسلام واللغة العربية، فدخلوا ميدان التعليم العربي الحر ومن ورائهم جيش من المعلمين التابعين لجمعية العلماء بكل قوة وشجاعة، وأدوا أمانة الوطن لأبنائه سواء أحصلوا على الرخصة أم لم يحصلوا عليها، وكانوا يعلمون أن الطريق شائكا والمصاعب جمة. لكنهم كانوا يستسهلون كل ذلك في سبيل خدمة مبادئهم: «وهذا ما جعلنا نمقتها ونستر ذلها، ونكفر بها، فما هي - والله - رخصة تطلب فينالها المجدود⁽³⁾، ويحرمها المحدود⁽⁴⁾ وإنما هي غصة يعسر ابتلاعها، وقصة يثقل سماعها، ورخصة⁽⁵⁾ لا تحتل أوجاعها، وإن للحكومة فيها من وراء ذلك لسرا⁽⁶⁾».

وقبول هذا التحدي والثبات بحملة اعتقالات واسعة مست أعدادا كبيرة من

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 235

(2) - المصدر نفسه، ص 236

(3) - المجدود: المحفوظ (الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص 94)

(4) - المجدود: المنوع من البغت أو قليل الخط (الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص 126)

(5) - رخصة: الرخص شدة العسر والضبط (ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، ج 2، ص 449)

(6) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 236

المعلمين الأحرار الذين وجهت إليهم تهمة التعليم بدون رخصة، فأودعوا السجن ومثلوا أمام المحاكم، وحكم عليهم بعقوبات قاسية وغرامات مالية باهظة، في محاولة يائسة للحد من نشاط التعليم العربي الحر وكسر شوكة رجاله، يقول الإبراهيمي: «بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم نقرى⁽¹⁾، ونحن نقدر أنها ستعم، وأن أول المطر قطر...» وإن الأحكام ستكون بالفراصة فالسجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرفوعة، وسنلقى هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان، وسندخل السجن بأعين قريرة... وحسبنا شرفاً أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا فخراً أن تكون التهمة: «فتح مدرسة دينية أو فرانية بدون رخصة»، وحسب الاستعمار (ديمقراطية) أن يحاكم معلمي العربية والإسلام، ويسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الإجرام»⁽²⁾.

واستتبع هذا الإجراء إغلاق المدارس التي بنتها الأمة بأموالها وجهودها، وتشريد التلاميذ الذين كانوا يأويون إليها، وواجه الشعب الجزائري هذه الحرب السافرة بروح عالية من الصبر والتحدي، فكان كلما أغلقت إدارة الاحتلال مدرسة سارع إلى تأسيس مدرسة أخرى أو عدد من المدارس بدلها، فلما رأى الاستعمار أن أساليب التنكيل والزجر لم تنل من الإرادة الشعبية ولم تثنها عن عزيمتها في مواصلة مسيرة التعليم، ابتكر أساليب أخرى لصرف الأطفال الجزائريين عن المدارس العربية، وقد تحدث الإبراهيمي في مقالاته عن هذه المحاولات، وشهر بها وعدها أسلوباً سخيفاً لمعاكسة التعليم العربي الحر.

(1) - نقرى: نقر في صلته نقر الديك إذا أسرع فيها ولم يتم ركوعها وسجودها، وهو يصلي النقرى الفيصلي، أحمد بن محمد المقرئ، المصباح المنير، ج2، ص 621.

(2) - الإبراهيمي، عمود البصائر، ص 383، 384.

ومن جملة هذه الأساليب، التوسع في إنشاء المدارس الفرنسية الابتدائية في القرى التي توجد بها مدارس عربية، والتساهل في قبول التلاميذ بها على غير عادة الإدارة الاستعمارية التي كانت تتشدد في فرض الشروط على كل جزائري يرغب في الالتحاق بها: «وما كان هذا التساهل رحمة منها بهم، ولكن لتصد أكبر عدد منهم من غشيان المدارس العربية الحرة، ثم تجريهم على برنامج فارغ إلا من التوافه، مضطرب الساعات، منهم من يأخذ ساعتين، ومنهم من يأخذ أربعاً، فيخسر التعليم العربي، ولا يحصل على التعليم الفرنسي»⁽¹⁾.

ومنها أيضاً تمديد ساعات الدراسة المسائية إلا ما بعد المدة المقررة قانوناً. ليحرم التلاميذ من ارتياد المدارس العربية الحرة بعد انتهاء الدوام الفرنسي، وغالباً ما يستغل المشرفون على المدارس الفرنسية هذا الوقت الإضافي لاستخدام التلاميذ في عمل شاق، أو ليهو فارغ، يقول إبراهيمي: «وليتهم يعملون تلك الساعة بنافع مفيد، لكنهم يعملونها بلهو فارغ أو بعمل شاق، ولقد مررت في شتاء السنة الماضية بقرية «بريكة»⁽²⁾ فرأيت بعيني تلامذة المكتب الفرنسي (المسلمين طبعاً) يجمعون الزيتون من بستان تابع للمكتب أو لإدارة المتصرف»⁽³⁾.

والتصنف لمقالات إبراهيمي في هذا الموضوع، لا يقوته أن يلمس من خلالها معاني الإصرار والشجاعة، واستخدام المنطق السليم في إثبات الحق، والمحااجة بالدليل الواضح والبرهان القوي، والاعتداد بالمبدأ والاستماتة في

(1) - إبراهيمي، عيون البصائر، ص 247

(2) - مدينة بالشرق الجزائري تابعة لولاية باتنة

(3) - إبراهيمي، عيون البصائر، ص 249

الدفاع عنه، والخبرة العميقة بأساليب الاستعمار، وقد خرج من تجربته الطويلة مع إدارة الاحتلال في ميدان التعليم العربي بنتيجة نهائية لخصها في قوله: «وأما الرأي الشجاع العاقل الحصيف الموزون بميزان العدل والحق... فهو أن نجتمع ونصمم، ونعتمد على أنفسنا، ونتوكل على ربنا، ونتعلم ديننا ولغتنا وكل ما يخدمهما من علوم وفنون، من البدايات إلى النهايات. لأن ذلك ألزم لحياتنا ووجودنا من الطعام والشراب، ولا نبالي بمخلوق، يقف في الطريق، ولا يحقود يغص من حقه بالريق»⁽¹⁾.

وبالجملة فقد كانت مقالات الإبراهيمي في البصائر عن التعليم العربي الحر سجلا حيا للمعركة المقدسة التي خاضها لتثبيت الحرف العربي في الجزائر ضد محاولات الإبادة الثقافية. وكما تميزت هذه المقالات في بعض جوانبها بالقراءة الواعية، والتحليل الهادئ العميق، والنقد الموضوعي المتزن، فقد تميزت في بعض جوانبها الأخرى بالثورة العارمة على أشكال الظلم وألوان المكر الاستعماري، وبالغضب الحاد على ممارساته الجائرة والتمرد العنيف عليها، كل ذلك في إباء شامخ، واستعلاء بالمبدأ، وتمسك شديد به، وقد وصفها بنفسه فقال «فهذه فصول، بعض أجزائها حكاية صادقة، وبعضها تجريح مؤلم، وبعضها رأي صريح، وبعضها نقض هادئ»، وفيها جمل ثائرة، وكلمات بالغضب فائرة، وليس فيها تجن ولا تعنت، وليس فيها تساهل في الحق ولا تنازل عن بعضه»⁽²⁾.

وقد استحق الإبراهيمي بذلك أن يكون نموذجا متميزا في الفكر الجزائري الحديث وأن يلعب دورا هاما في هذه المعركة الثقافية التي تحمل تبعاتها بكل

(1) - الإبراهيمي، ميمون البصائر، ص 275

(2) - المصدر نفسه، 271

شجاعة، وترك بصماته الفكرية والعملية العميقة فيها .

ج - آراؤه في التربية والتعليم :

وقد كان دفاع الإبراهيمي عن حرية التعليم العربي الحر، وتجديد الأمة لحمايته من المكائد الاستعمارية، واستنهاض هممها للإكثار من بناء المدارس، مبنيا على تصور واضح لماهية هذا التعليم ومضمونه، والأهداف المرسومة له . فقد قدر منذ أول خطوة أن يكون منطلقا في أساسه من أعماق الشعب الجزائري ومن صميم أصالته، مصبوغا بالوان حضارته العربية الإسلامية، حتى يستطيع أن يبني أجيالا واعية قوية تتمكن من مواجهة الاستعمار .

ونظرا لحرصه الشديد على هذا الجانب الحساس في حياة الأمة وعنايته البالغة به كان يجهد أن يرسم له منهجا قويا وسليما يتناسب مع التحديات القائمة، ويستجيب لمطالب الأمة التي كانت تعيش أزمة ثقافية حادة واستثنائية، ويضمن لها انطلاقة حضارية على أساس متين.

وسنحاول فيما يلي أن نتبين معالم هذا المنهج لتتضح لنا صورة المنظومة التربوية التي كان الإبراهيمي يأمل أن تلقزم المدرسة العربية الحرة بها لتصل بالأجيال الجزائرية إلى بر الأمان، وتتمحور فلسفته التربوية حول جملة من القضايا، أهمها في نظرنا: نقده لمناهج التعليم القديمة وتحديد ملامح المنهج الصالح في التربية، وتصوره حول بعض قضايا التعليم الابتدائي، ورسم أهداف العملية التربوية .

أ - نقده لمناهج التدريس القديمة :

كانت المؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي غداة النهضة تعاني من آثار عصور الانحطاط التي طبعتها بطابع التقليد والجمود، سواء في المواد المدروسة، أو

في مناهج التدريس وأساليب التعليم: فقد ظلت عبر الأجيال تجتر كتب التراث الجافة، وتتداول على المتون والحواشي بالحفظ الميت الذي لا يورث فهما ولا يغني قريحة، وتدور في حلقة مفرغة من الجدل والمباحكات اللفظية، وقد دفعها هذا الجمود على القديم إلى انغلاقها على نفسها، في الوقت الذي كان العالم يموج من حولها، والدنيا تتغير على جميع الأصعدة، والحياة العلمية والعقلية في أوروبا في تطور مستمر.

ولم يفت إبراهيمي، وهو الذي كان يعالج الأمور بذهنية متفتحة وقيس أثارها على الواقع المتغير، أن يدرك عمق الفساد الذي كان ضاربا في هذه المؤسسات، وأن يقدر حجم الآثار الوخيمة التي أفرزها في الواقع الثقافي العربي الإسلامي.

من هنا جاء نقده لمناهج التدريس القديمة، وثورته عليها، واعتبارها أساليب عتيقة بالية لا تفتح الذهن ولا تصقل العقل ولا تربي الملكات ولا تساعد على الفهم، وهي من المخلوقات التي ورثتها الأجيال عن عصور الانحطاط الذي ركبت فيه الحركة العلمية، وتوقفت العقول عن التفكير الحي المثمر، وأصبح الطلبة ضحية هذا التعليم الجاف الذي يفسد الطباع، ويخدش الملكات ويعطل المواهب لأنهم يتلقونه: «بالسنة جافت البيان العربي وصرفتها العجمة في منهاج غير منهاج العرب ففسد الذوق واختل التصور - وبأنفكار غطى عليها الجمود وسد عليها منافذ التفكير - وينفوس ركبها الملل والسأم، فرضيت بسماع ما لا يفهم وتلقي ما لا يعقل وهان الزمان في حسابها فأصبحت تنفق منه جزافا، واختل تقدير الأشياء عندها فأصبح كل مقروء علما وكل قارئ عالما»⁽¹⁾.

(1) - إبراهيمي، آثار الشيخ محمد الشير إبراهيمي، ج 1، ص 252

وفي هذا الإطار إنتقد الجامعات الإسلامية آنذاك، وبخاصة جامع الزيتونة الذي وجه للقائمين عليه نداء صادقاً للتخلي عن مناهج التدريس القديمة، وإصلاح هياكل التعليم بالجامعة لتساير العصر وتخدم العلم وتنفع الطلبة: «مازلنا نربأ بجامعاتنا ... التاريخية أن تبقى جارية على التقليد البالي في مناهجها وكتبها، وأن ترضى لنفسها هذا الجفاف في الزمان المرع⁽¹⁾. وهذا التمطي في العصر المسرع، ومازلنا نرجو لها - مخلصين - إصلاحاً شاملاً، يعقبه صلاح كامل، يبتدىء ذلك الإصلاح من الكتب، وينتهي إلى العقول، ويجرف ما بين الطرفين من أوضاع من النظم بالية وأوساخ على الأذهان عالية»⁽²⁾.

وكان دائم المساهمة بأرائه في النقاش الذي يدور بين علماء الزيتونة المجددين حول أفضل الطرق لإصلاح هذا المعهد، ويحاول أن يثري هذا المشروع ويدفعه خطوات نحو التنفيذ، حتى يتجاوز العراقيل التي كان يضعها في طريقه العلماء الجامدون والإدارة الاستعمارية المتخوفة من عواقب هذا الإصلاح، وكان رأيه أن جامع الزيتونة: «يعاني خلا يحتاج إلى الإصلاح، وعلا يجب أن تزاح، ونقائص يجب أن تعالج، وتوافه من النظم يجب أن تُلغى، وكلها بقايا من إصلاحات خير الدين⁽³⁾، لم تعد تصلح لخير العلم ولا لخير الدين»⁽⁴⁾.

ثم يوجه خطابه إلى الذين يعارضون هذه الإصلاحات من علماء الزيتونة، فيؤكد لهم أن بقاء المعهد على هذه الحال من التخلف والجمود سيكون على حساب

(1) - المرع: الحصيب المعشوشب (الفيومي، أحمد بن محمد القري، الصباح المنبر، ج 2، ص 569)

(2) - إبراهيمي، عيون البصائر، ص 457

(3) - خير الدين التونسي هو أحد رجال الإصلاح المشهورين في تونس (1810 - 1889)

(4) - إبراهيمي، عيون البصائر، ص 629، 630.

الأجيال المسلمة التي ستتكون فيه تكويناً جافاً تقليدياً ثم تخرج إلى الحياة فتجد نفسها غريبة عنها، فتضيق بين أوضاعها لأنها لم تأخذ من الزيتونة السلاح الذي يمكنها من المواجهة : « فإذا اطمأنَّ بعض أصدقائنا وإخواننا من علماء الزيتونة إلى بقاء ما كان على ما كان فليعلموا أن وراعنا من الزمن سائقاً عنيفاً حطمة⁽¹⁾، يستحث البطء ولا يفيض من أعنة العجال، وأن بين أيدينا ودائع من شباب متطلع إلى الكمال، تواق إلى السبق، حريص على دقائق عمره أن تنفق إلا فيما ينفق⁽²⁾ ».

وقد ضرب لنا مثلاً عن هذا التعليم الميت الذي يتلقاه الطلبة في جامع الزيتونة بحادثة واقعية عاشها بنفسه في بداية سنوات العشرين، عندما حضر درساً في التفسير، ألقاه عالم ذائع الصيت كما قيل له فقال: « جلست إليه أكثر من نصف ساعة، فوالذي نفسي بيده ما سمعت منه كلمة واحدة من الآية التي هي موضوع الدرس ولا لمحت أمانة ولا إشارة على أن الدرس في التفسير. وما كان كل الذي سمعت إلا حكاية لجدل عنيف، وتمثيلاً لمعركة لفظية مستعرة بين السيد الجرجاني وعبد الحكيم⁽³⁾، حول عبارة لعلها لفسر من المفسرين الاصطلاحيين، ثم انقضت الحصة وقام الطلبة المساكين يتعثرون تبتدو عليهم سيماء التعب والملل والخيبة⁽⁴⁾ ».

وهو يأسف شديد الأسف لهذه الحالة من الإسفاف التي وصلت إليها

(1) - المخطئة: عظم بمعنى كسر، والمخطئة من أسماء النار وفقاً لمخطم، ما تلتى (الرازي: محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص 143).

(2) - الإبراهيمي، هيون البصائر، ص 630.

(3) - وقد نقل عبد الحميد بن باديس الذي كان طالباً بجامع الزيتونة الصورة نفسها عن طريقة تدريس التفسير وانتقدها في أمها (ابن باديس: عبد الحميد، تفسير بن باديس، ص 283).

(4) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 252.

الجامعات الإسلامية، ويخشى إن بقيت على ما هي عليه أن تزداد الثغرة التي يتفقد منها الغزو الأجنبي إتساعاً وأن تخلق الساحة الثقافية له، فيتمكن بوسائله الحديثة وعلومه المتقدمة أن يحتوي الأجيال الإسلامية، ويوجهها لخدمة أهدافه «وليعلموا أن خصوم الإسلام في ازدياد، وأن سير الإلحاد في اطراد، وأن العلوم الغربية زاحمت العلوم الإسلامية على نفوس شبابنا فافتتنوا. وأن ضرائر العربية في اللغات الأوربية يتبرجن تبرج الجاهلية الثانية، وقد زاحمتها على السنة شبابنا، فافتتنوا وإن التعليم في كليتنا المشهورة بوضعه الحالي لا يكفل لنا سد أبواب هذه الفتن»⁽¹⁾.

ويسبب تضايقه من الأساليب العقيمة التي تجري عليها الدروس في جامع الزيتونة، واعتقاده الراسخ بعدم جدواها، أعلن عن ابتهاجه بإضراب التلامذة الزيتونيين، وشجعهم على هذه المبادرة، وأكد لهم أن الأوقات التي يمضونها في الإضراب ليحصلوا على حقوقهم في إصلاح هياكل الجامعة خير لهم من تلك الدروس الميتة التي تبعث على الملل والسأم: «إن الأسابيع التي تقضونها في الإضراب لأجدي عليكم من شهور ينقضين في مقدمات بلا نتائج، وفي القلب في موات، من عقول الأموات»⁽²⁾.

ويلتقي الإبراهيمي في دعواته الملحة لإصلاح الزيتونة مع محمد عبده الذي عمل لإصلاح الأزهر وعاب على علمائه الجامدين تقوقعهم على نفوسهم ورفضهم للتطور والتجديد الذي تفرضه عليهم الحياة المعاصرة، وقد كان أملاً كبيراً في أن يغير مناهجه ليصلح حاله، ويتمكن من أداء دوره الثقافي المتميز، ويكون الأساس

(1) - الإبراهيمي، مبرن البصائر، ص 630.

(2) - المصدر نفسه ص 460.

الذي تقوم عليه النهضة المصرية،⁽¹⁾ والمنازة التي تهتدي بها الأمة الإسلامية في حياتها في زمن اشتد فيه الصراع الحضاري وأصبحت مستهدفة من الأعداء، والجدير بالملاحظة هنا، أن الإبراهيمي لم يهتم كثيرا بجامعة الأزهر والقرويين كما اهتم بالزيتونة، ويعود ذلك إلى سبب وجيه هو أن: « معركة إصلاح التعليم الزيتوني كانت تعني الجزائريين مثلما كانت تعني التونسيين بنفس القدر، نظرا لاعتماد جمعية العلماء على خريجي الزيتونة في عملها الميداني التعليمي والتوجيهي، وشعورها بالحاجة إلى متخرجين أكفاء مستوعبين لعلوم العصر، قادرين على مواجهة الأوضاع التعليمية والثقافية المتردية»⁽²⁾.

من هنا جاء اهتمامه البالغ بإصلاح الزيتونة، لأنه لم يكن يرضى أن يكون التعليم العربي الحر في الجزائر صورة أخرى للتعليم الجامد الجاف الذي كان يجري في جامع الزيتونة، بل كان يسعى إلى أن يستبدل هذا الشكل العقيم بمناهج عصرية أكثر حيوية وأقدر على تحريك العقول وتنمية المواهب وتربية الملكات الطبيعية في التلميذ، وأن يسلك في اختيار أساليب التعليم أقدرها على الربط بين العلم والعمل⁽³⁾.

وقد خطا في سبيل ذلك خطوات موفقة، تجلت بشكل واضح في معهد ابن باديس الثانوي الذي يعد نموذجا حيا لتطبيق فلسفة الإصلاح التربوي عنده، فقد كان هذا المعهد معترفاً به كفرع من فروع الزيتونة، إلا أن التزامه بمناهجها التعليمية وكتبها المقررة لم يمنعه من إيجاد تعليم حديث حيث زاد على

(1) . عسارة، د. محمد، الإمام محمد عبدو دار الشروق، بيروت، لبنان، ط2، 1988، ص53، 54، 55.

(2) . الجاهري، د. محمد صالح ومحمد البشير الإبراهيمي والعلاقات التونسية الجزائرية، الثقافة، ع 87، ص 154.

(3) . الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 71.

برنامجها ما يقتضيه التطور ويتطلبه الواقع من العلوم العصرية. يقول الإبراهيمي: « والمعهد وإن كان فرعاً عن جامع الزيتونة لا يخرج عن برامج أصله في الجملة ولكنه قد يزيد عليها لفائدة محققة أو راجحة. وهو ينوي التوسع في مبادئ علوم الحياة وينوي توجيه النوايا فيها إلى استكمال معلوماتهم في جهة أخرى غير الزيتونة على نفقته وتحت إشرافه ورقابته ليأخذوا من العلوم التطبيقية بنصيب فينتفعوا وينتفع الأمة. وسيخرج المعهد عن نظام جامع الزيتونة في نقطة تحديد السن فيأخذ بالتحديد جرياً على السنة الماثورة عند جميع الأمم، ولعل جامع الزيتونة سينتهي بالتدرج إلى الأخذ بالتحديد»⁽¹⁾.

ب - الإبراهيمي ومنهج التربية:

يستغرق مصطلح «المنهج» في التربية جميع الخبرات الثقافية والتربوية والاجتماعية والفنية التي تقدمها المدرسة للتلاميذ، عن طريق المقررات الدراسية، وأنواع النشاط، والوسائل التعليمية، في سبيل مساعدتهم على تحصيل نمو شامل، متكامل في جميع النواحي، وتهذيب سلوكهم طبقاً للفلسفة التربوية المعتمدة من هذه المدرسة.⁽²⁾

ويخضع هذا المنهج التربوي في صياغته لعاملين هامين يؤثران تأثيراً خاصاً فيه وهما: 1) مراعاة التلاميذ لحاجاتهم ودرجة تفهمهم، وخصائصهم النفسية، والأساليب التعليمية المناسبة لهذه المعطيات، وهو ما يعرف بالأساس السيكولوجي. 2) مراعاة وضعية المجتمع بثرائه الثقافي وقيمه، ومشكلاته

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي ج3، ص 91

(2) - سرحان، د. الفرزدان ومنير كامل، المنابع، مكتبة الأنجلو، القاهرة، مصر، 1964، ص7

وطموحاته وأهدافه الحاضرة والمستقبلية، وهو الأساس الإجتماعي والثقافي.

والواضح، أن الإبراهيمي في فلسفته التربوية لم يخرج عن هذا الإطار الذي حددته التربية الحديثة، فقد استطاع أن يرسم لنا من خلال كتاباته ملامح المنهج الصالح للمجتمع الجزائري آنذاك والذي لخصه في قوله: «وخير المناهج لأمة كأممتنا في ظرف كظروفنا ما خرج سالكه بفكر صحيح وإن لم يخرج بعلم كثير⁽¹⁾، وكان هذا المنهج قد تم الإتفاق عليه بينه وبين ابن باديس أثناء اجتماعهما بالمدينة المنورة عام 1913 بعد دراستهما للواقع الجزائري حيث قال: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعتنا بالمدينة في تربية النشء هي أن لا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعدناه من تلامذتنا»⁽²⁾. وكان الواقع الجزائري هو الذي فرض عليه أن يسلك هذا المنهج باعتبار ظروف الشعب الاجتماعية، والثقافية والسياسية آنذاك، والذي أراد من خلاله أن يخلص الأجيال الجزائرية، التي أقبلت على التعليم العربي الحر، من أسلوب التحفيظ الجاف الذي كانت تحشوه أذهانها دون أن يكون لديها أدنى استعداد لفهم محتواه أو تحليل مضمونه، واستبدال ذلك بفكر متفتح يستوعب العلم وإن كان قليلا، ويفهمه ويدرك أبعاده ويتلقاه على أساس صحيح، يمكنه من التفاعل مع الحياة تفاعلا إيجابيا، لذلك كان يحث المعلمين على توجيه التلاميذ نحو الاستفادة مما يتعلمونه من خلال إعطائهم العلم ممزوجا بالحياة: «امزجوا لهم العلم بالحياة، والحياة بالعلم، يأتي التركيب بعجيبة، ولا تعمروا أوقاتهم كلها بالقواعد، فإن العكوف على القواعد، هو

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 158

(2) - الإبراهيمي، «آباء، اللغة» ع 87، ص 21

(٤)

الذي صير علما غا مثل القواعد

ج - قضايا التعليم الابتدائي :

لقد أتيح للإبراهيمي وهو في منفاه بأقلو - متسعا من الوقت عكف خلاله على وضع برنامج مفصل للتعليم العربي بجميع أنواعه ضمنه أصولا عظيمة من علم التربية، وقد استفاد منه السلك التعليمي كثيرا في العملية التربوية، لذلك أثر جماعة من قدماء المعلمين تسميته «مرشد المعلمين»^(١)، وقد نشرت منه بعض الفصول في جريدة البصائر الثانية عام 1949^(٢).

والملاحظ أن الإبراهيمي أولى فيها للتعليم الابتدائي عناية خاصة وتحدث عنه بتفصيل واف، وحدد مدته بست سنوات، وذكر المواد التي تدرس أثناءها والأهداف المتوخاة منها، ويأتي تركيزه على هذه المرحلة بالذات لإيمانه بأنها مفتاح التعليم كله وحجر الزاوية في بناء شخصية الطفل، والأساس الذي تقوم عليه حياته في المستقبل: «مراحل التعليم الابتدائي هي - بالأصول - مراحل التكوين الأول للناشئة وعلى أساسها يبني مستقبلهم في الحياة، فإن كان هذا التكوين صالحا كانوا صالحين لأمتهم ولأنفسهم، وإن كان ناقصا مختلا زائفا بنيت حياة الجيل كله على فساد، وساعت أثاره في الأمة، وكانت الأمية أصلح لها منه وأسلم عاقبة»^(٣).

(١) - القواعد: جمع مفردة قاعد، وهي المرأة التي قعدت عن الحيض والولد بعد تقدمها في السن (الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص 544).

(٢) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 300.

(٣) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 155.

(٤) - البصائر، ج 67، 14، فيفري 1949، البصائر ج 68، 21، فيفري 1949.

(٥) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 157.

ويرى الإبراهيمي أنه أثناء هذه السنوات الست يتعلم الطفل مبادئ القراءة والكتابة حتى يصبح: «صحيح التأدية للقراءة طيع اليد والقلم بالكتابة»⁽¹⁾. كما يتعرف خلالها على مبادئ الدين الاسلامي ويتقنها علما وعملا، ويتلقى مبادئ التاريخ الاسلامي أيضا ويعرف تسلسله وهذا عند الإبراهيمي: «جزء من الدين»⁽²⁾ ويدرس السيرة النبوية، وسيرة الخلفاء الراشدين، وعظماء الرجال في الإسلام من الصحابة والتابعين والصالحين. ويقرر عليه حفظ بعض الأجزاء من القرآن: «حفظا متقنا مع فهم المقردات الغريبة و خلاصة المعنى»⁽³⁾، ويأخذ أيضا مبادئ التجويد دراية.

وخلال هذه المرحلة يدرس التلميذ جميع هذه المواد بكيفية علمية مبسطة تمكنه من امتلاك قاعدة أولية متينة عن كل علم بحيث يسهل عليه، إن هو انتقل إلى مراحل التعليم الأخرى، أن يتوسع فيها: «فإن انقطع عن التعليم استطاع - بمعونة حظه من العربية - أن يبلغ ما شاء بالدراسة والمطالعة، لأنه يقرأ قراءة صحيحة، ويفهم فهما صحيحا»⁽⁴⁾ والهدف الذي أراد الإبراهيمي أن تنتهي إليه المرحلة الابتدائية هو أن يخرج التلميذ: «برأس مال عظيم من دينه وقضائل دينه، وقوميته ولغته وتاريخه»⁽⁵⁾، وهي الأمور التي كان يفتقر إليها الفرد الجزائري افتقارا شديدا، جعله عاجزا عن مقاومة الغزو الفكري المسلط عليه، وتسليحه بهذه العناصر الحية يؤهله لأن: «يكون عضوا حقيقيا من أمتة، صالحا للحياة لها وبها

(1) - الإبراهيمي. آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 156

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 156

(3) - المصدر نفسه، ج3، ص 156

(4) - المصدر نفسه، ج3، ص 156

(5) - المصدر نفسه، ج3، ص 156

ومعها، نافعا محبا محبوبا، حريصا على ذلك، عاملا له، داعيا إليه، وهذه هي الغاية من التربية الصالحة، والتعليم النافع»⁽¹⁾.

وقد قدر الإبراهيمي لهذه المرحلة أهميتها النفسية فيناها على أساس سيكولوجي متين، حين عدها تمهيدا أوليا لسن المراهقة الذي يستقبله الطفل بعد تجاوزه سنوات التعليم الابتدائي فيجد نفسه مهيا لها تهيئة تربوية هادفة.

ذلك أن سن المراهقة هو «عهد الإحساس بجمال الحياة وعهد النزوات وتنبه الغرائز القظرية»⁽²⁾، وهذا التعليم الهادف هو الذي يحمي المراهق من مضاعفات هذه المرحلة الخطيرة، ويقيه مزالق الانحراف، ويهذب غرائزه، ويوجهها نحو الأعمال الجادة النافعة التي تمتص طاقته وتصرفها فيما يعود بالخير عليه وعلى مجتمعه. فالعلم الذي أخذ منه بطرف يفتح له ميادين البحث والاطلاع فيملا فراغه العقلي ويشبع فضوله العلمي، والتربية الدينية التي زودته بالفضائل وراضته على الشعائر الدينية تملأ فراغه الروحي⁽³⁾.

ولئن كان الإبراهيمي قد أشار إلى المواد المدرسة الكفيلة بتغطية حاجات الطفل العقلية والنفسية في مرحلة التعليم الابتدائي، فإنه لم يغفل عن تحديد أحسن الوسائل التي تمكن المعلم من إيصال المعلومات إلى الطفل، وتسهيل عليه عملية الفهم والاستيعاب وتخلق له جوا نفسيا مناسبا لتلقي العلم والانتفاع به.

د - اعتماد أسلوب اللين في التربية

وفي هذا الإطار، يرشد الإبراهيمي المعلمين إلى أن يتوخوا أنجع وسيلة

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 156

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 156، 157

(3) - المصدر نفسه، ج3، ص 156

لكسب ثقة الطفل وحبه حتى يتمكنوا من تمرير المعلومات والتوجيهات فيقول: «إن من الطباع اللازمة للأطفال أنهم يحبون من يتحب إليهم، ويميلون إلى من يحسن إليهم، ويأمنون بمن يعاملهم بالرفق، ويقابلهم بالمشاشة والبشر، فواجب المربي الصادق المخلص - إذا أراد أن يصل إلى نفوسهم من أقرب طريق، وأن يصلح نزعاتهم بأيسر كلفة، وأن يحملهم على طاعته وامتنال أمره بأسهل وسيلة هو أن يتحب إليهم، ويقابلهم بوجه متهلل، ويبادلهم التحية بأحسن منها... فإذا أحبوه أطاعوه وامتثلوا أمره، وإذا أطاعوا أمره وصل من توجيههم في الصالحات إلى ما يريد، وتمكن من حملهم على الاستقامة وطبعمهم على الخير والفضيلة»⁽¹⁾.

ونجاح المعلم في تحبيب المدرسة والعلم إلى التلميذ خطوة هامة جدا في طريق الإعداد التربوي: «إن الصغير لا يفلح في التربية ولا ينجح في القراءة إلا إذا أحب معلمه كحبه لأبيه أو أعظم، وأحب المدرسة كحبه لبيت أبيه أو أشد⁽²⁾». فتوفير الراحة النفسية للتلميذ عامل أساسي في منهج الإبراهيمي، لذلك نجده يشدد في تحذير المعلمين من استعمال الشدة مع الأطفال، وأخذهم بالرهبة والعنف التي تخلق في أنفسهم حالة من الاضطراب والهلع الذي يمنعهم من الانتفاع بما يتعلمونه، ويفرس في نفوسهم بعض الرذائل التي تكبر معهم فتفسد عليهم مستقبل حياتهم: «ليحذر المعلمون الكرام من سلوك تلك الطريقة العتيقة التي كانت شائعة بين معلمي القرآن، وهي أخذ الأطفال بالقسوة والتهريب في حفظ القرآن، فإن تلك الطريقة هي التي أفسدت هذا الجيل وغرست فيه رذائل مهلكة. إن القسوة والإرهاب والعنف تحمل الأطفال على الكذب والتفاهق، وتفرس

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشر الإبراهيمي، ج3، ص 162

(2)- المصدر نفسه، ج3، ص 162

فيهم الجبن والخوف، وتبغض إليهم القراءة والعلم. وكل ذلك معدود في جنائيات المعلمين الجاهلين بأصول التربية»⁽¹⁾.

وفي إطار المعاملة النفسية الحكيمة للتلاميذ أيضا يوصي الإبراهيمي المعلمين بأن يجتهدوا في الاحتكاك بتلاميذهم، والتقرب منهم لمعرفة طباعهم وميولهم، كخطوة أولى نحو فهم تركيبية نفسياتهم وتفسير ردود أفعالهم ثم الانطلاق من هذه النقطة لتهديب تلك الميول إذا كانت منحرفة، وتشجيعها وتنميتها إن كانت تعبر عن مواهب فطرية: «ليدرس المعلم ميول الأطفال بالاختلاط بهم، وليكن بينهم كآخ كبير لهم يفيض عليهم عطفه، ويوزع بشاشته ويوزع بينهم نصائحه، ويرد الناد⁽²⁾ منهم عن المحجة برفق. إن درس الميول يمكن المعلم من إصلاح الفاسد منها، ومن غرس أصدادها من الفضائل في نفوسهم»⁽³⁾.

هـ - طريقة التدريس:

فإذا تجاوزنا العلاقة بين التلميذ والمعلم على المستوى النفسي وانتقلنا إلى المادة المدرسة، وجدناه ينصح المعلمين أن يلجأوا إلى تلقين التلاميذ - في أول أمرهم - أبسط القواعد في أسهل التراكيب⁽⁴⁾، ثم يكثر من التمارين التطبيقية التي تساعد على سرعة الفهم وترسيخ المعلومات في أذهانهم، والتدرج بهم من المادي الملموس إلى المعنوي المعقول، ثم التركيز على إبراز المعنى فيما يقرؤون حتى لا يكتفوا بحفظ الألفاظ دون أن تقوى عقولهم على فهم المقصود منها، وهو ما

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 163

(2) - الناد: من تد إذا نفر وذهب على وجهه شاردا (الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص 1652)

(3) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 163

(4) - المصدر نفسه، ج 1، ص 128

عبر عنه الإبراهيمي بقوله: «إيثار العلم المفهوم على العلم المحفوظ»⁽¹⁾، وتدريبهم على التعبير الحر، وتشجيعهم على ارتجال الكلام حتى يتخلصوا من الخجل الذي يعقد ألسنتهم ويورثهم علة الحصر عند الكبر،⁽²⁾ وترويضهم على الإنشاء حتى تظهر المواهب الأدبية وتجد متنفسا لها وتشق طريقها في الحياة منذ وقت مبكر.

و - أهمية الأخلاق والقُدوة في التربية:

يفرد الإبراهيمي للحديث عن أهمية الأخلاق الفاضلة وأهمية القدوة في العملية التربوية جانبا مهما في برنامجه. حيث نجده لا يفتأ يؤكد على الضرورة القصوى التي تكتسبها تنشئة التلاميذ على الخصال الحميدة، وحملهم على التخلق والتمسك بها، واعتبارها جزءا مهما بل استراتيجيا من عملية التربية والتكوين.

فهو يؤمن إيمانا عميقا بالدور الهام الذي تلعبه الأخلاق الفاضلة في صياغة الشخصية السليمة المتوازنة، والعلاقة الجدلية التي تربطها بالعلم سلبا وإيجابا. وبما أنه كان يسعى من خلال برنامجه إلى إعداد جيل صالح ينفع الأمة بعلمه وينتفع به هو، فقد ركز على الجانب الأخلاقي ليحقق هذا الهدف، ورفع شعار (التربية قبل التعليم) فقال للمعلمين: «احرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، واجعلوها حاديتكم في تربية هذا الجيل الصغير، وهاديكم في تكوينه، وهي: أن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيبته في الحياة من نقص في العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص في

(1). الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 79

(2). المصدر نفسه، ج 1، ص 128

الأخلاق، فمنها كانت الخيبة ومنها كان الإخفاق»⁽¹⁾.

وهو يبني هذه القاعدة التربوية على أساس أن الأخلاق هي التي تكوّن الضمير الحي في الإنسان فتوجه سلوكه نحو غايات سامية وتحول دونه ودون الانسياق لأهوائه وشهواته على حساب واجبه، وعلى أساس أن العلم إذا تجرد من الأخلاق أصبح سلاحاً خطيراً في يد صاحبه، تتحكم فيه النزوات، وتسخره المصالح الشخصية، فلا يترتب عنه إلا المفاسد والموبقات: «إن العلم لم يته مفسداً عن الإفساد، ولم يزغ مجرماً عن الإجرام، ولم يمت في نفوس الأقوياء غرائز العدوان والبقي على الضعفاء، بل ما زاد المتجربين من الفضيلة إلا ضراوة بالشئ، وتفننا في الإثم، فاجعلوا الفضيلة رأس مال نفوس تلامذتكم واجعلوا العلم ربها»⁽²⁾.

وهذه الأخلاق الفاضلة ليست مادة علمية تدرّس، وإنما هي معاني نفسية ينقلها المعلم إلى التلاميذ عن طريق تشجيعهم على الالتزام بها، وتحبيبها إلى أنفسهم وبيان فوائدها على الفرد والمجتمع، ثم عن طريق القدوة، وهي الأسلوب الأمثل الذي يراه الإبراهيمي كفيلاً بفرس الفضائل، في نفوس التلاميذ، لذلك نراه يلج على المعلمين أن يلزموا أنفسهم بالشمائل الحميدة، وأن يجتهدوا في تمثيلها في حياتهم العامة وسلوكهم اليومي، حتى يترجموا نصائحهم إلى واقع حي من الأفعال فيكون وقعها في نفوس التلاميذ أكثر تأثيراً، وإقبالهم على التحلي بها أسرع، واقتناعهم بجودها أعمق: «ثم احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال، منطبقاً على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال، فإن

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 291

(2) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 159

الناشيء الصغير مرهف الحس، طلعة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم، وإنه قوي الإدراك للمعاني والكمالات، فإذا زينت له الصدق، فكونوا صادقين، وإذا حسنتم له الصبر، فكونوا من الصابرين، واعلموا أن كل نقش تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشا في نفوسكم فهو زائل⁽¹⁾.

وهو يحذرهم من الوقوع في التناقض بين الأعمال والأقوال أمام التلاميذ الذين لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من سلوك معلمهم، فكل خطأ من المعلم يترك أثره السلبي في نفسية التلاميذ الذين تبدأ ثقتهم فيه تتزعزع، مما يعود بالآثار الوخيمة على العملية التربوية من أساسها: « فاحذوا الظهور بمظهر المستخف بالدين، ولو في فلتات اللسان، فإن لكل فلتة ولكل كلمة تصدر منكم أثر في نفوس تلاميذكم، لأنكم محل القدوة عندهم، ولأن زمنهم يتبرع بالباقي، فإذا وجد العون منكم كان أجود بالشر من الريح المرسلة⁽²⁾ ».

ز - الاهتمام بالمعلمين:

المعلم عند الإبراهيمي هو العصب المدبر لحركة التعليم⁽³⁾ لذلك كان الواجب يقتضي الاهتمام به وتكوينه تكوينا صالحا يجمع بين القدرة العلمية والفضائل الأخلاقية⁽⁴⁾، وقد أبدى الإبراهيمي في كتاباته حرصا بالغاً على انتقاء المعلمين الذين يشرفون على التعليم العربي الحرف في الجزائر، وعد ذلك شرطا ضروريا لنجاح هذه الحركة التعليمية، وبلوغ أهدافها، ويأتي احتفاله بالمعلم من إيمانه

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر ص 291

(2) - المصدر نفسه، ص 298

(3) - المصدر نفسه، ص 306

(4) - المصدر نفسه ص 239

بالدور العظيم الذي يلعبه في العملية التربوية لكونه الواسطة التي تنتقل التربية والعلم عبرها إلى التلميذ.

وكان يرى أن مهمة المعلم في تربية الأجيال أشرف وأعظم من مهمة الملوك في سياسة الرعية، لأن صناعة مستقبل الأمة مرهون بما يبذلونه من جهود في إعداد أبنائها: «إنهم ودائع الأمة بين أيديكم، سلمتهم إليكم أطفالا، لتربوهم إليها رجالا، وقدمتهم إليكم هياكل لتتنفخوا فيها الروح وألفاظا لتعمروها بالمعاني، وأوعية لتملأوها بالفضيلة والمعرفة»⁽¹⁾.

لذلك كان يهيب بالمعلمين أن يعوا خطورة المسؤولية التي تقع على عاتقهم، وأن يدركوا أنهم في ميدان جهاد يحاربون فيه الجهل والامية والآفات الاجتماعية والطباع الفاسدة والأخلاق المنحرفة، والمؤامرات الاستعمارية ليمهدوا لأمتهم طريق الحياة الفاضلة، وسبل التحرر والانعتاق: «ها أنتم هؤلاء تبوأتم من مدارسكم ميادين جهاد. فاحرصوا على أن يكون كل واحد منكم بطل ميدان، وها أنتم خلفتم مرابطة الثغور من سلفكم الذين حملوا الدين والدنيا... فاحذروا أن تؤتى أمتكم من ثغرة يقوم على حراستها واحد منكم.... واعلموا أنكم عاملون، فمستولون عن أعمالكم، فمجزيون عنها من الله ومن الأمة ومن التاريخ ومن الجيل الذي تقومون على تربيته كيلا بكيل، ووزنا بوزن»⁽²⁾.

ح - دور البيت في التربية:

البيت هو المحضن الأول الذي يفتح للطفل فيه عينيه على الحياة. ومنه يأخذ المبادئ الأولية للحياة الاجتماعية، فيتعلم اللغة ويدرج على تقاليد

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 161

(2) - الإبراهيمي، عبور البصائر، ص 288

مجتمعه وعاداته وأخلاقه. وقد أثبتت الدراسات النفسية الحديثة أن الملامح الأساسية لشخصية الإنسان ترسم خلال طفولته المبكرة، وأن السلوك الاجتماعي الذي يأخذه من المنزل يبقى ثابتاً مدى العمر⁽¹⁾، لذلك كان للبيت دوره الأساسي في العملية التربوية، فعند الأمم المتحضرة يجرى تحضير الطفل للمدرسة في البيت، وبعد التحاقه بالمدرسة تكون هناك عملية تكامل بينهما في سبيل تجنب الطفل بعض التناقضات التي قد تؤثر على تكوينه التربوي والعلمي يقول إبراهيمي: «إن البيت عند الأمم الحية هي أخت المدرسة، كلتاها مكملتان للأخرى، فالتميز بينهما يتقلب بين عاملين من عوامل التنقيف والتهديب»⁽²⁾.

غير أن الأسرة في الواقع الجزائري - الذي كان يعاني الجهل والفقر والمرض وألوان الإذلال والاستعباد - لم تكن قادرة على توفير الجو التربوي المناسب للطفل، لأن المجتمع كله كان يفتقر إلى العلم الذي يصح الفكر ويقوّم السلوك، وقد عبر إبراهيمي عن ذلك بقوله: «أما البيت عند أمتكم فهي ضرة المدرسة، ما تبنيه هذه تهدمه تلك، وما تزرعه هذه تقلعه تلك، لأن قعائد البيوت جاهلات، وقعائد البيوت هي قواعدها، وويل لبيوتنا من هذه القواعد ما دمن جاهلات»⁽³⁾.

فكان الواجب على المدرسة العربية أن تضاعف مجهوداتها لتتمكن من تغطية هذا النقص وسد الفراغ فيه، وأن يضع المعلمون هذه القضية في الاعتبار أثناء تأديتهم لواجبهم التربوي، يقول إبراهيمي موجهاً حديثه للمعلمين: «ها أنتم

(1). الشنوت، خالد أحمد، «التربية في البيت المسلم»، مجلة التربية، الدوحة، قطر، ج 105، ص 22، يونيو 1993، ص 445.

(2). إبراهيمي، أنار محمد البشير إبراهيمي، ج 3، ص 163.

(3). المصدر نفسه، ج 3، ص 163.

هؤلاء تربعتم من مدارسكم عروش ممالك، رعاياها أبناء الأمة وأقلام أكابدها،
تديرون نفوسهم على الدين وحقائقه، وألستهم على اللسان العربي ودقائقه....
وتروضونهم على الاستعداد للحياة الشريفة بعد أن تجتثوا من نفوسهم بقايا آثار
المنزل الجاهل، والآب الغافل»⁽¹⁾.

وهو يعلم أن هذه المسؤولية المضاعفة سترهق المعلمين وتزيد في أتعابهم،
لكنها ضريبة الظرف التاريخي الاستثنائي الذي كانت تعيشه الجزائر في ظل
الاحتلال فيقول لهم: «وارحمنا لكم من هذه الحالة وهذا الموقف، ولا أب يؤيد
ويناصر، ولا أم تغين وتؤازر، ويا بؤس للإسلام والعربية بهذه الديار»⁽²⁾.

ط - تعليم البنات المسلمة:

تحدث إبراهيمي عن تعليم المرأة الجزائرية باعتبارها نصف
المجتمع، ثم لكونها مربية الأجيال وحاضنة الرجال، والقيمة على البيت المسلم،
والمؤتمنة على أخلاق الأمة، وقد تعرض لقضية تعليم المرأة في ضوء الواقع الذي
كانت تعيشه في المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال، حيث كانت موجة التعليم
الفرنسي تحاول أن تصطاد البنات المسلمات لصياغة شخصيتهن وفق أهداف
إستعمارية معلومة، وفي المقابل كانت هناك قيود التقاليد القاسية التي تحرم تعليم
المرأة والعقليات المتحجرة التي لا تستسيغ هذه الفكرة من أساسها، في ظل هذا
الواقع قال إبراهيمي: «إن الأمة كالطائر لا تطير إلا بجناحين، وجناحاها هما
الرجل والمرأة فالأمة التي تخص الذكر بالتعليم تريد أن تطير بجناح واحد، فهي

(1) - إبراهيمي، عبرن البصائر، ص 290

(2) - إبراهيمي، آثار محمد البشير إبراهيمي، ج 3، ص 163

واقعة لا محالة»⁽¹⁾.

لذلك، شجع تعليم المرأة وحث عليه، وأكد أن التمسك بالدين الإسلامي واتخاذ منهج حياة لا يمكن أن يتم إلا بالعلم، والمجتمع الجزائري في حاجة ماسة إلى أن تكون نساؤه على مستوى عال من الوعي الديني والحضاري ليقمن بالمسؤولية الملقاة على عاتقهن في تحقيق النهضة. ونظرا لمكانة المرأة في المجتمع الإسلامي ألزمها الله: «أن تتعلم كما ألزم الرجل أن يتعلم، لأنه سوى بينهما في التكليف، والتكاليف لا تؤدى إلا بالعلم، وأوجب عليهما العشرة، والعشرة لا تصلح إلا على العلم وجعلها مغرسا للنسل، وغارسة للخصائص فيه، ومتعدها له بالسقي والإصلاح، وكل هذا لا يتم إلا بالعلم»⁽²⁾.

فإذا تعطلت هذه الوظائف، وعجزت المرأة عن القيام بها بسبب جهلها وحرمانها من التعليم، دفع المجتمع ثمن ذلك غالبا سواء في العلاقات الاجتماعية أو الأجيال التي تخرجت من البيوت التي تستقر بها نساء جاهلات: «فإذا جهلت المرأة أتعبت الزوج، وأفسدت الأولاد، وأهلكت الأمة»⁽³⁾.

لذلك كله خص الإبراهيمي البنات المسلمة ببرنامج تعليمي راعى فيه وضعيتها الاجتماعية، ووظيفتها الطبيعية، فكانت البنات يشاركن الأولاد في سنوات التعليم الابتدائي الثلاث الأولى، ثم ينفردن بأقسام وبرامج خاصة بهن. يتلقين فيها إلى جانب المواد العلمية أصول التربية الإسلامية والتدبير المنزلي⁽⁴⁾.

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 239

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 46

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص 46

(4) - المصدر نفسه، ج4، ص 239

وكان الإبراهيمي يعلق على تعليم المرأة الجزائرية أمالا عريضة، ويرجو أن تكون سندا لأخيها الرجل في المعركة الحضارية التي كان يخوضها الشعب الجزائري لإثبات وجوده الحضاري، والتصدي لمحاولات الغزو والاحتواء الاستعمارية، اذك ثار ثورة شديدة عندما نشرت إحدى الجرائد الموالية للاستعمار الفرنسي مقالا تقبح فيه إقبال جمعية العلماء على تعليم البنات الجزائرية، وتتهمها بإهانة الحرمات والأعراض، وتعيب عليها تعريض البنات المسلمة وشرفها للشبهات ومزالق الرذيلة وإخراجها من البيت، فأكد الإبراهيمي في رده القاسي والجرىء على هذه التهم، أن هذه الافتراءات هي لا محالة من وحي الاستعمار لأنه متشائم من حركة التعليم العربي الحر الصاعدة في الجزائر: «ومتشائم - على الخصوص - بتعليمها البنات المسلمة، لأن نتيجته تكوين بنت صالحة، تصبح غدا زوجة صالحة، وبعد غد أما صالحة، وهاله أن تعم البيوت - ولو بعد حين - بالصالحات، فيلدن جيلا صالحا صحيح العقائد، متين الإيمان، قويم الأخلاق، طموحا إلى الحياة، فتطول به غصته، ثم تنتهي به قصته»⁽¹⁾.

فتعليم البنات الجزائرية عند الإبراهيمي، وإعدادها للحياة في إطار شخصيتها الإسلامية العربية، وتنشئتها على الفضائل وحسن التدبير يجعلها سلاحا قويا وأداة من أدوات مقاومة الاستعمار، لذلك كان يعارض أن تتعلم تعليما أجنبيا يجز عليها الوبال وينسيها ماضيها ويستعديها على دينها، ويحقر أمتها في نظرها، فتلد أولادا على شاكلتها، يكونون نقمة على مجتمعهم، ولعنة على أبناء قومهم. يقول موجهها حديثه لمن انتقد جمعية العلماء لتعليمها البنات المسلمة: «مالهم عميت أبصارهم وبصائرهم عن هذا السيل من التعليم

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 428

الاستعماري الجارف المتوجه إلى البنت المسلمة على الخصوص، لينتزعها من الخير، وينزع عنها لباس الفضائل الإسلامية»⁽¹⁾.

وهو يعد التقصير في تعليم البنت الجزائرية - تعليما إسلاميا عربيا هادفا - جنابة في حقها، بعد أن أصبح المتعلمون من الرجال يأنفون من الاقتتران بها، ويفضلون الزواج من الأجنبية، مع ما يترتب على هذه الظاهرة من مضاعفات خطيرة على المجتمع الجزائري، وهو لا يلوم هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يحققوا في حياتهم الزوجية نوعا من التكافؤ الثقافي وإنما يتوجه باللوم للقائمين على شؤون المجتمع بالتعليم والتثقيف والتوجيه: «لا نلومهم وإنما نلوم أنفسنا، إذ لم نأخذ الأمر عدته، ولم نحفظ لعوايقه البعيدة، فنعلم البنت تعليما إسلاميا قويا بروحه، قائما بفضيلته، واسععا بمعانيه، ترغم به هذا الشباب الأخرق على الرجوع إلى أصله، ولا يقل الحديد إلا الحديد»⁽²⁾.

ي - أهداف التربية والتعليم:

لكل برنامج تربوي تعليمي أهدافا يسعى إلى تحقيقها لإحداث التغيير المنشود في المجتمع من خلال تطبيقه. وغالبا ما تكون الأهداف المتوخاة من العملية التربوية نابعة من معطيات واقع الأمة ومعبرة عن مثنها العليا ومجسدة لطموحاتها المستقبلية.

وإذا كانت الأمم المتقدمة التي قطعت أشواطا بعيدة في التطور تجعل الغاية من جهودها التربوية المحافظة على استقرار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة، وإعداد الأجيال الصاعدة للتمكن لهذه الأوضاع وتقويتها، فإن

(1) - الإبراهيمي، عبود البصار، ص 427

(2) - الجنود نفسه، ص 324

الأمر يختلف تماما بالنسبة للأمم التي تعاني التخلف والتبعية الاقتصادية والسياسية، أو تلك التي تخضع لاستعمار يحتل أرضها ويستعبد شعبها. و ذلك أن الجهود التربوية في هذه الأمم يفرض عليها الواقع أن تتوجه نحو التمهيد لتغيير جذري يقضي على كل العناصر السلبية ويعمل لإيجاد مجتمع جديد. وفي ضوء ما سبق يمكننا تحديد الخط الذي كانت تسير فيه العملية التربوية بالجزائر التي كانت تعيش واقعا مزريا في ظل الاحتلال الفرنسي، يتطلب إعداد جيل متعلم وواع يتحمل مسؤولية نقد الأوضاع المتردية تمهيدا لتغيير الواقع الاستعماري تغييرا جذريا وبناء مجتمع يكون فيه الفرد الجزائري سيد نفسه والمتصرف الوحيد في ثرواته، والموجه لحركة النمو والتقدم فيه.

وقد رسم الإبراهيمي أهداف التربية والتعليم في الجزائر بدقة باعتباره من القيادات البارزة التي تولت مهمة نشر التعليم العربي الحر والتنظير له، وفي ذلك يقول: « ما هي الغاية من المدرسة العربية الحديثة ؟ مادمتا من بناء هذه المدرسة، ومن أول الداعين إليها، والقائدين لحركتها، والواضعين لبرامجها، والمشرفين على كل دقيقة وجليلة فيها، والمعرضين للبلاء في سبيلها - ففينا من الجراءة ما يدفعنا إلى الجواب عن هذا السؤال»⁽¹⁾.

وأول هدف حدده الإبراهيمي هو رفع الأمية عن الأجيال الجزائرية وتزويدها بفكر صحيح وإدراك سليم وأخلاق فاضلة، ووضعها على خط الحياة بتعريفها بهويتها الحضارية من دين ولغة وتاريخ: « الغاية من هذه المدرسة هي تربية هذا الجيل وتعليمه... غاية التعليم هي تفقيهه في دينه ولفته، وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه، تلك الأصول التي جهلها أبائهم فشقوا بجهلها، وأصبحوا غرباء في العالم،

(1) - الإبراهيمي، مبريد الجزائر، ص 303

مقطوعين عنه، لم يعرفوا أنفسهم فلم يعرفهم أحد»⁽¹⁾.

ويعد أن تفتح الأجيال الجزائرية أعينها على الواقع المعيش فتحلله من خلال موقعها، وتتسع آفاق نظراتها إلى الحياة يكون البرنامج التربوي قد بدأ يؤتي ثماره، ويهد السبيل أمام الهدف الإستراتيجي الذي تصوره الإبراهيمي وعده غاية الغايات من التربية وهو إخراج جيل: «متلائم الأنواق، متحد المشارب، مضبوط النزعات، ينظر إلى الحياة - كما هي - نظرة واحدة ويسعى في طلبها بإرادة متحدة، يعمل لمصلحة الدين والوطن بقوة واحدة، في اتجاه واحد»⁽²⁾.

هذا هو الهدف الأسمى الذي كان الإبراهيمي يعمل له بجهد، ويسعى سعيا حثيثا ليوفر له الأرضية المناسبة، ويرى فيه المخرج الوحيد الذي يمكن أن يقدم للجزائر في حالتها المتردية العلاج الشافي لأمراضها، والحل الواقعي لأزماتها مع الاستعمار.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، ناشد الجمعيات والأحزاب الجزائرية التي أسست مدارس تابعة لها، وسارت فيها على برامج تربوية خاصة بها لا تلتقي مع برنامج جمعية العلماء، أن تعدل عن تلك المبادرة وتضم الجهود بعضها إلى بعض حتى لا تفوت على الأجيال الجزائرية فرصة الالتقاء على صعيد واحد، وتحرمهم من ثمرة الوحدة الفكرية والشعورية: «لو رزق الله إخواننا هؤلاء عقولا تزن الأمور بعواقبها ... لعلموا أن الخير كل الخير في الاجتماع، وأن القوة كل القوة في الإتحاد... وأن الثمرات التي نرجوها من المدرسة للجيل الجديد لا تأتي مع هذا التفرق والتشتيت... وأن الجيل الذي تخرجه هذه المدارس المتغايرة المتنافرة لا يأتي

(1) - الإبراهيمي، مبرز البصائر، ص 304، 305

(2) - المصدر نفسه، ص 303

إلا متغائرا متنافرا، لا يزيد شيئا عن خريجي الزوايا في العهد القديم... وبئس الجيل جيل يكون هذا مبلغه من التربية والعلم»⁽¹⁾.

لقد كان الإبراهيمي بعيد النظرة في فلسفته التربوية حينما شدد على توحيد مناهج التربية، و التعليم تحت يد واحدة، فهذه غاية كل الشعوب التي لا تريد لأجيالها أن تمرقها التيارات المختلفة، فتنشأ مطبوعة بطابع تربوي واحد يلعب دورا كبيرا في تقارب أُمزجتها وأفكارها مما يضمن للأمة تماسكا اجتماعيا ضروريا لبقائها واستمراريتها. وقد كانت الجزائر في تلك المرحلة أحوج ما تكون إلى الوحدة والاتفاق منها إلى شيء آخر، والوحدة التي كان الإبراهيمي يأمل أن يحققها عن طريق التربية والتعليم هي الوسيلة الفعالة لمواجهة التحدي الحضاري الشامل آنذاك.

وفي الختام نخلص إلى القول أن جهود الإبراهيمي النظرية والعملية سواء في إحياء اللغة العربية والدفاع عنها، أو في تطوير الصحافة العربية وتفعيل دورها في الجزائر أو في نشر التعليم العربي الحر على أوسع نطاق قد أسهمت كلها في بعث نهضة ثقافية في الجزائر، تجلت بشكل واضح في انتعاش الحركة الأدبية ونموها وازدهار الفكر الجزائري الحديث وتطوره، وانتشار التعليم العربي الذي أنقذ الآلاف من أبناء الجزائريين من براثن الجهل والامية والتشرد، على الرغم من المضايقات الشديدة والاضطهادات المتلاحقة التي كانت تصدر من الاستعمار ضد كل محاولة لتثبيت الحرف العربي في الجزائر، وإعادة الاعتبار لمقومات الشخصية الوطنية.

(1) «الإبراهيمي، ميون البساتر، ص 304، 305

الفصل الثالث
المجال السياسي

لم يكن التغيير الذي مارسه الإبراهيمي في المجال السياسي منفصلا عن المجالين الديني والثقافي، فالرجل لم يكن سياسيا محترفا، وإنما دخل هذا الميدان بدافع من نظرتة التغييرية الشاملة، التي تقتضي منه أن يدلي بدلوه في كل القضايا المصيرية الكبرى التي تهم الشعب الجزائري. لذلك لم يتخذ عمله السياسي شكلا حزبيا كما هو الحال بالنسبة للحركات السياسية، بل كان مرتبطا إلى حد كبير بالأهداف العامة للحركة التغييرية الشاملة، التي كان يباشرها، ومن ثم اصطبغ بصبغة خاصة، استمدتها من هذا المنطلق الفكري الذي يؤمن بتكامل الميادين الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية، لتصل بالتغيير إلى غاياته البعيدة.

وقد شكل العمل السياسي، في ضوء هذه الرؤية، مجالا حيويا هاما من مجالات التغيير عند الإبراهيمي حين عده وسيلة ضرورية للدفاع عن حقوق الشعب، وتأكيد هويته الوطنية، وخدمة قضاياها الكبرى.

نشاط الإبراهيمي السياسي :

لم يكن رجوع الإبراهيمي إلى الجزائر مجرد عودة إلى أرض الوطن بعد طول غربة، بل كان ذلك أول خطوة عملية لتنفيذ بنود مشروع التغيير، الذي تم الإتفاق عليه بينه وبين ابن باديس عام 1913 بالمدينة المنورة، والذي كان يهدف في شكله العام إلى النهوض بالشعب الجزائري، وإعادة الاعتبار لمقومات شخصيته الوطنية، وتحريره من نير الاستعمار.

وكان واضحا، منذ البداية، أن هذا العمل التغييري لا يكتسي بأي وجه من الوجوه صبغة سياسية. فقد كان التركيز فيه بالدرجة الأولى، على الإصلاح الديني والثقافي، وكان ذلك أمرا مقصودا لذاته، لاقتناع الإبراهيمي وابن باديس أن

التربية والتعليم هي الطريقة المثلى لانتشال المجتمع الجزائري من واقعه البائس، وأن دخول الميدان السياسي مغامرة غير محمودة العواقب، بسبب القوة الاستعمارية الطاغية التي لا تتوانى عن توجيه ضربات موجعة وقاضية لكل حركة وطنية، كما فعلت مع الثورات الشعبية خلال القرن الماضي، وباعتبار الجهل الدامس الذي كان الشعب غارقا في ظلماته، مما يقف حاجزا بينه وبين مناصرة من يطالب بحقوقه السياسية.

وكان هذا الاقتناع رائد المصلحين عند تكوينهم لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي أكدت في قانونها الأساسي أنها جمعية علمية تهذيبية لا تمارس السياسة، ولا تتدخل بأي حال من الأحوال في الشؤون السياسية⁽¹⁾، وأن ميدانها الأصلي الذي تعمل فيه هو الدين والعلم.

ويبدو أن نصيحة الشيخ محمد عبده للمصلحين الجزائريين عند زيارته للجزائر في السنوات الأولى من هذا القرن بترك السياسة لأنها من السوس⁽²⁾، ولأنها: « ما دخلت عملا إلا أفسدت»⁽³⁾، والاهتمام بالتربية والتعليم لأنها أضمن وسيلة للوصول إلى الهدف، قد وجدت لها أذنا صاغية لدى العلماء المجددين، بل إنهم أدركوا أن هذا التوجه أنسب لظروف المجتمع الجزائري في ذلك الوقت، والذي كان الوعي الوطني به ما يزال مغمورا تحت أنقاض الجهل والامية والغزو الفكري الغربي، وأن الحكمة تقتضي مهادة الإدارة الاستعمارية وتجنب إثارتها لحين من الزمن، حتى تأمن الحركة التفسيرية على نفسها، وتجد

(1) - خير الدين، محمد، مذكرات، ج 1، ص 123.

(2) - فضلا، محمد الطاهر، دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، ص 82.

(3) - رضا رشيد، تاريخ الأئمة الإمام، ج 1، مطبعة النمار، القاهرة، مصر 1931، ص 827.

متنفسا تمارس فيه نشاطها بعيدا عن المضايقات والملاحقات.

وقد سارت الحركة الإصلاحية في الجزائر على هذا النهج طوال السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى، وهو ما عبر عنه ابن باديس بـ «مسألة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة»⁽¹⁾، وحاولت خلالها أن تتجنب الخوض في كل ماله صلة بالسياسة، وأنصب اهتمامها على تنظيم صفوفها، وترتيب شؤونها الداخلية، وكان الإبراهيمي يعمل في هذا الإطار، فلم يبد عليه أثناء هذه المرحلة ميل إلى العمل السياسي.

غير أن واقع الجزائر الذي كان في تغير مستمر، والوعي الوطني الذي كان في نمو متصاعد بتأثير الحركة الوطنية بشقيها الثقافي والسياسي من جهة، والأحداث العالمية المتوالية من جهة أخرى، فرضا على جمعية العلماء نوعا من التغيير لكي تتجاوب مع متطلبات المرحلة، وتكون في مستوى التطلعات الشعبية، فدخلت المعترك السياسي عام 1936 بمشاركة الفعالة والواسعة في المؤتمر الإسلامي.

كانت المشاركة في المؤتمر الإسلامي هي أول عمل سياسي بارز قام به الإبراهيمي منذ عودته إلى الجزائر. وقد ظهر خلاله بشكل واضح بما بذله من جهود كبيرة مع إخوانه العلماء في مسائل التنظيم والإعداد والاتصال⁽²⁾، وتوجها بالانضمام إلى الوفد الذي انبثق عن المؤتمر، واتجه إلى باريس لتقديم مطالبه لحكومة الجبهة الشعبية.

(1) - ابن باديس، عبد الحميد، «نصيحة الأستاذ الإمام لأهل الجزائر وتونس»، الشهاب، مج 11، ج 6، أوت 1935، لسطنة، ص 365.

(2) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 168، 183.

وقد شكل هذا الحدث نقطة تحول في مسار الإبراهيمي، الذي غير نظrote لأسلوب المعاملة الذي كان يتبناه مع الاستعمار الفرنسي، بسبب خيبة الأمل الشديدة التي عا د بها وفد المؤتمر الإسلامي من فرنسا، بعد أن رفضت الحكومة الفرنسية الاستجابة لمطالبه، وأيقن أن الشعب الجزائري، الذي علق الآمال العريضة على هذه المبادرة، سيكون له رد فعل مناسب إزاء الموقف الاستعماري. ومن ثم، وجب على أقطاب جمعية العلماء أن يكونوا في مستوى هذا الموقف، فيعمقوا في الشعب شعور الاعتماد على النفس، والإحساس بالذات⁽¹⁾، والاستعداد للعمل الشاق الطويل، في سبيل الحصول على الحقوق التي آمن أنها لن تأتي عن طريق المطالبة.

وقد كان هذا الشعور الجديد، هو ملهم الإبراهيمي في موقفه الثابت من الاقتراح الذي عرضته عليه الإدارة الاستعمارية عشية الحرب العالمية الثانية، عندما دعتة للحديث في الإذاعة ليشرح الموقف الفرنسي في الحرب، ويحلب لها تأييد الشعب الجزائري⁽²⁾ فرفض بشدة وكان من نتائج ذلك نفيه إلى أفلو عام 1940، ويقاؤه تحت الإقامة الجبرية لمدة ثلاث سنوات .

وفي ضوء ما سبق، نستطيع أن نقول أن الحياة السياسية للإبراهيمي قد تميزت في مرحلتها الأولى، أي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى بداية الحرب العالمية الثانية، بالهدوء والابتعاد عن المعترك السياسي. وكان ذلك نابعا من اقتناع واضح، ولم يميز هذه المرحلة سوى اشتراكه في المؤتمر الإسلامي، ورفضه للعرض الفرنسي بالحديث في الإذاعة.

(1). البلي، محمد، ابن باديس وعروة الجزائر، ش. و. ن. ت، الجزائر، ط2، 1980، ص 26، 27

(2). مهناوي، محمد، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص 52

أما المرحلة الثانية، فتبدأ بإطلاق سراحه من منفاه حتى قيام الثورة الجزائرية. وتعد هذه المرحلة بحق، من أخصب المراحل السياسية في حياة الإبراهيمي. فقد شهد خلالها الصراع بين الاستعمار الفرنسي والحركة الوطنية اشتدادا كبيرا. وكان لجمعية العلماء، التي تولى الإبراهيمي رئاستها بعد وفاة عبد الحميد بن باديس، أثر عميق في المجتمع الجزائري، وصوت مسموع في أوساط الجماهير، فكان طبيعيا أن تسهم بقسط وافر في تحمل أعباء هذا الصراع، وتوجيهه لخدمة التطلعات الشعبية وإذكاء الحماس الوطني، فدخل الإبراهيمي بذلك الميدان السياسي من أوسع أبوابه، وأصبح قائدا سياسيا، وزعيما روحيا للشعب الجزائري⁽¹⁾.

وقد افتتح نشاطه السياسي بمشاركته في الإدلاء برأيه - بوصفه رئيسا لجمعية العلماء - لدى اللجنة التي تكونت إثر إعلان ديغول عن إصلاحات الهيئة الفرنسية للتحرر الوطني في 12 ديسمبر 1953⁽²⁾ وأعلن خلال مقابلته لهذه اللجنة عن رفضه لمقترحات الحكومة الفرنسية التي لا تعدو أن تكون إحياء لمشروع بلوم - فيوليت⁽³⁾ الذي تجاوزه الزمن، وقدم بعض الاقتراحات بدلها⁽⁴⁾، والتي تتماشى مع الواقع السياسي الجزائري الجديد الذي تمخضت عنه الحرب العالمية الثانية،

(1) - مرناض، عبد الملك، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 141

(2) - ابن العفرون، عبدالرحمن بن إبراهيم، الكفاح القومي والسياسي، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر - 1984، ص 248

(3) - مشروع بلوم فيوليت: هو اقتراح بقانون وضعته حكومة الجبهة الشعبية، وقدم إلى مجلس النواب الفرنسي بتاريخ 30 ديسمبر 1936، وينص على الموافقة على منح بعض الجزائريين نفس الحقوق السياسية التي يتمتع بها الفرنسيون مع السماح لهم بالاحتفاظ بأعراقهم الشخصية الإسلامية (المخطيب، د. أحمد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 243)

(4) - ابن العفرون، عبد الرحمن بن إبراهيم، الكفاح القومي والسياسي، ج2، ص 257، 258

والذي تميز في مظهره الأساسي بالاتجاه القوي نحو المطالبة باستقلال الجزائر، وانفصالها عن فرنسا.

غير أن الإدارة الاستعمارية كعادتها، تجاهلت كل المطالب الوطنية التي قدمتها جمعية العلماء والأحزاب الجزائرية، وأصدرت قانون 7 مارس 1944، الذي لم يأت بشيء جديد، وإنما أعاد على الأسماع نغمة إلغاء القوانين الاستثنائية، ومساواة الجزائريين بالفرنسيين أمام القانون، ومنح الجنسية الفرنسية لبعض الجزائريين، مع السماح لهم بالاحتفاظ بالأحوال الشخصية الإسلامية.

وقد قوبل هذا الأمر باحتجاج شعبي واسع، وتنفيد قوي من طرف القوى الوطنية التي رفضته رفضاً قاطعاً، واعتبرته رجوعاً إلى عصور الظلم التي تكرر التمييز بين الجزائريين، وتمهد لإدماجهم في الكيان الفرنسي، في وقت تتطلع فيه جموع الشعب إلى نيل الاستقلال والتخلص من أفة الاستعمار.

لقد تجسد هذا الرفض في تشكيل جبهة «أحباب البيان والحرية» في 14 مارس 1944، والتي ضمت إلى جانب جمعية العلماء، ممثلة في رئيسها الإبراهيمي، بعض النواب وحزب الشعب الجزائري. ونشطت هذه الحركة بعد تشكيلها نشاطاً كبيراً، وسعت إلى جمع الشعب الجزائري، وتوحيد صفوفه حول مطالبه المشروعة، فانضمت إليها أعداد كبيرة من الأتباع بلغت خمسمائة ألف شخص، وأصبح لها حوالي مائة وخمسة وستون فرعاً في جميع أنحاء الوطن⁽¹⁾. كما عقدت مؤتمراً في جانفي 1945، طالبت فيه بإلغاء نظام البلديات المختلطة والحكم العسكري في الجنوب، وجعل اللغة العربية لغة رسمية. وتلا ذلك،

(1) - سعد الله، د. أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، دار تابع للطباعة، القاهرة، ط2، 1977، ص 241.

إجتماع آخر في مارس 1945 طالب فيه المجتمعون بإطلاق سراح مصالي الحاج، وتكوين برلمان جزائري، وحكومة جزائرية⁽¹⁾.

وكانت السلطات الاستعمارية التي لم يدر بخلاها أبدا أن تتخلى عن الجزائر، أو تتنازل للجزائريين عن بعض الحقوق الطبيعية - تنظر إلى هذه الحركة بعين الريبة، وتتحين الفرصة للقضاء عليها، ولم يمنعها من ذلك سوى ظروف الحرب العالمية الثانية، التي كانت تستنزف جهودها، وتستقطب اهتمامها، وتجعلها تسكت على تطور الأحداث في الجزائر على مضض، في انتظار أن تضع الحرب أوزارها، وتستعيد الدولة الفرنسية سيادتها على أرضها.

وقد كشفت عن هذه النية بشكل سافر عند اندلاع حوادث 8 ماي 1945 الأليمة، وانتهزت السلطات الفرنسية هذا الجو المشحون بالرعب لتصدر أوامرها بحل حركة «أحباب البيان والحرية» التي كانت تزعمها بمطالبها الاستقلالية، ولتزج بزعمائها في السجن. ودخل إبراهيمي المعتقل السياسي، ووجهت إليه تهمة التحريض على الثورة، حيث أرجعت الوثائق الفرنسية أسباب الحادثة إلى: «حركة عربية إسلامية قائمة على الانفصال بين الجزائر وفرنسا»⁽²⁾، تتزعمها جمعية العلماء. وقد مكث فيه أحد عشر شهرا، ساءت خلالها حالته الصحية كثيرا، فكان يؤخذ تارة إلى السجن، وأخرى إلى المستشفى العسكري⁽³⁾، إلى أن صدر قرار العفو عنه وعن سائر المعتقلين السياسيين في مارس 1946.

وبعد خروجه من السجن، واصل إبراهيمي نضاله السياسي على صفحات

(1) - سعد الله، د. أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، ص 242، 243.

(2) - المصدر نفسه ص 262.

(3) - إبراهيمي، في قلب المعركة، ص 96.

جريدة «البصائر» التي عادت إلى الظهور، وكانت لهجته مع الاستعمار الفرنسي حادة وقاسية. كما كانت اتصالاته بالأحزاب الجزائرية دائمة. ولعل أبرز ما ميز نشاط الإبراهيمي السياسي بعد حوادث 8 ماي 1945، تشكيل «الهيئة العليا لإعانة فلسطين».

حيث وجه عبر جريدة «البصائر» نداء إلى الأمة، وسعى إلى جمع الأحزاب الجزائرية ليكون معها «الهيئة العليا لإعانة فلسطين». وقد ضمت كلا من الإبراهيمي، والطيب العقبي، وفرحات عباس، ومصالي الحاج، وإبراهيم بيوض. وبدأت أعمالها بإرسال برقية تأييد إلى أمين الجامعة العربية عبد الرحمن عزام، وبرقية تنديد واستنكار إلى جمعية الأمم المتحدة⁽¹⁾، ثم شكلت لجنة تنفيذية لجمع الأموال لصالح مسلمي فلسطين.

وفي عام 1952 سافر الإبراهيمي إلى باريس بمناسبة انعقاد جمعية الأمم المتحدة بها، وهناك أجرى اتصالات مع الأحزاب السياسية الجزائرية والتونسية والمغربية⁽²⁾ الحاضرة. ودعاهم إلى اجتماع عام تحت رئاسته، تألفت على إثره لجنة أطلق عليها «لجنة الاتحاد والعمل للشمال الإفريقي»، وصدر عنها ميثاق تعهدت هذه الأحزاب بتنفيذ بنوده، والتي تتلخص في متابعة الكفاح ومضاعفته في سبيل تحرير بلدان الشمال الإفريقي، وتنسيق العمل بين هذه الأحزاب لتحقيق الأهداف، والبحث الدوري في حالة شمال إفريقيا في ضوء الحوادث الداخلية وتطورات

(1) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 137.

(2) من الجزائر حضر: حزب البيان، وحزب أنصار الحريات الديمقراطية، ومن تونس: الحزب الحر الدستوري الجديد. والحزب الحر الدستوري القديم، ومن المغرب: حزب الإصلاح المغربي، وحزب الشورى والاستقلال، وحزب الوحدة المغربية وحزب الاستقلال (خير الدين، محمد، مذكرات ج2، ص 161).

السياسة العالمية⁽¹⁾

وقد أكدت هذه اللجنة على الوحدة الروحية والتاريخية والجغرافية والثقافية،
ليكدان المغرب العربي الكبير، وعلى المصالح العليا المشتركة التي تجمعهم باعتبار
النظام الاستعماري الواحد الذي يخضعون له، والذي يمارس ضدهم سياسة
استغلالية بقصد تحطيم كيان هذه الشعوب⁽²⁾ وأسندت رئاسة هذه اللجنة
للإبراهيمي، وسلمت وثيقة ميثاقها إلى السيد ترفيلي، الكاتب العام لجمعية الأمم
المتحدة⁽³⁾.

وخلال إقامته في باريس أيضا، أقام مأدبة عشاء على شرف وفود الدول
العربية المشاركة في اجتماع جمعية الأمم المتحدة، باسم شعبة جمعية العلماء
بباريس، يوم الثلاثاء 29 جانفي 1952⁽⁴⁾. وخطب فيهم خطبة بليغة، شرح لهم
فيها وضعية الجزائر الصعبة في ظل الاحتلال الفرنسي، والآمال التي تعلقها على
الدول العربية لنصرتها، والوقوف بجانبها في نضالها ضد العسف الاستعماري.
ومن بين الشخصيات السياسية البارزة التي حضرت هذه المائدة، أمين عام
جامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام، وفارس الخوري رئيس الوفد السوري،
وفاضل الجمالي رئيس الوفد العراقي، الذي ذكر أن الإبراهيمي زاره في مقر
إقامته بباريس، وعرض عليه أن يطالب بإدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال
منظمة الأمم المتحدة المنعقدة بباريس، فاعتذر عن ذلك، مراعاة للظروف الدولية

(1) - خير الدين، محند، مذكرات ج2، ص 61

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 59، 60

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص 62

(4) - المصدر نفسه، ج2، ص 63، 64

أنذاك⁽¹⁾.

وبعد عودته إلى الجزائر، كلفته جمعية العلماء المسلمين بالسفر إلى المشرق لجلب التأييد المادي والمعنوي لها. وعند قيام الثورة التحريرية كان مقيما بالقاهرة، فابتهج بذلك، واهتزت أعطافه فرحا وغبطة، وعرف أنه قد أصاب كبد الحقيقة يوم أن خاطب الوفود العربية أثناء مأدبة عشاء أقيمت بمناسبة استقلال ليبيا في أوائل الخمسينات حيث قال لهم: «إن الجزائر ستقوم قريبا بما يدهشكم من تضحيات وبطولات في سبيل نيل استقلالها وإبراز شخصيتها العربية الإسلامية»⁽²⁾.

وفي 15 نوفمبر 1954، وجه نداء إلى الشعب الجزائري، حمله كل مشاعر البهجة التي غمرت جوانحه بمناسبة اندلاع الثورة، وذكره فيه بمخازي فرنسا وجرائمها في حقّه، وحيا الثوار المجاهدين على شجاعتهم النادرة التي دفعتهم إلى المواجهة المسلحة، وحذرهم من التراجع: «لأن التراجع معناه الفناء»⁽³⁾، ودعاهم إلى مواصلة الجهاد لأنه السبيل الوحيد الذي يحقق للشعب عزته، ويعيد له أرضه: «إنما هو الكفاح المسلح، فهو الذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنا وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، وبِعُونَهُ وتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الواحد إلى إحدى الحسنيين، إما موت وراءه جنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة»⁽⁴⁾.

وقد اتصلت به جبهة التحرير الوطني وكلفته بتمثيل الجزائر في المشرق

(1) - الجمالي، د. محمد فاضل، «الشيخ البشير الإبراهيمي كما عرفته»، الثقافة، ع 87، ص 123

(2) - المصدر نفسه، ص 123

(3) - الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 17

(4) - المصدر نفسه، ص 19

العربي للتعريف بالثورة الجزائرية، وهذه هي بداية المرحلة الثالثة من حياته السياسية.

نشط الإبراهيمي في هذا الإطار نشاطا كبيرا، تمثل بصفة خاصة في أسفاره العديدة التي غطت معظم البلدان العربية والإسلامية، وفي اتصالاته الواسعة بالشخصيات السياسية البارزة في هذه البلدان، ومنها مصر وسوريا والعراق، والسعودية ولبنان والأردن، والحجاز وباكستان، والهند وأندونيسيا والكويت وليبيا وغيرها.

وقد أتيح له خلال رحلاته المتعددة، أن يلتقي رئيس الوزراء المصري محمد نجيب، والملك السعودي سعود بن عبد العزيز، والرئيس الباكستاني إسكندر ميرزا، ورئيس وزرائها نظم الدين، ووزير خارجيتها محمد ظفر الله خان، كما قابل الرئيس السوري شكري القوتلي، وصاحب العرش العراقي وولي عهده، ورئيس الوزراء العراقي ووزير خارجيتها، والأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الخالق حسونة، إلى جانب جمع كبير من الشخصيات الدينية ورؤساء المنظمات المختلفة.

وكان الهدف من كل هذه اللقاءات، خدمة الثورة الجزائرية، والتعريف بها، وجلب التأييد العسكري والمالي لها، وعلى الرغم مما كان يلقاه في أسفاره من التعب والمشقة، إلا أنه كان يستعذب كل تلك الآلام في سبيل حياة الجزائر وحريتها: « أشهد لقد كنت ألقى في أسفاري أنواعا من التعب فلا يهونها علي ولا يغريني بالإقدام على غيرها إلا يقيني أنها مزيد في قيمة الجزائر وقيمة جمعية العلماء، وكنت ألقى من إخواني في العروبة والإسلام إقبالا علي واحتفاء بي على نسق من فضلهم وتكرمهم، فلا تزدهيني من ذلك إلا أنه احتفاء بالجزائر وجمعية

العلماء، وسعدت بلقاء كثير من عظماء الشرق وعلمائه وأمرائه وقادة الرأي فيه
فما عدت ذلك إلا من سعادة الجزائر وجمعية العلماء»⁽¹⁾

وبعد أن نالت الجزائر استقلالها، عاد إليها إبراهيمي وقد هذه الإعياء،
ونال منه المرض، فلزم بيته مغتبطا بانتصار الشعب الجزائري على أعتى قوة
استعمارية في العصر الحديث، وظل يتابع الأحداث في صمت، إلى أن اضطر إلى
الإدلاء برأيه في الاضطرابات السياسية التي شهدتها الساحة الجزائرية آنذاك،
وفي نظام الحكم الذي تبناه الساسة الذين تسلموا زمام السلطة غداة الاستقلال.
فقد أبى عليه ضميره الحر، ونفسه الأبية المجاهدة أن يظل صامتا، وهو يرى
الحكام الجزائريين يتبنون الاشتراكية كنظرية في البناء والتنمية، ويهمشون
الإسلام الذي حافظ على هوية الشعب الجزائري طوال قرن ونصف قرن من
الإحتلال، وكان ملهمه في الثورة المباركة، فأصدر بيان 16 أفريل 1964، الذي
أنهى فيه باللائمة على القائمين بالحكم في الجزائر، ونصحهم بالعودة في
استلهم النظام السياسي إلى الجذور الإسلامية العربية للشعب الجزائري، فكان
جزاؤه السجن، ثم الإقامة الجبرية والحرمان من الزيارات⁽²⁾، مما فرض عليه عزلة
قائلة إلى أن انتقل إلى جوار ربه.

هذه لمحات سريعة عن أكبر المحطات التي ميزت حياة إبراهيمي
السياسية. فعلى الرغم من أنه لم يكن سياسيا بالمعنى الرسمي المعروف الذي
يقتضي تشكيل الأحزاب ودخول الانتخابات، إلا أنه ترك أثره الواضح في الحياة
السياسية الجزائرية التي دخلها بدافع من غيرته الوطنية، وشعوره الديني، الذي

(1) - إبراهيمي، عيون البصائر، ص 485

(2) - ابن العفرون، عبد الرحمن، « إبراهيمي فقيد العروبة والإسلام »، النفاذ ع 87، ص 411

يحتّم عليه الدفاع عن اللغة والدين والوطن، بشتى الوسائل وفي كل الميادين.

- السياسة عند الإبراهيمي الدلالة والأبعاد :

السياسة في معناها اللغوي مشتقة من: «ساس الأمر يسوسه، إذا دبره وقام بأمره»⁽¹⁾، وجاء في القاموس المحيط : «سست الرعية سياسة أمرتها ونهيتها، وفلان مجرب قد ساس وسيس عليه، أدب وأدب»⁽²⁾. وفي لسان العرب أن مادة السوس بمعنى «الرياسة، يقال ساسوهم سوسا، وإذا رأسوه قيل: سوسوه وأساسوه، وساس الأمر بسياسة قام به، والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه»⁽³⁾.

فالمعنى العام الذي يجمع بين هذه التفسيرات اللغوية، هو أن السياسة تعني الملك والرئاسة، والقيام على شؤون الرعية بالإصلاح والتنظيم. أما في معناها الاصطلاحي فهي لا تبتعد كثيرا عن هذه المعاني اللغوية في المعاجم العربية، وإن كانت تقترب من المعنى الغربي السائد لكلمة «POLITIQUE» الذي يدل على تنظيم الدولة وإدارة الحكم في مجتمع منظم⁽⁴⁾، ويطلق مفهوم السياسة بصفة عامة على فن تدبير الحكم، أو إدارة العلاقات العامة بين الناس، للوصول بالمجتمع إلى الغايات السامية التي يتطلع إليها.

أما الإبراهيمي فإنه يرى أن للسياسة في معناها العام طرفان أساسيان يتجاذبانها: طرف أعلى وطرف أسفل. فالطرف الأعلى هو الذي يتولى ممارسته

(1) - الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ، المصباح المنير، ج2، ص 230

(2) - الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ج 1، ص 295

(3) - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ج6، ص 108

(4) - بناني، د. محمد الصغير، «معالم شخصية الأمير عبد القادر من خلال شعره»، الثقافة، ع 96، نوفمبر - ديسمبر

1986، ص 143

كبار النفوس، وأصحاب الهمم والعزائم الذين يتطلعون دائما إلى الكمال، ويبنون الدول على أساس العدل والنظام الذي يتيح للشعوب مجالا واسعا من الحرية والأمن والرفاهية: «إن أعلى معاني السياسة عند الحاكمين هو تدبير الممالك بالقانون والنظام وحياطة الشعوب بالإنصاف والإحسان»⁽¹⁾.

وأما الطرف الأسفل فهو الذي يأخذ به أصحاب الضمائر الميتة، والنفوس المريضة، التي تتوسل بالسياسة لتصل إلى أغراض خسيسة، ومصالح شخصية، وتجعلها ذريعة للسيطرة والاستعباد: «فإذا نزلوا بها صارت إلى معنى التحيل على الضعيف ليؤكل، وقتل مقوماته ليهضم، والكيد للمستيقظ حتى ينام، والهددة للناثم حتى لا يستيقظ»⁽²⁾، وفي هذا إشارة إلى بعض المعاني السلبية التي علق بمفهوم السياسة، والتي تعني الدس والتحايل ومخادعة الناس للاستيلاء عليهم.

هذا على مستوى الحكام الذين يتولون تصريف شؤون الرعية، وإدارة دواليب الحكم. أما بالنسبة للمحكومين الذين لهم الحق أيضا في المشاركة في سياسة شعوبهم فإن الأمر لا يختلف أيضا، فهناك من يمارس السياسة في مستواها العالي، وهناك من لا يأخذ منها إلا القشور.

والمستوى العالي الذي يريده الإبراهيمي هو الاهتمام بإحياء مقومات الشعوب. والعمل الجاد على ربطها الواعي بتاريخها وميراثها الثقافي، والسير بها نحو المستقبل على هدى من هويتها الحضارية وأخلاقها العالية، وعدم التساهل في المطالبة بحقوقها الضائعة، والثبات على المبدأ والإصرار عليه: «أما عند المحكومين فأعلى معانيها إحياء المقومات التي ماتت أو ضعفت أو تراخت، من دين ولغة

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 39.

(2) - المصدر نفسه، ص 39.

وجنس وأخلاق وتاريخ وتقاليد، وتصحيح قواعدها في النفوس، ثم المطالبة بالحقوق الضائعة في منطق وإيمان، ثم الإصرار على المطالبة في قوة وشدة، ثم التصليب في الإصرار في استماتة وتضحية، مع اختيار القرص الملائمة لكل حالة»^(١).

فإننا فقد المحكومون هذه الخصال، ولم تستطع همهم أن تعلق إلى هذه المنزلة، ولا أخلاقهم أن تسع هذه المسؤولية التاريخية، فإن لهم في معنى السياسة الهابط متسعا ومبدانا. وتبدو مظاهر هذا الهبوط في التعصب للأحزاب، وإيثار مصلحتها على المصلحة الوطنية، والتنافس على المناصب، والجري وراء الشهرة والألقاب والاشتغال بتوافه الأمور: «فإننا نزلوا بها صارت إلى هذا التحاسد على الرياسة، وهذا التهافت على كراسي النيابة، وهذه المناقشات الفارغة في القشور، وهذا الجدل الشاتم السباب، وهذا الافتتان المزري بالأشخاص»^(٢).

والملاحظة التي ينبغي أن نشير إليها هنا، أن الإبراهيمي في تحديده لمفهوم السياسة، ينطلق أساسا من الواقع الجزائري الذي كان يعيشه بكل أبعاده، والذي كان يتميز بوجود قوة حاكمة طاغية تسعى إلى محو مقومات الشعب، وأغلبية مقهورة ومغلوبة يناضل بعضها لإثبات الهوية الحضارية، ويجاري بعضها الآخر الاستعمار في أساليبه السياسية الملتوية، وهذا التوجه يتناسب مع فكر الإبراهيمي الذي كان يرمي إلى بعث أمة بإحياء مقوماتها، وليس إلى احتراف السياسة بمفهومها الاصطلاحي.

وفي هذا الإطار، حاول أن يوضح الحدود التي تفصل بين السياسة الحقيقية

(١) - الإبراهيمي، عبود البصائر ص 39، 40

(2) - المصدر نفسه، ص 40

والسياسة الزائفة، فيقرر أن الأولى هي اللباب، والثانية هي القشور، لأن الذي يمارس السياسة الحقيقية - كما يراها - يكون في مقام صانع التاريخ الذي يجدد حياة الأمة، وينفخ فيها الروح، ويحيي مقوماتها ويثبتها، ويصحح عقيدتها حتى تكون مصدر طاقة نفسية لأبنائها، ويعرفها بحقوقها، ويربّيها على الاعتداد بنفسها حتى تقف في وجه عدوها، واثقة من نفسها، قادرة على التعامل معه من موقع قوي: «إن السياسة لباب وقشور... أما لباب السياسة بمعناها العام عند جميع العقلاء فهو عبارة واحدة: (إيجاد الأمة)، ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليد صحيحة. وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالاة بقيمتها وبميراثها، وبالإمعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنّها، وتستमित في سبيلها»⁽¹⁾.

ولا يفوتنا أن نذكر أن الإبراهيمي في عرضه لمفهوم السياسة، لم يهتم بالتعريف اللغوي أو الاصطلاحي لهذه اللفظة، بل تجاوزها مباشرة إلى دلالتها الحضارية، واعتبر ممارسة السياسة - بمعناها الواسع المتمثل في الدفاع عن مصالح الأمة الحيوية وإحياء مقوماتها وليس بالمعنى الحزبي الضيق - عملا حضاريا، يكتسي قيمة عظيمة في حياة الأمم، أو بعبارة أخرى هو: «خطه واعية لتغيير وجه التاريخ»⁽²⁾.

ولعل ظروف الواقع الجزائري التي كانت تؤثر إلى حد بعيد في اتجاهه الفكري، هي التي أوجت إليه بهذا الموقف، فقد كانت السياسة في ذلك الوقت محتكرة من طرف السلطات الاستعمارية، والأحزاب السياسية، وكل طرف

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 44

(2) - بناني، د. محمد الصغير، «معالم شخصية الأمير عبد القادر من خلال شعره»، الثقافة، ج 96، ص 143.

يوظفها في المجال الذي يخدم أغراضه، ويوصله إلى أهدافه، فغطى على وجهها الحقيقي، وجعلها وقفا على قوم دون آخرين، بينما هي في نظر الإبراهيمي، عمل شريف، وميدان واسع، يتبارى فيه المخلصون من أبناء الوطن لإثبات قدراتهم على خدمة شعوبهم.

وانطلاقاً من هذا التصور الذي يعيد الاعتبار لمفهوم السياسة، ويضعها في موقعها المناسب من عملية التغيير، يحاول الإبراهيمي أن يحلل السياسة الاستعمارية في الجزائر، وأن يكشف أبعادها، فلا يلبث أن يتبين له أن معنى السياسة عند الاستعمار في الجزائر: « يتسفل دائماً ولا يعلو، ويتبدل أبداً ولا يسمو »⁽¹⁾، لأنه يمارس السياسة بمعناها السافل الذي يعتمد الإذلال والاستعباد والاستغلال والتحايل للتمكن من محو مقومات الشخصية الجزائرية.

ونظراً لخضوع هذه السياسة لمصالح الاستعمار الخاصة، وجريها مع أهوائه، كانت الصفة الغالبة عليها هي الالتواء والتغير المفاجيء من النقيض إلى النقيض، تبعاً لما تمليه المصالح، وليس حسبما تقتضيه المبادئ: « للسياسة في جميع بلاد الله وعند جميع خلقه معنى محدود قار في حيزه من الإدراك، إلا في هذا البلد وعند حكومته الاستعمارية وساسته المقلدين، فإن معناها غير محدود ولا مستقر، يتسع إلى أقصى حدود الاتساع، فيحمل ما قارب وما باعد، وما جانس وما خالف، وما اطرّد وما شذ، ويضيق إلى أقصى حدود الضيق، فنلتوي مسالكه، وتنسد مجاريه، وتتهافت أقيسته، ولا يتبين فيه مورد من مصدر، كل ذلك بالتبع

(1) - الإبراهيمي، صبرون البصائر، ص 38

لأهواء الاستعمار المتباينة، وأهويته المتناوذة⁽¹⁾.

وقد جاء هذا الخلل في السياسة نتيجة طبيعية للتناقض في الهيكل الذي يقوم عليه نظام الحكم الاستعماري، الذي يتكون من: «حكومة» لائكية في الظاهر، مسيحية في الواقع، جمهورية على الورق، فردية في الحقيقة، تجمع يديها على دين المسلمين ودينهم، وتتدخل حتى في كيفية دفن موتاهم⁽²⁾.

وحتى يحافظ الاستعمار على هذا الوضع الذي يخدمه في كل الأحوال، لم يكن يسمح لأحد غيره بممارسة السياسة. وإذا خشي عواقب الضغط المستمر، والحرمان الشديد الذي يسحق الشعب، فتح له بابا صغيرا ليمارسها في النطاق الذي يسمح به، وضمن الحدود التي يرسمها، وهي بالطبع، ليست بالمعنى العالي الذي تحدث عنه الإبراهيمي، بل هي نوع من أنواع السياسة الهابطة التي تقف عند القشور، ولا تتعداها إلى الجوهر الذي ينبثق عنه الفعل الحضاري. فرجال الاستعمار: «تراهم يهيئون لتلك الشعوب من قشور ذلك المعنى وفتاته تعلات يلهونهم بها إذا بلغ بهم التبرم حده، ومن هذه التعلات الانتخابات الناقصة التي فتح الاستعمار للجزائريين كوة منها، فلم تدخل عليهم إلا الشر وضياح الأموال وتمزيق الوحدة»⁽³⁾.

وعلى هذا الأساس، لم يرتفع معنى السياسة في الجزائر أبدا، مادام الاستعمار هو الذي يفرض منطقها فيها. فإذا خرج أحد الوطنيين عن هذا النطاق، وحاول أن يعلو بها قليلا في سبيل نفع أمته، ألصقت به تهمة الإجرام والخروج عن

(1) - تنار الجيلان: نقابا.

(2) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 38.

(3) - المصدر نفسه، ص 39.

(4) - المصدر نفسه، ص 39.

القانون. لذلك: «فإن هذه اللفظة (لفظة السياسة) تبقى ذليلة مهينة، مجردة من جلالها وسموها، نجدها في باب الإجرام والاتهام، أكثر مما نجدها في باب الإكبار والاحترام»⁽¹⁾.

ويحدد الإبراهيمي معالم الإجرام السياسي الذي يتهم به الاستعمار كل من يشق عليه عصا الطاعة، ويرنو ببصره إلى نوع من الممارسة السياسية الشريفة التي لا يتسنى للاستعمار أن يعيث بخيوطها، فيقول: «إنه حب الوطن، والعمل على نفع أبنائه، وبغض الاستعمار، والعمل لمقاومته، فهذا هو الإجرام السياسي الذي تعتبره الحكومة الجزائرية مانعا من أداء واجب ديني»⁽²⁾.

من هنا، يحاول الإبراهيمي أن يكشف التناقض الصارخ الذي يقوم عليه الهيكل الاستعماري في الجزائر. فبينما يسمح ساسته للأوربي بممارسة السياسة بالمعنى السالف الذكر، وهو حب الوطن وخدمته، وبغض عدوه ومقاومته، يحرمها في الوقت ذاته على الجزائري، حرصا على مصالحه وسلطانه في الجزائر: «نحن نعد السياسة عملا طبيعيا معقولا ووسيلة من وسائل خدمة الوطني لوطنه ولبنى جنسه، وهو يعده كذلك بالنسبة إلى الأوربي السيد، أما بالنسبة إلى المسلم فهي جرم يمنع صاحبه من الحج، وما زال هذا الخلاف بيننا وبين الاستعمار في معنى لفظه (الجرم)، يتطلب حكما ولا يجده»⁽³⁾.

أما السياسة عند بعض الأحزاب الجزائرية، فإنها لا تكاد تخرج عن هذا المعنى الهابط الذي يمارسه الاستعمار، لأنها تجري تحت سمعه وبصره،

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 39.

(2) - بقصد فريضة الحج التي كان يحرم الإستعمار على الجزائريين أدائها إذا كانوا متهمين بممارسة السياسة.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 58.

(4) - المصدر نفسه، ص 59.

ویموافقته وتأييده. ويرى الإبراهيمي أن الأحزاب الجزائرية قد اتخذت باللعبة الاستعمارية، ووقعت في الفخ الذي نصب لها، حينما استدرجها الاستعمار إلى أشكال من السياسة الهابطة التي لا تليق بالوطنيين، ولا تستجيب للأمال العريضة التي تعلقها عليهم الأمة.

فحتى يشغلهم عن الاهتمام بالقضايا المصيرية لشعبهم، ويصرف أنظارهم عن جرائمه ومظالمه، فتح لهم باب الانتخابات، وأغراهم بالإقبال عليها، ومنامهم بوضع مقاعد في المجالس النيابية والبلدية، لا تسمن ولا تغني من جوع، لأنها لن تتمكن أبدا من إحداث أي تغيير. ثم أشعل نار العداوة والبغضاء بينهم، وحسن إليهم الزعامة، وساقهم بطعم الشهرة والأموال، حتى فقد بعضهم الإحساس بواقع أمتهم البائس، وصارت كراسي النيابة أمطهم الكبير، وغايتهم البعيدة: «ولما بليت السرائر تبين أن سياسيينا كلهم يتسابقون إلى غاية واحدة هي كراسي النيابات وما يتبعها من الألقاب والمرتبات، وإذا كل شيء مبدؤه السياسة فنهايته التجارة، والأعمال بخواتمها»⁽¹⁾.

ثم يبرهن على الانحراف السياسي الذي غلب على بعضهم، ويضرب المثل بأعمالهم وأقوالهم، ويؤكد بعدهم عن ممارسة السياسة الحقيقية التي من أسمى أهدافها خدمة الأمة بتوحيد صفوفها، وتكتيل جهود أبنائها، والتنازل عن حظوظ النفس الضيقة في سبيل المصلحة العليا للوطن فيقول: «إننا لا نتصور كيف يخدم السياسي أمته بتقطيع أوصالها، وشتم رجالها، وتسفيه كل رأي إلا رأيه، ولا نتصور أن مما تخدم به الأمة هذه الدروس (العالية) في أساليب السب التي

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 40

يلقنها بعض الأحزاب لطائفة من شباب الأمة في (معاهد) المقاهي والأزقة»⁽¹⁾ وكل هذه المعاني السلبية والأفكار القاتلة يعود الفضل فيها إلى الاستعمار الذي ما فتىء ينميها في النفوس، ويشجع مظاهرها، ويزينها لرجال الأحزاب لغرض في نفسه.

ويخلص من كل ذلك، إلى القول أن السياسة الاستعمارية وسياسة الأحزاب ككلاهما تصيان في رافد واحد. فإذا كان الاستعمار - بطبيعته - يعمد إلى مقومات الشعوب فيزهق روحها، ويطمس معالمها، كإجراء ضروري للإبقاء على وجوده في البلاد التي احتلها، فإن الأحزاب هي الأخرى تهمل هذه المقومات ولا تعيرها اهتماماً، ولا تشعر بالخطر الذي يتهدها من الغارات التي يشنها عليها الاستعمار، بدليل أنها لم تشغل نفسها بمحاولة إحياء هذه المقومات وتوعية الجماهير بها، وحصرت مفهومها للسياسة في إثبات وجودها في الانتخابات، وحصد أكبر عدد ممكن من الأصوات، والتسابق نحو كراسي النيابة.

بل إن الأحزاب بوضعها هذا في أمة تتكالب عليها القوى المعادية لتسحقها، أخطر - عند الإبراهيمي - عليها من الاستعمار. فهذا الأخير هو في اعتبار الشعب عدوه الأول والظاهر، ولئن سكنت عنه أو رضي بوجوده، فلأن ظروفه وإمكاناته لا تسمح له بمواجهته والتوصل من استبداده، أما الأحزاب فإن رجالها من أبنائه الذين خرجوا من أوساطه، وذاقوا معه مرارة الظلم وتجرعوا كؤوس الهوان، فمن الطبيعي جداً أن تكون ثقته فيهم كبيرة، وأملهم في أن يدافعوا عن مصالحه عريضا، يقول الإبراهيمي: «إذا كان من خصائص الاستعمار أنه يمحى المقومات ويميتها، ثم يكون من خصائص أغلب الأحزاب أنها تهملها ولا تلتفت إليها، فهل

(1) - الإبراهيمي، عبرن المائر، ص 48

يلام العقلاء إذا حكموا بأن هذه الأحزاب شر على الشرق من الاستعمار. لأن الاستعمار يأتيه من حيث يحذر، والحذر - دائما يقط ، أما هذه الأحزاب فإنها تأتيه من حيث يأمن، والأمن - أبدا - نائم»⁽¹⁾.

ونحسب أن حالة الانقسام والفرقة التي كانت تعيشها الحركة السياسية في أواخر الأربعينات⁽²⁾، بسبب الانشغال بالانتخابات، والتنافس على الكراسي النيابية هو الدافع الحقيقي وراء هذا الموقف المتشدد الذي وقفه الإبراهيمي من الأحزاب الجزائرية. غير أنه لا يعني أنه كان معاديا لوجود هذه الأحزاب أو داعيا للقضاء عليها، بدليل أنه كان يلتقي بزعمائها في مختلف المناسبات، ويتحالف معهم أيضا إذا اقتضت المصلحة الوطنية ذلك، لكنه لم يكن يرضى لها أن تسقط في فخ الاستعمار، وتجاري خططه الخبيثة التي تقودها إلى طريق مسدود، وترغمها على ممارسة السياسة الهابطة، بينما الأمة تحلهم من نفسها مكانة عظيمة، وتعدهم رأسمالها⁽³⁾.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الموقف ينبع من طبيعة جمعية العلماء التي تعد نفسها فوق العمل الحزبي، وترى أن الواجب يحتم عليها أن تتولى مهمة الإصلاح بينها، فتوجه الضال، وترشد المخطيء، وتنصح المسيء، فإذا كانت لهجة الإبراهيمي في انتقاده لسياسة الأحزاب الجزائرية حادة وقاسية، فإن الهدف منها هو النصح والتوجيه، أكثر مما هو للتشهير والتجريح: «يا إخواننا! إنكم أخرجتمونا بأعمالكم وأقوالكم وأحوالكم، فأخرجتمونا من مقام التلطف في

(1) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 46.

(2) - خليفة، محمد العبد محمد علي، ديوان محمد العبد محمد علي خليفة، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1967، ص 212.

(3) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 47.

النصيحة إلى مقام الإيجاع والتنديد، وأردتم أن تتلموا سيفاً من سيوف الحق⁽¹⁾، فلا تلوموه إذا خشن منته وآلم جرحه، فتجرعوا هذه النصائح على مرارتها في لهواتكم، فما نحن - بمكاننا في الدين - أقل من أن ننصح، ولا أنتم - بمكانتكم في أنفسكم - أجل من أن تنتصحو⁽²⁾».

ثم إن الظرف التاريخي الصعب الذي كانت تعيشه الجزائر في ظل الاحتلال الأجنبي، كان يفرض على العاملين في الساحة الوطنية أن يتجهوا نحو التكتل وتوحيد برامج العمل كخطوة أساسية وضرورية نحو توحيد النزعات، والقضاء على الخلافات، لمواجهة الواقع الاستعماري المرير. وقد كان الإبراهيمي يلح دائماً على هذه القضية، ويسعى لتوعية مختلف التيارات الوطنية بها، لذلك ثار على الأحزاب التي تفرقت كلمتها، واشتدت الخلافات بينها واشتعلت نار العداوة بين رجالها، فتفرقت على إثرها كلمة الأمة، وانقسمت إلى طوائف، وهذا أقصى ما كان الاستعمار يتمناه : « ونراهم يقولون، إن كثرة الأحزاب في أمة عنوان يقظتها وانتباهها، وضمان وصولها إلى حقيها، ولكننا لم نر من تعدد الأحزاب إلا نقصاً في القوة، ونقصاً للوحدة، وتنقيساً على الخصم، واشتغالاً من بعضهم ببعضهم⁽³⁾» وحرصاً منه على تدعيم فكرته الوحدوية، فقد حاول أن يستلهم من القرآن ما يؤيد ما ذهب إليه من أن كثرة الأحزاب داعية إلى الفرقة والتشتت، وأن الحزب الواحد قوي بنفسه لأنه يلم الشمل ويوحد الجهود، فيؤكد في ملاحظة طريفة أن القرآن لم يذكر لفظة الأحزاب بصيغة الجمع إلا مقرونة بمعاني

(1) - بقصد المواقف السلبية المعادية التي ولقتها بعض الأحزاب الجزائرية ضد جمعية العلماء..

(2) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 48

(3) - المصدر نفسه، ص 47

الاختلاف والهزيمة والفرقة، بينما وردت لفظة الحزب بصيغة الفرد لتدل على القوة والوحدة والفلاح: «وتعالت كلمة القرآن، فإنه لا يكاد يذكر الأحزاب بلفظ الجمع إلا في مقام الهزيمة (فاختلف من بينهم الأحزاب) ⁽¹⁾ (جند ما هناك مهزوم من الأحزاب) ⁽²⁾، ولا يكاد يذكر الحزب بلفظ المفرد إلا في مقام الخير والفلاح (ألا إن حزب الله هم المفلحون) ⁽³⁾» ⁽⁴⁾.

ونحسب أن الإبراهيمي بذلك قد حدد موقفه من التعددية الحزبية بوضوح، حينما أكد أنه يؤمن بها كوسيلة لتبادل الآراء وتلاقح الأفكار، مما يفتح المجال لجميع الطاقات الوطنية لتسهم في خدمة الأمة، لكن بشرط أن يكون ذلك في أمة استكملت أسباب نهضتها، واستقرت أحوالها الاجتماعية والسياسية، وبلغ أبنائها درجة عالية من الوعي الذي يجعل اختلافهم محصورا في إطار معين من أهم ضوابطه مراعاة المصلحة الوطنية. أما في بلد كالجزائر، يتسلط عليه استعمار بشع، وتحجب عنه الأمية أفق التفكير، ويطحنه البؤس والفقر، فإن الضرورة توجب تناسي الخلافات لتتوحد الجهود ضد العدو المشترك، وهذا هو تفسير النتيجة التي تمخضت عن التعددية الحزبية في الجزائر آنذاك.

ولعل من الأخطاء الشنيعة أن يحاول رجال الأحزاب الجزائرية قياس حركتهم السياسية بحركة الأحزاب الأوروبية نظرا للفرق الشاسع بينهما، والاختلاف الواضح في الظروف الاقتصادية والسياسية. وهو يؤكد أن أوروبا لم تصل إلى هذه الدرجة من الممارسة السياسية الواعية، إلا بعد أن مرت بمرحلة طليعية اقتضاها

(1) - ميم، 37

(2) - ص، 11

(3) - المجادلة، 22

(4) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 47

التطور، وهي مرحلة إحياء المقومات من لغة وجنس وتاريخ، تولاهما مصلحون جمعوا كلمة الأمة، وراضوها على المحافظة على هذه المقومات وحمايتها من عوادي الزمن: «إن من الغفلة والبله أن نقيس أحزابنا بالأحزاب الأوروبية، فإن تلكم الأحزاب ظهرت في أمم استكملت تربيتها وصححت مقوماتها، بدعوة دعاة جمعوا الكلمة، وعلماء أحيوا اللغة، ومعلمين راضوا الأجيال على ذلك، وأين نحن وأحزابنا من ذلك؟»⁽¹⁾

ويؤيد رأيه هذا، بأن الشعوب التي بلغت الرشد ونضجت فيها التجربة السياسية يتفاعل فيها إحساس السياسة بإحساس الجماهير، فكلاهما يتجاوب مع الآخر عن علم ووعي، أما الشعوب المتخلفة الجاهلة، فغالبًا ما يكون وعيها السياسي ضعيفًا، فلا تستطيع أن تدرك بعقليتها القاصرة أبعاد المسؤولية السياسية، ونوعية العلاقة التي تربطها برجال السياسة. وفي معظم الحالات تتحول هذه العلاقة إلى وثنية جديدة، أو نوع من عبادة الشخصيات التي تضر أكثر مما تنفع: «أما شعبنا وأمثاله من الشعوب البدائية التي هي في عقال من أمراض اجتماعية، ولم يتم صحوها من سكر الجهل وسكر الغفلة وسكر التقليد، فإن هذا التفاعل والتجاوب بينها وبين قادتها السياسيين يكون مفقودًا في هذه الفترة، وليست هذه الفترة فصل نباته، والغالب على الشعوب البدائية في السياسة أن تكون على بقية من وثنية، أصنامها الشخصيات، فيكون إحساسها تابعًا لإحساسهم وحركاتها منوطة بتحريكهم ولو إلى الضياع والشر»⁽²⁾

(1) - الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 47

(2) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 327، 328

وأفضل ما تعالج به الشعوب في هذه المرحلة - في رأيه - أن يعكف المصلحون فيها على تعليمها وتربيتها، وتخليصها من سلبياتها، وفتح أذهانها على الواقع، وتوعيتها بما يدور حولها على أساس صحيح من العلم، تنتقل بعده إلى المطالبة بحقوقها عن وعي وبصيرة. ولرجال السياسة في هذه المرحلة دورهم أيضا، يقول الإبراهيمي: « ورأيت في الزعيم السياسي المثقف في أمة كأممنا الشرقية... أنه يجب عليه أن يترفع عن الميادين التي تشغله عن المهم، وتلهيه بالصغائر، وتفتنه بالمحقرات، وتخلق له الخصوم من الأمة التي يعمل لها ولخيرها، وأن يصرف همه كله إلى تربية الأمة وجمع صفوفها على حقها الوطني وتحريك الساكن منها، وإيقاظ النائم، وتنبيه الغافل، وتأليف الشارد، فإذا تم له ذلك أصبح مرهوبا من الحكومة، وأصبح محبوبا عند الأمة ⁽¹⁾ ».

ونظرا للدور الخطير الذي قامت به جمعية العلماء بإحياء مقومات الشخصية الوطنية، والدفاع عن المصالح الحيوية للأمة الجزائرية، وجدت عنقا كبيرا من الاستعمار ولقيت الأذى الشديد، وعانت من الحصار والتضييق واتهمت بممارسة السياسة.

فقد كان الاستعمار يدرك أن إحياء مقومات الشعوب وتوعيتها بذاتها، وتعزيز الشعور بانتمائها القومي والحضاري، هو جوهر السياسة الحقيقي وإن لم يكن في إطار رسمي، بدليل أن جريدة الكونكورد الفرنسية كتبت مقالا تحذر فيه السلطات الفرنسية في الجزائر من نشاط الجمعية الذي بدا مشبوها، فقالت عن العلماء: « إن سياستهم الحاضرة تنحصر في الاعتصام بحصن الثقافة والدين، وهذا يتيح لهم أن يتدخلوا في كل شيء منتظرين أن يتقدم - في المستقبل الموعود

(1) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 334.

رجال آخرون لاستعمال السلاح الذي يصقلونه هم اليوم ويشحنونه بأيديهم»⁽¹⁾.
كما أن التقارير السرية التي كانت تعدّها المخابرات الفرنسية المختصة في متابعة نشاط الجمعية أكدت أن: «شعب مدارسهم عبارة عن خلايا سياسية، والإسلام الذي يمارسونه هو مدرسة حقيقية للوطنية»⁽²⁾.

ذلك أن الاستعمار عندما سمح للجمعية بمباشرة نشاطها في الإطار الديني التهديبي الذي حددته لنفسها، كان يظن أن مفهوم ذلك ينحصر في تعليم الصلاة، وتحفيظ القرآن، والعكوف على قراءة الأذكار وكتابة الحروز⁽³⁾. فلما وجد أن الأمر قد تجاوز كل هذه المظاهر الشائعة، وتعدّها إلى بناء الإنسان الجزائري، وإعادة تشكيل شخصيته وفقا للمنظور الإسلامي الحقيقي، لم يتوان عن اتهام الجمعية بممارسة السياسة، ومعاقبة رجالها كمجرمين سياسيين، خرجوا عن دائرة اختصاصهم وتورطوا فيما لا يعنيهم: «يقول عنها الاستعمار في معرض التبرم بها والتسخط عليها: إنها جمعية سياسية في ثوب ديني، وإنها تستر القومية بستر الدين، وتخفي الوطنية بخفاء العلم والعريّة، ويتنطع في بعض نوياته العصبية فيقول عنها: إنها تخدم سياسة أجنبية، ويجاري الطبيعة أحيانا فيقول: إنها تعمل للجامعة العربية أو الإسلامية، ويلبس مسوح الرهبان تارة أخرى فيشوب التهديد بالوعظ، ويقول لنا: إن جلال العلم لا يتفق مع أوساخ السياسة، وتغلب عليه طابع السوء فيقذف بأعضاء الجمعية في السجون، ويلقي بهم في المعتقلات مع

(1) - إسماعيل، د. عز الدين، وآخرون، عبد الحميد بن باديس، سلسلة نوابع العرب دار العودة، بيروت، لبنان، د. ت. ص 67

(2) - سعد الله، د. أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، ص 111

(3) - فضلا، محمد الطاهر، دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، ص 145

المجرمين»⁽¹⁾.

وقد تصدى الإبراهيمي للرد على الاستعمار، وأكد له أن أعمال الجمعية لم تخرج يوماً عن إطارها الديني الذي حددته لنفسها. فإذا صححت العقائد، وشحذت العزائم، وأحييت اللغة العربية والتاريخ الإسلامي والوطني، وعمقت الوعي بالانتماء الحضاري العربي الإسلامي في نفوس الجزائريين، فلأن ذلك هو الإسلام بمعناه الحقيقي، وهذا هو المجال الذي تتحرك فيه عن إيمان واقتناع.

فإذا كان الاستعمار يرى أن ذلك سياسة، فليس الذنب ذنب جمعية العلماء إذا اختلفت التسمية بينهما: «فإذا كانت هذه الأعمال تعد - في فهمك ونظرك - سياسة، فنحن سياسيون في العلانية لا في السر، وبالصراحة لا بالجمجمة. إننا نعد كل هذا ديناً على الحقيقة لا على التوسع والتخيل، ونعده من واجبات الإسلام التي لا نخرج من عهدها إلا بأدائها على وجهها الصحيح الكامل. ولتعلم أننا نفهم الإسلام على حقيقته، وأنها لا نستنزل عن ذلك الفهم برقية راق، ولا بتهديد مهديد، ولتعلم سلفاً ولتسلم منطقياً وواقعياً أننا حين تختلف الأنظار بينك وبين الإسلام، فنحن مع الإسلام، لأننا مسلمون»⁽²⁾.

وفي إطار توضيح موقف جمعية العلماء من هذه التهمة التي صارت تطاردها في جميع مجالات نشاطها، بين الإبراهيمي للاستعمار أنها لا تمارس السياسة بالمعنى الشائع المعروف الذي ينزل بها إلى التحيل والكذب واستغلال الناس، ورفع الشعارات الفارغة، وإلقاء الخطب الرنانة، وإلا لكانت على وفاق تام معه، فمبدؤها الثابت يأبى عليها كل ذلك.

(1). الإبراهيمي، عبير البصائر، ص 40، 41.

(2). المصدر نفسه، ص 42، 43.

ولكنها تعمل للإسلام بإحياء معانيه في النفوس، ليكون منهاج حياة في الدنيا، ومعبرا للآخرة. فإذا رأى الاستعمار أن هذا سياسة، فإنه لا مانع عند الإبراهيمي من أن يكون المسلمون سياسيين مادام الأمر يتعلق بهذا العمل الشريف الذي يجعل المسلم إنسانا فاعلا وفعالا في الحياة، يدفع عجلة التاريخ إلى الأمام، ويصنع الحضارة: «نحن سياسيون منذ خلقنا، لأننا مسلمون منذ نشأنا، وما الإسلام الصحيح بجميع مظاهره إلا السياسة في أشرف مظاهرها، وما المسلم الصحيح إلا المرشح الإلهي لتسيير دفتها أو لترجيح كفتها⁽¹⁾».

ولعل هذه المعاني والأبعاد التي تكتسيها السياسة عند الإبراهيمي، ناتجة عن تصويره للعلاقة القائمة بين الدين والسياسة في نظره، فهما شيان متلازمان، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، وهذا هو المفهوم الإسلامي للسياسة، والذي يختلف تمام الاختلاف عن المفهوم الغربي القائم على فصل الدين عن السياسة. وتبني شعار «دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر»، نتيجة للتاريخ الطويل الذي تسلطت خلاله الكنيسة على الحياة العامة، وفرضت عليها الظلام والتخلف والجمود باسم الدين. أما السياسة في الإسلام فهي جزء لا يتجزأ من الدين، باعتباره منظومة فكرية تستوعب الحياة الإنسانية بجميع أبعادها، وفي شتى مجالات نشاطها.

وقد أخذ الإبراهيمي وإخوانه العلماء على عاتقهم مهمة توضيح هذه الحقيقة للأمة الجزائرية عن طريق ما بذلوه من جهود في سبيل إعادة ربطها بالمنابع الصحيحة للإسلام، وحملها على الاستقامة على أحكامها، وتربيتها على أن تكون أعمالها انعكاسا لاعتقادها، حتى تتحول العقيدة إلى فعل اجتماعي خلاق. وهذا

(1). الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 277

العمل هو الذي يراه الإبراهيمي أصل السياسات كلها: «نحن سياسيون طبعاً وجبلة، ونحن الذين أيقظنا الشعور بهذا الحق الإلهي المسلوب... وكنا نريد أن نبدأ بأصل السياسات كلها وهو الدين لنبنى عليه كل ما يأتي بعده، فنسالم ونحن مسلمون ونخاصم ونحن مسلمون ونصادق أو نعادي ونحن مسلمون، فيكون في إسلامنا ضمان للمعدلة حتى مع خصومنا»⁽¹⁾.

ونستخلص من كل ذلك، أن ممارسة السياسة بهذا المعنى عند الإبراهيمي، فريضة شرعية يلزم بها كل مسلم واع بحالة أمته، مدركاً لوضعها المتردي في هذا الزمن، الذي بلغ فيه الصراع بين الإسلام والقوى المعادية ذروته، وهي أيضاً ضرورة حضارية يفرضها الواقع الجزائري لتحرير الشعب من مختلف مظاهر القهر والاستعباد والحرمان والتخلف: «نحن سياسيون لأن ديننا يعد السياسة جزءاً من العقيدة، ولأن زمننا يعتبر السياسة هي الحياة، ولأنها أية البطولة، ولأن وضعنا يصير السياسة ألزم للحياة من الماء والهواء، ولأن السياسة نوع من الجهاد ونحن مجاهدون بالطبيعة فنحن سياسيون بالطبيعة ولأن الاستعمار الفرنسي بظلمه وعسفه لم يفرس في الجزائر إلا ثمرتين: بغض كل جزائري لفرنسا حتى الأطفال، وصيرورة كل جزائري سياسياً حتى الأئمة»⁽²⁾.

وفي ضوء ما سبق، يمكننا أن نقول أن السياسة - كما يفهمها الإبراهيمي - هي إحياء مقومات الشخصية الجزائرية في إطار القيم العربية والإسلامية، والدفاع عن المصالح الحيوية للشعب، والتصدي لعدوه الذي يستهدفه بالكيد والاستعباد، وهو يرى أن كل ذلك من الممكن أن يتم بعيداً عن الأشكال السياسية

(1). الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 277، 278.

(2). الصبر نفسه، ج4، ص 278.

المعروفة، كالأحزاب والانتخابات وما إليها.

وعلى الرغم من أن المفهوم الذي أعطاه الإبراهيمي للسياسة يبدو غريبا نوعا ما عما هو شائع ومتداول في الفكر العربي والعالمي، إلا أن الدارس المتفحص للمرحلة التاريخية التي طرح فيها الإبراهيمي هذه الأفكار، يدرك العلاقة المتينة التي تربطها بالواقع الجزائري آنذاك، ولا يفوته أن القصد منها هو توجيه التيار السياسي نحو خدمة الأهداف الوطنية، والقضية المصيرية للأمة.

- قضايا الجزائر السياسية:

وانطلاقا من هذا المفهوم المتميز لدلول السياسة عالج الإبراهيمي عدة قضايا سياسية ذات صلة وثيقة بواقع الشعب الجزائري، وسنقتصر هنا على رصد ثلاث قضايا: تتعلق الأولى بالمؤتمر الإسلامي الذي انعقد عام 1936، والثانية بحوادث 8 ماي 1945، والثالثة بالثورة الجزائرية التي اندلعت عام 1954. وهذه القضايا موزعة كما هو واضح على ثلاث مراحل زمنية: هي مرحلة الثلاثينات، ثم الأربعينات، ثم الخمسينات. ومن خلال هذا العرض، سنحاول اكتشاف مظاهر تطور الفكر السياسي عند الإبراهيمي.

أ - المؤتمر الإسلامي:

يرى الإبراهيمي أن المؤتمر الإسلامي وليد فكرة عبد الحميد بن باديس، الذي وجه نداء حارا إلى الأمة على صفحات جريدة « لاديفانس (LA DEFENSE) » التي يشرف عليها الأمين العمودي، لعقد مؤتمر جزائري يلتقي فيه جميع المهتمين بشؤون الأمة. وقد لقيت هذه الفكرة صداها في أوساط رجال السياسة، والنخبة المثقفة، والشخصيات البارزة، ووجدت منهم قبولا حسنا. وصادف نداء ابن باديس إلى عقد مؤتمر جزائري، فوز الجبهة الشعبية التي تمثل الأحزاب اليسارية

التقدمية في الانتخابات التشريعية، وإشرافها على تشكيل حكومة جديدة في فرنسا.

ويعتقد إبراهيمي أن فكرة ابن باديس، على الرغم من صوابها ووجاهتها، لم تكن لتنجح لو لم تقفز الجبهة الشعبية في الانتخابات، والتي كانت قد بذلت للجزائريين وعوداً كثيرة بإصلاح أحوالهم، وإلغاء القوانين الجائرة التي تثقل كاهلهم، هذه الجبهة التي يعتقد إبراهيمي أن فوزها كان السبب الأكبر لنجاح فكرة ابن باديس فيقول: «ونحن مع تسليمنا لوجاهة فكرة الأستاذ نعتقد مستيقنين أنه لو دعا داع قبل اليوم إلى عقد هذا المؤتمر كيفما كانت منزلة الداعي في الأمة لما بء إلا بالخيبة والفشل لأسباب يعرفها كل أحد، أما وقد فازت الجبهة الشعبية في الانتخابات التشريعية وأصبحت أزمة الحكومة الفرنسية بيدها فقد أصبح عقد المؤتمر ميسوراً ومتأكداً في أن واحد»⁽¹⁾.

وقد وجهت جمعية العلماء برئاسة عبد الحميد بن باديس - وجمعية النواب - برئاسة الصالح بن جلول - نداءً مشتركاً إلى الشعب الجزائري عبر الصحف لحضور هذا المؤتمر، وشكلت لجان تحضيرية من الشباب والعمال والحرفيين والفلاحين وقدماء المحاربين، في مختلف أنحاء القطر لينظموا مطالبهم الخاصة ويقدموها إلى المؤتمر⁽²⁾ ليصوغها صياغة نهائية. وتم كل ذلك في ظرف أيام قليلة.

وقد انتقد بعضهم المشرفين على هذا المؤتمر، وعابوا عليهم استعجالهم في أمر عظيم يخص الأمة الجزائرية، وكانوا يرون أن عقد مؤتمر يتم فيه البت في

(1) - إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 173

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 174

مصير الشعب الجزائري، يحتاج إلى وقت كاف تختمر فيه الآراء، ودرس المطالب⁽¹⁾ في صبر وأناة حتى تكون النتيجة إيجابية ومرضية. وكان إبراهيمي يؤيد هذا الرأي، ويراه صائبا لو أن ظروف الجزائر كانت أحسن حالا مما هي عليه في ذلك الوقت.

لذلك فهو يدافع عن السبب الذي حدا بالمشرفين إلى الاستعجال في عقد هذا المؤتمر، ويبرره بكثرة الاضطرابات والقلق التي كانت تطبع الحياة العامة في الجزائر آنذاك، والتي كانت تهدد بفشل المؤتمر وانفضاض القائمين به، إذا ما طالّت المدة، وكثرت التدخلات وفشلت العزائم، ويبدأ للبعض رأي آخر. فكان الرأي الراجح يقتضي أن تستغل موجة الحماس التي غمرت طبقات الأمة وقادتها، حتى يقطع الطريق على من يسوءهم اجتماع الشعب واتحاده: « إن السبب الأكبر الداعي إلى التسرع بالمؤتمر أقرب إلى الحكمة من هذه الملاحظة على سدادها وهذا السبب هو مسابقة الحوادث العائقة، والمفاجآت الطارئة التي قد تعرقل المؤتمر وتبطله، أو تفسده وتبطله، وأقل ما يترتب على هذا من المفسد تفتح العزائم وفشل الإرادات وانتكاث القوى، وما أكثر هذه الطوارئ في هذا الوطن وما أكثر العاملين على هدم المشاريع⁽²⁾ ».

وقد انعقد المؤتمر الإسلامي يوم الأحد 7 جوان 1936 بالعاصمة برئاسة الدكتور صالح بن جلول، وخطب فيه ممثلون عن النواب والعلماء، ومندوب الشعبة الاشتراكية في الجزائر السيد سكوت⁽³⁾، ثم عرضت المطالب على المؤتمر فقرها

(1) - إبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير إبراهيمي، ج 1، ص 174

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 174

(3) - المصدر نفسه، ج 1، ص 177

بالإجماع⁽¹⁾.

وكان المؤتمرين قبل الاجتماع قد تداولوا الرأي في الأساس الذي يبنون عليه مطالبهم فكانت النخبة المثقفة بالفرنسية، ومعظم النواب تنتصر لبرنامج فيوليت،⁽²⁾ وترى أن تكون المطالب الجزائرية مبنية على المقترحات التي جاءت فيه، إلا أن الإبراهيمي كان له رأيه الخاص في هذا المشروع الذي يرى أن صاحبه قد صاغه في قالب لغوي يستهوي قارئه، ويبعث في نفسه الأمل، لكنه إذا وضع قيد التطبيق برزت فيه ثغرات قانونية كثيرة، تفتح المجال لاحتمالات عديدة: «فقد أدار برنامجه على اعتبارات سياسية دقيقة لا يفهمها إلا الراسخون في علم السياسة، وأفرغه في قالب لفظي مستهوي خلاب، ينطوي على معان غامضة ويحتمل وجوها كثيرة من الاحتمالات والتفسيرات، ومنها ما يعد في الاعتبار النفسي الجزائري من الشعريات، ومثل هذه المعاني قد تكون عند التطبيق مثارا للإشكال والعسر»⁽³⁾ فقد كان الإبراهيمي - ومعه جمعية العلماء - ينظرون بعين الحذر والريبة إلى برنامج - فيوليت - باعتباره أكثر المشاريع شهرة بين الجزائريين⁽⁴⁾ - لأنه يعتمد مبدأ التجنس كشرط لمنح بعض الجزائريين حق الانتخاب، كما يعلق منح الحقوق السياسية للجزائريين بتخليهم عن الأحوال الشخصية الإسلامية. وفي قبوله مجازفة بمقومات الشخصية الوطنية التي كانت حركة التجديد الإسلامي تعمل

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 177

(2) - هو اقتراح بقانون وضعه النائب الفرنسي موريس فيوليت عام 1933، وأهم ما جاء فيه: «إصلاح مستوى التعليم، والقيام بإصلاح زراعي، وتأمين نفس الحقوق والواجبات التي للفرنسيين لبعض الجزائريين، وإلغاء المحاكم الخاصة بالجزائريين، وزيادة حقوق الجزائريين لانتخاب ممثلين عنهم في مجلس الشيوخ، وزيادة لشملهم في المجالس المحلية... وإنشاء مجلس إستشاري في باريس يتكون من تسعة جزائريين، وإنشاء وزارة لشؤون إقليمية يدخلها جزائريون» (سعد الله، د. أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، ص 17).

(3) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 179

(4) - سعد الله، د. أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، ص 20

على إحيائها والمحافظة عليها، وتشجيع للشباب الجزائري على الاندماج في المجتمع الفرنسي، مع ما يستتبع ذلك من تهديد للكيان الحضاري الجزائري.

لذلك وجدنا الإبراهيمي يبذل جهودا كبيرة ليثني المنتصرين لهذا البرنامج عن الاعتماد عليه في صياغة مطالبهم، ويقترح عليهم أن يلغوا كل المشاريع الفرنسية التي تقدم بها الساسة الفرنسيون لتحسين الوضعية الجزائرية، وبخاصة أن حكومة الجبهة الشعبية قد بذلت للجزائريين وعودا سخية بمنحهم أكبر قدر ممكن من الحقوق التي تضمن لهم وضعاً أفضل: «كان من رأينا في هذا النزاع والتحيز إلى البرامج أن تلغى كلها، وأن لا يتخذ واحد منها أساسا للمطالب الجزائرية، وذلك لأنها كلها وضعت في ظروف خاصة، وبنيت على اعتبارات خاصة.... وأصبحنا نسمع من شبه المسؤولين في الحكومة الشعبية أن حكومتهم مستعدة لإعطاء أكثر ما يمكن من الحقوق للأمة الجزائرية»⁽¹⁾.

والبديل الذي قدمه يتلخص في أن ينطلق المؤتمرون من واقع الشعب الجزائري، وأن يصوغوا المطالب التي تتجاوب مع وضعيته السياسية والاجتماعية والثقافية لتكون تعبيراً حياً عن مشاعر الأمة وتطلعاتها: «بل الواجب أن نضع لمطالبنا برنامجاً مستقلاً منتزعا من حالة الأمة الجزائرية، منطبقاً على نفسيتها وميولها الخاصة، وقد صارحت بهذا الرأي إخواننا نواب عمالة وهران في اجتماعهم الأخير بتلمسان عندما رأيتهم مختلفين حول أسماء البرامج فرجعوا إلى هذا الرأي واقتنعوا بسداده، وكانت نتيجة هذا كله أن قرر المؤتمر عدم تقييد المطالب ببرنامج معين»⁽²⁾.

(1). الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 179، 180

(2). المصدر نفسه، ج 1، ص 180

وكانت جمعية العلماء ترى أن المنطق يفرض أن يطالب الجزائريون فرنسا بجميع حقوقهم ماداموا قد قاموا تجاهها بجميع الواجبات، وأنهم غير ملزمين بالتنازل عن أحوالهم الشخصية الإسلامية في مقابل الحصول على الحقوق، ماداموا قد قاموا بالواجبات وهم محتفظون بشخصيتهم العربية الإسلامية. يقول الإبراهيمي: «إن الأمة الجزائرية قد قامت لفرنسا بكل ما طلبته منها من نفس ونفيس فمن الحق الواجب على فرنسا ومن العدل الذي لا يقوم أمر أمة إلا به... أن تعطي فرنسا للجزائريين جميع حقوقهم دون أي تنقيص لهم عن غيرهم... وليس لها أن تطالبهم بالانخلاع عن أقل شيء من مميزاتهم في قوميتهم ودينهم ولغتهم، فقد قاموا بما فرضته عليهم من الواجبات وهم على قوميتهم ودينهم ولغتهم، فلتعطهم جميع الحقوق وهم على قوميتهم ودينهم ولغتهم»⁽¹⁾.

ثم أسس المؤتمر لجنة تنفيذية، تولت مهمة تنظيم المطالب والاقتراعات، وترتيبها وطبعها، وتقديمها، للدوائر السياسية المختصة في الحكومة الفرنسية⁽²⁾، بواسطة الوفد الذي سينبثق عن المؤتمر.

وقد بدا الإبراهيمي، في تصويره لأحداث المؤتمر ووصفه له، متحمسا غاية الحماس، ومعلقا عليه آمالا عظيمة، ومستبشرا به إلى أقصى حد، فقد عد انعقاده حدثا تاريخيا بارزا ميز الحياة الجزائرية التي درجت منذ عقود طويلة على الخضوع للسياسة الاستعمارية المتطرفة، التي تحكم بالعسف والظلم، وتسعى إلى صدع جدار الوحدة بين الجزائريين، وإلهائهم بما يشغلهم عن واقع حالهم. ولعل أسمى إشارة يوحى بها هذا المؤتمر هو أن الشعب قد نهض ووعى أمره،

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 187

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 181، 182

واستقبح حاله، وتهيات نفسه للتغيير، فأقبل على المؤتمر ليعبر بصدق عن هذا الشعور القوي الذي هو أول الخطوات نحو النهضة: «إنها الأمة الجزائرية وقد أسلمت مقادتها لمن يحسن القيادة في دينها ودنياها بعد أن استفاقت على وقع الأحداث والحاح العوادي... وتلاعب الأيدي السفيفة تعلن حياتها، وتثبت وجودها، وتستأنف تاريخها، وتبني مستقبلها بيدها⁽¹⁾».

وقد بذل الإبراهيمي في سبيل إنجاحه وتوجيهه نحو خدمة المطالب الجزائرية، وتصحيح مسار السياسة الفرنسية في الجزائر، جهودا مضنية تجلت في مشاركته الفعالة في جميع الأنشطة التي قام بها المؤتمر قبل وأثناء وبعد انعقاده.

وعلى الرغم مما أشاع المفرضون في تلك الآونة من أقاويل حول مشاركة جمعية العلماء في مؤتمر سياسي، ومحاولتهم القدح في نزاهتهم الدينية، والنيل من شرف مبادئهم، إلا أن العلماء كانوا ثابتين على مواقفهم، وأبلاوا البلاء الحسن إلى أن أدوا الأمانة على أكمل وجهها: «وإنك لتسمع بعض الأكسنة التي تترجم عن قلوب جاهلة أو مريضة تردد هذا السؤال: ما معنى مشاركة العلماء في مؤتمر سياسي؟ كأنهم يريدون تخويفنا بهذا الغول الموهوم غول السياسة، وتفويت الفرصة علينا بمثل هذه الترهات. وكم أضاعت هذه الترهات على الغافلين من فرص⁽²⁾».

وقد تصدى الإبراهيمي لهذه الأراجيف التي ترددت على السنة بعض أعداء الجمعية، وأكد لهم أن هذا المؤتمر كان يعني الأمة الجزائرية بالدرجة الأولى، وأن

(1). الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 170

(2). المطر نفسه، ج 1، ص 186

الواجب على قادة الرأي فيها أن يتحملوا مسؤولياتهم في تبني مصالحها والدعوة إلى ما يصلح حالها، ويرفع عنها معاناتها. وجمعية العلماء ترى نفسها - بموقعها من الأمة - على مستوى عظيم من المسؤولية في هذا الظرف التاريخي الحرج، فكان الواجب يحتم عليها أن تأخذ على عاتقها أمانة تبليغ صوت الأمة إلى من يهمهم الأمر⁽¹⁾.

وهو يؤكد أن الأمة قد ابتهجت أيما ابتهاج بمشاركة جمعية العلماء في هذا المؤتمر، ورأت في ذلك ضمانا لحقوقها من أن يعث بها عابث، ولأحقية مطالبتها من أن تستغل في غير الوجهة التي تريدها هي: « كانت تلك الخطة العلنية التي ظهر بها ممثلو جمعية العلماء المسلمين في هذا المؤتمر من الدعوة إليه وحياطته وتأييده مثار ابتهاج عظيم عند المخلصين للوطن والعاملين على خيره، لأنهم يعلمون ما في مشاركة العلماء في المؤتمر من خير وفائدة للأمة، وما فيها من قوة وتمكين للمؤتمر، ومثار فرح واغتراب في الطبقات العامة لأنها ترى في حضور العلماء للمؤتمر ضمانا وكفالة لأعز عزيز لديها وهو الدين واللغة العربية»⁽²⁾.

ولئن كانت النتائج المريرة التي تمخض عنها رجوع وفد المؤتمر من باريس قد أشاعت شعورا عاما بالخيبة⁽³⁾ في جميع الأوساط الجزائرية، إلا أن ذلك لا يطعن في قيمته التاريخية وأثره في النهضة الجزائرية. فقد تمكنت القوى الوطنية - على الرغم مما بينها من اختلاف - أن تجمع الجماهير على جملة من المطالب كانت في ذلك الوقت تعبيرا حيا عن مدى التغيير الذي طرأ على العقلية

(1) - الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 187

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 186

(3) - بشير الدكتور أبو القاسم سعد الله إلى لشل المؤتمر وعدم قدرته على تحقيق أي مطلب من مطالبه (سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، ص 181)

الجزائرية، ومقياسا للوعي الذي نما في المجتمع، وكانت بشكل أو بآخر تنبيهها للسلطات الفرنسية بعدم تماديها في سياستها الاستبدادية القمعية، ومراجعة نفسها بشأن موقفها من الشعب الجزائري، كما فتحت للجزائريين بابا لاستكمال مسيرة المطالبة بحقوقهم⁽¹⁾، على الرغم من الرد الفرنسي الجافي وغير المشجع.

ب - حوادث 8 ماي 1945 :

تركزت حوادث 8 ماي 1945 في نفس الإبراهيمي جرحا عميقا، حاله في ذلك كحال ملايين الجزائريين الذي عاشوا المذبحة، وشهدوا فظاعتها، وتطايرت إليهم أخبارها المفزعة. وقد عز عليه أن ينكب الشعب الجزائري بهذه النكبة الشنيعة، وهو يستعد لكفكة الدموع التي أسالتها الحرب الضروس، ولطي أيامها السوداء الكالحة التي ذاق فيها الناس لباس الخوف والجوع، ولاستقبال بقية أبناء الذين نجوا من نيرانها، ويبدأ عهدا جديدا تراوده فيه الآمال العذبة عن مستقبل أكثر إشراقا، وحياة كريمة يسودها العدل والمساواة اللذين طالما استشرقهما فلم ينلهما، ورجا أن تكون تضحياته العظيمة في هذه الحرب قربانا مقبولا لدى الدول المتحالفة ليستحق في نهايتها أن يعيش حرا كريما.

وعلى الرغم من أن الدافع الذي حدا بالشعب إلى أن يقبل بزج أبنائه في هذه الصرب لم يكن أكثر من وعد بذله الاستعمار - وهو في حالة انهزام وتضعف - إلا أن تطلع الجزائريين إلى الحرية، واسترخاصهم الثمن للحصول عليها، جعلهم يندفعون في قوة وحماس ليموتوا في حرب خاسرة، يحذوهم أمل

(1) يرى مالك بن نبي أن مشاركة جمعية العلماء في المؤتمر كان خطأ جعلها تنحرف عن خطها الذي رسمته لنفسها، لأنه ألحمها في الميدان السياسي الذي يعتمد على طلب الحقوق ويهمل القيام بالواجبات (بن نبي، مالك، شروط النهضة، ص 29) ونحن نرى أن الجمعية قد أدركت بعد فشل المؤتمر ذلك، فواصلت رسالتها الحضارية بتربية الأجيال، واقتنعت أن الحقوق تأتي بعد القيام بالواجبات، ولعل في موقفها من الحركة السياسية الجزائرية خير دليل على ذلك.

ضعيف في أن تتراجع السلطة الاستعمارية على عجزتها وعنصريتها، بعد أن ذاقت ذل الاحتلال على يد الألمان، وتعترف له بحقه: «أمة كالأمم حلت بها ويلات الحرب كما حلت بغيرها، وذاقت لباس الجوع والعري والخوف، وتحيفت الحرب أقواتها وأموالها ... وأكلت شبابها ... وصليت نار الحرب ولم تكن من جناتها، وقدمت من ثمن النصر مئات الألوف من أبنائها قاتلوا لغير غاية، وقتلوا من غير شرف، في حين كانت الأمم تقتتل على الملك، والملك مجد وسيادة، وعلى الحرية، والحرية حياة وعزة، أما هذه الأمة فكانت تقاتل لخيال من أمل، وذمء من حياة، وصباغة من رجاء، وخلق من وعد، علا نداؤه، وتجاوبت في الخافقين أصداؤه، من ديمقراطية زائفة كذب نبيها مرتين في جيل واحد»⁽¹⁾

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، واستعاد الاستعمار قوته، وانجلت عن بلاده غمة الاحتلال، التفت إلى الشعب الذي خرج يستنجزه الوعد، ويطالبه بكفاء ما قدم، ليعطيه الجواب المفحم الذي رآه مناسبا: «فلما سكن الإعصار وتنفست الأمم في جو من السلم، وتهيأت كل أمة أن تستقبل بقايا النار من شبابها ... عاودت الاستعمار ألوهيته وحيوانيته في لحظة واحدة ... وعاد بالتقتيل على من كانوا بالأمس يعدون حياته بحياتهم، ليريهم مبلغ الصدق في تلك الوعد، ويحدثهم بلغة الدم ومنطق الأشلاء أنه إنما أقام سوق الحرب ليشتري حياته بموتهم، وليرمم جداره بهدم ديارهم»⁽²⁾.

وكان ذلك إيذانا ببداية المجزرة التي لم تكن قمعا عاديا لمظاهرة، بقدر ما كانت انتقاما دمويا رهيبا، ربما كان بعض أسبابه أن الاستعمار أراد أن يعوض

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 370

(2) - المصدر نفسه، ص 370، 371

به ما فاتته في حرب النازية التي أذلته، فوجد في الشعب الجزائري الأعزل ضالته: «فقد فتح الناس أعينهم في يوم واحد على بشائر تدق بالنصر، وعلى عشائر من «المنتصرين» تساق للنحر، وفتحوا آذانهم على مدافع للتبشير وأخرى للتدمير ... وفي لحظة واحدة تسامع العالم بأن الحرب انتهت مساء أمس ببرلين وابتدأت صباح اليوم بالجزائر وفيما بين خطرة البرق، بين الغرب والشرق، أعلنت حرب من طرف واحد، وانجلت في بضعة أيام عن ألوف من القتلى العزل الضعفاء، وإحراق قرى وتدمير مساكن، واستباحة حرمت ونهب أموال⁽¹⁾».

وكان جزاء الشعب الجزائري الذي أمد الجيش الفرنسي بالأعداد الوفيرة من الشباب التي حررت فرنسا، وبالعمال الذين نشطوا صناعاتها، وبالمنتجات الغذائية التي أطعمت شعبها، أشلاء من الجثث وركاما من الجماجم، وقرى مدمرة، وأعراضا منتهكة، وأموالا مسلوقة، وأطفالا لا مشردين.

وعاد المجندون الجزائريون ليروا بأعينهم ما صنعت فرنسا بأهلهم وليفتحوا أعينهم على الصورة الحقيقية للاستعمار «لك الويل أيها الاستعمار ! أهذا جزاء من استجده في ساعة العسرة فأنجذك واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام، ويجوع أهله وأهلك بطان؟ ... أيشرفك أن ينقلب الجزائري من ميدان القتال إلى أهله بعد أن شاركك في النصر لا في الغنيمة ... فيجد الأب قتيلا، والأم مجنونة من الفرع، والدار مهدومة أو محرقة، والغلة متلفة، والعرض منتهكا، والمال نهبا مقسما، والصغار هائمين في العراء»⁽²⁾.

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 371

(2) - المصدر نفسه، ص 371

لقد صور الإبراهيمي مجزرة 8 ماي الأليمة تصويرا واقعيا دقيقا، وعلى الرغم من أنه لم ينح في هذا التصوير نحو المؤرخ الذي يسرد الأحداث ويثبت الإحصاءات، ويحلل الوقائع، إلا أنه وفق إلى حد بعيد في عرض أحداثها وبيان أسبابها، وشرح خلفياتها وآثارها في أسلوب أدبي جميل امتزج فيه الوصف الواقعي بزفريات النفس المتوجعة، واختلط فيه السخط بحدة الألم، والغضب الحاد بالحسرة.

ومن خلال تصفح كتاباته في هذا الموضوع، نلاحظ التغيير الواضح في موقفه السياسي من الاستعمار، والتطور الذي طرأ على ميزان القوى في الجزائر، ونلاحظ أن الأمور بدأت تتسير نحو تصعيد المقاومة ضد المستعمر، ورفض كل ألوان المهادنة والصلح. فقد ختم الإبراهيمي حديثه عن حوادث 8 ماي بالتأكيد على القيمة التاريخية الهامة لهذا اليوم، وعده مصدرا من مصادر الإلهام التي يجب أن ترجع إليها الأجيال الجزائرية لتستمد منها العبرة، وتتعلم الدروس، وذكر أن الواجب يحتم على الجزائريين أن يعكفوا على إحياء ذكراه حتى لا يتطرق إليه النسيان: «يايوم ... لك في نفوسنا السمة التي لا تمحى، والذكرى التي لا تنسى، فكن من أية سنة شئت، فأنت يوم 8 ماي وكفى. وكل ما لك علينا من دين أن نحي ذكراك! وكل ما علينا لك من واجب أن ندون تاريخك في الطروس لنلا يمسحه النسيان من النفوس»⁽¹⁾.

والإبراهيمي في تأكيده على ضرورة إحياء ذكرى 8 ماي، كان يريد من الأجيال الجزائرية أن تتخذ من هذه المحطة التاريخية معلما بارزا، تجدد من خلاله عزائمها، وتشحذ هممها، وتعد نفسها لمرحلة جديدة في صراعها مع الاستعمار، لا

(1) . الإبراهيمي، عين البصائر ص 372

تقوم على الثقة في العدو والانسحاق لوعوده، بل تبني أمرها على الاعتماد على النفس، والعمل الشاق الذي يحقق لها أمنيته في الانعتاق والتحرر.

وفعلا، فقد كانت أحداث 8 ماي حدا فاصلا في التاريخ الجزائري، ومنعطفا جديدا في حياة الحركة الوطنية، حيث استطاعت بما صاحبها من بطش وقهر، أن تحمل الوطنيين الذين مازالوا إلى ذلك الحين يعتقدون في إمكانية الحصول على الحقوق عن طريق المفاوضات والعمل السياسي السلمي إلى تغيير وجهة نظرهم، والاعتناع بضرورة الانفصال عن السيادة الفرنسية والاتجاه نحو المطالبة بالاستقلال الذي يضمن للجزائريين الحق في ممارسة حياتهم بالطريقة التي يرتضونها لأنفسهم. كما تركت أثرها العميق في الشعب الجزائري الذي تعمقت الهوية بينه وبين المستوطنين الفرنسيين إلى حد أصبح فيه الحقد والبغض هو العلاقة النفسية الوحيدة التي تربطهما.

وفي محاولة يائسة لرأب هذا الصدع الذي أحدثته حوادث 8 ماي المهولة، سارعت الحكومة الفرنسية إلى إصدار دستور 20 سبتمبر 1947 الذي أرادت من خلاله أن تمسح به آثار مجازرها، وتضمم به جروح الجزائريين النازفة، وتحتوي المد الثوري الذي كان قد نما وترعرع وأصبح قناعة راسخة لدى معظم القيادات الوطنية وكل الطبقات الشعبية⁽¹⁾. وقد نص هذا الدستور على المساواة التامة بين الجزائريين والفرنسيين في جميع الحقوق، وإلغاء القوانين الاستثنائية، وتوسيع حق الجزائريين في التمثيل البرلماني، بحيث يصبح لهم ستون مقعدا في المجلس الجزائري بالمساواة مع الفرنسيين.

(1). عباس فرحات، ليل الإستعمار، ص 253، 254.

غير أن الشعب الجزائري الذي لم تستشره فرنسا بشأن هذا الدستور، ولم تأخذ بعين الاعتبار مطالبه وتطلعاته رفضه جملة وتفصيلا، وأكد للسلطات الفرنسية - من خلال هذا الرفض - أن ما تعتبره هي فتحا جديدا في سياسة الإصلاحات، لا يعدو أن يكون محاولة فاشلة، عفا عليها الزمن، وتجاوزتها الأحداث، ويجب عليها أن تتكيف مع الظروف التاريخي الجديد الذي يستعد فيه الشعب الجزائري لدخول عهد الحرية والاستقلال، يقول الإبراهيمي: « إن الشعب الجزائري قد أصبح - من طول ما جرب ومارس - في حالة يأس من العدالة، وتسفيه للوعود والعهود وكفر بهذه الديمقراطية التي يسمع بها ولا يراها. وإنه أصبح لا يؤمن إلا بأركان حياته الأربعة، ذاتيته الجزائرية، وجنسيته، ولغته العربيتين، ودينه الإسلامي ... وإن الشعب الجزائري مريض متطلع للشفاء وجاهل متوثب إلى العلم وبائس متشوق للنعيم، ومنهوك من الظلم، مستشرف إلى العدالة، ومستعبد ينشد الحرية ... ولكنه ليس كما يقال عنه: جائع يطلب الخبز، فإن وجده سكت »⁽¹⁾.

وقد كان للإبراهيمي موقفه الواضح من دستور 1947 الذي عده دستورا أبترا وأعرجا وناقصا ومشوها، وتعبيرا فاضحا عن العنصرية الاستعمارية التي تجاهلت شعبا بأكمله، ووضعت له دستورا دون أن تستشير فيه.

وهو يستغرب منطق الاستعمار الأعوج الذي لا يريد أن يتعلم من الأحداث، ولا أن يساير روح العصر، ولا أن يتفهم طبيعة المرحلة، التي تؤكد كل مظاهرها أن الشعب الجزائري قد شب عن الطوق، وتجاوز سنوات الضعف والجهل، وأنه قادر على ممارسة حقوقه بنفسه وليس بحاجة إلى وصي يوجهه ويأخذ بيده:

(1) - الإبراهيمي، عهدن البصائر، ص 79.

«واخيبتاه! أبعد مداورات دامت سنوات يفرض على الأمة الجزائرية دستوراً أعرج أبتّر، لا يسمع ولا يبصر لم يأخذ رأيها في وضعه، ولم يسمع صوتها في دفعه؟ وإذلاه...! أبعد البراهين اللائحة كفلق الصبح على حق هذه الأمة في السياسة وفي الحياة، وعلى استحقاقها لجميع الحقوق في السياسة والحياة - تعامل بالدون، وتحمل على خطة الهون؟! »⁽¹⁾.

ولعل في هذا النص الصريح الذي كتبه الإبراهيمي عام 1947، إشارة واضحة إلى التطور الذي شهده فكره السياسي، والتحول الهام الذي طرأت على الساحة الجزائرية، والتي نقلت النضال الوطني من ميدان المطالبة بالحقوق في إطار السيادة الفرنسية إلى المطالبة بالاستقلال التام.

ج - الثورة الجزائرية:

كان اندلاع الثورة الجزائرية أعظم بشرى بشر بها الإبراهيمي وهو في المشرق العربي، فقد وردت عليه أخبار تفجير الثورة، فأيقن أن ظنه في الشعب الجزائري لم يخب، وأن الآمال التي علقها على الأجيال الجزائرية، التي تشربت روح العزة على يد الحركة الوطنية، قد تحققت. فقد استطاعت أن تشق طريقها نحو المستقبل، ووفقت في اختيار الخطوة الأولى نحو هذا المستقبل، وهي الكفاح المسلح. وأن البذور التي بذرها هو وإخوانه من أبطال الحركة الوطنية قد أثمرت وأنت أكلها في نفوس الناشئة التي جاهدوا في سبيل تطهيرها وتقويمها وإعدادها للحياة الحرة الكريمة.

فالثورة الجزائرية هي المحطة الرئيسية التي كان يجري الإعداد لها على قدم وساق، بعد أن أثبتت الأحداث والتجارب المريعة أن الاستعمار ليس له إلا دواء

(1) الإبراهيمي، عين البصائر، ص 322

واحد هو القوة: «انفجر بركان الثورة المباركة في الجزائر ليلة الأول من نوفمبر....
وقد كنا نحن الجزائريين الموجودين خارج الجزائر نتربح هذه الثورة ونتوقعها،
نتربحها لأنها الأمل الوحيد في تحريرنا من العسف الفرنسي الذي لا يعرفه إلا من
ابتلي به، ونتوقعها لأن هذا هو وقتها، ولأن فرنسا لا تفهم إلا هذه اللغة ولا يفتح
أذانها إلا هذا الصوت⁽¹⁾».

وقد استطاع الإبراهيمي، من خلال تحليله للأحداث التي وقعت في الأيام
الأولى من شهر نوفمبر 1954 ، أن يستخلص جملة من الملاحظات التي كشفت له
عن طبيعة هذه الثورة وبعض خصائصها. فقد تبين له أنها ثورة شعبية منبثقة من
أعماق الجماهير، التي تبنتها واحتضنتها والتحمت معها، وتكفلت بتحمل أعبائها
والسير بها حتى آخر المطاف، وبذلك ارتفعت عن الخلافات الحزبية، وتخلصت من
مظاهر الفرقة التي هي سوس الحركات الوطنية، ومنها أنها تركز على تنظيم
محكم وتخطيط جيد، وتستند إلى خبرة عسكرية عميقة تعرف كيف توجه الضربات
إلى المواقع الإستراتيجية المؤثرة: « فهمنا من هذا السرد المجرد من التعاليق
أشياء كثيرة منها أن وقوع عدة حوادث لحظة واحدة، يشهد بحسن التدبير
والنظام والإحكام ومنها أن الثورة شعبية غير متأثرة بالتأثرات الحزبية، ومنها أن
طابعها عسكري حازم عارف بمواقع التأثير⁽²⁾ ».

ثم حاول أن يضعها في إطارها الطبيعي، وأن يربطها بـماضي الجزائر
العاطر الذي تميز بالنزوع الدائم إلى الحرية وإباء الضيم، فأكد أن هذه الثورة
ليست سوى حلقة طبيعية في سلسلة الثورات التي شهدتها الجزائر. وأن الثورة

(1) - الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 24

(2) المصدر نفسه، ص 25

كانت دائما من أبرز الخصائص النفسية التي تميز بها الإنسان الجزائري على مر القرون. فقد اشتهر بالإباء والحفاظ على الأرض، والغيرة على العرض، والأنفة، والسخاء الذي يبتدىء بالمال ويعلو فينتهي بالروح⁽¹⁾.

ولما جاء الإسلام، عمق فيه هذه السمائل، وأصبغ عليها معنى روحيا ساميا هو معنى الجهاد، وفرضت عليه طبيعة بلاده المقابلة للبلاد المسيحية، أن يظل دائما في موقف الحذر المتيقظ المرابط على الثغور لرد أي عدوان وصد كل غارة : «لم تذل العصور الإسلامية من الجهاد بالنفس في الجزائر لأن الجارين المتقابلين على ضفتي البحر الأبيض أصبح كل واحد منهما بالمرصاد لصاحبه ... فكانت الثغور الجزائرية المشهورة والمهجورة التي يتطرق منها العدو عامرة دائما وأبدا بالمرابطين وهم قوم نذروا أنفسهم لله ولحماية دينه يبتغون فضلا من الله ورضوانا»⁽²⁾.

وقد شهد التاريخ أن الاستعمار الفرنسي لم يطمئن به المقام في الجزائر إلا بعد سبعين سنة من الحروب الضارية، والمعارك العنيفة، ظل الجزائري خلالها يدافع بعنف واستماتة عن أرضه وعرضه، ويبذل دماءه مغزارا في سبيل صد المعتدي وإجلاء الغزاة. ولم تتمكن فرنسا من السيطرة على الوضع إلا بعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأرواح والأموال، وارتكبت فظائع يندى لها جبين الإنسانية خجلا.⁽³⁾

ولم تكن ثورة الأمير عبد القادر في هذا المضمار الأولى ولا الأخيرة، وإن كانت أعنف ثورات المقاومة، وأكثرها تنظيما، وأطولها مدة، وأشدّها وقعا على

(1) - إبراهيمي، في قلب المعركة، ص 62

(2) - المصدر نفسه، ص 63، 64

(3) - عباس، لرحلات، لبل الاستعمار، ص 79، 87

الاستعمار. فقد لبثت الجزائر خلالها: «ثمانية عشر عاما في ثورة مسلحة نارية متصلة الأيام والليالي بقيادة الأمير البطل عبد القادر بن محي الدين المختاري، سجلت فيها من صفحات البطولة والحمية ما شهد به العدو قبل الصديق، وكم أذاقت فرنسا اليتوع⁽¹⁾ ممزوجا بالحرمل لا بل جرعتها السم حدوقا في الخردل⁽²⁾ وكم واقفها أبطال الجزائر فدحروها وألزموا جيوشها الجرامة الاحتماء بالسواحل بضع عشرة سنة... ولما اجتمع علي عبد القادر تدبير الأقدار وتخاذل الأنصار وقعود الجار استسلم، ولكن الجزائر لم تستسلم، وبقيت الثورات مشتعلة في جهات القطر»⁽³⁾.

ولئن سكنت الإنسان الجزائري - طوال الفترة التي سبقت الثورة التحريرية - وتحمل القهر الاستعماري، فلأن الاستعمار سلط عليه صنوفا من الويلات والمصائب، أفقدته كل مقومات الحياة الكريمة، وكسرت عزة نفسه، وأذلته للفقر والجهل، لكنه ما لبث أن استعاد تلك الخلال العظيمة التي طبعت تاريخه الطويل، بعد أن وجد من يتولاه بالرعاية ويشمله بالتربية، ويوقظ فيه ما كان نائما - وما هذه الثورة التي أربكت الاستعمار ففقد توازنه واختلطت عليه بسببها أموره سوى دليل حي على ذلك: «إنكم وصلتم بثورتكم هذه حلقات الجهاد ضد المعتدين الظالمين، الذي كان طبيعة ذاتية في الجزائري منذ كان وكشفتهم عن حقيقته الرائعة في إباء الضيم والموت في سبيل العزة، وجلوتم عن نفسيته الجبارة ما علق بها في السنين الأخيرة من صدأ الفتور»⁽⁴⁾.

(1) - اليتوع: جمع يتوعات: كل نبات له لبن.

(2) - الخردل: نبات بري ينتهي لهي الخنول مع الزرع أو على حافة الطرق.

(3) - الإبراهيمي، لهي قلب المعركة، ص 163

(4) - المصدر نفسه، ص 33

وإذا كانت الثورة التحريرية وثيقة الصلة بتاريخ الجزائر الثوري، فإنها في شموليتها وقوتها واستمراريتها ليست وليدة فراغ، كما أنها ليست نزوة عابرة ولا غضبة فائرة لا تلبث أن تهدأ أو تموت، بل هي ثمرة طبيعية لجملة من الأسباب المنطقية التي يؤدي استعراضها إلى الاعتقاد بأن هذه الثورة لن تتوقف حتى تؤدي الغرض من قيامها، ولن تهدأ سورتها حتى تحقق الهدف الأسمى الذي قامت لأجله.

ويعزو الإبراهيمي السبب الأول والأكبر لانفجار الثورة إلى الاستعمار الفرنسي، فهو المتسبب الفعلي فيها، وهو الذي أوجد كل الأسباب الأخرى التي اجتمعت وهيأت الجو المناسب لقيامها، وهو المستهدف فيها، وبزواله تزول تلك الأسباب وتصل الثورة إلى غايتها: «إن الصراع القائم الآن في الجزائر ليس نتيجة لعلّة طارئة أو لطفرة عارضة، وإنما مصدره الأصيل وعلته الأساسية هو الاستعمار وأثاره الطبيعية فيه من استعباد وإذلال وقضاء على الحريات وامتهان للكرامة الإنسانية»⁽¹⁾.

فالاستعمار الفرنسي هو الذي ظل لمدة قرن وعشرين سنة يسوم الجزائريين الخسف ويسوقهم بعصا القهر والذل والزجر، ويعاملهم بمنطق العنصرية البغيض ويقتل فيهم معنى الإنسانية: «هذه بوادر الانفجار الذي يؤدي إليه الضغط ... وهذا هو الحرف الأول من أبجدية أطول من الأبجدية الصينية مما تنطوي عليه نفس الجزائري لفرنسا من غل وحقد وبغضاء، ومن غرس الحنظل جنى المر، فقد غرست فرنسا أسباب هذه المعاني في نفسه، ثم عاملته معاملة لا يعامل الحيوان الأعجم

(1) - الإبراهيمي، لم يلق الممركة، ص 42

بعشر معشارها في حقبة من الزمن تمتد إلى مائة وأربع وعشرين سنة ⁽¹⁾ .
وهو الذي وضع يده على خيرات الجزائر، واستولى على أراضيها الخصبة
وعقاراتها الواسعة، وأرغم أصحاب الأرض على العمل عنده بأبخس الأجور في
أسوأ الظروف، وأذاقهم مرارة الجوع، وجرعهم كأس الذل، وعرفوا تحت سلطته
الفقر في أبشع صورته، والمرض بكل أنواعه: «لم تبق لكم فرنسا شيئا تخافون
عليه ... لقد تركتكم فقراء تلتمسون قوت اليوم فلا تجدونه، أم تخافون على الأرض
وخيراتها، وقد أصبحتم فيها غرباء حفاة عراة جياعا، أسعدكم من يعمل فيها
رفيقا زراعيا يباع معها ويشترى، وحظكم من خيرات بلادكم، النظر بالعين،
والحسرة في النفس، أم تخافون على القصور، وتسعة أعشاركم يأوون إلى
الغيران كالحشرات والزواحف؟» ⁽²⁾

وهو أيضا الذي حارب دين الأمة ولغتها، فاستولى على أوقافها، وهدم
مساجدها، وحول ما بقي منها إلى متاحف ومخازن، وشرد العلماء واضطهد
المخلصين من أبناء الشعب وطاردتهم في كل مكان، ووقف للغة العربية بالمرصاد،
فحرم تعليمها وقضى على معاهدها، واستهدفها بالمحو والمسح ⁽³⁾ . كما لم يتوان
عن ارتكاب المجازر الشنيعة والمذابح الفظيعة في حق الشعب الجزائري ولم تتوقف
أنهار الدماء منذ أن وطئت قدماه أرض الجزائر ⁽⁴⁾ ، ولم يكتف بذلك بل ساق
عشرات الآلاف من الشباب بموجب قانون التجنيد الإجباري إلى ساحات الحرب،
ليمكنوا لسلطانهم في المستعمرات التي ثارت عليه، وليدافعوا عن وجوده حين

(1) - الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 21

(2) - المصدر نفسه، ص 17

(3) - المصدر نفسه، ص 158

(4) - المصدر نفسه، ص 131

اجتاحته قوات الألمان، واحتلت أرضه⁽¹⁾.

كل هذه الأسباب مجتمعة، تركت في نفس الجزائري ندوبا عميقة، وبصمات سوداء، وجروحا غائرة، ما فتئت فرنسا تنكّزها في مختلف المناسبات، فيتسع الجرح وتزداد آلامه، إلى أن أيقن الجزائريون أن فرنسا ترى أن حياتها مرهونة بموتهم، فأرادوا أن يثبتوا لها أنهم يعتقدون كذلك أن حياتهم لا تكون إلا بموتها: «الذي علمناه من احتكاكنا بهذه المخلوقة العجيبة⁽²⁾ ودرسناه من أهوائها وطبائعها أنها لا تصدر عن عقل، ولا ترد على بصيرة، وأنها لا ترضى المشاركة في الحياة وأن القاعدة التي تبني عليها أمرها هي: إما ربح كامل، وإما خسارة شامل، وأن حياتها مشروطة بموت غيرها، وعليه فلماذا تلوم الناس إذا اعتقدوا أن حياتهم مشروطة بموتها»⁽³⁾.

فكانت الثورة الجزائرية - كما يرى الإبراهيمي - هي حصاد هذه العقود الطويلة من الظلم والبغي والظغيان، وأنه أن الأوان لكي تدفع فرنسا ثمن سياستها الاستبدادية، وتجني ثمرة ما زرعت، يقول موجهها حديثه إلى فرنسا: «هذه نتيجة سياستك البليدة، وهذا جني غرسك الخبيث، زرعت الحنظل فتجرعي مرارته، وحاربت الله في دينه، ومحارب الله محروب⁽⁴⁾، فأخزأك في جميع المواقف حاولت أن تقطعي ما وصل الله من أجزاء الشمال الإفريقي، وأن لا تجمعينا إلا في بلاياك ومصائبك، فكان ظلمك أكبر جامع لشملاها، وأعظم موحد لها في بغضك، ثم في الثورة عليك، ويا ويحك إذا انفجرت عليك موجات الغضب

(1) - الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 159

(2) - يقصد بها فرنسا

(3) - الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 22

(4) - محروب هو الرجل الذي سلب ماله وترك بلا شيء.

من القلوب المملوءة حقدا عليك»⁽¹⁾.

لذلك كانت هذه الثورة قوية وعنيفة بقدر قوة الأسباب التي تقف وراءها .
والإبراهيمي يرى أن ثورة الجزائر تحمل معنيين لغويين: معنى الثورة،
ومعنى الثار، فالجزائر «ثائرة بالمعنى الأول على الاستعمار الفرنسي الذي جثم
عليها قرنا وربع قرن وسامها سوء العذاب ورماها بالمخزيات الثلاث: الجهل والفقر
والمرض، واستأثر بخيراتها الوفيرة، وقضى بأساليب يعجز عنها الشيطان على
كل أسباب القوة فيها»⁽²⁾.

وهي أيضا تطلب في حربها هذه ثارا قديما وثقيلا في عنق فرنسا، بدأ منذ
الغزو الاستعماري، وظل يورقها ويقض مضجعها إلى أن جاءت الفرصة المناسبة،
فنهضت لتقتصم ممن أذلها واستعبدها: «الجزائر ثائرة بالمعنى الثاني، فلها عند
فرنسا ثارات تمتد مع القرن سنة سنة، فكم قتلت من أبناء الجزائر مئات وألوف
وعشرات الألوف ... إنما الثارات والتترات التي لنا في عنق فرنسا هي دماء
أبنائنا التي أريقَت في سبيلها في الحروب الاستعمارية التي أذلت بها رقاب الأمم
في الحروب الأوربية التي حفظت بها وجودها. إنما الثارات التي نطلبها من
فرنسا ولا نهـدأ حتى نأخذها بها ونشفي صدورنا بالاقتصاص منها هي ثارات من
قتلتهم غيلة وخداعا»⁽³⁾.

ولئن كانت الثورة قد انطلقت واحتضنتها الجماهير، واسترخصت في
سبيلها كل غال ونفيس، وعلقت عليها الآمال في تخليصها من سترطان الاستعمار،
فإن الواجب يقتضي أن تحاط بالعناية والرعاية حتى تضمن لنفسها الاستمرارية

(1) - الإبراهيمي، لي قلب المعركة، ص 31

(2) - المصدر نفسه، ص 158

(3) - المصدر نفسه، ص 159

بنفس الدرجة من القوة والحدة التي بدأت بها، وهو السبيل الأمثل لبلوغها الهدف الأخير وهو النصر.

وكان الإبراهيمي يرى أن الثورة الجزائرية يتوقف نجاحها على ثلاثة أشياء: أن يطول زمانها، وأن تعمم على القطر الجزائري، وأن يكون لها مدد مستمر من السلاح. وهو يعتقد أن كل الثورات التي قامت في العصر الحديث نجحت بتوفير هذه الشروط الثلاث، ويضرب لذلك مثلاً بالثورة الليبية وثورة الهند الصينية⁽¹⁾.

فأما الزمن فهو جزء ضروري تقتضيه طبيعة الثورة الجزائرية في شعبيتها وشمولها ويحتمه الوضع الاستعماري الذي يتميز بالقوة الطاغية المتفوقة في العدد والعدة، والرغبة الملحة في البقاء بالجزائر مهما كلفه ذلك من ثمن. فإذا طال زمن الثورة وتوالت الهزائم، وكثرت الخسائر، ارتبك العدو، وسادت البلبلة في أوساطه⁽²⁾، واختلطت عليه الأوراق، وأعاد النظر في موقفه حتى ينتهي به الأمر إلى الرضوخ للأمر الواقع.

أما تعميم الثورة، فهو إجراء إستراتيجي من أول أهدافه تشتيت قوى العدو، واستنزاف طاقته بتوزيعها على عدة نقاط، حتى لا يتسنى له محاصرة الثوار في جهة معينة، والقضاء عليهم كما فعل مع عشرات الثورات التي قامت ضده بعد سنوات الاحتلال الأولى، والتي كان من أكبر عوامل فشلها تركزها في منطقة معينة سهلت على الجيش الفرنسي تحديدها، وضرب نطاق من العزلة حولها، ومن ثم خنقها والقضاء عليها⁽³⁾.

(1). الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 48

(2). خطاب، محمود شيت، المغرب العربي، ج2، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط3، 1978، ص 251

(3). الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 163، 164

ومن شأن هذا التعميم أيضا أن ييبس الرعب في قلوب المعمرين المتعجرفين الذين يمسكون بزمام الاقتصاد الجزائري، ويستغلونه أبشع استغلال لصالحهم ويؤججون نار الانتقام ضد المجاهدين، ويؤلبون الحكومة الفرنسية على الثورة: «ففي سبيل هؤلاء ونزولا عند مرضاتهم ومطامعهم التي لا حد لها، تسوق فرنسا على الجزائريين الأضواء مع مطلع كل شمس الجيوش الجرارة وتملا عليهم البر والبحر والجو، وتتفق المليارات من الفرنكات في كل يوم»⁽¹⁾.

وهذان العاملان يدخلان ضمن الخطة الحربية التي يرى الإبراهيمي أن يأخذ بها الثوار الجزائريون كنوع من الإجراء الذي يحمي الثورة من الفشل، أما العامل الثالث وهو التسليح، فقد كان عقبة كأداء تقف في وجه الثورة الجزائرية نظرا للحصار الشديد الذي ضربته القوات الفرنسية على الحدود لمنع مرور أي إمداد. يقول الإبراهيمي: «وأما التسليح فهو أصعب الأشياء، لأن الجزائر محاطة بمراكش وتونس، ولا يمكن التسليح إلا منهما، وفرنسا محتاطة من عشرات السنين لهذه القضية بخصوصها، وما احتلت فزان⁽²⁾ إلا لهذا، وما بادرت بمفاوضة التونسيين، وإسكات الفدائيين في تونس إلا لهذا»⁽³⁾.

ونظرا للأهمية الحيوية التي يكتسيها عامل السلاح والمال في استمرار الثورة وتقدمها، فقد ركز عليه الإبراهيمي بشكل خاص أثناء اتصالاته المكثفة، سواء بالقيادة أو بالشعوب العربية والإسلامية.

وفي هذا الإطار، حاول أن يكشف لهم عن المخطط الاستعماري الذي يرمي إلى محاصرة الثورة والتضييق عليها من خلال إرهاب الفلاحين بالضرائب

(1). الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 176

(2). فزان تقع في صحراء ليبيا وقد احتلتها فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية عند انهزام إيطاليا.

(3). الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 49

وإحراق محاصيلهم الزراعية، وتهجيرهم من أراضيهم حتى يقطعوا المدد عن المجاهدين: «إن الجزائر المسكينة تنفق على ثورتها كل ما تملك من مال وسلاح وكسوة وطعام، وهي صامدة في ذلك محتسبة، كل ذلك والفلاحة التي هي قوام حياة الجزائر تتعطل وتتآفه على التاريخ، وفق سياسة مرسومة من الاستعمار الفرنسي، لأنه يعلم أن وفرة الفلاحة وخصب السنوات معناه إمداد الثورة بالغذاء، فضيقوا دائرتها وأرهبوا الفلاحين بالضرائب من جهة، وبالإجلاء من الديار وعدم الاستقرار وفقد الأمن وتشديد المراقبة في تقدير المحصول، وإتلافه في كثير من الجهات قبل الحصاد أو بعده حتى يجوع الشعب ويجوع المجاهدون تبعاً لها فيستسلموا»⁽¹⁾.

كما بين لهم أن زمن الثورة كلما طال وامتد زادت أعباؤه، وأن المجاهدين وإن لم تلن لهم قناة في مقارعة المستعمر وإلحاق الهزائم المتوالية به، في حاجة شديدة إلى ما يعينهم، على تحمل أثقال هذه المسؤولية، وأن الجبهة الداخلية قد بذلت جهدها حتى لم تعد قادرة على الوفاء بجميع ما تتطلبه هذه الثورة من قوت وسلاح ومال، وأن الأمل معقود بالشعوب العربية والإسلامية لتؤدي ما عليها من واجب الأخوة والجوار، وأن المسؤولية التاريخية تحتم عليها أن تبذل كل ما في وسعها لتمد مجاهدي الجزائر بما يحتاجونه من المال والسلاح: «لا تنتزعوا من استمرار الثورة أربع سنوات وهي في عنفوان شبابها، وقوة أسبابها، وتصميم رجالها، وانتظام أعمالها، لا تنتزعوا من هذه الحالة ... الدليل من جهة واحدة على شجاعة الشعب الجزائري وقوة إيمانه ... وصبره في الزعازع، واستهانته بالشدائد وإقدامه على الموت في سبيل تحرير وطنه، ولكن انتزعوا - مع ذلك - دليلاً

(1). الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 186

آخر ومن جهة أخرى على أن ثورة أربع سنوات قد تحيقت أمواله التي غذى بها الثورة في سنواتها الأربع، وتحيقت أقواته الضرورية، وعطلت مكاسبه الطبيعية، فالفلاحة - وهي عماد حياته - معطلة، والتجارة معطلة، والموارد الحيوية معطلة، ووسائل الارتزاق كلها معطلة»⁽¹⁾.

وكان يذكر مخاطبيه دوماً أن الدعاء والثناء والإشادة بشجاعة المجاهدين وبطولتهم لا تسمن ولا تغني من جوع: «إن ثورة الجزائر شبت عن طوق الأقوال، وأصبحت في مرحلة لا غناء فيها للخطب وإن طالت، ولا للأقلام وإن صالت وجات، وإنما الغناء فيها للإيمان الثابت، يظاهره العمل الصامت، ولزكاة الأخوة، يؤديها عربي الشرق حقاً، ويأخذها عربي الغرب مستحقاً، فتقلب في يده سلاحاً يقتل به عدو الفريقين»⁽²⁾، وأن أحوج ما تحتاج إليه الثورة في هذا الوقت هو المدد المادي من مال وسلاح يقوي الإرادة ويجدد العزيمة، ويعزي النفس بطول الطريق، ويخفف من مشقته وأهواله، ويمهد السبيل إلى النصر المبين: «لا تخطبوا للجزائريين فقد شبوا عن طوق الخطب، ولا تنشدوا لهم القصائد فعندهم ما هو أفصح منها... إملأوا أيدي إخوانكم سلاحاً يملأوا تاريخكم محامد ومآثر ويملأوا قلوب أعدائكم رعباً ورهبة، أكفهم مؤونة الأيام يكفوكم مؤونة القتال»⁽³⁾.

وقد أقيم في العراق عام 1957 أسبوعاً للجزائر الثائرة، خطب فيه إبراهيمي، وأعاد على الأسماع هذه المعاني، وأكد أن الثورة مستمرة على الرغم من كل ما يقف أمامها من العوائق، وأن الشعب الجزائري مصمم على المضي في طريقه: «إلى أن يغنى، أو يحكم الله له بالنصر، وقد اطردت معه سنة الله في

(1). إبراهيمي، في قلب المعركة، ص 152

(2). المصدر نفسه، ص 122 - 123.

(3). المصدر نفسه، ص 183.

نصرة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، بما أمن وصبر وضحي، ولقد أصبح يناجز عدوه فيجرعه الغصص ويكايده فيفوت عليه الفرص⁽¹⁾».

ولم يفته أن يذكرهم بالواجب المقدس تجاه هذه الثورة التي هي تاج العرب والمسلمين، ومناط فخرهم واعتزازهم، ورافعة ذكرهم في العالمين، وأن يوضح لهم أنه إذا: « كانت ذخيرة الشعب الجزائري من الإيمان لاحد لها، ورصيده من الشجاعة والصبر لا ينفذ، فإن طاقته المادية معرضة للنفاذ، والعدو لدود لنيم، وله أعوان على الشر، وصريخ قريب في البر والبحر، وإخوانكم الجزائريون منفصلون عن بني العمومة في هذا الشرق ... لا يجتمعون بهم في صعيد، ولا يأوون منهم إلى ركن شديد⁽²⁾ ».

ثم أهاب بهم ألا ييخلوا إخوانهم بما يستحقونه من عون مادي، وأن يبذلوا لهم ما يستطيعون في هذا السبيل، وفتح باب التبرعات وخاطبهم قائلا: « اجعلوا هذا الأسبوع كالينبوع، يفور ولا يفور، وكماء دجلة يفيض ولا يفيض، وكيوم الجمعة عند القانت الأواب، تقل حركاته، وتكثر بركاته⁽³⁾ »، وكان هذا دأبه في كل التجمعات التي تتاح له فيها فرصة الكلام.

هذه لمحات من جهاد الإبراهيمي الطويل في سبيل الثورة الجزائرية المباركة، والجدير بالذكر هنا، أن هذه المواقف الجهادية كانت تكتسي نوعا من القداسة، باعتبار مكانة الإبراهيمي الروحية عند الشعب الجزائري، فكان لبياناته وتصريحاته وقعها الخاص وأثرها الطيب، وكان لمواقفه المؤيدة وزنها في الساحة، وكان رأيه: « عبارة عن (فتوى) تقول للشعب الجزائري أن الجهاد قد حق عليك

(1). الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 124

(2). المصدر نفسه، ص 124، 125

(3). المصدر نفسه، ص 127

وأن السلطات الفرنسية في الجزائر إنما هي سلطات كافرة يجب مكافحتها شرعا، بالإضافة إلى الوزن السياسي لهذه الفتوى، فالشيخ الإبراهيمي كان من رجال الدين البارزين وكان مشهودا له بالتعمق في الفقه والأصول وأحكام الشريعة الإسلامية، وكان زعيما لهيئة تجمع إلى الدفاع عن الدين الإسلامي حرية التعليم العربي، وإحياء الشخصية العربية - الإسلامية. ولذلك قلنا أن رأيه ليس في وزن رأي زعيم آخر في بلاده أو في خارجها»⁽¹⁾.

ونخلص في الأخير إلى القول أن الإبراهيمي قد عاش الثورة الجزائرية بكل وجدانه واهتز مع كل حادثة من حوادثها، وتجاوب مع كل انتصاراتها، وبذل جهودا مضنية ليضمن لها المدد المادي اللازم، ويوصل صوتها إلى أكبر عدد ممكن من العرب والمسلمين، وركب في سبيل ذلك المصاعب، وظل قلبه معلقا بساحة المعركة، داعيا الله أن تنجلي عن فتح مبين ونصر مؤزر للمؤمنين، وهزيمة نكراء للظالمين المعتدين.

منهج الإبراهيمي في مواجهة الاستعمار

وفي ضوء ما تقدم، يمكن أن ندرك أن نضال الإبراهيمي السياسي قد اعتمد في شكله العام على المواجهة والصراع مع الاستعمار الفرنسي في سبيل الحصول على حقوق الجزائريين الدينية والاجتماعية، باعتباره العدو الوحيد الذي كان يناصب الأمة العدا، ويستهدف كيانه الحضاري بالهدم. وقد أخذ هذا النضال السياسي في أول أمره شكلا سلميا بعض الشيء، باعتبار الحالة السياسية السائدة في الجزائر آنذاك، ووضعية الحركة الإصلاحية التي تستدعي التروي والحكمة، لكنه ما لبث أن اتجه نحو المواجهة السافرة مع منتصف سنوات

(1) - الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص. 8.

الأربعين وسنوات الخمسين، التي سجلت اشتداد الصراع بين الاستعمار والإبراهيمي.

وهكذا، كانت المواجهة مع الاستعمار هي روح النشاط السياسي عند الإبراهيمي، وقطب الرحى الذي تدور حوله كل القضايا، وهذا دليل واضح على النزعة الثورية عنده، والتي ترفض المهادنة والمسالمة والمساومة. ولا نبالغ إذا قلنا أن الإبراهيمي يعد في هذا المجال، من أشهر الكتّاب الجزائريين في العصر الحديث مقاومة للاستعمار، فقد كانت مقالاته في البصائر الثانية براكين ثائرة تقذف بحممها في وجه المستعمر، ولم يكن يخشى في الله لومة لائم، على الرغم مما كان يترتب على تلك المواجهة الشجاعة، المبالغة في الصراحة والحدة، من مضايقات واضطهادات، وحصار خانق وتضييق دائم.

ومن أشهر القضايا التي اشتدت حولها المواجهة: قضية التعليم العربي الحر، وقضية تعميق الانتماء الوطني والقومي للشعب الجزائري التي كان يهدف الإبراهيمي من ورائها إلى ربط الجزائري بوطنه وتحطيم أسطورة الجزائر الفرنسية، وقضية المطالبة بفصل الدين عن الحكومة الاستعمارية. وكانت هذه القضية من أكثر القضايا التي استنفذت جهوده لذلك سنختارها كنموذج للحديث عن منهج الإبراهيمي في مواجهة الاستعمار .

إن المنهج الذي انتهجه الإبراهيمي في مواجهة الاستعمار بالنسبة لقضية فصل الدين عن الحكومة يقوم على خمسة عناصر:

1- كشف حقيقة الاستعمار وأهدافه

2- الإبانة عن وسائله وأساليبه

3- فضح أعوانه ورجاله

4 - التصدي لشبهاته ومزاعمه

5 - خصائص منهجه في هذه المواجهة.

أولاً:- كشف حقيقة الاستعمار وأهدافه:

عمد الإبراهيمي في مواجهة الاستعمار بشأن قضية فصل الدين عن الحكومة إلى كشف الغطاء عن الوجه الحقيقي الذي يخفيه وراء سياسته وقوانينه، ورفع الستار عن الدافع الأساسي الذي حدا بالدولة الفرنسية إلى غزو الجزائر، في محاولة للوقوف على أصل المشكلة ومنبعها الأول، وقد تبين له من خلال القرائن التاريخية أن الروح الصليبية التي تغذيها الكنيسة الكاثوليكية هي التي نفخت في القادة الفرنسيين الاستعداد القوي للهجوم على الجزائر والاستيلاء عليها.

ولم يشك لحظة واحدة - خلال استقراءه لتاريخ الاحتلال - أن وجوده في الجزائر بعساكره وأساطيله ليس سوى حلقة من حلقات الحروب الصليبية، وقد وجد من المؤيدات ما جعل هذه الحقيقة قناعة راسخة: «لا يجد الباحث عناء في العثور على مصداق ما قلناه من تمكن النزعة الصليبية في هؤلاء القوم»⁽¹⁾.

فقد حفل غزو الجزائر بالمظاهر التي تكشف عن النزعة الصليبية من هدم للمساجد وتدنيس للمقدسات، واستيلاء على الأوقاف، وتحويل لكبريات المساجد إلى كنائس، مما جعل الإبراهيمي يقول في يقين: «جاء الاستعمار الدنس للجزائر يحمل: السيف والصليب، ذلك للتمكن، وهذا للتمكين، فملك الأرض واستعبد الرقاب، وفرض الجزى وسخر العقول والأبدان، ولو وقف عند حدود الدنيويات لقلنا: تلك هي طبيعة الاستعمار الجائع تدفعه الشهوات إلى اللذات ... ولكنه كان

(1). الإبراهيمي، عمود البصائر، ص 188

استعماراً دينياً مسيحياً عارياً، وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم، وانتهك حرماته من أول يوم... وتدخل في شعائره بالتضييق والتشديد كل ذلك بروح مسيحية رومانية تشع بالحقد وتفور بالانتقام»⁽¹⁾.

وكان لابد لهذه العقلية الصليبية الحاكمة أن تتحكم في أفعال وتصرفات الحكومة الاستعمارية حين يتصل الأمر بفصل الشؤون الإسلامية عنها. وقد كان ذلك، فلم يشفع للإسلام المبادئ اللاتينية والجمهورية التي تنادي بها فرنسا، ولم يجد في قوانينها ما ينصفه ويعيد الحق لأهله، لأن الاستعمار يعامله من زاوية العداوة المستحكمة بين المسيحية والإسلام: «بقيت قضية فصل الإسلام عن الحكومة الجزائرية منظورة بالعين الاستعمارية، وموزونة بالميزان الصليبي، ومفهومة بالعقل المتحجر، (تجمهرت) فرنسا أو (تدكرت) أو اختلفت عليها الألوان بياضاً وحمرة»⁽²⁾.

أما الأهداف التي كان الاستعمار يعمل على تحقيقها من خلال إحكام سيطرته على الشؤون الإسلامية في الجزائر، فهي تدور جميعها في مدار واحد ينتهي مع مرور الزمن إلى القضاء التام على الإسلام وترحيله من الجزائر، ولم يكن الاستيلاء على المساجد واستغلالها لصالح السياسة الاستعمارية، بإنشاء طبقة من رجال الدين تخضع لها وتأتمر بأمرها في تشويه الإسلام، وطمس معالم الحية إلا خطوة في هذا الطريق، تلاه استيلاء على الأوقاف الإسلامية لحرمان الجزائريين من المورد المادي الأساسي الذي يمول المساجد والمعاهد الدينية. وقد أشار الإبراهيمي إلى أن هذه الحرب الموجهة للإسلام، هي تنفيذ

(1) - الإبراهيمي، عمرون البصائر، ص 63

(2) - فلهينز نلسن، ص 172

تدريجي لخطّة قديمة أعدها أقطاب الصليبية في فرنسا قبل أن يجهزوا الجيوش لغزو الجزائر، وأداروها على أساليب خاصة للقضاء على الإسلام وإحلال النصرانية مكانه: « لقد جاء قواد الاحتلال وفي أيديهم الأسلحة القاتلة، وعلى ألسنتهم الوعود الكاذبة، وفي حقائبهم القوانين التي يعاملون بها الإسلام، وكل ذلك مدبر من وراء البحر قبل خوض البحر »⁽¹⁾.

وتتدرج هذه الخطّة ضمن المساعي الصليبية التاريخية التي استهدفت طوال قرون الشمال الإفريقي، لتعيد فيه مأساة الأندلس. فبعد أن يتحدث إبراهيمي بإسهاب عن أساليب الاستعمار في حرب الإسلام يخلص إلى القول: « وهل في باب النكاية بالإسلام وأهله أبلغ من هذا ؟ وهل هذا إلا صورة مقنعة مما أصاب الإسلام في إسبانيا؟ وهل هو إلا مقدمة لمحوه وترحيله من هذا الوطن؟ وهل هو إلا ميراث لاتيني تتسلمه أمة منهم من أمة؟ »⁽²⁾.

هذه هي حقيقة الاستعمار وأهدافه التي سعى إبراهيمي إلى بيانها ليوضح جانباً هاماً من قضية فصل الدين عن الحكومة، ويكشف سبباً رئيسياً لتعنتها، وإصرارها على بقاء الشؤون الإسلامية في قبضتها.

ثانيا - الإبانة عن وسائله وأساليبه :

لقد حاول الاستعمار تحقيق أهدافه في محو الإسلام عن طريق مجموعة من الوسائل والأساليب سنحاول شرحها فيما يلي:

أ - الوسائل: اعتمد الاستعمار على مجموعة من الوسائل لتحقيق أهدافه في حرب الإسلام، بالتسلط على الشؤون الإسلامية في الجزائر، وقد تحدث

(1) - إبراهيمي، عبون البصائر، ص 170

(2) - المصدر نفسه، ص 146

الإبراهيمي عن بعضها عندما حل خطاب الحاكم الفرنسي الذي أثنى فيه على أعمدة الاستعمار في الجزائر: الجندي والمعلم والطبيب والراهب، وشكر لهم جهودهم في تدعيم نفوذه واستقرار أقدامه في البلاد، وقد علق الإبراهيمي على ذلك بقوله: «ومعنى هذه الكلمات عندنا أن فرنسا قذفت هذا الوطن بأربعة أنواع من القوي مختلفة التأثير، متحدة الأثر، متباعدة الميادين، ولكنها تلتقي علي هدف واحد، وهو التمكين للاستعمار، وأنها حاربت بأربعة أصناف من الأسلحة البشرية، أخفها فتكا وأقصرها مدى - الجندي ...»⁽¹⁾، وسنذكر هنا بعض الوسائل التي تمت إلى موضوعنا بصلة قريبة:

1 - الجندي: الذي يمثل القوة العسكرية التي ملكت الأرض، واستعبدت الرقاب وأشاعت الرعب، ومكنت للاستعمار بالرهبة، وعن طريقها استولى على المساجد فهدم ما هدم، ودنس ما دنس: «جاءت فرنسا إلى الجزائر بالجندي ففتح بالقوة، ومهد بالقوة، وسجل لها في تاريخ الإنسانية صحائف لا ندرى ما لونها، إلا إذا قرأنا (رسائل سانت أرنو)⁽²⁾ وتقرير لجنة البحث البرلمانية سنة 1833»⁽³⁾.

2 - الراهب: وهو يمثل الإرساليات التنصيرية التي أعقبت الحملة الاستعمارية العسكرية، لتستغل الأوبئة والمجاعات، في سبيل تحويل المسلمين عن دينهم، وقتل خصائص المقاومة فيهم بمحو الإسلام من صدورهم واستبداله بدين المستعمر، ليسهل هضمهم بعد ذلك يقول الإبراهيمي «جاءت فرنسا إلى الجزائر بالراهب (الاستعماري) لتفسد به على المسلمين دينهم، وتفتنهم به عن عقائدهم،

(1) - الإبراهيمي، عيوب البصائر، ص 83

(2) - عباس، فرحات، ليل الاستعمار، ص 63

(3) - الإبراهيمي، عيوب البصائر، ص 83

وتشككهم بتثليثه في توحيدهم، وتضار في أسنتهم كلمة (الهادي) بكلمة (الفادي) ⁽¹⁾ .

3 - المعلم: وهو يمثل الغزو الفكري الذي تمارسه المدرسة الاستعمارية، التي تقوم على تشويه العقائد، وطمس معالم التاريخ الإسلامي. والتزهيد في الدين، ومحاربة اللغة العربية، وإحلال اللسان الفرنسي مكانها، ونشر مبادئ الإلحاد والتفسيخ الأخلاقي، وهي كلها سبل تؤدي إلى قطع الصلة بين الجزائريين وبين إسلامهم وعروببتهم: « وجاءت بالمعلم (الاستعماري) ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم، ويلقي الاضطراب في أفكارهم ويستنزلهم عن لغتهم وأدابهم، ويشوه لهم تاريخهم، ويقلل سلفهم في أعينهم ويزهدهم في دينهم ونبيلهم، ويعلمهم - بعد ذلك - تعليما ناقصا الجهل خير منه » ⁽²⁾ .

4 - الإدارة: وهي تمثل القوة القانونية التي تصدر القرارات والمراسيم التي ما فتئت تُصَبِّقُ الخناق على الإسلام، وتشدّد القبضة على المسلمين، وتحتكر التصرف في الوظائف الدينية، ودأبها التفتن في إيجاد أنجع الطرق لتحقيق هدفها في محو الإسلام ⁽³⁾ .

5 - الوظيفة الدينية: وهي تمثل الطعم الذي اصطاد به الاستعمار بعض ضعفاء النفوس من المسلمين ليحولهم إلى آلات صماء في يده، يسخرها حسب أهوائه لتخدم أطماعه وتكون له جيشا من المرتزقة يعمل على توهين عرى الإسلام في مناصبه الحساسة كالإمامة والقضاء والإفتاء، ويقف عائقا في طريق مطالبة الأمة بتحرير دينها من الاستعمار، يدفعه إلى ذلك الطمع في المرتب

(1). الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 83.

(2). المصدر نفسه، ص 84.

(3). المصدر نفسه، ص 72.

والخوف من فقدان الوظيفة، لذلك عد الإبراهيمي هذه الوظائف التي تتحكم فيها الإدارة الاستعمارية أصل البلاء: «إن بقاء الوظائف الدينية في يدها هو أصل هذا البلاء، وإن هذا البلاء لا ينقطع حتى ينزع حبل الدين من تلك اليد ويوضع في أيدي أهله»⁽¹⁾.

ب - الأساليب: ومن جهة أخرى، أعد الاستعمار جملة من الأساليب التي تمكنه من إبقاء سلطته على الشؤون الإسلامية، والقضاء على حركة المطالبة بتحريرها ومن بينها:

1 - المماطلة: وهي سياسة مأكرة انتهجتها الإدارة الاستعمارية بانتظام، لتزرع الفشل في نفوس المطالبين بتحرير الشؤون الإسلامية، وتسرب إليهم اليأس حتى يملوا فيسلموا، ويبقى الأمر على ما هو عليه. ويتم ذلك في أغلب الأحيان، عن طريق إعلان موافقتها على الفصل، ثم تعمل على تأجيله في كل مرة يحين موعده لأسباب تخلقها لوقتها ومبررات توجدها لحينها: «ما زالت هذه الحكومة تمزج الصلف بالتصلب ... وتكمل الإصرار على الباطل بالعناد فيه - في قضية حقنا فيها أوضح من الشمس ونحن لا نستغرب هذا ولا أكثر من هذا من حكومة تدين بالهوى لا بالعقل ... وتدور على قطب قلق من المكاتب المتعاكسة، ورؤساء المكاتب المشاكسين، وعلى تواطؤ في التباطؤ، يفني الآمال، ويضني الأملىن، ويضل الأعمال، ويمل العاملين»⁽²⁾.

2 - المراوغة: وهو أسلوب آخر اتبعه الاستعمار ليقابل به كل ضغط يشتد عليه بشأن قضية الفصل، فعندما يرتفع صوت المطالبين بتحرير الشؤون

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 97

(2) - البصائر، ص 88

الإسلامية، ويحس بخطرهم، يسارع إلى إصدار قوانين الفصل لامتنعاص
الغضب الشعبي، وتهدة الحركة المطالبة. ثم يعقب عليها بالتحفظات التي تفتح له
منافذ التسلل التي تعفيه من التقيد بها: «نراها حين تلجئها الأحداث إلى تغيير في
الوضعية، أو يكثر عليها الإلحاح في تبديل الحالة تدور حول نفسها ولا يزايل
قدمها موضعه، فتصدر القوانين بالفصل ولكنها تقيدها بالتحفظات التي تجعل
الفصل تأكيداً للوصل، أو تفتح فيها من المنافذ ما يجعل المنفذ - وهو استعماري
طبعاً - في حل من كل ما يفعل»⁽¹⁾.

3 - البيروقراطية: وتتمثل في تعمد الاستعمار تقييد قضية الفصل
بالملفات الإدارية، وتعطيل تنفيذه بطول الإجراءات التي تتطلب التنقل بين المكاتب
الكثيرة، بل وإرسالها إلى الحكومة المركزية في باريس لتعيد فيها النظر، ثم تبعثها
كرة أخرى إلى حكومة الجزائر. يقول الإبراهيمي: «وليس في القضية ما يقتضي
إركابها البحر أربع مرات، مع القدرة على إرسالها بالطيارة مرة واحدة - لولا
الأهواء الغالبة»⁽²⁾، وهو أسلوب استعماري يرمي به إلى كسب الوقت، وإسكات
أصوات الاحتجاج إلى حين.

4 - الاتهام: هو أسلوب آخر سلكه الاستعمار الفرنسي تجاه العلماء
المصلحين المطالبين بتحرير الشؤون الإسلامية. - حيث كان يقذفهم - في كل مرة
يشدون لهجتهم معه بشأن قضية الفصل - بمختلف التهم التي يرمي من ورائها
إلى تشويه سمعتهم لدى العامة، وتفريق الجموع التي تلتف حولهم مناصرة
لمطالبهم. فهم تارة سياسيون يستغلون الدين كوسيلة للوصول إلى أهدافهم⁽³⁾

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 172

(2) - المصدر نفسه، ص 147

(3) - المصدر نفسه، ص 45

وهم تارة أخرى يطمعون في احتكار الأوقاف لأنفسهم بعد أن يأخذوها من الحكومة⁽¹⁾، إلى غير ذلك مما يشيعه عنهم .

5 - التسخير: ونعني به تسخير الجمعيات الدينية ورجال الدين.

فالاستعمار يستغل النفوس الضعيفة التي تميل إلى المال والجاه، ويسعى بواسطتها إلى تكوين جمعيات دينية تعمل بوحيه، ويتستر وراءها ليوهم الشعب أنه قد سلم الشؤون الدينية إلى أهلها. كما يسخر رجال الدين أيضا بحكم المناصب التي يشغلونها كالقضاء والإفتاء، ليعتنوا عن تأييدهم له في بقاء الإسلام بيده من باب المحافظة عليه من الضياع، وهو إنما يقودهم إلى كل ذلك بحبل الطمع في المال، والتطلع إلى الأوسمة، كما فعل العاصمي عندما قدم تقريره إلى المجلس الجزائري المكلف بالبت في قضية الفصل، وعبر فيه عن تأييده المطلق لبقاء الشؤون الإسلامية بيد رجال الدين الرسميين التابعين - بحكم الوظيفة - للإدارة الاستعمارية، وسفه فيه مطالب العلماء المصلحين⁽²⁾.

وقد كانت الجمعيات الدينية - ومعها رجال الدين - سلاحا قويا استعمله الاستعمار بمنتهى المكر، واستغله إلى أقصى الحدود، في سبيل أن يحقق أهدافه الصليبية، ويضرب الحركة الإصلاحية التي كانت تقف له بالمرصاد في جميع مشاريعه.

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 148 - 149.

(2) - المصدر نفسه، ص 74 - 75.

ثالثا : فضح أعوانه ورجاله :

وهذا أيضا جزء من منهج الإبراهيمي في مواجهة الاستعمار . حيث عمد إلى فضح الفئات التي وضعت يدها في يد الحكومة الاستعمارية، وعاهدتها على النصرة والتأييد، والوقوف في وجه المعارضين لها من رجال الإصلاح . وكان يؤمن أن هؤلاء الأعوان المحسوبين على الأمة، هم اليد القوية التي يبطش بها الاستعمار بالمسلمين، لذلك لم يتوان عن تعريضهم وكشف خباياهم، والتشهير بسيرتهم المشينة، وعمايتهم الواضحة للاستعمار . ويمكن تصنيف هؤلاء الأعوان إلى ثلاثة أنواع :

الجمعيات الدينية، ورجال الدين الرسميين، ونواب المجلس الجزائري.

١ - الجمعيات الدينية : نص قرار 27 سبتمبر 19٥7 على فصل الدين الإسلامي في الجزائر عن الحكومة وأوكل أمر تسييره إلى جمعيات دينية يكونها الجزائريون في مختلف مناطق القطر، تعترف بها الدولة وتتولى القيام بأمر دينها على ما ترتضيه قواعده.

غير أن الإدارة الاستعمارية التي لم تكن تنوي التخلي عن الشؤون الإسلامية، لم يعجزها هذا القانون، بل استطاعت عن طريق عملائها أن تكون جمعيات على مقاسها، تخضع لها في الأمر والنهي، وتسير بوجيها وتسعى لرضاها، ووضعتها في الواجهة لتوهم الناس أنها قد نفذت يدها من شؤون دينهم، وسلمت الأمانة إلى أهلها.

يقول الإبراهيمي عن الجمعيات التي كانت الحكومة تسارع إلى تشكيلها بعد صدور قرار الفصل : «ولكن الحكومة - وقد أفلت منها رأس الحبل - أبت إلا أن تمسك بوسطه، فأصبحت تشكل الجمعيات الدينية الإسلامية، بالوحي السري، أو

بالعمل العلني، وتقيم عليها رجالا ليسوا مسيحيين ولكنهم أطوع لها، وأسرع في تنفيذ أغراضها من المسيحيين»⁽¹⁾.

وعندما أثارت حركة الإصلاح قضية فصل الدين عن الحكومة، وجدت من هذه الجمعيات خصما قويا، يدافع عن الإدارة الاستعمارية، ويتستر بالصيغة القانونية، ويقف عائقا بينها وبين تحقيق مطالبها. فوجه إليها الإبراهيمي سهام النقد، وهاجمها في مواضع كثيرة. وكشف صلتها المريبة بالاستعمار، وضعف نفوس رجالها وطمعهم. وأكد أن الأمة لم تعد تثق بهم لانقيادهم الأعمى للاستعمار، وأنهم غير قادرين على تحمل مسؤولية القيام بالشؤون الدينية، لانعدام الكفاءة الدينية والعلمية والأخلاقية فيهم⁽²⁾.

2 - رجال الدين الرسميين: وهم يمثلون الطبقة التي كونتها الإدارة الاستعمارية، لتتوب عنها في تسيير الشؤون الدينية في الجزائر. ولا نبالغ إذا قلنا أنها كانت من أخطر الأدوات الاستعمارية التي مكنته من بسط نفوذه على المؤسسات الدينية. لذلك عمل الإبراهيمي على فضحها وتعريضها، وكشف عمالتها المطلقة⁽³⁾ للإدارة الاستعمارية التي أخفقت في مشروع الإسلام الجزائري الذي أرادت أن تقطع به صلة الجزائريين بإخوانهم في باقي الدول الإسلامية، ولكنها: «نجحت بهذا الجند العاطل المرتزق الذي جندته واصطادته بشبكة المطامع، من الأئمة والمفتين، والخطباء والمؤذنين، والقومة والحزابين، ... كورتهم وصورتهم ونقحتهم وحورتهم وعلى المنوال الحكومي دورتهم، حتى أصبحوا جزءا أصيلا من

(1). الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 146

(2). المصدر نفسه، ص 29

(3). التبيي، الشيخ العربي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، دار البعث لفلسطين، الجزائر.

1، 1981، ص 196.

الأدوات الحكومية»⁽¹⁾.

- نواب المجلس الجزائري: جاء تكوين المجلس الجزائري تطبيقاً لأحد مواد الدستور الجزائري الصادر في عام 1947 . وهو الدستور الذي تصدقت به الحكومة المركزية في باريس على الجزائريين، لتمحو من ذاكرتهم مجازرها الوحشية التي ارتكبتها في 8 ماي 1945 . وقد قسمت كراسي النيابة في هذا المجلس مناصفة بين الجزائريين والمستوطنين الأوربيين.

وقد جرت انتخابات عامة لاختيار هؤلاء النواب، لعبت الإدارة الاستعمارية فيها دوراً قذراً، تناقلت أخباره المحافل الدولية والصحافة العالمية، وتحدث عنه الإبراهيمي قائلاً: «وركبت العظام في تكوين ذلك المجلس، حتى جاء كما تهوى، ويهوى لها الهوى»⁽²⁾.

ونص دستور الجزائر في بعض مواده على أن يتولى المجلس الجزائري مناقشة قانون فصل الدين عن الحكومة، والبت فيه. غير أن الإدارة الاستعمارية بأساليبها المعهودة، منعت مناقشة قانون الفصل بما تملكه من سلطة على النواب الذين اختارتهم بنفسها، ووضعتهم في ذلك المكان لغاية في نفسها.

وعلى الرغم من ثقة الإبراهيمي بتصرف الحكومة في مسار المجلس ونوابه، إلا أنه خص النواب المسلمين منهم بالخطاب، ودعاهم إلى وعي ثقل المسؤولية التي أناطتهم بها الأمة⁽³⁾، ثم بين لهم أن الحكومة الاستعمارية ستحملهم حتماً على تجاهل قانون الفصل أو تجاوزه، أو خرقه بطرقها المعهودة، وتمن عليهم في كل

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 117

(2) - البصائر نفسه، ص 91

(3) - البصائر نفسه، ص 68

ذلك أنها هي التي مكنتهم من الوصول إلى كراسي النيابة ⁽¹⁾، ثم يحذرهم - في الأخير - من مغبة الخيانة التي سيسجلها التاريخ عليهم إن هم تهاونوا في هذه القضية واستسلموا لأهواء المستعمر: «إن أقواما قبلكم وصلوا إلى ما وصلتكم إليه، وارتقوا على أكتاف الأمة إلى كراسي النيابة، ولكنهم خانوا العهد وأضاعوا الحقوق، فسجل عليهم التاريخ خزي الأبد وكلمة المقت، فحذار أن تكونوا مثلهم» ⁽²⁾.

وقد صدق حدس الإبراهيمي فيهم، ووقع ما قدر له، حيث تقاعس النواب الجزائريون عن القيام بواجبهم، وبقيت قضية الفصل معلقة بين الرجاء واليأس في المجلس الجزائري إلى أن نالت الجزائر استقلالها .

رابعاً: التصدي لمزاعمه وشبهاته :

كانت معركة المطالبة التي خاضها الإبراهيمي في سبيل فصل الدين عن الحكومة، قد وضعت وجهها لوجه مع الاستعمار، الذي أحس بخطر هذه المواجهة، وخشي عواقب استمرارها، ومضاعفاتها على وضعيته، فجمع كيده ليرد على هذه الأصوات العالية التي تثير ضده الرأي العام الجزائري، وتنبه الغافلين إلى حقوقهم، وكان من جملة الأساليب التي لجأ إليها إطلاق التهم والمزاعم ضد العلماء المصلحين.

وكان الرد على هذه التهم والمزاعم جزءاً مكملًا لمنهج الإبراهيمي في مواجهة الاستعمار. حيث تناولها بالتحليل وقارعه فيها بالحجة، ورد أباطيله بالبرهان، وبين وجه الحق الذي غطته الشبهات، وأثبت أنها ليست أكثر من محاولة

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 70

(2) - المصدر نفسه، ص 200

استعمارية فاشلة، ليثني فيها الأمة عن المطالبة بحقوقها، ويزرع بذور الفرقة بين أبنائها.

ومن بين هذه الشبهات التي أثارها الاستعمار في وجه المطالبين بالفصل: اتهامهم بممارسة السياسة، والسعي لاحتكار قضية الشؤون الدينية، وباختلافهم مع خصومهم في المطالبة، وادعاؤه المحافظة على الإسلام .

١- اتهام المطالبين بممارسة السياسة: أشاعت الحكومة الاستعمارية أن الذين ينادون بفصل الدين عنها، ليسوا إلا دعاة لأحزاب سياسية^(١)، وأنهم يتسترون وراء الدين، ويتخذونه مطية للوصول إلى أهدافهم السياسية في سبيل معارضة الحكومة، وكانت ترمي من وراء هذه التهمة إلى تشويه صورة العلماء في نظر الأمة، والطعن في إخلاصهم في هذه القضية.

وقد رد الإبراهيمي على هذه التهمة بالحقيقة التي حاولت الإدارة الاستعمارية أن تخفيها، وهي أن تدخلها في الدين الإسلامي - مع ادعاء اللائكية - هو عينه السياسة: « ولكن ما قولك - أيها الاستعمار - في تدخلك في ديننا، وابتلاعك لأوقافنا، واحتكارك للتصرف في وظائف ديننا وتحكمك في شعائرننا، وتسلبك على قضائنا، وامتهانك للغتنا؟ ما قولك في كل ذلك - أهو من الدين أم من السياسة ؟ وهبنا وإياك فريقين، فريق أخضع الدين للسياسة ظالما، وفريق أدخل السياسة في الدين متظلما فهل يستويان؟ »^(٢).

ثم يؤكد في موضع آخر، أن تصلب الحكومة في موقفها من قضية وجه الحق فيها واضح، هو الذي دفع المطالبين إلى التوسل بالسياسة، والاحتكاك برجالها

(١). الإبراهيمي، مبرهن البصائر، ص 75

(٢). البصائر تله، ص 43

في حدود مبادئهم، وإن كانت ممارستهم السياسية لا تشينهم كما يشينها هي تدخلها السافر في شؤون الإسلام: « فلتعلم هذه الحكومة أننا في سبيل مبدئنا احتكنا بالسياسة وشاركنا في مؤتمرها، واتصلنا برجالها، واصطلينا بنارها، وفي سبيل مبدئنا نأخذ بجميع الأسباب إلا سببا يحرمه ديننا ... وطالما صارحنا هذه الحكومة - في غير خلافة - بأنها هي التي خرجت من وضعها فأدخلت الدين في السياسة، فاضطرتنا إلى أن نقابلها بالمثل فندخل السياسة في الدين، والبادئ أظلم، على أن تدخلنا في السياسة أدنى إلى الشرف وأبعد عن الاستهجان من تدخلها في الدين »⁽¹⁾.

2 - اتهام المطالبين بالسعي لاحتكار قضية الشؤون الدينية:

كما روجت الإدارة الاستعمارية أن المطالبين بالفصل، إنما يشتدون في هذه القضية، ويسعون لها سعيها في سبيل أن يتولوا هم وحدهم الدفاع عنها قبل الفصل ليضعوا أيديهم بعد الفصل⁽²⁾ على جميع الأوقاف والمساجد، فيستغلوا موارد الأولى المادية لصالحهم، ويستخدمون الثانية لنشر أفكارهم، وتوجيه الأمة نحو الخط الفكري الذي يؤمنون به، وهذا - في نظر الاستعمار - إقصاء لمن يخالفهم في الرأي والتوجه.

وقد رد الإبراهيمي على هذه الشبهة ردا مفحما، تمثل في التحدي البالغ الذي واجه به الحكومة حين قال لها: « نتحداها بأننا إذا رأينا صدقها في الفصل، وإخلاصها في التنفيذ، ونفرض يدها من كل ما يتعلق بالقضية، وأقامت لنا الدليل على أن باطنها في ذلك كظاها - فإننا مستعدون لتسليم القضية إلى أي قادر

(1) - الإبراهيمي، عبود البعائر، ص 179

(2) - المصدر نفسه، ص 148

على تسييرها من جماعات المسلمين، وللتنازل الخالص عن حظوظ جمعية العلماء في القضية»⁽¹⁾.

وأُتبع هذا الرد بقائمة من الأشخاص اقترحهم جمعية العلماء لتكوين المجلس الإسلامي المؤقت الذي يتولى قضية الفصل، وهم يمثلون جميع طبقات الأمة، ولم تراعى فيهم: «إلا الحظ الكافي من الثقافة العامة والشعور بالمسؤولية الدينية، وأنهم غير مرتبطين بالحكومة بوظيفة دينية، أو غير دينية وفيهم العالم وشيخ الزاوية والفلاح والتاجر والطبيب والمحامي»⁽²⁾، وفي ذلك تفنيد لمزاعم الاستعمار، وسد لباب الإشاعة.

3 - اتهام المطالبين باختلافهم مع خصومهم في قضية الفصل: من الذرائع التي تذرعت بها الحكومة الاستعمارية لإبقاء يدها على الشؤون الدينية، ومماطلتها في تنفيذ قانون الفصل، ادعاؤها أن المصلحين والجمعيات الدينية الأخرى، والموظفين الدينيين لا يلتقون على هدف واحد في هذه القضية، وأن الاختلاف واقع بينهم في الكيفية التي يقع عليها الفصل، والأيدي التي تتناول الشيء المفصول⁽³⁾.

وقد رد الإبراهيمي على هذا الزعم، بأن الأمة لم تختلف يوماً في قضية تحريرها لدينها، فإذا وجد من يعارض هذا المبدأ، فلا بد أن يكون عميلاً للاستعمار أو يداً لسياسته: «كذب وفجر من ادعى أننا مختلفون في أصل ديننا، فإن كان بيننا خلاف فهو من آثار الاستعمار لا من آثار الإسلام، والحكومة الاستعمارية

(1) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 141

(2) - المصدر نفسه، ص 140

(3) - المصدر نفسه، ص 143

هي زارعة الخلاف بيننا، وهي التي تسقيه كلما ذبل، وتغذيه كلما ضعف»⁽¹⁾

4 - ادعاؤه المحافظة على الإسلام: عندما نشطت دعوة المطالبة بفصل الدين عن الحكومة، واجتهد المطالبون فيها، وسلخوا لها كل سبيل، وحاصروا الحكومة بالمبررات القانونية، والعقلية، والدينية التي تثبت حق الأمة في تحرير دينها، سارعت هذه الحكومة إلى رد تلك المطالب بآدعائها أنها ما وضعت يدها على شؤون الدين الإسلامي إلا لتحفظه من الضياع، وتقيه من الإهمال: «وتحلف هذه الحكومة بالله إن أرادت إلا الحسنى بدين الإسلام، وإن قصدت بوضع اليد عليه إلا المحافظة على معابده من الضياع، وعلى شعائره خشية الترك والنسيان، وتستشهد على ذلك بآتباعها وصنائعها، فيشهدون»⁽²⁾

ويستغرب الإبراهيمي هذا المنطق الغريب الذي تلجأ إليه الحكومة الاستعمارية لتسكت به أصوات الاحتجاج التي تندد بتسلطها على الإسلام، ويعجب كيف تستطيع حكومة مبدؤها لائكي، ودينها مسيحي أن تجمع إلى ذلك المحافظة على الإسلام⁽³⁾.

وعلى الرغم من أن صفتي اللائكية والمسيحية اللتين تصطبغ بهما هذه الحكومة ينقضان دعوتها في المحافظة على الإسلام، إلا أن الإبراهيمي فضل أن يسايرها بهذا المنطق، حتى يثبت بالحجة بطلانه. فسلم جدلاً أنها صادقة في هذه الدعوى، وأنها ما احتضنت الإسلام إلا لتحمية من عوادي الدهر، وراح يبحث في تاريخ الاستعمار عن مظاهر هذه الحماية، ودلائل هذه المحافظة: «وتعالوا نسلم جدلاً أنها صادقة في دعواها، مخلصه في نيتها، فيماذا تفسر المحافظة على

(1). الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 195

(2). المصدر نفسه، ص 113

(3). المصدر نفسه، ص 113

الإسلام ؟ أبابتلاع أوقافه وأكلها أكلا لما ؟ والأوقاف هي الأساس المادي للدين ؟ أو بتحويلها للمساجد الكبيرة كنائس ؟ أم بحسن اختيارها لرجال الدين ؟ أم بأعمالها (المشكورة) في حرية الحج ؟ أم بتدخلاتها المعروفة في الصوم والإفطار والأعياد ؟ أم بتنشيطها على الزرد و (أعراس الشيطان) ؟ « ⁽¹⁾

ثم ينتقل إلى موقف آخر من مواقف الحكومة الاستعمارية من الإسلام، ليزيد من تأكيد بطلان ادعائها، وهو موقفها من التعليم الديني: « إن أول شرط لتحقيق اسم المحافظة هو التعليم الديني، وهي تحاربه وتشتد في التضييق عليه، وإن آخر شرط لتحقيق إسم المحافظة هو إنشاء مدرسة أو مدارس لتخريج الأئمة والخطباء والوعاظ والمؤذنين، كما يتخرج رهبان المسيحية من مدارس اللاهوت وكلياته، أو كما يتخرج رجال الدين الإسلامي في الأقطار الإسلامية من معاهد العلوم الدينية » ⁽²⁾.

فما هو نصيب الإسلام من ذلك؟ إن إدارة الاحتلال تختار من يتولى الوظائف الدينية من عامة الشعب المجريدين من الكفاءات العلمية والخلقية، وتمتحنهم في مدى استجابتهم لأوامرها وانقيادهم لسلطتها وإذعانهم لخططها: «ولو كانت تتفق عليهم في التخريج، أو تجلبهم من مكة أو الأزهر، لما كانت لها شبهة صدق في دعوى المحافظة على الإسلام، ولما كان لنا عذر في الرضى والسكوت لأن الدين ليس دينها، ولا هي أهلها، فكيف وهي تأخذهم (جاهزين) بلا نعب ولا معاناة، وتمتحنهم في اللياقة الحكومية لا في الكفاية والاستحقاق الديني » ⁽³⁾.

(1) إبراهيمي، عبود البصائر، ص 114

(2) المصدر نفسه، ص 114

(3) المصدر نفسه، ص 114

وهذه كلها أدلة دامغة تدحض تلك الشبهة وتقضي عليها، وتضع الاستعمار والذين يشهدون على صدق دعواه من أعوانه أمام الحقيقة العارية والواقع المر.
خاصة: خصائص منهجه في مواجهة الاستعمار وأعوانه:

كتب الإبراهيمي - كما أسلفنا - في قضية فصل الدين عن الحكومة عددا هاما من المقالات، التي أحاط فيها بجميع جوانب الموضوع، وغطى فيها القضية تغطية تكاد تكون كاملة، بحيث لم يترك فيها ثغرة ينفذ منها الاستعمار أو تتسلل منها شبهاته. وقد عبر عن الكمية الهائلة من الكتابات التي خص بها هذا الموضوع فقال: « كتبنا في هذه القضية ما إن مداده ليكون عدة غدران، وما إن صحائفه لتغطي بضعة جدران »⁽¹⁾.

ومما لاشك فيه أن الإبراهيمي قد دخل هذه المعركة بإيمان عظيم جعله يثبت فيها ثبوت الجبال الرواسي، ويواجه الاستعمار في جميع مراحلها مهما طال الزمن والتوت السبل. واستطعنا من خلال تتبعنا لمسيرته الطويلة في هذه القضية أن نستشف مجموعة من الخصائص التي ميزته، وطبعت مناقشاته واقتراحاته وأرائه وردوده، وسنحاول أن نرصد بعضها فيما يلي:

1- الإيمان بالمبدأ والثبات عليه: كان الإبراهيمي يؤمن إيمانا جازما أن بقاء الشؤون الإسلامية في قبضة الاستعمار الفرنسي باطل، وأن تصرف حكومة مسيحية في شعائر المسلمين وعباداتهم وضع غريب يأباه الدين والعقل، وأن العمل من أجل تحرير الإسلام من تسلطها واجب ديني مقدس، سيحاسب عليه كل مسلم رآه ولم ينكره، وأن السكوت عليه جريمة في حق الإسلام تشجع الظالم على انتقامه وإذلاله: « نعتقد أن كل ما قررته هذه الحكومة المسيحية، وكل ما تقرره

(1)، الإبراهيمي، عين البصائر، ص 144.

في شؤون ديننا باطل منقوض ديناً وعقلاً وقانوناً، حتى تسمية الأئمة والمؤذنين فهي باطلة، وطلب هذه الوظائف من هذه الحكومة باطل، والرضى بها باطل»⁽¹⁾.
لذلك انطلق من هذا المبدأ، ودخل المعركة على يقين أنه يدافع عن الحق الذي لا بد أن ينتصر مهما طال الزمن، مقتنعاً أنه يحمي حمى الإسلام، ويذود عن حياضه، ويبقى بعهد الله الذي أخذه على عباده في حفظ الدين من المبطلين⁽²⁾.
وقد طال أمد هذه القضية بالإبراهيمي، وواجه الاستعمار - خلالها - نداءاته المتكررة بأذان صمماء لا تسمع ولا تعي، وتمادى في ظلمه واعتدائه، ولج في عتوه وكبريائه، غير أن الإبراهيمي لم تثن له قناة ولم يتزحزح قيد أنملة عن مطالبه، ولم يغير فيها رأياً، ولم يبدل فيها مذهباً، ولم يساوم فيها الاستعمار على أنصاف حلول، يقبلها حتى يستريح من عناء المواجهة.

بل ظل شامخاً ثابتاً، لا يكل ولا يمل، لأن القضية عنده أسمى من أن تطرح في سوق المساومات، وأقدس من أن يتخلى عنها أو يتجاوزها وكيف يفعل ذلك، وهي جزء صميم من دينه: «أما نحن فمازلنا في هذه القضية على مذهبنا القديم، لم يتغير لنا فيها رأي، ولم يتجدد لنا فيها نظر، وأنى يتغير الرأي ويتجدد النظر في قضية دينية إلهية، تضافي على كل ملابساتها لبوس الدين الذي لا تغيره الأزمنة، ولا تؤثر فيه الأحداث، ولا تتجدد فيه النظريات»⁽³⁾.

2 - الإصرار والتحدي: كان الإبراهيمي يدرك خطورة القضية، ويدرك - في الوقت ذاته - شدة تمسك الإدارة الاستعمارية بتسيير الشؤون الإسلامية لحاجة في نفسها - وقد خبر من أساليبها ما جعله يحذو حذوها في معاملتها له.

(1) - الإبراهيمي، ميون البصائر، ص 97

(2) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 275

(3) - الإبراهيمي، ميون البصائر، ص 194

فهي تصرّ على عدم الفصل، وهو يصر على المطالبة. لذلك نراه ينتقل معها من ميدان إلى ميدان، ويواجهها على جميع الجبهات التي فتحتها لتفوت على المسلمين فرصة الاستقلال بدينهم. وقد أعلن عدة مرات عن إصراره على المطالبة، وتمسكه بمبدأ فصل الإسلام عنها، واستعداده لأن يفني عمره في سبيل ذلك حتى يعود الحق إلى أهله: «ولكننا على ذلك كله مصرون على المطالبة بحقنا، لا يثنينا تهديد ولا وعيد، ولا مزاحمة ولا مطاولة، إلى أن تفصل القضية على وجه يرضي الإسلام ويرضي الأمة، ونحن نتجاهل كل حل لا يفي بالرغبة كاملة، ونواصل كفاحنا ما دمنا وما دامت هذه الحكومة مصرة على باطلها»⁽¹⁾.

3 - الشجاعة والصراحة: إن الصبغة الدينية المقدسة التي اكتسبتها

قضية فصل الإسلام عن الحكومة الاستعمارية، كان لها أثر عميق في مواقف الإبراهيمي التي تميزت في معظم الأحيان بالشجاعة النادرة، والجرأة في إبداء الرأي وقول الحق، على ما كان يتهده من قوانين استعمارية جائرة، تقود إلى السجن والتفريم، والملاحقة والاضطهاد التي تلحق كل من تسول له نفسه أن يعارض إدارة الاحتلال في أقوالها وأعمالها.

لقد استمد الإبراهيمي من إيمانه بالحق الذي يدافع عنه هذا المقدار العظيم من الشجاعة التي أعطت لمقاتلته طعما خاصا تميز بالقوة والإقناع وإفحام الخصم. يقول موجهها حديثه إلى السلطة الاستعمارية: «قلنا لها: إن ابتلاعها لأوقافنا الدينية والخيرية ظلم، والظلم لا يدوم، ولصوصية، والصوصية لا تتأني إلا في الغفلة أو النوم أو الظلام، فأنما في الانتباه واليقظة والنور فافتراس تبرره

(1). الإبراهيمي، عبود البشار، ص 178

القوة والعتو⁽¹⁾».

ولعل أروع مثل ضربه الإبراهيمي في شجاعة الرأي والموقف، إصداره لفتوى بطلان الصلاة وراء الأئمة الذين تعيّنهم الحكومة الاستعمارية، وكان صدعه بهذه الفتوى - التي أثارَت حولها ضجة كبيرة - يستند إلى أنها حق لا مجال للشك فيه، وأن السكوت عنها تعطيل لشرع الله، وياب لاستجلاب عذابه: «إن الحق الذي حومنا عليه مرارا ولم نقع، حتى خشينا أن يصيبنا الله بقارعة من عنده، جزاء على كتماننا - هو أن تولي الإمامة من حاكم مسيحي باطل⁽²⁾».

4 - **الحذر وإساءة الظن**: تميزت علاقة الإبراهيمي بالاستعمار أثناء مواجهته له في قضية فصل الدين عن الحكومة بالحذر وإساءة الظن، والتوجس من كل خطوة يقدم عليها في هذا الشأن، لأنه بنى أمره معه على أساس معرفة عميقة بخباياه ودخائله، وخبرة قديمة بأساليبه ومناورات، وقراءة متأنية متفحصة لتاريخه مع الجزائريين، فالاستعمار عنده: «رجس من عمل الشيطان⁽³⁾» وهو أيضا عدو لدود: «إن الاستعمار شيطان وإن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، وإن الاستعمار شر، ومحال أن يأتي الشر بالخير، ومحال أن يجنى من الشوك العنب⁽⁴⁾». لذلك كان من الطبيعي أن تربطه به علاقات الاحتراس والحيطه، والتروي في قبول اقتراحاته، وإمعان النظر في تصريحاته قبل تصديقها، والقاعدة تقول أن العدو يعامل دائما بالحذر وسوء الظن.

وقد ازدادت معرفته به عمقا أثناء معاملته له في قضية فصل الدين عن

(1) - الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 98

(2) - المصدر نفسه، ص 154

(3) - المصدر نفسه، ص 94

(4) - المصدر نفسه، ص 321

الحكومة، وتبين له بالدليل القاطع والحجة الناصعة، أن الاستعمار هو لن يتغير ولو تغير العالم كله: « إن فرنسا الاستعمارية عدو الإسلام في ماضيها كله، وفي حاضرها، فلم يكتب تاريخها أنها جاورته فأحسنّت، أو قدرت عليه فعفت، أو عاملته فصدقت، أو حكمت أهله فعدلت، ودل الواقع المشهود على أنه لم يجن منها إلا الكيد له بعيداً، والإضرار به قريباً، والعمل على محوه في جميع الحالات، ويجرى علينا حكم المجانين إذا تصورنا أن حاضرها في هذا يخالف ماضيها»⁽¹⁾

5 - الإحساس بمعية الله: كان الإبراهيمي أثناء خوضه لمعركة فصل الدين عن الحكومة يمتلكه إحساس عميق بتأييد الله له، وإعانتته في جهاده، ونصره على أعدائه. لأنه كان يعتقد أنه يجاهد صدقاً في سبيل حق من حقوق الدين المهضومة. وكان يتلمس آثار عناية الله تحميه وتغير له السبيل، وتبصره بمواطن الصواب، وتحفظه من مكائد الاستعمار ومؤامراته، وتكشف له خبايا دسائسه: « ومازلنا - منذ هدانا الله لهذا - نتلمح من عناية الله بهذا الدين، وتكفله بحفظه، نجما يسايرنا في ظلمات الظلم، ونتنور منها نورا يهدينا السبيل، ويكشف لنا نيات السوء المبنية، ويعرفنا بشياطين الشر الراصدة، وينير لنا جوانب العمل، حتى كأننا منه دائماً في نهار وضاح، ومازال لله جند ميسر لنصر دينه »⁽²⁾

هذه بعض أسلحة الإبراهيمي الكثيرة التي تسليح بها في معركته مع الاستعمار، وقد كانت ذات أثر فعال في إعطاء القضية أبعادها الحقيقية، وإيقاظ الوعي بخطورتها بالنسبة للأمة.

(1). الإبراهيمي، عبود البصائر، ص 391.

(2). المبعوث عليه، ص 163.

وفي ختام هذا الفصل، ينبغي أن نشير أن كتابات الإبراهيمي السياسية لم تقتصر على قضايا الجزائر الداخلية فقط، بل إن قضايا المغرب العربي الكبير لقيت اهتماما كبيرا في مقالاته: فعالج الأحداث السياسية في المغرب الأقصى، وكان له موقف متميز وشجاع من قضية خلع ونفي محمد الخامس، بل إن جمعية العلماء التي كان يرأسها خلال هذه الفترة أصدرت فتوى تؤكد فيها شرعية إمامة محمد بن يوسف، ولزوم طاعته لجميع المغاربة، وبطلان إمامة السلطان المفروض محمد بن عرفة، ومزوق عصابة التهامي الجلاوي من الدين لخيانتهم ونكثهم للعهد، ورفعهم السلاح في وجه إمامهم الشرعي⁽¹⁾.

كما أفرد لليبيا مجالا في كتاباته، فتحدث عن استقلالها، وأشار إلى ما شاب هذا الاستقلال من شوائب⁽²⁾، ونبه الليبيين إلى ضرورة الحذر واليقظة حتى لا يقعوا فيما يخططه لهم الاستعمار الجديد من مشاريع اقتصادية ترد إليهم تحت أسماء براقة وتخفي تحتها عبودية جديدة.

وتحدث عن تونس تحت الاحتلال الفرنسي، ورثى باي تونس المنفى «المنصف» الذي توفي في إحدى المدن الفرنسية، كما وجه باسم جمعية العلماء برقية تنديد يستنكر فيها اعتقال الحبيب بورقيبة، ومعاملته معاملة وحشية في سجنه، من طرف السلطات الاستعمارية⁽³⁾.

أما قضية فلسطين، فقد أولاها الإبراهيمي اهتماما كبيرا، وخصها بمجموعة معتبرة من المقالات، حل فيها المؤامرة الدولية تحليلا دقيقا، وأشار فيها إلى تخاذل الحكام العرب، واستسلامهم المهين للسياسة الأوروبية، وتفريطهم في

(1) - خير الدين، محمد، مذكرات، ج 2، ص 307.

(2) - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 449.

(3) - الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 111.

فلسطين، كما استنهض همم الشعوب العربية والإسلامية، لتهب للدفاع عن الأرض المقدسة، وتبذل الأرواح والأموال في سبيل استعادتها⁽¹⁾.

وننتهي من كل ذلك، إلى القول بأن الإبراهيمي قد استطاع أن يوظف الكتابة السياسية والعمل السياسي لخدمة الحركة التغييرية، التي كان منضبطا في جميع أعماله ومواقفه بغاياتها وأهدافها البعيدة. وعلى الرغم مما تركه من أثر في الحياة السياسية الجزائرية، إلا أن ذلك لم يبعده عن مبدئه، ولم يورطه في ممارسات تتنافى مع قناعاته. وقد كانت رؤيته في هذا المجال واضحة جدا، بحيث استطاع أن يرسم لنفسه خطا مميزا يمارس فيه العمل السياسي ويباشر الكتابة في الميدان السياسي، دون أن يضطر إلى الاستعانة بالأدوات التي كانت شائعة لدى الزعماء السياسيين آنذاك.

(1) - الإبراهيمي، مهون البصائر (مجموعة المقالات الخاصة بفلسطين)

الفصل الرابع
المجال الاجتماعي

والمجال الرابع من مجالات التغيير الذي اهتم به الابراهيمى هو المجال الاجتماعي، فكما آمن بضرورة التغيير في المجالات الدينية والثقافية والسياسية ، عمل أيضا على إعطاء العناية اللازمة لهذا الجانب المهم في حياة الأمة .

ففني عن البيان أن المسألة الاجتماعية كانت وما تزال من أهم المسائل في الحياة الإنسانية، فقد شغلت الفلاسفة والمفكرين والقادة والمصلحين، وانبثق عن هذا الاهتمام البالغ، رصيد فكري ضخم، تبلور في عدد من المدارس والاتجاهات والنظريات التي حاولت البحث في نشأة المجتمع، والتغيرات التي تطرأ عليه ، والقواعد والقيم والمبادئ التي يجب أن تنظم العلاقات بين أفرادها ، وقد انتقل كثير من هذه النظريات الاجتماعية من حيز النظر والتخطيط إلى الممارسة والتطبيق .

وقد نشأت المسألة الاجتماعية من كون الإنسان كائن اجتماعي فقد أبدى ميله إلى التجمع بأفراد نوعه منذ أن ظهر على وجه هذه الأرض، وترتب عن ذلك تفاعل بين بني الإنسان مما أدى إلى تطور هذا الشكل البدائي للمجتمع على مر العصور إلى أن تكونت المجتمعات البشرية الكبرى التي وضعت لنفسها قواعد ونظم تساعد على البقاء والاستمرار، وتضمن لها تحقيق وضع أفضل لها وللأفراد المنتمين إليها، وتختلف طبيعة هذه النظم من مجتمع إلى آخر، بسبب اختلاف الأيديولوجيات التي انبثقت منها وقامت على أساسها، كما تختلف كذلك بسبب الظروف التي مرت بها المجتمعات المتعددة، وكان لها تأثيرها السلبي أو الإيجابي في التغير الذي نالها⁽¹⁾.

لقد كان مجيء الاسلام حدثا انسانيا بارزا، أثر تأثيرا بعيدا في سير المجتمع الإنساني بما حملته المنظومة الإسلامية من تصور متفرد ومتميز للحياة

(1) الخطيب ، عمر حمدة ، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 51 ، 1980 .

الاجتماعية، فهناك الكثير من نصوص الكتاب والسنة الصريحة التي تدعو المسلم إلى الاهتمام بالأسرة والطفولة والمرأة والشباب وغيرها من القطاعات الحيوية في المجتمع ، من أجل أن يكون جسم الأمة متلاحما متماسكا متراس الصفوف .

واهتمام الابراهيمي بالمسألة الاجتماعية تابع من اهتمام الاسلام البالغ بها ، لذلك نجده يؤكد في كتاباته على ارتباط الإصلاح الاجتماعي بالتجديد الديني، وأن الأول لا يتم إلا بتمام الثاني: « والحقيقة أن هذه الجمعية تعمل من أول يوم من تكوينها للإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي وكل ذلك يسع الإسلام وكل ذلك يسعه مدلولها وموضوعها وقانونها ، فالاسلام دين واجتماع ، وإذا كانت دائرة الأول محدودة فإن دائرة الثاني واسعة الأطراف ، وإن الإصلاح الديني لا يتم إلا بالإصلاح الاجتماعي، ولهذا الارتباط بين القسمين فإن جمعية العلماء - وهي الجمعية الرشيدة العاملة بحقائق الاسلام - عملت منذ تكوينها في الإصلاحين المتلازمين »⁽¹⁾.

وهو يعتقد أن المسلم الحقيقي لا يكتمل إسلامه إلا إذا استقام جانبه الاجتماعي ، وأدرك وظيفته في الحياة ، وكان على علم بما يجري في عصره ، مما يمكنه من الاندماج في الحياة الاجتماعية اندماجا فعالا يؤدي خلاله الواجبات، ويطالب بالحقوق، ويبني علاقاته العامة على أساس سليم، قوامه الأخذ والعطاء: « إن المسلم لا يكون مسلما حقيقيا مستقيما في دينه على الطريقة حتى تستقيم اجتماعيته فيحسن إدراكه للأشياء وفهمه لمعنى الحياة وتقديره لوظيفته فيها وعلمه بحظه منها، وينضج عقله وتفكيره، ويلم بزمانه وأهل زمانه، ويتقاضى من أفراد المجموعة البشرية مما يتقاضونه من حقوق وواجبات ويرى لنفسه من العزة والقوة

(1) الإبراهيمي، د.، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 215 .

ما يروونه لأنفسهم وتربط بينه وبينهم رابطة الأخوة والمساواة والمصلحة لرابطة
السيادة عليه والاستئثار بونه ⁽¹⁾ .

ويتضح من النص السابق، أن الإبراهيمي يرى أن الإسلام قد أولى عناية
كبيرة للشؤون الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، مما يدل على أهميتها ومكانتها
الخاصة وهذا يعد في حد ذاته دافعا أساسيا للإبراهيمي، ليدخل مجال التغيير
الاجتماعي، رغبة منه في احداث إنقلاب إيجابي في المجتمع الجزائري، لتحويل
وجهته نحو العودة إلى استلهاهم نظمهم وأخلاقهم ومبادئهم وسلوكياتهم من الكتاب والسنة
وسيرة السلف الصالح، بهدف تكوين مجتمع صالح يشارف السلف في عقائده
وعبادته وأخلاقه وصلته بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقربه من الله ⁽²⁾ .

أما الدافع الثاني الذي حدا بالإبراهيمي إلى الاهتمام بالمجال الاجتماعي ،
فيرجع - في نظرنا - إلى تردي الواقع الاجتماعي بتأثير الأمراض الكثيرة والمتنوعة
التي كانت تعصف به، جراء الرواسب التاريخية الموروثة عن قرون التخلف ،
والهجمة الاستعمارية الشرسة التي استهدفت تحطيم الكيان الاجتماعي الجزائري ،
وتمزيق نسيج العلاقات الاجتماعية به، ولعل من أبرز مظاهر هذا التردّي: ضعف
الكيان الأسري، وتشرد الطفولة، وضياح الشبيبة، وتدهور وضعية المرأة، وانتشار
الآفات الاجتماعية ، واستفحال العادات السيئة والتقاليد الفاسدة .

وعلى هذا فقد كان للإبراهيمي في المجال الاجتماعي آراء ونظرات عديدة ،
تناولت مشكلات المجتمع الجزائري، وأسهمت في إلقاء الضوء على الظروف التي
كان يعيشها الشعب الجزائري في ذلك الوقت، ودخل قلمه ميدان الإصلاح
الاجتماعي ليدلي بدلوه فيما جد على الناس، وقد كانت هذه الآراء امتدادا للجهود

(1) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 215 .

(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 377 .

الإصلاحية التي سبقه إليها رواد التجديد الإسلامي، وإن اختلفت عنها في موضوع المعالجة وطريقتها، وسنتناول في هذا الفصل أهم القضايا الاجتماعية التي عالجها إبراهيمي وهي: قضايا الأسرة ومشكلاتها (الزواج ، الصداق ، الطلاق) ، وقضية تحرير المرأة، وموقفه من الشباب، ودعوته إلى الوحدة الاجتماعية .

أولاً : قضايا الأسرة ومشكلاتها

تعد الأسرة من أهم المؤسسات الاجتماعية التي تسهم بشكل فعال في بناء الإنسان في مختلف جوانب شخصيته، العقدية والاجتماعية والنفسية والخلقية، بوصفها الخلية الجوهرية في بناء المجتمع ، ففيها تتجسد الوظائف الحيوية التي تقدمها للمجتمع ، من خلال قيامها برعاية الفرد ، والسهر على تلبية ما يحتاج إليه من خدمات وعناية وإشراف ، وهذا يعني أن مساهمة الأسرة في عملية البناء الحضاري ، مساهمة لها وزنها الكبير ودورها الخطير .

ويمكن تعريف الأسرة بأنها: « منظمة اجتماعية تتكون من أفراد يرتبط بعضهم ببعض بروابط اجتماعية وخلقية ودموية وروحية»⁽¹⁾ ، وهذه الروابط هي التي تميز الأسرة البشرية عن الأسرة الحيوانية، التي تقوم على الرابطة البيولوجية الغريزية فقط، وفي الغالب الأعم، تكون الأسرة مكونة: « من زوج وزوجة مع أطفال تربطهم روابط شرعية »⁽²⁾ ، لذلك فإنّ الزواج هو الوسيلة الاجتماعية التي يتم في نطاقها تأسيس الأسرة، وهو الأسلوب الذي ارتضته أغلب المجتمعات البشرية في سبيل تنظيم الغريزة الجنسية، والمحافظة على النوع الإنساني، وتوسيع روابط القرابة بين الناس .

(1) مجموعة من الباحثين ، الإسلام والمستقبل ، اللجنة التحضيرية العليا لمؤتمر القمة الإسلامي الخامس ، الكويت ، مطابع دار السياسة ، الكويت ، 1978 ، ص 77 .

(2) المصدر نفسه ، ص 77

ولعل أهم موضوع لفت انتباه الابراهيمى في المجال الاجتماعي فركز عليه أكثر من غيره هو موضوع الأسرة ومشكلاتها ، وسعيا منا لتوضيح رؤيته في هذا المجال ، ولإدراك مكانة الأسرة ودورها في عملية التغيير ، سنتحدث عن ثلاث قضايا هي : الزواج ، والصداق ، والطلاق .

أ - الزواج :

لم تخل شريعة من الشرائع السماوية، ولا منظومة من المنظومات القانونية الوضعية من الاهتمام بالزواج عن طريق تنظيمه ، وتحديد المسؤوليات التي تترتب عنه، وقد عني الإسلام بالزواج عناية فائقة، وأفرد له جانبا هاما من الأحكام التي ترشد المسلم إلى أقوم الطرق لبناء الأسرة، منذ أن يكون الزواج فكرة في ذهنه ، إلى أن يصبح واقعا ملموسا، وسماه القرآن الكريم ميثاقا غليظا، تتحمل الضمان الحية مسؤولية الحفاظ عليه والوفاء به حتى لا ينقض : « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا »⁽¹⁾ ، وبذلك أضيف على العقد بين الزوجين قدسية تجعله فريدا بين سائر العقود الأخرى، لما يترتب عليه من آثار خطيرة، لا تقتصر على عاقديه، ولا على الأسرة التي توجد بوجوده، بل يمتد إلى المجتمع ككل ، فيؤثر بقاءه وانفضاضه في تماسك المجتمع وقوته .

كما عد القرآن الكريم الزواج واجبا اجتماعيا للمحافظة على النوع الإنساني، وتسلسل الجنس البشري، حتى يتم إشباع غريزة حب البقاء التي طبع عليها الإنسان، حيث يضمن الزواج المشروع بقاء الأنساب نظيفة وصريحة ، فيجد كل ابن أبا معروفا ينتسب إليه، ويقوم بتربيته ورعايته⁽²⁾ ، ويتكون من ذلك مجتمع نظيف، تنتفي فيه علاقات الفوضى والإباحية، قال تعالى : « والله جعل لكم من أنفسكم

(1) النساء ، 21 .

(2) طهري محمد مصطفى ، أحكام الأسرة في الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط 3 ، 1977 ، ص 39 .

أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفيا لباطل يؤمنون
وبنعمة الله هم يكفرون»⁽¹⁾.

والزواج في الإسلام سكن نفسي للفرد، وسبيل مودة ورحمة بين الرجال والنساء، حيث أن العلاقة التي تربطهم تكون علاقة سكن تطمئن فيها النفوس وتسكن القلوب وترتاح الضمائر: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»⁽²⁾، لذلك كله حاربت الشريعة الإسلامية الرهبانية، لكونها تتصادم مع فطرة الإنسان، وتتعارض مع ميوله وأشواقه وغرائزه، ولما يترتب عنها من المضاعفات السلبية التي تهدد كيان المجتمع البشري.

وفي ضوء هذه المفاهيم، ينطلق الإبراهيمي في تقييمه لأهمية الزواج في الإسلام الذي يعده الخطوة الأساسية الأولى لبناء الأسرة التي هي نواة الأمة، والتي يرتبط صلاح المجتمع وفساده بها، ثم يبرهن على العناية الفائقة التي أولاهها الإسلام للرابطة الزوجية، بما ورد في الشريعة من أحكام الزواج وتوابعه ولوازمه من حقوق الزوجية، والنفقات، والمهور والعدة والحمل والإرضاع وأحكام الطلاق: «وحكمة ذلك كله أن هذه الأبواب هي التي تبنى عليها الأسرة التي هي نواة الأمة، وإن صلاح الأمة وفسادها، تابعان لصلاح الأسرة وفسادها، فعناية الإسلام بهذه الأبواب، أكبر برهان على عنايته بإصلاح الأمة وإسعادها»⁽³⁾.

وهو يعتقد أن الإسلام في اهتمامه بالأسرة وتنظيمه للزواج بهذه الأحكام الربانية التي ضبطها وأقرها، ولم يتركها للعقول البشرية لتتناولها بالنظر القصير

(1) النحل ، 72 .

(2) الروم ، 21 .

(3) الإبراهيمي، عين البصائر ، ص 132 .

والأهواء المتباينة، يعد من أعظم الأديان السماوية التي نظمت الحياة البشرية بالوحي الإلهي، الذي يراعي مصلحة الإنسان، فلا يغفل جانبه الفطري، ولا يتجاهل جانبه الاجتماعي، بل يدمجها معا في نظام واحد، يحقق بينهما الانسجام والتجاوب « إن أحكام النكاح وتوابعه تعد من مفاخر التشريع الإسلامي المستند على الوحي الإلهي، ولا يوجد دين من الأديان السماوية أو الوضعية - ولا أستثنى - اعتنى بهذه الأحكام وفصل فيها وبني أصولها على الفطرة وما تحتل وما لا تحتل إلا دين الإسلام »⁽¹⁾.

والابراهيمي ينطلق من هذا المنهج الإسلامي ليوجه النقد للمنظومة الأسرية الأوروبية في علاقاتها الزوجية التي تقوم على العواطف الجياشة ، والأحاسيس الفائرة ، فيؤكد أن العلاقة العاطفية التي تنشأ بين المرأة والرجل قبل الزواج ، والتي يجعلها الأوروبيون شرطا في الزواج ، ويعنونها الضمان الوحيد لتحقيق السعادة ودوام العشرة، أثبتت في كثير من الحالات عدم جدواها: « فالخطاة الطائفة القصيرة، المصحوبة بنزوات الشباب، التي يجعلها الأوروبيون شرطا في الزواج ، ويزعمون أنها ضامنة لدوام العشرة وسعادة البيت، قلما تصدق، لأنها لا تكشف عن الجواهر الأخلاقية الأصلية، مع ما يصحبها من الغش والتصنع، وكثيرا ما نرى الزوجين منهم بعد نصول الصبغ الكاذب ... يرجعان إلى حالة من المعاكسة والخلاف هي العذاب بعينه »⁽²⁾.

أما الإسلام، فإنه لا ينظر إلى الزواج نظرة غرائزية، ولا يبني الأسرة على أساس من العواطف العابرة لأن: « الطبائع الفردية في البشر تختلف وتتباين ، وعوارض الحب والبغض تتغير وتزول، فمن الخطأ في التشريع أن تجعل أساسا

(1) الابراهيمي، عيون البصائر، ص 131 ، 132 .

(2) المصدر نفسه، ص 132 .

لحكم عام، أو قاعدة اجتماعية»⁽¹⁾، بل ينظر إليه نظرة حضارية، باعتباره وسيلة فعالة لبناء المجتمع، وإعداد الأجيال إعدادا خلقيا واجتماعيا متينا: «والإسلام لا يبني على هذه الإعتبارات الزائلة، وإنما يبني على اعتبارات عليا، إن لم تلائم هوى طاغيا في الفرد فإنها تلائم مصلحة المجموع»⁽²⁾.

وعندما عرض الإبراهيمي لموضوع الزواج، تحدث عنه في إطار فكرة تغيير المجتمع الجزائري الذي كان يعاني من عدة مشاكل اجتماعية تهدد كيانه الأسري، وقد حاول أن يلفت أنظار المصلحين إلى هذه الآفات، ليتساندوا ويتكاتفوا حتى يتمكنوا من إصلاح ما فسد، وتقويم ما اعوج، والقضاء على العادات والتقاليد الضارة التي غزت المجتمع، فحرفت الزواج عن أهدافه السامية: «تعاني الأمة الجزائرية... عدة مشاكل اجتماعية، لا يسع المصلحين إغفالها، ولا السكوت عليها بعد ظهور آثارها، وتحقق أضرارها، وستعالج «البصائر» طائفة من أمهاتها، ببيان نتائجها، وبيان وجه الرأي في علاجها، سائلة من حملة الأقلام وحملة الألسنة ونوي الرأي أن يظاهروها في هذا العلاج... فإن من بعض هذه المشاكل ما لو تمادى وامتد لآتى ببيان الأمة من القواعد، وقضى عليها بالمسح أولا، والتلاشي أخيرا»⁽³⁾.

ويرى الإبراهيمي أن من أخطر الانحرافات التي يعاني منها المجتمع الجزائري، هو تأخر الشباب في الزواج، فقد تبين له من خلال معاينته للواقع أن الشباب الجزائري آنذاك، أصبح يؤخر سن الزواج إلى ما فوق الثلاثين، وهذا في اعتقاده انحراف عن الفطرة، وظاهرة اجتماعية مرضية يجب أن تؤخذ بعين

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 132.

(2) المصدر نفسه، ص 132.

(3) المصدر نفسه، ص 323.

الاعتبار بسبب ما يترتب عنها من آثار سلبية، قد تتمخض عنه مضاعفات خطيرة، تهدد المجتمع في أخلاقه ووجوده: « أعضل هذه المشاكل، وأعمقها أثرا في حياة الأمة، وأبعدها تأثيرا في تكوينها مشكلة الزواج بالنسبة إلى الشبان، فالواقع المشهود أن الكثير من شباننا - وهم أملنا وورثة خصائصنا يعرضون عن الزواج إلى أن يبلغ الواحد منهم سن الثلاثين فما فوق »⁽¹⁾.

وهو يبيّن اعتقاده هذا على ضرورة التعجيل بزواج الشباب متى اكتمل نضوجهم الجنسي والعاطفي والعقلي، وهو أمر يتم بشكل طبيعي، قبل سن الثلاثين، والزواج المبكر خصلة حميدة حبّذا الإسلام، وحث الشباب عليها متى رأوا في أنفسهم قدرة على القيام بشؤون الأسرة⁽²⁾، لأن الحكمة تقتضي أن توجه هذه الطاقات الفياضة التي تشهدها هذه المرحلة من العمر نحو السبيل الأمثل الذي يتم فيه استغلالها لصالح الفرد النفسي والصحي، ولصالح المجتمع ككل: « إن الأمة الرشيدة هي التي تحرس شبانها في طور الشباب من الآفات التي تصاحب هذا الطور، فتحافظ على أفكارهم أن تزيج، لأن هذا الطور طور له ما بعده من زيغ أو استقامة، وتحافظ على أهوائهم أن تتجه اتجاهها غير محمود، وتحافظ على عقولهم أن تعلق بها الخيالات، ... وتحافظ على ميولهم وعواطفهم أن تطغى عليها الغرائز الحيوانية، لأن هذا الطور هو طور تنبها ويقظتها »⁽³⁾.

وقد حذر من تمادي الشباب في التأخر عن الزواج، والعزوف عنه، ودعا إلى ضرورة إيجاد حل لهذه المعضلة قبل أن يستفحل أمرها، وتصبح تقليدا فاسدا تنجر

(1) الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 323.

(2) يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « يامعشر الشباب من استطاع منكم البائة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح، ج 4، ص 2، دار العربية، بيروت، لبنان، د. ت. ص 128).

(3) الإبراهيمي، عبون البصائر، ص 325.

عنه جملة من الآفات التي يصعب تدراكها⁽¹⁾، وهو يؤكد أن من بين ما ترتب على هذه الظاهرة في المجتمع الجزائري انتشار العنوسة بين الشباب اللواتي تعطلن عن الزواج بسبب إعراض الشباب عنه، كما يرى أن الخسارة لا تتوقف على الجانب الاجتماعي فقط، وإنما تترك آثارا نفسية سلبية، تتمثل في ضياع سنوات الشباب الأولى التي هي - في رأيه - السن الأمثل لاستمتاع الشباب - في إطار العلاقة الزوجية - بالحياة، لأنها مرحلة الخصب والنماء، لذلك فتأخير الزواج إلى ما بعد سن الثلاثين: « يضيع على الجنسين ربيع الحياة ونسماته وأزهاره وبهجته وقوته، ويضيع على الأمة نبات ذلك الربيع، وثمر الخصب والنماء والزكاء فيه، ثم تضيع بسبب ذلك أخلاق وأعراض وأموال »⁽²⁾.

وقد حاول الإبراهيمي أن يبحث عن الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة الاجتماعية، ليتسنى له وضع المشكلة في إطارها الحقيقي، ويسهل من ثم تحديد علاجها، لذلك نجده يصنف الشباب الجزائري الأعزب إلى ثلاثة أصناف :

أما الصنف الأول، فهو الذي زاغ عن الفطرة، وتحلل من قيود الدين والأعراف الاجتماعية، فاستهوته موجة الانحلال الأخلاقي والميوعة الشائعة في أوروبا، فاندفع معها، واستمرأ حياة اللهو والعبث، وأصبح يرى في الزواج قيда ثقيلًا يحد من شهواته، ويقمع غرائزه، فأعرض عنه إعراضا نهائيا، والإبراهيمي يرى أن هذا الصنف لا علاج له، بسبب ما أصابه من انحراف نفسي وغزو فكري، ولم يعد منه فائدة للأمة : « وأما أولئك الشبان الذين أركسوا في الدرك الأسفل من الحيوانية، فانطلقوا مع الشهوات، واستمرأوا التحلل من قيود الدين والعقل، ورأوا أن الزواج

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 323.

(2) المصدر نفسه، ص 323.

قيد لحريتهم البهيمية، فتحالفوا مع الشيطان على بت حباله فأولئك قوم مجرمون ⁽¹⁾ والصنف الثاني، هو الشباب المثقف الذي ينوي الزواج ولكنه يتعلل له بالتعلات، ويخلق المبررات التي تسوغ له تأخيرها، والإبراهيمي يرى أن الثقافة التي تزود بها هذا الصنف من الشباب - على قدر ما فتحت له أبواب العلم، ونورت عقله بنوره - إلا أنها أورثته بعض السلوكات التي شاعت عند الأوروبيين بخاصة، وهي المبالغة في الاحتياط للمستقبل، والتخوف من تكاليف الأطفال: « فأما المثقفون الذين يستغلون ثقافتهم، ويعيشون بها، فيبالغون كلما ذكر الزواج في الاحتياط للمستقبل، والاستعداد لتكاليف النسل » ⁽²⁾.

وهذه النظرة المادية إلى الحياة عند هذا الصنف من الشباب الجزائري ، ناتجة - في تصور الإبراهيمي - عن تأثرهم بالحضارة الغربية المادية التي لا تؤمن بالغيب، وتتناقض مع القيم الإسلامية التي تقوم على الإيمان بأن الأرزاق بيد الله ، وأنه تعالى قد قدر لكل نفس رزقها في هذه الحياة، وعلى المسلم أن يسعى ويبذل الجهد، مع الثقة بالله والتوكل عليه ⁽³⁾.

وأما الحجة الثانية التي يتحجج بها هذا الصنف في تأخير الزواج، فهو أنه يأنف الزواج من الفتاة الأمية التي لا تناسبه في المستوى الثقافي، ولا تستطيع أن تتجاوب معه في أفكاره وتطلعاته، وقد كانت الفتيات الجزائريات في ذلك الوقت ، تعاني نسبة كبيرة منهن من الأمية بسبب سياسة التجهيل الاستعمارية، لذلك ، يتردد كثير منهم في الإقبال على الزواج، خوفا من عواقبه: « ومنهم من يعتذر

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر ، ص 324 .

(2) المصدر نفسه ، ص 324 .

(3) المصدر نفسه ، ص 324 .

للعزوبة بأنه لا يجل به أن يتزوج من الجاهلات الأميات ⁽¹⁾.

وإذا كان إبراهيمي يعد المبرر الأول لا معنى له، لمخالفته للتفكير الاسلامي الذي يستمد أصوله من الكتاب والسنة، فإنه يعطي بعض العذر للشباب عندما يتعلل بالمبرر الثاني، ويقدر موقفه حين يطالب بالاقتران بفتاة في مستواه الثقافي، ويرى أن المخطيء في هذه الحالة هم المصلحون القائمون على شؤون المجتمع، الذين سمحوا بتعليم الذكور، وأهملوا أمر الإناث دون أن يقدروا الضرر الذي سوف يلحق بالمجتمع من جراء ذلك: « لا نلومهم وإنما نلوم أنفسنا ، إذا لم نأخذ للأمر عدته ، ولم نحط لعواقبه البعيدة، فنعلم البنت تعليما إسلاميا قويا بروحه، قائما بفضيلته ، واسعا بمعانيه، ترغم به هذا الشباب الأخرق على الرجوع إلى أصله، ولا يفل الحديد إلا الحديد » ⁽²⁾.

وعلى الرغم من ذلك فإنه يحاول أن يجد العذر لهؤلاء الفتيات اللواتي أضاعهن الوضع الشاذ الذي تعيشه بلادهم تحت نير الاحتلال، والتقاليد الفاسدة التي ورثتها العقول المتحجرة عن قرون التخلف والانحطاط، ويؤكد لهؤلاء الشباب الذي يأنف من الزواج منهن، أن الأمية ليست وصمة عار، وأن الفتاة الجزائرية تحمل فيضا من العواطف الرقيقة، والشمائل الحميدة التي ورثتها عن عرقها الطيب الأصيل الذي لم يخدشه الجهل، ولم تفسده موجات الانحلال والتفسخ الخلقي.

لذلك، فإن الواجب يقتضي من هؤلاء الشباب أن يكتفوا منها بهذه الفضائل ، ويجاهدوا بعد ذلك في سبيل تهذيبها وتعليمها للارتفاع بها إلى أفقهم، ولعل إشفاق إبراهيمي على المرأة الجزائرية من تحمل أوزار ذنب لم تقترفه، ورغبته الملحة في المحافظة على كيان الأسرة الجزائرية من التحلل والانهيار، جعله يفضل زواج

(1) إبراهيمي، عيون البصائر، ص 324 .

(2) المصدر نفسه ، ص 324 .

الشباب من المرأة الأمية الأصلية، ويرى ذلك أنسب له ولمجتمعه من زواجه من متعلمة، تخرجت من المدارس الفرنسية، ودرجت على التحرر واحتقار دين أمتها وتقاليدها، بدعوى تكافؤ المستوى الثقافي، ويوجه الإبراهيمي عتابه إلى هذه الطائفة المتغربة قائلا: « وجعلت البعض يأنف من الفضيلة إذا كانت أمية ، ولا يأنف من الرذيلة إذا كانت متعلمة »⁽¹⁾.

وإذا كان الإبراهيمي يدافع عن الفتاة الجزائرية، ويلقي باللوم على الشباب المثقف الذي يتحاشى الاقتتران بها، فإنه يحاول بذلك أن يسد ثغرة خطيرة فتحت على الشباب الجزائري منذ أن دخل بعضهم المدارس الفرنسية وتعلم فيها ، وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى أوروبا طلبا للرزق، هذه الثغرة هي الزواج بالأجنبيات، التي يرى فيها « زينة كبرى »⁽²⁾ وشرا مستطييرا، يهدد الكيان الجزائري بالتلاشي، إذا ما اتسع مجالها وانتشرت عداوها .

وقد شاعت ظاهرة الزواج بالأجنبيات خلال هذه المرحلة في العالم العربي، لما كثر الاحتكاك بين الشرق والغرب للعمل والتجارة والأسفار وطلب العلم، مما أدى إلى نشوء دواع من الألفة والحب واتفاق الأنواق بين العرب المسلمين والنساء الغربيات، وكانت بعض الدوائر الغربية تشجع هذه الظاهرة، وترمي من ورائها إلى أهداف استعمارية وضحتها صاحب كتاب « التبشير والاستعمار » فيما يلي: « إن الزواج بالأجنبيات يسلب البيت الإسلامي جوه الروحي، ويبدل كثيرا من المثل العليا، والغالب أن مثل هذا البيت لا ينشأ على اللغة العربية ... وإذا علمنا أن اللغة الأجنبية

(1) الإبراهيمي، عين البصائر ، ص 324 .

(2) المصدر نفسه ، ص 324 .

تكون في هذه الحال لغة الأم أدركنا تأثير اللغة على الأولاد»⁽¹⁾ .

وقد عارض الإبراهيمي هذا النوع من الزواج معارضة شديدة ، ليس من منطلق فكري أو عقائدي، فالإسلام يبيح الزواج من الكتابيات ويشجع التعارف بالمصاهرة بين القبائل والشعوب، ولكن من منطلق واقعي، لما رآه من ضعف في المسلمين واضطراب في أحوالهم، حيث يكون الزواج بالأجنبيات الأوروبيات في هذه الحالة ضياع للشباب المسلم من جهة، وضياع لأبنائه من جهة أخرى، وقد تحدث - بأسف وحسرة - عن العمال الجزائريين الذين أقبلوا على الزواج بالأوروبيات في بلاد المهجر، وقدر مبلغ الخسارة التي لحقت بالمجتمع الجزائري من جراء ذلك فقال: « وتزوج كثير منهم من أوروبيات عاملات وولد لهم في أرض مسيحية من زوجات مسيحيات، فكانت النتيجة اللازمة لهذا أن الآباء أضاعوا دينهم بتأثير البيئة فضلا عن الأبناء الذين اجتمعت عليهم البيئة والأمهات والقانون، أنهم بلا شك ينشأون مسيحيين خالصين »⁽²⁾، وهذا سيؤدي حتما إلى ضياع أجيال كثيرة، كانت ستكون قوة للأمة الجزائرية، فأصبحت قوة في أعدائها.

وكان هذا موقف العديد من المفكرين الإسلاميين المحدثين ، فقد هاجم رشيد رضا الشبان المسلمين الذين نالوا حظا من الثقافة الأجنبية، فجنحوا إلى التحرر من قيود الزواج الإسلامي، وفضلوا الزواج بالأوروبيات، ونعتهم: « بحثالة المتعلمين التي لم تستفد من التعلم إلا رطانة اللغة الأوروبية، وبها يتمكنون من معايشة بغايا الإفرنج مسافحات أو متخذات أخدان ... ولولا هؤلاء المتعلمون لما راج سوق

(1) هروخ ، د . عمر ، و: الخالدي ، د . مصطفى ، التبشير والإستعمار المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ط 5 ، 1973 ، ص 206 ، 207 .

(2) الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج 4 ، ص 236 .

الفحش في مصر ... ولما انتهكت حرمان الدين وتركت فضائله وسنته «⁽¹⁾ .
أما مصطفى صادق الرافعي، فقد تناول الموضوع بكثير من الدقة والشمولية، وانتهى إلى نتيجة مفادها أن الأجنبية التي يتزوج بها المسلم هي مسدس جرائم فيه ست قذائف، كل قذيفة تخلف وراءها جريمة: فالأولى بوار امرأة مسلمة وضياع حقها في الزواج من هذا الشاب وهي جريمة وطنية، والثانية إدخال الأخلاق الأجنبية على طبائع المسلمين وفضائلهم وهي جريمة أخلاقية، والثالثة خلط الدماء الشرقية بالدم الغربي فينتج عن ذلك جيل مهجن وموزع الجهود والعواطف بين اتجاهين وهي جريمة اجتماعية، والرابعة التمكين للأجنبي في بيت مسلم يحكمه ويصرفه على هواه وهي جريمة سياسية، والخامسة إثارة الشاب المسلم للغريبة على أخته المسلمة، وتحكيمة للهوى في الدين وهي جريمة دينية، ويختم الرافعي ذلك كله بقوله: « والسادسة بعد ذلك كله ، أن هذا المسكين يؤثر أسفله أعلاه ... ولا يبالي في ذلك خمس جرائم فظيعة وهذه السادسة جريمة إنسانية »⁽²⁾ .

ولئن كان الرافعي قد استطاع أن يحصر الآثار السلبية المترتبة على الزواج بالأجنبيات في هذا التصوير الأدبي الجميل، فإن الإبراهيمي لم يكن ليخالفه في ذلك، وهو يعلم مدى خطورة هذه الظاهرة على المجتمع الجزائري، وأثرها في تفكك أسرهم وانحلالها، لذلك نجده يهيب بالشباب الجزائري أن يكون غيورا على عرضه، فيقبل على الزواج من بنات جنسه اللاتي يوافقنه ديناً وخلقا، ويعرض عن الأوروبيات الغربيات، فيقول واصفا، الشباب الجزائري المثالي: « أتمثله شديد الفيرة، حديد الطيرة، يغار لبنت جنسه أن تبور، وهو يملك القدرة على إحصانها، ويغار لماء شبابها أن يغور، وهو يستطيع جعله فياضا بالقوة دافقا بالحياة، ويغار على هواه

(1) رضا ، محمد رشيد ، « الزواج وشبان مصر وشوايها ، المنار ، ج 8 ، مع 5 ، 22 جويلية 1902 ، ص 338 ، 343 .

(2) الرافعي ، مصطفى صادق ، وهي القلم ، ج 1 ، ص 251 ، 252 .

وعواطفه أن تستأثر بها السلع الجليبية والسحن السليبية، ويغار لعينيه أن تسترقهما الوجوه المطراة، والأجسام المعراة، يا شباب الجزائر هكذا كونوا... أو لا تكونوا»⁽¹⁾.
وأما الصنف الثالث من الشباب الجزائري الأعزب الذي يتهرب من مسؤولية الشباب، فهو الذي لم تتح له الظروف فرصة التعلم، وأصبح يعتمد في كسب رزقه على القوة الجسمية، لكنه سليم الفطرة، لم تلوث نفسه موجات الانحلال الغربية، ولا غزت عقله الأفكار الغربية المنحرفة، وعذر هذه الطائفة أن التقاليد الاجتماعية تفرض على طالب الزواج شروطا مرهقة، وتثقله بالمطالب التي تفوق طاقته المادية أضعافا مضاعفة، لذلك فهو يتنصل من الزواج خوفا من تبعاته .

والإبراهيمي يتفهم عذر هذه الطائفة، ويعرف أن المجتمع هو المخطيء في حقها: « إن كثيرا منهم لصادق في كثير من هذه المعاذير، وإن عذرهم لبين ولا نلحقهم في هذا ملامة، وإنما اللوم على هذا المجتمع الفاسد الذي نبذ هداية الدين وإرشاد العقل وشهادة الواقع ، وحكم العوائد، وتناول هذه المسائل الكبيرة بالنظر القصير»⁽²⁾.

لذلك لم يتماد في لومهم وتعنيفهم كما فعل مع الطائفة المثقفة، وإنما وجه عتابه إلى أولياء الأمور الذين يتولون الإشراف على تزويج بناتهم، فبين لهم أن الإسلام جعل من الزواج سكنا وألفة ورحمة . وعمارة بيت وبناء أسرة ، ولم يجعله سبيلا للقلق والبلاء والشقاء ، وخراب البيوت بالنفقات والمغارم⁽³⁾.

ثم أوضح أن هذه النظرة المادية إلى الزواج قد جنت على المجتمع ككل ، فأصبح اختيار الأزواج والزوجات يخضع لهذا المقياس الذي يضع المال فوق كل

(1) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 592 .

(2) المصدر نفسه ، ص 324 .

(3) المصدر نفسه ، ص 325 .

اعتبار، فضاعت الأخلاق والفضائل، وتفشت ظاهرة الطلاق لضعف الأساس الذي بني عليه الزواج : « هذه العوائد بدلت حكم الله ، ونسخت سنة رسوله ، فأصبح الزوج لا ينظر من الزوجة إلى دينها وحسبها وجمالها، وإنما ينظر إلى شيء واحد ... إلى مالها وولي الزوجة لا ينظر من خاطب بنته إلى أصله ودينه وأخلاقه، وإنما ينظر إلى شيء واحد ... إلى ماله وما يقدمه من المهر الغالي والطي النقيس. وبعد هذا لا نعجب إذا رأينا كل زواج يبتدئ بهذا الاعتبار، ينتهي بالطلاق والعداوة والخصام بعد أشهر وأيام »⁽¹⁾.

وهذا العزوف عن الزواج بسبب الظروف المادية هو نتيجة طبيعية لظاهرة المغالاة في المهور، والتي سنتحدث عن موقف الإبراهيمي منها فيما يلي .

ب - الصداق

لقد عد الإبراهيمي ظاهرة المغالاة في الصداق من أمراض المجتمع الجزائري التي تفشت بشكل كبير، وأصبحت تنشر الفساد والفتنة: « من أمراضنا الاجتماعية التي تنشر في أوساطنا الفساد والفتنة، وتعجل بها إلى الدمار والفناء، عادة المغالاة في المهور ... وقد أفضت بنا العوائد السيئة فيها إلى سلوك سبيل منحرف عما تقتضيه الحكمة، وعما تقتضيه المصلحة »⁽²⁾.

ويصور الإبراهيمي نتيجة الانحراف عن المقاصد السامية في قضية المهور ، وما ترتب عنها من آثار سيئة في المجتمع فيقول: « ولو أننا وقفنا عند حدود الله ، ويسرنا ما عسرت العوائد من أمور الزواج، لما وقعنا في هذه المشكلة، ولكننا عسرنا اليسير، وحكمنا العوائد، والعجائز القواعد، في مسألة خطيرة كهذه ، فأصبح الزواج الذي جعله الله سكنا وألفة ورحمة - سبيلا للقلق والبلاء والشقاء ،

(1) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 325 - 326 .

(2) المصدر نفسه ، ص 359 .

وأصبح اللقاء الذي جعله الله عمارة بيت وبناء أسرة - خرابا لبيتين بما فرضته العوائد من مغالاة في المهور، وتقنن في النفقات والمغارم»⁽¹⁾.

وهو يوضح أنه قد اهتم بهذه القضية اهتماما بالغا، وجعلها في مقدمة أعماله في المجال الاجتماعي، بسبب ما ينجر عنها من آفات ومفاسد، وحارب المغالاة في المهور في جميع المناسبات التي أتاحت له: « وقد كانت هذه القضية - وما زالت - أهم ما تضمنه منهاجنا في الإصلاح الاجتماعي، فعالجناها بالترغيب والترهيب، وبيان ما تقتضيه الحكمة الشرعية، وما يقتضيه الحكم الشرعي: تناولناها في الخطب الجمعية، وفي دروس التفسير والحديث، وفي المحاضرات العامة، وفي المقالات المكتوبة، وحملنا الحملات الصادقة على العوائد التي لا يستها فأفسدتها، حتى صيرت الزواج الذي هو ركن الحياة، أعسر شيء في الحياة»⁽²⁾.

بل إنه قد خطا خطوة هامة في ميدان التطبيق العملي لهذه الحقائق الشرعية، حيث أشارت الكاتبة الجزائرية زهور ونيسي التي تخرجت من مدارس جمعية العلماء، أن الإبراهيمي قد أشرف: « على زواج معظم الفتيات المتعلقات بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، ومدن أخرى غيرها على أساس مهور رمزية تمثلت في كثير من الحالات بكتب شعر وأدب وتربية، ومصاحف قرآنية، وهدايا رمزية قدر المستطاع... وقد استمر العمل بهذا القرار الحكيم حتى أيام الكفاح المسلح، حيث بقي الصداق رمزيا عند زواج المجاهدين والمجاهدات»⁽³⁾.

وفي هذه المبادرة الجريئة، إشارة حية إلى مساعي الإبراهيمي الحثيثة إلى تغيير المجتمع الجزائري عن طريق ربطه المباشر بالقرآن والسنة، ودفعه إلى استلها

(1) الإبراهيمي، عين البصائر، ص 325.

(2) المصدر نفسه، ص 359.

(3) ونيسي زهور، بعض من رؤية العلامة الإبراهيمي في الإصلاح الاجتماعي، الثقافة، ع 87، ص 91.

القدوة من الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح، وقد عبر في كتاباته عن إعجابه العميق لفعل النبي الكريم الذي زوج المرأة التي وهبت له نفسها بسور من القرآن⁽¹⁾ وأشار إلى القيمة العظيمة التي يكتسبها هذا المهر في تقدير العقول الراجحة، التي تقدم المنافع المعنوية على المصالح المادية: « وما أغلى صداق الواهبة في حكم العقل، إذ سيق إليها علما بسور من القرآن يزكيها، لا دراهم معدودة يفتنيها إنفاق يوم أو يومين »⁽²⁾.

وفي ضوء هذا الوعي بخطورة المغالاة في المهور، اجتهد الإبراهيمي في الكشف عن المقاصد السامية والغايات البعيدة لحكم الصداق في الإسلام، فبدأ بتعريفه قائلا: « الصداق نحلة شرعية مشروطة في عقدة النكاح، يعجلها الزوج للزوجة أو يعمر بها ذمته إلى أجل »⁽³⁾، ثم وضع الحكمة الشرعية منه، وأشار إلى أن المهر إكرام من الرجل القوام للمرأة الضعيفة، ووصلة بين قلوبهما، وتوثيق لعرى المحبة بينهما⁽⁴⁾، وليس كما يفسره الفقهاء الجامدون بذلك التفسير القبيح الذي شاع بينهم، ونقلوه عن طريق فتاويهم إلى عامة الناس، وهو أن الصداق ثمن للعلاقة الجنسية بين الزوجين: « فإن هذا التعليل يدخل بهذه العلاقة الشريفة في باب البيع والشراء والمعاوضات المادية، وحاش لهذه الصلة الجلية التي هي سبب بقاء النوع

(1) وفي هذا إشارة إلى المرأة التي وهبت نفسها للنبي فزوجها لأحد أصحابه بسور من القرآن، وقد نزل فيها قوله تعالى: « وأمرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » (الأحزاب، 50) راجع تفاصيل الحادثة في (مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القيشري النيسابوري، الجامع الصحيح، ج 4، ص 2، ص 143).

(2) الإبراهيمي عيون البصائر، ص 362.

(3) المصدر نفسه، ص 360.

(4) المصدر نفسه، ص 360.

الإنساني أن تكون كصلة الثوب بمشتريه، أو صلة المتاع بمقتنيه»⁽¹⁾.

وإذا كانت الشريعة قد عدت الصداق ركنا من أركان صحة الزواج: « وأتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا »⁽²⁾، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يحددا مقداره، لا قلة ولا كثرة، وترك الأمر للناس كل واحد على قدر طاقته، وحسب حالته: « وليس للصداق في أصل الشريعة ونصوصها القطعية، وتطبيقاتها العملية - حد منصوص يوقف عنده لا في القلة ولا في الكثرة ، وإنما هو موكول إلى أحوالهم في العسرة واليسرة ، وطبقاتهم في الغنى والفقر »⁽³⁾.

وبعد أن يستعرض الإبراهيمي السيرة النبوية وأفعال الصحابة التي أقرها الرسول الكريم في أمر الصداق يخرج بنتيجة مفادها أن المال « جاذب مادي موصل يسد رغبة سطحية »⁽⁴⁾، وأن الحكمة السامية منه هو ربط القلوب بالمحبة ، وتوثيق عرى المودة بين الزوجين، والتعاون على بناء جيل قوي يفيد الأمة « ورأينا فيه، وفهمنا لحكمته أنه رمز نبوي بعيد المغزى، عالي الإشارة، إلى أثر ما يفتتن به الناس بمقتضى طبيعتهم من اعتبار المال في الزواج ليس مقصدا شرعيا، وأن أحقر شيء مما يسمى ما لا كاف فيه، أما المقصد الحكيم فهو من وراء ذلك هو في الإحصان، وقمع الغرائز الحيوانية، وسكون القلب إلى القلب، وتحقيق حكمة الله في التناسل وتسلسل النوع، إلى غير ذلك من الحكم التي ليس منها المال »⁽⁵⁾.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر ، ص 360

(2) النساء ، 4 .

(3) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 361 .

(4) المصدر نفسه ، ص 362 .

(5) المصدر نفسه ، ص 362 .

وينتهي من ذلك كله إلى التنبيه أن الشريعة لم تحدد قيمة معينة للصدقة بسبب اختلاف الحالة المادية بين الناس في جميع الأزمنة والأمكنة، وأن الإسلام دعا الناس إلى أخذ هذا الأمر بالفطرة السليمة التي تقتضي أن يجروا فيها على مبدأ التيسير: «والخلاصة أن الشريعة المطهرة الحكيمة لم تحدد في الصدقة حدا أدنى، ولا حدا أعلى، لأن الناس طبقات، فقراء، وأغنياء وبين ذلك، فإذا استأفوا بالفطرة القويمة، والشريعة الحكيمة، وجروا على منازلهم في المجتمع، صلح أمرهم، واستقامت لهم الحياة، وإذا زاغوا عن الفطرة، وحادوا عن الشريعة، وخروحت كل طبقة عن مداها المقدر لها، هلكوا وشقوا»⁽¹⁾.

كما ذكر أنه لا يريد من هذه التوجيهات تحديد الصدقة، وإحداث أمر جديد لم يرد في الشرع، بل هو تنبيه إلى المفاصد الاجتماعية المتفاقمة التي تمخضت عن سوء فهم المسلمين لأسرار هذا الأمر الشرعي، والتي من أبرز مظاهرها انتشار العنوسة بين الشباب الجزائريات، وانغماس الشباب في الرذائل وانقصادهم لشهواتهم، وقد شجعهم على ذلك غياب التربية البيتية الرشيدة، وتغذية الاستغناء، للانحلال الخلقي في أوساطهم: «نحن لا نبدل أحكام الله، ولا نقول بنحديد الصدقة، ولكننا نقول ونكرر القول: إن المغالة في المهور أفضت بنا إلى مفسدة عظيمة، وهي كساد بناتنا وإعراض أبنائنا عن الزواج، واندفاعهم في رذائل يعين عليها الزمان والشيطان»⁽²⁾.

وقد كان الإبراهيمي يدرك أن هذه الحملة التي استهدفت العادات والتقاليد الفاسدة، لا تستطيع أن تؤتي ثمارها في زمن قياسي، ولا يمكن أن ينتظر منها تغيير العقليات في وقت قصير نظرا لاستحكام هذه العوائد في النفوس، ورسوخها

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 363.

(2) المصدر نفسه، ص 364.

في المجتمع، وصعوبة تخليص العقول من تأثيراتها السلبية، ولكن أمله كبير في أن يفقه الجيل الجديد - الذي فتح عينيه على هدى الدين ونور العلم، وتشبع بأفكار الإصلاح والتغيير - هذه الحقائق فيسعى بنفسه إلى نبذها: « ولكن أعمالنا في هذه القضية لا تظهر نتائجها الكاملة إلا في جيل يكون أقوى إرادة من هذا الجيل الذي ملكت العوائد عليه أمره، فأعمته عن مصالحه، وأفسدت عليه دينه ودنياه »⁽¹⁾.

غير أن ذلك لم يقعد به عن تذكير الناس بواجبهم، وحثهم على ترك هذه المفاهيم البالية التي تعتد من الصداق بقيمته المالية، وتزن الرجال بما في جيوبهم، ونبههم إلى ما سينجم عن تماديهم في هذه السبيل من أخطار تهدد كيان الأمة الجزائرية: « فعلى المسلمين أن يذللوا هذه العقبات الواقعة في طريق زواج بناتهم وأبنائهم، وأن يقتلوا هذه العوائد الفاسدة المفسدة، وأن ييسروا ولا يعسروا وأن يعتبروا في الزواج حسن الأخلاق لا وفرة الصداق، وفي الزوجة الدين المتين، لا الجهاز الثمين »⁽²⁾، ولعل هذا العرض السريع، يعطينا لمحة بسيطة عن جهاد الإبراهيمي في هذا المجال الاجتماعي الحساس جدا .

ج - الطلاق :

ومن بين مشكلات الأسرة التي عالجها الإبراهيمي مشكلة الطلاق، فقد لاحظ أن المجتمع الجزائري يشهد انتشارا لافتا للنظر لظاهرة الطلاق، ولا يخفى ما في ذلك من آثار وخيمة وقد نجمت هذه المشكلة من سوء فهم المسلمين لحكم الطلاق، ومن استهانتهم به، واستباحتهم لحرمة جهلا بها، وغفلة عما يترتب عنها.

والإبراهيمي يرى أن المتسبب الأول في هذا الجهل، هم الفقهاء الجامدون الذين درجوا على التقليد والجمود، وأخذوا أحكام الشريعة من الكتب الجافة التي

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 359 .

(2) المصدر نفسه، ص 364 .

تسرد الأحكام سردا ميتا، ولا تبحث عن الحكمة التي تنطوي تحتها، هؤلاء الفقهاء هم الذين عوّدوا الناس على الفتوى الحرفية التي تؤخذ منهم لتطبيق دون مراعاة للمصالح، أو بحث عن المقصد الشرعي من ورائها: « جهل المسلمون حقائق دينهم، وجعلوا الحكم المنطوية تحت أحكامه، ومن أسباب ذلك جفاف الفقه عند الفقهاء لأخذهم إياه من كتب تعلم الأحكام ولا تبين الحكم، فآثر ذلك في نفوس المتفقهة، وهم مرجع العامة في سياسة الإفتاء - أثارا سيئة، منها اعتبار تلك الأحكام تعبدية تحفظ ألفاظها، ولا يتحرك الفكر في التماس عللها، وطلب حكمها، وتعرف مقاصد الإسلام منها، وتصفح وجوه المصلحة والمفسدة فيها »⁽¹⁾.

وهو يرى أن الطلاق في الإسلام لم يشرع إلا كحل اضطراري يلجأ إليه المسلم مكرها بعد أن يستنفذ كل جهوده في المحافظة على عقدة الزوجية، وحين تسد في وجهه الأبواب الموصلة إلى العشرة الطيبة والحياة الهادئة، وقد بغضته إليه الشريعة فقال عليه الصلاة والسلام: « أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق »⁽²⁾، والإبراهيمي يشير إلى أن الطلاق يتضمن كل معاني الظلم والألم والمرارة والفراق: « الطلاق حل عقدة، وبث حبال، وتمزيق شمل، وزوال خليط، وانفضاض سامر، فيه كل ما في هذه المركبات الإضافية التي استعملها شعراء العرب... من التبايع وحرارة، وحسرة ومرارة ويزيد عليها جميعا بمعنى آخر، وهو ما يصحبه من الحقد والبغض والتآلم والتظلم »⁽³⁾.

ونظرا لما يصحبه من آثار نفسية واجتماعية سيئة، راعى الإسلام ذلك، وقدر لهذه المقتضيات الفطرية قدرها، فلم يجعل الطلاق حكما مطلقا، بل قيده بقيود

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 329.

(2) أبو دأود، سليمان بن الأشعث السجستاني، صحيح سنن المصطفى، ج 1، ص 340.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 328.

شرعية، مرتبطة بحكم عالية، حتى يحافظ على الحياة الأسرية ويحفظ عقدة الزواج من التفكك، ويتيح للمسلم فرصة مراجعة نفسه، وترجيح المصالح في سبيل الإبقاء على العشرة الزوجية .

ومن هذه القيود، أن الإسلام شرع للمسلم أن يطلق زوجته طلقة واحدة رجعية، ويحق له بعدها أن يراجعها أثناء العدة، كما يحق له أن يعيدها إلى عصمته برضاها بعد انقضاء العدة بعقد ومهر جديدين، فإذا عاد الزوجان إلى النزاع بعد ذلك، وشجر بينهما ما اضطر الزوج إلى تطليق زوجته مرة ثانية، يبقى الأمل قائما في عودة العشرة بينهما ، حيث يعطي الإسلام للرجل فرصة مراجعة زوجته ، فإذا عاد إلى معاشرتها بعد أن طلقها مرتين، وحدث من الخلافات ما أوجب تطليقها للمرة الثالثة كان ذلك دليلا على أن هوة الخلاف قد اتسعت بينهما، وأن الحياة الزوجية قد أصبحت غير محتملة⁽¹⁾، حينئذ تكون الطلقة الثالثة إيذانا بالتفرقة النهائية بين الزوجين .

وقد سمي الإبراهيمي هذه القيود مخففات، تحد من سلبيات الطلاق ، وتضيق من دائرته، وتفسح المجال للمسلمين واسعا حتى لا يقعوا فيه إلا بعد أن يستفرغوا الجهد منها: « لهذه الملابس التي هي من مقتضيات الفطر السليمة، والطباع الرقيقة، شرعه الإسلام مقيدا بقيود فطرية حكيمة ، وقیود شرعية قویمة ، اعتمد في تنفيذها بعد فهم المراد منها على إيمان المؤمن، وشرع له من المخففات ما يهون من وقعه كالتمتع ومد الأمل بالمراجعة، وتوسيع العصمة إلى الثلاث، حتى تمكن الفيئة إلى العشرة »⁽²⁾ .

(1) وزارة الشؤون الدينية الجزائرية ، محاضرات الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامي، وهران 1971 ، ص 314 .
315 .

(2) الإبراهيمي ، عين البصائر ، ص 328 .

كما أشار إلى أن قدسية العقدة الزوجية، توجب على الزوجين أن لا يسارعا إلى إنهاء حياتهما المشتركة لمجرد شعورهما بضعف عواطف الألفة والمودة التي تربطهما، بل أن ارتباط مصلحة الأولاد ومصلحة المجتمع ببقاء الكيان الأسري قائما تجعلهما يحكمان العقل ليفيئا إلى الرشد، ويتنازلا عن بعض الحقوق الشخصية في سبيل مصالح أعلى: « الزواج عقد بين قلبين، ووصل بين نفسين، ومزج بين زوجين - وفي الأخير - تقريب بين جسمين، فإذا تراخت عراه بين القلبين ضاعت حكمة الله فيه من السكون والرحمة والعطف، وهنا يدخل العقل مصلاحا ببلغة المصلحة والتعاون والإحسان ، وشفاعة النسل (إن كان) »⁽¹⁾ .

أما إذا رأى أحد الزوجين أو كلاهما أن دوام ارتباطهما أمر مستحيل، وأن استمرار الحياة الزوجية عذاب وشقاء واضطراب دائم، فإن الطلاق يكون في هذه الحالة أرحم لهما من البقاء تحت سقف واحد: « فإذا زاغت الفطرة من أحد الزوجين عن محورها، أو طغت الغرائز الحيوانية على الفضائل الإنسانية في أحدهما أو كليهما، ولم يقم العقل وحده أو مع الحكمين ، بإصلاح ذات البين، فالله أرحم من أن يكلف عباده، تحمل هذا النوع من العذاب النفسي، لذلك شرع لهما الطلاق ليستريح إليه من ضاق ذرعا بصاحبه ضيقا معقولا بدواعيه وأسبابه »⁽²⁾ .

والإبراهيمي في عرضه لأمر الطلاق في الإسلام، يريد أن يثبت في الأذهان أن الإسلام ما شرعه إلا كحل أخير، وأنه أحاطه بجملة من القيود التي تنبه إلى ضرورة مراجعة العقل وترجيح المصالح قبل الإقبال عليه، والتي تلفت الأنظار إلى قدسية العقدة الزوجية التي لا يجب أن يستهان في فسخها بمجرد لحظة غضب ، أو ساعة خلاف قد تزول بزوال أسبابها وعوارضها .

(1) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 328 .

(2) المصدر نفسه ، ص 328 ، 329 .

هذه الأسرار والمقاصد التي ضمنها الإسلام في الطلاق، هي التي أرادها إبراهيمي أن تكون سنداً للفقهاء الذين يتصدون للإفتاء حتى يعوها وينقلوها إلى عامة الناس، ويشعروهم بأهميتها حتى لا يتمادوا في استعمال هذا الحق الشرعي استعمالاً عشوائياً: « إن من يأخذ فقه الطلاق من آية: « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »⁽¹⁾، ومما بعدها من الآيات الأمرة بالوقوف عند حدود الله، الناهية عن تعديها، أو من آية: « فمتعوهن على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره »⁽²⁾، أو من آية الحكمين ووعده الله بالتوفيق عند الإصلاح، وبالإغناء من واسع فضله عند التفرق... من أخذ فقه الطلاق من هذا المنبع العذب يعلم أي حكم مبنوثة تحت كل كلمة وكل جملة، ومن تفقه هذا الفقه ونشره في الناس يبعد جداً أن يتلاعب بتلك العقدة الإلهية التي عقدها الله بين الزوجين، فيضعها في موضعها المعروف بين المسلمين الآن »⁽³⁾.

وقد كان المجتمع الجزائري آنذاك، بما شاع فيه من جمود فقهي، وجهل بالحكم الجليلة التي تنطوي عليها الأحكام الشرعية، قد انحرفت مفاهيمه عن الطلاق، ولم يعد يفهم منه سوى أن العصمة بيد الزوج يبقيا متى شاء، ويفكها متى شاء، لأن الفقهاء لا يسعون إلى تفهيم المستفتي أن الله عندما يكل إليه العصمة: «فهو يكل إليه عهداً ويستحفظه على أمانة، اعتماداً على رشد، وثقة بإيمانه»⁽⁴⁾، وليس امتيازاً فضله به على المرأة لحقارة شأنها أو هوان قدرها كما يفهمه كثير من الناس .

(1) البقرة ، 229 .

(2) البقرة ، 236 .

(3) إبراهيمي ، عين البصائر ، ص 329 ، 330 .

(4) المصدر نفسه ، ص 330 .

وقد أدى هذا الجهل إلى استهانة الرجال بعهد الزوجية وميثاقه: « هذا الجمود في الفقه والفقهاء، وذلك الخلاف الواصل بين طرفي الإباحة والحظر في المسألة الواحدة - هما اللذان سهلا على المسلمين تعدي حدود الله في الطلاق، وأفضيا إلى هذه الفوضى الفاشية في البيوت، وإلى ارتفاع الثقة بين الأزواج والزوجات »⁽¹⁾، وصارت كلمة الطلاق مبتذلة، يتلاعب بها الأزواج كلما بداهم ذلك، ويلقونها لأتفه الأسباب وأوهى الخلافات: « يخرج الرجل إلى السوق، أو يجلس في المقهى، ويختلف مع آخر في شأن جليل أو حقير فيحلف أحدهما أو كلاهما بالطلاق حائثا فتكون النتيجة خراب بيت، وتمزيق أسرة، وتشريد بنين ... ويتنازع اثنان الحديث في السياسة أو التفضيل بين شخصين أو في الغيم والصحو، فتجري ألقاظ الطلاق متناثرة متعددة، كأنها لازمة الحديث، وكأن الكثير منهم لم يتزوج إلا ليجعل الزوجة أداة يمين ... وكثيرا ما تطلق الزوجة بهذه الأيمان والالتزامات العابثة، وهي لا تعلم من ذلك شيئا ولم تتسبب فيه »⁽²⁾.

وقد هاجم الإبراهيمي بشدة هؤلاء الأزواج الحمقى الذين يتساهلون في خراب بيوتهم، وتشريد أبنائهم، وزيادة الآفات المهلكة للمجتمع، وبين لهم أن عقدة الزواج ميثاق مقدس يحافظ عليه المسلم الحر الذي يعي مكانته عند الله، ويدرك خطورته على أفراد المجتمع. وقد ذهب في قضية الطلاق مذهباً طريفاً حينما قرر أنه يتعين على القضاء الإسلامي العادل أن ينتزع من الفجار الجاهلين حق الطلاق، لأنهم لا يحسنون التصرف فيه فيجب أن يعاملوا معاملة المجانين الذين يحجر عليهم: « إن عقدة الزواج عقدة مؤكدة، يحافظ عليها الأحرار، ويتلاعب بها الفجار، وإن العصمة امتياز لرجالكم، مالم تطغوا فيه وتظلموا، فإذا طغيت فيه وجرت عن

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 330 .

(2) المصدر نفسه، ص 330 - 331 .

القصد، كما هي حالتكم اليوم، انتزعه منكم القضاء الإسلامي العادل لو كان، فإذا لم يكن عاقبكم الله بعذاب الخزي»⁽¹⁾.

ولعل الأطفال هم أول ضحايا الطلاق، وأكثر المتضررين منه، بسبب ما ينالهم من حرمان، وما يلحقهم من شقاء جراء فراق الوالدين. وربما اجتمع عليهم فقدان الأب وضيق العيش، فينشأوا متبرمين من الحياة ساخطين عليها، ناقلين على المجتمع، حاقدين على الأب المهمل، ويكبرون بهذا المزيج السلبي من العواطف، فلا تنتفع بهم الأمة، ولا يسعد بهم المجتمع الذي يضطر إلى احتمال نزواتهم وربما إجرامهم وشذوذهم: «إنه لا أشقى من ابن المطلق، وأن أباه يشقيه أولا، ويشقى به أخيرا، فإذا ربي في حضن أمه المطلقه شقي ببعده عن أبيه، وشقي أبوه بما تغرسه أمه في نفسه من بغض له وحقد عليه. إن الأمة لا تنعم بأطفالها صغارا، ولا تنتفع بهم كبارا، إلا إذا نشأوا متقلبين في أحضان الآباء والأمهات، متلقين لدروس العطف والحنان من قلوبين متعاطفين، لا من قلب واحد. ليت شعري أيديري المتساهلون في الطلاق ماذا جنوا على أنفسهم وعلى أبنائهم وعلى أمتهم؟»⁽²⁾.

وهكذا يحاول الإبراهيمي أن يعالج هذا الداء الذي استشرى في المجتمع بتوعية الناس بأخطاره، وتربيتهم على خشية الله فيما يقبلون عليه من أمور تخص أسرهم، ورفع قيمة عقدة الزواج في نفوسهم، وترهيبهم من التهاون فيها، وتحسيسهم بعظمة المسؤولية الملقاة على الأزواج والزوجات تجاه أولادهم وتجاه مجتمعهم، لحماية الأسرة الجزائرية من أخطار التفكك وحماية الأطفال من التشرد وسوء التربية.

هذه نظرات من مواقف الإبراهيمي حول قضايا الأسرة ومشكلاتها، حاول

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 331.

(2) المصدر نفسه، ص 331.

من خلالها أن يصلح كثيرا من العادات والتقاليد الفاسدة في المجتمع الجزائري وهي تبين مدى اهتمامه بإصلاح الأسرة الجزائرية، ومحاولة النهوض بها، لتكون وسيلة فعالة من وسائل التغيير الاجتماعي. لإدراكه أن تغيير الوضع الاجتماعي المتردي للشعب الجزائري، يحل مشكلاته والقضاء على المظاهر السلبية فيه، يسهم إلى حد بعيد في خدمة مشروع النعصر

ثانياً: موقفه من قضية تحرير المرأة

وكما اهتم الإبراهيمي بقضايا الأسرة ومشكلاتها، عالج أيضاً قضية المرأة التي كانت مطروحة بجدّة على الساحة العربية الإسلامية في العصر الحديث وكان من أوائل المفكرين العرب الذين دعوا إلى تحرير المرأة العربية رفاعة رافع الطهطاوي، متأثراً في ذلك بالتيارات الغربية التي عايشها، وأطلع على آثارها في المجتمع الفرنسي، فدعا إلى تعليم البنات ومساواتها في هذا الحق بالولد الذكر، وألف في تدعيم هذه الفكرة كتاب (المرشد الأمين للبنات والبنات) وعد تعليم البنات تمهيداً لإعدادها للزوجية والأمومة وجعلها مساوية لشريك حياتها في الميول والاتجاهات⁽¹⁾.

ثم جاء بعده قاسم أمين الذي دعا إلى سفور المرأة وتعليمها ومشاركتها في الشؤون العامة، وحاول أن يثبت من خلال النظريات الغربية قدرة المرأة الكاملة على المساواة مع الرجل في الملكات والقدرات إذا أُتيح لها الخروج في إطار الآداب وحدود الأخلاق⁽²⁾. وقد ضمّن أفكاره تلك كتابين هما (تحرير المرأة) و (المرأة

(1) حجازي - د. محمود فهمي - أصول الفكر العربي الحديث، عا. الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة - مصر 1974، ص 88.

(2) حسين - د. محمد محمد، الإنجازات الوطنية في الأدب المعاصر - ج 1، دار النهضة العربية - بيروت، لبنان، ط 1 1972، ص 304.

الجديدة) .

ولئن كانت قضية تحرير المرأة قد ظهرت في المشرق العربي منذ نهاية القرن الماضي، وشهدت بعد ذلك تطورا واضحا على جميع الأصعدة، مع انتشار المدارس وارتفاع نسبة البنات المتعلّقات، وتولي بعض الشخصيات النسائية مهمة الدفاع عن حقوق المرأة في المجتمع مثل ملك حنفي ناصف المعروفة بباحثه البادية وهدى شعراوي وغيرهما، فإن قضية المرأة في الجزائر قد تأخر طرحها إلى ما بعد سنوات الثلاثين⁽¹⁾. وقد تناولتها أقلام النخبة المثقفة بالفرنسية، كما تناولتها أقلام المصلحين، فأما الطائفة الأولى، فكانت تحبذ سفورها، وتعليمها بالفرنسية، وتقليدها للمرأة الغربية في السلوك والعادات واللباس وما إليها. وأما المصلحون فقد تصدوا لهذه الأفكار، وركزوا على ضرورة تعليمها تعليما عربيا إسلاميا، ومنحها بعض الحرية في الخروج وحضور التجمعات العامة .

ونظرا للوضع الاجتماعي المتردي في الجزائر، والذي كانت تتحكم فيه التقاليد المبالغة في التشدد والقسوة تجاه المرأة، إضافة إلى الأفكار الخاطئة التي شاعت ورسخت في الأذهان عن تعليم المرأة⁽²⁾، فقد سارت حركة تطوير المرأة وتحسين حالتها ببطء كبير في الجزائر. حيث بقيت الفئة القليلة من النساء التي تعلمت في المدارس الفرنسية محصورة في بعض العائلات وبعض المدن الكبرى أين توجد كثافة أوروبية. وقد بذلت جمعية العلماء جهودا محمودة في سبيل تعليم المرأة الجزائرية وتربيتها في إطار القيم العربية الإسلامية، على الرغم من العنت الذي وجدته من المحافظين الذين اتهموها بإفساد المرأة وتمييع أخلاقها، والمعاكسات التي لقيتها من الاداة الاستعمارية التي كانت تحبذ أن تتوجه الفتيات إلى المدارس

(1) ناصر د . محمد ، المقالة الصحفية الجزائرية ، ج 1 ، ص 227 .

(2) المصدر نفسه ، ص 230 .

الفرنسية تمهيدا لإدماجهم في المجتمع الأوروبي. ويروي الإبراهيمي، أن مدارس جمعية العلماء كانت تضم في سنوات الخمسين الأولى ثلاث عشرة ألف بنت⁽¹⁾.

غير أن هذه الجهود بقيت محدودة، وظل تأثيرها ضعيفا، نظرا لضيق دائرتها بسبب ما كانت تعانيه الجمعية من ضائقة مالية، جعلتها عاجزة عن نشر المدارس في جميع مناطق الوطن المحرومة، وبسبب التقاليد الفاسدة والاعتقادات المنحرفة .

وقد حاول الإبراهيمي أن يعطي رأيه في قضية تحرير المرأة، فأكد باديء ذي بدء أهميتها في المجتمع، ثم أهميتها في التغيير. فهي من الناحية الكمية تساوي نصف المجتمع، وتمثل الجناح الثاني له. فإذا أراد المجتمع أن يتصل من رواسب الجهل والتخلف والفقر، وأن يطير نحو الكمال والازدهار، لا يتم له ذلك إلا بجناحين: « الأمة كالطائر لا تطير إلا بجناحين، وجناحاها هما الرجل والمرأة، فالأمة التي تخص الذكر بالتعليم تريد أن تطير بجناح واحد، فهي واقعة لا محالة »⁽²⁾.

أما أهميتها في التغيير، فتتمثل في كونها - بحكم وظيفتها الطبيعية - الإنسان الأقرب إلى الطفل، عنها يأخذ أخلاقه ولغته وعاداته وسلوكاته، أي أنها هي التي تشرف على تكوين شخصيته فهي بالتالي المسؤولة عن الأجيال الجديدة، أي المؤتمنة على مستقبل الأمة فإذا تم إعدادها إعداداً صحيحاً، جاء الجيل الذي تربيته مستقيماً، وأسهمت، بذلك، في دفع عملية التغيير وتسهيل مهمتها. وقد جعلها الإسلام : « مغرسا للنسل ، وغارسة للخصائص فيه ، ومتعهدة له بالسقي والإصلاح »⁽³⁾ ، كما أناط بها رعاية البيت المسلم ، ومهمة زرع الرحمة والمودة والوئام بين أفرادها. فإذا كانت المرأة في مستوى هذه المسؤولية العظيمة، وجدت

(1) الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي . ج 4 ، ص 239 .

(2) المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 239 .

(3) المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 46 .

الاهتمام الكافي بها منذ نعومة أظفارها، سعد المجتمع بالأبناء الذين يتخرجون على يديها، وازداد تماسكه بتماسك أسرته .

وكان الإبراهيمي يدرك الدور الفعال الذي يمكن أن تلعبه المرأة في تغيير المجتمع عن طريق نبذ العادات الفاسدة، والقضاء على الأفكار الخرافية التي تقيد حركة العقل، وتلوث النفس. وتمنى لو اتسع مجال الحركة الإصلاحية وامتد إلى أعماق المجتمع لينتشل المرأة من واقعها المرزوي، ويرفعها إلى مستوى عال من القربة والعلم اللذين يمكنانها من ممارسة دورها التغييري في المجتمع فيقول: « وإن المرأة لنعم العون في هذا الباب ⁽¹⁾، ومادام عقل المرأة لم يرتق إلى معرفة الحقائق، وتبين وجوه المصالح، فإن أملنا في إصلاح هذه الحالة ضعيف والمرأة هي نصفنا « الضعيف القوي » شئنا أو أبينا ⁽²⁾ .

أما موقفه من قضية تحرير المرأة، فإن الإبراهيمي يرى أن الإسلام قد حرر المرأة وكرمها، ومنحها جميع الحقوق الثلاثة بإنسانيتها، المناسبة لتكوينها الطبيعي، ورفعها إلى مقام سام باعتبار مكانتها في المجتمع الإسلامي: « حرر الإسلام المرأة من ظلم الرجال وتحكمهم، فقد كانت المرأة في العالم كله في منزلة بين الحيوانية والإنسانية بل هي إلى الحيوانية أقرب، تتحكم فيها أهواء الرجال وتتصرف فيها الاعتبار العادية المجردة من العقل، فهي حيناً متاع يتخطف، وهي تارة كرة تتلقف، تعتبر أداة للنسل أو مطية للشهوات ⁽³⁾ .

وفي هذا النص، يشير الإبراهيمي إلى الوضع المرزوي الذي كانت تعيشه المرأة في العالم قبل مجيء الرسالة الإسلامية. فقد كان الأثنيون - أكثر الأمم

(1) يقصد باب الإصلاح الاجتماعي .

(2) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 359 .

(3) الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج 4 ، ص 360 .

القديمة حضارة - يجعلون المرأة من سقط المتاع، تباع وتشترى لأنها رجس من عمل الشيطان - كما جاء في شرائع الهند أن « الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي، والنارخير من المرأة »⁽¹⁾. وفي روما، قرر مجمع حكمائها أن المرأة كائن لا نفس له، وأنها رجس يجب أن لا تاكل اللحم، وأن لا تضحك، وأن لا تتكلم. بل إن بعض حلقات البحث في أوروبا كانت تتسائل في اجتماعاتها إن كانت المرأة إنسانا أم لا ؟، وفي بريطانيا أصدر الملك هنري الثامن أمرا بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء⁽²⁾. أما في الجزيرة العربية فقد كانت بعض القبائل تندها كراهية للأنثى، وخوفا من الفقر والعار، ويحرمونها من الميراث، ويرثها الرجل بعد موت زوجها كرها.

وعندما أشرقت شمس الإسلام على العالم، انتقلت المرأة من هذه المكانة المهينة الذليلة إلى منزلة الشرف والرفعة، بما منحها الله من حقوق وما حباها من كرامة: « وجاء الإسلام فنبه على منزلتها وشرفها وكرم جنسها، وأعطاه كل ما يناسب قوتها العقلية وتركيبها الجسمي وسوى بينها وبين الرجل في التكاليف الدينية، وخاطبها بذلك استقلالا تشريفا لها، وإبرازا لشخصيتها، ولم يجعل للرجل عليها سبيلا في كل ما يرجع إلى دينها وفضائلها، وراعى ضعفها البدني بالنسبة للرجل، فأراحها من التكاليف المادية في مراحل حياتها الثلاث، من يوم تولد إلى يوم تموت بنتا وزوجا وأما »⁽³⁾.

وعزز هذا التكريم بأحكام قطعية من الكتاب والسنة لا يجوز تجاوزها، حتى لا تبقى حقوق المرأة خاضعة لأهواء الآباء والأزواج والأبناء: « نرى من هذه المعاملة

(1) طيارة: عفيف عبد الفتاح، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 19، 1979، ص 356، 357.

(2) المصدر نفسه، ص 357.

(3) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 360.

الصريحة للمرأة في الإسلام أنه سلحها بأحكام قطعية، وحماها بتشريع سماوي عادل ولم يكلها إلى طبائع الآباء الذين يلينون ويقسون، ولا إلى أهواء الأزواج الذين يرضون ويغضبون، ولا إلى نزعات الأبناء الذين يبرون ويعقون، وإنما هي أحكام إلهية واجبة التنفيذ، لا تدور مع الأهواء والعواطف والنزعات وجودا وعدما»⁽¹⁾.

ثم يعقب الإبراهيمي بأنه لا يوجد دين سماوي، ولا قانون وضعي استطاع أن يمنح المرأة ما منحها الإسلام، لأنه دين الحق الذي نزل من عند اللطيف الخبير الذي يعلم ما خلق، ولا يضير الإسلام بعد ذلك أن المسلمين قد ندوا عن طريقه، وانحرفوا عن صراطه، وأهملوا شأن المرأة، وهضموا حقوقها. لأن الأصل ثابت، ومتى أخذوا به سعدوا، واستعادوا مجدهم. وهم اليوم يدفعون ثمن هضمهم لحقوق المرأة، وتقاعسهم عن الاهتمام بها، ويشهدون بأنفسهم السقوط الفكري والخلقي في أولادهم: «ولا ينقض علينا هذه الأصول شذاذ العصور المتجاوزون لحدود الله الخارجون عن الفطرة الصحيحة كمسلمي زماننا الذين منعوا المرأة المسلمة كل أوجل حقوقها، وحسب هؤلاء أنهم ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا المرأة، وأنهم هدموها فهدمتهم عن غير قصد في أبنائهم، وأفسدوا كونها، فحرموا عونها»⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس، فإنه يرفض رفضا قاطعا الطريقة التي انتهجها الغرب في قضية تحرير المرأة، حينما أطلق لها العنان في جميع الميادين دون قيد ديني أو أخلاقي يعصمانها من السقوط في الرذيلة ويحولان دونها ودون الانقياد للقرائن، حتى خرجت عن حدودها الطبيعية، مما أفرز مضاعفات خطيرة أصبحت تهدد المجتمع الإنساني كله بالتفكك والسقوط: «إلى أن جاءت هذه الحضارة القائمة فأرخت للمرأة العنان، فزاغت الحرية المفرطة عن الاعتدال، فتعدت طورها الطبيعي،

(1) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 361.

(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 361.

فأصبحت مشكلة يعسر حلها، لا إنسانا يعسر إقناعه، وسندهم الفاتحون لهذا الباب.

لذلك، فهو لا يرى للمرأة الجرائرية سبيلا آخر سال به حقوقها، وتحصل به على حريتها إلا بالتزامها بدينها، واحتكامها إليه في كل صغيرة وكبيرة، حتى تتمكن من المساهمة الفعالة في البناء الحضاري لأمتها

وفي إطار الدفاع عن حقوق المرأة المسلمة، واجه الإبراهيمي الدعوات التفريعية التي تستهدف الإسلام بالهجوم، وتتخذ من قضية المرأة ذريعة للطعن فيه، والتقليل من شأنه، وتشويه صورته في العالم فقد أشاع الغربيون وأذئابهم من المسلمين الجاهلين « أن الإسلام عبو للمرأة ينتقص كرامتها ويهين كبريائها، ويحطم شعورها بذاتيتها، ويدعها في مرتبة أقرب للحيوانية، متاعا حسيا للرجل وأداة للنسل ليس غير... وهي في هذا في موضع التابع من الرجل، يسيطر عليها في كل شيء، ويفضلها في كل شيء، » وقد نبيه الإبراهيمي لخطورة هذه الهجمات الفكرية الغربية فقال « وفي موضوع (المرأة في الإسلام) يتدخل علماء الغرب ملاحدة ومتألهين، ويتعاطون ما لا يحسنون من القول في هذا الموضوع، ويجعلون منه ذريعة للنيل من الإسلام ».

وقد أشار إلى أنه قد دخل في مناظرة مع جماعة من هؤلاء الذين يتهمون الإسلام حقدا أجهلا، حول موضوع ميراث المرأة في الإسلام، فبين لهم بالحجة الواضحة والمنطق المقنع أن ميزان العدل الإسلامي، ورحمة الله بالمرأة قد تجلت في قضية الميراث بأوضح برهان.

(1) الإبراهيمي عيون البصائر، ص 27

(2) قطب، محمد، شبهات حول الإسلام، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط 15، 1982، ص 106

(3) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 361

وقد دار الحوار حول الآية الكريمة « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين »⁽¹⁾، فقال لهم إبراهيمي « أنتم قوم تبنون الحياة كلها على الحساب ، فهلهم (نتحاسب) ، ولنفرض أن مورثا مسلما مات وترك ابنا وبناتا وثلاثمائة نقدا ، قال الإسلام: للابن مئتان وللبنات مائة، فقلتم هذا ظلم . هذا غبن . . . هذا إجحاف . . . ولم تفهموا أن الإسلام نظر إلى المرأة ككل، ونظر إلى مراحل حياتها الثلاث كمنظومة متناسقة، فإذا نقص لها في جزئية، جبر لها في جزئية أخرى »⁽²⁾.

ثم افترض أن الأخوين تزوجا في يوم واحد، فدفع الذكر لزوجه مائة صداقا ، وأخذت أخته من زوجها مائة صداقا، فبقي له مائة وصار لأخته مائتان، ثم تقع على الرجل بعد ذلك مسؤولية الإنفاق والقيام بأمر زوجته وأولاده، بينما تحتفظ المرأة بأموالها، تصرفها في أي وجه تريد، ولا يحق لزوجها أن يأخذ شيئا منه البتة إلا بالتراضي الكامل بينهما « فهذا هو الميزان العادل في الإسلام يتجلى من هذا المثال، وتتجلى منه رحمة الله في هذا المخلوق الذي ركبه الله على ضعف، ورشحه لحمل أعظم أمانة، وهي تربية الناشئة وإعدادها للحياة »⁽³⁾.

وأكد في الأخير أن الإسلام لو وجد من دعائه من يضطلع بتببيان الحكم العظيمة في الأحكام الشرعية الخاصة بالمرأة، ومن يحمل المسلمين الجاهلين على الالتزام بها في معاملتهم للنساء المسلمات، لما استطاع دعاة التغريب أن يتجروا على هذا الدين الحنيف، وأن يستغفلوا المسلمين المبهورين بحضارته لينبذوا تعاليمه ويستبدلوها بالمفرزات الفكرية للحضارة الغربية في هذا المجال، ويمهدوا لغزو فكري مقصود، يستهدف المرأة بشكل خاص: « لأن مركز المرأة في المجتمع ممتاز ، ولأن

(1) النساء . 11

(2) إبراهيمي ، آثار محمد البشير إبراهيمي ، ج 1 ، ص 362

(3) المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 362

الحياة كلها تتوقف عليها»⁽¹⁾.

ونخلص إلى القول في قضية تحرير المرأة عند الإبراهيمي، أنه يؤمن بحرية المرأة في إطار القيم الإسلامية والحدود الشرعية، ويرفض تحريرها وفقا للمنظور الغربي، وبذلك وقف موقفا معتدلا، فلم يكن من أولئك العلماء الجامدين المحافظين الذين يرفضون خروج المرأة وتعليمها مهما كانت الظروف، ولا من أولئك المتأثرين بالحضارة الغربية، المتشبعين بقيمتها المادية الذين نادوا بإخراج المرأة من البيت، ودعوا إلى التمرد على تعاليم دينها، والتحرر من أخلاق أمتها، وقد كانت جهوده العملية تصب في هذا الخط، فقد عمل على تعليم المرأة الجزائرية، وثقيفها، وترقيتها، وتهذيب أخلاقها وطباعها وفقا للقيم العربية الإسلامية.

ثالثا: الإبراهيمي والشباب الجزائري

إن الشباب هو عماد نهضة الأمة وعدتها للمستقبل، وهو الدم الحار الذي يتدفق في عروقها فيبعث فيها الحياة والقوة، وعمودها الفقري الذي يترتب عليه رقيها وتأخرها معا، وهو أعظم رصيد تفتخر به الأمم والشعوب، وإن نظرة سريعة إلى تاريخها في مختلف العصور والأجيال تبين لنا أن مامن أمة تقدمت وبلغت ذروة المجد إلا بفضل جهود شبابها الطموح المخلص، وما تأخرت أمة وهوت إلى الحضيض إلا بما جناها عليها شبابها لتقصيره وتقاعسه.

وتتميز مرحلة الشباب بكونها فترة التحول الكبرى في حياة الإنسان، من حالة الطفولة والاعتماد على الغير، إلى حالة يتم فيها الاعتماد على النفس، لاكتمال النمو الجسمي والعقلي والعاطفي، كما تتميز أيضا بالاندفاع والحماس، والتطلع نحو الجديد، والجنوح إلى إثبات الذات والاحساس بطعم الحياة.

(1) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 362.

وخلال هذه المرحلة يتهيأ الجيل الجديد لأداء دوره المهم في المجتمع بحمل أمانة الحياة ومسؤولية حماية كيانه الاجتماعي وإمداده بدماء الحياة الجديدة . واستكمال المسيرة الحضارية التي قطعها الآباء والأجداد، ويقع على عاتق الجيل القديم الذي قطع أشواطاً في العمل والتجربة أن يرشد الجيل الجديد إلى العلاقة التي يجب أن تربطه بماضيه، بحيث ينبهه إلى ضرورة المحافظة على القيم الحضارية التي هي ميراث الأمة من عقائد وأداب وأخلاق، وأن يركز عليها في انطلاقه نحو البناء والتنمية، وله بعد ذلك أن يشكل منها ج حياته حسب ما يقتضيه التطور الطبيعي وسير الحياة، حتى لا يضطر إلى الدوران في الفراغ أو الانطلاق من نقطة الصفر التي تبعثر جهودها ، وتفقده توازنه .

وقد كان الإبراهيمي يدرك المكانة المتميزة التي يحتلها الشباب في الأمة حين قال: « إن شباب الأمة هو الدم الجديد في حياتها »⁽¹⁾، فعلى عاتقه تقع أعباء النهوض بها، وهو المرشح لتولي قيادتها وتوجيهها نحو التقدم والازدهار، إذا ما تم الإشراف على إعداداته إعداداً جيداً، وتوعيته بخطورة دوره في الحياة، وحمايته من عوارض الأمراض الأخلاقية، والآفات الاجتماعية التي تضعف فاعليته، أو تعرض مسيرته للانحراف.

لذلك، نجده يركز بصفة دائمة على ضرورة الاهتمام بإعداد الشباب الجزائري باعتبار دوره الحيوي في المجتمع، وكان يرى أن هذا الإعداد واجب يفرضه الظرف التاريخي على المصلحين في الجزائر حتى يكفروا عما اقترفته أبائهم في حق الأجيال السابقة والحالية، والتي جاءت إلى الحياة فارغة العقل والقلب من المعاني السامية والأخلاق الفاضلة والعلم النافع الذي يحفرها إلى التجديد ويدفعها إلى

(1) الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص 49

التغيير. وهو يعد نفسه واحداً من هذا الجيل الضائع الذي لم يرث شيئاً من أسلافه الذين أفلسوا في العلم والقيم فصاروا لقمة سائغة لأعدائهم

فالأجيال الصاعدة - في الأمم الحية - يرث من الآباء - الأخلاق والآداب والأفكار والإحساسات والاتجاهات العامة والشخصيات الخاصة ... وعلى أساسها تعيش حاضرها وتبني مستقبلها. والإبراهيمي يؤكد أن جيله لم يرث شيئاً من ذلك. « ليس من العقوق أن نقول إن أبا ما لم يرث شيئاً باقياً من هذه الأمتعة ... بل من الإنصاف لهم أن نقول إنهم ورثوا هذه الصفقة الخاسرة التي هي رأس مالنا اليوم. من أخلاق لاترون جناح بعوضة، وآداب لا تستقيم عليها حياة، وأفكار بدائية لا تجول في المدار الواسع من الحياة. وعقول تقدر فنحطى ... وندير فتبطل ... وغير ذلك مما تركنا غرباء عن عصرنا وأهل عصرنا »⁽¹⁾

وأمام هذه الوضعية الخطيرة التي ذهبت بفعالية هذا الجيل. وأفقدته القدرة على التفكير الصائب، والحركة والتغيير، وجعلته يراوح مكانه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا. رأى الإبراهيمي أن مسؤوليته تجاه وطنه وأبناء وطنه، تقتضي منه أن لا يقترب - هو ومن وعى وضع الأمة - في حق الجيل الآتي الجريمة نفسها التي اقترفها أبائهم في حقهم « يعذر هذا الجيل الذي نحن منه، بأنه استلم التركة العامة أبوات معطلة، وأسلحة مفلولة، وأجهزة بالية، من جيل انتهى به زمنه إلى درجة من الإفلاس المادي والأدبي، صبرته في غير زمنه، ولكنه لا يعذر إذا سلمها - كما هي - إلى الجيل الآتي. ويقترب جريمة غش لا تغفر إذا حمل أوزاره وأوزار أجيال قبله على الجيل الآتي، بعد أن كشف عورها، وتبين ضررها »⁽²⁾

(1) الإبراهيمي، ميون البصائر - ص 301

(2) المصدر نفسه - ص 301

(3) المصدر نفسه - ص 301

وكان يحس بثقل المسؤولية الملقاة على عاتق المصلحين من أبناء جيله، وعرف
جسامته الواجبات التي سيضطلمعون بها لتخليص الجيل الصاعد منها، ولكن بهون
من وقعها أنها سوف تخلص الشباب الحرائري المقل على الحماة من جرائم
الأمراض التي فتكت بأبنائه، وأقعدتهم عن مسيرة الأحياء، - حرام علينا أن نرضى
للجيل الآتي بما لم يرض به لأنفسنا، وأن نحر عنهم هذا الحطيل الذي نحر عنه،
وأن نلوث نفوسهم البريئة بهذه القاذورات، - أن نستليهم بما أسلانا به أبائنا من أدوات
التفرق المهلك، والأنانية الكاذبة، والغرور الدلي، والتكبر للقريب، والخضوع للغريب،
حرام علينا أن نقلدهم هذه الأسلحة المسمومة فيعانون كما نعانينا، ويدوق بعضهم
بأس بعض، ويشقون جميعا ويسعد بشقائهم الغير -

وكانت الظروف التي أحاطت بجيل الإبراهيمي قاسية وشاذة بجميع المقاييس،
لذلك بدت مهمة إعداد الجيل الجديد صعبة وشفافة وقد حرص الإبراهيمي أن
يصور هذا الواقع الاجتماعي بدقة حتى يدرك المصلحون ومعهم الشباب أنهم
يخوضون معركة مصيرية، فلا توهنهم العواقب ولا تفت في عضدهم الشدائد - أنتم
- في وضعكم الاجتماعي - أبناء، حماة ليس لكم في تسيير هابذ، ووطن ليس لكم في
تسطيره قلم، وقانون ليس لكم في وضعه شرك، وحاضر ليس لكم في تدبير مستقبله
رأي، فجئتم على هذه الصورة التي لا تأتي إلا في فنرات مجنونة من الزمن، وفي
فلتات شاذة من الطبيعة -

ثم بين لهم أن الزمن الذي تجاور أبائهم وجعلهم نسيا بين الشعوب سوف
تدوسهم عجلته إن لم يتداركوا ما فات، ويسارعوا إلى مواكبته ومسيرة أبنائه،
ليجدوا لهم مكانا لا نقا بين الأمم، ويسمعوا صوتهم لمن يتمادى في إذلالهم

(1) الإبراهيمي، ميوز الصائر - ص 302

(2) المصدر نفسه - ص 294

استغلالا لضعفهم وتأخرهم، لذلك نراه يحذر الشباب من قطع أوقاته في لوم الأنا، والعتاب عليهم، وأن يشمر عن ساعديه ليتعلم ويعمل، فلا تلحقه المهانة التي لحقت بمن قبله: «إننا - يا أبنائي - كنا أول من نام، وآخر من استيقظ، فمن الحزم أن لا نقطع الوقت في العتاب والملام، والحرب بالكلام، فإن ذلك إطالة للمرض، وزيادة في البلاء على المريض... إن وراعا من الزمن سائقا عنيفا، وإن معانا من العصر وروحه زاجرا مخيفا... وإن عن أيماننا وعن شمالكنا عدائق من الدهر، ومعوقين من البشر... وأنتا لا تغلب العدائق، ولا تنقي العدائق، إلا بإيماننا بالله، ثم بديننا، ثم بلغتنا، ثم بأنفسنا»⁽¹⁾

وأما الأساس الذي كان يود أن يبني عليه الجيل الجديد فهو الأخلاق والعلم والوطنية. فقد كان يؤمن إيمانا جازما أن لا سبيل إلى إعداد الشباب الجزائري إعدادا صالحا وقويا يتناسب مع ظروف الجزائر المتردية إلا باتباع هذه الطريقة فالأخلاق الفاضلة هي التي تحي النفس وتوقظ الضمائر، وترفع الهمم، وتجنب الشباب مصارع السوء ومواطن الرذائل، فتكون تطلعاته دائما شريفة، ووسائله في الحياة مشروعة، ومبادئه عالية، ومصلحة الوطن مقدمة على مصالحه الشخصية، وخدمة شعبه هي مدار اهتمامه بقول الإبراهيمي واصفا المرتبة الأخلاقية التي يتمنى أن يرتقي إليها الشباب الجزائري «أتمنئ محمد بن الشامل، غير صخاب ولا عياب، ولا مفتاب ولا سياب، عفا عن محارم الخلق ومحارم الخالق، مقصور اللسان إلا عن دعوة إلى الحق، أو صرخة في وجه الباطل... قوي الإيمان بالحياة، صحيح النظر في حقائقها... أتمنئ مقدما لدينه قبل وطنه، ولوطنه قبل شخصه، يرى الدين جوهره، والوطن صدفا، وهو غواص عليهما»⁽²⁾

(1) الإبراهيمي، عين الصائر، ص 288 - 289

(2) المصدر نفسه، ص 588 - 594

وأما العلم فهو القوة الجبارة التي يفرض العصر الأخذ بها، وإلا بقي الإنسان منبوذاً، مهمشاً، غريباً، لا يعترف له بحق، ولا يؤبه لشأنه، ينظر إليه الأقوياء، بنظر الوحش إلى الفريسة، وقد كان الإبراهيمي كثير التنبيه إلى ضرورة ترويض الشباب بالعلم للأخذ بأسباب القوة، ومعايشة العصر، ومسايرة التطور، وليبدأ حياتهم العملية المستقبلية على أساس مدين « إنكم لا تضطلعون بهذه الواجبات إلا إذا انقطعتم لطلب العلم، وتبذلتكم إليه تنجيلاً، وأنفقتم الدقائق والساعات في تحصيله، وعكفتم على أخذه من أفواه الرجال وبطون الكتب واستغفرتكم كرهه بالبحث والمطالعة ... ووصلتم في طلبه سواد الليل ببياض النهار ما أننا إن الحياة قسمان حياة علمية، وحياة عملية، وإن الثانية منهما بنيت على الأولى قوة وضعفاً، وإبداعاً وعقماً، وإنكم لا تكونون أقوياء في العمل، إلا إذا كنتم أقوياء في العلم ».

وأما الوطنية فهي الأساس الثالث الذي كان يرى الإبراهيمي ضرورة إعداد الشباب عليه. فقد كان يعتقد أن من أوجب الواجبات على المصلحين، ربط الشباب الجزائري بوطنه، وتعميق حبه في نفسه، وتمتين علاقته به، وتحسيسه بالمسؤولية الملقة عليه للحفاظ على هذا الوطن، والعمل الجاد لتخليصه من عدوه، وتطهير أرضه من دنس الاستعمار « لا يعدلكم في حب وطنكم إلا ظالم، ولا يصرفكم عن إتقان وسائل النفع له إلا أظلم منه، أنتم اليوم جنود العلم فاستعدوا لتكونوا غداً جنود العمل، إن وطنكم مفتقر إلى جبل قوي البدن، قوي الروح، مستكمل الأدوات من فضائل وعزائم، وإن هذا الجيل ينتظر تكوينه منكم »⁽¹⁾ وانطلاقاً من إيمان الإبراهيمي بقدسية الرسالة التي يحملها الشباب الجزائري على عاتقه، ونظراً للدور التاريخي المميز الذي كان يعدّه لأدائه، كان

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 216، 217.

(2) المصدر نفسه، ص 219.

حريصا على حمايته من جميع ما يعرض له من التيارات الهدامة أو الأفكار الغازية، لذلك وقف من الحضارة الغربية موقفا حارما، لأنها تشكل الشباب في دينه وعقيدته، وتنتشر في أوساطه الإباحية والانحلال الخلقي، وحذره من الاندفاع مع تيارها، والسقوط في رذائلها، وأرشدته إلى المبالغة في تحميم ما يرد إليه منها، فيقتصر على اقتباس العلوم النافعة والخبرات الإنسانية المفيدة دون أن يتعدى ذلك إلى ما يمس ثوابته الحضارية - لذلك نجده يصور الشباب الجزائري المثالي في قوله: « أتمثله برا بالبداوة التي أخرجت من أجداده أبطالا، مرورا عن الحضارة التي (رمته بقشورها)، فأرخت أعصابه، وأنتت شعائله، وخنثت طباعه، وقيدته بخيوط الوهم، ومجت في تبعه الطاهر السموم، وأدهنت منه ما يذهب القفص من الأسد من بأس وصوله »⁽¹⁾

وننتهي في حديثنا عن الشباب إلى القول بأن الإبراهيمي كرس حياته العلمية والعملية لخدمة الشباب الجزائري معلما ومحاضرا وخطيبا ومرشدا وناصحا، وقد فعل ذلك عن وعي وبصيرة وإيمان ثابت، وأسهم مع إخوانه العلماء في إعداد الأجيال إعدادا متكاملا روحيا وعقليا وخلقيا وسياسيا. وهي الأجيال التي أشعلت قتيل الثورة الجزائرية المباركة، وسجلت أسرى البطولة والفداء، والتضحية. وقد أتت جهوده ثمراتها الطيبة بنيل الجزائر لاستقلالها

رابعا الدعوة إلى الوحدة الاجتماعية

ومما لا شك فيه أن اهتمام الإبراهيمي البالغ بقضايا المجتمع الجزائري التي أسلفنا الحديث عنها، وحرصه الكبير على معالجة أمراضه، والقضاء على المظاهر السلبية التي تعوق نهوضه، وتكرس تخلفه، كان تعبيرا حيا عن أمله في إيجاد

(1) الإبراهيمي - ميون المصائر - ص 98

مجتمع نظيف ومتقدم، متحد المشارب والاتجاه، الأهداف، ليمكن من مبارزة عدوه، ومناجزته في الميدان من موقع قوي، وبروح عالية من الشجاعة والصبر والإصرار، والإيمان العميق بعدالة القضية

وفي هذا الإطار دعا بالحاج إلى ضرورة الوحدة الاجتماعية بين الجزائريين، وحارب كل أنواع الفرقة التي كانت تعصف بالمجتمع الجزائري فتريد من الأمة، وتعرقل جهود المخلصين الذين يسعون إلى لد الشمال، أرض الصفوف، وإشاعة مشاعر الحب والألفة والتضامن بين أفراد الشعب، وكان يعلم أن الاستعمار هو الذي يقف وراء هذه المظاهر بالإيعاز مرة وبالشجيع مرة أخرى، وبإثارتها عمدا مرات ومرات، ليلهي الجزائريين ببعضهم بعضا، وتفرد هو إلى تنفيذ المشروع الاستعماري الذي يهدف من وراءه إلى تثبيت الكيان الجزائري وثبت وجوده في البلاد إلى الأبد

وقد استطاع الإبراهيمي، من خلال معاشته اليومية للشعب الجزائري، أن يدرك الأثر السلبي الذي تمخض عن مظاهر التفرق التي ماقت، الاستعمار يرميها وينفخ في جذوتها كلما خنا سعيها وحقت لهيها فلم يكن بدع مناسبة تمردون أن يذكر بضرورة نبذ الخلافات، وتجاوز المصالح الخاصة في سبيل تعزيز الوحدة في المجتمع الجزائري، وتجنيد جميع القوى الوطنية في اتجاه واحد هو مقاومة الاستعمار وإبطال كيده « لا يمارى في لزوم الاتحاد إلا قصير النظر في العواقب، أو خادم لركاب الاستعمار من حيث يدري أو لا يدري، أو مدخول النسب في الوطنية، أو مغطى البصر في العصبية الحزبية، أو سيء العقيدة في الإسلام والعروبة، أو متهم في إخلاصه لهما، نقول هذا بكل صراحة لأننا نعتقد أن... »⁽¹⁾

(1) الإبراهيمي، عبور المصائر، ص 337 - 338

كما كان يؤكد دائما على الثمرات الطيبة للاتحاد . « يذكر آثاره الحسنة في الأمم التي سعت إليه فسعدت، وحققت أمنيته في الحياة الحرة الكريمة، ويطالب أصحاب الرأي، وقادة الحركة الوطنية في الجزائر أن يضعوا هذه الحقيقة نصب أعينهم ليتمكنوا من تجاوز نقاط الخلاف بينهم حتى يدفعوا القضية الجزائرية في سبيل النجاح: « كل مسلم عربي جزائري مخلص يؤيدا في الدعوة إلى هذا الاتحاد، ويود منه مانود، ويعتقد فيه ما يعتقد من أنه المعقل الوحيد للقضية الجزائرية، والوسيلة الوحيدة لنجاحها . ويرى ما يرى من آثار هذا التفريق الشيعي الذي شنت شمل هذه الأمة الضعيفة فزادها ضعفا على ضعف في وقت نطلعت فيه إلى المطالبة بحقها، فهي فيه أحوج ما تكون إلى جمع القوى والنظام الشمل واتحاد الكلمة »⁽¹⁾.

وهو يستمد اقتناعه هذا من واقع تجربته الحية كما يستمدّه من الإسلام الذي يبني عليه مبدأه في الحياة، حيث أن الوحدة مبدأ هام رفعه القرآن وقررتة السنة القولية، وأكدته وطبقته السنة الفعلية في كثير من المناسبات، فقال تعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . وقد كان الإسلام عامل توحيد للعرب الذين شنتهم النزعات القبلية، ثم عامل توحيد للأمم التي دخلت تحت رايته، فغرب بين نزعاتها وأهوائها، ووجهها وجهة واحدة كما قرر القرآن الكريم ، فأسقط بذلك الاعتبارات الجنسية والإقليمية التي كانت تتكفل حولها وجعل ولاعها لله وحده .

لذلك اعتقد الإبراهيمي جازما أن الإسلام دين الوحدة والاتحاد، الكفيل بالقضاء على كل عوامل التفريق التي تمرق أوصال البشرية « هذا هو الإسلام متجليا في آيات القرآن دين واحد جاء به نبي واحد عن إله واحد وما ظنك بدين

(1) الإبراهيمي . عين الصائر ص ١١٢

(2) الأنبياء ص ٩١

تحفة الوحدة من جميع جهاته : ليس حقيقيا أن يسوق العالم إلى عمل واحد وغاية واحدة واتجاه واحد على السبيل الجامعة من عقائده وأدابه : ليس حقيقيا أن يجمع القلوب التي فرقت بينها الأهواء، والنفوس التي ماعدت بينها التفرعات، والعقول التي فرق بينها تفاوت الاستعداد، بل والله إنه لحقيق بكل ذلك .

كما أمن أيضا أنه الملجأ الوحيد الذي يمكن أن يجد عنده المسلمون إذا اختلفوا البسلم الشافعي الذي يجمع القلوب، ويؤلف النفوس، ويقضي على الوطنيات الضيقة والعصبيات القبلية، ويفتح لهم آفاقا أرحب يلتفتون عندها : أي شباب الإسلام إن الأوطان تجمع الأبدان، وإن اللغات تجمع الألسنة، وإنما الذي يجمع الأرواح ويؤلفها ويصل بين نكرات القلوب فيعرفها هو الدين، فلا تلتمسوا الوحدة في الآفاق الضيقة، ولكن التمسوها في الدين والتمسوها في القرآن تجدوا الأفق أوسع، والدار أجمع، والعديد أكثر، والقوي أوفر .

لذلك، دعا الجزائريين إلى الالتفات حول الإسلام والعروبة - اللذان هما عامل مشترك يجمع بين كل الجزائريين - واتخاذهما أساسا يتم بموجبيهما الإتحاد بينهم، لأنهم لا يختلفون فيهما كما يختلفون في الانتماءات الجهوية والعصبيات القبلية والولاءات الحزبية وغيرها . واتخذنا من الإسلام والعروبة الجزائرية محورا للدعوة إلى الإتحاد، ومونا نسوق إليه المتفرقين من أهله، لا تحريكا للعصبيات الدينية أو الجنسية، ولكن لأنها الجوامع الطبيعية لرجالنا العاملين، والصفات التي تربطهم بالامة، والأصول التي انتمت لهم الامة على المطالبة بحقوقها فيها، ولأن الاستعمار إنما يسومنا الحسف والظلم لأجل هذه الثلاثة ويغالينا عليها منذ قرن وثيف ⁽¹⁾ .

(1) الإبراهيمي : آثار الشيخ محمد النشير الإبراهيمي - ج 1 - ص 91

(2) المصدر نفسه، ج 1 - ص 93

(3) الإبراهيمي : عجائب البصائر - ص 116

وقد كان المجمع الجزائري - في حال الاحتلال - يشهد أشكالاً عديدة من التفرق والخلاف التي كرست بمرور وعديد من العداوة بين أيدائه بفعل عوامل شتى، يرجع معظمها إن لم نقل كلها إلى الواقع الاستعماري المظلم وسنكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاثة مظاهر هامة بطرق إليها إبراهيمي، وبحالها في إطار دعونه إلى الوحدة الاجتماعية للشعب الجزائري، ومنها الطرق الصوفية المنحرفة التي كانت تغذي ظاهرة التفرق بما كانت تربي عليه مرشديها من النظرة الأحادية الضيقة التي يقدس شيخ الطريقة، ورفض ما عداه، وفحصا بمرور الجهل الذي قد يصل بصاحبه إلى تكفير من يخالفه في الطريقة، ومفاديه، والتمادي في معاداته وبغضه، ومنها أيضاً نشاط الأحزاب الجزائرية التي كانت تعتمد على الجماهير الشعبية في معاركها الانتخابية، والتي غالباً ما تلجأ في كسب الأنصار إلى مهاجمة بعضها بعضاً، والتكيب مضامينها على من يخالفها الرأي، ونسفيها أرائها والزواجة برعائنها، فكان الشعب يفرق على أثر الدعايات الانتخابية فرقاً شتى، كل فرقة تناصر حزباً معيناً، وتنحصب لرعيه، وبغادي غيره، وكان هناك أخيراً، الروح الجبوية والنزعة القبلية التي تقوم على العصبة العمام للعشيرة ومحاباتها في الحق والباطل

أما الطرق الصوفية، فقد ابهمها إبراهيمي - في إطار الحرب الواسعة التي شنها عليها - بأنها كانت عوناً للمستعمر على تفريق كلمة الشعب، ونشيتيه وتمزيق وحدته، بما نشرت في أوساطه من خرافات وأوهام واعتقادات منحرفة، تربط المنتسب إليها بشيخه ربطاً محكماً، وتلقي في روعه أن طريقته هي الدين الحق والصراط المستقيم الذي ينال به سعادة الدنيا والآخرة، وما عداها باطل وزيف، فيتولد عن هذا الاعتقاد السقيم تعصب لطريقته وشيخه ومعاداته لكل مسلم لم يحذ حذوه ولم يسلك سبيله

فإذا علمنا بعد ذلك أن الحرير كثر بعد فتح بالطرق الصوفية المختلفة، أدركنا مبلغ الضرر الذي ألحقته بالوحدة الاجتماعية للشعب الجزائري الذي أراد من وطأة نسلطها عليه جهله وغفلته يقول إبراهيمي رداً على رجال الطرق الذين اتهموا جمعية العلماء بأنها فرقته الأمة. بعد أن أتم الإصلاح، وبدأ الناس ينفضون من حول الشيوخ المستعدة - ليت شعري متى كانت هذه الأمة محممة حتى يقول قائل إن الجمعية فرقته - وأنى لها أن تجمع -، إن أمامها في كل طريق ناعقا تنعق باسم طريق ويدعو إلى التفريق - أم كيف تجمع والشيوخ قد قسموها إلى مناطق نفوذ، وأحاط كل شيخ ومجته بأسوار مبنية من التعصب والرهيب، كيف تجمع وأساء كل طريقة يعتقدون أنهم أهدي سبيلاً من ألسنة بقية الطرق وأن طريقتهم تضمن لسالكها العسى في الدنيا وحسن الخاتمة عند الموت وإن قتل النفس التي حرم الله بغير حق - أم كيف تجمع وفهم من يرى من واجبات طريقتهم ومن شروط المحافظة عليها أن لا يصلى خلف طريقي آخر بخالفه في الطريقة وإن اشترك في لقب الإسلام .

وأما الأحزاب الجزائرية، فقد كان جهاد الإبراهيمي، في سبيل التقريب بين رعمائها، طويلاً وشاقاً حيث أشار في مواضع عديدة إلى مساعيه الحثيثة التي ما فتى، يبذلها في سبيل تلطيف الخلاف الذي كان مستعراً بين الأحزاب، وتقريب وجهات النظر بينها - دعونا بالقلم مرات أحزابنا السياسية الجزائرية إلى الاتحاد، وبيننا لهم ما يجهلونه من ثمراته وفوائده، ودعونا إليه باللسان في مجالس لا تحصى، نوعنا فيها العبارات، وشرحنا الأسباب الداعية إليه من واقعة ومتوقعة، وخاطبنا بذلك جماعة من المسؤولين ونوي الرأي من أحزابنا وتلفنا في التحيل،

(١) الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد الشرير الإبراهيمي - ج ١ - ص ١٠١

فاحترنا للدعوة كثيرا من المناسبات التي سمعنا معها الدخول إلى النفوس الفائرة،
والتأثير على العواطف الفائرة، والتعبث على الترمكات الحادة .

وفي هذا الإضرار بغير لهم الآثار السلبية والعميقة التي تتركها الدعايات
الاستخباراتية من فرقة وبغضا، في الحزائيريين، سبب ما يصحبها من شتم وسباب
وبعض لحزب دون آخر، فدخل الأحزاب إلى الاستخبارات - تصحبها دعايات يلعب
بعضها بعضها، ولا ينتهي حتى يقطع ما بقي من أوصال هذه الأمة الضعيفة، وتأتي
على ما بقي من شجاج القوم، وصلوات الأعداء، ثم يترك بعدها تيرانا من العداوة
لا يطفئها ماء البحر، وينتهي من الحزازات، لأصعب لا يمحوها كبر الرمن، ونصكر
الأخ ينظر إلى أخيه، وكأنما ينظر إلى قاتله .

كما حاول أن يقنعهم بالدخول إلى الاستخبارات بقائمة واحدة تضمن لهم تكتلا
معتبرا في مواجهة التكلل الاستعماري، ودعاهم إلى توحيد برنامج العمل على
أساس المصلحة الوطنية العليا فقط، ينههم إلى أن الاتحاد لا يعني ذوبان الأحزاب
في بعضها، وهو ما كان يرفضه الرعماء السياسيون، وإنما هو تعاون على الخير
العام وانفاق على خدمة القضايا المصيرية التي تهتم الأمة . « ووجدنا بعضكم لا يفهم
من الاتحاد إلا أن يكون اندماجا وإلحاقا، لا كما يفهمه الناس من حفظ كل حزب
لكيان، والاتحاد والتعاون على مافيه مصلحة الوطن » .

وقد ظل توحيد الأحزاب على هدف واحد، ويكنيل جهودها في اتجاه
المصلحة الوطنية هاجس الإبراهيمي طوال الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية
وسبقت اندلاع الحرب التحريرية . وعلى الرغم مما كانت تبوء به مساعي المتكررة

(1) الإبراهيمي : ميون المنائر ، ص 336

(2) المصدر نفسه ، ص 333

(3) المصدر نفسه ، ص 335

من فشل بسبب صراخ كل حزب على وجهة نظره إلا أنه لم ينس. وظل الأمل قائما في يوم بقي. فله وعمد الأحرار الجزائرية إلى الرشيد، ويدركون معنى الوحدة وثمراتها يقول إبراهيمي مشير إلى جهود جمعية العلماء التي كان رئيسها - في سبيل توحيد الأحرار - وهي - وإن لم تصل إلى غايتها من جمع الكلمة - لم تناس من ذلك ولم تفشل، وما زالت تفرض الفرض لتحديد السعي في جمع الكلمة على الحق، وتوحيد الأحرار على المصلحة العامة للوطن، وهي تعتقد أن الاتحاد الذي يشهده الأمة، نقطة انطلاق على خدمة العلماء في تحقيقه إذا لم يسم اليوم فسيتم غدا.

وتبقى أخيرا محاربة الروح الجهوية، والعصبة القبلية التي نشأت عن ضعف الرابطة الدينية، وانتشار الجهل، وبه البرقة العشائرية، وقد نشط الاستعمار نشاطا كبيرا في سبيل تشجيعها، وتقويتها بشتى الطرق، والوسائل، وكان للإبراهيمي في هذا المضمار جولات موفقة تمكنت في محال الصلح الكثيرة التي كان يسارع إلى عقدها، كلما انتهى إلى علمه أن مراعاة شتى بين شخصين معروفين أو عائلتين أو قبيلتين، حتى يفوت الفرصة على المستعمر، وثبتت الروابط الدينية والوطنية بين الجزائريين بتصفية النفوس من الأضغان والأحقاد، وما من عداوة تقع بين قبيلتين أو فردين إلا وأحضر بنفسه، وأرم الصلح بينهما، وأرغم الاستعمار الذي من همه بث الفتنة، وإغراء العداوة والبغضاء بين الناس، فكانت معطلا لتدبيراته في جميع الميادين⁽¹⁾

ولعل أبرز حادثة تحسب للإبراهيمي في سجل مفاخره، مساعيه الموفقة للإصلاح بين قبيلتي الكراغلة والحضر، وهما العنصران اللذان يتكون منهما سكان

(1) الإبراهيمي - آثار محمد النضر الإبراهيمي - ج 1 - ص 80 - 81

(2) الإبراهيمي - أنا و الثقافة - ج 87 - ص 29

المسار، وقد مر على عداوتيهما عقود طويلة. بدأت منذ العهد التركي، وعمل الاستعمار بعد ذلك على تثبيتها واستمرارها، وأدى الله لهذه العداوة المستحكمة أن تنتهي على يد الإبراهيمي، وأن تبدأ القليلتان صفحة جديدة من تاريخهما قوامها الأخوة في الدين والوطن، والتعاون المثمر، والتضامن في السراء والضراء، وقد أشار الإبراهيمي إلى هذه الحادثة، في سياق تعليقه على رسالة أحد قراء البصائر الذي حثه على مضاعفة المساعي لتوحيد الأحرار الجزائرية وأكد له أن الأمة تعلق هذا الأمل عليه وعلى الجمعية فقال : « وأما تعليق الأمل بكاتب هذه السطور وجمعية العلماء فهو في محله، لأن الكاتب خلق لذلك، وعمل لذلك، وأنفق عمره في ذلك، وحل أصعب عقده عقدها الاستعمار، فجمع الكراغلة والحضر، على ما جمع عليه الإسلام ربيعة ومضر ».

ويدخل في هذا الإطار أيضا، جهوده الكبيرة للتوحيد بين العرب والبربر، فقد كان التفريق بين العرب والبربر من بين القضايا الأساسية التي راهن عليها الاستعمار لإحداث شرخ عميق في جدار الوحدة الاجتماعية الجزائرية، حيث بذل أقطابه جهودا مضنية لإنجاحها، وبدأت بوادر هذه المؤامرة الكبرى تظهر منذ سنوات الاحتلال الأولى، عندما تدفقت الرسائل التبشيرية على المناطق ذات الأغلبية الأمازيغية، وحرم تعليم العربية بها تحريما تاما، وقضي على نظام القضاء الإسلامي، وحاولت البعثات العلمية العميلة والمأجورة أن تكرر هذه التفرقة بمزاعم تاريخية باطلة وحجج راقدة .

وقد أكد الإبراهيمي في كتاباته، التي كانت حربا على هذه المؤامرات الخبيثة، على وشائج القربى وصلات الدم الوثيقة التي ربطت بين العرب والبربر طوال ثلاثة

(1) الإبراهيمي . هيون البصائر . ص 448

عشر قرناً من احتلاله الحبشيين بالمصاهرة - كما ساء بالفصح الإسلامي العادل
للتشمال الإفريقي - الذي حمل معه الذين الحق ، الرحمة والمساواة ، التسامح والعلم ،
فخلص البربر من ظلم الرومان وحسروهم - « كذب وقبح كل من يسمى الفصح
الإسلامي استعماراً ، وإنما هو راحة لهم من الهم الناصب ، رحمة من العذاب
الناصب ، ويصاف للبربر من الحور الروماني الغبيص -

وقد أقبل المؤبر على من الله مدخل من فيه أقواحا عن رضى وطواعية ،
وامرحوا بالعصر العربي امراحا كثيرا ، شئت عن ذلك أحيال ندى في ولانها
للغربية والإسلام ، يدل على ذلك الدول التي قامت بعد الفصح ، وكان مؤسسوها
ينتمون إلى قبائل عريقة في النسبة البربرية إلا أنها كانت عربية الصيغة ، إسلامية
التوجه - فالدول التي قامت فيها كاللموسنة والرسممة والموحدية والصنهاحية
والبرينية والربانية - ليس لها من البربرية إلا النسبة العرقية ، وهي فيما عدا ذلك
عربية صميمية عربية في الضروريات المقيمة للدولة ، كوظائف القلم من إدارية
ومالية ، ووظائف القضاء من عقد وسجلات ، وعربية في الكماليات التي تقتضيها
الحضارة والترف ، كالغناء والموسيقى والشعر -

وفي ضوء ذلك ، يرى الإبراهيمي أن هذه الشجرة الخبيثة التي غرسها
الاستعمار ليفرق بين العرب والبربر ، وظل ينهدها بالسيف ، سوف تقتلعها الإرادات
الوطنية القوية التي تؤمن بالناريخ المشترك الذي صهر العرب والبربر في بوتقة
واحدة من الآلام والأمال طوال قرون عديدة ، وأكد للاستعمار أن ما جمعه يد الله
لا تفرقه يد الشيطان « إن القبائل مسلمون عرب ، كتابهم القرآن يقرؤونه بالعربية ،

(1) الإبراهيمي ، عن المصادر - ص 190

(2) المصدر نفسه - ص 221

(3) المصدر نفسه - ص 223

ولا يحرصون بدسهم، ولا يلغونه بدلا، ولكن الطالب لا يغفلون

ويخلص من كل ذلك إلى القول بأن الإبراهيمي كان شديد الحرص على الوحدة الاجتماعية للشعب الجزائري، وقد تجلّى ذلك في صرخات الإنذار والتحذير التي كان يطلقها في كتاباته، وفي الحجاج التي كان يسوقها للمعتارين على خطورة تمزق الصف، وعواقب الخلاف الذي عالما ما يقضي إلى العداوة والبغضاء، بين أبناء الوطن الواحد، كما تجلّى في مساعيه العملية الدائمة لأب الصدق، وتقريب وجهات النظر، وإقامة مجالس الصلح، ونظمت الحوامير، وتهذبه النفوس الفاضلة، وكشف المخططات الاستعمارية، والعمل على إحباطها وإفشال نوايرها، في سبيل أن يلتقي الجزائريون جميعا في صعيد واحد، بعدد هم أمل واحد، وتسيرهم نحو الخير وإرادة واحدة

وبعد، فهذه إشارات سريعة إلى جهود الإبراهيمي التفسيرية في المجال الاجتماعي، ومن خلالها تلمح أحفاله بالأسرة التي هي نواة المجتمع، وتنبيهه المكرر لقيمتها المتميزة في الحياة الاجتماعية، وتأثيرها العميق في الأمة سلبا وإيجابا، وسعيه إلى تنقيتها من الآفات التي تفسد عليها مهمتها الحضارية، وتحرفها عن أداء واجبها الرسالي كما تنبئ مدى اهتمامه بقضية تحرير المرأة، وحرصه على وضع هذه القضية في إطارها الحقيقي، وحدودها الشرعية التي لا تخل بالوظيفة الطبيعية للمرأة ولا تحرمها من حقوقها وحريتها المعقولة من جهة أخرى وفيها أيضا حديث عن الشباب الذي هو دخر الأمة وأملها المشرق الذي يجب أن توليه قسما وأفرا من الرعاية والاهتمام، ليكون في مستوى التحديات، وليتمكن من تحمل مسؤولية الحفاظ على الوطن بكل جدارة، وفيها أخيرا، دعوة حارة وصادقة،

(1) الإبراهيمي، عيون الصائر، ص 223

ومساعٍ عملية ودائمة لتوحيد الصف العربي وسد كل أمة في الغربة والخلاف
المميت الذي يقبل الروح الوطنية، ويرزع مشاعر الحقد والبغضاء.
ولعل هذه المحاور الأساسية التي دار حولها فكر الإبراهيمي الاجتماعي
تعطينا صورة واضحة عن المساعي دائمة مشروع التعبير، شمولية وعمقه، كما
توحي في الوقت ذاته إلى سمو أهدافه، وشرف غايته التي كانت ترمي إلى إيقاظ
أمة وبعثها بعثاً جديداً، ونوعيتها بذاتها لتقرر مصيرها بنفسها

خاتمة

جامعة الأمير
عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبعد فهذه درسه حدوث من خلالها للكشف عن الأسس النظرية لمنهج التفسير عند الإبراهيمي، ونكتسي في حاتمها أن نشير إلى مجموعة من النتائج المهمة التي توصلت إليها بعد البحث والاستقصاء، وسنوجزها فيما يلي:

- أن الإطار المرجعي يشكل أهمية بالغة في عملية التفسير، وأنه لا يمكن إحداث أي تغيير في المجتمع بدون الحسم فيه، وإقامته علاقة سليمة معه، وأن الإسلام بحث أن يكون هو الإطار المرجعي الذي ينطلق منه الحركات التجديدية لتغيير المجتمعات الإسلامية، ذلك لابد من الاحتكام إلى الكتاب والسنة في جميع مجالات الحياة الدينية، والفنية، السياسية، الاجتماعية، من خلال فهم سليم لتخصصيهما، وتطبيق واقع لهما على أرض الواقع، مما يستلزم بالضرورة العودة الحية والمباشرة إلى مصادر الوعي، وتجاوز الاجتهادات البشرية المتراكمة عبر العصور

- أن استيعاب مكونات الواقع الأساسي بنفسه الفطري والمعيش، وإدراك أبعاده، والإحاطة بالتركيبية النفسية والاجتماعية للأفراد والمجتمع، خطوة حاسمة يجب أن تسبق كل عملية تفسيرية لأن جهل هذا الواقع أو تجاهله سيؤدي حتما إلى الفشل الذريع لعملية التفسير، كما حدث لكثير من الحركات التفسيرية التي جهلت واقعها في العالم الإسلامي وإدراك الإبراهيمي لهذا الأساس، جعله يفوق في أعماق المجتمع الجزائري، وينخرط فيه إلى أبعد الحدود، يستجلي خفاياه، ويستكشف علله وأمراضه، ويقف على سلوكاته وتصرفاته، ليتمكن من تحديد طرق العلاج، وأساليب التغيير الملائمة.

- أن قيام منهج التفسير على أساس الإسلام لا يعني بالضرورة الانغلاق على الذات والتفوق عليها، بل لابد من الانفتاح الحضاري على الكسب العالمي،

والخبرة الإنسانية للاستفادة منها، وخاصة في الحداثة العلمية التقنية التي هي عبارة عن مشترك إنساني عام يصف بالحداثة، وكما أن الانفلاق على الذات يؤدي إلى العزلة القاتلة والموت البطيء. كذلك الانفصاح المصور الذي لا يراعي خصوصية الأمة الحضارية يؤدي إلى السقوط في استيراد الجوانب الثقافية والأخلاقية والإيديولوجية التي تعارض مع عقيدة الأمة وموروثها الثقافي.

وفي هذا الإطار حدد الأبراهيمي موقعة من الحضارة الغربية، فلم يرفض اقتباس الحداثة العلمية التقنية، لكن استيراد الغايات العامة منها، ولكنه عارض بشدة استيراد القيم الأخلاقية الهابطة للإنسان الغربي، أسلوبه في الحياة الذي يقوم على الفلسفة المادية.

- أن أي تجربة للتغيير تسعى إلى تحقيق أهدافها، ينبغي أن تنطلق من الإنسان باعتبارها وسيلة وغاية في المشروع الحضاري وأنه العنصر الجوهرية في العملية التغييرية، وصانع التاريخ، المحرك الأساسي للمجتمع، وأن إغفال إعداد الإنسان لممارسة التغيير يجعل العملية التغييرية شكلا أجوفاً بدون مضمون مفيد، لأن التجارب الإنسانية، أثبتت أن سبي نظرية التربية الشاملة للفرد كانت ثابتة في كل العمليات التغييرية الناجحة، لذلك انصبت جهود الإبراهيمي النظرية والعملية على إعادة تشكيل الإنسان الجزائري، وتربيته تربية متكاملة حتى يستطيع أن يكون أداة فعالة من أدوات التغيير.

- أن أي جهد تغييرى ينبغي أن يستفيد من عامل الزمن أقصى استفادة، وأن يتحرك في اللحظات التاريخية المناسبة والحاسمة لإنجاز المشاريع الكبرى، وأن يستغل الوقت استغلالاً أمثلًا، بشرط أن لا يحرق المراحل، وأن يعتبر الزمن جزءاً هاماً لعلاج كثير من المشكلات المستعصية. وقد كانت المرحلة الزمنية

القصيرة التي حاض خلالها إلا أن حمى بحرية التغيير الإسلامي في الجزائر حافلة بالإنجازات الكبرى والأعمال الجليلة التي تمكنت من انتشار أمة من هاوية الانتشار الذي كان يتهددها، ولعل من أقوى عوامل نجاحها حسن استغلال عامل الزمن، الذي اعتمد فيه على الجهد المخطط المستمر، والسير الطبيعي نحو الهدف المنشود، وعدم استعجال السمات لإدراكه أن الزمن دوره الأساسي في إضمار عملية التغيير، وتحقيق نتائج مهمة.

- أن أي منهج للتغيير لابد له من وضع برنامج عملي واضح كواحي فيه منطق الأولويات وخطبة المراحل، حتى يتحرك على أرض صلبة، محددة المعالم، بيبة القسمات، ليتحاشى الارتجالية والفوضى، وأن درس الواقع لضبط التحديات الذاتية والموضوعية، الداخلية والخارجية التي تشكل عوائق أمام حركات التغيير لينمكن من تحديد أساليب وطرق المواجهة للطلب عليها والتخلص منها.

- أن أي منهج للتغيير ينبغي أن يتصف بمجموعة من الخصائص والمميزات التي تضبط مساره وتحدد وجهته حتى لا يتحرف عن مرجعيته الفكرية، ومن أهم هذه الخصائص في نظر الإبراهيمي الواقعية الثورية، الشمولية، الانفتاحية، المبدئية، سياسة النفس الطويل، الاهتمام بالقضايا بدل الأشخاص، واللامذهبية.

- أن منهج التغيير لكي يبنى مساره، يحقق أهدافه، لابد له من مراعاة جملة من الشروط الموضوعية، والقواعد الأساسية، والتي حددها الإبراهيمي ب العمل الجماعي المنظم، ومراعاة المعادلة الاجتماعية للأمة، والنزاهة التدرج والمرحلية، ومراعاة السنن الاجتماعية، وإشراك الجماهير في التغيير. وهذه القواعد والشروط لا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال أو تجاهلها، وإلا ترتب عن ذلك إخفاق شديد للعملية التغييرية.

- أن أي منهج للتغيير ينبغي أن يرسم مجموعة من الأهداف والغايات والمقاصد التي يسعى إلى تحقيقها، وهي تنقسم إلى أهداف مرحلية وأخرى إستراتيجية. ولكي يحقق أهدافه لابد له من وجود مجموعة من الوسائل والأساليب من أهمها عند الإبراهيمي مابلي بناء المساحد، وإنشاء المدارس، وإصدار الصحف، وتكوين النوادي الثقافية، ونشر الكتب، وإنشاء المطابع، وإقامة الاحتفالات، وتأسيس الجمعيات، وتغيير الأعراس الضرورية لإجبار مشاريع التغيير.

- أن محالات التغيير عند الإبراهيمي متنوعة ومتعددة وشاملة، فهو لم ينظر إلى التغيير نظرة جزئية ضيقة تحصره في دائرة معينة كالمجال الديني أو الثقافي أو السياسي فقط بل كان يصوره للحدرة التفسيرية تصورا شاملا، ولعل هذه النظرة الشمولية إلى العملية التغييرية تدل على استفادته من التجارب الإسلامية السابقة التي كانت تركز على جانب دون آخر، كحصر محاولات التغيير في الجانب السياسي، أو الاقتصار على إصلاح العقيدة فقط، أو التركيز على الإصلاح الاجتماعي دون غيره.

- أن المجال الديني بشكل جاسا هاما من جوانب التغيير عند الإبراهيمي، حيث أكد في هذا المضممار على ضرورة فهم الإسلام فهما صحيحا، وتقديمه للناس في صورة حسنة مشرقة، تعيد إليه فعاليتيه الاجتماعية كما دعا وعمل على تجديد الدين وإحيائه بتطهير العقيدة من البدع والخرافات وإحياء الفقه الإسلامي بالثورة على الجمود والتقليد والتعصب المذهبي، والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد لمسايرة التطور البشري، ومحاربة الطرق الصوفية المنحرفة التي شوهت حقيقة الإسلام وكانت عميلة للاستعمار.

- أن أداء الإبراهيمي التعبير في المجال الثقافي أصبحت حول الدعوة إلى إحياء اللغة العربية، وتتم هذا في أوساط الشبكات الجزائرية عن طريق التعليم العربي الحر، والدفاع عنها ضد المؤامرات الاستعمارية التي كانت تهدف إلى القضاء عليها بفرنسة الجزائر، وشجيع اللهجات البربرية على حسابها

- أن للصحافة دورا خطيرا في عملية التغيير بما لها من سلطة قوية على توجيه الأفكار والتأثير في النفوس ذلك أهم بها الإبراهيمي اهتماما كبيرا، ووضعها لخدمة قضايا العروبة، الإسلام، الوطن، واتخذ منها منبرا حرا لمواجهة الاستعمار ونوعية الشعب بدوره الرسالي

- أن الظروف الاستثنائية الصعبة التي كانت تمر بها الجزائر جعلت الإبراهيمي يبنى معنى خاصا للسياسة، ويمثل في إحياء مقومات الشخصية الوطنية من دين ولغة وتاريخ وجنس، وسعالي عن المفهوم الرسمي الاصطلاحي للسياسة، والذي غالبا ما ينحصر في تأسيس الأحزاب ودخول المعارك الانتخابية

- أن الاهتمام بقضايا الوطن الجزائري كالمؤتمر الإسلامي 1955، وأحداث 8 ماي 1958، والثورة التحريرية 1954، وجهاد الإبراهيمي النظري والعملية من أجلها، يدل دلالة قاطعة على دوره السياسي الخطير في الحركة الوطنية الجزائرية، ويدحض كل الشبهات التي نطعن في دور الإبراهيمي وإخوانه من جمعية العلماء، في الإعداد للثورة، والإسهام في إنجازها، والمشاركة الفعالة في تأجيح نارها

- أن مقاومة الاستعمار والوقوف في وجه دسائسه ومؤامراته ضد الشعب الجزائري، شكلت منهجا قائما بذاته، تحرك من خلاله الإبراهيمي ضد الاستعمار لكشف حقيقته وأهدافه، وفضح وسائله وأساليبه، وأعدائه ورجاله، ورد شبهاته

وكانت هذه لمواجهة عنيفة وشجاعة، صريحة، على الرغم مما لحق إبراهيمي
بسببها من مضايقات

- أن اهتمام إبراهيمي بقضايا المغرب العربي وقضية فلسطين، دليل قاطع
على إيمانه العميق بوحدة المغرب العربي والوحدة الإسلامية، ورفضه للحدود
الوهمية التي وضعها الاستعمار لتقسيم جسم الأمة الإسلامية

- أن الاهتمام بقضايا الأسرة يتم عن دورها الخطير في عملية التغيير،
فالمكانة التي تحتلها - باعتبارها الخلية الحورية في المجتمع - تستدعي الاهتمام
بها وإحاطتها بالعناية اللازمة، والسعي الجاد من أجل حل مشاكلها. كما أن
المرأة هي نصف المجتمع، ولا يمكن إحداث التغيير فيه بدون مشاركتها الواسعة
والفعالة، وأن حصولها على حقوقها الطبيعية يجب أن يتم في إطار المبادئ،
الإسلامية، بعيدا عن التصور الغربي لحرية المرأة

- أن الشباب يمثل قطاعا حسما في الأمة، وأن إهماله يعرض مستقبلها
للخطر، وأن إعداده إعدادا متكاملًا محور هام من محاور التغيير، وضرورة
حضرية تفرضها المكانة المتميزة التي يحتلها الشباب في جسم الأمة

وفي ضوء هذه النتائج التي توصلنا إليها بحق لنا أن نتساءل إلى أي مدى
استطاع إبراهيمي أن يصوغ نظرية تفسيرية متميزة في الفكر الإسلامي
الحديث، أو بعبارة أخرى هل بعد من خلال تجربته الفكرية في مجال التغيير مقلدا
أم مجددا؟

إن قراءة متأنية لهذه النتائج تؤكد لنا أن إبراهيمي كان ثورة عارمة على
كل مظاهر الجمود والتقليد والتبعية والانحراف، وأن جهوده الفكرية قد انصبحت
على نقد الأوضاع المتردية للمجتمع الجزائري نقدا قاسيا، رغبة منه في تغييرها،

والانتقال بالمجتمع إلى مستويات راقية في التفكير والسلوك والفعالية
وتتجلى هذه الثورة بوضوح في الجبهة الداخلية التي حارب فيها التصورات
العقدية الفاسدة، والجمود الفقهي، والانحراف الصوفي، ومظاهر الانهزام النفسي
في الإنسان الجزائري، والآفات الاجتماعية، والجهل والامية وكل أشكال الفرقة
والخلاف بين الجزائريين. وفي الجبهة الخارجية واحه الاستعمار الفرنسي مواجهة
شديدة حول قضايا الإسلام والعروبة والوطنية، وظل - طوال عقود - كالطود
الشامخ غصة في حلق الاحتلال، لا تلبس له فتاة في حرب البقي الاستعماري.
وبذلك لم يستسلم الإبراهيمي لإكراهات الواقع الجزائري وتحدياته، ولم
يهادنه، بل اجتهد من أجل تغييره، وربطه بالقيم الإسلامية في إطار مواكبة
العصر، والأخذ بالأساليب الحديثة، مما يؤكد أن دعوته إلى العودة إلى الأصول لم
تكن تعني إعادة استنساخ الحقيقة النبوية بكل معطياتها، بل هي دعوة إلى
استلهاام الأسس الثابتة منها لبناء الحاضر عليها بروح سلام مع تطورات الحياة
وتساير العصر.

وعلى الرغم من إعجاب الإبراهيمي الكبير ببعض أعلام الفكر الإسلامي
الحديث مثل محمد عبده ومحمد رشيد رضا، وتأثره ببعض أفكارهم التي طرحت
على الساحة الإسلامية، إلا أنه لم يكن صورة طبق الأصل لأي أحد منهم. ولم
يكرر طروحات هذه التجارب الإسلامية، بل حاول أن يجدد ويبدع من خلال تفاعله
مع الواقع الجزائري ومتطلباته، مما أعطى توجهها متميزا وصيغة خاصة لنظريته
في التغيير.

وتظهر عظمتة الفكرية كذلك في قدرته الفائقة على تطبيق الأسس النظرية
لمنهج التغيير على الواقع الجزائري تطبيقا موفقا ونابعا عن فكر جبار، يحسن

التخطيط، ويقدر موضع الخطو قبل السير، مما أثمر تجربة خصبة، بل ورائدة في مجال التغيير في العالم الإسلامي، ومكنه من ترك بصماته الواضحة والعميقة في التاريخ الجزائري الحديث، وفي الحركة الوطنية بشقيها الثقافي والسياسي ونستطيع - في الأخير - أن نقرر بكل ثقة وإطمئنان، أن الإبراهيمي مجدد من كبار المجددين في العالم الإسلامي، بكل ما تحمله كلمة التجديد من معان، وأن آراؤه التي استعرضناها هنا دليل كاف للتأكيد على ذلك، فهي برهان ساطع على عمق رؤيته الفكرية، وعلى أصالتها في ارتباطها بالإسلام، وواقعيتها في ارتباطها بواقع المجتمع الجزائري وروح العصر، وبذلك كان الإبراهيمي ظاهرة مميزة في الفكر الإسلامي الحديث في مجال التغيير الإسلامي وأخيرا فلست أرغم أن ما قدمته عن الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي عمل لا يحتاج إلى زيادة أو تنقيح، بل على العكس من ذلك، فالمجال واسع أمام غيري من الباحثين لإثراء هذا الموضوع، واستجلاء الجوانب الكثيرة التي مازالت خافية من شخصية الإبراهيمي وأعماله العظيمة، فاعمال البشر - مهما بلغت في ميدان البحث من درجة عالية، تفنقر دائما إلى الإضافة والتعديل، وأحمد الله على ما وفقني إليه، فقد كنت يوما أسأله العيون والسداد، وعليه دائما قصد السبيل

فهرس المصادر والمراجع

١ - الكتب

١ - القرآن الكريم

(١)

- الإبراهيمي، د أحمد طالب

١- من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة د حنفي بن عيسى،

ش. و. ن. ت، الجزائر، ط ١، ١٩٨١

- الإبراهيمي، محمد البشير

٢- آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج ١، ش. و. ن. ت، الجزائر، ط ١، ١٩٨٥

٣- آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج ٢، ش. و. ن. ت، الجزائر، ط ١، ١٩٨١

٤- آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج ٣، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر

١٩٨٥

٥- عيون البصائر، ش. و. ن. ت، الجزائر، د ت

٦- في قلب المعركة، جمع وتصدير د أبو القاسم سعد الله، شركة دار الأمة،

الجزائر، ط ١، ١٩٩١

- ابن باديس، عبد الحميد

٧- تفسير ابن باديس في مجالس الذكر من كلام الحكيم الخبير، دار الفكر،

بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٦٩

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد

٨- المقدمة، دار القلم، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨١

- ابن العفون، عبد الرحمن بن إبراهيم

٩- الكفاح القومي والسياسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨١

- ابن العربي، أبو بكر

11 - عارضة الأحوذني شرح صحيح الترمذي، دار العلم للجمع، بيروت،

لبنان، د ت

- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني

12 - صحيح سنن المصطفى، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، د ت

- إسماعيل، د عمر الدين، وآخرون

13 - عبد الحميد بن باديس، سلسلة نواحي العرب، دار العودة بيروت،

لبنان، د ت

- الأنطاكي، محمد

14 - الوجيز في فقه اللغة، مكتبة دار الشروق، بيروت، لبنان، ط 1، د ت

(ب)

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم

15 - صحيح البخاري، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،

د ت

- برغوث، الطيب

16 - التفسير الإسلامي خصائصه وضوابطه، مكتبة رحاب، الجزائر، د ت

17 - الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر،

ط 1، 1985

- بنت الشاطي، د عائشة عبد الرحمن
- 18 - قيم جديدة للآدب العربي القديم والمعاصر، مطبعة النهضة الجديدة،
القاهرة مصر، 1990
- بن عبد الشكور، محب الله
- 19 - فوائح الرحموت لعبد العلي الأنصاري شرح مسلم الثدات، المطبعة
الأميرية، القاهرة، مصر، د.ت
- بن نبي، مالك
- 20 - بين الرشاد والنبه دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1978
- 21 - تأملات دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ت
- 22 - شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا،
د.ت
- 23 - في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1981
- 24 - مذكرات شاهد القرن الطفل، ترجمة مروان القنواقي، دار الفكر،
دمشق، سوريا، 1969
- 25 - ميلاد مجتمع، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ت
- 26 - وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق سوريا، 1981
- البوطي، د. محمد سعيد رمضان
- 27 - السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر، دمشق
سوريا، د.ت
- 28 - فقه السيرة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1980

- بو الصفاق، عبد الكريم

³⁰ - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار البعث، فسنطنة، الجزائر.

ط 1، 1981

(ب)

- التبسي، العربي

³⁰ - مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع وتعليق

أحمد الرفاعي، دار البعث، فسنطنة، الجزائر، ط 1، 1981

- الترابي أليف الدين

³¹ - أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته، دار القلم، الصفاة، الكويت،

ط 1، 1981

- تركي، د. رابع

³² - التعليم القومي والشخصية الوطنية، ش. و. س. ت، الجزائر، 1976

³³ - الشيخ عبد الحميد بن باديس، ش. و. س. ت، الجزائر، ط 1، 1981

(ج)

- جانسون، كوليت وفرانسيس

³⁴ - الجزائر الثائرة، ترجمة محمد علي الشريف، خليل فهمي، هنري

يوسف سردار، دار الهلال، القاهرة، مصر، 1957.

- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

35 - سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الإسلامية، قسنطينة،

الجزائر، ط1، 1938

- الجورشي، صلاح الدين

36 - تجربة في الإصلاح، تونس، ط1، د. ت

- الجوزية، ابن قيم

37 - إعلام الموقعين، راجعه وقدم له وعلق عليه طه عبد الرؤوف، دار الجيل،

بيروت، لبنان، د. ت

38 - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق د. محمد جميل غازي

القاهرة، مصر، 1977

(ج)

- حجازي محمد فهمي

39 - أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، القاهرة، مصر، 1971

- حسين د. محمد محمد

40 - الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت،

لبنان، ط3، 1972

- الحصري ساطع

41 - ماهي القومية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1963

- حمزة عبد اللطيف

17 - مستقبل الصحافة في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة مصر،

ط 1989

- الحوماني، محمد علي

43 - الأصفياء، دار مصر للطباعة، القاهرة مصر، 1987

(ج)

- خرفي، د. صالح

44 - الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984

- خطاب محمود شيت

45 - الرسول القائد، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد، العراق،

ط 2، 1960

46 - المغرب العربي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1978

- الخطيب د. أحمد

47 - الثورة الجزائرية دراسة وتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1987

48 - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المؤسسة الوطنية للكتاب،

الجزائر، 1985

- الخطيب، عمر عودة

49 - المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية، مؤسسة الرسالة،

بيروت، لبنان ط 5، 1980

- خليل د. عماد الدين

٩٠ - حول إعادة تشكيل العقل المسلم، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية

والشؤون الدينية، النوحة، فطر، طاب، ١٩٩٠ هـ

٩١ - العقل المسلم والرؤية الحضارية، دار الهدى، تونس، ٢٠٠٢

- خير الدين، محمد

٩٢ - مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ٢٠٠٢

(د)

- ديوز، محمد علي

٩٣ - أعلام الإصلاح في الجزائر، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط١، ١٩٩١

- الدريني، محمد فتحي، وآخرون

٩٤ - الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات العالم

الإسلامي، مالطة، ط١، ٢٠٠٠

(ر)

- الراجعي مصطفى صادق

٩٥ - تحت راية القرآن، صحاح أصوله، محمد سعيد العريان، دار الكتاب

العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٩٧١

٩٦ - وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢

- رضا محمد رشيد

٩٧ - تاريخ الأستاذ الإمام، مطبعة النهار، القاهرة، مصر، ١٩٧٠

- الركبي، د. عبد الله

٥٨ - تطور النثر الجزائري الحديث: المسألة لهجة للكاتب الجزائري

٥٩ - الشعر الديني الجزائري الحديث: ش. ع. ب. الجزائري، ط ١

(س)

- سافاري، الآن

٦٠ - ثورة الجزائر: ترجمة بحلة، لا. س. دمشق، سوريا، ط ١

- سرحان، د. الأمرداش، ومير كامل

٦١ - المناهج، مكتبة الأجلو، القاهرة، مصر، ط ١

- سعد الله، د. أبو القاسم

٦٢ - الحركة الوطنية الجزائرية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد

البحوث والدراسات العربية، دار باقر للطباعة، القاهرة، مصر، ط ١

- سعيد، جودت

٦٣ - حتى يغيروا ما بأنفسهم، مطبعة ريدنر، ثالث الأنصاري، دمشق،

سوريا، ط ١، ١٩٨١

- سلمان، د. نور

٦٤ - الأدب الجزائري بين الرفض والمحوير، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،

ط ١، ١٩٨١

(س)

- الشاوي، د. توفيق، وآخرون

65 - الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية، تحرير وتقديم عبد الله العفندي.

مكتبة مديبولي، القاهرة، مصر، ط 1، 1981.

- الشرباصي، د. أحمد

66 - موسوعة أخلاق القرآن، دار التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1981.

- شفيق منير

67 - الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، دار البرق للنشر، تونس، 1991.

- شلبي محمد مصطفى

68 - أحكام الأسرة في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان،

ط 1، 1992.

(ط)

- الطالبي، عمار

69 - عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، دار البقعة العربية، بيروت، لبنان،

ط 1، 1992.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير

70 - تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 1988.

71 - جامع البيان في تفسير القرآن، دار الفكر بيروت لبنان، 1978.

- طحان، مصطفى محمد

72 - القيادة في العمل الإسلامي، دار الوثائق، السالمية، الكويت، د.ت.

(ع)

- عباس، فرحات

١ - لبل الاستعمار، ترجمه أبو بكر خدال، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

د ت

- عبده، محمد

٢٥ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، جمع وتقديم محمد عمارة، المؤسسة

العربية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠

- العثيمين، د. عبد الله الصالح

٢٦ - الشيخ محمد بن عبد الوهاب، دار العلوم، الرياض، المملكة العربية

السعودية، د ت

- العسلي، بسام

٢٧ - عبد الحميد بن باديس، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨١

- عطية، د. جمال الدين

٢٨ - البنوك الإسلامية، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية،

الدوحة، قطر، ط١، ٢٠٠٢ هـ

- العلواني، د. طه جابر فياض

٢٩ - أدب الاختلاف في الإسلام، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية

والشؤون الدينية، الدوحة، قطر، ط١، جمادى الأولى ١٤١٠ هـ

- عمارة، د. محمد

٨٠ - الإسلام والمستقبل، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٤

٨١ - الإمام محمد عبده، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨

٨٢ - الغزو الفكري، دار الشروق، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٩

- عمارة، محمد وآخرون

٨٣ - إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات العالم الإسلامي،

مالطة، ط١، ١٩٩١

(ف)

- الفاسي، غلال

٨٤ - الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة النجاح الجديدة الدار

البيضاء، المغرب، ط٥، ١٩٩٣

- فروخ، د. عمر، ود. مصطفى الخالدي

٨٥ - التبشير والاستعمار، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٩٧٣

- فضلاء، محمد الطاهر

٨٦ - الإمام الرائد محمد البشير الإبراهيمي، مطبعة البعث، قسنطينة،

الجزائر، ١٩٦٧

٨٧ - دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر،

ط١، ١٩٨٤

(ق)

- القرضاوي، د. يوسف

٨٨ - التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا، سلسلة الإتحاد الإسلامي العالمي

للمنظمات الطلابية، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ١٩٨٠

- ٩٠ - الحل الإسلامي فريضة وضرورة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٧١.
- الغريثي، د. علي
- ٩١ - التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٨٩.
- قطب، سيد
- ٩٢ - معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، لبنان، د. ت
- قطب، محمد
- ٩٣ - شبهات حول الإسلام، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٢.

(د)

- الكتاني، د. محمد
- ٩٤ - جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي في الفكر القديم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٢.
- الكروي، د. إبراهيم سلمان، و د. عبد التواب شرف الدين
- ٩٥ - المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٤.
- الكعك، عثمان
- ٩٦ - البربر، سلسلة كتاب البعث، الكتاب الخامس، تونس، ط١، ١٩٥٦.

(م)

- الميارك، محمد
٩٧٠ - المجتمع الإسلامي المعاصر، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٥٠
- مجموعة من الباحثين
٩٧١ - الإسلام والمستقبل، اللجنة التحضيرية العليا لمؤتمر القمة الإسلامي الخامس، الكويت، مطابع دار السياسة، الكويت، ١٩٧٨
- مجموعة من المستشرقين
٩٧٥ - دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية
- محبوب، د عباس
٩٧٩ - مشكلات الشباب الحلول المطروحة والحل الإسلامي، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، الدوحة، قطر ط١، ١٤٠٦ هـ
- محمد، عباس
١٠٠١ - البشير الإبراهيمي أديبا، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة بغداد، ١٩٨٣
- المدني، أحمد توفيق
١٠١ - حياة كفاح، ش. و. ن. ت، الجزائر، ط١، ١٩٧٧
- ١٠٢ - كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤
- ١٠٣ - هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٥٦
- المراغي، أحمد مصطفى
١٠٤ - تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت

- المراكشي، محمد صالح
- 105 - تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985
- مرتاض، د. عبد الملك
- 106 - فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983
- 107 - نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ش. و. ن. ت. الجزائر، د. ت
- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري
- 108 - الجامع الصحيح، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د. ت.
- المطيري، منصور زويد
- 109 - الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع، تقديم: عمر عبید حسنة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ط1، 1992
- مهراوي، محمد
- 110 - البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، دار الفكر دمشق سوريا، ط1، 1988
- ميتشل، البروفيسور دينكن
- 111 - معجم علم الاجتماع، ترجمة ومراجعة: د. إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت لبنان، ط2، 1980
- الملي، محمد
- 112 - ابن باديس وعروبة الجزائر، ش. و. ن. ت. الجزائر، ط2، 1980

(د)

- باصير، د محمد

111 - المقالة الصحفية الجزائرية، ش و ن ت، الجزائر، 1978

- التيار، د عبد المجيد

112 - هي فئة الدين فهمما وتزيلا، كتاب الأمة، مطبعة فضالة، الممندية.

المغرب، ط 1، 14، هـ

- الشوي، أبو العباس علي الحسني

113 - ماذا خسّر العالم بانتحاط المسلمين، إصدار الاتحاد الإسلامي العالمي

للمنظمات الطفلية، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، د ت

- نويهض، عادل

114 - معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان،

ط 1، 1989

(هـ)

- الورتلاني، الفضيل

115 - الجزائر انشأته، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة،

الجزائر، د ت

- وزارة الشؤون الدينية الجزائرية

116 - محاضرات الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامي، وهران 1971

ب - المعاجم

- الأصفهاني، الرابع

119 - معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مر عسلي، دار الكتاب

العربي، بيروت، لبنان، د. ت

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد

120 - معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر،

بيروت، لبنان، د. ت

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم

121 - لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د. ت

- الجوهري، إسماعيل بن حماد

122 - الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت،

لبنان، ط2، 1979

- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر

123 - مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1981

- عبد الباقي، محمد فؤاد

124 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، ط2، 1981

- فنتسك، د. أ. ي

125 - مفتاح كنوز السنة، نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء

التراث العربي، بيروت لبنان، 1983

- الفيروز أبادي، جمال الدين محمد بن يعقوب

126 - القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، لبنان، د. ت

- الفيوسي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ

127 - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المكتبة العلمية، بيروت.

لبنان، د. ت

ج - المجلات والجرائد

128 - الأصالة، ع 8، جوان 1972، الجزائر

129 - الإنسان، ع 1، مارس 1990، دار أمان للصحافة والنشر، باريس.

فرنسا

130 - التربية، ع 105، يونيو 1993، الدوحة قطر

131 - الثقافة، ع 21، جوان، جويلية 1974، الجزائر

ع 11 فيفري - مارس 1973، الجزائر

ع 30، ديسمبر - جانفي 1976، الجزائر

ع 34، أوت سبتمبر 1976، الجزائر

ع 87 ماي - جوان 1985، الجزائر

ع 96، نوفمبر - ديسمبر 1986، الجزائر

132 - رسالة الجهاد، ع 86، مارس 1990، مالطة

133 - الشهاب، ع 49، 23 أوت 1926، قسنطينة

مج 10، ج 9 أوت 1934

مج 11، ج 10، أفريل 1935

مج 12، ج 1، أفريل 1936

134 - الفكر العربي المعاصر - ع 17، كانون الأول 1981، كانون الثاني

بيروت، لبنان.

135 - المنار، مج 5، ج 8، 22 جويلية 1962، القاهرة، مصر

136 - المنطلق، ع 62، كانون الثاني 1990، الغبيري، لبنان

137 - الإصلاح، ع 7، 7 نوفمبر 1929، بسكرة

138 - البصائر، ع 103، 1950، الجزائر

ع 95، 14 جانفي 1938

14 جوان 1938

ع 48، 29 أكتوبر 1937

139 - المنتقد، ع 13، 24 سبتمبر 1925، قسنطينة.

140 - وادي ميزاب، ع 42، جويلية 1927، الجزائر.